الإغــواء الأخير.... للمسيـح

نيكوس كازنتـزاكيـس

رواية....

الإغواء الأخير للمسيح

نيكوس كازنتزاكيس

***

ترجمة : نسيم واكيم يازجي

الإغواء الأخير للمسيح / رواية/

نيكوس كازنتزاكيس

ترجمة: نسيم واكيم يازجي

سنة الطباعة: 2011م.

عدد النسخ: 1000 نسخة.

الترميز الدولي (ISBN): 8-37-439-9933-978

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: 0963 11 5627060

تلفاكس: 0963 11 5632860

ص. ب: 259 جرمانا

الإغواء الأخير....

نيكوس كازنتزاكيس واحد من ألمع كتاب الأدب اليوناني المعاصر ولد في العام 1883 في مانديا (هراكيون القديمة)، في جزيرة كريت، هاجر مع أهله إلى البيرة في أثناء ثورة 1899 ، درس الحقوق في أثينا ، ثم في باريس، حيث تابع محاضرات بيركسون. بدأ بكتابة (الرواية ، المسرحية ، الترجمة)، انخرط متطوعاً في أثناء حرب البلقان (1912 – 1913)، حاول استغلال منجم مع جورج زوربا (الذي استوحاه في ألكسي زوربا) وصار مراسل جزيرة أثينا.

ساهم هذا الرحالة الكبير (الذي مشى إلى إنكلترا ، إسبانيا ، روسيا ، مصر ، الصين، اليابان، وغيرها) في العام 1946 في حياة اليونان السياسية (وزيراً) لكنه سارع إلى الاستقالة ليعود إلى مهنة الكتابة.

كمستشار أدبي لليونسكو ، استقر في إنتيبا وتابع ترحاله إلى أمصار العالم.

مات نيكوس كازانتزاكيس في الإسكندرية في العام 1957 ودفن في كريت.

"كانت ثنائية طبيعة يسو" يكتب كازانتزاكيس، "بالنسبة لي سراً لا يسبر، ما هذه الرغبة الجامحة للإنسان في إدراك اللّه، أو بالحري بالعودة إلى اللّه"

"الإغواء الأخير" كتاب مطبوع بهاجس الرسالة الإنجيلية التي تتخطى "يسوع المصلوب"، إلى "الحرية أو الموت" وفي "فقير أسيز" تكشف منعطفات روايات كازانتزاكيس عن معاناة بل آلام هذا الرجل الذي سمي يسوع ولقد أدهشت توماس مان، الذي قال: "يجب الإعجاب بتفرد القمة الذي بعثه كازانتزاكيس لإيضاح قصة المعاناة. تشير هذه الأمارات إلى السريرة الأسطورية التي هي العنصر الرئيسي للشكل الملحمي" الملحمة، هي بالفعل، إبداع شاعر العنف والشمس هذا الأبرز بين كتّاب البحر الأبيض المتوسط لهذه الحقبة، الوحيد الذي استطاع أن يوفق بنفس الوقت بين جائزة نوبل التي نالها في عام وفاته والإرث البعيد لأعظم وأشهر جدوده: هوميروس.

* * *

المقدمة

لقد كان الجوهر الثنائي ليسوع لغزاً عميقاً ولا يسبر الرغبة الشغوف للناس ـ البشرية، وفوق البشرية ـ في الوصول إلى اللّه أو بشكل أدق العودة إلى اللّه والاندماج معه. هذا الحدب الغامض والحقيقي في آن، تفتح عندي جروحاً عميقة.

منذ مراهقتي، كان قلقي الأول، منهل كل أفراحي ومعاناتي، هو هذا: الصراع الدائم والصارم بين الجسد والروح.

في داخلي قوى الشر الظلامية، القديمة، الأقدم والأكثر قدماً من الإنسان؛ في داخلي قوى اللّه المضيئة، القديمة، الأقدم والأكثر قدماً من الإنسان. وكانت نفسي حقل صراع حيث يتعادل هذان الجيشان.

كان هذا القلق ثقيلاً. أحب جسدي ولا أريد له الضياع، أحب نفسي ولا أريد أن أراها تهبط، أعارك لكي تتفق هاتان القوتان الكونيتان المتناحرتان، لتشعرا أنهما ليستا عدوتين، إنهما بالعكس متكاملتان، وجعلهما متنامتين، وأفرح أنا معهما، وبتناغمهما.

كل إنسان هو إنسان ـ إله، جسد وروح. لذا ليس لغز يسوع هو فقط لغز العبادة بل يلامس أو يتناول كل إنسان، ويلمع في صراع بين اللّه والإنسان فيه، غير منفصل عن رغبتهما المتشوقة لإعادة الانسجام. في الأغلب هذا الصراع غير واع

وسـريع الانحـسار، نفـس ضـعيفة لا تملـك قـوة مقاومـة طويلـة للجسد، تهدأ، تصير جسداً هـي ذاتهـا وينتهـي الـصراع. إنمـا ينطلق لدى الناس المسؤولين الـذين يبقـون عيـونهم مركـزة علـى الواجب الأسمى، هذا الصراع بين الجسد والروح من دون رحمـة وقد يدوم حتى الموت.

الـنفس واللحـم أقـوى، والـصراع أغنـى والانـسجام النهـائي أكثر ثراء. لا يحب الله النفوس الحائرة والأجسام الرخوة. اللاـ قوام لها. ترغب الـروح بالقـدرة علـى الـصراع مـع الجـسد القـوي، القـادر علـى المقاومـة. هـي طـائر لا يهـدأ جوعـه. يفـترس الجـسد ويكـرهه على الاختفاء بتمثله أو استيعابه.

الصراع بين الجسد والروح، التمرد والمقاومة، عودة الوفاق والخضوع وأخيراً، الآن هـو الهـدف الأسمـى للصراع، اتحـاد مـع الله ـ هذا هو الطريق الصاعد الذي اتخذه يسوع ويدعونا للسير فيه بدورنا باتباع الأثر الدامي لخطاه.

كـيف نـصل إلى هـذه القمـة الـسامية حيـث، الابـن البـكـر للخـلاص يسوع، قـد وصـل؟! ـ هـو ذا الواجـب الأسمـى للإنـسان المكافح.

يجب إذن، لمتابعته، أن نتمتع بمعرفة عميقة لنضاله، أن نعيش من دون قلق، ـ كيف قهر الشراك المزهـرة لـلأرض، كيـف ضحّـى بأفراح الإنسان الصغرى والكبرى وكيف صعد، من تضحية إلى تضحية، ومن مأثرة إلى مأثرة، حتى قمة محنة، الصليب.

لم أتابع أبداً بهذا الخوف مسيرته الدامية نحو الجلجلة، لم أعش أبداً مع هذا التوتر العاصف، مع هذا الوعي والحب. وآلام يسوع، إلا في أثناء الأيام والليالي التي حررتُ فيها "الغواية الأخيرة". بكتابة هذا الاعتراف بالضيق، وأمل الإنسان الكبير، كنت شديد التأثر حتى لطخ الدمع عيني. لم أشعر أبداً بهذا الألم، بهذه المعاناة. بدم يسوع يتسرب قطرة قطرة إلى قلبي.

لأن يسوع، ليصعد إلى قمة التضحية على الصليب، إلى "قمة مادية" إلى الله عبر كل محن الإنسان الذي يناضل لأجلها، لذا كانت معاناته أليفة لدينا، معروفة عندنا، لذا نعانيها معه، ولذا يبدو لنا نصره النهائي تماماً نصراً آتياً لنا. إن كل ما عند يسوع من عمق بشري يساعدنا على فهمه، حبه واقتفاء خطاه حتى الوله والشغف كأنه لنا. إن لم تكن عنده حرارة هذا العنصر البشري، لما قدر أن يلامس قلبنا بهذا الاطمئنان وهذا الحنو؛ ولما قدر أن يصير نموذجاً لحياتنا.

نكافح، نراه يكافح مثلنا فنقدم. نرى إننا لسنا وحدنا في العالم والعالم يناضل إلى جانبنا.

كل لحظة في حياة يسوع نضال ونصر. لقد سما فوق الأفراح البشرية التي لا تدفع، لقد ظفر على الغواية؛ كان يحوّل أبداً الجسد إلى روح ويتابع صعوده؛ لقد وصل قمة الجلجلة وصعد إلى الصليب.

لكن جهاده لم ينته هنا؛ على الصليب تنتظره الغواية. بلمح

البصر طوت روح الشر أمام عيني المصلوب الخائرتين الرؤية الجنانة الأمل في حياة هادئة وسعيدة: ـ كما بدا له ـ الدرب المتحد والسهل للإنسان، كان زوجاً أباً لأولاد، تحبه زوجته وتحترمه؛ والآن صار عجوزاً، كان قاعداً أمام داره، يتذكر أهواء صباه، ويضحك، راضياً. وقد فعل خيراً! ما الحكمة في تأمل درب الإنسان وأي جنون في السعي إلى إنقاذ العالم أية غبطة في اختيار درب المحنة، الشهادة والصليب؟؟.

ها هي ذي الغواية الأخيرة التي قدمت، مجال ألق، لقد دنت آخر لحظات الفادي.

لكن يسوع هز رأسه فجأة، فتح عينيه، ومشى: لا، لا، لن يخون، ليتمجد اسم الله، لم يبتعد، أكمل المهمة، ما كان متزوجاً، لم يعش سعيداً، وصل إلى قمة التضحية، صُلبَ وسُمّر على الصليب.

أغمض عينيه، راضياً. آنئذ سمع الدوي المظفر: كل شيء تم!

أي أتممت واجبي، صُلبْتُ، ولم أنحني أمام الغواية.

لإعطاء مثل سام للإنسان المكافح، لتعليمه أن لا يخشى الصعاب، المحنة والموت، لأن كل هذا يمكن أن يقهر ولقد قهر، وأن هذا الكتاب كتب لقد تألم المسيح ومنذ ما تألم تطهّر وتقدّس؛ الغواية جاهدت، حتى آخر لحظة، لتضليله، وقهرت الغواية؛ صُلبَ المسيح ومنذ ذاك قُهِر الموت:

صارت عقبة في مسيرته مناسبة ومقياساً للنصر. أمامنا

الآن مثل يفتح السبيل ويعطينا الشجاعة.

ليس هذا الكتاب سيرة شخصية، هذا اعتراف الإنسان المجاهد بنشره أكملت واجبي.

واجب إنسان كثيراً ما دُحِر، كثيراً ما تألم في حياته وكثيراً ما ترجّى. أنا على ثقة أن كل إنسان حر يقرأ هذا السفر المعطر بالحب سيحب أبداً يسوع طيلة حياته.

ن. كازانتزاكيس

(1)

زفرة خفيفة من اللّٰه صعدت وحملته.

فوق رأسه النجوم الضخمة شبكت مداراتها، وكانت السماء مزهرة، في الأسفل، على الأرض، الحجارة تدخن، ما تزال مكوية بحرّ النهار على الأرض وفي السماء سكون عميق، يرسل الليل أصواتاً للأبدية، أكثر خفاء من السكون. السلم، الحنو والأنس؛ ستر اللّٰه عينيه ـ القمر والشمس ـ وغفا.

الظلمة إذن، هو منتصف الليل؛ وبينما كان يحلم، يحمله انخطاف، أي خلود مقيم! ما هذه الوحدة! بغتة تبدلت الريح، تقلبت؛ انحسرت زفرة اللّٰه الخفيفة، وحل محلها نفس ثقيل وخبا، كمن يحاول، مكرها، التخلص من النوم ولم ينجح كان ثمة في الأسفل، بين المناظر الطبيعية الرائعة، أراض ثقيلة ومبللة، حيوان أو قرية. كان الهواء سميكاً محملاً بالشجن؛ أثار دفعة من الحيوانات، من الناس والأرواح الزغباء وأيضاً رائحة واخزة من الخبز الخارج من الفرن والعرق البشري القارص وزيت الغار، الذي تدهن به النساء شعرهن.

نشم، نتحسس ـ لا نرى شيئاً؛ رويداً رويداً تألف العيون؛ تميز الآن في الظلمة أشجار البلح السامقة كرشقات الماء، وسروة ذات جذع مستقيم وقاسٍ، أعتم من الليل، وأشجار زيتون متناثرة الورق تحركه الريح، يلمع في العتمة كالفضة. وعلى تلة من التربة الخضراء، المترامية الكتل، والمتناثرة أكواخها

البائسة المربعة الشكل صنعت في الليل من الطين والآجر المدهونة بالكلس وفي الشرفات المغطاة بأغطية بيضاء أو مكشوفة ونخمن من الرائحة والقذارة وجود أجسام بشرية نائمة.

انحسر الهدوء؛ الليل السعيد، العزلة، المعمدة بالقلق؛ أرجل وأيادي ناس، لم يجدوا راحة، مختلطة، الصدور تتنفس، صراخ يصدر من آلاف الحناجر تعارك لتلتئم، يائسة، معاندة، في الجحيم الصامت الذي يتردد الله إليه، الذين يحرقهم الصراخ، يتعبون إنما لا يبلغون وجوده ويتبعثرون ويضيعون في متاهات غير متماسكة.

وقف، جلس على النشارة، أسند ظهره إلى الجدار؛ فوق رأسه كان حزام معلقاً يحمل صنفين من المسامير المروسة، في كل مساء، قبل النوم، كان يجلد جسده حتى الإدماء، ليهدئه في أثناء الليل ويمنعه من التمرد. ارتعاشة رقيقة بدت عليه، لا يتذكر أية غواية أتته أيضاً خلال نومه، لكنه أحس أنه هرب من خطر خطير." كللت، كفى ....." تمتم، ورفع نظره إلى السماء وتنهد ضوءاً جديداً، أيضاً متردداً وشاحباً، انزلق عبر شقوق الباب، عكس قصب السقف الأصغر عذوبة نادرة، ألقه، ثميناً كالعاج.

"كلام، كفى...." تمتم مرة أخرى. صر على أسنانه بيأس. حدق في المبهم: ارتسمت كل حياته أمام ناظريه عصا أبيه التي نمت في يوم خطبته لأمه، ثم العاصفة التي دمرت وسلت

الخطيب، ثم أمه الناظرة إليه، بل المحدقة أبداً ولا تقول شيئاً، لكنه سمع شكواها الخرساء الهامسة، هي محقة، أمه، أخطاؤه معها ليل نهار كانت كالنصال في قلبها، وكانت تعارك عبثا في الأعوام الأخيرة، لتقهر الخوف. كانت وحدها، فقد قهر الفقر كل الآفات الأخرى . رغبة المرأة، سعادة البيت، الشباب، لم يبق سوى الخوف وقهره أيضاً.....إنه كفء.... هو رجل، دنت الساعة.... إن بقي أبي مشلولاً، فهذا خطئي.... إن صارت مادلين مومساً، فهذا خطئي.... وإن مازالت إسرائيل ترزح تحت النير، هذا خطئي......

ديك، بالتأكيد في البيت المجاور لعمه الحاخام، يخفق بجناحيه فوق السقف ويصيح بصوت قوي، بغضب: بالتأكيد ذاق الكفاية في الليل، الليل الذي دام طويلاً، كان ينادي الشمس لتسطع.

والشاب، مستنداً إلى الجدار، يصغي إليه. النوم ينعكس بقوة على البيت، فتحت الأبواب؛ انتعشت الشوارع؛ من الأرض من أشجار وأبواب البيوت تصعد، تمتم الصبح: الناصرة استيقظت.

تنهيدة عميقة تنطلق من البيت المتواضع المجاور، تتبعها في الحال صرخة الحاخام المستوحشة التي أيقظت الله وذكرته كلمته، التي أعطاها لإسرائيل:

"إله إسرائيل، ناداه، إله إسرائيل، حتى متى؟" فسمعت ضجة ناشفة وخر على ركبته متعثراً بالتخشيبة.

هـز الـشاب رأسـه: "إنـه يـصلي، يتمـتم، يـسجد، ينـادي الله، إنما وفجأة، في وسط الضيعة، من أعلى سطحه، انبعث دوي حـاد، مقلـق، الأحـشاء آلـت للتمـزق:" إلـه! إسـرائيل، إلـه إسـرائيل، أدونـي Adonai حتـى متـى؟" لم يـصدر هـذا مـن إنسان، بل هي القرية كلها التي تحلم وتصرخ؛ منها كلها، من عظام الموتى وجذور الشجر، أرض إسرائيل. أرض إسرائيل التي كانت تتألم، التي لا تستطيع أن تنتج، والتي تصرخ.

صـمت طويـل، وبغتـة أيـضاً، إنمـا لم يبـق سـوى الـشقاء، الغضب، من جديد يسمع النداء الذي يمزق الريح، من الأرض حتـى الـسماء: "تمامـاً إلى متـى؟ إلى متـى؟" اسـتفاقت كـلاب الـضيعة وجعلـت تعـوي والنـساء القابعـات علـى الـسطيحات استحوذهن الرعب ولجأن إلى آباط رجالهن يسمع الشاب الذي ينـام والـذي يحلـم يـسمع وهـو نـائم الزعيـق، يـضطرب في حلمـه يخاف ويبدأ الهرب. الجبل تجعد، ظهرت أحشاؤه: لم تكـن مـن الحجارة، بل من النوم والدوار، وعصبة العمالقة التي تتسلقه، وبخشية، بخطوة جبارة لم تكن سوى شوارب، ولحى، أهداب وقوائم ضخمة، فقدت أيضاً ماهيتها: كانت تبتعد، تتبسط، تتكيف بشكل آخر وتتسل شيئاً فشيئاً كسحاب تنثره ريح عاصفة؛ وعلى عجل تبددت بين صدغي الإنسان النائم.

لكن روحه تيسر لها الوقت لكي تهدأ، وغرقت من جديد بـالنوم ـ ويـصير الجبـل متراصـاً، كتلـة مـن حجـر، تكـاثفت

الغيوم، وصارت لحماً وعظماً، تسمع نفخات قصيرة. وقع خطى سريعة: يعود أحمر الشعر إلى الظهور في قمة الجبل، مكشوف الصدر، حافي القدمين، كتلة نار وخلفه عصابة تلهث بألف رأس تكتنفها صخور شديدة الانحدار.

في الأعلى، القبة السماوية أعيد تشكيلها سقفاً حلو البناء، مع نجم واحد معلق في الشرق.

الشاب، ممدداً فوق نشارة الخشب، يتنفس بعمق، عمل اليوم كان متعباً، يرتاح، أهدابه تصطفق لحظة، كما لو أن نجم الصبح ضربه بألقه، لكنه لم يستيقظ؛ غمرته الرؤيا مرة أخرى؛ إنه يحلم. توقف ذو الشعر الأحمر، ينساب العرق من جبهته الضيقة عميقة التجعيدات، ومن إبطيه وفخذيه، ينضح غضب وتعب؛ فكر أن يقذف شتيمة، وتماسك. إلى متى؟ أدونيه Adonai

إلى متى؟" غمغم فقط مع اضطراب؛ وبلع مسبته. لكن الغضب كان يختمر؛ التفت: امتد المسير الطويل أمامه، كالخالق: انخفضت الجبال، انزلق الحلم، توارى الناس، ورأى النائم فوق رأسه، على السقف المنخفض، المصنوع من القش، ينبسط، ملوناً، مزركشاً كتوشية متروكة في الهواء، كضوء يتأرجح، أرض كنعان في الجنوب صحراء ترتعش وتتموج كظهر نمر؛ فيما بعد البحر الميت، ثقيل، مالح، كان منخفضاً، يمتص الضوء؛ وبعدئذ، مقطوعاً عن العالم بغور صرامة، على أرضها سال دم ضحايا اللّه ـ حملاناً وأنبياء؛ وبعد

هذا ، السامرة الملوثة ، عابدة الأصنام ،مع بئر في الوسط وامرأة كحيلة تمتح الماء؛ وبعد هذا وذاك ، في أقصى الشمال ، الجليل ، المشمس ، المعتدل ، الأخضر.من أول الحلم إلى آخره ، الأردن ، شريان الله الملكي ، الذي يسيل والذي يروي كل الرمال المجدبة والحدائق ، يوحنا المعمدان وهراطقة السامرة الزناة وآثمو طبريا. ابتسم الشاب في نومه لرؤية الأرض المقدسة ، المياه المتدفقة ، ومد يده ليلمسها. إنما فجأة ، في قلب الظلمة الزغباء ، في غسق الفجر الوردي ، جعلت الأرض الموعودة ، المصنوعة من الطراوة ، ومن الهواء ورغبة البشرية العتيقة ، راحت ترتعش ـ تكفهر.

ولما انطفأت ، سمع أصواتاً هادرة ، شتائماً ورأى من جديد انبعاث العصبة ذات الألف رأس بين الصخور الصماء وأشجار التين البري ، المتغير ، المتحول؛ كان العمالقة ذابلين ، منكمشين هزيلين ـ لحاهم تجر على الأرض! أقزام وأمثالهم حائرون ، على أخر نفس.

في يد كل منهم أداة تعذيب غريبة ـ بعض المجذومين مكويين بدبابيس حديدية ، وآخرون بسكاكين صغيرة دقيقة ، وآخرون بمسامير ضخمة في الرأس الأصلع ، ثلاثة أقزام بقوائمهم القصيرة صليب باهظ الثقل ، والأخير فاقد الخطوة ، على رأسه إكليل من شوك.

انحنى صاحب الشعر الأحمر ، يتأمله ويهز بازدراء رأسه

الضخم بادي العظام. يسمعه الرجل النائم يقول: " لأنهم غير مؤمنين، هزلوا؛ لأنهم بلا إيمان أنا أتعذب.."

مد يده الشعرانية:

نحن لا نرى شيئاً، يا رئيس، سوى الظلمة

أبداً! لا إيمان عندكم؟

نحن مؤمنون يا رئيس، مؤمنون، لذا نحن نتبعك؛ لكنا لا نرى شيئاً.

انظروا جيداً، تحرروا!

انقضّت قائمته الضخمة كالسيف، مزقت العتمة، ظهر السهل؛ بحيرة زرقاء تبسم وتبرق، أبعد الضباب، استيقظ. في وسط الحقول، تحت شجر البلح، على ضفاف البحيرة الحصباء، كما الأعشاش الواسعة المليئة بالبيض، القرى والأكواخ تتلألأ بيضاء.

هنالك كان! قال قائد الحركة ودل إلى قرية كبيرة في قلب الخضرة، ثلاث طواحين هوائية، تطل عليه، فتحت منذ الصباح الباكر أجنحتها وراحت تدور

على الوجه المذهّب، المخضّب بالشمس، للشاب انبثق فجأة الخوف، قام بحركة من يده لطرد الحلم الذي كان قد وضعها على أهدابه وحضنها. استجمع كل قواه ليستيقظ، هو حلم، يجب أن أنهض، وأتحرر منه.

لكن الأقزام حاصروه بعناد ورفضوا التخلي عن هذا؛ سدد

الأصهب الآن إصبعاً إلى الضيعة والسهل الكبير قبالتهم وحاهاهم.

إنـه هنالـك! وفي الـداخل يعـيش، ويختبـئ. يلـبس أسمـالاً، يمشي حافياً، يعمل حطاباً، يحـاول أن لا يعـرف، ليهـرب، إنمـا إلى أين سيقودنا! عينا اللّه رأته؛ انقضّ عليه الأولاد!

رفع قدمه لينطلق، لكن الأقـزام تعلقـوا بفخذيـه وذراعيـه؛ أراح قدمه.

هم كثر لابسو الأطمار، والحفـاة، يا سيد، كثر تجـار الهياكل، نحن بحاجة لأمارة لنعرفه منها، كيف هو؟ أين هـو؟ لنعرفـه بوجـه آخـر لـن نـبرح المكـان؛ ولـو عرفنـاه، يـا ريـس لـن نغادر، نحن منهكون.

سآخذه بين ذراعي لأحضنه، هي ذي الأمارة، الآن، هلموا؛ وبهدوء، لا تضجوا؛ الآن هو نائم، انتبهوا كي لا نوقظه ويهـرب منا. باسم السماء، اهجموا عليه، يا أولاد!

ـ نهجم عليه، يا ريس، صاح الأقزام بصوت واحد، ورفعـوا أقــدامهم الــضخمة للانطــلاق. لكــن أحــولاً صــغيراً، هــزيلاً وذميماً، ذاك الذي يحمل إكليل الشوك، ومسك رأسه.

لن أتحرك قيد أنملة! صاح. هذا يكفيني. منذ ليـال نـضيق الخناق عليه؟ كم بلداً وقرية عبرنـا؟ وكـم عـدواً؟ أخـذنا تباعـاً صوامع الإسينيين Esseniens في صحراء ايدومي. برنـا بيتانيـا حيـث ضـايقنا عبثـا الفقـير أليعـازر Lajare وصـلنا إلى الأردن، لكـن المعمدان طردنـا، لـيس هـو كمـا يبـدو، ذاك الـذي بحثـت

عنـه، كـان يجـب أن نرحـل! رحلنـا، دخلنـا القـدس، ولجنـا الهيكـل، قـصور حنـة Anne ، كاييفـا Caiphe أكـواخ السكرايب Scribes والفريسيين:

لا أحـد! لـيس سـوى القـذرين، اللـصوص، الكذبـة، المومـسات، القتلـة، فـذهبنا. اجتزنـا خببـاً الـسامرة المطـرودة، وصلنا الجليـل، نهبنـا مجد الله Magdala قانـا، كفـر حـوم، بيـت صـيدا، انتقلنـا مـن خـص إلى خـص، مـن كـوخ إلى آخـر وبعدئذ فإن الأهم، الأتقـى: "هـذا أنـت، نادينـاه، لمَ تختبـئ؟ قـم لتنقـذ إسـرائيل! ولمـا رأى الأدوات الـتي كنـا نحملـها، أخـذه الخـوف، وراح يـرفس ويهـر: "لـيس أنـا المقـصود! لـست المعـني!" وسـارع إلى الخمـر، إلى الخـرائط، إلى النـساء، سـكر، شـتم، امتهن، لنرى أنه خاطئ، أنه ليس هو من نبحث عنه، ليهرب..... اعذرني يا ريس، إنما هذا هو الذي حدث معنا هنا؛ عبثاً نـضيّق عليه الخناق، لم نجده، لم يولد بعد.

الكـافر تومـاس Thomas أخـذه مـن قذالـه وأبقـاه فـترة معلقـاً في الهـواء، ضـاحكاً ـ الملحـد تومـاس، تـسرني! واسـتدار إلى رفاقه: ـ هذا هو المسّاس[1] ؛ أمـا نحـن ثيران الحـرث؛ اتركـوه ينخزنا، يمنعنـا مـن الهدوء! أرسـل الرجـل الأمـرد صـرخة حـادة، صـرخة ألم؛ رمـاه الأصـهب أرضـاً. راح يـضحك ويجـول بنظراتـه

---

1 ـ قضيب ينتهي بأداة واخزة، يستخدمها الفلاح ليحث الثيران على الحرث.

على العصبة المتنافرة.

كم عددنا؟ قال: اثنا عشر؛ واحد من كل سبط عن إسرائيل. اختاروا وهاتوا شياطين الله ملائكته، أقزامه، أولاده وكل جهيض!

كان رضي المزاج؛ عيناه المدورتان كالباز تبصان. قدم يده، وراح يقبضهم واحداً واحداً من الكتفين، بغضب، بحنو؛ كان يفصل بينهم وهم معلقان بالهواء، ضاحكاً، يتركهم، ويأخذ آخرين:

صباح الخير، يا شحيح، يا لسان الأفعى، يا أعقف المخلب، الباقي إبراميكوAbramico ؛ وأنت مدعي الشجاعة، المتبجح، وأنت الورع، الجبان؛ أنت لا تسرق، لا تضاجع زوجة الغير، لا تقتل، لأنك تخاف؛ كل فضائلك هي بنات الخوف، وأنت أيها الحمار الصغير الساذج الذي يوسع ضرباً ويتحمل الجوع، العطش، البرد، الجلد، أبلهاً ـ دابة، بلا حب الذات، لاعق الفضلات، كل الفضائل هي بنات البؤس؛ وأنت أيها الذئب العجوز الباقي أبداً في عتبة الأسد، ويهوه jehovas، ولا تدخل؛ وأنت أيها الخروف المغفّل ـ البسيط الذي ينادي الله الذي سيأكلك؛ وأنت يا مشعوذ، ابن ليفي Levy، المتاجر بالله، الذي يبيع الله بالفضة؛ بائع خمر الله الذي يسيّل دم الله ليحتسي الناس؛ يتملون ويفتحون لك خزنتهم وقلبهم، يا سيد المكر، وأنت، أيها الخبيث، المتعصب، الزاهد ذو الرأس العنيد، الذي يرى صورتك وصنعك إله خبيث،

متعصّب، برأس يابس، يسجد على ركبتيه يتعبده، لأنه يشبهك؛ وأنت صاحب الروح أي الدكان الصغير للتبادل: جالس في العتبة، تغرق يدك في كيس، تطلب الرحمة للناس، الصدقة للفقير، ترهن نفسك للّه، تأخذ قرطاساً وتكتب، تحسن إلى المعبد، في يوم وساعة، وتطلب أن يوضع قرطاسك في قبرك لتقدر إن فتحت أمام اللّه، تقدم حسابك له، وتعبئ الملايين للأبدية؛ وأنت يا كاذب، يا مخادع، من يدوس بقدميه وصايا اللّه، تنهب، تضاجع نساء الغير، تقتل وتذرف الدموع، تدق صدرك، تأخذ قيثارتك وتصنع أغنية لخطيئتك؛ أنت تعرف، أيها الشرير، أن اللّه يمسح ذنوب المغنين، لأنه هو ذاته مولع بالأغاني، وأنت أيها الإبرة التي تعشش بين جنبينا، توما، وأنا، أنا الرأس المجنون، أعتقد إن هذا حدث، سبت زوجتي وأولادي ورحت أبحث عن يسوع! الكل معاً، شياطين، ملائكة، أقزام، نحن ضرورة لقصتنا، الانقضاض عليه يا أولاد!

راح يضحك، يبصق في يديه، يقدم قدميه الضخمتين:

انقضّوا عليه، يا أولاد، يصرخ أيضاً، ونزل راكضاً على الدرب المتجه إلى الناصرة.

كان الناس والجبال دخاناً؛ اختفوا، غمرت العتمة الأهداب النائمة بلا حلم؛ في أثناء النوم الأخير لا يسمع سوى قدمين عاديتين، واسعتين وثقيلتين، تدوس تربة الجبل وتنزل.

قلب الشاب النائم يخفق بعنف "وصلوا! وصلوا!" سمع

صرخة صاخبة في جسده: "وصلوا!" انتصب واثباً، ـ هذا ما ظنه خلال النوم ـ وضع المقعد الذي كان يعمل عليه خلف الباب، كدعامة وكوم فوقه كل أدواته ــ المساجح، المساجح الضخمة، المناشير، المطارق، المهدات، مفكات البراغي ــ وأيضاً صليباً ثقيلاً، كان يصنعه؛ ثم انزلق من جديد إلى النشارة وانتظر.

هدوء غريب، مقلق، خانق، كثيف، لا يمكن سماع تنهيدة القرية ولا تنهيدة اللّه، الكون، حتى الشيطان الذي لا ينام أبداً، كان غارقاً في حفرة عميقة ومظلمة، أهذا نعاس، موت، اللاـ موت، اللّه؟ الشاب ارتعب؛ رأى الخطر، جمع قواه، مد يديه ليمسك الرأس الذي كان نائماً واستيقظ. كان ينضح عرقاً، لم يتذكر شيئاً من الحلم: إلا أن أحداً يلاحقه؛ من هو؟

أحدهم؟ زرافة؟ رجال؟ أبالسة؟ لم يعد يفطن. أصغى، انتبه، سمع الآن تنفساً كثيفاً يصدر من النفوس والأجساد، في هدأة الليل. من وقت إلى آخر شجرة تتقصف، كلب يبعث صوتاً جنائزياً، أمّ، في طرف الضيعة، تهدهد بصمت آلي، طفلاً.... كان الليل مشبعاً بالتمتمة والشهيق البشري والمفضل، الأرض تئن، اللّه يحكي، الشاب يهدأ؛ خلال لحظة عاودهُ الخوف، كان يظن أنه وحيد في العالم.

إلى جانبه، في البيت الصغير الذي يضم أهله، سمع نفس أبيه الواني؛ ما استطاع المسكين النوم، راح يعض شفتيه، يفتح

فمه ويطبقه، بجهد مضنٍ، يتكلم؛ قتل سنوات محاولاً نطق كلمة عادية، لكنه جالسٌ في سريره، مشلول، لا يقدر أن يحرك لسانه، يعرق، يجهد ،يسيل لعابه ومن وقت إلى آخر، بعد عراك رهيب، نجح بلفظ كلمة أدوني مقطع بعد مقطع، أدوني[1] ، أـ د ـ وـ ن ـ ي لا غير، أدوني عندما انتهى إلى هذه الغاية، هدأ ساعة، ساعتين؛ ثم أخذته الشدة وعاد إلى فتح فمه وإغلاقه. — هذه غلطتي...... إنها غلطتي ...... تمتم الشاب وعيونه تغص بالدموع؛ إنها غلطتي ....

يسمع الابن في الليل الساجي عراك الأب مع القلق الذي يخنقه بدوره؛ ويروح لا إرادياً يفتح فمه أيضاً ويعرق. أغمض عينيه، أصغى إلى حركة أبيه الشيخ، الذي كان يحاول ترديد كلمة أدوني، بدأ يتنهد، يرسل معه صراخاً يائساً ومبهماً ـ فوق هذا، أخذه النعاس.

لحظة استسلامه للنوم، اشتعل البيت، سقط المقعد، انساب الصليب والأدوات في الأرض، فتح الباب، ورأى ذا الشعر الأحمر منتصباً في العتبة، الواسعة، هازئاً، ماداً ذراعيه.

بعث الشاب صرخة ونهض.

يدق الجدار لأبدأ أنا أيضاً سجودي "زوى ما بين أهدابه غضباً. "إن كان الله لا يكفيني ألجأ إلى الناس!" قال وهو يدق

---

1 ـ الله لدى اليهود.

بقبضته الجدار المشتركَ بعنفٍ ليشعر الحاخام الصارم أنه استيقظ وأنه يصلي.

انتصب بقفزة؛ انزلق ثوبه المرقع عن كتفيه، بان جسده، ناعماً، ملوّحاً، مغطى بعلامات حمراء وزرقاء؛ لمَّ في الحال ثوبه، وستر به جسمه العاري خجلاً.

من الكوة، سقط عليه نور الصبح الشاحب، أنار وجهه برفق، ليس هذا سوى إصرار، معاناة وعجرفة. كان الزغب قد صار على وجهه لحية جعدة، تامة السواد، وأنف مقوس، غليظ الشفتين، شبه مفترتين، شمرتا عن أسنان ناصعة وبارقة. لم يكن وسيماً، إنما في وجهه غواية خفية، قلقة، أبسبب هدبيه الكثيفين، المرسلين اللذين يرميان ظلاً أزرق على محياه. أم بسبب عينيه، الواسعتين، السوداوين، الناضحتين بالضوء والعتمة، أليس ثمة إلا الرعب والعذوبة؟ كأنما تبصان كعيني الأفعى، ترياك عبر جفنين طويلين راعشين.

أزال النشارة العالقة بإبطيه ولحيته، ميزت أذنه خطوات ثقيلة كانت تقترب، تعرفها.

صاح مغتاظاً: هو ذا، عاد، عاد، ماذا يريد مني؟ ثم اتجه نحو الباب صاغياً.

لكنه وقف بغتة خائفاً؛ من أزاح المقعد من خلف الباب، من وضعه فوق الصليب والأدوات؟ من؟ متى؟ الليل مليء بالأرواح الشريرة، بالأحلام، ننام وهي تجد الأبواب مشرعة، تدخل

وتخرج، وتخرب لنا البيت والرأس.

لقد أتانا أحدهم في أثناء النوم، تمتم همساً، كمن يخشى أنه ليس هنا وأنه لا يسمع أحدهم، هو اللّه بالتأكيد، هو اللّه، اللّه أو إبليس؛ من يقدر أن يعرف؟ يبدلون محياهم، أحياناً يصير اللّه ظلمة، ويصير الشيطان نوراً، وتتشوش روح الإنسان فيرتجف، إلى أين يتجه؟ ثمة دربان، أيهما يسلك.

كانت الخطى الثقيلة تقترب، أطلق الشاب حوله نظرة قلقة كمن يبحث عن مكان يلجأ إليه، ليهرب. كان يخشى هذا الرجل ولا يريد منه شيئاً؛ كان هذا جرح عميق قديم في نفسه، لم يستطع أن يتبرأ منه. كانا صبيين وكانا يلعبان معاً، الآخر الذي كان يكبره بثلاث سنين، رماه أرضاً، ضربه، لملم الفتى نفسه، دونما كلمة؛ لكنه لم يعد يلعب مع الفتية الآخرين، يخجل، يخاف، انكمش في باحة البيت وحده، حاك لنفسه وسيلة ليغسل يوماً ما خجله،كان يدلهم أنه أقوى منهم جميعاً من كل المتفوقين وهكذا بعد سنين، الجرح ما يزال مفتوحاً ينزف.

"يلاحقني، ما يزال وبإلحاح؟ تمتم، ماذا يبغي مني؟ لن أفتح له"

هزت الباب رفسة؛ وثب الشاب وبكل قواه أبعد المقعد وفتح.

في العتبة كان قاعداً، غاضباً، حافياً، عارياً، عملاقاً من

دون اللحية المغرية والجعدة. في يده عرنوس ذرة، مشويّاً، يهم بأكله. ولجت عيناه الورشة، رأى الصليب مركوناً إلى الجدار، قطب سيماءه، قدم ساقه ودخل.

قرفص في زاوية، وراح يقضم بولع شديد عرنوس الذرة، دونما كلام. ثم انتصب، التفت رأى في الخارج، عبر الباب المفتوح، الشويرع الضيق لم يكد يستيقظ، الغبار لم ينتشر بعد، ثمة رائحة أرض مبللة؛ كان نور وطراوة الليل قد تعلقا بورق الزيتون المواجه، وكانت الشجرة كلها تبتسم. والشاب، مثاراً، يتنسم عالم الصبح.

لكن الأصهب استدار وهو يهز:

أغلقْ الباب، عندي ما أكلمك به.

هو ذا صاحب الصوت الخشن! قفز: أغلق الباب، قعد وانتظر.

ها أنا ذا، قال الأصهب! ها أنا ذا، الأمر جاهز.

سكت، رمى عرنوس الذرة، رفع عينيه الزرقاوين والقاسيتين، ثبت نظره في الشاب، مد قذاله السميك والمثنى.

وأنت، جاهز؟

كان الضوء باهراً، ميز بوضوح وجه الرجل الأصهب، مقطوعاً بضربة ساطور، متنافر السنان، لم يكن واحداً، كان اثنين: عندما يضحك نصف يرتعب الآخر، تقريباً عندما يشكو نصف الألم، يهمد الآخر، متحجراً؛ وعندما يلتحم

النـصفان لحظـة، نحـس فـوق هـذا الوفـاق، اللّه والـشيطان، يتعاركان كمن لا ولن يتصالحا.

بقي الشاب صامتاً؛ سمّره الأصهب بنظرة. بغضب. وسأل أيضاً:

وأنت، أنت جاهز؟ ولما نهض ليأخذه من ذراعه، ليهزه، ليوقظه، ليجبره أن يجيب؛ لكنه افتقد الوقت: صدح البوق، ولج الخيالة الزقاق، وسمعت وراءهم خطى الجند التي تدق الأرض، ثقيلة، موقعة، ضغط الأصهب قبضته ورفعه نحو السقف؛ كان يبرطم:

إله إسرائيل، أزفت الساعة. اليوم، ليس غداً، اليوم!

استدار نحو الشاب:

أنت جاهز؟ سأل أيضاً، دون أن ينتظر الرد

(2)

لا، لم تسلمهم الصليب، أنا قلت لك هذا! الشعب ملتئم، برابا نفسه نزل الجبل مع رجاله، سيحطم باب السجن، سيرفع عنه زيلوت، وها هي المعجزة ـ لا تطأطئ رأسك! ـ المعجزة كفيلة بهذا. سأل عمه الحاخام.

جمعنا البارحة في المجلس اليهودي؛ لمَ لمْ تحلْ سيادتك؟ نهض وكلمنا: لن يأتي المسيح، لن ما دامت أذرعنا متصالبة. اللّه والشعب يجب أن يقتتلا، لكي يأتي المسيح! هذا ما قاله

لنـا : إن أردت أن تعـرف. اللّه وحـده لا يـكفـي والـشعب وحـده لا يكفي، الاثنان سوية ضروريان، أتسمع؟

أخذه من ذراعه وراح يهزه.

أتـسمع؟ فـيم تفكـر؟ عليـك أن تكـون هنـا وتـسمع عمـلاً لتصحو، أيها النعس!

قال إن زيلوت الذي يريد الرومان العـاقون صلبه اليـوم ربمـا كان هو ذاك الذي ننتظره منذ أجيال وأجيال؛ إن تركناه بدون مساعدة، إن لم نسارع لإنقـاذه، اعلم، سـيموت دون الـكشف عمن هو، إن لم نعجل إلى تخليصه، وقعت المعجزة. أية معجـزة؟ سـيرمي أسمالـه وسـيبرق علـى رأسـه تـاج دأود الملكـي. أجهشنا بالبكـاء كلنـا، رفـع الحاخـام الـشيخ ذراعيـه إلى الـسماء، وصـاح: "إلـه إسـرائيل، اليـوم، لا غـداً، اليـوم!" رفعنـا جميعنـا أذرعنـا، تطلعنـا إلى الـسماء، صـارخين، مهـددين، بـاكين: اليوم، ليس غداً، اليوم! أتسمع، يا ابن النجار، باني الهياكـل، أم تتكلم في الهواء الطلق؟

يصغي الشاب، بعينين شبه مغمضتين، حدق إلى الجدار المواجه، حيث علق الحبل بمسامير حادة، رد الرجل الأصهب على صوته العنيف والمهدد، سمع، في الغرفة المجاورة، أصداء مبحوحـة خـشنة لمعركـة يخوضـها أبـوه العجـوز الـذي يحـرك باستمرار شفتيه، جاهداً عبثاً أن يحكي....

اختلط الـصوتان في صدر الـشاب، وفجـأة ظهـر في عينيـه

جهد الناس الضائع.

آنئذ أخذه ذو الشعر الأحمر من كتفه ورماه:

فيم تحلم، أيها الدعي؟ أتسمع ماذا قال أخو أبيك، العجوز سمعان؟

ـ المسيح لا يأتي هكذا.... تمتم الشاب، كانت عيناه آنئذ معلقتين بالصليب الذي صنعه وعليه وقع، بروية ولطف، ضوء الفجر. لا ، المسيح لا يأتي هكذا؛ لن ينكر أطماره، لا يحمل تاجاً ملكياً، ولن يسارع الشعب إلى إنقاذه؛ وكذلك الله. لن ينقذه يموت في أسماله؛ كلها حتى التي يصعب رميها، يموت وحيداً، في قمة جبل منعزل، ويحمل على رأسه إكليلاً من شوك!! استدار الرجل الأصهب، تأمله بذهول، كان نصف وجهه يتلألأ، والنصف الآخر أكمدٌ كله.

ـ كيف عرفت هذا؟ من قاله لك؟

لكن الشاب لم يجب، قفز عن المقعد؟ الآن نحن في رابعة النهار، التقط المطرقة، أخذ قبضة مسامير، واقترب من الصليب. إنما الأصهب كان أكثر سرعة، بخطوة وصل إلى الصليب وبدأ بغضب يشبعه ضرباً بقبضته ويبصق عليه كأنه إنسان. التفت: كانت شواربه، لحيته، أهدابه تغزّ وجه الشاب:

ألا تخجل؟ صرخ كل نجاري الناصرة، قانا، كفرحوم رفضوا صنع الصليب لزيلوت Zelote ، وأنت؟..... ألا تخجل؟ ألا تخاف؟ إن وصل يسوع ووجدك في غمرة صنع الصليب؟ إن

كان ذاك، فزيلوت، الذي يصلب اليوم هو يسوع؟ لم لا تتحلى بالشجاعة، أنت أيضاً، وتجيب قائد المئة: أنا لا أصنع صلباناً لإبطال إسرائيل؟

أخذ كنف النجار الساهي، وصاح:

لم لا ترد؟ أين تنظر؟

ركله ركلة أوصلته إلى الجدار:

أنت جبان، قال له بازدراء، جبان، جبان، هذا ما أقوله! لن تعمل شيئاً في الحياة.

مزق صوت حاد السكون. ترك الأصهب الشاب، التفت نحو الباب وأصغى. كان ثمة جلبة: رجال، نساء، جمهرة، وصراخ... النفير العام!

النفير العام! الصوت الثاقب علا مجدداً:

"يا أبناء وبنات إبراهيم، إسحاق، يعقوب! أمرٌ من السيد، افتحوا آذانكم واصغوا: اغلقوا الدكاكين، المقاهي، لا تعملوا في الحقول؛ أيتها الأمهات، خذوا أبناءكم، وأنتم أيها الشيوخ، خذوا عصيكم، تعالوا كلكم، العرجان، الصم، المسلولين، تعالوا انظروا! تعالوا انظروا كيف يعذب أولئك الذين يرفعون الرأس ضد سيدنا الإمبراطور ـ العمر المديد له! تعالوا انظروا موت زيلوت المتمرد والخارج على القانون"

فتح الرجل الأصهب الباب، رأى الجمهرة ساكتة، مكدرة ـ مبلبلة، رأى المنادي العام قاعداً فوق حجر، رقيق،

برقبته الطويلة وسيقانه الطويلة، عاري الرأس، بصق." لتكن ملعوناً، أيها الخائن"، غمغم وأغلق الباب بغضب، التفت إلى الشاب، كانت المرارة قد صعدت إلى عينيه.

أهنتك بولد أبيك، سمعان الخائن! ازعق.

ليس الخطأ خطأك، بل خطأي، قال الشاب بندم، هذا أنا...

وفي الحال:

بسببي طردته أمي من البيت، بسببي...... وهو، الآن....... استتار نصف وجه الرجل الأصهب لحظة، كما بفعل الشفقة، وسكن:

كيف تؤدي ثمن كل هذه الأخطاء، يا شقي؟

بقي الشاب صامتاً برهة. كانت شفتاه تتحركان لكن لسانه كان معقوداً. وبعد لأيٍ نجح وقال:

يهوذا، أخي، حياتي التي، أفتدي الخطأ الأصيل ما عندي إلهاً..... لا شيء آخر.

انتفض الرجل الأصهب، تسربت الأنوار إلى الورشة من شقوق الباب، ومن الأعلى، من الكوة، كانت عينا الشاب تبرقان، كبيرتان، وكان صوته مشبعاً بالمرارة والخوف.

بحياتك؟ قال الأصهب، وأخذ الشاب من ذقنه، لا تدر رأسك، أنت رجل، لا؟ انظر في عيني؛ بحياتك؟ ماذا تريد أن تقول؟

لا شيء. خفض رأسه بصمت. وبغتة صرخ:

لا تطلب مني شيئاً، لا تطلب مني شيئاً، يهوذا، أخي.

مسك يهوذا بيديه وجه الشاب، رفعه وتأمله طويلاً دونما كلام. ثم بهدوء تركه واتجه إلى الباب مبلبل القلب.

في الخارج كان الصخب أكثف؛ وكان يتصاعد الضجيج من الأرجل العارية والأحذية العتيقة ومن حفيف أساور النساء البرونزية والعرى الضخمة في كعابهم. كان الأصهب واقفاً في العتبة يراقب الجمهرة التي تجتاز الأزقة حيث يتكاثر عددها، وتتصاعد نحو الرابية الملعونة حيث يتم التعذيب. ما كان الناس يتكلمون؛ بل يشتمون بصوت خفيض، يدقون البلاط بقضبانهم، وآخرون يتلمسون بالخفاء خبِّئت سكاكين في صدورهم، وكانت النساء تزعق تضج، كان العديد منهن قد رمى النقاب، فتعرت الرؤوس ورحن يرددن غناء حزيناً.

في الأمام، كرأس كبش القطيع، يمشي سيمون، حاخام الناصرة العجوز. قصير، حنت السنون ظهره، أكل صحته داءُ الصدر، كان أشبه بهيكل عظمي يابس، يدان هزيلتان، مع مخالب طير طويلة، تضغطان وتدقان الحجارة بالعصا الكهنوتية التي ازدان رأسها بثعبانين متشابكين. كان لهذا الميت الحي رائحة مدينة تحترق: عند رؤية شرر عينيه، نحسُّ هذا الهيكل العظمي كتلة من نار؛ ولما يفتح فمه ليصرخ: "إله إسرائيل"، ينتشر دخان فوق رأسه.

وراءه يـصطف العجّـز المقوسـون فـوق عـصيهم، بأهـداب كثة، ولحىً مشعثة، وعظم صلب؛ في الخلف الرجال، ووراؤهم النساء، وفي الذيل الأبناء وبيد كل منهم حجر، ولدى البعض مقلاع رمي إلى الكتف. كانوا يتقدمون سوية بدمدمة خائرة وصماء، كدمدمة البحر.

كان يهوذا، متكئاً إلى دعامة الباب، يراقب الرجال والنساء، وقلبه يتدفق؛ هؤلاء هم هنا، همس والدم يصعد إلى الرأس، ها هم جميعاً مع الله، يأتون المعجزة اليوم، لا غداً، اليوم.

انفصلت امرأة ضخمة عن الركب، مقوسة، مكشوفة الصدر، وحشية الطبع ـ جفول، انحنت، التقطت حجراً ورشقته بعنف إلى باب النجار صائحة:

ملعوناً لتكن يا صالب الناس!

بطرفة عين. من أول الشارع إلى آخره، راح يتردد العويل والشتائم، وينزع الفتية المقلاع عن أكتافهم؛ يضرب الأصهب الباب ويدخل.

صالب... صالب! انبعث الزعيق من كل صوب، والباب يرتج تحت الحجارة.

الشاب، ساجداً أمام الصليب، يغرس المسامير، يدق بضربات مضاعفة بالمطرقة، بعنف كمن يريد تغطية الهمهمات والشتائم الصادرة من الشارع، كان صدره يشتعل، بروق تنبعث بين هدبيه، مسعوراً كان يضرب وينساب العرق من جبهته.

يركع الأصهب، يأخذ ذراعه، ينزع منه بغضب المطرقة، يرفس الصليب، الذي انقلب على الأرض.

ستحمله؟

نعم.

ألا تخجل؟

ـ لا

ـ لن أدعك تفعل؛ سأحطمه إلى ألف قطعة.

ينظر حواله، يقدم يده ليأخذ مهدّةً.

ـ يهوذا... يهوذا، أخي، قال الشاب بهدوء، كمن يصلي، لا تغلق لي دربي.

كان صوته قد صار فجأة ضعيفاً عميقاً غامضاً. شوشهُ الأصهب. طلب بلطف:

ـ أي درب؟ وانتظر. تأمّل الشاب بانفعال. كان الضوء كله يسقط على وجهه وعلى جذعه الرقيق ذي العظام الدقيقة؛ وتبقى شفتاه مطبقتين كأنهما تجهدان في بث زعقة قوية.

رآه الأصهب هشاً وشاحباً وانقبض قلبه الجامح؛ من يوم إلى يوم كانت وجنتاه ترقّان، كان يتلاشى؛ منذ متى لم يره؟ بالكاد عدة أيام. لقد ذهب ليقوم بجولة في القرى حول طبريا. كان يصنع الحديد، المعازق، سكة المحراث، مناجل، يكسو قوائم الأحصنة، وقد سارع في العودة إلى الناصرة، لدى تلقيه النبأ: سيصلب الزيلوت. بأي حال تركه، صديقه القديم وبأي

حال سيجده! كانت عيناه قد اتسعتا ، وكأن صدغاه قد تثلما ، وما هذه المرارة الرهيبة حول فمه؟

ما بك؟ لم تستهلك نفسك؟ من يعذبك؟

ابتسم الشاب بتراخٍ ؛ يجب الرد "اللّه" لكنه امتنع. كانت هذه هي الصرخة التي أبقاها في صدره، ولم يشأ أن يتركها تهرب عبر شفتيه.

ـ أعارك.

ـ مع من؟

ـ لا أعرف، أعارك.

حدق الأصهب بالشاب: مستفسراً عينيه، ملتمساً إياه ومهدداً ، لكن هاتين العينين السواداوين المكروبتين المفعمتين بالفزع لم تجيبا.

فجأة تألقت روح يهوذا ، وهو يقترب من العينين المعتمتين والصامتين، رأى، ظن أنه رأى أشجاراً من زهر، مياهاً زرقاء، شلة من الناس وفي الوسط خلف الشجرات المزهرات رأى المياه والناس، مضمخين بالسوسن، رأى صليباً ضخماً أسوداً.

جلى عينيه، انتصب واقفاً وأراد الكلام إن سُئِل: "أهذا أنت ....أنت....؟"

لكن شفتيه كانتا جامدتين، أراد احتضان الشاب، معانقته، لكن ذراعيه في الهواء كانت متحجرتين.

آنئذ ، حينما رآه الشاب مفتوح الذراعين، منتصب الشعر

الأحمر، مجلو العينين، صرخ؛ انبعث حلم الليل المرعب من وجرة روحه ـ الزمرة، الأقزام، أدوات الصلب تصرخ: "انقضوا عليه، يا أولاد!" ورئيسهم، الرجل ذو الشعر الأحمر، تعرف إليه الآن، كان يهوذا، الحداد الذي انقض عليه ضاحكاً باستهزاء.

تحركت شفتا الأصهب؛ تلعثم:

أهذا أنت ...... أنت ......؟

أنا؟ نعم؟

لم يجب الأصهب. غض شاربيه وتأمل. كان نصف وجهه من جديد يشع، والنصف الآخر غارقٌ في الظلمة. حرك في روحه الأمارات والمآثر التي أحاطت بالشاب منذ ما ولد بل قبل .... عصا يوسف "التي وحدها بين عصي أزواج المستقبل كانت مزهرة؛ والحاخام أعطاه الجميلة بين الجميلات، مريم التي تبتلت لله. وانقضت بعدئذ الصاعقة في يوم الزواج وشلت العريس قبل أن يلمس زوجته. وبعدئذ، قيل إن العروس استنشقت زنبقة بيضاء، وحبلت بالابن..... وحلمت، كما يبدو، ليلة الولادة: السموات مشرعة، تهبط منها الملائكة، تصطف كالعصافير على حافة سطح بيتها المتواضع، تصنع عشها وتغرّد، وأخرى تحرس عتبة الدار، وثالثة تدخل، توقد النار، تسخن الماء لغسل الوليد الآتي. ورابعة تحضر المغلي لتشرب النفساء.

دنا الأصهب بهدوء وتردد من الشاب وانحنى عليه؛ كان صوته الآن مليئاً بالانفعال، بالرجاء والخوف:

ـ أهذا ما كنت أنت ..... أنت؟ سأل دونما جرأة على متابعة الكلام.

انتفض الشاب، خائفاً.

ـ أنا.... أنا؟ قال بضحكة سريعة وتهكمية: ألا تراني لا أقدر أن أتكلم؟!.

ـ لست شجاعاً لأذهب إلى الكنيس، منذ أتى هؤلاء الناس غادرت المكان، دست بقدمي بدون حياء وصايا الله ـ أعمل في يوم السبت.....

رفع الصليب الذي وقع، أوقفه وأخذ المطرقة.

والآن، انظروا، أصنع صلباناً وأصلب! قال، وانخرط أيضاً بالضحك؟ لم يقل الأصهب شيئاً، استشاط غيظاً، فتح الباب؛ جمهرة أخرى، مضطربة، تقدمت من طرف الشارع ـ عجائز مبعثرات، شيوخ مشوهون، عرج، عمي، برص، كل مرضى الناصرة؛ كان هؤلاء أيضاً يصعدون مبهورين لاهثين يجرون أنفسهم نحو رابية الصلب. الساعة المعينة تقترب؛ أتى وقت أن أعتذر، قال الأصهب، إن اختلط بالشعب ننقض جميعاً، لنقبض على زيلوت ـ وآنئذ سنرى إن كان هو الفادي أم لا. لكنه تردد؛ بغتة انقضت عليه عصفة ريح باردة، لا، ليس هو مصلوب اليوم. ذاك الذي من عرف العبريين ينتظر منذ أجيال. غداً... غداً! منذ ما بدأت بالفحص والتدقيق، يا إله إبراهيم! غداً.. غداً.. غداً! إنما متى إذن؟ نحن بشر، نحن تعبنا أخيراً.

كـان مـشوشاً حـدج بغـضب الـشاب الـذي كـان يـدق المسامير، يغرسها كلها في الصليب: "هل كان هـذا هـو صـالب الناس؟ أصوات اللّه معذبة غامضة أكان هو ذاك؟"

وراء العجـائز والمعلـولين اللامبـالين الـصامتين كـان جنـد الدورية الرومانية يتقدمون الآن، بدروعهم، برمـاحهم وخـوذاتهم الفولاذيـة؛ كـانوا يـدفعون أمـامهم الجمهـرة البـشرية ويحـدجون العبريين بازدراء.

كـان ذو الـشعر الأحمـر ينظـر إلـيهم بعـين كـارهـة، وقـد التهب دمه؛ التفت إلى الشاب؛ كما لو كان هو الغلطان، كان يرغب عن النظر إليه. صرّ قبضتيه وناداه:

ـ أنا ذاهب، افعل ما شئت، يا صـالب النـاس، أنـت جبـان، أنت المنادي العام! لكن اللّه سيرميك بالنار، كمـا رمـى أبـاك، ويحرقك. هوذا ما أقوله، تذكـر هذا!!.

بقـي الـشاب وحيـداً؛ اسـتند إلى الـصليب، مـسح العـرق عـن جبينه؛ كـان نفسه قـصيراً، كـان يتنهـد، بعـد لحظـة راح كـل شيء حوله يدور، ثم عاد كل شيء كما كان. سمع أمه تشعل النـار، بـدأت منـذ الـصبح مطبخهـا، لتـوفر الوقـت للـذهاب هـي الأخرى لرؤية الصلب؛ كان كل جيرانها قد ذهبـوا. كـان أبـوه يدمدم باستمرار ويجهد لتحريك لسانه، لكن حلقه فقط كان سليماً، وكـان يضحك ضحكـاً خفيفاً. في الخارج كان الشارع فارغاً مرة أخرى.

وبينما كان واقفاً، مستنداً إلى الصليب، مطبق العينين، لا يفكر بشيء، ولا يسمع سوى خفقات قلبه، انتفض فجأة من الألم، شعر مجدداً بالطائر الجارح غير المرئي الذي ينشب مخالبه عميقاً في قمة جمجمته تمتم:

"عاد .... عاد..... " ـ راح يرجف. شعر بالمخالب تترك ثقوباً عميقة، تسحق عظامه وتلامس دماغه. صر على أسنانه كي لا يصرخ، ولا يخيف أمه ويجعلها تزعق. أخذ رأسه بيديه وراح يضغط، كمن يخشى من أن يهرب منه. تمتم: " عاد ..... عاد ...." كان يرتجف.

الأولى... المرة الأولى تماماً، كان في الثانية عشر من عمره؛ وكان في حضرة كبار السن، في الكنيس وكان يصغي لهم يشرحون، عرقانين وذاكرين، كلمة الله؛ شعر في قمة رأسه بدبيب نمل بطيء، خفيف، أنيس جداً كمداعبة، أغمض عينيه. إنها عذوبة لم تُعرَفْ! هذا الجناح الزغب الذي حمله وارتفع به إلى السماء السابعة، يجب أن يكون هو جنة الخلود! من أهدابه المنخفضة، من شفتيه المفترتين سعادة انبعثت بسمة آبدة، عميقة لامستْ بحرارة جسده؛ غاب كل محيّاه. والشيوخ الذين رأوا هذه البسمة الصوفية التي ابتلعت الولد، حدسوا أن الله حمله بمخالبه؛ وضعوا إصبعهم على شفتيه وخيم السكون. تصرمت سنون انتظر، تريث لكن الدعابة لم تعد أبداً. وفي يوم الفصح والدنيا ربيع رائع ذهب إلى قرية أمه "قانا" ليختار

عروساً. أمه تعذره أبداً، تبغي تزويجه. كان عمره عشرين عاماً، كانت وجنتاه مشبعتين بزغب كثيف جعد، وكان دمه يغلي في الليل، لم يستطع النوم؛ استثمرت أمه حمى شبابه، نجحت بشده إلى قانا، قريتها، لينتقي عروساً.

كان واقفاً، بيده وردة حمراء ويتأمل صبايا القرية اللواتي يرقصن تحت شجرة حور وارفة الظل فتية. وفي بحر تأمله راح يزن بنفسه اللا والنعم، إنه يريدهن كلهنّ، وليس له قدرة على الاختيار، سمع بغتة وراءه ضحكة صاخبة كما نمير ينبع من أحشاء الأرض. التفت ورآه تأتي إليه، بكل زينتها، حلقات برونزية في الكعب، أقراط وخف أحمر، الشعر مرسل مبهرج كعقاب في الجو، ابنة الحاخام الوحيدة، أخي أبيه، مادلين؟ غلى في كيانه روح الشباب. "هذه هي التي أريد!" صرخ. "هذه هي التي أريد!" ومد يده ليعطيها الوردة. إنما وهو يمد يده انغرست عشرة مخالب في رأسه، جناحان مسعوران حطا فوقه واحتلا بعنف صدغيه. أطلق زعقة حادة وسقط على وجهه مزبداً؛ آنئذ غطته أمه المسكينة بنقابها، أنهضته بذراعيها، مسحوقة من الخجل، أخذته وغادرت.

منذ ذلك اليوم، ضاع في الليالي المقمرة وهو يتجول في الحقول، أو في الليل الهادئ، في نومه، في الأغلب في أثناء الربيع، وكل شيء مزهر، يفوح عطراً، كلما كان سعيداً يذوق ابسط الأفراح البشرية، يأكل، ينام، يلقى أصدقاءه.

يضحك، يصادف بنتاً في الشارع ويقول لنفسه: "إنها ترضيني" في الحال تتغرس المخالب العشرة فيه وتتلاشى رغبته".

أبداً لم تتزرع هذا المخالب فيه بهذه الوحشية إلا في ذلك اليوم؛ ينكب على المقعد، مغمور الرأس في الكتفين؛ يبقى برهة هكذا، العالم ينهار؛ يسمع هزيماً في داخله، وفوقه أجنحة تخفق بحنق.

رويداً رويداً ارتخت المخالب، تلاشت، حررت بداية عقله، ثم العظم، ثم جلدة رأسه، وبغتة أحس الشاب راحة عميقة وتعباً شديداً. انزلق خارج جحره إلى تحت المقعد، رفع يده إلى رأسه؛ بحث بهيجان، عبر شعره، قمة رأسه؛ خُيّل له أن فيها ثقباً؛ بعد البحث المحموم لم يجد أي جرح تحت أصابعه؛ هدأ لكنه وهو يسحب يده رأى الجرح بكل وضوح وارتجف، قطرات دم تنساب من أصابعه؟!.

قطع الله القيود، تمتم، اندفع ...... الدم يسيل.

رفع نظره، نظر: لا أحداً. مع ذلك أحس في الهواء رائحة لاذعة لطائر جارح. ـ "رجع ..... إنه هناك حولي، تحت رجلي، على رأسي......" همس بخوف، وانتظر. الهواء هادئ، ساكن ـ لا صوت له، والضوء يتراقص، فرحاً وبريئاً على الحائط أمامه، وعلى السقف القصبي. "لن أفتح فمي، لن أنبس بكلمة، قرر بنفسه؛ ربما حنّ علي، ورحل ...."

لكنه ما إن أخذ هذا القرار حتى فتح فمه وقال بصوتٍ

متألمٍ:

ألم يدمني؟ لمَ يحملني؟ حتى متى تلاحقني؟

في البداية، لا شيء؛ كان الهواء ساكناً؛ إنما فجأة راح فوقه أحدهم يتكلم؛ أنصت، أصغى كان ينصت ولا يكف عن هز رأسه بعنف، كمن يريد أن يقول: " لا... لا... لا!"

أخيراً فتح فمه بدوره؛ لم يعد صوته يرتعش؛ قال:

لا أقدر! أنا عامي، تنبل، جبان، أحب الأكل الطيب، الخمر، الضحك، أريد أن أتزوج، أن أنجب أولاداً، اتركني وشأني!

صمت، أنصت:

ماذا تقول؟ لا أسمع!

وضع يديه على أذنيه ليلطف الصوت الوحشي الذي يتكلم فوقه. الوجه مندغم، ماسك أنفاسه، يصغي ويجيب: ـ نعم، نعم، أنا خائف..... إن أردت الكلام، ماذا أقول؟ لأقوله كيف؟ أنا عامي، أقول لك إني لا أقدر! ماذا؟ مملكة السماء؟ أسخر من نفسي، أنا من مملكة السماء؛ الأرض هي التي تفرحني؛ أريد أن أتزوج، أقول لك، من مادلين، ولا فرق إن كانت عاهرة، بغلطتي صارت هكذا، وأنا من سينقذها .... لا، ليست الأرض، ليست الأرض، مادلين هي التي يكفيني إنقاذها! ... تكلم بهدوء، لأسمعك!

(3)

وضع يده في مقدمة الخوذة أمام عينيه، فبهره الضوء الخافت الساقط من الكوة؛ ثبت عينيه في الفضاء، في السقف، وانتظر. أمسك تنفسه وأنصت. بقدر إصغائه، تألق وجهه، مكر، رضي والضوء يرقص على الشفاه الندية، التي تلمع؛ فجأة راح يضحك.

نعم، نعم، تمتم، أنت فهمت جيداً، نعم، واضح، افعله بوضوح؛ لكي تمقتني، وتبحث عن آخر، لأتخلص.

وثق: نعم، نعم، هذا واضح، وكل حياتي سأصنع صلباناً، لصلب كل مسيح تختاره! قال هذا، رفع عن الجدار الحزام الذي وضع فيه المسامير. تطلع إلى الكوة؛ الشمس فولاذية الآن. يجب العمل بسرعة، نحن في حر الظهيرة، ساعة وجوب وضعه على الصليب.

ركع على ركبتيه زلق كتفه تحت الصليب وأمسكه بيديه؛ حتى الباب خطا خطوة مترنحة، خطوتين بشق النفس، قبيل أن يصل انحنت ركبتاه، جعل رأسه يدور، وسقط على بطنه في العتبة، رازحاً تحت ثقل الصليب.

رج البيت الصغير؛ سمع صوتاً حاداً من امرأة، فتح الباب الداخلي وظهرت الأم.

بقد أهيف طلت الشمس بالذهب جلدها، وعينيها الواسعتين. كان زخم صباها قد ولى، دخلت في سن المرارة القلقة وتواضع خريف العمر. كانت دوائر زرقاء تحيط

حدقتيها، كان فمها مغلقاً وتغضّن كفم ابنها، لكن الذقن كان أقوى وأطوع. كان على رأسها نقاب من الكتان البنفسجي، وكان في أذنيها قرطان من الفضة طويلان، الحلية الوحيدة ترن في أذنيها.

وراءها، وهي تفتح الباب، ظهر جذع جالس على سريره عارياً، أدكناً، متورماً، مسمر العينين، هو الأب. قدمت المرأة لتطعمه، وكان أيضاً يلوك الخبز بصعوبة، والزيتون والبصل، كان الهدب الأبيض والجعد في صدره مليئاً باللعاب وفتات الخبز. إلى جانبه العصا الشهيرة كاشفة الغيب، التي أزهرت في يوم خطبته؛ هي الآن من الخشب الجاف.

دخلت الأم، رأت الابن منطرحاً في الأرض تحت الصليب، مزقت بأظافرها وجنتيها وجعلت تتأمله دون أن تسارع لإنهاضه؛ كانت قانعة أنها ستراه في كل لحظة عائداً إلى البيت، مغمى عليه، أنها ستراه يطوف الحقول والزوايا المنعزلة، يقضي أياماً دونما أكل، رافضاً مزاولة العمل وباقياً ساعات، وعيناه في الفراغ، كمن سحر وهمد. لم يكن هذا إلا عندما طلب منه صليباً لصلب الناس، إذ ينصرف مطأطئ الرأس إلى العمل ليلاً ونهاراً، كمنذهل. لم يعد يذهب إلى الكنيس، ما عاد يرغب في العودة إلى قانا بأي مناسبة، وفي الليالي القمراء تتذبذب أفكاره والأم المسكينة تنتظره تهذي في نومها كمن يصارع إبليساً.

كم مرة ذهبت لتقع على قدمي أخي زوجها، الشيخ

الحاخام، القادر على طرد الأبالسة؛ يأتيه المخابيل من كل صوب ويشفيهم!!. بالأمس الأول أتته أيضاً وقعت على قدميه شاكية: "تشفي الغرباء، وتزوّر عن شفاء ابني؟" هز الحاخام رأسه:

ـ مريم، أجاب، ليس الإبليس مَنْ يعذب ابنك، بل هو اللّه: في هذا الوضع، أي يدٍ لي؟

ـ أليس ثمة علاج، سألت الشقية؟ ـ هو اللّه، أقول لك، لا علاج. ـ لِمَ يعذبه؟ تنهد الشيخ طارد الأرواح الشريرة ولم يجب. لماذا يشقيه؟ كررت الأم السؤال ـ لأنه يحبه يا مريم، أجاب العجوز أخيراً. نظرت إليه المرأة خائفة، فتحت فمها لتسأله، لكن الحاخام أسكتها: ـ هذه هي شريعة اللّه: لا تسأليني قال مزوياً بين أهدابه، وأشار لها أن اذهبي.

انقضت أعوام والشر مقيم. عاشتها الأم مريم، عانت ما يكفي؛ والآن تراه منكبّاً على وجهه في العتبة مع الدم المراق من جبينه، ولم تبد حركة، جأرت فقط من أعماق أعماقها على مصير ابنها؛ كانت مثال البؤس في حياتنا: معذبة مع زوجها، مع ابنها؛ أرملة قبل أن تتزوج، كانت أمّاً من دون أبناء. لقد شاخت، كان البياض يزداد في شعرها كل يوم دون أن تعرف الشباب، حرارة الإنسان وعنفوان المرأة الزوجة، العذوبة. القدرة على البكاء، لم ينضب الدمع من عينيها. سفحت كل الدموع التي أعطاها اللّه، والآن تعيش مع زوجها وابنها بعينين ذابلتين. وإن كانت تبكي من حين إلى آخره؛ عندما تكون

وحدها، وفي أيام الربيع، وهي تتأمل الحقول من مسافة بعيدة، وتشم الشجر المزهر؛ لكنها في هذه الأوقات لا تبكي زوجها ولا ابنها، بل حياتها الضائعة.

كان الشاب قد نهض ومسح دمه بطرف ثوبه؛ التفت، رأى أمه التي تحدق إليه شزراً وتنذهل. هو يعرف هذه النظرة التي لا تعذر شيئاً، يعرف هاتين الشفتين المضموتين والعنيفتين؛ لكنه لم يعد يطيق، ذاق ما يكفي من الحياة مع عجائزه المشلولة، أمهاته التي لا تشفق والنصائح العادية اليومية: كل، اعمل.. كل، اعمل، تزوج!

فتحت الأم شفتيها المضموتين:

ـ يا يسوع قالت برنة معاتبة: مع من تعاركت أيضاً منذ الصباح الباكر؟ عض الابن شفتيه خوفاً كي لا يبوح ببنت شفة؛ فتح الباب، دخلت الشمس، ودخل معها هواء مغبر، كاو، آت من الصحراء. مسح العرق والدم عن جبينه، أبعد كتفه من تحت الصليب ونهض، دونما نأمة.

ضمت الأم شعرها المرسل على كتفيها، وشدته تحت النقاب، وخطت خطوة لتدنو من ابنها. إنما لما رأته تحت الضوء، ارتجت، راح وجهها يتغير في كل لحظة، ينساح كماء النهر! كانت تراه كل يوم لأول مرة، وتكتشف كل يوم في عينيه، ـ على جبينه، على ثغره ـ نورا غير مشهود، ابتسامة مرة فرحة، مرةمترعة بالضيق والشدة، هالة نهمة تلمس جبهته ذقنه رقبته وتقضمه، في ذاك اليوم

كانت شعلات ضخمة، سوداء تنبعث من عينيه.

في لحظة ما، رغبت في أن تسأله، مبلبلة: "من أنت؟" لكنها أمسكت. "ولدي!" قالت: كانت شفتاها ترتعشان؛ صمتت وانتظرت لترى أصحيح هذا هو ابنها: التفت ليراها، ليكلمها؟ إنما لم يلتفت؛ قام فجأة بحركة ليضع الصليب على كتفه ويتخطى العتبة دون أن يترنح.

والأم، مستندة إلى حجاب الباب، رأته يمشي خفيفاً على البلاط، ويتسلق التلة؛ ربي، من أين أتته هذه القوة؟! لم يكن هذا صليباً، كان الحمل جناحين يحملانه.

سيدي.. إلهي.. تمتمت الأم محتارة، من هذا؟ مم قد الابن؟ هو لا يشبه أباه، لا يشبه أحداً، يتغير كل يوم، هو ليس واحداً، هو عدد، إني أرتعد. تذكرت أمسية ضمته فيها إلى صدرها في الباحة إلى جانب البئر، كان الوقت صيفاً، فوقها كان الكرم غاصاً. يالعنب؛ أعطته ثديها، وفجأة، أخذها النعاس؛ عبر ثواني تمكنت من رؤية حلم لا ينتهي: رأت ملاكاً في السماء يحمل بيده نجماً مشعشعاً كقنديل؛ تقدم وأنار الأرض تحته؛ ورأت درباً في الليل، منوراً، ملتوياً كأفعى من نار، تقضم ذاتها وتنطفئ تحت قدميها.... وبينما كانت تتأمل المشهد، مفتونة، سألت: من أين يمكن أن يبدأ هذا الدرب ولمَ انتهى عند قدمي؟ رفعت عينيها وإليكم ما رأت: كان النجم فوق رأسها، وفي طرف الدرب المنار بالنجم ظهر ثلاثة فرسان، وثلاثة تيجان ذهبية تتألق

علـى رؤوسـهم. توقفـوا لحظـة نظـروا إلى الـسماء، رأوا الـنجم ساكناً، همزوا خيولهم ووثبوا إلى أمام. آنئذ ميزت الأم بوضوح وجههم؛ الأول الذي في الوسط شجرة ورد بيضاء، مراهق لم يلتح ذو شعر أشقر؛ إلى يمينه رجل أصغر بلحية سوداء ومدببة وعينين مغوليتين؛ إلى يساره زنجي أبيض الشعر تماماً وأجعده، حلق برونزي في أذنيه، وفي فمه أسنان تلمع قبل أن يتوفر الوقت للأم لتميزهم جيداً وتغطي عيني الابن حتى لا ينبهروا بالضوء الساطع، كان الفرسان الثلاثة هنا، وثبوا إلى الارض، ركعوا أمامها، وترك الولد الثدي وانتصب واقفاً على ركبتي أمه. تقدم أولاً الأمير الصغير الأبيض، رفع عن رأسه التاج ووضعه بتواضع عند قدمي الطفل، ثم الزنجي زحف على ركبتيه، سحب من صدره قبضة من الياقوت الأحمر والزمرد ونثرها بكل هدوء على رأس الولد، ليلعب ..... حدق الطفل بالثلاثة، ابتسم لهم، لكنه لم يمد يده ليأخذ الهدايا.

فجأة اختفى الملوك الثلاثة وتقدم راع صغير يرتدي جلد خروف، أخذ بيديه برنية مليئة بالحليب الحار، ولما رآه الطفل. راح يرقص على ركبتي أمه قرب رأسه الصغير من البرنية، وبدأ الشرب، لذيذ وباق، الحليب...... استندت الأم إلى حاجب الباب وجعلت تستعيد في ذهنها الحلم الخالد؛ زفرت نفساً. أي آمال أعطاها هذا الابن الوحيد؟ أي نبوءات قدم القائلون بالمغامرة الطيبة؟ بأي عين سينظر الحاخام للأم؟ أخذ الكتاب وراح يقرأ

فصل الانبياء، فتش في صدره، في عينيه، في قدميه ليجد أمارة! لكن للأسف! كلما انقضى الوقت، ذبلت الآمال، أخذ ابنه الدرب الخطأ، لم يكف عن الابتعاد عن طريق الناس......

ضمت بعنف منديلها، قفلت الباب وأخذت أيضاً الدرب الصاعد لتذهب ترى الصلب، لتزجية الوقت.

كانت الأم تمشي، تمشي، مسرعة، لتضيع في الزحام الممتد أمامها، سمعت النساء تعول، خلفها، الرجال مرعبون، خناجرهم مخبأة في قمصانهم، وسخين، حفاة يلهثون، وراءهم يأتي العجزة، ووراءهم يأتي العرج، العميان، المقعدون. كانت الأرض تهتز تحت أقدام الرجال، يرتفع الغبار كما السحاب، الهواء ثقيل، وفوق هذا، بدأت الشمس تسطع . التفتت عجوز، رأت مريم واطلقت شتيمة؛ أدارت جارتان رأسيهما وبصقتا لتجنب الحظ السيء، وزوجة شابة لمت مرتجفة ثوبها كي لا يمس ثوب أم صالب الناس، تنهدت مريم، حبست نفسها بعنف في نقابها البنفسجي؛ لم يعد يُرى سوى فمها، المطبق، المر، وعينيها اللوزيتين، الغاصتين بالضيق؛ كانت تتقدم وحدها، تتعثر بالحجارة. تستعجل الاختباء، الضياع بين الناس، حولها يعلو الهمس، لكنها تشجعت، وتقدمت.

"ابني، ولدي حبيبي، قالت، ابني ولدي حبيبي، أين وصلت؟" وعضت طرف منديل رأسها لتمسك نفسها عن النحيب.

بلغت الجمهرة، تخطت الرجال، ولجت لتتكوم بين

النساء، وضعت يدها على فمها ، لم تعد تُرى الآن سوى عينيها ، لم تتعرفها أية جارة، هدأت.

فجأة شب صخب خلفها ، تقدم الرجال، أبعدوا النساء ليتقدموهن، وصلوا الثكنة حيث أودع زيلوت Zelote السجن، استعجلوا تحطيم الباب لتحريره ابتعدت مريم، اختبأت خلف حاجب الباب وسكنت.

في وسط اللحى الطويلة المضمخة بالزيت، والشعور المرسلة الشحمية، والأفواه المزبدة، كان الحاخام الشيخ، يستند إلى كتفي عملاق ذي هيئة وحشية، يحرك ذراعيه نحو السماء صارخاً. ماذا يصرخ؟ أنصتت مريم وسمعت.

ثقوا بشعب إسرائيل، يا أولادي إلى الأمام كلكم لا تخشوا؛ ليست روما سوى هباء. سيزفر اللّه وستتشتت! تذكروا المؤابيين كيف طردوا وأهانوا اليونان سادة العالم، بذات الطريقة سنطرد ونهين الرومان نحن أيضاً؛ ليس ثمة سوى سيد المجد ، إلهنا!

هنا وثب المسن الحاخام، مأخوذاً باللّه وراح يرقص فوق كتفي العملاق العريضين، لم يعد يستطيع الركض، قد شاخ، أضناه الصيام، الاستعباد والآمال العراض؛ أخذه الجبلي الجبار وتقدم به أمام الشعب؛ حرّكه في الهواء كالعلم.

هيا! بارابا ، صاح الشعب، سيسقط بين يديك!

أما هو بدون مبالاة ثنى العجوز فوق كتفيه وانطلق في دربه.

نـادى اللّه بـصوت جهـوري؛ الهـواء فـوق رؤوسـهم اشـتعل، انبعـث اللـهب ومزجـت الـسماء بـالأرض، ترنحـت عقـول النـاس. هـذا العـالم صـانع الحجـارة، الأعـشاب واللحـم تبـسط، صـار شفافاً ومشى خلف العالم الآخر ليصنع شعلات وملائكة!!.

اندفع يهوذا؛ مد يديه، أبعد الحاخام العجوز عن كتفي بارابا، رماه مفرشخاً على كتفيه وراح يخور: "اليوم، لا غداً، اليوم!" اهتاج الحاخام هو الآخر وبدأ يغني بصوته الهزيل الواهي مزمور النصر؛ وبدأ كل الناس الغناء:

"الأمم نصبوني، وأنا باسم ربي أشتتهم!

"الأمم اعتقلتني، وأنا باسم ربي أبعثرهم!

"أحاطوا بي كفرخ نحل؛ وأنا باسم اللّه أمزقهم!"

لكـن بينمـا كـانوا يغنـون ويبـددون الأفـق بفكـرهم، انتصب امام عيونهم، في وسط الناصرة، بناء ضخم بزوايا أربع برونزية جبارة، قلعة الخصم، الثكنة في الداخل، يقيم إبليس في كل ركن، في قمة الأبراج رايات روما الصفراء والسوداء مع أجنحتها؛ تحت هذا قائد المئة دموي الناصرة، روفس Rufus، موحشة؛ وفي الأسفل، الخيول، الكلاب، الجمال والعبيد، وأوطأ أيضاً، شعور النساء محروقة من الخمر ملبدة في قاع حفرة سحيقة، وزيلوت المتمرد الذي ليس له سوى أن يحرك رأسه حتى ينهال البناء فوقه ومعه الرجال، العبيد، الخيول، الأبراج، هكذا خبأ اللّه دوماً في قاع أسس الشر

صوت العدالة الضعيف والمهان.

كان زيلوت هذا آخر سليل من عرق المؤابيين الكبير؛ مد الله يده عليه ولم يدع هذه الأرومة العظيمة تختفي والملك العجوز هيرودت اللعين طلى بالقطران اربعين شاباً وأمر بحرقهم كمشاعل الله، لأنهم هدموا النسر المذهب الذي أقامه ملك يهوذا، الخائن، في المدخل، الذي لم يدنس بعد الهيكل، كان المتآمرون واحداً وأربعين، وقد أدين منهم أربعون لأن قائدهم هرب؛ أمسكه إله إسرائيل من شعره وأنقذه، كان مراهقاً، غير ملتحٍ، زيلوت هذا آخر سلالة المؤابيين. آنذاك، عبر سنين، كان يطوف الجبال، اندحر في سبيل تحرير الأرض التي أعطاها لإسرائيل، ليس سوى ادوني سيداً لنا، قال: لا تدفعوا الضرائب لأمراء هذا العالم، لا تتركوا أصنامهم، نسورهم، تدنس هيكل الله، لا تذبحوا عجولاً ولا خرافاً فدية للطاغية، للإمبراطور، ليس سوى الله، الذي هو إلهنا، وسوى شعب واحد الذي هو شعب إسرائيل، سوى ثمرة على أية شجرة في الأرض، التي هي ثمرة المسيح "إنما سحب الله فجأة يده عن رأسه، فاعتقله قائد مئة الناصرة روفس؛ خرج الفلاحون، العمال، البرجوازيون من أكواخهم، وكان أتى أيضاً صيادون من بحيرة طبريا؛ في بحر أيام هوذا يثب من بيت إلى آخر، من قارب صيد إلى قارب صيد، ويقبض على عابري الدروب، خبر أصم، مريب، غامض: "صلب زيلوت، واختفى آخر؛ ضاع! " صرخت،

وحيناً بالعكس: " سلاماً، يا أخوة، الفادي وصل، خذوا أكبر أغصان النخلة واذهبوا، جميعاً سوية إلى الناصرة، لتحتفوا به، وتتمنوا له طيب الإقامة.

ركع الشيخ الحاخام على كتفي الأصهب، مد ذراعيه باتجاه الثكنة وعاد إلى الصياح:

هو هنا... هو هنا! المسيح القابع في الحفرة يقف وينتظر. من ينتظر؟ نحن، شعب إسرائيل! إلى الأمام، حطموا الباب، حرروا المنقذ ليحررنا.

باسم إله إسرائيل! دفع بارابا زعقة وحشية وامتشق بلطته. ماج الشعب وهاج، سكاكينه في صدوره، قطيع الأولاد أعدوا المقاليع ومشوا كلهم، بارابا في الطليعة، باتجاه باب الحديد. انبهرت كل العيون بنور الله الساطع، لم يروا الباب الخفي المنخفض مفتوحاً ليخرجوا منه، مسحوا عيونهم التي غشيتها الدموع، الدكناء، ولم يروا مادلين. كان قلبها يضج حنوّاً على ذلك الذي سيموت وقد نزلت في الليل إلى الحفرة لتعطيه الفرح الأخير، أحلى ما عندها للعطاء في هذا العالم. لكن المدان كان من عشيرة زيلوت البدائية، وأقسم اليمين، حتى تحرير إسرائيل، أن لا يقص شعره، أن لا يحمل الخمرة إلى شفتيه، أن لا يطأ امرأة. بقيت مادلين طيلة الليل أمامه تتأمله؛ أما هو، من هناك، في البعيد، خلف شعر المرأة الأسود، ينظر إلى القدس الراهنة الخاضعة العاهرة، إنما قدس المستقبل الطاهرة بأبوابها

السبعة المظفرة، وملائكتها السبعة الحراس، وشعوب الأرض السبعين الراكعة على أقدامها وجهها إلى الأرض. كان المدان يداعب العنق اللدن لقدس المستقبل والموت تبدد، رق العالم وحلى وتمهد، وملأ بطن يده، أغمض عينيه، أمسك عنق القدس ببطن يده ولم يفكر إلا بشيء واحد ــ الله، بدون مكر، بدون خمر ولا امرأة، إله إسرائيل. قضى زيلوت الليل بطوله والقدس على ركبتيه، يبني في أحشائها، كيفما شاء، لا ملائكة ولا غيوم، بل ناس وأرض، نداها الشتاء ولطفها الصيف، مملكة السماء.

رآها الحاخام العجوز يخرج من الثكنة، بانت ذليلة؛ أدار وجهه؛ كانت هذه مشبعة خجلاً من حياتها: كيف قدر أن يخرج من أحشاء هذه الزانية، التي كانت نقية وتعبد الله؟ أي إبليس أو أي اس مستعص صعقها وجعلها تسلك درب العار؟ في يوم عادت من عرس في قانا وراحت تندب وتنتحب، رغبت أن تقتل ذاتها، ثم اندفع الضحك من صدرها. تداعت، وضعت حليها، تنزهت في الشوارع، ثم غادرت بيت أبيها وراحت لتنصب خيمتها في مجدلا Magdala، عند تقاطع الشوارع، من حيث تعبر القوافل ....

كان صدرها ما يزال مكشوفاً، تقدم خجلها للناس، فقدت شفتاها مسحوقهما، كانت وجنتاها وعيناها مضبتين لطول مراقبة الرجال والبكاء؛ رأت أباها يدير رأسه، خجلاً، وعلى فمه ابتسامة صفراء مرة؛ لقد تخطت الخجل، الخوف من

اللّه؛ حب أبيها ورأي الناس، اتهمت بتلبسها سبعة شياطين؛ ليس فيها سبعة شياطين بل سبع سكاكين في قلبها. تحرك الشيخ الحاخام ليدفع صراخاً ليسمر كل العيون عليه ولا ترى العيون ابنته؛ كان يكفي أن يراه اللّه: فهو الديان.

التفت إلى كتفي ذي الشعر الأحمر، زعق:

افتحوا عيون الروح، انظروا السماء. اللّه جالس فوقنا. السماء ممزقة، جيوش الملائكة زاحفة. امتلأ الهواء أجنحة حمراء وزرقاء.

اشتعلت السماء قيظاً، رفع الشعب عينيه، رأى فوقه اللّه ينزل مسلماً؛ رفع بارابا بلطته، صاح: "اليوم، لا غداً، لا غداً!" ومشى الشعب إلى الثكنة؛ هجموا على باب الحديد، وضعوا حواجز من حديد، حملوا السلالم، أخذوا معهم المشاعل؛ بغتة انفتح باب الحديد ظهر فيه فارسان برونزيان، مسلحان من الكعب حتى الرأس، لوّحتهما الشمس، بدت الثقة بالنفس على محياهما، همزا مطيتيهما، رفعا رمحيهما، وفجأة غصت الشوارع بالناس المنقضين على تلة الصلب زائقين.

(4)

كانت جرداء، مفروشة بحصى الصوان، هذه التلة اللعينة، وتكتنفها الأشواك. تحت كل الحجارة المنتفضة كان يوجد قطرات دم جاف؛ كلما تمرد العبريون وطلبوا الحرية، تغص هذه الرابية بالصلبان وفوق هذه الصلبان تلوّى وجأر

المتمردون؛ جلب الليل الثعالب لتنهش أرجلهم، في صباح اليوم التالي حطت غربان سملت عيونهم.

في أسفل التل، توقف الشعب لاهثاً؛ هجم عليهم خيالة برونزيون آخرون، صالوا وجالوا، طردوا اليهودية juiverie وهدأوا كالحواجز. ما كانوا بعيدين عن الظهر وما كان الصليب قد وصل بعد؛ حدادان بوهيميّان، في قمة التل، في أيديها المسامير والمطارق وينتظران؛ قدمت كلاب الضيعة، جائعة؛ وجوهها متجهة إلى الرابية تحت السماء المتوهجة حرارة، بل الملتهبة: عيون من شرر، أنوف محدبة، وجوه تعبة، الأصداغ حصباء، قذرة؛ والنساء اللاحمات، مبللات الآباط الشعور مطلية بشحم الأمعاء، شققتها الشمس وراحت تعبق. زرافة من الصيادين لذعت الشمس والهواء وجوههم وصدورهم وأذرعهم، بعيون فتيان رائعة، أتوا أيضاً من بحيرة طبريا لرؤية المعجزة ـ الزيلوت، في لحظة جلبه إلى الصليب بأيدي الكفار، رمى أسماله، فانبثق ملاك يشهر سيفاً. كانوا قد وصلوا في المساء، مع سلالهم المليئة بالأسماك، باعوها بأثمان مجزية، شدتهم الحانة حيث احتسوا، ثملوا، نسوا سبب مجيئهم إلى الناصرة، تذكروا النسوة، سعوا إليهن، وعندما وصلن إلى أيديهم تصالحوا، في الصباح كأن إله إسرائيل أتى إلى فكرهم، اغتسلوا وبدأوا دربهم، نصف نائمين، ليحظوا بمشاهدة المعجزة. انتظروا، انتظروا، طفح الكيل، نفذ الصبر، تلقوا

عدداً من العصي على جنوبهم وأسفوا لمجيئهم.

أنا أقول لنعد إلى مراكبنا، يا أولاد، قال صياد جاد ذو لحية برشاء وجبين جعد كجبين الحمقى. تذكروا ما أقول لكم؛ ذاك أيضاً، سيصلبونه ولن تفتح السماء؛ غضب السماء لا نهاية له كما ظلم الناس. ماذا تقول يا بن زباديا Zebedee؟

ما لا نهاية له هو طيش بطرس، أجاب أحد القادمين، صياد ذو لحية كثة جداً، ونظرة متوحشة، وهو يضحك. دونما رغبة في إزعاجك، يا بطرس، لقد ابيضّ شعرك، صحيح، لكن عقلك لم يكبر؛ خلال ثانية تشتاط وتغلي ثم تنطفئ كالهشيم. ليس أنت، من أتى يبحث عنا، من ركض كالمجنون، من زورق إلى آخر صارخاً: "تعالوا، يا إخوتي، ليس في كل يوم من حياته يرى الإنسان معجزة؛ هلموا إلى الناصرة لنراها!" والآن لما تلقيت ضربتي عصا على ظهرك سرعان مابدلت اللازمة: "تعالوا، يا أولاد، نغادر المكان!" الحق لدى من سماك دوّارة هواء!

صيادان أو ثلاثة يسمعون، راحوا يضحكون؛ وراعٍ ينشر رائحة التيس، رفع عصاه وقال:

لا تزجره يا جاك، حتى ولو كان دوارة هواء، إنه خير منا جميعاً؛ له قلب من ذهب.

قلب من ذهب، معك حق يا فيليب، قالوا كلهم ومدوا الأيدي ليطرّوا بطرس ويطوّعوه، راح هذا يلهث خائفاً؛ ليكن ما يكون إلا دوارة هواء؛ ربما كان هكذا فعلاً أقل نسمة

هواء تأخذه معها، لكنه ليس هكذا عن خوف، بل عن طيب قلب.

يرى جاك وجه بطرس يعبس تعباً، ندم لأنه تكلم بوضوح مع بكره وقال ليغير اتجاه الحديث:

قل لي يا بطرس، من أوجد أخاك أتدريه دوماً في صحراء الأردن؟

دوماً، وأبداً، رد بطرس، وتنهد: لقد تعمد كما يبدو، وهو يأكل أيضاً جراداً وعسلاً برياً كسيده، وليعاملني الله ككاذب إن لم يُر في الحال يجوب الضيع ويصرخ هو أيضاً: "توبوا! توبوا! مملكة السماء دانية!"

أي مملكة سماء؟ ألا نخجل؟ أسألكم.

هز جاك رأسه، زوى حاجبيه وقال:

أظن أن الأمر ذاته يحدث مع أخي هنا، الخبيث هو الآخر ذهب إلى الصومعة، إلى صحراء طبريا، ليصير كاهنا؛ ولم يعمل ليكون صياداً كما يبدو، وتركني وحدي مع عجوزين وخمسة قوارب، لأضرب رأسي بالحائط.

لكن ماذا ينقصه ليزاول هذا الطيش؟ كل خيرات السماء عنده، ماذا دهاه في زهرة فتوته؟ سأل فيليب الراعي ـ وهو يتمتع في السر برؤية الأغنياء الدودة هم أيضاً تقضمهم.

فجأة يتبدل، يعامل الغير بدم بارد، أجاب جلك؛ يدور ويدور طيلة الليل على فراشه كالمراهقين الذين يحتاجون

لامرأة.

ـ حسناً ـ ليتزوج إذن، ثمة كثير من الخطيبات.

ـ يقول أنه راغب عن المرأة.

ـ إذن.

ـ مملكة السماء، هو الآخر، مثل أندريه.

فضج الصيادون ضحكاً.

على الرحب! قال صياد مسن، وفرك يديه الخشنتين بشكل سيء.

فتح بطرس فمه ليقول لكن الوقت أدركه؛ فقد سمعت صرخات مبحوحة:

"الصالب ! الصالب! هوذا الصالب"

استدارت الوجوه كلها دفعة واحدة، مبلبلة، بعيداً على الدرب بان ابن النجار الذي كان يتسلق مترنحاً لاهثاً تحت ثقل الصليب.

الصالب... الصالب! ردد الناس، بل الخائن!

رأى البوهيميان الصليب يصل من قمة التل، انتصبا بوثبة، فرحين، كانت الشمس قد شوتهما، بصقا في بطن أيديهما، أخذا معولهما وبدأا يحفران حفرة؛ وضعا جانباً على حجر المسامير الضخمة ذات الرأس العريض، طلبا ثلاثة منها، وطرقا خمسة.

شكل الرجال والنساء سلسلة بأيديهم ليمنعوا الصالب من المرور؛ تركت مادلين الجمهرة ورفعت نظرها إلى ابن مريم

الذي يصعد. انتفخ قلبه من التعب؛ تذكرت ألعابهما يوم كانا صغيرين، كان في الربيع الثالث؛ وهي في الرابع؛ يالتلك الأفراح، التي لن تنسى، يالتلك العذوبة المستحيلة الوصف! كانا كلاهما يشعران لأول مرة، بعمق شديد، بعتمة شديدة، إن أحدهما رجل والآخر امرأة؛ جسدان كانا في النهار، كما يقال، وفي الليل صار جسداً واحداً، لا يبارك فصلهما الآن التقت الفلقتان وأرادا الاتحاد، أن يرجعا واحداً. فلما كبرا شعرا بوضوح أكبر بهذه المعجزة أن يكون واحد رجلاً ويكون الآخر امرأة، ونظرا إلى بعضهما بخوف أخرس؛ كانا ينتظران كحيوانين أن يرتوي جوعهما، أن تأتي الساعة، ليرتمي في حضن الآخر، ليجمعا ما فرقه الله. ففي أمسية احتفالية، في قانا، عندما مد الحبيب يده ليعطى رهان الخطبة، الوردة، هجم الإله غير الرحيم عليهما وفصل بينهما مجدداً، منذئذ .....

غصت عينا مادلين بالدموع؛ خطت خطوة، عبر حامل الصليب أمامها.

ارتمت عليه، لا مس شعرها المعطر كتفيه العاريين، واختنقت بالدمع.

ـ صالب! نادت بصوت أبح أجش مرتعش.

التفت الشاب. برقّة ثبّت عليها ناظريه المفجوعين؛ حول شفتيه تركض رجفة تشنجية، زمت فمها لكنه سرعان ما خفض رأسه، وافتقرت مادلين للقوة لتميز ـ هل هذا خوف ألم

أم بسمة؟ مادامت حانية عليه، الزفير يركض، مادلين تكلمه.

ـ ألا تخجل... ألا تذكر؟ أين وصلت في هذا؟

وسرعان ما بدا لها أنها سمعت صوته يجيبها:

لا... لا خاطبها، ليس هذا هو اللّه، يا تعساء، ليس هذا هو اللّه، هذا هو الشيطان.

مع ذلك هاجمه الشعب ليسد عليه الطريق؛ رفع أحد الشيوخ عليه العصا وضربه؛ راعيا البقر اللذان نزلا من تل طابور ليشهدا هما أيضاً المعجزة، رمياه بمنخسيهما وسمّراه في مكانه، وتحسس بارابا البلطة وهزها بيده. رأى الحاخام الشيخ حفيده في خطر، ترك نفسه يسقط من رقبة الأصهب مستعجلاً حمياته.

قفوا، أولادي، زعق، لا تسدوا طريق اللّه، إنها لخطيئة مميتة! لا تحولوا دون تنفيذ ما كتب! لينطلق الصليب، هو اللّه الذي بعثه، ليعد البوهيميون المسامير، وليصعد رسول اللّه على الصليب، لا تخافوا، ثقوا، هي ذي شريعة اللّه: يجب غرز السكين في اللحم حتى العظم، بغير هذا لن تتم المعجرة! اصغوا إلى حاخامكم الشيخ، يا أولادي، أنا أقول لكم الحقيقة؛ إن لم يصل الإنسان إلى شفير الهاوية، لن ينبت له جناحان على كتفيه.

سحب راعيا البقر منخسيهما، رميت الحجارة من اليدين المطبقتين، ابتعد الشعب ليحرر طريق اللّه؛ عبر ابن مريم، حاملاً الصليب، مترنحاً بعيداً من جهة أشجار الزيتون سمع زعيق ينشر الهواء؛ وكلب اللحام الجائع نبح من الفرح في قمة

التلة ومن مكان آخر في وسط الجمهرة صرخت امرأة ذات نقاب بنفسجي وانهارت.

كان بطرس في هذا الوقت واقفاً صامتاً، العينان تبصان، ورأى ابن مريم، كان يعرفه. كان بيت أهل مريم في قانا قبالة بيت أهل بطرس. كان وأبواها يواكيم وحنه أصدقاء طفولة؛ كانوا طاهرين، تتردد الملائكة بانتظام على بيتهم المتواضع وإحدى المرات رأى الجيران الله ذاته، منتحلا هيئة شحاذ، تخطى في الليل عتبة البيت؛ أدركوا أنه الله لأن بيت يواكيم وحنه راح يهتز، كما لو دخلته هزة أرضية. بعد تسعة أشهر كانت المعجزة: العجوز حنه في الستين من عمرها، وضعت ابنتها مريم. لم يكن عمر بطرس أكثر من خمسة سنين، لكنه يتذكر الفرح الذي أعلن، واضطراب كل القرى التي سارعت إليه، رجالاً ونساء، ليقدموا التهاني؛ حمل الجميع الحليب والطحين، البلح والعسل، وأقماطاً صغيرة هدية للمراة النفساء وللرضيع؛ وكانت أم بطرس هي القابلة، سخنت الماء، زادته ملحاً وغسلت الآتي الجديد الذي كان يبكي.... والآن، هو ذا ابن مريم يمر أمامها يحمل صليباً والناس يبصقون عليه ويرمونه بالحجارة......، يتأمله، يتأمله وقلبه يتفطر، أي قدر سيء خص به هذا الرجل، ابن ماري؛ من دون رحمة؟ انتقاه إله إسرائيل ليصنع صلباناً ليصلب الأنبياء! " هو كلي القدرة، قال بطرس وهو يرتعش، إنه كلي القدرة، هو قدر أن يختارني،

لكـني هربـت. انتقـى ابـن مـاري." فجـأة هـدأ قلـب بطـرس المضطرب. اختبر على حين غرة استغراقاً عميقاً لابن ماري الذي أخذ الخطيئة وحملها على كتفيه.

وبينما كـان بطـرس يقلـب كـل هـذا في ذهنـه، توقـف ابـن ماري، على آخر نفس.

أنا منهك، تمتم، أنا مضنى، وبحث حوله عن حجر يستند إليه، أو عن كائن حي، إنما لم ير سـوى ألـوف العيـون تحدجـه بغضب وقبضات مرفوعـة؛ خُيّل إليـه أنـه سمـع رفيـف أجنحـة في السماء؛ انفتح قلبه؛ هو ذا اللّه حتمـاً، في اللحظـة الأخيرة أشـفق عليـه وأرسـل لـه ملائكـة؛ رفـع عينيـه. مـا كـانوا ملائكـة بـل غربانـاً. غـضب أخـذه العنـاد، قـدم بثقـة سـاقه ليمـشي ليتـسلق التل، لكـن الحجارة كـانت تتدحرج تحت قدميـه؛ تـرنح وانـزلق إلى أمـام؛ تـوفر الوقـت لبطـرس ليـسارع إليـه ويـسنده؛ أخـذ منـه الصليب وحمله على كتفه.

انتظر سأساعدك، قال له، أنت منهك.

التفت ابن مريم، تأملـه لم يعرفـه؛ بـدت لـه كـل هـذه المسيرة حلمـاً، فجـأة ارتـاح كتفـاه وهـو الآن يطـير في الهـواء، كمـا يطـير الناس في الأحلام." قد لا يكون هـذا صليباً، ربمـا كـان جناحـاً!" مسح العرق والدم عن وجهه، وبقدم واثقة، حذا حذو بطرس.

كان الهواء كالنار التي تلامس الحجارة.

كانت كلاب الراعي القوية ـ الـتي جلبهـا البوهيميـون معهـم

لتلحس الدم ـ نائمة في أسفل الصخرة، حول ثغرة كان أصحابها حفروها لاهثين، واللعاب يسيل من السنتهم المعلقة. سمعت في أثناء هذا القنط سحق الرؤوس. وضجيج الأدمغة؛ في مثل هذا اللهيب تختلط كل الحدود بين الأشياء وتنتقل حكمة وجنوناً، صليباً وأجنحة، الله والإنسان. استثارت بعض النساء الرحيمات مريم، فتحت عينيها، رأت ولدها حافياً، مومیائي الهيئة؛ سيصل إلى القمة، وأمامه رجل يحمل الصليب. تنهدت، أرسلت بصرها حولها كمن يسعى إلى عون؛ رنت إلى أبناء القرية، الصيادين؛ لتقترب منهم، لتستند إليهم، لكنها افتقدت الوقت؛ نفخ البوق، بعيداً في الثكنة، ظهر فرسان جدد، ارتفعت غيمة من غبار، تفرق الشعب، وقبل أن يتسنى الوقت لمريم لتصعد على حجر لترى، غشي الخيالة الساحة بخوذاتهم البرونزية، بمعاطفهم الحمراء، بأحصنتهم المطهمة بعثروا الناس.

اليدان مشبكتان وراء الظهر، الثياب ممزقة وملطخة بالدم، تحمل لحية كثة رمادية، الشعر المرسل إلى الظهر المضمخ بالعرق والدم، يتقدم الزيلوت المتمرد، بعينين ساكنتين ومحدقتين إلى الأفق.

لدى رؤيته، أمسك الخوف برقاب الناس؛ أهذا إنسان، ذاك هو، أو بالأصح، ملاك أو إبليس ملفع بأطماره، يكتم وراء شفتيه المزمومتين سراً رهيباً مخزياً؟ كان الشيخ الحاخام والشعب قد اتفقوا على الإنشاد بصوت واحد جهوري ـ لدى

ظهور زيلوت ـ المزمور الحربي: "ليبدد أعدائي!" لتشجيع المتمرد؛ لكن الحناجر سدت؛ كانوا يشعرون بأن هذا الرجل لا يحتاج الشجاعة؛ وكان فوق الشجاعة الساكنة والمنيعة يمسك بيديه المقيدتين الحرية. كانوا يحدقون إليه برعب ويصمتون.

كان قائد المئة الذي لوحته شمس الشرق يمشي في الطليعة ويجر خلفه المتمرد مربوطاً بحبل إلى سرج مطيته. كان يحمل حقداً أزرق للآراميين. هوذا ينصب الصلبان خلال عشرة أعوام ويصلب، عشرة أعوام يكم الأفواه بالتراب والحجارة لمنعها من الصياح، لكن عبثاً! لقد صلب أحدهم، وينتظر هذا الأمر صف طويل، أولئك الذين ينشدون المزامير الشفهية لأحد ملوكهم القذرين، والذين لا يهابون الموت. لهم رب خاص بهم، دموي، يشرب دم أوائل مواليدهم؛ ولهم شريعة خاصة بهم، حيوان ذو عشرة قرون يبتلع الناس. من أين يأخذهم؟ كيف يجندلهم؟ هم لا يرهبون المنية؛ ومن لا يرهب المنية ـ فكر قائد المئة بهذا طويلاً، هنا في الشرق ـ من لا يخشى الموت لن يموت.

شد لجام حصانه وتوقف؛ جال بنظره حوله في الهيئة الآرامية، الوجوه مقضومة العيون محتالة وبارقة، اللحى زيتية، الشعور شحمية.... بصق بقرف؛ الذهاب، الذهاب، العودة أخيراً إلى روما، بكل حمّاماتها مسارحها مدرّجاتها ونسائها النظيفات. كان يعيش القرف في الشرق، الروائح، الأقذار والعبريين. كان الصليب الآن مرفوعاً إلى قمة التل، البوهيميون

يذرون عرقهم على الحجارة. كان ابن مريم يقتعد حجراً ويحدج البوهيميين، الصليب، الشعب وقائد المئة الذي قفز أمامه إلى الأرض، تأمل ولم يرَ إلاّ رعيلاً رحباً من الجماجم وفي الأعلى السماء تلتهب قيظاً. اقترب بطرس منه، انحنى ليكلمه وكلمه، إنما، كان يضج في أذنيه بحر مزبد، فلم يسمع شيئاً.

أومأ قائد المئة برأسه، حل وثاق زيلوت؛ جعل يبتعد لينشط وبدأ يشلح ثيابه. انزلقت مادلين بين قوائم الخيل، فتحت ذراعيها وهمت أن تقترب منه، أما هو، بحركة من يده دفعها. وامرأة عجوز رائعة، نبيلة، بصمت، تقدمت بين الزحام وأخذته بين ذراعيها؛ خفض جسمه، عانقها بيديه، فترة طويلة، وضمها بدفء إلى صدره ـ ثم حوّل رأسه؛ بقيت العجوز واقفة برهة من الزمن صامتة من دون بكاء؛ كانت تتملاه.

أباركك، قالت، وتحركت نحو الصخرة لتستند إليها، إلى جانب كلاب البوهيميين، التي تتخر،و في الظل النادر.

تحرك قائد المئة قليلاً ثم امتطى جواده، ليراه كل الناس ويسمعوه؛ رفع سوطه فوق الجمهور ليسكت الصراخ ويقول:

أيها العبريون، اسمعوا كلامي، هي روما التي تتحدث، صمت!

أشار بإصبعه إلى زيلوت الذي كان قد شلح أسماله، ووقف في عين الشمس وانتظر.

هذا الرجل الواقف الآن عارياً أمام إمبراطور روما أراد أن

يكـون سـيد رومـا؛ لقـد قـوض في شـبابه النـسور الإمبراطوريـة، احتـل الجبـل، تـضرع للـشعب أن يـربح الجبـل أيـضاً، أن يتمـرد، أتت الساعة، كما يبدو، أن يخـرج مـن بـين ظهـرانيكـم المـسيح الموكـل بتـدمير رومـا! اسـكتوا، لا تـصرخوا: متمـرد، قاتـل، خائن، والآن يا عبريون اصغوا؛ أطلب منكم أن تحكموا أنتم بالذات، أي عقاب يستحق؟

سـكت، شمـل بنظـره النـاس في الأسـفل وانتظـر الـشعب المضطرب، راح يجأر، تدافعوا، غيروا أمكنتهم، رفسوا باتجاه قائـد المئـة، وصـلوا حتـى قـوائم فرسـه وفجـأة رجعـوا القهقـرى مذعورين، يجيشهم الحب؛ غضب قائد المئة، همـز دابتـه وتقـدم نحو الجمهرة، وجأر:

ما عقوبة المتمرد القاتل الخائن؟

وثـب ذو الـشعر الأحمـر غاضـباً، لم يعـد يقـدر أن يكـبح قلبـه؛ أراد أن يزعـق: عاشـت الحريـة! أراد أن يفـتح فمـه، لكـن بارابا رفيقه تمكن من إمساكه وإغلاق فمه.

خلال فترة غير قصيرة سمعت دمدمـة أشـبه بدمدمـة البحـر؛ ما تجرأ أحد على الكلام، لكن الجميـع تـأوهوا بـصمت تنهـدوا تنـشقوا. وفجـأة، فـوق الحركـة الغامـضة، سمـع صـوت خافـت جريء، التفت إليه الناس؛ يملأهم الحبور والرعب، كـان الـشيخ الحاخـام محمـولاً مـن جديـد علـى كتفـي الأصـهب، رفـع يديـه الهزيلتين كما من أجل التماس، كما من أجل لعنة، وصرخ:

أي عقوبة؟ التاج الملكي!

جأر الشعب لإخفاء الصوت، رحمة بالحاخام؛ قائد المئة لم يسمع؛ وضع يده كبوقين في أذنه:

ـ ماذا قلت، أيها الحاخام الخرف؟ صرخ. وهمز مطيته.

ـ التاج الملكي! ردد الحاخام بكل قواه. كان وجهه يضيء، بل يبرق كله، اضطرب فوق رقبة الجواد، قفز، رقص، بل كان كمن يطير.

ـ التاج الملكي! صرخ أيضاً، مبتهجاً بعد أن صارَ صوت شعبه وربه، وبسط يديه كمن يصلب نفسه في الهواء.

استضرى قائد المئة؛ نزل عن فرسه، أخذ السوط من عروة السرج وتقدم نحو الجمهور. كان يمشي الهوينى، يبعد الحجارة، يتقدم بهدوء كحيوان ضخم، جاموس أو خنزير بري، سكت الشعب، التقط أنفاسه؛ لم يسمع من جديد سوى صوت البجع من بعيد بين أشجار الزيتون والغربان المتلهفة.

خطى خطوتين، ثم ثالثة، توقف، نتانة الأفواه الفاغرة والأجسام القذرة التي تنز ـ رائحة اليهود ـ ضربته ملء وجهه. تقدم أيضاً، وصل أمام الحاخام العجوز، وهذا القابع عند قذال الحداد، ينظر من عل إلى قائد المئة ، يتألق في سمائه سعادةً، اللحظة التي تمناها بشوق عارم أزفت ـ أن يقتل هو أيضاً، كما الأنبياء.

طرف قائد المئة بعينيه، سمّره بنظره، بذل جهداً مضنياً وأعاد ذراعه الذي كان قد ارتفع ليسحق بقبضة يده رأس المتمرد

الشيخ. كبح غضبه. لا مصلحة لروما بقتل العجوز: هذا الشعب اللعين واللدود سينتفض ويعصى؛ ولا مصلحة لروما بوضع اليد في وكر الزنابير الذي كأنه العبريون. سيطر على انطلاقته، درج السوط حول ذراعه واستدار نحو الحاخام؛ كان صوته أجش:

أحترم شخصك، يا شيخ فقط لأني أقدره، أنا، روما، أريد أن أسبغ عليه قيمة بذاته، ليس له قيمة، لذا لم أرفع السوط. سمعت: أنت أعطيت حكمك، وأنا أريد أن أعطي حكمي.

واستدار إلى البوهيميين الواقفين من جانبي الصليب وينتظران.

ـ اصلبوه! زعق.

ـ قلت حكمي، قال الحاخام بصوت هادئ. وأنت أيضاً قلت رأيك، يا قائد المئة؛ إنما ثمة آخر ـ أهم ـ يجب إن يدلي بدلوه.

الإمبراطور؟

ـ لا: اللّه.

وضحك قائد المئة ملء شدقيه.

أنا في الناصرة صوت الإمبراطور؛ الإمبراطور على الأرض كلها هو صوت اللّه؛ اللّه، الإمبراطور، روفس أعطوا حكمهم.

درج السوط على الذراع ووصل إلى قمة التل وهو يضرب في الأرض غضوباً كغضوب الحجارة والأشواك.

اللّه يعيدك، يا لعين، إلى أولادك وإلى أحفادك! غمغم أحد

الشيوخ، ورفع ذراعه إلى السماء.

علـى هـذا، أحـاط الفرسـان البرونزيـون بالـصليب؛ في الأسفل، الجمهرة تتفجر غضباً، ينتصبون على رؤوس أقدامهم ليروا، ويرتجفوا اسى وضيقاً ـ نعم أو لا، ستتم المعجزة؟ راح كثير منهم يتقصون السماء ليروا متى تنفتح، لقد ميزت النساء في الجو أجنحة ملونة؛ والحاخام، على ركبتيه على كتفي الحداد العريضين يجهد في أن يرى، بين قوائم الأفراس ومعاطف الفرسان الحمراء، ماذا حدث في الأعلى، حول الصليب. كانوا يتطلعون إلى قمة الأمل، إلى قمة اليأس، يتطلعون، لا يتكلمون؛ ينتظرون. كان الحاخام يعرف إله إسرائيل جيداً؛ كان بدون رحمة، عنده شريعته، وصاياه العشر، أعطى كلمته، هذا صحيح، وتمسك بها، لكنه يضغط؛ عنده معياره وقد ضبط الزمن، مرت أجيال وأجيال، بقيت كلمته تدور في الجو ولم تنزل إلى الأرض؛ ولما نزلت أخيراً، لغباء الإنسان لم يعرف الإنسان الغبي كيف تمنح له! مراراً، من أول إلى آخر الكتابات المقدسة، قتل مختار الله دون أن يرفع الله اليد لإنقاذه! لماذا؟ ألم ينفذوا إرادته أم أن إرادته هي أن يقتل مختاروه؟ كان الحاخام يستفهم، يتحرى، لكنه لم يجرؤ على دفع فكره أبعد.

الله جحيم، قال، جحيم، لا أريد الاقتراب منه!

(5)

كان ابن مريم أيضاً جالساً قربه على حجر؛ منقبضاً، ضاغطاً نفسه بين ذراعيه، وركبتيه المرتجفتين، وينظر. قبض البوهيميان على زيلوت، اقترب الحرس الروماني، أرهقوه ساخرين، شاتمين، جاهدين في تحميله الصليب. لاحظت كلاب الراعي المعركة، فهمت وراحت تثب.

تركت المرأة النبيلة الصخرة التي كانت تستند إليها؛ تقدمت، وقالت:

تشجع، يا ابني،لا تتأوه، لا تغطّ نفسك بالخجل!

ـ إنها أم زيلوت، تمتم الشيخ الحاخام، أمه التي هي نبيلة أسرة المؤابيين. حبكت الحبال الغليظة المزدوجة تحت ذراعي زيلوت، أسندت السلالم وراء جناحي الصليب وبدأوا جميعاً برفعه بهدوء؛ كان ضخماً، ثقيلاً، وترنح الصليب لحظة كاد يقع؛ ركل قائد المئة ابن مريم الذي نهض متمايلاً، أخذ المهدة وراح يسوي الصليب ويثبته بالحجارة والزوايا، لكي لا يقع.

مريم، أمه، لم تبق خجلت من أن ابنها ليس سوى شخص من الصالبين؛ جمدت قلبها، شقت طريقاً بكوعيها، حدب عليها صيادو طبريا وتظاهروا أنهم ما رأوها؛ حثت خطاها نحو الأحصنة، لتنتزع ابنها من هذا المكان. وترحل به.

رأفت بحالها إحدى الجارات؛ وأخذتها من ذراعها:

ـ مريم، لا تفعلي هذا، إلى أين تذهبين؟ سيقتلونك!

ـ أريد أن أخرج ابني من هنا، وراحت تنتحب.

ـ لا تبكي، يا مريم، أردفت العجوز؛ انظري الأم الأخرى الواقفة، صامدة لا تريم وتحضر عملية صلب ابنها؛ لاحظيها وتشجعي بها.

ـ أنا لا أبكي ابني فقط، يا جارة، أبكي أيضاً تلك الأم.

لكن العجوزـ التي عانت الكثير في حياتها ـ هزت رأسها الأصلع، وهمست:

يفضل أن تكون إحدانا أم الصالب وليس أم المصلوب.

لم تسمع مريم، كانت قد عبرت؛ تسلقت التل، بعينين تبللهما الدموع وتبحثان عن ابنها بين الزحام؛ لكن الناس حولها كانوا يبكون أيضاً، كانوا مبلبلين، وميزت الأم، في وسط غيمة كثيفة، جياداً، ودروعاً برونزية وصليباً ضخماً، يصل السماء بالأرض، قُدَّ حديثاً.

التفت فارس رآها، رفع حربته وأومأ لها أن تبتعد؛ توقفت الأم. انحنت ورأت، عبر بطون الأحصنة، ابنها على ركبتيه، يدق بضربات مزدوجة بالمهدة، ويثبت الصليب بالحجارة.

ابني، يسوع! صاحت.

كانت صرخة الأم مؤثرة جداً غطت كل صخب الناس، الأفراس والكلاب التي كانت تنبح جائعة .التفت الابن، رأى أمه، اكمد وجهه وعاد إلى الضرب بخوف أشد .

سحب البوهيميون المتسلقون على سلم الحبال، زيلوت إلى الصليب وأبقوه مربوطاً بحبال حتى لا ينزلق؛ وحينئذ أخذوا

المسامير ليسمروا يديه، نفرت قطرات كبيرة من الدم الحار لتلطخ وجه ابن مريم؛ أخذته الرهبة، ترك المهدة وانسحب خلف الجياد؛ وقف إلى جانب أم المحكوم. كان يرتجف، كان يرصد جلبة الأجساد التي تتمزق؛ تجمع كل دمه في بطن يديه، انتفخت أوداجه، عروقه وراحت تنتفض بعنف، كأنها ستنفجر. كان يحس في كل راحة قطرة مدورة، كرأس المسمار، الذي يؤلمه. وهنا سمع من جديد صوت الأم:

ولدي يسوع!

هدير عميق واصم ضج فوق الصليب، صوت وحشي خرج ليس من جنبات الرجل، بل من أحشاء الأرض: "ادوني Adonai![1] " سمع الشعب، تفطر قلبه؛ أهو نفسه الذي صرخ؟ الأرض؟ أم المصلوب الذي غرز فيه أول مسمار. الكل كان واحداً فقط ، كل العالم صلب، الشعب، الأرض زيلوت، وزمجرات. الدم انبثق، لطخ الأحصنة، نقطة ضخمة وقعت على شفتي ابن مريم، حارة، مالحة، وتمايل الصالب لكن أمه تسنى لها الوقت لتأخذه من ذراعه، فلم يقع.

ـ ولدي يسوع! تمتمت أيضاً.

أما هو أبقى عينيه مغمضتين، أحس في يديه، في قدميه، في قلبه، آلاماً لا تحتمل.

---

1 - الله، عند اليهود ، كما مر سابقاً.

كانت الأم العجوز، ساكنة، تتأمل ابنها الثاوي على قطعتي خشب صارتا صليباً، تعض الشفتين وتسكت؛ لكنها سمعت وراءها ابن النجار وأمه، تأكلها الغضب والغل، التفت؛ هوذا اليهودي يراقب من صنع الصليب لابنه، هي ذي الأم التي خلفته؛ تتضح الشدة والأسى ـ أبناء، خونة، يعيشون، وابنها يصارع ويئن على الصليب! مدت اليدين إلى ابن النجار، اقتربت ووقفت قبالته؛ رفع عينيه ورآها: كابية، وحشية، شقية، تأملها وطأطأ رأسه. تحركت شفتا المرأة:

ألعنك، قالت بصوت متوحش، أجش، ألعنك، يا ابن النجار، يا من كتب له الصلب.

التفت إلى الأم:

والألم الذي أعانيه، يا مريم، ستبتلين به أيضاً!

ثم حولت رأسها لتسمر باصريها من جديد بابنها.

كانت مادلين قابعة تحتضن الطرف الأسفل للصليب، لمست قدمي زيلوت وناحت عليه؛ كان شعرها وذراعاها ملطخين بالدم.

كان البوهيميان الآن يمزقان بالسكين ثياب المصلوب ليقتسماها، يقيمان قرعة حظ، ويأخذ كل منهما نصيبه من هذه الأطمار؛ بقي منديل رأسه مزركشاً بقطرات دسمة من الدم.

قالا: ليس إلا ليعطياها لابن النجار، المسكين، أجاد بعمله هو أيضاً. وجداه قاعداً، مرمياً ككبة، في عين

الشمس، يكاد يرتعش؛ رميا له المنديل المدمى، وقال أحدهما:

إنها نصيبك، أيها العامل، وألى لقاء قريب!

ضحك البوهيمي الآخر:

وإلى أن تصلب أنت أيضاً؛ قال هذا وهو يربت بحب على ظهر المسكين.

هلموا نسافر، يا أولاد، صرخ الشيخ الحاخام، فاتحاً ذراعيه لجمع جمهرة الناس نساء ورجالاً، مروعاً يائساً، لنترك المحلة! عندي سر كبير سأكشفه لكم، بجرأة!

وجعل يركض في الشوارع الضيقة، من خلفه، يطرده الفرسان أمامهم؛ الدم يسيل من جديد؛ النساء تزعق وتترس الأبواب، الشيخ الحاخام وقع مرتين وهو يركض، راح يسعل ويبصق الدم، يهوذا وبارابا أخذاه بالأحضان وصلوا لاهثين، كرهط، واختفوا في الكنيس. تكوموا في الداخل، بل ملأوا الباحة، وازلجوا باب الشارع.

انتظروا، معلقين بشفاه الحاخام؛ بين عدة خيبات، عما يمكن أن يكشف العجوز ليهدئ قلبهم؟ منذ سنين كان الناس ينتقلون من ضرر إلى ضرر، من وضع على الصليب إلى وضع آخر على الصليب؛ رسل الله يبعثون من القدس، من الصحراء، أو ينحدرون من الجبال، بأسمال، بسلاسل، بزبد على الشفتين ـ كان الجميع مصلوبين.

ارتفعت همهمة من غضب؛ أغصان الأشجار، البلح التي

تـزين الجـدران، النجـوم بخمـس شـرارات والمخطوطـات المقدسـة على الرحلاية بكلام مكتوب بحروف كبيرة ـ شعب مختار، أرض موعـودة، مملكـة الـسموات، مـسيح،ـ لم تعـد تـثلج صـدرهم. انتظـروا الأمـل طـويلاً، حتى بـدأ يـصير يأسـاً؛ النـاس مستعجلون، اللّه لا. ما عادوا قادرين على الصبر. وصور آمـالهم، التي تغطي جدران الكنيس، لم تعد قـادرة علـى إعطـاء البـديل. في يوم، كان الحاخام يقرأ حزقيال، وثب بانخطـاف إلهي، راح يـصرخ، يبكـي، يـرقص، ولم يتوصـل إلى الهـدوء. كـان مـوت الـنبي صـار منـبره الخـاص، اسـتحوذ علـى الفراشـي والألـوان، التزم الكنيس، ولما أخذه غضب مقـدس، بـدأ ينـشر رؤاه علـى الجدار ليهدأ: صحراء بلا حدود، جماجم وعظام، أكداس من العظام البشري، وفوق هذا، سماء قرمزية كالحديد المحمـى، يد جبارة تنبثق من وسط السماء، قبضت على النبي حزقيال من قذالـه وتركتـه معلقـاً في الهواء. لكـن الرؤيـا تجـاوزت الإطـار، غطت أيضاً الحـائط الآخـر ـ كـان حزقيـال الآن واقفـاً، تغمـره العظام حتى الركبتين، من فمه الأخضر، من شفتيه الفاغرتين يخـرج شـريط يحمـل بـالحروف الأرجوانيـة: " يـا شـعب إسـرائيل، المـسيح وصـل!" العظـام تتراصـف، الجمـاجم تـنهض، كاملـة الأسـنان، مليئـة بالوحـل، واليـد الرهيبـة خرجـت مـن الـسماء وكتبـت علـى راحتهـا، الجديـدة اللامعـة، والمعمولـة كلـها مـن الزمرد والياقوت، القدس الجديدة.

يتأمل الشعب الرسوم، يهز رأسه ويتمتم، الشيخ الحاخام بدا غاضباً:

ويتمتم؟ صرخ بهم. إلا تؤمنون بإله آبائنا؟ ولقد صلب آخر: الفادي اقترب خطوة؛ هذا هو معنى الصلب، أيها الناس قليل الإيمان.

أخذ مخطوطاً من الرحلاية ودحرجه بحركة غضبى، دخلت الشمس عبر النافذة المشرقة، نزل بجع من السماء وحط على السطح المقابل، كأنه يريد الإصغاء هو الآخر. فرح، مظفر، ينطلق من صدر مدمر: انفخوا في صهيون بوق النصر! انشروا في القدس رسالة البشارة! نادوا: وصل يهوه إلى وسط شعبه. انهضي، يا قدس، القلوب في الأعالي! انظري: من الشرق عند المغيب السيد يهمز أبناءك. الجبال مُهدَت، التلال اختفت، كل الأشجار تنشر العطور. يا قدس، البسي زينة النصر؛ السعادة لشعب إسرائيل عبر كل الدهور!"

متى؟ متى؟ ردد صوت من الجمهرة، التفت الناس، انتصب عجوز أكله الدهر وصار أشبه بتينة جافة، على رؤوس قدميه وصرخ: متى، متى إذن، أيها الشيخ؟

طوى الحاخام كتاب النبوءات بغضب

ـ لست صبوراً، يامنسى، قال، أنت مستعجل؟

ـــ نعم، أنا مستعجل، أجاب العجوز السائل ودموعه تنهمر، أنا في أرذل العمر، إحدى رجلي في القبر.

بسط الحاخام ذراعه ودله إلى حزقايل الغارق في كومة العظام.

ـ ستشفى، منسى، أنظر!

ـ أنا همٌّ هرم، أقول لك، أنا كفيف، لا أرى شيئاً.

تدخل بطرس، بدأ النهار يرحل، في الليل اصطاد في بحيرة طبريا، كان عجولاً.

ـ يا شيخ، وعدتنا بسر لتفرج كربنا؛ ما هو السر؟

أمسك الناس أنفاسهم، سمع صوت حول الحاخام، كل هؤلاء الذين من القصر، قدروا على الدخول دخلوا: خيمت حرارة خانقة، رائحة قوية بشرية، صب القندلفت زيت الصنوبر في المجمرة لتنقية الجو.

صعد الشيخ رابين على كرسي عال، كي لا يختنق، وقال وهو يمسح عرقه:

أبنائي، لقد غص قلبنا بالصلبان؛ من السواد تحولت لحيتي إلى رمادية، ومن هذا إلى البياض، هرت أسناني وما ينادي به الشيخ منسى، ناديت به أنا نفسي خلال أعوام: حتى متى، يا سيد، حتى متى؟ هل أموت دون أن أرى المسيح؟

استفهمت، واستفهمت، في ليلة ليلاء كانت المعجزة: أجابني الله. لا، لم يكن الأمر معجزاً؛ كلما سألنا، الله يجيب، لكن الجسد تورط، تعطل السمع ولم نسمع. مع ذلك في تلك الليلة سمعت ـ وكان هذا إعجازاً.

ماذا سمعت؟ قل لنا كل شيء، يا شيخ! صرخ بطرس مجدداً، شق ممراً بكوعيه وأتى ليمثل أمام رابين، انحنى الشيخ، تأمل بطرس وابتسم.

ـ اللّه صياد أيضاً، يا بطرس، مثل نيافتك، يخرج ليلاً ليصطاد، عندما يكون القمر بدراً، وفي تلك الليلة، والقمر بدر يكون غلالة في السماء، بيضاء كالحليب. لم أستطع أن أغمض عيني، لم يعد البيت كله يسعني، طرقت الأزقة، خرجت من الناصرة، تسلقت عالياً، قبعت على صخرة، سمرت عيني في الجنوب، نحو القدس المقدسة. انحنى القمر ودنا مني ككائن بشري، وضحك لي، رأيته أنا نفسي، رأيت فمه، خدوده، حدقات عينيه وتنهدت، لأني شعرت بأنه يتكلم في هدأة الليل. ولا أستطيع سماعه!!... في الأرض، كل الأوراق تتحرك، في السهل حيث لم يحصد القمح نشمُّ رائحة الخبز والجبال التي تحيط بي، طابور، الجليل والكرمل، تسيل كالحليب. تفكرت: " هوذا ليل اللّه، هذا البدر، البدر هو الوجه المعتم للّه، هذه هي الليالي في قدس المستقبل....."

منذئذ ما تذكرت هذا إلا ترقرقت الدموع من عيني، الشدة، الخوف شدا على روحي ـ شخت، صحت، أعليّ إن أموت إذن دون أن أرى المسيح؟

انتصبت واقفاً، تولاني الرعب المقدس، رفعت نطاقي، تعريت وبقيت أمام عين اللّه كما ولدتني أمي. ليرى أني هرمت،

يبست، تجعدت كورقة التين في فصل الخريف، كالعتب الذي التهمته الطيور والعنقود الجاف الذي ينوس في الهواء، ليراني، ليرحمني في الحال.

وبينما كنت واقفاً وما أزال عارياً أمام السيد كلي الجلالة، أحسست نور القمر يدب في جسدي، صرت روحاً بقضي وفضيضي، اتحدت بالله، وسمعت صوته، ليس من خارجي، ليس فوقي بل في داخلي، إلى داخلي يأتي صوت الله الحقيقي. سمعت: يا سمعان، لن أتركك تموت قبل أن ترى، تسمع، وتلمس يدي المسيح! – إلهي، كرر لـ سمعان، سمعان، لن أتركك تموت قبل أن ترى، تسمع وتلمس المسيح بيديك! تمايلت روحي طرباً وحبوراً، رحت أصنع نفسي بيدي، أدق الأرض بقدمي، أرقص عارياً تحت القمر. كم دام الرقص؟ فترة برق؟ ألف سنة؟ امتلأت، ارتحت، ارتديت ثيابي، حزمت حزامي ونزلت إلى الناصرة. ولما رأتني الديوك النائمة على السطوح راحت تصيح، السماء ضحكت، استيقظت الطيور، شرعت الأبواب، تمنوا لي السعادة واستضاء بيتي المتواضع من فوق إلى تحت، الأبواب والنوافذ، كله بالياقوت. الغابات، الحجارة، الناس، الطيور حولي تتنسم رائحة الله، وحتى قائد المئة، ملتهم الدم البشري، وقف مندهشاً وطلب مني:

((ماذا حدث لك أيها الشيخ رابين؟ هيئتك كمشعل لاهب، احذر لا تشعل النار في الناصرة!" لم أجبه خوفاً من أن

يدنس صوتي.

لسنين عديدة صنت هذا في أعماقي. كان غبطتي وتذوقته بنهم وحدي، وبحمية وصدق انتظر، واليوم مع ذلك، في يوم الحداد هذا، وزع في القلب صليب جديد، لقد طفح الكيل، الرحمة للشعب طلبت، رفعت النقاب عن الخبر المفرح: هو آت، لم يعد بعيداً. ربما وقف عند بئر ما قريب من هنا ليشرب ماء، أمام تنور ما حيث ينضج الخبز، ليأكل مزقة، لكن انتظاره لن يطول، لأن الله قال هذا، وهو لا ينكر: " لن تموت أيها العجوز سمعان قبل أن ترى، تسمع وتلمس المسيح بيديك!" في كل يوم أحس تقدم قواي، وكلما تقدمت، اقترب المسيح، عمري خمسة وثمانون عاماً، لن يتأخر!

مسخ أحول وأمرد، ببوز صغير، هزيل ومروس انتصب:

ـ وإن عشت ألف عام أيها الهرم؟ وإن لم تمت أبداً، أيها العجوز، حدث هذا أيضاً. اينوش وإيلي يعيشان أيضاً!، كانت عيناه الصغيرتان المبهمتان ترقصان بخبث.

تظاهر رابين أنه لم يسمع، لكن الكلام الذي يزفره المسخ كان كالخنجر في قلبه، رفع يده بهيئة آمرة:

ـ أريد أن أبقى وحدي مع الله، اذهب من هنا!

فرغ الكنيس، تبعثر الشعب، بقي العجوز رابين وحده،حيث كان النبي حزقيال معلقاً في الهواء، مستغرقاً بتأملاته: "إنه الله، قال لنفسه، هو كلي القدرة، يفعل ما

يشاء، وإن كان هذا العجوز اللعين توما على حق؟ يا لتعسي، إن قرر الله أن أعيش ألف عام! وإن قرر لي أن لا أموت أبداً؟ إذن، والمسيح؟ هو إذن عبث، أمل سبط إسرائيل؟ منذ آلاف السنين يحمل كلمة الله في صدره ويغذيها كما تغذي الأم بذرة الحياة، لقد قضمنا حتى العظم، استهلكنا، لا نعيش سوى من أجل هذا الابن، بذور ابراهيم دخلت في الآلام، هي تنادي، حررني أخيراً، سيدي، إلهي، أنت تتصدى، ونحن، لم نعد نقوى، تلفنا.. الرحمة!"

كان يذهب ويؤدب في الكنيس، والآن، يزيغ النهار، الرسوم توارت، امحت، وابتلعت العتمة حزقيال، يتأمل الشيخ رابين حوله الظلال التي تهبط، يكدس في ذهنه كل ما رأى، كل ما حدث معه في الحياة، كم مرة، بأي حمية، ركض من الجليل إلى القدس، من القدس، في الصحراء، يلاحق المسيح. إنما كان ثمة باستمرار صليب في نهاية أمله وكان يعود إلى الناصرة، خجلاً واليوم مع ذلك........

أخذ رأسه بين يديه:

ـ لا، لا، تمتم بخوف، لا، لا، غير ممكن!

خلال أيام وليالي يهدد رأسُه بالانفجار، أمل جديد تسرب إليه، أكبر من رأسه، جنون، شيطاني، يقضمه. ليست المرة الأولى، منذ أعوام يزرع هذا الجنون مخالبه في عقله، يطرده، يعود، في النهار لا يجرؤ على الاقتراب، يأتي في الليل، في

الظلمة، أو بالأصح في الأحلام.

استند إلى الجدار، اغمض عينيه؛ هوذا، يعبر مجدداً أمامه، لاهثاً، يحمل صليباً، والهواء يهتز حوله، هكذا يتمايل أمام رئيس الملائكة..... يرفع عينيه، أبداً لم ير الشيخ رابين هذا القدر من السماء في عيني إنسان! هل هذا هو؟ سيدي، سيدي، لمَ تمضني، تضنيني؟ لم لا ترد؟

النبوءات تمزق، كالبروق، روحه، أحياناً يمتلئ رأس الشيخ بالنور، وطوراً يظلم، ييأس في العتمات، ينفتح بطنه ويخرج البطاركة، وعرقه يعيد إليه مسيرته الدائمة، عرق ذي القذال القاسي، ذي الألف جرح نازف، مع موسى كبش الريادة بقرون عوجاء، أي مسيرته من أرض العبودية حتى أرض الكنعانيين، والآن من أرض الكنعانيين حتى قدس المستقبل.

هذه المسيرة الجديدة، ليس النبي موسى هو من يشق الطريق، بل آخر، رأس رابين يطقطق بهذا، آخر، مع صليب على الكتف......

بوثبة وصل باب الشارع وفتحه، ساطه الهواء، أخذ نفساً، كانت الشمس غافية، عادت الطيور إلى أعشاشها لترتاح، الشوارع مليئة بالظل، الأرض رطبة. أغلق الباب، دس المفتاح بالزنار، تردد لحظة، إنما فجأة قرر وأخذ، محنياً، درب بيت مريم.

كانت مريم قاعدة في باحة بيتها الضيقة، على مقعد واسع، كانت تغزل. كان الوقت نهاراً، في الصيف، ينسحب

الـضوء علـى مهـل مـن سـطح الارض ولا يريـد المغـادرة. النـاس ودواب الركب تؤوب من اشغال الحقول، أشعلت النساء النار لإعداد وجبة المساء، الظلمة، الحطب المحترق. مريم تغزل، فكرها يدور ويدور مع المغزل، الذكريات والخيالات تختلط، كان نصف حياتها من الحقيقة والنصف الآخر من الخرافة، أعمال البيت البسيطة اليومية تتتابع منذ أعوام وبغتة، كطاووس لامع غير منتظر، أزفت المعجزة وغطت حياتها ببؤس طول أجنحته الذهبية.

خذني حيث شئت، يا سيد، افعل بي ما تشاء، أنت من انتقى لي زوجي، من منحني ابني، من وهبني التعب. تقول لي: نادي، وأنادي، تقول لي: اسكتي واسكت، من أنا؟ قبضة فخار بيديك تحضرها لأمر ما، أفعل ما تشاء لن أوجه سوى التماساً واحداً: سيدي ارحم ابني! حمامة بيضاء حامت فوق السطح المجاور، خفقت بجناحيها لحظة فوق رأسها، ثم حطت، وهي تدور، فوق حصى الباحة الصغيرْ وتطوف وتدور دورات دائرية، حول قدمي مريم، فردت ذنبها، رأسها إلى الخلف، حنت رأسها، رأت مريم وشعت عينها الدائرية في نور الظلمة كياقوتة، لمحتها، كلمتها، كانت تحمل سراً لها، آه! لو قدم الشيخ رابين، هو يعرف لغة الطيور، لأوضح الأمر لها. حدقت إلى الحمامة، أشفقت عليها، أوقفت مغزلها، نادتها بكل هدوء وهي، الفرحة، وثبت وثبة صغيرة وحطت على ركبتيها

المـضمومتين. وهنـا كمـا لـو كانـت هاتـان الركبتـان اللتـان تريدانهما. اقعت، ضمت جناحيها وسكنت.

أحـست مـريم بوزنهـا الخفيـف، ابتـسمت "آه! لـو ينـزل اللّه دومـاً بهـذه التـأدة علـى الإنـسان!"، قالـت لنفسها، وهـي تفكـر بالأمر، تذكرت ذلك الصباح عندما تسلقا هما الإثنان في أيام الخطبة، قمة النبي إيلي، وجبل الكرمل، الجبل الذي تداعبه الغيوم، ليرجو النبي القاسي ليتشفع أمام اللّه إن يرزقهما ولـداً، لينذراه له. لقد قررا أن يتزوجا في ذلك المساء وذهبا قبل الفجر ليتلقيـا بركـة الـنبي النـاري الـذي يـرى غبطتـه في الـصاعقة. كانـت الـسماء كليـة النقـاء، الخريـف رائـق جـداً، الجمهـرة البشرية جمعت الثمـار، سـلافة العنـب تختمـر في الجـرار، التين يجـف بـالقلادات، معلقـا بـالعوارض. كانـت مـريم في ربيعهـا الخامس عشر، وكانت لحية العريس زغباً، إنما ليمشي يأخذ بيده القوية، عصاة تتنبئ بالغيب مزخرفة.

في الظهـيرة تمامـاً وصـلا القمـة المقدسـة، سـجدا، مـسّا بطرف الأصابع الصوانة الحادة والملطخة بالدم، ارتجفا، انبعث شرار من الصوانة وأذى أصبع مريم.

فتح يوسف فمه ليصيح، ليدعو قيّم القمة المتوحش، لكـن الوقـت أدركـه. سـارعت ملائكـة الـسماء، تجولـت الغيـوم، محملـة بالغـضب وحـب الـرد، وقـصف الرعـد كإعـصار فـوق الصوانة الحـادة. وبينمـا سـارع يوسـف ليمسك خطيبتـه، ليـذهبا

إلى أحد الكهوف ليجثما. رمى الله بريقاً رهيباً، اختلطت السماء بالأرض. سقطت مريم إلى الوراء وغابت عن الوعي. ولما استعادت رشدها، فتحت عينيها ونظرت حولها، فرأت يوسف واقعاً وجهه إلى الأرض على الصوان الأسود مشلولاً:

مدت مريم يدها وداعبت الحمامة التي على ركبتيها ـ بلطف كي لا تخيفها، في ذلك اليوم غضب الله غضباً شديداً، قالت، كلمني بضراوة..... ماذا قال لي؟

سألها رابين مراراً، مبلبلاً بالخوارق المستمرة التي تكتنفه.

حاولي أن تتذكري يا مريم، حدث هذا مراراً، وقد كلم اللّه الناس في أثناء الصاعقة، جاهدي لكي تتذكري، لكي يتسنى لنا أن نكشف قدر ابنك.

كان ثمة رعد، يا شيخ، ينبعث من أعالي السماء كقرون الثيران.

ـ وبعد الرعد، يا مريم؟

نعم، أنت محق، يا شيخ، بعد الرعد تكلم اللّه، لكني لم أستطع أن أميز كلمة واحدة بوضوح، اعذرني.

داعبت الحمامة وجهدت، بعد ثلاثين سنة، أن تتذكر الصاعقة وتتبين الكلمة اللعينة.

أغمضت عينيها، وفي راحة يدها أحست جسد الحمامة الصغير الدافئ وقلبها الذي كان يخفق. وعلى حين غرة، دون أن تعرف كيف، دون أن تفهم لماذا، كانت واثقة من هذا ـ

الصاعقة والحمامة شيء واحد، هذا القلب الخافق والرعد، كل هذا هو الله. مريم زفرت صارخة وانتصبت بوثبة يملأها الرعب، لأول مرة سمعت بوضوح الكلمة الخفية عبر الرعد في هديل الحمامة: "احبيك يا مريم..... احبيك يا مريم...."

بالتأكيد هي إرادة الله أن يقول لها هذا: "احبيك يا مريم......."

التفتت، رأت زوجها، مستنداً إلى الجدار، وما يزال يفتح ويطبق فمه ما يزال؛ أتى المساء، كان يصارع وكان يعرف ما يزال..... مرت أمامه لم تخاطبه ووقفت في العتبة، لترى إن كان ابنها لم يأت بعد، أرأته يلف حول شعره منديلها المصلوب المدمى وينزل إلى السهل...... إلى أين كان يذهب؟ لماذا تأخر؟ اذهب هو يقضي الليل في الحقول؟

بقيت الأم واقفة في العتبة، رأت الشيخ رابين قادماً، ومستنداً بكل ثقله إلى عصاه، يزفر، من كل جهات صدغيه، خصلات شعره بيضاء تخفق في نسيم المساء الذي بدأ يخيم في الكرمل.

ابتعدت مريم باحترام، دخل الحاخام، أخذ يد أخيه وداعبها، دون أن يحكي معه، ماذا يقول له؟ كان فكره يغرق في مياه عكرة مكمدة، التفت إلى مريم، وقال لها:

ـ عيناك تشعان، يا مريم، ما بك؟ أتاك السيد أيضاً؟

وجدت، نفسي يا شيخ، غير قادرة على التماسك.

وجدت؟ إنما ماذا وجدت، بنعمة الله وكرمه؟

ـ ما قالت الصاعقة.

انتفض الحاخام: " إله إسرائيل عظيم" صرخ ورفع ذراعيه إلى السماء. لهذا بالضبط رجعت، يا مريم، لا ستزيد التحري والاستفهام... فاليوم صلب أحد آمالنا ، وصلب قلبي معه....

وجدت، نفسي يا شيخ، كررت مريم؛ جالسة ، أغزل وأرى الصاعقة ثانية في روحي، شعرت لأول مرة ، بالرعد يهدأ في داخلي، وسمعت، وراء الرعد ، صوتاً ندياً ، شفافاً ، صوت اللّه: "احبيك يا مريم!"

انحطم العجوز على المنضدة ، أخذ صدغيه بيديه وغاب في تأملاته؛ بعد فترة من الزمن ، رفع رأسه.

ـ لا شيء آخر ، يا مريم، انكفئي على أعماقك، لتسمعي؛ فمن الكلمة التي ستخرج من فمك ربما تعلق مستقبل إسرائيل بل قدرها.

خافت مريم لدى سماعها كلام رابين. تعلق فكرها مجدداً بالرعد ، وارتعش صدرها.

لا ، تمتمت، أخيراً ، منهكة؛ لا ، يا شيخ... قال أيضاً أشياء أخرى، أشياء أخرى كثيرة ، لكني لم أقدر ، فعلت طاقتي إنما لم أتمكن من سماعها.

وضع الحاخام يده على رأس المرأة ذات العينين الواسعتين، وقال:

صومي وصلي، يا مريم، لا تشتتي روحك بالاشياء اليومية؛

لربما نوّرنا تاج الصاعقة المتألق؟ أنا لم أقدر أن أميز وجهك المتجهم يغلي؛ صومي وصلي، وتسمعين... " احبيك، يا مريم"، كلمة الله مطيبة أبداً، جاهدتِ لتسمعي كل الكلام.

لتخبئ رعدتها، اقتربت مريم من رفوف النملية، حيث توضع الأواني الفخارية، أخذت قطعة برونزية، ملأتها ماء نميراً، أخذت قبضة بلح وانحنت لتقدمها للعجوز.

ــ لست جائعاً ولا عطشاً، أشكرك؛ اقعدي، أريد أن أكلمك.

أخذت المقعد الأوطأ، قعدت عند قدمي رابين، التفتت وانتظرت.

وزن الشيخ كلامه بدقة في ذهنه، كان ما يريد قوله صعباً، كان الإدراك أملاً صعباً، كان قائماً كخيط عنكبوت، ولم يعرف كيف يجد كلاماً عنكبوتياً تماماً، صعب التناول لأن لا يعطيه وزناً فائضاً، ليكون مؤكداً. ولم يشأ أن ينكد الأم.

ـ يا مريم، قال أخيراً، هنا في هذا البيت، يجول، كما أسد الصحراء، لغز... أنت لست كباقي النساء، يا مريم؛ ألا تشعرين بهذا؟

ــ لا، لا أحس، يا شيخ، همست مريم؛ أنا ككل النساء، أحب هموم وأفراح النساء، أحب أن أغسل، أن أطبخ، أن أذهب إلى النبع، أن أقص بأنس إلى جيراني وأن أجلس، في المساء،

بالباب، أرى المارة. وقلبي كقلب كل النساء، يطفح تعباً.

ـ أنت لست ككل النسوة، يا مريم، ردد الحاخام بصوت جهوري، ورفع يده كمن يريد إبعاد كل رد. وابنك...

غمغم الحاخام: هذا أين يتوفر كلام مناسب، إنه لأمر صعب. تطلع إلى أعلى، انصت؛ تتكوكب طيور على الشجر لتنام، وأخرى تجتمع لتستقيظ، الدولاب يبرم، النور يسقط تحت أقدام الناس.

تنهد الحاخام، كم تدور الأيام، بأي غضب، يطرد اليوم؛ يطلع النهار، يحل المساء تعبر الشمس، تمر الأقمار، يصير الأولاد رجالاً، يبيض الشعر الأسود، يحت البحرُ الأرضَ، تتفتت الجبال ـ ولا يظهر المنتظر!

ــ ابني، قالت مريم، وبصوت واجف؛ ابني، يا شيخ؟

ــ ليس كباقي الأبناء، يا مريم، أردف الحاخام بحزم.

وزن من جديد كلامه، ثم وعلى عجل قال:

أحياناً في الليل، هو وحده، يظن أن أحداً لا يراه، يحس بضوء ينعكس في العتمة حول وجهه. وأنا، ليسامحني اللّه، أحفر كوة صغيرة في أعلى الحيط، ارتفع فأراه، أراقب ماذا يفعل. لأني، أعترف لك، أرتجف، حكمتي لا تساوي شيئاً، أفتح وأغلق الكتب، لا أقدر أن أفهم المكتوب، من هو ... أراقبه بالخفاء، وأميز في الظلمة ضوءاً، يا مريم، من يلمسه، من يلتهم وجهه. لذا في كل يوم يشحب، يتلاشى؛ ليس لمرض،

ولا صلاة ولا صوم، لا، بل هو النور يقضمه.

دفعت مريم تنهيدة: "يا لحسرة الأم التي ليس ابنها ككل الأبناء..."

حدثت نفسها، لكنها لم تتكلم.

دنا العجوز آنئذ من مريم، خفض صوته، شفتاه تكويانه.

ـ أحييك، يا مريم، قال، اللّه كلي القدرة، مقاصده لا تدرك، ابنك ربما...

لكن الأم المسكينة صرخت:

ـ ارحمني، يا شيخ! نبي؟ لا، لا، إن كتب اللّه هذا، ليمحه! أريد أن يكون رجلاً كالآخرين، لا أكثر ولا أقل، كالآخرين. ليصنع هو أيضاً، كما صنع أبوه سابقاً، معاجن، أسرة، عربات، أواني للبيوت وليس كما يعمل الآن صلباناً، لصلب الناس. ليتزوج مدبرة بيت شابة طيبة من عائلة كريمة، مع مهر، يجهد بمروءة ليزود بيته بالمؤونة، يحب أن ينجب أولاداً، ونخرج كلنا نروّح عن أنفسنا في يوم السبت، الجدة، الأبناء، الأحفاد وليعجب بنا الناس.

اتكأ الشيخ على عصاه، نهض، وقال بعنف:

ـــ مريم، لو أصغى اللّه للامهات لتعفنا في الحياة وفي الممات؛ تملي كل ما قلنا، الآن مادمت وحدك.

واستدار نحو أخيه ليتمنى له ليلة سعيدة؛ وقد صفت عيناه الزرقاوان، تدلى لسانه، سمر نظرته في الفراغ وجهد أن يتكلم.

هزت مريم رأسها، وقالت: منذ الصباح يصارع، ولم يستطع أن ينقذ نفسه؛ دنت منه ومسحت اللعاب الذي يسيل من فمه الملوي.

حينما مد رابين يده ليتمنى لمريم ليلاً طيباً، فتح الباب خلسة وظهر الابن في العتبة. كان محياه يتألق في العتمة وكان المنديل المدمى ملتصقاً بشعره. الوقت ليل، فلم تر الأم أقدامه المغبرّة، المغطاة بالقشور ولا الدموع الثقيلة التي تحفر خطوطاً في وجهه.

تخطى العتبة، نظر حوله خلسة، رأى الحاخام وأمه، في الظل، قرب الجدار، عيني أبيه الشفافتين.

تحركت مريم لإشعال المصباح، لكن الحاخام أوقفها:

انتظري تمتم، أريد أن أكلمه.

تجلد واقترب من الابن يسوع، قال بصوت عذب خفيض، سمعت الأم النداء، ردت: يسوع، ولدي، حتى متى تعانده؟

آنئذ سمعت صرخة وحشية جعلت البيت الصغير يرتج:

ـ حتى أموت!

وبضربة واحدة، كما لو أن قوته انهارت، انهدم في الأرض؛ استند إلى الجدار، كان يلهث، مقطع الأنفاس. وتابع رابين محاولته، دنا منه وفجأة انتفض إلى الخلف: كمن اقترب من نار مستعرة، كاد يحرق وجهه: "هو الله الذي يحيط به، هو الله، ولم يسمح لأحد بالاقتراب؛ يجب أن أكلمه!"

ذهب الحاخام، مفكراً، أغلق الباب، وكمن يكمن لحيوان في الظل، لم تجرؤ الأم على إشعال الضوء. بقيت واقفة

في وسط البيت تصغي إلى زوجها الذي كان يتذمر مضطرباً، وابنه طريح الأرض كان يتنفس بجهد وبخوف، كمن يختنق، كما يخنق. من يخنقه إذن.. الأم المسكينة، غرزت أظافرها بخديها وراحت تسأل، وتسأل تشكو إلى اللّه: أنا أم، صرحت، أليس لديك رحمة بي؟ لكن أحداً لم يجب.

و بينما سكنت مريم وهدأت، كانت تصغي لارتجاج كل عروق جسدها، سمع صراخ وحشي وانتصاري، كان اللسان المشلول انفكت عقدته، ومقطع فمقطع خرجت كل الكلمة من الفم الملتوي، وردد البيت أ، دو، نا ـ ي أدوناي! لم تكد الكلمة تلفظ حتى غرق الحاخام بالنوم ككتلة من رصاص.

تجرأت مريم، أشعلت الضوء؛ دنت من المدفأة، ركعت، رفعت غطاء القدر الفخاري الذي كان يغلي لتكشف على طبختها.

(6)

اكتنف السماء ضوء حليبي، الناصرة نائمة ماتزال وتحلم؛ فوق سريرها نجمة الصبح ترن عند كل رشفة، أشجار الليمون والبلح ما تزال مزنرة بنقاب أزرق؛ صمت عميق؛ حتى الديك الأسود لم يصحُ بعد؛ ابن مريم فتح الباب، دوائر مزرقة تحيط عينيه، لكن يده لا ترتجف؛ فتح الباب من دون أن يرمي نظرة إلى الخلف، دون أن يرى أمه أو أباه، دون أن يغلق الباب، بيت الأهل إلى الأبد. خطا خطوتين، ثلاث خطوات ووقف: تخيل أنه سمع وقع قدمين ثقيلين يمشيان وراءه؛ التفت: لا أحد. شد نطاقه الجلدي

الذي يحمل المسامير، ربط شعره بمنديل موشوم ببقع حمر طاف في الحواري الضيقة والملتوية، كلب يعوي متبرماً وراءه، قبرة تحس دنو النهار، تطير خائفة فوق رأسه. يعبر بسرعة أمام الأبواب المغلقة، وصل إلى الحدائق والمراعي؛ أوائل الطيور بدأت تزقزق. في بستان فواكه، شيخ مقرون بذراع بئر يدور؛ بدأ النهار.

ما معه حقيبة، لا عصا، ولا خف؛ كان الطريق طويلاً. كان عليه أن يجتاز قانا، طبريا، مجدلا، كفرناعوم، أن يلتف حول بحيرة طبريا، أن يدخل الصحراء.... سمع كلاماً من صومعة هناك، عن ناس بسطاء وفضلاء، يرتدون الأبيض. كانوا لا يأكلون اللحم، لا يشربون الخمر، لا يقربون امرأة؛ يكتفون بالصلاة لله، يعرفون البسطاء ويشفون مرضى الحسد، يعرفون التعزيم اللغزي ويطردون الشياطين من الأرواح. مرة حكى له أحدهم عن هذه الصوامع المقدسة وهو يتنهد! في بحر أحد عشر عاماً كان ثمة كاهن، يشكر الله ويشفي الناس؛ إنما في أحد الأيام، للأسف، استعبدته الغواية ـ هذه أيضاً واسعة القدرة ـ رأى امرأة تخلت عن حياة الطهر وتركت الجلباب الأبيض؛ تزوجت وأنجبت ـ كان هذا لصالحها ـ مادلين؛ عاقب الله غير المؤمن بما يستحق.

إلى هناك كان علي أن أذهب، هناك علي أن أجثم، تحت جناحها... تمتم ابن مريم.

يا للغبطة! كم تمنى هذا منذ زمن، منذ ما كان في

الثانيـة عـشرة: أن يـترك بيـت الأبـوين، يقطـع الجـسور وراءه، ليخلص من وصايا أمه، تذمر وتجبر أبيه والهموم اليومية التافهة التي تضني الروح! نفض عن قدميه غبار الناس وسافر، لجأ إلى الـصحراء. قـرر اليـوم أخـيراً، رمـى كـل شـيء وراءه، خـرج مـن درب الناس، وانخرط كلياً في درب الله، لقد تحرر!

بـرق الوجـه الـشاحب المتـألم لحظـة، ربمـا لم تقـبض عليـه اظافر الله خلال أعوام إلا لتقوده إلى هنا حيث يذهب اليـوم مـن تلقاء، ذاته، حراً من اضطهادهم، بدأت إرادته الحرة تمتزج مـع إرادة اللّه؟ أليس هنا أعظم وأصعب واجب للإنسان؟ أليست هذه هي السعادة؟

حس إن قلبه تواسى، ليس ثمة مخالـب بعـد الآن، لا صـراع ولا صـراخ، أتـى الله منـذ الـصبح بحنـوٍّ كـبير، كنفخـة هـواء عذبة خفيفـة، وقـال: لنـذهب! فـتح البـاب، والآن، أي انـسجام، أي سـعادة! " لـن أبقـى هنـا، قـال، سـأرفع رأسـي وأرتـل زبـور الخـلاص: أنت ملجأي وأنت ملاذي، سيدي...."

لم يعد قلبه كبيراً يتسع لهذا الفـرح، فـرح عرمـرم، مـشى في ضـوء الفجـر العـذب، في وسـط نعـم الله الـضافية ـ أشـجار الزيتون، الـكـروم، حقـول القمـح ـ كـان زبـور الفـرح يقفـز مـن أعماقه مـن تلقـاء ذاتـه ويتمنـى أن يـصعد إلى الـسماء. رفـع رأسـه ثانية، فتح فمه، إنما انقطع فجـأة: سمع بوضوح في هذه اللحظـة وقع القدمين العاريين اللـذين يركـضان وراءه، الخطـى تقـترب،

باطـأ الـسير، أصـغى، باطـأ القـدمان العاريـان أيـضاً. اهتـزت ركبه تحته، توقف، توقفت الخطى.

أعرف من هذا، تمتم، وجعل يرتجف، أعرف.....

لكنه تجلد، التفت بغتة، ليتسنى له الوقت ليرى: لا أحداً.

مـن ورائـه، صـارت الـشمس بنفـسجية، لـيس ثمـة نـسمة هـواء، كانـت الـسنابل ناضـجة، انحنـت رؤوسـها وانتظـرت المناجل. لا أحداً. لا إنساناً ولا حيواناً، كان الـسهل مكشوفاً، بعيداً. وراءه فقط، في الناصرة، بدأ الدخان يصعد فوق بيت أو بيتين، استيقظت النسوة.

اطمأن بعض الشيء: " لا يجوز لي أن أبدد الوقت، فكـر، بـل علـي أن أحـث الخطـى، أن أحـيط بالتـل، وأهـرب مـن رؤيتها....." وراح يركض.

من الجهتين، كانت السنابل بارتفاع البشر؛ هنا، في سهل الجليل هذا، نبت القمح الكرمة أيضاً، وبعض الدوالي البرية تزحف أيضاً علـى خاصـرة المنحـدرات. في البعيـد يـسمع فحـيح عربة ثيران، الحمير الفتية تنهض على قوائمها، تستنشق الهواء، تحـرك الـذيل وتبـدأ بـالنهيق. وصل طلائـع الحـصادين، بضحك صـاخب وثرثـرات المناجـل المـسنونة، الـشمس تلـف النـساء مـن أذرعهن، إلى نقراتهن، إلى سيقانهن.

رأين من بعيد ابن مريم الذي يركض ورحن يقهقهن:

ـ إيه، قل إذن، وراء من تركض ؟ من يركض وراءك؟

إنما لما اقترب ورأينه عن قرب، عرفنه، صمتن وانضغطن على بعضهن:

الصالب تمتم، الصالب، يا تعساه! رأيته البارحة من يصلب........

أنظري إلى المنديل الذي يحمله على رأسه، إنه مضمخ بالدم!

هذا هو نصيبه من ثوب المصلوب، دم البريء نزل على رأسه!

هربن لكن الحلق كان جافاً، انكفأن عن الضحك.

تابع ابن مريم التقدم، ترك وراءه الحاصدات، تجاوز حقل القمح، وصل إلى الكروم المنتشرة على خاصرة الرابية، رأى شجرة تين وأراد التوقف، أن يقطف ورقة ليشمها، رائحة ورقة التين تريحهُ، تذكره بالإبط البشري. يوم كان فتى، كان يغمض عينيه، يشمها فيبدو له أنه يجثم على نهد أمه ويرضع لكنه توقف وما كاد يمد يده ليقطف ورقة، حتى تسربل بالعرق البارد: القدمان اللذان يركضان وراءه توقفا أيضاً فجأة. أخذته الرهبة، الذراع أيضاً مرفوع، يطوف بنظره فيما حواليه: الوحدة. الله وحده، الأرض مبللة، قطرات ماء على الأوراق، فراشة في بطن صخرة تجهد في فتح جناحيها المبللين لتطير.

سأصرخ، قرر، سأصرخ لأهدأ.

ولما بقي وحده على الجبل أو في عز الظهر في السهل

الصحراوي، أكان ممتلئاً فرحاً، حزناً أو أكثر من أي شيء، خوفاً؟ كان يحس الله يحيط به من كل صوب وكان يدفع صرخة وحشية. كمن يريد أن يثب وثبة يأس ليهرب. أحياناً كان يصوت كالديك، وأحياناً يعوي كالجقل الجائع، وأحياناً أخرى كالكلب المضروب. لكنه هنا، عندما يفتح فمه ليصرخ، يرى الفراشة التي تسعى لتفرد جناحيها، ينحني، يأخذها بتؤده ويضعها على أعلى ورقة في التينة بدأت الشمس تداعبها.

أخية، تمتم، أخية...... وتأملها باشفاق.

ترك وراءه الفراشة تستدفئ ومشى، وسرعان ما سمع من بعيد وقع خطوات مكتومة بتركها للقدمان الحافيان على الأرض البليلة.

بداية، لما انطلق من الناصرة، كانت الخطى تبدو آتية من مكان بعيد جداً، يجهد ليلتطقها؛ شيئاً فشيئاً كانت تتجرأ، تقترب، عما قليل، كما تخيل ابن مريم واجفاً، وبسرعة تجاوزته. "إلهي، إلهي، تمتم، سأحث الخطى لأصل سريعاً إلى الصومعة، قبل أن تتسنى لها الفرصة لتنقضّ علي."

هيمنت الشمس على السهل كله، ربتت على أكتاف الطيور، الحيوانات والناس؛ همهمة غامضة تصدر من الأرض، الماعز والخراف تحمحم في المنحدر، راح الراعي الصغير ينفخ في القصب، العالم هدأ. قريباً عندما يصل إلى يسار الحورة العالية سيرى القرية الفرحة التي يحب، فأنا يوم كان مراهقاً ومن دون

لحية ولم يكن الله قد غرز فيه أظفاره، كم مرة أتى مع أمه ليشترك هنا بالأعياد الصاخبة! كم مرة هو أيضاً أعجب بالبنات من كل قرى الجوار وهن يرقصن تحت الحورة الوارفة الظل ويضربن الأرض فرحين؟ إنما يوم كان في ربيعه العشرين واقفاً، قلقاً، تحت الحورة، وتذكر الوردة التي كانت في اليد...

ارتعش. فجأة ظهرت أمامه مجدداً، الحبيبة غير المعلنة، الأقرب إلى القلب، تجلس حيث لا ترى الشمس على صدرها من اليمين والقمر من اليسار، والنهار والليل ينتفخان وينثيان تحت الجلباب الشفاف.

دعيني؛ دعيني! لقد نذرت للّه وسأتكلم معه في الصحراء! صرخ. انطلق راكضاً. تجاوز الحورة، قانا منبسطة أمامه... البيوت الصغيرة دهنت بالكلس الأبيض، والبيادر المربعة المصغرة بعرانيس الدرة والكرانيب الضخمة التي تجف في عين الشمس. السيقان تتخطر على جنبات البيادر، البنات الصغيرات يصنعن شرائط وأكاليل بخيطان القطن لتزيين البيوت.

مرّ، عيناه إلى الأرض، أمام هذا الفخ الشيطاني وأسرع، لكي لا يرى أحداً، و لا يراه أحد؛ كانت الأقدام العارية تدق الآن الشارع بعنف وتسرع.

كانت الشمس قد علت، كانت تغطي العالم، الحاصدات يرجحن المناجل، يغنين ويحصدن، قبضات السنابل تصير بسرعة ملء باع، أكداساً، تنتصب كالأبراج على

البيادر موسماً طيباً تمنى على عجل ابن مريم لأصحاب الرزق وتابع سبيله، اختفت قانا وراء أشجار الزيتون، والظلال تكومت تحت الأشجار، قريباً يأذن الظهر. وبينما كان ابن مريم فرحاً جداً برؤية العالم وفكره محدد بالله، أتت إلى أنفه رائحة طيبة لخبز يخرج الآن من التنور، أحس بغتة بالجوع، لدى هذا الشعور، ارتعد كل جسده، منذ كم عام جاع دون أن تلبّى شهوة الخبز الطاهرة! والآن.....

تنسم منخراه الهواء برغبة جارفة، لاحق الرائحة، قفز من فوق حفرة، تخطى سياجاً، دخل إلى كرم، ميز تحت شجرة زيتون هزيلة كوخاً صغيراً، الدخان يصعد منه حلزونياً فوق السقف. تعثرت عجوز ذات أنف مدبب، إلى جانبها كلب أسود ذو بقع صفراء كان قد بسط قوائمه فوق الفرن وفتح شدقاً عريضاً جائعاً عامراً بالأسنان، سمع خطى في الكرم وثب وهو ينبح على الدخيل. التفتت العجوز مذهولة، رأت الشاب، برقت عيناها الصغيرتان من دون أهداب، ارتاحت لرؤية رجل في وحدتها، توقفت، المنكاش بيدها.

ـ وصلت أهلاً، جائع؟ من أين تأتينا هكذا؟

ـ من الناصرة.

ـ جائع؟ سألت العجوز ثانية وجعلت تضحك، تحرك منخراك كما يتحرك منخرا كلب التربص.

ـ جائع، ياجدتي، اعذريني.

كان سمع العجوز ضعيفاً، ما سمعت.

ـ ماذا؟ ارفع صوتك.

ـ جائع، اعذريني، ياجدة.

.... أعذرك، لم؟ ليس الأمر مخجلاً، الجوع، يا ابني ليس أكثر من العطش أو الحب، اللّه يعطي كل هذا، هلم اقترب، لا تخجل.

جعلت تضحك؛ ظهر سنها الثمين الوحيد.

ـ هنا، ستجد الخبز والماء والحب، أبعد ـ في مجدلا Magdala أخذت رغيف خبز قد وضعت على مصطبة التنور، بين باقي الخبز.

هوذا الخبز الذي نحفظه للمارة، نسميه خبز الزيز، هو ليس لي، هو لك، اقسم وكل.

قعد ابن مريم عند كعب الزيتونة العجوز وراح يأكل مرتاحاً، كما لو كان خبزاً لذيذاً، وكما لو كان الماء طازجاً، وكذلك الزيتونتان اللتان أخذهما من العجوز ليأكلهما مع الخبز، كان كله طيباً مع النواة الصغيرة اللاحمة كالتفاح! لاك بهدوء أكل، شعر أن جسمه وروحه اختلطا، صارا في هذه اللحظة شيئاً واحداً، كانا يتناولان معاً الخبز والزيتون والماء، كانا فرحين ويتغذيان، وكانت العجوز المستندة إلى التنور، تتملاه.

ـ أنت جائع، وابتسمت، كل، أنت شاب، أمامك درب

طويل، وأعطته حبتي زيتون أخرتان، عقدت على عجل منديل رأسها الذي انزلق والذي سمح برؤية جمجمتها الصلعاء.

ـ إلى أين أنت ذاهب هكذا، يا ولدي؟

ـ إلى الصحراء.

ـ أين هذا، ارفع صوتك!

ـ في الصحراء.

زمت العجوز فمها الأزرد، صارت عينها عدائية.

ـ إلى الصومعة؟ صرخت بغضب غير منتظر، لماذا؟ عم تبحث هناك؟ ألا ترحم شبابك؟

ظل الشاب صامتاً، هزت العجوز رأسها الأمرد، نفخت كأفعى: ستجد اللّه؟ سألت بنبرة تهكمية.

سمع صوت الشاب هزيلاً جداً:

أجل

رفست العجوز الكلب الجاثي عند قدميها، واقتربت من الشاب.

ـ إيه أيها التعيس! لكن اللّه لا يوجد في الصوامع، بل في بيوت الناس! واللّه موجود حيث الأبناء، الهموم، المطبخ، الخلافات، المصالحات، اللّه هنا أيضاً. لا تصغ إلى ما يقول العاجزون؛ بالنسبة لهم العنب كثير الخضار، آنئذ يتقون...... البيت الذي أحدثك عنه، هو بيت الناس، وليس إله الصومعات هو اللّه الحقيقي، ذاك الذي يجب أن نعبد، الآخر، هو

للعاجزين والكسالى!

كانت العجوز ما تزال تتكلم، وكلما تكلمت، احتدت، كانت تتكلم، تزقزق، أبعدت غضبها وهدأت، ربتت على كتف الشاب.

ـ سامحني، يا ابني، عندي ابن، عنيد مثلك، في صباح، اضطرب ذهنه، فتح الباب، وذهب، سافر إلى صومعة الصحراء، إلى المنقذين ليكونوا ملعونين لا يقدرون أبداً أن يشفوا من حياتهم مما هم فيه! وخسرت ابني. والآن آتي فرناً واخرج إلى آخر، لأعطي الخبز لمن؟ ربما لأولادي؟ لأحفادي. فها أنا ذا حطبة عجفاء.

سكتت لحظة، جففت عينيها، أردفت:

ـ عشت على هذا سنوات طويلة، توسلت لله، صرخت: لم ولدت؟

كان عندي ولد، لمَ أخذ مني؟ صحت، زعقت، لكنه لم يتعرض لمسؤولية السماء! مرة واحدة، فوق طلعة النبي الياس، رأيت في منتصف الليل السماء مشرعة، سمعت صوتاً راعداً يقول: " اصرخي دوماً، إن كان هذا يرضيك!"

وأغلقت السماء، منذئذ لم أصرخ؟!.

نهض ابن مريم، مد يده ليودع العجوز، لكنها رفضت، وجعلت تنفخ مجدداً كالأفعى:

أهذه هي الصحراء، أهذه هي الصحراء التي تختبر، أنت

أيضاً؟ إنما أليس لك عيون، يا ولدي؟ ألا ترى الشمس، الكروم، النساء؟ اذهب إذن، أقول لك، إلى مجدلا، تجد هناك حسابك! ألم تقرأ الكتاب المقدس؟ أنا لا أريد، يقول اللّه، لا أريد صلوات وصيامات، أريد لحماً! هذا يعني: أريد أن تنجبوا أبناء!

ــ إلى اللقاء يا جدة، اللّه يعوض لك الخبز الذي أكلته عندك.

ـ اللّه يعيد لكيا ولدي الخير الذي فعلته معي؛ منذ زمن طويل لم يمر رجل من هنا، وإن مر أحد، كان عجوزاً........

تخطى الكرم ثانية، وثب من فوق السياج ثم إلى الطريق العام.

لا أستطيع أن أرى أحداً، تمتم، ولا أريد، حتى الخبز الذي يعطوني إياه مر. ليس ثمة إلى اللّه سوى درب واحد ، هو الذي مشيته اليوم، يمر بين الناس دون أن يمسهم، ويمر في الصحراء. آه! أنا أستعجل الوصول.

كان الكلام ما يزال على شفتيه وقتما انفجر ضحك وراءه، اختلج والتفت، ضحكة من دون فم يحرك الهواء نافخة كارهة عدوانية.

آدوني! صرخة خرجت من الحلق المتشنج، آدوني! قفّ الشعر على رأسه، رأى اللحن الذي يسخر كالمجنون، راح يركض وسمع في الحال قدمين حافيين يركضان وراءه.

ــ لا يتخلفون عن اللحاق بي.... ولن يتخلفوا عن اللحاق

بي........ تمتم، وركض.

النسوة ما زلن يحصدن، الرجال حملوا الحصيد مشملاً إلى البيادر، وبعيداً عنهم آخرون يذرون، هواء حار يزفر يحمل الحزم، تعج الأرض بالغبار الذهبي وتترك حبات القمح الناضجة تتكوم على البيدر، يأخذ المارة قبضة من القمح، ثم إلى الفم ويتمنون لأصحاب الحقل: أن يكون العام القادم باراً ومعطاء أيضاً."

بعيداً، بين تلتين، بانت طبريا، مظفرة، جديدة البناء، وثنية، غاصة بالتماثيل، بالمسارح والنساء المخضبات. خاف ابن مريم لدى رؤية كل هذا. مرة وهو فتى، ذهب إليها مع عمه الحاخام إذ دعي لطرد الشياطين من نبيلة رومانية؛ كان إبليس الحمام قد تلبّسها، كانت تخرج إلى الشوارع عارية تماماً وتلاحق من المارة من يدخل القصر؛ في تلك اللحظة كانت النبيلة في إحدى نوباتها وتركض عارية كاليد نحو باب الشارع؛ سارع العبيد في أثرها. قدم الحاخام عصاه وأوقفها؛ وهي لدى رؤيتها الفتى عجلت إليه؛ زعق ابن مريم وغاب عن الوعي؛ ومنذئذ كان يتجمع دمه كلما تذكر هذه المدينة الفاحشة.

هذه مدينة ملعونة يا ولدي قال له الحاخام: عندما تمر من هنا مر سريعاً، أنظر إلى موطئ قدميك وفكر بالله؛ وصدقني، لما تذهب إلى كفر ناعوم انعطف عن الطريق المباشر.

كانت مدينة الغجور هذه مركزاً هاماً، يلجها الناس ويغادرونها من الأبواب مشاة فرساناً، رايات تحمل نسوراً

برأسين تخفق فوق بروجها ، دروع برونزية تتلألأ. في يوم رأى ابن مريم جثة فرس منتفخة ممددة على سرير من الآنية الخضراء تخرج من أبواب الناصرة؛ في بطنها المبقور، المليئ بالأمعاء والمعدة والأقذار، تذهب وتعود منها وإليها ارتال الخنافس والجلالات، وفوقها تدندن غيمة من الذباب الضخم الأخضر والمذهب وغرابان غرزا المنقار المروّس في العينين الواسعتين بدون رمش ويشربان... تلمع الجثة من جديد، شفيت، ألفها الشعب، راحت تتقلب في العشب الجديد، مبتهجة، ثملة بالفرح، قوائمها الأربع المحددة ممتدة نحو السماء كجثة الفرس، هي طبريا أيضاً ـ تمتم ابن مريم ـ، ولم يستطع أن يزيح عينيه عن المدينة؛ وها هما سادوم وعمورة، وها هي أيضاً روح الإنسان الخاطئ....

مر عجوز صلب العود مفرشخاً فوق حماره؛ رآه وتوقف:

ـ لماذا أنت مشدوه يا ولدي ألا تعرفها؟ هذه أميرتنا الجديدة طبريا العاهرة؛ يطأها اليونان، الرومان، البدو، الكلدانيون، البوهيميون، والعبريون، وهذا لا يذلها. لك أن تصدق ما أقول لك، هذا لا يذلها؛ إثنان واثنان يساوي أربعة!

أخذ من خرجه قبضة من الجوز وقدمها له:

ـ تبدو رجلاً شجاعاً وفقيراً، خذ هذا لتتسلى في الطريق، وقدم نذورا للشيخ زباديا ابن كفر ناعوم.

كان ذا لحية شعثاء وبيضاء، وشفتين غليظتين حساستين، رقبة ثور وعينين حادتين سوداوين كما عينا النسر؛

ربما احتسى من الخمر كثيراً، وعانق من النساء كثيراً، وكان بعيداً جداً عن الشبع أو الكفاية!

عملاق مكشوف الصدر، عاري الركبتين، مشعر، مع عصا راع محنية، مر، توقف خائفاً، دون أن يحيي العجوز، التفت نحو ابن مريم:

أليست هذه اقطاعتك، الناصرة، يا ابن النجار؟ ألست أنت من يصنع الصلبان ومن يصلبنا؟

سمعته حاصدتان مسنتان من الحقل المجاور فاقتربتا

أنا، قال ابن مريم، أنا... ودل أنه ذاهب

إلى أين تذهب؟ قال الآخر ومسك ذراعه؛ لن تخرج من هنا كما تريد!

أيها الصالب الخائن، أريد أن أداعب لك وجهك

لكن المسن الصلب مسك عصا الراعي وانتزعه من يديه

فيليب أردف، انتظر، اصغ لي، أنا أيضاً، العجوز؛ قل لي: أيحدث شيء مهما ضأل في العالم بدون إرادة الله؟

ـ لا يا شيخ زبديا، أبداً

إيه! حسناً وهذا أيضاً بإرادة الله أن يصنع هذا الرجل صلباناً، ويترك حراً؛ ألا نتدخل نحن بشأن الله، هذه نصيحة طيبة؛ اثنان+اثنان = أربعة.

في هذا الوقت، كان ابن مريم قد تحرر من يدي الراعي وأطلق ساقيه للريح؛ زعقت العجوزان وراءه وشهرتا بضراوة

منجليهما.

ـ يا شيخ زبديا، قال العملاق، هيا نذهب نحن الاثنان لنغسل يدينا التي لمست الصالب، هلم نغسل شفاهنا التي كلمته.

ـ لا تعقد الحياة، قال الشيخ؛ تعال نذهب من هنا، نترافق، أنا مستعجل؛ ولداي ليسا في البيت، الواحد سافر، كما يبدو، إلى الناصرة ليرى الصلب، والآخر غادر، كما يظهر، إلى الصحراء ليصير قديساً، وبقيت وحدي مع مراكب صيدي؛ تعال اسحب الشباك معي، الآن يجب أن تكون غصت بالسمك؛ سأعطيك ما تحضر منه وجبة لك.

استلما السبيل، كان الشيخ طيب المزاج، فراح يضحك.

آه! لا يجوز التسلية كل الأيام معنا، يا رب، قال؛ يجب أن ترى كل الألوان. الأسماك تصرخ: لا تعمنا يا رب، لا تدعنا نقع في الشباك! الصيادون يصيحون: اعم الأسماك، يا الله، اجعلها تسقط في الشباك! لمن من الاثنين، يصغي الله؟ يصغي تارة للأسماك وطوراً للصيادين ـ وهكذا تمر الحياة! مع ذلك، أخذ ابن مريم شِعب الماعز لأن لا يلحقه الدنس في أثناء عبوره قرية مجدلا اللعينة!!. كانت الضيعة منبسطة، منعمة، صافية، بين أشجار البلح، عند تقاطع طرق غنية، حيث تعبر القوافل ليل نهار، ينطلق بعضها من الفرات ومن الصحراء العربية نحو البحر الكبير، وأخرى من دمشق وفينيقيا نحو وادي النيل العامر بالأرزاق. ثمة. بئر ماء طازج، في مدخل القرية، وعلى حجر البئر

تجلس امرأة، نهديها عاريين، متبرجة، تضحك للتجار ... فأخطر أن يبتعد، يبدل الدرب، يمشي باستقامة نحو البحيرة، يدخل الصحراء! هناك كان يستوي اللّه قرب البئر الناضب وينتظره.

لدى ذكر اللّه ارتعش قلبه، فحث الخطى . أخيراً أشفقت الشمس على البنات الحاصدات، هبطت نحو المغيب، وتلاشى أوارها؛ استلقت الحاصدات على ظهورهن وتحتهن الكديس ليرتحن، يتسامرن بحديث أو ملمة؛ كل النهار في عين الشمس، مكشوفات الصدور إلى جانب الرجال الذين يعرقن أيضاً، أخذ الحر برقاب البنات، والآن بعد مزح وضحك هدأن.

سمع ابن ماري ضحكهن ومضايقتهن، تنكد واحمر محياه، فسارع كي لا يسمع مزيداً من حديث البشر. وجه فكره إلى منحى آخر، راح يلوك كلام الراعي الفظ، وتنهد:

لا يعرف هؤلاء كل ما اعاني، تمتم، لا يعون لماذا أصنع صلباناً، ولا يدركن من أعارك....

أمام كوخ، يهز فلاحان باللحى والشعر الكديس ويغتسلان؛ الأرجح هما أخوان، تحضر أمهما العجوز وجبة الفقراء، تحمص على الجمر عرانيس الذرة، وتنشر الريح الرائحة.

رأى الفلاحان ابن مريم منهكاً، يغمره الغبار فرق قلبهما عليه.

إيه أنت لماذا تركض هكذا؟ صرخا؛ تبدو آتياً من بعيد، ما معك حقيبة، تعال تناول لقمة معنا

و لتأكل عرنوس ذرة، أردفت الام،

و لتحتسي كأساً من الخمر، لكي تلون محياك قليلاً

ألست جائعاً؟ لا أريد، شكراً! أجاب، وتخطاهما... لو علموا من أنا؟

قال، لخجلا من لمسي ومن الكلام معي.

افعل ما يحلو لك، قال له أحد الأخوين، نحن لا نناسبك، لا شك؟!.

انقضَّ المساء كالسيف!! لم يتيسر الوقت للتلال أن تنبت ورداً، صارت الأرض بنفسجية وفي الحال سوداء؛ النور الذي تسلق قمم الأشجار، وثب إلى السماء وتبدد. وجد الليل ابن مريم في قمة التل. أرزة مسنة علت في الفضاء يصفعها الهواء، يزعجها، لكن جذورها كانت متينة وتندس بين الحجارة. من السهب تشب رائحة القمح والغابة المحترقة؛ من أكواخ انتشرت هنا وهناك يصعد دخان... وجبة المساء؟!.

ابن مريم جائع وسغب، مسافة الطريق تحسد المياومين الذين أنهوا أعمالهم، الذين عادوا إلى ذويهم ينهكهم التعب والجوع والذين رأوا من بعيد النار المشتعلة، الدخان فوق سطوحهم ونساءهم اللواتي يحضرن العشاء.

شعر فجأة بأنه مهمل أكثر من الثعالب والقبرات التي لها مع ذلك عشها وكائنات دافئة ومحبوبة تنتظرها؛ وهو لا أحد له، حتى أمه!!. قعد إلى كعب أرزة تجمع على نفسه، وراح يرتجف.

إلهي، أشكرك لكل هذا، غمغم للوحدة، للجوع والبرد: لا ينقصني شيء. لم يكد يلفظ هذه الكلمات، حتى أحس بظلم الشر الذي يعانيه؛ تعمق بنظرة حوله كحيوان وقع في شرك وصدغاه يضجان غضباً وخوفاً. وقف على ركبتيه، ثبت عينيه في الشعب المظلم حيث سمع القدمين الحافيين يصعدان عبر الحجارة... وصلا الآن إلى القمة. زفرة مبحوحة خرجت من حلقه، رغما عنه؛ بسماعها أخذته الرعدة هو مجدداً:

اقتربي، أيتها السيدة، لا تختبئي؛ أزف الليل، لا أحد يراك، اظهري!

أمسك شهيقه، وانتظر.

لم يجب أحد؛ حفيف الليل يسمع فقط صافياً، عذباً، أبدياً، الجدجد، الجراد، طيور الليل مع هممهتها المتافقة والبعيدة، البعيدة جداً، الكلاب التي تميز في العتمة ما لا يقدر الناس أن يروه والتي تنبح... أصغى، كان متأكداً، أحدهم واقف تحت الأرزة، أمامه؛ تبرم الآن بصوت خفيض، كصلاة: "سيدتي... سيدتي... " ليختبر غير المرئي، وتريث، لم يعد يرتعش، كان جبينه وإبطاه يسبحون تسبح بالعرق.

تطلع أنصت؛ خيل له طوراً أنه يسمع ضحكاً في الظلمة، وتارة يظن انه يرى الهواء يتلبسه ويصير صدمة، يأخذ شكل جسد، يمحوه وينهار...

أضني ابن مريم؛ كان يجاهد لإعطاء قواماً للهواء

الأكمد؛ لم يعد يزعق، لا يلتمس، لقد انهار على ركبتيه منصتاً تحت الأرزة، كان ينتظر.

كشطت الحجارة ركبتيه، استند إلى جذع الأرزة وأغمض عينيه آنئذ بهدوء، من دون أي نأمة خلف جفنيه، رآها. لم تأت كما انتظرها؛ كان ينتظر أماً مأساوية، ترفع اليدين فوق رأسه وتلعنه؛ وهنا!

بكل هدوء وهو يرتجف فتح عينيه: جسد امرأة وحشي يشع أمامه، يرتدي من الرأس حتى القدمين درعاً متنافراً من حلق ضخم برونزي؛ إنما لم يكن الرأس بشرياً، بل كان رأس نسر ذي عينين صفراوين ومنقار معقوف، فيه قطعة لحم. كان يحدج ابن مريم مرتاحاً من دون رحمة .

لم تأت كما انتظرتك، تمتم؛ أنت لست الأم... رحمة بي، قولي لي من أنت؟

استفهم، تريث، استفهم أيضاً؛ كانت العينان الصفراوان الدائريتان تبصان في العتمة.

و فجأة فهم ابن مريم:

اللعنة ! صرخ، وسقط على الأرض ملء وجهه.

(7)

السماء تشع فوق رأسه والارض تحته تجرحه بحجارتها وأشواكها؛ مد الذراعين وتخبط، كما لو كانت الأرض كلها صليبا وناداه، مصلوباً.

كان الليل يمر فوقه بموكبه المظفر وموكبه الأليف... نجوم وطيور الليل؛ الكلاب في كل مكان، خاضعة للناس، تنبح على البيادر وتحرس رزق صاحبها.

الجو بارد، هو يرتجف. أحياناً خلال لحظة يغرق في النوم؟، ينزهه في الهواء بين مناظر طبيعية قائظة وبعيدة، إنما يرميه في الحال على الأرض، على الحجارة.

حوالي منتصف الليل يسمع جلاجل فرحة تعبر التل ووراء الجلاجل حدو جمّال حزين. سمع أحاديث، أحدهم يدفع تنهيدة، صوت امرأة ينبعث واضحاً ورخيماً في الليل؛ لكن سرعان ما يصمت، وإلى الدرب...

تمر مادلين في منتصف الليل راكبة جملاً ذا سرج مذهب، الوجه دمرته الدموع، وعلى خديها تشوهت المجملات، صارت وحلاً.

أتى تجار أثرياء من أربع أركان العالم ولم يجدوها لا أمام البئر ولا في خصها. أرسلوا جمّالهم على جمل مسروج بالذهب ليأخذها في الحال.

كان دربهم طويلاً مليئاً بالأهوال، لكنهم يحفظون في ذهنهم جسداً في مجدلا فتشجعوا. لم يعثروا عليها، لقد بعثوا جمّالهم وهم الآن يقعدون بالرتل في دارها، العيون مغمضة وينتظرون.

رويداً رويداً اختفت الجلاجل في الليل، ترخمت، يسمعها ابن مريم الآن كضحكة عذبة، كخرير ماء في روض عابق بالأريج

الذي يبقبق ويدعو بأنس باسمه؛ وهكذا، بلطف، بعذوبة خلف الجلجل الذي يدندن انزلق ابن مريم من جديد إلى النوم.

رأى حلماً: بدا له العالم بقعة خضراء ومزهرة، والله راع صغير أحمر بقرنين أعقفين لدنين جديدين؛ كان جالساً قرب نبع ينفخ بالقصب. لم يسمع ابن مريم أبداً موسيقى بهذه الرخامة، بهذا الإدهاش . الله، الراعي الشاب، يلعب: بهدوء الأرض ترتعش، تتحرك، تموج، تنتعش وعلى حين غرة غصت البرية بالغزلان الرشيقة، تعتمر قرونها... اقترب الله، تأمل الماء، والمنهل غص بالسمك؛ رفع عينيه إلى الشجر وأوراقها تلتف على بعضها، المزوج يصير أعنف، وحشرتان كبيرتان كرجلين، تخرجان من الأرض وتبدآن في الحال الانتشاء في الحال على العشب الطري؛ تتدحرجان من طرف البرية إلى طرفها الآخر، تتزاوجان، تنفصلان، تتزاوجان أيضاً، تضحكان بفجور، تسخران من الراعي وتنفخان. رمى الراعي المزوج من شفتيه: راح يتأمل الزوجين السفيهين والفاحشين؛ فجأة لم يعد يحتمل البقاء؛ بحركة سريعة حطم المزوج تحت قدميه، ودفعة واحدة، تشتت الغزلان، الطيور، الأشجار، إنما الزوجان المتشابكان؟!

زفر ابن مريم نفساً وقام، مكنه الوقت، في لحظة اليقظة، أن يرى جسدين متعانقين، رجلاً وامرأة، قذفا في فتحة مظلمة في أعماقه، نهض بنزق، مروعاً:

ثمة كومة من الرواسب في داخلي من القذارة!

اقتحم النطاق الجلدي الذي يحمل المسامير، داس بقدميه ثيابه وراح يجرح بدون رحمة فخذيه، ظهره ووجهه؛ شعر بالدم يسيل ويلطخه، ارتاح.

نهض النهار، اكمدت النجوم، لسعه هواء الصباح البارد حتى العظم؛ فوقه غصت الأرزة بالأجنحة والزقزقة. جال بنظره حوله: كان البيدر فارغاً، كانت اللعنة البرونزية على رأس النسر التي صارت من جديد على ضوء النهار غير مرئية.

يجب أن أذهب، أن أهرب، قال لنفسه، يجب أن لا أدخل مجدلا ـ عليها اللعنة ـ يجب أن أصل إلى الصحراء، أدفن في الصومعة؛ هناك سأميت الجسد وأجعله روحاً.

مد يده، داعب جذع الأرزة الضخم وشعر بروح الشجرة تعلو الجذور وتتوزع حتى الأغصان الأعلى والأدق.

وداعاً؛ أختي، تمتم؛ لقد تلبسني الخجل هذه الليلة في ملاذي؛ اعذريني.

ثم راح ينزل شِعبه، منهكاً، بمشاعر مؤسية.

أدرك الطريق العام؛ كان السها قد استيقظ وبدأت الشمس ترسل أشعتها الأولى وتغطي بالذهب البيادر الغاصة بأكداس القمح. يجب أن لا أمر في مجدلا، تمتم مرة أخرى، أنا خائف..." توقف ليختار الدرب المؤدي إلى البحيرة، أخذ الطريق الضيق الأول عن يمينه؛ كان يعرف أن مجدلا تقع إلى اليسار، والبحيرة إلى اليمين، وتقدم بثقة.

كان يمشي، ويمشي، مفعم الروح، اندفع من مجدلا المومس إلى الله، من الصليب إلى الجنة، من أمه وأبيه إلى المحيطات البعيدة، إلى الأراضي البعيدة، إلى ألوف وجوه الناس البيضاء، الصفراء والسوداء. لم يكن بعد قد خرج من تخوم فلسطين إنما منذ الطفولة في بيت أبيه المتواضع كان يغمض عينيه وتنطلق روحه كالصقر الواقف لمطاردة الجلاجل، من مدينة إلى أخرى، من بحر إلى آخر يهمهم فرحاً. ما كان يطارد؟ جسمه يلهو، يتحرر من بدنه، يصعد إلى السماء لا يرغب بشيء آخر.

كان يمشي، ويمشي، يشكل الممر منعطفات يلوب ويلوب بين الكروم، يصل إلى الزيتون، يعود إلى الصعود؛ يتبعه ابن مريم، كما يتابع جمال مجرى ماء أو أغنية شجية ورتيبة. بدت هذه الرحلة له حلماً، كانت قدمه بالكاد تلامس الأرض، تدوس بتؤدة الأثر البشري المسفوح.

بالأصابع الخمسة، تهز أغصان الزيتونة حاملة الثمار وهو يتمنى الترحاب، وبدأت عنا قيد العنب المدلاة، المستندة إلى الأرض، حياتها، كانت البنات العابرات، بمناديل بيضاء وربلات صلبة، وقد لفحتهن الشمس، يحيينه بلطف وعذوبة.

أحياناً، عندما يختفي دبيب الحياة على الأرض، كان يسمع خلفه من جديد الأقدام الثقيلة الحافية، انعكاس البرونز الذي يلمع ويتلاشى في الفضاء، والضحك الخبيث يضج أيضاً فوق رأسه، لكن ابن مريم يصبر يتجلد، كان يدنو من

خلاصه، قريباً سيرى أمامه البحيرة ووراءهُ مياهها الزرقاء، بين الصخور الحمراء، والصومعة معلقة كعش نسر.

بينما كان يتابع المسير وذهنه يندفع، يتوقف فجأة خائفاً: أمامه تحت أشجار البلح في فجوة محمية، كانت مجدلا تتبسط. جاهد فكره ليعود إلى الوراء، لم يفلح، لكن ساقيه حملتاه بالتأكيد نحو الخلوة الملعونة، حيث تنتشر عطور مادلين.

لا أريد! لا أريد! قال متبرماً خائفاً، تحرك ليرجع إلى الوراء، لكن جسمه رفض، سكن في مكانه ككلب حراسة وراح يعب الهواء.

"يجب أن أذهب"، قرر أيضاً مع نفسه، إنما بقي مسمراً في محله، تأمل البئر العتيق وغطاءه الرخامي، البيوت المتواضعة النظيفة، المدهونة بالكلس، كانت الكلاب تنبح، الدجاج ينقنق، النساء تضحك، جمال محملة، ناخت أمام البئر، راحت تجتر....." يجب أن أراها ــ سمع في عمقه صوتاً واجفاً ــ إن أراها، هذا ضروري، هو اللّه الذي يسيّر رجلي، اللّه وليس فكري، لكي أراها، لأركع أمامها، أطلب عفوها..... هذه غلطتي! قبل دخول الصومعة وارتداء الجلباب الابيض يجب أن أطلب عفوها، وإلا لن أنقذ.... إلهي أشكرك لتوجيهك لي إلى هنا مع أني راغب عن هذا!"

ابتهج، وربط مجدداً حزامه وراح يهبط نحو مجدلا، حول البئر قطيع من الجمال بعد أن كلت، ناخت وراحت تجتر،

ببطء، بهدوء، كانت ما تزال محملة، فقد وصلت من بلاد بعيدة، تنشر رائحة التوابل.

وقف قرب البئر، مدت له عجوز تمتح الماء جرتها، شرب؛ أراد أن يسألها إن كانت مريم هنا، لكنه خجل " الله دفعه نحو بيتها، أنا واثق، يجب أن تكون هنا" فكر؛ أخذ المغبر الظليل. كان ثمة الكثير من الغرباء، يرتدي البعض دشداشاً أبيض كالبدو، ويرتدي آخرون القميص الكشميري الثمين، فتح باب صغير، امرأة ذات ردف ضخم وعينين سوداوين ظهرت، رأته وراحت تضحك.

إيه! أهلاً وسهلاً، أيها العامل! أنت أيضاً تريد أن تتنسك؟ صرخت. وأغلقت الباب وهي تشرق بالضحك.

صار ابن مريم قرمزياً، لكنه تجمل بالصبر، يجب، يجب قال، أن أركع على قدميها، وأطلب سماحها........

أسرع الخطى، كان البيت في طرف الضيعة الآخر، في وسط روضة رائعة يزينها شجر الرمان. كان يذكر هذا جيداً: باب أخضر وحيد المصراع، رسم عليه أحد عشاقها، ثعبانين متعانقين، أحدهم أبيض والآخر أسود؛ فوق الباب، ضب ضخم أصغر مصلوب.

تاه عن الدرب، جال دورات ودورات، خجل من السؤال؛ كان وقت الظهر قريباً، وقف في ظل زيتونة ليأخذ نفساً، عبر تاجر غني بلحية سوداء وجعدة، وعينين سوداوين، الأصابع

محملة بالخواتم، كان ينشر رائحة المسك؛ تبعه ابن مريم.

هذا ملاك من عند الله، فكر، بينما كان يتبعه ويعجب بهيكله البهي المتناسق وشملته الثمينة المطرزة بالزهور والطيور اللماعة تغطي كتفه؛ هذا أحد ملائكة، أكيد ـ نزل ليرشدني إلى الدرب.

جاب السيد الغريب الحارات الملتوية، وظهر الباب الأخضر بثعبانية المتعانقين. كانت عجوز صغيرة القد جالسة في الباب على مقعد؛ كان إلى جانبها موقد مشتعل وتطبخ السلطعان؛ وعلى صينية واسعة تبيع كريات من الحمص المفلفل، وبزر القرع المشوي.

انحنى الشاب ابن المحلة، نقد العجوز قطعة ودخل. ودخل وراءه ابن مريم.

بالرتل في الباحة، واحد وراء آخر، أربعة تجار متربعون في الأرض: شيخان مع أظافر وروموش مدهونة، شابان بلحى وشوارب أبنوسية عيونهم مثبتة على الباب الصغير المغلق، في غرفة مريم؛ من حين لآخر، تسمع صيحة من الداخل همهمة... ضحكة، التخشيبات الأرضية تئز ـ وفي الحال يوقف المعجبون الحديث الخفيض الدائر بينهم ويغيرون وضعهم بتبرم وشكوى. لم ينته البدوي بعد، دخل منذ مدة، تأخر الجميع في الباحة، شباباً وشيباً، مستعجلون. السيد الشاب الهندي ينتظر دوره ووراءه ابن مريم.

رامي رمانات ضخم جالس تحت الثمار، ينهض إلى وسط الباحة، ومن جانبي الباب سروتان مثينثان، الأولى ذكر منتصبة كالسيف، والثانية أنثى بأغصانها الممتدة والملتوية؛ قفص من القصب معلق بالرمانة، في داخله حجل أسمر ذهبي، يطير يميناً ويساراً، ينقر، يضرب قضبان القفص ويشقرق.

أخذ المعجبون من حزامهم البلح وراحوا يمضغون، ثم راحوا يكسرون الجوز الممسك ليطروا أفواههم، ويتسامرون ليزجوا الوقت. التفتوا، حيوا السيد الشاب، وحدجوا باحتقار وراءه ابن مريم، ذي الثياب الرثة. تنهد العجوز الأول وقال:

ليس في الدنيا استشهاد أعظم من استشهادي: أنا أمام الجنة والباب مغلق.

فراح يضحك الشاب الذي يحمل ذهباً في أكعابه، ويقول:

أنقل التوابل من الفرات وآخذها إلى البحر الكبير؛ أترون هذا الحجل أمامنا ومخالبه الحمراء؟ إيه حسناً، سأعطي حمولة قافلة من العصفر والبهارات لشراء مريم، وأضعها في قفص من ذهب وآخذها معي. إذن ما عليك أن تعمل، اعمله بسرعة، وليس عندي للمرأة الجسور سوى قبلة.

أشكري عزيزي الفتى، قال آنئذ الشيخ الآخر ذو اللحية المعطرة واليدان الناعمتان، المدهونة راحتيهما بالحنة؛ أشكرك، فما قلته سيبرز نكهة القبلة.

قبل السيد الشاب العينين ذوات الهدب الثقيل، رنح جذعه

وحرك شفتيه، كمن يلتمس؛ كان قد غرق قبل أن يدخل الجنة، في الغبطة الأبدية.

استمع إلى الحجل الذي كان ينقنق. النق والطعن داخل الغرفة المرتجة والعجوز، في الباب تضع على الموقد السلطعانات الحية التي راحت تقفز...

"هذه هي الجنة"، فكر مضطرباً، "هو ذا النوم الثقيل الذي يسمى الحياة، أين نحلم بالجنة؛ ليس ثمة جنة أخرى؟! أستطيع الآن أن أنهض وأسافر؛ لست بحاجة لنعيم آخر..."

عملاق ذو شريط أخضر، انخرط بالضحك.

سأل السيد الهندي: ماذا يقول الهك بكل هذه الأمور ؟

فتح الشاب عينيه:

ماذا تقصد ؟ أردف

إيه حسناً، الرجال، النساء، السلطعانات، الحب.

ما هو حلمك، أخي.

قال الشيخ ذو اللحية البيضاء، الذي فرط الآن حب السبحة، يا ولد، لا تستيقظ!

فتح الباب الصغير وتقدم البدوي، بحركات بطيئة، وعينين منفتحتين. كان يتلمظ. وثب الشيخ الذي أتى دوره، كشاب في العشرين من العمر:

هيا انصرف أيها الشيخ وبسرعة، ارحمنا! صرخ الثلاثة الآخرون الذين أتوا بعده.

تقدم فك حزامه، وبحركة نزقة أغلق الباب وراءه ودخل.

تأمل الجميع البدوي بحسد، لا أحد يجرؤ على الكلام؛ شعر بأنه مبحر إلى مكان بعيد، فوق مياه عميقة؛ بالفعل لم يلتفت حتى ليراهم؛ مشى في الباحة مترنماً؛ وصل إلى باب الشارع، رفس الموقد وضاع في الحارات الملتوية.

آئنذ، لتغيير الأفكار بدأ العملاق الضخم ذو الشريطة الزرقاء ـ بشكل غير معقول ـ الحديث عن الأسود، عن البحار الدافئة والجزر البعيدة المصنوعة من المرجان...

كان الوقت ينقضي، من وقت إلى آخر كان يسمع تصادم حبات السبحة بلطف ورقة؛ وكانت العيون محدقة من جديد إلى الباب الواطئ؛ تأخر الشيخ، تأخر كثيراً حتى ظهر...

نهض السيد الشاب الهندي، سعيداً؛ التفت الجميع، مفاجئين؛ لماذا نهض؟ هل سيضمها إلى صدره؟ أسيسافر؟ كان وجهه متألقاً، وفي خديه خطوط رفيعة؛ شد تلفيعته تماماً، وضع يده على قلبه وعلى شفتيه، حيّى وعبر العتبة بهدوء.

استيقظ... قال الشاب الذي يضع حلقات ذهبية في كعبيه ؛ كان سيضحك، لكنهم أحسوا جميعاً بغتة بدخول خوف غريب، وراحوا يتحدثون بسرعة عن أسواق العبيد في الاسكندرية ودمشق، عن الخسائر والأرباح... إنما عادوا بسرعة إلى أحاديثهم الوقحة حول النساء والصبيان؛ سحبوا اللسان وتلمظوا.

إلهي! إلهي! غمغم ابن مريم، أين تركتني أسقط؟ في أي بؤرة؟ لأخذ دوري بعد من! ها أنت ترى هنا، إلهي، أتضجر مما يخجل؛ هبني القوة لأتحمل!

تضور المعجبون جوعاً، نادى أحدهم، دخلت عجوز، وزعت خبزاً على الرجال الأربعة، والسلطعانات، وكبب الحمص؛ وحملت أيضاً زقاً كبيراً من خمر البلح. قعدت بفسطانها، وضعت الغذاء في الوسط وراحت تصر بحنكيها.

رغب أحدهم بالمزاح، رشق قطعة ضخمة من السلطعان نحو الباب وصرخ:

إيه! يا أنت، أسرع، يا شيخ، أسرع! أشرق الجميع بالضحك.

إلهي! إلهي! تمتم ابن مريم، أعطني القوة كي لا أغادر، حتى يحين دوري!

التفت الشيخ ذو اللحية المعطرة وأشفق عليه.

إيه، يا شاب، ألست جائعاً، وعطشانا؟ اقترب، تناول قطعة لتزداد قوة.

أجل، لتزداد قوة يا تعيس، رد العملاق ذو الشريطة الخضراء ضاحكاً، عندما يأتي دورك، لا تخجلنا، ناظراً نحو الرجال.

احمرّ وجه ابن مريم وازداد لعابه وخفض رأسه وسكت.

ثمة أحدهم يحلم، قال الشيخ وهو يهز لحيته التي توشمت

بفتات الخبز ونثرات السلطعان، وهو يحلم بالقديس بلزبوث Bely ebuth، تذكر ماذا قلت لك، سينهض آخر مغادراً!

أخذ الرعب بخناق ابن مريم، نظر حواليه، الهندي محق، أكُلُّ هذا الباحات الرمان، المواقد، الحجلان، الرجال ليس سوى حلم؟ أيمكن أن يحلم أحدهم وهو مرمي تحت كعب الأرزة؟.

التفت، كمن يبحث عن مساعدة، رأى في الباب الخارجي رفيقه ذا رأس النسر واقفاً قرب السروة العاقر، بثوب برونزي، مدجج بالسلاح، ولأول مرة أحس، وهو ينظر إليه، بالراحة والطمأنينة.

خرج الشيخ عند الرمق الأخير، دخل الرجل ذو الشريط الأخضر تصرمت ساعات، أتى دور الشاوي ذي الأقراط الذهبية، ثم دور الشيخ ذي سبحة العنبر، وابن مريم وحده في الباحة ينتظر.

مالت الشمس نحو المغيب، توقفت الغيوم السابحة عالياً في السماء، محملة بالذهب، ضباب خفيف مذهّب سقط على الشجر، على وجوه الناس وعلى الأرض.

خرج الشيخ ذو سبحة العنبر، وقف لحظة في العتبة، جفف عينيه، أنفه وشفتيه المشبعتين لعاباً وجر نفسه مقوساً نحو الباب.

نهض ابن مريم؛ التفت إلى السروة، وتحركت رفيقته هي

الأخرى لتلحقه، سيكلمها، يرجوها؛ انتظري في الخارج، أريد أن أبقى وحيداً، لن أهرب ـ كان يعرف أن كلامه عبث فبقي صامتاً. شد حزامه على خصره، رفع العينين، رأى السماء، تردد، لكنه سمع صوتاً أجشاً غضوباً صادراً من الغرفة: "أبقي أحد ليدخل؟!" كانت مادلين تسأل. جمع كل قواه، وتقدم؛ كان الباب موارباً، دخل يرتجف.

مادلين نائمة في سريرها، عارية كما ولدتها أمها، تتصبب عرقا، شعرها الأبنوسي مرسل إلى أذنيها، ذراعاها مثنيان وراء رأسها، الوجه مستدير نحو الجدار، تتثائب. منهكة أثر عراكها مع الرجال منذ طلوع النهار، جسدها كله، شعرها وأظافرها تنضح بالعطور من مختلف البلدان، ذراعاها، رقبتها ونهداها مغطى كله بالعض.

خفض ابن مريم عينيه، بقي واقفاً في وسط الغرفة ولا يقدر أن يتقدم. مادلين ساكنة تنتظر؛ لكنها لم تسمع همهمة ذكر وراءها، أي ضجة لرجل يتعرى، أي نفحة تلهث، خافت، دارت فجأة رأسها لترى ـ وبغتة صرخت، خطفت الشرشف وطمرت نفسها به.

أنت! أنت! عقت غطت بيديها عينيها وشفتيها.

ـ مريم، قال مبحوح الصوت، كمن سحقت كل ألياف حلقه، اعذريني.

أطلقت مادلين ضحكة انفجرت.

ـ مريم كرر أعذريني.

آنئـذ انتـصبت علـى ركبتيهـا المـضغوطتين بـشدة تحـت شرشفها ورفعت قبضتها:

ــ لهـذا جئـت إلى هنـا؟! عزيزتـي؟ مـن أجـل هـذا اختلطـت بمغرمـيّ، لتخـدعني، لتـدخل بيتي؟ لتأخـذني مـن هنـا، ملفوفـة داخل شراشف دافئة، اللّه بعبع؟ وصلت متـأخراً، بـل أكثـر مـن متأخر، عزيزي؛ أنا لا أريد إلهك... سحق قلبي!

تكلمــت، جــأرت، ظهــر صــدرها الــضائع مــن تحــت الشرشف.

إلهك سحق قلبي!........ سحق قلبي...... جأرت أيضاً دمعتـان جالتا وبقيتا معلقتين بالهدب؟!.

ـ لا تجدفي، مريم؛ هذه غلطتي ترد لي، ليست غلطة اللّه!

ـ قال لها: جئت إلى هنا، لأطلب عفوك.

انفجرت مادلين:

اللّه يعيش في رأسك، أنتما الإثنان لستما سـوى واحـد، أنـا لا أميز ـ ملعونة تلك الساعة! – تلك الساعة... لتكن ملعونـة! إن صادفتك في الشارع، بدا لي أني أرى اللّه يرتمي علي.

مدت قبضتها.

ـ دع اللّه يسقط، صرخت، أخـرج مـن هنـا، كـي لا أراك أبـداً، لـست سـوى مـلاذ واحـد، مواسـاة فقـط، هـي الطـين، القـذارة! الكنـيس الوحيـد الـذي أدخلـه لأصـلي وأتطهـر، هـو

الجسد، الوحل، القذارة.

ـ مريم، اصغ لي، دعيني أتكلم؛ لا تقطعي الرجاء؛ لهذا جئت إلى هنا، يا أخية، لأسحبك من هذا الطين، أخطائي كثيرة، أجوب الصحراء لأبعدها، لأنجو منها؛ أخطائي كثيرة، لكن أبهظها، هي تعاستك، يا مريم.

أرسلت بغضب أظافرها الحادة في وجه الزائر غير المنتظر، كأنها تبغي تمزيقه.

ـ أية تعاسة؟ زأرت. حياتي هنية، هنية جداً، لست بحاجة لطهارتك لا تشفق علي! أعارك وحدي، أسقط وحدي، تماماً وحدي، ولا أدعو لمعونتي لا الناس ولا الأبالسة، ولا الآلهة، أناضل من أجل حريتي وسأتحرر!

ـ تتحررين مم، وممن؟

ـ ليس من الوحل كما تعتقد، مبروك هو الوحل! فيه كل آمالي؛ هو عندي درب الخلاص.

ـ الوحل؟

الوحل! الخجل، القذارة، هذا السرير الذي أمامك، هذا الجسد الذي تراه معضوضاً ملطخاً بكل لعاب، بكل عرق، بكل أوضار العالم! لا تحدجني هكذا، أنت بعيني خروف جائع، لا تقترب، جبان! لا أريد منك شيئاً، أنت تكرهني!! تشمئز مني، لا تمسسني، كي يتأسى إنساناً، ولأحرر نفسي أسلم نفسي لكل الرجال.

طأطأ ابن مريم رأسه:

ــ هـذه غلطـتي، ردد بـصوت مخنـوق، شـد النطـاق الـذي يستخدمه حزاماً، الـذي مـا يـزال ملطخـاً بالـدم، هـذه غلطـتي، اعذريني، يا أخية، إنما سأؤدي ديني.

ضحكة وحشية جديدة مزقت حلق المرأة:

ــ هذه غلطتي... هذه غلطتي، يا أختي... أنا سأنقذك.."

ــ أنـت تـشكو مـن هـذا شـفقة... عـوض أن ترفـع رأسـك كرجل وتعترف بالحقيقة.

أنـت تـشتهي جـسدي، لا تجـرؤ علـى التـصريح وتأخـذ مـن روحي، تريد إنقاذها، كما تقول! أي روح، طائشة؟ روح المرأة، جسدها، أنـت تعـرف هـذا... تعرفـه، لكنـك لا تجـرؤ علـى أخذ هـذه الـروح وتعانقهـا، كرجـل! لتعانقهـا ولتنقـذها! فتقـدم لـي الرحمة وتنقذني!

ــ سـبعة أبالـسة يتلبـسونك، يـا فاسـقة! زعـق آنئـذ الـشاب؛ واحمر وجهه خجلاً حتى جذور شعره؛ وقال: أبوك محق.

انتفضت مادلين، لمت شعرها، درجتـه وربطتـه بـشريط مـن حريـر أحمـر، بقيـت لحظـة قـصيرة صـامتة، أخـيراً تحركـت شفتاها:

ليـسوا سـبعة أبالـسة، يـا ابـن مـريم، ليـسوا سـبعة أبالـسة، هذه سبعة جروح! المرأة كائن جريح لا فـرح آخـر لهـا بـائس، إلا أن تلعـق جروحهـا..... غـصت عيناهـا بالـدموع، بحركـة مفاجئـة

جففتها براحة يدها، استشاطت غضباً، وقالت:

لماذا أتيت إلى هنا وبقيت واقفاً أمام سريري؟ ماذا تريد مني؟ أخرج من هنا!

خطا الشاب خطوة واحدة، دنا:

ـ مريم، أتذكرين يوم كنا صغاراً؟

ـ لا أذكر شيئاً! أي نوع من الرجال أنت؟ إلى متى تسيل لعابك، ـ ألا تخجل؟ ـ أبداً لست شجاعاً لتقف كرجل، وحيداً، لست بحاجة لأحد، تارة تتعلق بجلباب أمك وطوراً بجلبابك، وطوراً بثياب الله! لا تقدر أن تبقى وحدك لأنك خائف، لا تجسر على مواجهة روحك، ولا جسدك، لأنك تخاف! تذهب وتختفي في الصحراء، تعفر وجهك بالرمل، لأنك خائف! أنت خائف، خائف أيها المسكين البائس. تكرهني، ترحمني، ولما أفكر بك، يتفطر قلبي.

لم تعد تتحمل شيئاً، فانفجرت تنتحب، جففت دموعها بغضب، لكن تبرجها كان يختلط بدموعها ويتسخ شرشفها.

ارتعش قلب الشاب! لو لم يخش الله، لأخذها بين ذراعيه، جفف دموعها، داعب شعرها حتى تهدأ، ويذهب بها!

بالفعل، إن كان رجلاً هذا ما يجب أن يفعل لينقذها، ليس صلوات وصوم في الصومعة، ماذا يقدم لها هذا، كيف يمكن أن ينقذ امرأة؟ انتشالها من هذا السرير، السفر بها، فتح ورشة في قرية نائية، العيش زوج وامرأة، انجاب خليفة،

معاناة السعادة كباقي الناس..... هوذا درب إنقاذ المرأة، حياتها إلى جانب رجل. ليس ثمة حل آخر!

حل الليل، في الأفق، صوت رعد. عبر برق شق الباب وأضاء لحظة وجه مريم الذي كمد. من تجدد الرعب ، اقترب. كانت السماء دنت نحو الأرض قليلاً محملة بقلق وغصة.

أحس الشاب فجأة بموجة تعب مضن، ترنحت ركبتاه، قعد في الأرض، صالب ساقيه، رائحة منفرة ضربته في محياه كله، المسك، العرق، رائحة تيس ـ ضغط حلقه كي لا يتقيأ.

سمع صوت مريم في العتمة:

ـ التفت، سأنزل لأشعل الضوء وأنا عارية!!.

أريد أن أسافر، أردف الشاب بصوت خفيض. جمع قواه وانتصب لكن مريم بانت كمن لم يسمع:

ـ أنظر، إن كان أحد في الباحة قل له أن يغادر.

فتح الشاب الباب، قدم رأسه، كان الجو مظلماً، قطرات ضخمة من المطر موزعة تضرب أوراق شجرة الرمان، السماء معلقة فوق اليابسة مستعدة للهبوط!! كانت العجوز مع موقدها المشتعل انسلت إلى الباحة، والتصقت بالسروة، كانت قطرات المطر تزداد قسوة.

ـ لا أحد، قال الشاب، أغلق الباب بسرعة. كانت العاصفة قد انفجرت، وكانت مادلين خلال هذا الوقت نزلت عن السرير، ألقت على جسدها ثوباً صوفياً لتدفئ جسدها به، وقد

زين برسوم وغزلان أهداها إياه أحد المعجبين بها. عربي، في الصباح ذاته تلقى كتفاها وجذعها برعشة حلوة حرارة الثوب المنعشة. وقفت على رأس قدميها وأنزلت المصباح عن الحائط.

ـ لا أحد، كرر الشاب، وقد عَذُبَ صوته.

ـ والعجوز؟

ـ تحت السروة. انفجرت العاصفة.

سارعت مريم إلى الباحة، رأت الموقد متقداً، دنت.

سيدتي العجوز نويمي Noemi، قالت وقدمت يدها إلى مزلاج الباب، خذي كانونك وسلطعاناتك واخرجي سأزلج الباب، هذا المساء، ليس لأحد!

أحبيبك بالداخل ردت العجوز، خائفة من خسارة زبائن الليلة؟.

ـ أجل، أجابت مريم، هو في الداخل، اخرجي!

نهضت العجوز وهي تتمتم ولمت ثيابها.

تتكلم عن شاب لقطة! رثة الثياب هذه!! سخرت بصوت خفيض؛ لكن مريم طردتها، كانت مستعجلة، ترست باب الشارع. كانت السماء مسرعة، تشمل باحتها، زفرت زفرة فرح عذبة، كما يوم كانت صبية صغيرة وتغتبط برؤية المطر، لما عادت، كانت لفحتها مشبعة مطراً.

وقف الشاب محتاراً في وسط الغرفة... السفر؟ ما هي إرادة الله؟ كان الحال جيداً هنا، دافئاً، والرائحة النفاذة كان قد

اعتادها، في الخارج، المطر، الهواء والبرد. كان لا يعرف أحداً في مجدلا وكانت كفر نعوم بعيدة. السفر... البقاء؟ كانت روحه مضطربة.........

ــ يا يسوع، المطر غزير، أنت ما تزال بدون أكل طيلة اليوم، ساعدني لأشعل النار، لكي نهيء وجبة..........

كان الصوت رقيقاً، متودداً، كصوت أم.

ـ سأسافر، رد الشاب، والتفت إلى الباب.

ابقَ كلْ معي، قالت ما دلين بأمر. أهذا ينفرك؟ تخاف من أن تتلطخ إن أكلت مع مومس؟

اقترب الشاب من الموقد. أمام مسندي الحطب، قرفص في زاوية كتل الحطب والأبالة[1] وأشعل النار.

فرحت مادلين، وضعت الماء في القدر ورفعته إلى فوق مسندي الحطب، أخذت من كيس معلق بالجدار قبضتين كبيرتين من الفول وألقتها بالماء.

ركعت أمام النار الأوارة وأصغت ــ في الخارج كانت السماء قد فتحت محابسها.

ــ يا يسوع، قالت بصوت خفيض، سألتني إن كنت أتذكر يوم كنا صغاراً وكم لعبنا ومرحنا....

لكن الشاب ركع هو أيضاً أمام الموقد، راقب النار

1ـ الحطب اليابس من الأغصان الصغيرة لتسهيل إشعال النار.

وروحه ترحل بعيداً.

كما لو أنه بلغ الصومعة في الصحراء وارتدى القفطان النقي، طاف في الفضاءات المعزولة، وقلبه يشبه سمكة صغيرة ذهبية ساطعة، يسبح بماء الله الهادئ والعميق، في الخارج. كان نهاية العالم، في داخله، الهدوء، اللطف، والطمأنينة.

ـ يا يسوع، سمع من جديد الصوت إلى جانبه ـ سألتني إن كنت أذكر أيام الطفولة وكم لعبنا وسررنا.......

تألق وجه مادلين... لهب النار كالحديد الأحمر، لكن الشاب، من قلب الصحراء حيث كان، لم يسمع.

ـ يا يسوع، كررت المرأة: كنت في الثالثة وكنت أنا أكبر بسنة. كان يوجد ثلاث درجات أمام باب بيتي، كنت في مكان عال جداً وأتأملك تتعب خلال ساعات، تقع وتنهض دون أن تصل إلى الدرجة الأولى.

وأنا، لم أمد لك يدي لأساعدك، رغبت في أن تأتي لتجدني لكنك عانيت في البدء كثيراً..... أتذكر؟

كان إبليس من الأبالسة السبعة ينخسها ليجعلها تتكلم لتجرب الرجل. بعد ساعات من الجهد تمكنت من بلوغ الدرجة الأولى، وآنئذ عاركت لترتقي الدرجة الثانية.... ثم إلى الثالثة، حيث كنت جالسة، أنتظرك. وبعد......

انتفض الشاب، مد اليد:

ـ اسكتي، لا تتابعي!

لكـن النـار كانـت تلحـس أهـداب وشـفتي المـرأة وذقنهـا وجيـدها الألـق، كانـت النـار تلعـق أهـدابها، شـفتيها، أخذت قبضة من ورق الغار، رمتها في النار وهي تشمها.

ـ بعدئذ، أخذتني بيدي، أخذتني من يدي، يا يسوع، كنا ندخل ونذهب لننام على حصى الباحة، كنا نصل طرفاً إلى طرف غرسات أقدامنا العارية، كنا نحس حرارة جسدينا الممتزجتين، تصعد من الأقدام إلى الأفخاذ، ومن الأفخاذ إلى الكليتين، وكنا نغمض عيوننا.......

ـ صرخ أيضاً الشاب: صه، مد يده ليطبق لها فمها، لكنه أمسك: خاف من أن يلمس شفتيها.

خفضت المرأة صوتها، تنهدت:

لم أعرف في حياتي أبداً عذوبة أبهج، تمتمت، بعيد هذا:

ـ تلك العذوبة التي أبحث عنها من رجل إلى رجل، وتلك الرعشة، يا يسوع، لم أذقها ثانية.

طمر الشاب وجهه بين ركبتيه: "أدوني، تمتم، أدوني، هلم ساعدني!"

في الغرفة الهادئة والدافئة لا يسمع سوى طقطقة النار التي تلتهم الحطب وتصفر والطعام الذي تعده ينشر رائحة طيبة: في الخارج تهطل أمطار غزيرة من السماء وتفرقع، فتحت الأرض أحشاءها وتنادت.

ـ يسوع، بماذا تفكر؟ قالت مادلين: لم تعد تجرؤ أن تنظر

إلى وجه الرجل.

وداعــاً، أردف بــصوت محــشرج، وداعــاً، إلى اللّٰه، إلى ادوني...

لم يكد يقول أنه أسف لأن اسمه لفظ في هذا البيت.

حتى نهضت مادلين وثباً، وراحت تذهب وتجيء بين النار والباب، كان ذهنها مثاراً.

"هو ذا، قالت: هو ذا، العدو الأكبر، هو الذي يضع نفسه دوما بالعرض، إنه خبيث، حسود، لا يتركنا نحيا سعداء." ... وقفت خلف الباب، أصغت؛ السماء زمجرت، العاصفة غاضبة، الرمان في الباحة تصطدم فيما بينها قبل الانفجار.

ـ ازداد المطر.

ـ سأرحل، أردف الشاب؛ ونهض.

كل أولاً لتنتعش قواك؛ إلى أين تذهب في وضع كهذا؟ أمامك ظلمة الليل، والمطر.

انتزعت من الحائط شرشفاً دائرياً ووضعته على الأرض. رفعت القدر، فتحت خزانة صغيرة جدارية، أخذت منها مزقة من خبز الشعير وصحنين فخاريين.

ــ هــي ذي وجبــة المــومس، إن كنــت لا تنغــار منهــا، أيهــا الإنسان التقي، كلْ.

كان الشاب جائعاً، مد يده بسرعة؛ قهقهت المرأة:

ــ ستأكل هكذا، دون أن تصلي؟ لتشكر اللّٰه لعطائه

الخبز، الفول والمومسات؟

وقفت اللقمة في بلعوم الشاب.

ــ يا مريم قال: لم تكرهيني... لم تختبريني؟ انظري أقاسمك الخبز هذا المساء، قد تصالحنا؛ أن ما كان فات؛ اعذريني. فمن أجل هذا أتيت.

ـ كلْ بدل إن تتباكى؛ خذ العذر بالقوة إن لم تعطه؛ أنت رجل.

أخذت الخبز، ووزعته، وابتسمت، وقالت:

ـ مباركاً ليكن اسم ذاك الذي يعطي الخبز، الفول، والمومسات؛ والزوار الاتقياء!

ركع الواحد قبالة الآخر تحت ضوء المصباح، لم ينبثا بكلمة؛ هما جائعان، لقد جاهدا، أكلا ليستعيدا قواهما.

في الخارج بدأ المطر يهدأ؛ انجلت السماء، شبعت الارض، لا يسمع سوى السواقي الجارية بفرح في شوارع القرية، وهي تطبطب.

انتهيا من الأكل؛ لم يبق في الخزانة جرعة خمر، شربا كل شيء؛ ثمة أيضاً بعض البلح الناضج، تحليا به. بقيا فترة طيبة دون كلام، كانا يراقبان النار التي تقترب من الانطفاء؛ فكرهما يروح ويجيء، يرقص على ايقاع آخر الشرارات.

نهض الشاب، وضع حطباً جديداً في الموقد، الجو بارد؛ وأخذت مادلين قبضة من ورق الغار، رمتها في النار، بدأ العطر

يفوح في الغرفة ذهبت نحو الباب، فتحته؛ هبت الريح، تبددت الغيوم، تألق نجمان كبيران ووضحا، فوق باحة مريم.

ــ أتمطر دوماً؟ سأل الشاب؛ من جديد وقف في وسط الغرفة حائراً، لم تجب مادلين. لفت الغطاء، سحبت من صندوقها غطائين واسعين من الصوف وعدة شراشف، هدايا من عشاقها، ورتبت السرير أمام النار.

ـ ستنام هنا، قالت، الجو بارد، الريح شديدة، نحن في منتصف الليل. إلى أين تذهب؟ ستتجمد؛ ستنام هنا أمام النار.

ارتعش الشاب

هنا أردف:

أيخيفك هذا؟ لا تخافي، يا حمامتي البيضاء، أنا لا أسخر منك؛ لا أمتحنك، لن أؤذي طهارتك يا حبيبتي الحلوة.

وضعت في النار حطباً جديداً، وقصرت فتيلة المصباح.

ـ نوم العافية، قالت، غدا عندنا نحن الاثنين شغل كثير؛ أنت تعود إلى دربك تسعى إلى الخلاص، وأخذ أنا سبيلاً آخر، لأبحث أنا أيضاً عن خلاصي. لكل دربه؛ أبداً لن نلتقي... ليلة جميلة!

القت بنفسها على سريرها، طمرت وجهها بالوسادة طيلة الليل كانت تعض الشراشف لتمتنع عن الصراخ والبكاء، والخوف من أن يسمعها الرجل الراقد قرب النار، وكي لا يخاف هو ويغادر. أنصتت إليه طول الليل كان يتنفس بهدوء، وراحة، كرضيع كان يرضع بقيت يقظة تنتحب بسكون

بكاء جريح عذب، صادر من أعماقها، وكانت تهدهده كأم.

في الصباح الباكر، عبر أهدابها المواربة، رأته ينهض، حازماً خصره بنطاق جلدي ويفتح الباب. توقف. يريد أن يسافر ولا يريد. التفت، تأمل السرير، خطا خطوة متردداً، اقترب؛ انحنى، لم يدخل إلى الغرفة بعد بشكل جيد، انحنى ثانية كمن يريد أن يرى المرأة، يلمسها، امتدت يده اليسرى إلى نطاقها، وباليمنى أخذ ذقنها وفمها.

رأته المرأة النائمة الساكنة بشعرها المخبأ وصدرها العاري، رأته عبر رموشها وكل جسدها يرتعد.

تحركت شفتا الشاب:

ـ مريم....

إنما وهو يسمع صوتها، أخذه الرعب؛ وبوثبة وجد نفسه في العتبة، تخطى الباحة بسرعة بعد أن رفع مزلاج الباب...

آنئذ انتصبت مريم مادلين بغتة في سريرها، ألقت الشراشف وراحت تبكي.

(8)

وراء بحيرة طبريا، في الصحراء، كانت الصومعة محصورة في قلب الصخور الحمراء والمرمدة، التي بنيت بحجارة حمراء ومرمدة ومرمية كعش نسر. الوقت نصف الليل. تنهمر المياه من السماء غزيرة كطوفان. كانت الضباع الذئاب الثعالب، وفي مكان أبعد، أسد ولبوة تعوي مروعة بهزيم الرعد المتواصل.

تغرق الصومعة في ظلمة دامسة، ومن حين إلى آخر كانت تتلقى بعض البروق؛ ربما قيل أن إله سيناء كان بسوطها!! يسجد الكهنة، وجوههم إلى الأرض في حجراتهم يرجون أدوني أن لا يغرق الأرض مرة أخرى. ألم يعد نوح الأب.لم يبسط قوس قزح من الأرض إلى السماء، إشارة على الصلح والرضى؟

في غرفة رئيس الأساقفة الوحيدة أشعل شمعدان من سبع شموع. يواكيم، رئيس الأساقفة، كان جالساً في حجرة من خشب السرو ناعماً لاهثاً، لحيته البيضاء غائصة في النهر، الذراعان صليب، العينان مغمضتان؛ كان ينصت... كان يصغي واقفاً قبالة الشاب المبتدئ "حنا" الذي يقرأ له من الكتاب المقدس قصة النبي دانيال.

" رؤيا مبهمة نزلت علي؛ رأيت رياح السماء الاربعة ماشية على سطح البحر الكبير، وأربعة حيوانات ضخمة خارجة من البحر ولا يشبه أحد الآخر. يشبه الأول أسداً له جناحا نسر، راقبته حتى نزع منه جناحاه، ثم انتصب على قائمتيه الخلفيتين، كما الإنسان، وزرع له في صدره قلب رجل.

ثم ظهر حيوان آخر يشبه دباً، ناداه أحدهم: كل لحماً قدر ما تشتهي! تريثت ثم رأيت الحيوان الثالث، كان يشبه نمراً، له أربعة أجنحة على ظهره، كما الطير؛ كان له أربعة رؤوس، وأعطي السلطة..."

توقف المبتدئ، التفت!! قلقاً، وتامل رئيس الأساقفة، لم

يعد يسمعه يتنفس ولا أن يزرع أظافره بخشب المسلة بتمرد؛ ولم يعد يسمع زفيره. هل مات؟ عاش أياماً يرفض الأكل؛ كان متبرماً من الله ويتمنى الموت؛ يريد الموت، أعلن هذا للرهبان بوضوح، لترتاح نفسه من وزر جسده الذي يثقل عليه، وتيسّر له الصعود إلى السماء، كان يسعى إلى لقاء الله، يقول الأسقف يواكيم: عنده ما يشكوه إلى الله، يجب أن يراه، أن يكلمه، لكن الجسم ثقيل كالرصاص يمنعه من الصعود، آنئذ قرر أن يرسله يتنزه، يتركه في الأسفل بالأرض، أن يصعد، هو، يواكيم الفعلي، إلى السماء ويقدم كلماته إلى الله، كان عنده دين، ألم يكن أحد آباء إسرائيل؟ الشعب له فم، لكن ليس له صوت، لا يستطيع المثول أمام الله ليقدم له تعبه، إنما يواكيم يستطيع وهذا واجبه.

المبتدئ يتملاه، تحت القنديل رأس رئيس الأساقفة تآلف كخشب قديم أكله الدود، لفحته الشمس وأضناه الصيام، وهو يشبه جماجم الحيوانات القديمة، غسلته الامطار، تتلاقى القوافل أحياناً في الصحراء! ما هي رؤى هذا الرأس الذي فتحت السماوات له مراراً، وغور جهنم أيضاً؟! كان عقله سلماً يصعد عليه يعقوب وينزل كل شدائد وآمال إسرائيل. فتح رئيس الأساقفة عينيه، رأى المبتدئ واقفاً أمامه، على ضوء المصباح أخذ زغب خديه الأشقر انعكاساً شاحباً بكرياً، كانت عيناه تتضحان بالتشوش والقلق.

رق وجه رئيس الأساقفة الصارم، كان يحب كثيراً هذا الشاب الأصيل، انتزعه من أبويه العجوزين زيبيدي، جلبه إلى هنا وأوكله لله. كان يحب طاعة هذا المتمرد، شفتاه اللتان تنطبقان وعيناه النهمتان، أنساً ودفءً. هذا هو الذي سيتكلم يوماً مع الله، ما لا أستطيع أنا فعله يستطيعه هو والجرحان اللذان احملهما في كتفي، هما أثر جناحين، لم أصعد حياً إلى السماء، هو سيصعد.

أتى يوماً مع ذويه إلى الصومعة للاحتفال بعيد الفصح، كان رئيس الأساقفة أحد ذوي زيبيدي البعيدين، تلقاهما بغبطة، واستقبلهما على مائدته؛ بينما كانوا يأكلون، وكان يوحنا في السادسة عشر من عمره أحسَّ وهو منحن أن نظرة رئيس الأساقفة تقع على قمة رأسه، أبعدت العظام وولجت عبر مفاصل جمجمته إلى دماغه، ارتعب، رفع عينيه، تلاقت العيون فوق المائدة الرعوية.... منذ ذلك اليوم صار مركب صيده، حتى في بحيرة طبريا، صغيراً جداً بالنسبة له كان يتأوه، تنهار قواه، وفي يوم انتهى العجوز زيبيدي القول أنه كفى: "رأسك ليس رأس صيد"، قال له، أنت تفكر بالله، اذهب إذن إلى الصومعة، كان عندي ولدان، أراد الله أن يشاركني بهما، إيه حسناً، نعطيه نزواته!"

رأى رئيس الأساقفة الآن الشاب ما يزال واقفاً أمامه، ساكتاً، يريد أن يخاصمه لكنه رأى وجهه عذباً، فسأله:

ـ لماذا أوقفت ولدي؟ لقد تركت الرؤيا في قمتها، فليس لنا إذن، هنا نبي، له احترامه.

احمر وجه الشاب، طوى المخطوط الجلدي على المقرأ وعاد إلى القراءة بصوت رتيب يرتل المزامير:

" أجل، في رؤياي الليلية، رأيت الحيوان الرابع مخيفاً، قوياً وبقوة رهيبة، كانت أسنانه من حديد، كان يفترس، يمزق، يدوس بقدميه كل ما تبقى، ما كان أبداً يشبه الحيوانات الأخرى وكان ذا عشرة قرون......."

ـ قف، صرخ رئيس الأساقفة، هذا يكفي!

خاف الشاب لدى سماع هذا الصوت، بسط النص المقدس على الأرض، جمعه، وضعه على شفتيه، وذهب ليركنه في الزاوية، وعيناه محدقتان بالعجوز، صرخ هذا الأخير بعد أن غرس أظافره بالمسلة:

كل ما تنبأت به، يا دانيال، حدث، الحيوانات الأربعة داست فوقنا، مر ومزقنا الأسد ذو جناحي النسر؛ مر وافترسنا، الدب الذي يتغذى بلحم العبريين، مرّ وعضنا، في الشرق وفي الغرب، في الشمال وفي الجنوب، النمر ذو الأربعة الرؤوس، هو في المكمن فوقنا، لم يمر بعد، ولم يغادر الحيوان المرذول ذو الأسنان الحديدية، وذو العشرة قرون. كل العادات وكل الأهوال التي وعدتنا بها في نبوءاتك يا سيدي، أنت أرسلتها لنا، وحسن ما جرى؛ لكنك تنبأت بالخير، لم لم ترسله؟ لم كل

هذا البخل؟ أعطيتنا الآلام برقة، أعطنا برقة إنعامك! أين ابن الإنسان الذي وعدتنا به؟ اقرأ، يوحنا:

ترك الشاب زاويته، اقترب، والمخطوط على صدره، من المقرأ وعاد يقرأ، لكن صوته صار الآن أجش، كصوت العجوز؛ تمليت رؤاي الليلية وها هي: فوق غيوم السماء وصل إنسان يشبه ابن الإنسان، اقترب ودفعوه إلى العجوز الكبير. أعطي القوة، الملك والنصر، وخدمته كل الشعوب، كل الأمم وكل الناس من كل اللغات. قوته، قوة آبدة، لا يطالها زوال ومملكته لا تتقضقض أو تتفسخ."لم يعد رئيس الأساقفة قادراً أن يمسك نفسه، ترك مقعده، خطا خطوة، وصل المقرأ، ترنح وبدأ يقع، لكنه قدر أن يسند يده إلى المخطوط المقدس وأكد:

أين ابن الإنسان الذي وعدت به؟ أقلت نعم أم لا ليس لك أن تنكر؛ هذا مكتوب هنا! بدأ يدق بغضب وابتهاج على كتاب النبوءة: هذا مكتوب هنا! اعد القراءة يا يوحنا.

لكن لم يتح الوقت للمقرئ المبتدئ، كان رئيس الأساقفة مستعجلا، انتزع النص من يده، رفعه عالياً في الضوء وراح، دون أن ينظر، يزعق بصوت مظفر:

" أعطي القدرة، الملك والمجد، وخدمته كل الشعوب، كل الأمم وكل الناس بكل اللغات. قدرته خالدة، لا تنتهي أبداً، ومملكته لن تفسخ...."

ترك المخطوط مفتوحاً في المقرأ، وعبر النافذة راح يتأمل

الليل.

أيـن هـو إذن ابـن الإنـسان؟ تأمـل الليـل وصـرخ، لم يعـد يخـصك هـو لنـا، مـا دمـت قـد وعـدتنا بـه! أيـن هـو، لتعطيـه الطاقـة، الملـك والمجـد، لكـي يقـود شـعبك، شـعب إسـرائيل في العـالم؟ تحطـم قـذالنا مـن شـدة التطلـع إلى الـسماء وترقـب أن تنفعل. متى؟ متى؟ أجل، لم ندقق النظر بك؟ نحـن نعـرف هـذا، اللحظة بالنسبة لك قد تساوي ألف عام لدى الإنسان، نعم، إنما إن كنت عادلاً، يا إلهي، قسى الزمان بالمقياس البشري وليس بمقياسك، هذه هي العدالة! التفت إلى النافذة، لكـن ركبتيـه كانت تخوران، توقف وألقى ذراعيه إلى الأمـام، يريـد الاستناد إلى الهواء، سارع الشاب لإنقاذه، لكـن رئيس الأساقفة غضب وأشار له أن لا يمسه. جمع كل قواه، أدرك الشباك، واستند إليـه. بـسط رقبتـه، نظـر. الظلمـات، الـبروق الآن نـادرة، لكـن الأمطـار مـستمرة بـالهبوط مـع دوي الرعـد علـى الـصخور الـتي تدعم الصومعة، وأشجار التين البري، فلما ضربها البرق، بـدت تعـض نفـسها، تتبـدل، تـصير جيـشاً مـن المقعـدين رافعـة نحـو الـسماء قشورها اليابسة المجذومـة. قبض رئيس الأسـاقفة علـى روحه، على جسده، وأصغى، سمع مجدداً حيوانـات الـصحراء تعـوي في البعيـد، ليست جائعـة، بـل خائفـة، ثمـة حيـوان فوقهـا يجـؤر، يـدنو في الظلمـة، في عاصـفة مـن النـار والهواء..... وبينمـا كـان رئـيس الأسـاقفة يـصغي إلى جلبـة الـصحراء، انـتفض:

استدار، تملى؛ شخص غير مرئي دخل حجرته!

شعلات القنديل السبع تنوس وتصل حتى نقطة الانطفاء، وأوتار القيثارة التسعة التي كانت مركونة ومستريحة في الزاوية تهتز، كما لو أن يداً غير مرئية خائفة أمسكتها لتقطعها، راح رئيس الأساقفة يرتجف:

ـ يوحنا، قال بصوت خفيض وهو يتطلع حوله، يوحنا، تعال إلي.

وثب الشاب من ركنه، ودنا.

مر، يا شيخ، قال، وركع على ركبتيه ليسجد ويتهدج

ـ يوحنا، اذهب وناد الرهبان، يجب أن أكلمهم قبل أن أغادر.

ـ قبل أن ترحل، يا شيخ؟ قال الشاب وهو يرتعش، وراءه رأى الشيخ جناحين أسودين يخفقان.

ـ أنا راحل، قال رئيس الأساقفة ـ أخذ صوته فجأة رنة الآتي من الضفة الأخرى ـ أنا ذاهب! ألم ترَ الشعلات السبع تتذبذب، جاهزة لأن تنقطع عن فتيلتها؟ ألم تسمع اهتزاز أوتار القيثارة التسعة جاهزة للتقطع؟ أنا ذاهب، يوحنا، امش دع الرهبان، أريد أن أكلمهم. خفض الشاب رأسه واختفى. بقي رئيس الأساقفة واقفاً في وسط الحجرة، تحت الشمعدان ذي السبع الشموع، الآن هو وحده أمام الله، يقدر أن يكلمه بحرية دون أن يسمعه أي كائن بشري. رفع بتؤدة رأسه، يعرف أن الله

يقف أمامه.

أنا آت، قال، آت لماذا تدخل حجرتي وتسعى لإطفاء النور، تحطم القيثارة وطردي؟ أنا آت، ليس فقط بناء على إرادتك بل وإرادتي أيضاً. أنا آت لآخذ بيدي الألواح حيث كتبت تظلمات شعبي، أنا آت لأراك وأكلمك. أنا أعرف، أنك لم تسمع، تبدو كمن لا يسمع، لكني سأدق بابك حتى تفتح لي، وأن لم تفتح لي، لا أحد هنا يسمعني، سأكلمك بصراحة: إن لم تفتح لي سأحطم بابك! أنت وحش، تحب الوحوش، وهم وحدهم الذين تسميهم أبناءك، حتى كنا نسجد، كنا نبكي، كنا نقول: لتكن مشيئتك! لكنا لم نعد نقدر إن نمسك ذواتنا، يا سيدي، حتى متى سننتظر؟ أنت وحش، تحب الوحوش، سنصير وحوشاً، ولتكن إرادتنا لنا ولو لمرة واحدة!

كان رئيس الأساقفة يتكلم وينصت في المبهم ليصغي، لكن المطر كان قد توقف، والرعد يبتعد، يصم بانفجاره الآذان، في جهة من الصحراء. فوق رأس الشيخ الأبيض، الشعلات ساكنة.

سكت رئيس الأساقفة، وتريث، انتظر برهة مديدة ريثما تبدأ الشعلات بالتحرك، والقيثارة تضطرب: لا شيء. هز الشيخ رأسه: ملعوناً ليكن جسم الإنسان، تمتم، هو الذي يضع نفسه سنجق عرض ولا يترك النفس تسمع غير المرئي، أمتني سيدي، كي أستطيع أن أمثل أمامك، لأتخلص من ربقة الجسد، التي

كلمتني عنها وسمعتها!"

في أثناء هذا الوقت كان باب الحجرة قد فتح دونما صوت، وولج الرهبان بالدور، لم يستيقظوا جيداً، ، وبالثوب الأبيض كالأشباح، جلس الجميع ظهرهم إلى الجدار وانتظروا، سمعوا آخر كلمات قدس الأقداس تتجلى: " يتكلم مع الله، يقاتل الله، الآن ستنقض الصاعقة على رؤوسنا!"... قالوا فيما بينهم؛ وانتظروا مرتجفين.

كان رئيس الأساقفة يحدق عيونه في مكان آخر، لم يكن يرى أحداً، دنا المبتدئ منه، سجد، وقال بصوت خفيض حتى لا ينفره:

يا شيخ، يا شيخ، هم هنا!!.

سمع رئيس الأساقفة صوت تلميذه، التفت وراءهم. ترك صدر الحجرة، راح يمشي بهدوء، واضعاً جسده المحتضر باستقامة ما استطاع ووصل الكرسي المخصص له. صعد أول درجة ووقف. على ذراعه التميمة التي تحمل الكلمات المقدسة، تفككت، سارع المبتدئ وضغطها جيداً، لم تتسخ بملامسة الأرض. أخذ قدس الأساقفة من جانب الكرسي بتؤدة عصاه ذات الطرف العاجي؛ بدا كمن عثر على قواه، رفع بعنف رأسه وتأمل الرهبان مصطفين لزق الحائط.

ـ يا رهبان، قال، عندي ما أكلمكم إياه، لآخر مرة؛ افتحوا آذانكم، وليغادر الحجرة النعسان! ماسأ قوله صعباً،

يجب أن تتيقظ كل آمالكم وكل مخاوفكم، انصبوا آذانكم وأجيبوا.

نحن نصغي يا يوحنا القديس، قال أكبرهم سناً، الأب هاباكوك، واضعاً يده على قلبه.

اسمعوا آخر كلامي، أيها الرهبان، رؤوسكم قاسية سأتكلم بالأمثال.

نحن نصغي أيها القديس كرر الأب هاباكوك

حنى رئيس الأساقفة رأسه وراح يحكي همساً:

بداية كانت أجنحة ثم أتى الملاك! توقف، نظر عبر أجفانه، إليهم واحداً تلو الآخر، وهز رأسه:

لماذا تحد جوني هكذا باستغراب، يا رهبان؟ رفعت رأسك أيها العجوز هاباكوك، تحركت شفتاك: اعندك اعتراض؟

وضع الراهب يده على صدره وقال:

ـ قلت: " بداية كان الجناحان، ثم أتى الملاك"، لم نر هذه الكلمة أبداً في الألواح، يا قديس يوحنا

كيف وجدت هذا، عقلك للأسف غير نافذ، أيها العجوز هاباكوك! تفتح كتب الأنبياء ولا ترى عيناك سوى الحروف. ماذا تقدر الحروف أن تقول؟ أنها نقابات محامين الذين يسجنون الأشرار حيث تختنق الروح وتصرخ. فبين الحروف، بين السطور وحولها، على الورقة البيضاء تدرج الروح بحرية؛ أنا أدرج، معها، وأجلب لكم الخبر الجليل؛ أيها الرهبان، بداية وجدت

الأجنحة، ثم أتى الملاك! فتح العجوز هاباكوك فمه ثانية:

ـ روحنا مصباح منطفئ، قديس يوحنا، أشعلهُ لنا، أشعلهُ لنا، دعنا ندخل في الأمثال، افتح لنا عيوننا.

بداية كان العجوز هاباكوك شغوف بالحرية، ما كانت الحرية موجودة؛ إنما فجأة من أعمال العبودية، حرك إنسان ذراعين مقيدين بعنف وعصابية كأنهما جناحان، ثم كان آخر، وآخر أيضاً، ثم كان الشعب قاطبة. انبعثت أصوات فرحة لتسأل:

شعب إسرائيل

شعب إسرائيل، يا رهبان! وإليكم الاهم، اللحظة الرهيبة التي نتخطاها: شغف الحرية حطم القيود، راح الجناحان يصطفقان بجنون، وصل المحرر، وصل المحرر يا رهبان!! فحسب ظنكم مما فعل الملاك الحرية؟ من تفضل الله ورحمته؟ من محبته؟ من عدله؟ لا، من صبر وعناد ونضال الإنسان!

هذه مسؤولية باهظة، ثقل فادح حمله وتكلف الإنسان به قديس يوحنا.

حاول العجوز هاباكوك الرد ـ إلى هذا الحد تثق به؟

لكن رئيس الأساقفة تجاهل التعارض، لان روحه بقي مثبتاً بالمسيح... هذا أحد أبنائنا، صرخ، لهذا تدعوه الألواح: ابن الإنسان!!. لماذا، برأيكم خلال أجيال انشغل به آلاف من رجال إسرائيل ونسائها. ليشبعوا أفخاذهم، ليفرحوا بطونهم لا بل

مارس آلاف الرجال الحب لينجبوا المسيح!

دق الأسقف الأعظم الأرض بعنف بعصاه:

ـ احترسوا، يا رهبان: ربما أتى في عز الظهر، ربما أتى في منتصف الليل، كونوا جاهزين أبداً، اغتسلوا ابقوا على الريق، اسهروا؛ يا لتعاستكم إن أتى ووجدكم وسخين، نائمين وشبعانين!

انضغط الرهبان على بعضهم، لا يجرؤون أن يتملوا وجه قدس الأقداس شعروا بأن شعلة تنبعث من رأسه باتجاههم.

نزل المحتضر من كرسيه، تقدم بخطوة ثابتة، اقترب من جماعة الرهبان المرهوبين، ولمسهم بعصاه واحداً واحداً.

ـ احذروا، يا رهبان! صرخ، إن غادرنا الشغف لحظة تصير الأجنحة سلاسل مرة ثانية! اسهروا، صارعوا، حافظوا في الليل والنهار على المشاعل ـ على روحكم ـ مشتعلة! قاتلوا الهواء بأجنحتكم، اطردوه. أنا، أنا مستعجل، أنا راحل، ذاهب لأكلم الله؛ أنا مغادر، اسمعوا كلامي الأخير: عاركوا الهواء بأجنحتكم، طاردوه فجأة أتته زفرة قصيرة؛ سقطت عصا الحاخام من يديه؛ بهدوء، ورقة وقع العجوز على ركبتيه وتدحرج بدون ضجة على البلاط. أطلق المبتدئ صرخة وسارع لدعم العجوز. اضطرب الرهبان، انحنوا عليه، مددوه على البلاط، انزلوا الشمعدان ذا الشمعات السبع ووضعوه قرب الوجه الأدكن والجامد. كانت لحيته تبص، انفتحت السترة البيضاء وظهر الجلباب الخشن المزود بعلاقات الحديد الحادة

التي تضغط على صدر وكليتي العجوز المدماة.

وضع العجوز هاباكوك يده على قلب الحاخام:

ـ لقد مات، قال.

ـ لقد خلص، قال آخر.

افترق الصديقان وعاد كل منهما إلى مجاله، الجسد إلى الأرض، الروح إلى الله، تمتم ثالث.

وبينما كانوا يتحدثون ويعدون تسخين الماء لغسله، فتح الحاخام عينيه؛ تباعد الرهبان واجفين وراحوا يحدجونه. كان وجهه مضيئاً، يداه الطويلتان واللطيفتان تتحركان وعيناه مسمرتان براحة في الفراغ.

ركع العجوز هاباكوك، وضع يده ثانية على قلب الحاخام، وقال:

ـ يخفق؛ لم يمت.

التفت نحو المبتدئ الذي سقط على قدمي العجوز وراح يعانقهما.

ـ انهض، يوحنا، قال، اركب الجمل الاسرع، واركض إلى الناصرة، هات العجوز سمعان، الحاخام، هذا يشفيه، أسرع، نهض النهار!

سطعت الشمس فعلاً. وكانت الغيوم قد تشتتت، والأرض لمعت ندية رطبة شبعانة وتتطلع إلى السماء بشكران، انطلق باشقان إلى السماء وراحا يرسمان دوائر فوق الصومعة، ليدفئا

أجنحتهما.

مسح المبتدئ عينيه، انتقى من الاصطبل الجمل الأسرع الأفتى والأظرف، الذي يحمل النجمة البيضاء في جبينه، اركعه، امتطى متنه، وأطلق صرخة مناسبة: نهض الجمل، انتصب على قائمتيه وراح يركض بدعسات عريضة نحو الناصرة.

كان الصباح بهياً فوق بحيرة طبريا، مياهها تبرق في الشمس الصباحية، ملطخة ضفافها بالتراب الذي حمله المطر في الليل، في البعيد الكون أزرق أخضر، وأبعد الأبيض الحليبي. نشرت المراكب أشرعتها، لتجففها، وانتشرت أخرى استعداداً للصيد. وطيور البحر البيضاء والوردية تتهادى بتلذذ فوق المياه المرتجفة، وتثبت البجعيات السوداء نظرها الدائري على الخليج، منتظرة وثبة سمكة جذلى أتت تلعب في الرغوة على الشط، كانت كفر ناعوم تستيقظ مبللة، تخفق الديوك بأجنحتها، وكان يسمع نهيق الحمير الصغيرة والعجول تخور برقة وبين هذه الأصوات المتباينة كان يعطي كلام الناس المنسجم الجو نغمة اطمئنان ومودة.

في كوخ معزول لفيف من الصيادين، أقدامهم الضخمة تستند إلى الحصى، تسحب بهدوء، بحذر الشباك وهم يغنون. فوقهم يقف العجوز زيبيدي Zebedee، المسؤول، يثرثر مرهقاً. يبدو أنه يحبهم كأبنائه ويسمع شكواهم، بالفعل ما كان يسمح بمعاناتهم، في النهار يعملون لمصلحته فهو العجوز

الجشع لا يريد لأذرعهم أن ترتاح سوى لحظات.

أجراس ترن، قطيع من الماعز والخرفان تسير إلى المرعى، كلاب تنبح، أحدهم يصفر، الصيادون يلتفتون ليروا لكن العجوز زبيدي ينتصب، ويقول: منكداً هذا فيليب، يا أولاد، ومزماره، ونحن، منهمكون بشؤوننا!

يأخذ بذاته الحبل ليبدو مساعداً لهم.

يغادر الصيادون القرية باستمرار والشباك إلى ظهورهم؛ خلفهم النساء يحملن بتوازن على رؤوسهم مؤن النهار؛ والأولاد الملوحون بالشمس أخذوا المذازيف وراحوا يقضمون ثلاثة ثلاثة أو اثنان اثنان رغيف خبز حاف. ظهر فيليب على الصخرة وصفر؛ كان راغبا بالكلام، لكن الشيخ زيبيدي عبس، وضع يديه على مضخم الصوت ونادى:

ـ نحن مشغولون يا فيليب كن لطيفاً، اذهب من هنا. وأدار له ظهره.

هناك في الأمام جوناث يرمي شباكه، ليذهب إليه ويثرثر معه؛ إما نحن هنا، بالعمل، يا أولاد! وأخذ عقدة أخرى من الحبل وراح يشد.

رجع الصيادون يرددون أغاني عملهم الحزينة والرتيبة. كانوا يجلسون جميعاً عيونهم على العوامات الحمراء، والطوافات التي تقترب أكثر فأكثر.

إنما في لحظة ذهابهم لجذب الشبكة الغاصة بالأسماك،

إلى الشط، تسمع في البعيد حركة طويلة تصعد من كل أرجاء السهل، أصوات رقيقة كغناء حزين؛ أنصت العجوز زيبيدي؛ الصيادون ينتهزون المناسبة ويتوقفون.

ــ ماذا وراءكم يا أولاد؟ هذا نواح نساء يغنين غناء مأساوياً، أردف زيبيدي.

مات أحد الرجال العتاة ـ حفظ اللّه حياتك يا معلم، أجابه الصياد العجوز.

لكن العجوز زيبيدي وثب إلى صخرة، وعيناه الجارحتان تمشطان السهل رأى رجالاً ونساء يركضون في الحقول، يقعون، ينهضون، يندبون. بدأت القرية تعيش فوضى عارمة، نساء يعبرن، ينتفن شعورهن، خلفهن رجال يتوافدون، ينحنون نحو الارض، صامتين.

ماذا هناك، يا أولاد؟ صاح العجوز زيبيدي، إلى أين تذهبون؟ لم تنوح النسوة؟

لكن الآخرين يتابعون دربهم، يصلون على عجل إلى البيادر دون إن يجيبوه.

إلى أين تذهبون؟ من مات؟ زعق زيبيدي محركاً ذراعيه باضطراب؛ من مات؟

توقف رجل ضخم ربع القامة زافراً:

القمح! أجابه.

لا تقل حماقات... أنا العجوز زيبيدي، لا أحب النكات،

من مات؟

القمح، الشعير، الخبز! هذا ما سمع في كل مكان.

بقي العجوز زيبيدي مشدوها؛ بغتة راح يضرب فخذيه، فهم الأمر، حمل الطوفان الموسم عن البيادر... لم يبق للفقراء عيون إلا للبكاء!

كان الصراخ آنئذ يملأ السهل؛ كل القرية خرجت من البيوت، تقذف النساء نفسها إلى أرض البيادر، يتدحرجن بالوحل، سارعن لجمع ما بقي في السواقي من القمح والشعير. كانت أذرع الصيادين تعبة؛ لم تعد قواهم قادرة على رفع الشباك، تسرب الخوف إلى العجوز زيبيدي لدى رؤيتهم ينظرون هم أيضاً إلى السهل بأذرع متدلية، خائرة.

إلى العمل يا أولاد صرخ وهو ينزل عن صخرته؛ وبسرعة أخذ الحبل كمن يجر، نحن أيضاً صيادون بنعمة الله، لم نعد كادحين؛ ثمة الطوفان، الأسماك تجيد العوم لا تغرق؛ اثنان+ اثنان= أربعة!!.

ترك فيليب قطيعه، وثب من صخرة إلى أخرى؛ كان يتمنى أن يهذر، تقدم.

هذا طوفان جديد، يا أولاد! صرخ؛ هي ذي نهاية العالم! عدّوا المآسي والنكبات: أول البارحة، صلب أملنا الكبير، زيلوت zilote؛ البارحة فتح الله لمحابس السماء، تماماً والمواسم على البيادر، لم يعد عندنا خبز؛ لم يمر وقت طويل على إعطاء

غنمتي حملاً برأسين... إنها نهاية العالم، أقول لكم؛ اتركوا عملكم، حباً بالله، الذي كنا نحبه قليلاً!

خرج العجوز زيبيدي عن طوره، صعد الدم إلى رأسه:

هلا تركتنا وشأننا، في بلوانا، يا فيليب الذي صرخ، ألا ترى؟ ثمة عمل. نحن أيضاً، صيادون وأنت راع، دع الكادحين ـ الفلاحين يبكون. إلى العمل، يا أولاد.

ألا ترى، شيخ زيبيدي، الفلاحين الذين سينفقون جوعاً؟ أجاب الراعي. بشرٌ هم أيضاً، لا؟ إنهم إخوتنا، لا نشكل جميعا سوى شجرة واحدة، صدقني، هم الجذور؛ إن هي جفت، نجف جميعاً... ويحك، إليك هذا أيضاً، شيخ زيبيدي: إن أتى المسيح وكنا قد متنا جميعاً قبل مجيئه، من يجد ليفدي، قل لي؟

لهث العجوز زيبيدي غاضباً؛ لو فرك له أحد أنفه لا نفجر.

اذهب إذن، إن كنت تؤمن بالله، اذهب إذن إلى مرعاك، لقد سمعت حديثاً كثيراً حول مجيء المسيح؛ أتى مسيح، صلبوه، ويأتي آخر، ويصلبونه؛ ألا تعلم ما دفع أندريه لأن يجعل أباه جوناس يقول: حيثما ذهبت، كما يبدو توقفت، ثمة صليب، وأعماق حفر الأرض غاصة بأكثر من مسيح... إيه يكفي هذا؛ يمر من هنا أكثر من مسيح، يضايقوننا. اذهب وهات لي بقطعة جبن لأعطيك سمكة؛ عطاء عطاء ـ هذا هو المسيح!

راح يضحك واستدار نحو جماعته:

لنسرع أيها الجبابرة، نؤرث النار لنطبخ السمك، لنأكل؛

الشمس في رأد السماء.

إنما بينما كان فيليب يتأهب للانطلاق إلى قطيعه، أمسك: على السبيل الضيق الذي يحيط بالبحيرة ظهر حمار صغير يحمل حملاً باهظاً وخلفه عملاق؛ حافي القدمين، عاري الصدر، أحمر الشعر، بيده قضيب بفروع وينخس الحمار؛ كان مستعجلاً.

انتبه، أنا واثق أنه يهوذا الأسخريوطي، الأصهب البائس! قال توقف. بدأ تجواله مجدداً في القرى ليصنع معازق ويحدي البغال. هيا نسمع ما يهرف هذا أيضاً.

ليكن ملعوناً! تمتم زيبيدي العجوز. لا ينسب شعره لي، لحيته هذه تبدو كلحية جده قايين.

ولد في صحراء إيدوميه، المسكين، حيث ما تزال الأسود تتجول ربما لم يشأ هذا، قال فيليب. ووضع إصبعين في فمه ليدعو سائق الحمير

يهوذا، صاح، أهلاً بك؛ تعال من هنا، لنراك!

بصق الأصهب وشتم؛ هو لا يحب فيليب أبداً، حارس الخراف، ولا زيبيدي الخامل والمستغل؛ لكنه كان حداداً معوزاً، اقترب.

ماذا تحمل لنا من القرى التي تتجول فيها وماذا يحدث في السهل؟

مسك الأصهب حماره من ذيله وأوقفه.

كل أمر إلى أحسن، إلى المعجز، الرحمة تطفح من السيد، هو يحب شعبه، ليكن ممجداً! أجاب مع ضحكة جافة. في الناصرة يصلب الأنبياء وإلى السهل يرسل الطوفان ويحرم شعبه الخبز. ألا تسمع الشكوى التي تثور، النساء يبكين الخبز كما الولدان.

ما يفعله اللّه هو الخير، رد زيبيدي العجوز خائفاً من أن يرى عمل يومه تالفاً من قبل هذه الثرثرات؛ ما يفعل اللّه، محل ثقتي. اللّه يحميني عندما يغرق كل الناس وأنا وحدي أنجو!! اللّه يحميني أيضاً عندما ينجو الكل وأنا وحدي أغرق. أنا أثق، أقول لك؛ اثنان واثنان يساوي أربعة.

نسي الأصهب لدى سماع هذه الكلمات أنه كان يعمل في النهار، وأنه يأكل يوماً بيوم، وأنه بحاجة لهم جميعاً؛ كان يزبد غلاً، فلم يلك كلامه.

ـ أأنت واثق، زيبيدي العجوز، لأن كلي القدرة يرتب لك أعمالك الصغيرة. أنت تفهم، سيادتك تملك خمسة قوارب، وعندك خمسون صياداً عبيداً، تغذيهم جيداً لكي لا ينفقوا جوعاً، ليقووا ليعملوا لمصلحتك وتسيدك. وليس لملء صناديقهم، بطونهم وأقبيتهم. الآن رفعت الأذرع إلى السماء قائلة: "اللّه عادل، أنا واثق. العالم يعمل جيداً، يحذر كثيرا من التبدل!" إنما يطلب من زيلوث، أن يشنق قبل البارحة، لماذا يصارع لإنقاذنا سأل الفلاحون لمن أخذ اللّه خلال ليلة واحدة

كل قمح الموسم وانكب الناس في الوحل، ليجمعوه حبة حبة وهم ينوحون، أسأل نفسي من يجوب القرى، الذي يرى ويسمع معاناة هذا الشعب! حتى متى؟ حتى متى؟ ألم تسأل طول حياتك هذا السؤال، زيبيدي العجوز ؟

أنا أقول لك، إني لا أثق بالشعر الأمغر أو الأصهب؛ أنت من سلالة قايين الذي قتل أخاه إذن، أخرج من هنا لستُ راغباً في التحدث إليك! أجابه زيبيدي العجوز وأدار له ظهره.

أنزل الأصهب ضربة من قضيبه على ظهر حماره الذي تحرض وانطلق خبباً.

اهدأ، تمتم، اهدأ، أيها العجوز المستفيد، المسيح آت ليشرع النظام.

دار حول الصخور؛ استدار:

لنتحدث ثانية، يا زيبيدي العجوز، صرخ. المسيح آت يوماً، أليس كذلك؟ سيأتي. وآنئذ يعيد الماكرين إلى مكانهم. أنا أيضاً أثق بقرب يوم المحاكمة يا معلم!

ليأخذك الشيطان، يا أصهب! أجابه زيبيدي. أخيراً سيظهر جيب الشبكة، كانت مليئة بالمرجان المذهب وpageaux

كان فيليب متردداً، كان كلام يهوذا صحيحاً جسوراً، كثيراً ما يرغب في رشقه بالوجه وتمريغ أنف هذا العجوز النهم بالوحل، لكنه كان يفتقر للشجاعة؛ كان لهذا الكافر كليتان صلبتان، كان قادراً في اليابسة وفي البحر، كل

البراري التي يرعى فيها فيليب خرفانه وعنزة تابعة له، كيف يمكن الخلاف معه؟ هذا يتطلب الجنون أو البطولة، وليس فيليب واحداً من الاثنين، كان ثرثاراً، قوي البوز وحذراً.

كان إذن ساكتاً بينما يتخاصم الآخران ويظل أيضاً خجولاً وحائراً. لقد رفع الصيادون الشباك، يدنو منهم ليساعدهم في تعبئة السلال، وكان العجوز زيبيدي يدخل الماء حتى خصره؛ كان يهيمن على الأسماك وعلى الناس.

إنما عندما لا يوجد أحد أمام السلال المجممة، يرن فجأة صوت الأصهب الضخم الأجش من الصخرة المقابلة:

إيه، عجوز زيبيدي...

لكن الآخر لا يعير أذنه؛ يزأر الصوت ثانية:

إيه، عجوز زيبيدي، نصيحة : تعال خذ ابنك جاك Jacques !

جاك! صرخ العجوز، مبلبلاً؛ كان هذا قد حدث مع ابنه الأصغر، يوحنا، لقد فقده، ولا يريد أن يفقد الآخر وليس له ابن غيره، وهو بحاجة له لعمله. —جاك! أردف، قلقاً، ماذا تعرف عن جاك، لعن الله الأصهب؟

رأيته على الطريق يستعد لإيجاد معلولية ويتأمر على صالب الناس!

ـ من هو صالب الناس، ملعون هو؟ تكلم بوضوح.

ـ ابن النجار، ذاك الذي يصنع الصلبان في الناصرة ويصلب

الأنبياء... تم الأمر، عزيزي زيبيده، لقد خسرت الآخر أيضاً؛ كان عندك ولدان، الواحد أخذه الله، والشيطان أخذ الآخر!

ظل العجوز زيبيدي مندهشاً؛ قفزت سمكة خارج الماء، حامت فوق رأسه، وعادت إلى البحيرة واختفت.

فأل سيئ! فأل سيئ . تمتم العجوز، يملأه الخوف؛ هل ولدي أيضاً سيختفي كهذه السمكة ويضيع في أعماق المياه؟

التفت نحو فيليب.

هل رأيت السمكة الطيارة؟ سأل. لا يحدث شيء دون أمارة منه. ما معنى هذه الأمارة حسب رأيك؟ أنتم الرعاة...

إن كان هذا يعني القطعان لأجبتك، زيبيدي العجوز، أما الأسماك ليست في دائرة اختصاصي، أجاب فيليب بضراوة كان غاضباً لأنه لم يجرؤ على الكلام هو الآخر عن رجل مثل يسوع – دعني أجمع دوابي، زلق عصاه إلى وراء كتفيه، وثب من صخرة إلى أخرى وركض ليلحق يهوذا.

انتظر،يا أخ، صرخ، أريد أن أكلمك

انصرف، جبان، أجابه الأصهب دون أن يلتفت، اذهب إلى خرافك ولا تندس بين الرجال.، ولا تناديني أخي، فلست أخاك!

انتظر، أقول لك؛ لا تزعل.

توقف يهوذا آنئذ ونظر إليه باحتقار:

لم لم تفتح فمك للكلام؟ لم تخافه؟ ستبقى خائفاً؟ لم تحسب بعد حساب ما يجري، ولم تر ما يحدث، إلى أين

سـنذهب؟ الوقـت قريـب، أيهـا التعـيس، يـصل ملـك إسـرائيل بمجده، يا أتعس الجبناء!

يهوذا، قال فيليب بنبرة رجاء، وبّخني أيضاً، ارفع عصاك اضربني، لتعود لي أنانيتي، لقد شبعت خوفاً.

دنا يهوذا بهدوء، مسكه من ذراعه :

أتتكلم مـن أعمـاق قلبـك، فيليـب، أم تقـول كلامـاً علـى عواهنه؟

اكتفيت قولك، اليوم عذّب قلبي؛ امش إلى الأمـام، دلـني إلى الطريق، يهوذا أنا مستعد.

تطلع الأصهب حوله، خفض صوته:

ـ فيليب، أنت قادر على القتل؟

ـ قتل إنسان؟

إنسان حتماً؛ وليس خرافاً؟

لم أقتل أحداً حتى الآن، لكني بالتأكيد يجب أن أكون اهلاً لهذا؛ ففي آخر قمر صدمت ثوراً وقتلته وحدي.

قتل الإنسان أسهل. تعال معنا.

اختلج قلب فيليب. كان يدرك الأمر

أنت أيضاً من هؤلاء الناس..... من أرومة زيلوت؟ وبدا الذعر على محياه.

لقـد سمـع كلامـاً كـثيراً عـن هـذه الأخويـة الرهيبـة، الـ "قديسون القتلة"، كمـا كـانوا يـدعون يبـذرون الرعـب مـن جبـل

حرمـون حتـى صـحـراء ايدوميـه. ينظمـون كـثيراً مـن الحـواجز الحديديـة، والحبـال، والـسيوف، يعلنـون: لا تـدفعوا ضـرائب للكفـار، لـيس لنـا سـوى إلـه واحـد، ادونـي، أقتلـوا كـل عـبري يدوس بالأقدام الشريعة المقدسـة، مـن يـسخر، يتكلم ويعمل مـع أعـداء إلهنـا (الرومـان). اضـربوا، اقتلـوا، افتحـوا الطـرق أمـام المسيح! طهروا العالم، هيئوا الطرق، هـو قـادم! سيدخلون في رأد الـضحى القـرى والمـدن. يـصدرون القـرارات، يقتلـون الخـائن الـصدوقي، الرومـان الـدمويين. المـلاك، الخوارنـة، كـبير اللاهوتيين، سيرتجفون أمامهم ويُلعنون!! هـؤلاء هـم الـذين أعلنـوا التمرد، وفي كل فترة تتجدد المجزرة ويسيل دم العبريين كالنهر.

أنت أيضاً من هذا الرعيل.... من أرومة زيلوت؟ سـأل فيليب أيـضاً بـصوت خفـيض، أيخيفـك هـذا، يـا جبـار؟ رد الأصـهب بضحكة مهينة. نحن لسنا قتلـة، عش بـدون خـوف: نناضـل مـن أجـل الحريـة، ليخـرج ربنـا مـن العبوديـة، وتنطلـق روحنـا مـن الاستبعاد، يا فيليب. انهض، ازفت الساعة إن كنـت رجـلاً أنـت أيضاً. تعال معنا.

لكن فيليب أبقى رأسـه مطأطئاً نـدم لأنـه سمح لنفسه أن يتكلم بهذا النـوع مـن الأمـور مـع يهوذا. نعـم لـدعوات الأقـدام، الجلـوس مـع صـديق، تـداول شـؤون الأكـل والـشرب، نعـم للانطـلاق إلى منـاظرات طويلـة، أن تقـول افعـل هـذا ودلّهـم إلى هذا، إنما حذار، لا يجوز التطرف: هذا شر!!

آنئذ انحنى يهوذا عليه وكلمهُ؛ كأنه حوّل صوته وراحت يده تربت بود على كتفه!

ما هي حياة الإنسان، فيليب؟ ما قيمتها؟ هي لا تساوي شيئاً، إن لم تكن حرة. نحن من أجل الحرية نجاهد، تعال معنا.

بقي فيليب صامتاً، لو تمكن فقط من المغادرة، لكن يهوذا مسكه من كتفه:

ـ تعال معنا، أنت رجل، قرر، أعندك سكين؟

ـ نعم.

احتفظ بها دائماً في زنارك، قد تحتاجها في كل لحظة، نحن نعيش أياماً صعبة، يا أخ؛ اتسمع الخطى الخفيفة التي تدنو؟ هذا هو المسيح. لا يجوز أن يجد السبيل مسدوداً؛ السكين أجدى من الخبز، انتبه، انظر إلي! فتح ثوبه. على جلده، قرب صدره الأسود، برق النصل العاري لخنجر صغير لبدوي، ذي حدين.

هذه خطيئة هذا المذهل جاك، ابن زيبيدي، اغرسه اليوم في صدر أحد الخونة، البارحة قبل أن أغادر الناصرة، إدانته الأخوية بالإعدام...... وقد شاء القدر أن أكون المنقذ.

ـ من تقصد، رد فيليب الذي شحب محياه؟

بل هذا يخصني أنا، أردف ذو الشعر الأحمر: لا تتدخل بشؤوننا.

ألا تثق بي؟

جال الأصهب بنظره حوله، انحنى، وأخذ فيليب من كتفه

اصغ جيداً إلى ما أقول، فيليب، ولا تتبس ببنت شفة، وإلا خسرت نفسك. الآن، أنا ذاهب إلى الصومعة، في الصحراء، دعاني الرهبان لأصلح لهم أدواتهم، خلال أيام، ثلاثة أو أربعة، أرجع إليك، قلب جيداً في رأسك الكلام الذي تداولناه، دونما ثرثرة، لا تكشف السر لابن امرأة، قرر لنفسك دون تدخل أحد. وان كنت رجلاً، إن اتخذت القرار الواجب، أقول لك من سنضرب.

ـ لا تستعجل، أنت لم تنضم إلينا حتى الآن.

مد قائمته الضخمة وقال:

ـ وداعاً، فيليب، حتى الآن نحن في بدء الطريق، لا يعرف العالم إن كنت ستعيش أم لا، هكذا كنت أنا أيضاً، لا أحد البتة، حتى يوم انضمامي إلى الأخوية. منذ ذلك اليوم، صرت رجلاً آخر، صرت رجلاً. لم أعد يهوذا الأصهب، الحداد، الذي يعمل كدابة وليس يهمه سوى فكرة واحدة: كيف تغذى هذه الحوافر الضخمة، هذا البطن وهذا البوز القذر. اعمل لقضية كبرى، أتسمع؟ لقضية عظمى. وذلك الذي يعمل، حتى أبأسهم، لقضية هامة يصير هو نفسه هاماً وعظيماً أتفهم؟ لن أقول لك أكثر من هذا وداعاً.

ونخس حماره المسكين الذي راح ينهب درب الصحراء

بقي فيليب وحده، سند ذقنه على عصا الراعي التي بيده

تأمل يهوذا حتى توارى خلف الصخور.

" إيه حسناً ما يقوله صحيح هذا الأصهب، قال لنفسه: صحيح وطاهر، إنها كلمات حاسمة، أكيدة، إنما ماذا يعني هذا؟ ما دمنا ضمن الكلام. الأمر جيد؛ أما إذا بدأ الفعل؟ احترس يا فيليب المسكين، فكر أكثر بخرافك الصغار؛ الأمر يتطلب الروية؛ دع هذا، سنرى المناسبة آتية.

زلق عصاه خلف كتفيه، سمع رنين أجراس خرافه راح يركض، وهو ينفخ. في بحر هذا الوقت أشعل رجال زيبيدي النار وبدأوا يعدون حساء السمك، رموا فيه السمك الأفينوس وحجراً بشعر الطحلب الأخضر ليأخذ الطعام مذاق البحر. تكوكب الصيادون حول النار، اتسعت العيون من الجوع الشديد، تسامروا بصوت خفيض، دنا الصياد العتيق وهمس بأذن جاره:

أنا لم أمضغ كلام الحداد، صبراً، سيأتي اليوم الذي يصير بعده الفقراء في القمة ويهبط الأغنياء إلى أسفل السلم، هذه هي العدالة.

ـ تعتقد أن هذا سيحدث، يا رفيق؟ وأن الجوع سيبتر من جذوره، أتصدق أن يحدث هذا في عالمنا هذا؟

ــ الله موجود، أجاب العجوز؛ موجود وهو عادل، هل يمكن أن يكون الله غير عادل؟ إنه العدل. إيه ولدي صبراً.

ـ إيه! بم تتهامسون أنتم هناك؟ أردف الشيخ زيبيدي الذي

سمع شيئاً ما واغتاظ من غير داع؛ فكروا بعملكم. دعوا الله في سكينته، يعرف ما يفعل وعنده عدة أساليب!!.

صمت الجميع على الفور، نهض العجوز، أخذ الملعقة الخشبية ووزع الوجبة.

(9)

بينما كان رجال زيبيدي يسحبون الشباك، كان الصباح، البكر كما لو خرج لتوه من يدي الله ينعكس في البحيرة، كان ابن مريم يمشي مع جاك، الابن البكر لزيبيدي؛ كانا تركا وراءهما مجدلا وكانا يتوقفان أحياناً للتسرية عن النساء النائحات على القمح، ثم يتابعان دربهما مثرثرين.

كان جاك هو الآخر قضى ليلته في مجدلا، وتعذب مع الناس ونام عند أحد أصدقائه، قبل الفجر نهض وعاد إلى الدرب.

مشى في السحر الأزرق، تعثر بالأوحال وأسرع ليبلغ بحيرة طبريا. كانت المرارة التي ولدت مع كل ما رآه في الناصرة بدأت تتحسر، تعذب في أعماقه وكان زيلوت المصلوب صار عنده ذكرى بعيدة، كانت قوارب الصيد الناس والهموم اليومية تخيم على روحه. تخطى الأخاديد التي حفرها المطر، السماء صافية تبسم فوقه، الأشجار تتتالى بين البكاء والضحك، استيقظت الطيور، الكل فرح يزقزق؛ لكن عند بزوغ النهار رأى جاك البيادر التي دمرها الطوفان، وموسم القمح والشعير منتشر في

الـدروب مـع المياه، كـان طليعـة الرجـال مـع نـسـائهم سـارعوا إلى الحقـول وبـدأوا الحـداد والعويـل...... فجـأة، رأى علـى أحـد البيـادر الخربة، ابن مريم، مع عجوزين عجفاوين.

صــر القـضيب في قبـضته وشـتم؛ الـصليب، المـصلوب، الناصـرة تتبعـث مجـدداً في روحـه. والان هـوذا صـالب النـاس يبكـي القمـح مـع النـسـاء! كانـت سـريرة جـاك قاسـية عـسيرة، ورث كل عقابيل أبيه، كان ثرثاراً، شرهاً، بلا رحمة لا يشبه أمه سالومي، المرأة الطاهرة، ولا أخاه يوحنا، المضمخ باللباقة؛ صر على القضيب وانحرف مرعوباً نحو البيدر.

في هـذه اللحظـة نهـض ابـن مـريم ليتـابع الـدرب؛ الـدموع تنساب على خديه، أخذ العجوزان يديه، تحضنهما ولا تتركانه يـسافر. مـن يجـد، لهـذا العـابر المجهـول، الكلمـات الواجبـة لمواساته؟

لا تبكيا، يا نساء، لا بتكيا، قال لهما، سأعود..... وحرر بكل مودة يديه من أيدي العجوزين الجعدة.

شـعر جـاك بـأن انطلاقتـه تحطمـت، وقـف مـذهولاً؛ عينـا صالب الناس تبرقـان وهمـا غاصتان بالـدمع وتتـأملان أحيانـاً في الأعـالي الـسماء الورديـة والفرحـة، وطـوراً عنـد قدميـه الأرض والناس المنحنون يدوسون الأوحال ويندبون.

" أهذا صالب الناس، وجهه منير كوجه النبي الياس! تمتم جاك، وابتعد مبلبلاً تخطى ابن مـريم حافة البيـدر، رأى جـاك

وعرفه، وضع يده على قلبه وحياه

إلى أين تذهب يابن مريم؟ قال ابن زيبيدي مطلفاً صوته. ودون أن ينتظر جواباً: نمشي سوية، الطريق طويل، يتطلب رفقة.

" السبيل طويل ولا يحتاج رفيقاً" قال ابن مريم ، لكنه لم يعبر عن فكرته.

هيا، قال. أخذ الإثنان الدرب المبلط الذي يؤدي إلى كفر ناعوم. لم يتبادلا الكلام خلال برهة غير قصيرة من كل مكان كان يصعد تبرم النساء؛ ويرى العجزة مستندين إلى عصيهم، القمح ينساب مع الماء، الرجال بوجه أكمد يهدأون في وسط حقولهم المحصودة والمدمرة، البعض صامت، والبعض الآخر يشتم، وابن مريم يتنهد.

آه! تمتم، لو مات إنسان جوعاً كي لا يموت كل الشعب جوعا! حدجه جاك بنظره ساخراً

لو تقدر أن تصير قمحاً ليأكلك الناس، كي لا يموتون، تفعل هذا؟

من لا يفعل هذا؟ قال ابن مريم.

طرفت عينا جاك البازيتان، وتحركت شفتاه الضخمتان:

أنا، أجاب.

سكت ابن مريم والآخر انزعج.

لمَ علي أن أموت؟ زعق. هو الله الذي أرسل الطوفان، ما

خطأي أنا؟ وألقى نظرة وحشية إلى السماء:

لماذا فعل الله هذا؟ فيم أخطأ الناس؟ أنا لا أفهم. أنت تفهم، يا ابن مريم؟

لا تطرح أسئلة، يا أخ، هذا خطأ. أنا أيضاً حتى البارحة كنت أطرح أسئلة؛ الآن فهمت. هي الأفعى التي فتنت أوائل الخلق والتي تصرفت بما جعل الله يطردنا من الجنة.

ـ ماذا إذن؟

طرح أسئلة

أنا لا أفهم، قال ابن زيبيدي، وحث الخطى.

رفقة من يصلب الناس لم تعد ترضيه، كلامه يكويه وسكوته لا يحتمل. كانا وصلا إلى رابية، شاهداً مياه طبريا تلمع من بعيد، بلغت القوارب سطح المياه وبدأ الصيد، صعدت الشمس حمراء فوق الصحراء، على الشاطئ ضيعة غنية تنشر الصفاء في الضوء.

رأى جاك قواربه ولم يفكر إلا بالسمك، التفت نحو رفيقه متبرماً:

إلى أين تذهب، يا ابن مريم؟! هذه هي كفرناحوم.

طأطأ الآخر رأسه دونما جواب؛ خجل أن يقول إنه ذاهب إلى الصومعة ليتطهر.

رفع جاك رأسه بغتة؛ فقد اخترقته فجأة فكرة شريرة

ألا تريد أن تقول ؟ زعق. أهذا سر؟

مسكه من ذقنه، ورفع له رأسه:

أنظر إلي مباشرة؛ تكلم، من أرسلك؟

تنهد ابن مريم، وتمتم:

لا أعرف، ربما كان اللّه، ربما أيضاً......

صمت، عقد الخوف لسانه، وأن كان إبليس هو من أرسله فعلاً؟ انفجر جاك بضحكة صفراء، مليئة بالازدراء؛ مسكه بعنف من ذراعه وهزه:

ـ قائد المئة؟ صديقك؟ هو من أرسلك؟ أجل، كان هو بالتأكيد من أرسله يتجسس؛ كان أكثر من زيلوت واحد ظهروا مجدداً في الجبال وفي الصحراء؛ نزلوا إلى القرى، يكلمون الشعب سراً بالانتقام والحرية. ونشر قائد المئة الدموي في كل القرى عبريين عملاء كانوا يهمسون هذا، هو صالب الناس، إنه بالتأكيد أحدهم.

طرف برموشه، خفض صوته بصدمة، بشراسة:

اصغ لما أقوله لك، يا ابن النجار: إن دروبنا تفترق هنا. أنت لا تعرف، إلى أين تذهب، أنا أعرف، انصرف، سنبحث الأمر ثانية، حيثما ذهبت، سأتبعك، أيها التعيس، واحترس؛ هذا كل ما عندي لك، إنما تذكر: من السبيل الذي سلكته لن تخرج حياً!

ودون أن يمد له يده يودعه انطلق في دربه بكل سرعة.

فك الصيادون القدر النحاسي، جلسوا دائرة، زيبيدي أول

مـن مـد ملعقـة الخـشب، انتقـى أكـبر مرجانـة[1] وبـدأ الاكـل. اعمرهم مسك له يده ليوقفه قائلاً:

ـ معلم، نسينا إن نتلو الصلاة.

رفـع العجـوز زبيـدي الملعقـة الخـشبية والفـم مـلآن وراح يشكـر إله إسرائيل الذي يعطي السمك، القمح، الخمر والزيت لتغذية الأجيال العبرية ليبقوا أصحاء حتى يأتي يوم الله، ويشتت شمل الأعداء، وتخضع كل الأمم وتسجد للادوني وتعبده، لذا يا إلهي نحن نأتي، ولذا نتزوج وننجب أبنـاء، ونعيش ـ مـن أجل أن نحبك!

وفوق هذا ابتلع السمكة اللذيذة.

وبينما كان المعلم ورجاله يتمتعون بثمرة عملهم ويأكلون، كانت عيون أمهم المرضع تحدق إلى الماء، ظهر جاك، يغطيه الوحل، على آخر نفس. التم الصيادون على بعضهم ليوفروا له مكاناً، وناداه العجوز زيبيدي بمزاج طيب

ــ أهـلاً بـالابن البكـر، حظـك طيـب، اجلـس وكـل. مـا وراؤك؟

لم يجب الابن؛ ركع إلى جانب أبيه إنما لم يمد يده باتجاه القدر المدخن الذي ينشر رائحة طيبة.

التفت العجوز زيبيدي وبخجل تأمله، هـو يعـرف جيـداً هـذا

---

1 ـ سمكة.

الابن الجفول والسكوت، ويخافه

ـ ألست جائعاً؟ قال له وراء من أنت هذه المرة؟

وراء الله، وراء إبليس، وراء الناس، أجاب الآخر، خائفاً، لا لست جائعاً.

" أخ، قال العجوز زيبيدي، جاء أيضاً يعكر علينا وجبتنا " لكنه حاول أن يدير الحديث، وربت على ركبة ابنه.

إيه أيها الماكر، قال وطرف بعينه، مع من كنت تتحادث في الطريق؟

ارتعش جاك

أتتجسس علي بواسطة السوق من أنبأك؟ أنت لا تكلم أحداً! نهض، دخل الماء حتى الركبتين واغتسل. انضم إلى الربع، تأملهم وهم يأكلون ويضحكون بغبطة ولم يتمالك نفسه:

تأكلون وتشربون وعبر هذا الوقت يصلب الآخرون من أجلكم في الناصرة! لم يعد يقوى على احتمالهم؛ فأخذ طريق الضيعة وهو يدمدم.

رآه زيبيدي العجوز يبتعد، فهز رأسه الضخم، وقال:

ـ لقد مثلني أولادي. نما الأول لطيفاً جداً، تقياً جداً، الآخر هاوي منازعة حيث ما ذهب يخاصم؛ لا أحداً منهما رجل كامل – شيء من اللطف، شيء من العناد، مرة جيد، طوراً كلب كلبان، شبه ملاك، شبه إبليس، الإنسان، ما هو!

تنهد، أخذ سمكة ليعالج أساه.

لحسن حظي ثمة سمك، البحيرة تنمي السمك ويخلق الله البحيرة.

ماذا يجب أن يقول، آنئذ، العجوز جوناث، يا معلم قال أكبر الزمرة عمراً؟ جلس، التعيس، كل مساء على صخرة، يتطلع إلى القدس ويبكي ابنه اندريه، هذا أيضاً صاحب رؤيا، جد، كلما يبدو، نبي يسافر معه، يأكل العسل والجراد، ويقبض على الناس ويغسلهم في نهر الأردن، كما يقول، من أخطائهم.

أنجب أولاداً، كما يقال، تنل منهم خيراً! يقول زيبيدي، هات لي رؤوساً، أبناء، وخمراً أيضاً، أنا تكونت من دم فاسد!

سمع وقع خطى بطيئة وثقيلة على الجص، يقال ان حيواناً غضوباً يدنو بحركات بطيئة. التفت زيبيدي، ونهض ليستقبل الضيف.

- وطئت سهلاً يا جوناث، الرجل العادل! صاح وهو يمسح الخمرة عن لحيته. تعال اشرح لنا أنت أيضاً عن السمك المرجان، وأنبئنا عن قديسك أندريه الابن!

تقدم صياد عجوز. ربع القامة، حافي القدمين، شوته الشمس، وبرأس ضخم مغطى بوبر أبيض وجعد. صار جلده ذا قشور كجلد السمك، وكانت عيناه مضطربتين وكابيتين. انحنى وحدق بهم واحداً واحداً. كان يبحث عن أحدهم.

عمن تبحث، عجوز جوناث؟ قال زيبيدي. أيزعجك

الحكي؟

كان ينظر إلى قدميه، إلى لحيته، إلى شعره الأشبه بحسكات السمك والطحلب المعقدة؛ كانت شفتاه الضخمتان المشققتان تتحركان كشفاه السمكة من دون أن تحكيا. حاول زيبيدي العجوز الضحك لكن الخوف مسكه. فجأة، اجتاز فكره شك مريب: مد يديه كمن أراد أن يبعد جوناث العجوز من الاقتراب.

ـ أخ، هل أنت النبي جوناث؟ صرخ. نهض بوثبة، عشت بيننا طويلاً وأخفيت الأمر؟ سأشكوك إلى ربي، ادوني، تكلم! في يوم سمعت رئيس أساقفة الصومعة يتكلم عن الرجل الأصهب الذي ابتلع النبي يونان: وفيما بعد تقيأه وكان الآخر خرج من بطن سمكة، رجلاً كما كان. نعم، بأيماني، قدمه لنا رئيس الأساقفة مثلك؛ كان له، كما يبدو، طحالب معقدة في شعره وصدره وكانت لحيته غاصة بـ crabillans حديث الولادة. أرى أن هذا لا يقال لإهانتك، فأنت أيضاً في رأسك عقابيل.

ضحك الصيادون ضحكا مدوياً، كانت عينا زيبيدي العجوز تتأملان بخوف صديقه العجوز.

ـ تكلم، يا رجل الله، كرر، هل أنت النبي يونان؟

هز النبي يونان رأسه، لا يتذكر أن سمكة بلعته، لكن هذا مع ذلك ممكن، منذ أعوام وأعوام كان يعارك السمك، كيف يتذكر الآن؟

إنـه هـو، إنـه هـو، تمـتم زيبيـدي العجـوز؛ كانـت عينـاه تركضان في كل اتجاه كمن يتمنى أن يهرب. هـو يعـرف هـذا جيداً، الأنبياء هم الأصول، لا يجب الثقة بهم. يختفون في النار، في البحر، في الهواء، ثم في يوم غير مشهود، دون تحـذير تـراهم ثانيـة أمامـك! ألم يـصعد إيليـا إلى الـسماء علـى حـصان تهمـزه النـار؟ ومـع ذلـك مـا زال يـرى وبعـد أن تـسلق عـدة جبـال، تجـده أمامك. وهذا صحيح على اينوش Enoch، هو حـي ابـداً. وهـوذا الآن النبي يونان، الذي هو عندنا البريء، الذي يدعي أنـه صياد وأنـه أب بطـرس واندريـه سـأقبله بمـودة، هـؤلاء الأنبيـاء صـعاب المراس، شخصيات مستحيلة، بميـسورهم أن يـسببوا لـك القلـق. رخم صوته، وقال:

ـ يا يونان العجوز، الجار العزيز الطيب، تبحث عن أحدهم، عن جاك؟ هو عائد مـن الناصـرة، لكنـه تعب، كمـا يبدو، لقـد دخل القرية؛ وإن أردت شيئاً من ابنك بطرس، يقول لك أنـه بخـير، بخير عميم، لا تقلق، هو قادم يتمنى لك يوماً سعيداً..

تسمعني، عجوز يونان؟ أجب بأمارة ما.

كلمـه بعذوبـة، داعـب جلـدة كتفيـه الـصلبين. لا أحـد يعـرف، كـل أمـر ممكـن، ربمـا كـان دابـة ركـب، نـصف سمكة، قد تكون النبي يونان، إذن حذار!

انحنى العجوز يونان، أخذ سمكة صغيرة من القدر، بلعها كلها، وراح يمضغ الحسكات. أنا ذاهب تمتم. أدار لهم ظهره.

وسمع حفيف الحصى. لمس نورس رأس يونان، وهو يعبر توقف لحظة وخفق بجناحيه، كأنه رأى crabillon في شعر الصياد العجوز؛ لكنه أطلق صرخة خشنة، كمن جفل، وذهب. — انتبهوا، يا أولاد، أردف العجوز زيبيدي، هذا هو النبي يونان، أضع رأسي تحت المقصلة إن كان اثنان منكم يساعدونه، الآن بغياب بطرس، لكي لا يحدث لنا قصصاً.

نهض عملاقان، بين الضحك والخوف.

واأسفاه، قالا، أنت من سيقرع الكؤوس، يا عجوز زيبيدي؛ الأنبياء حيوانات مفترسة، بدون تحذير يفتحون أشداقهم وأنتم حتى أصغر عظمة. تؤذيكم ،وداعاً!

تمدد العجوز زيبيدي وتثاءب، راضياً؛ كان قد انسحب من قضية النبي؛ والتفت نحو الرجال الآخرين:

هلموا، يا أولاد، لنسرع! ضعوا السمك في السلال اجرفوا القرى؛ واحذروا: القرويون ماكرون ليسوا مثلنا أبناء الله كالصيادين. أعطوهم أقل ما يمكن من السمك، وخذوا أكثر ما يمكن من القمح، حتى ولو كان من العام الفائت ـ من الزيت والخمر، فراريج، أرانب... مفهوم؟ اثنان واثنان يساوي أربعة.

نهض الصيادون وبدأوا بتعبئة السلال.

بعيداً، وراء الصخور، ظهر فارس، يركب جملاً يسابق الريح. وضع العجوز زيبيدي يده في حاشية سترته وانتظر.

ـ إيه! يا أولاد! انظروا، أنتم أيضاً، أليس هو ابني يوحنا؟

زعق. الفارس يجتاز الآن الرمل الدقيق، يقترب.

إنه هو! أنه هو! صاح الصيادون؛ أهلاً بابنك، يا معلم! يمر الفارس الآن أمامهم؛ يرفع يده، يحيي.

يوحنا، زعق الأب العجوز، لماذا هذه السرعة؟ إلى أين أنت ذاهب؟

ــ استرح قليلاً، لنراك ونفرح بوجودك! رئيس الأساقفة يموت، أنا على جمر!

ـ ماذا وراؤك؟

ـ يرفض الأكل، يطلب الموت

ـ لم... لم؟

لكن كلام الخيال ذرته الريح

سعل العجوز زيبيدي، تأمل لحظة، حرك رأسه

ـ يدخر لنا الله القداسة.

رأى ابن مريم جاك نازلاً بخطى واسعة مخيفة نحو كفر ناعوم؛ تسمّر في الأرض، صالب ساقيه، كان قلبه ينوء بالتعب. هو الذي كان يرغب بصدق أن يحب وأن يُحب، لماذا يهب الكثير من حقد الناس عليه؟ هذه خطيئته؛ ليست خطيئة الله، ليست خطيئة الناس بل خطيئته. لماذا يتصرف بكل هذه الخسة، لماذا يتبع درباً ولا يجسر على السير فيه حتى النهاية. ضعيف، يدعو للرثاء، جبان. لماذا لا يجرؤ على الزواج من مادلين لينقذها من الخجل والموت؟ وعندما ينشب أظافره في

جسده ويأمره: انهض! لماذا يلتصق بالأرض ويأبى النهوض؟ والآن لماذا تلبسه الخوف، لماذا سيقبر نفسه في الصحراء؟ أيعتقد أن الله لن يعثر عليه؟

كانت الشمس فوق رأسه، كان النحيب على القمح قد هدأ، اعتاد هؤلاء الناس المفجوعون المصيبة؛ تذكروا أن الدموع والنواح لا يشفي، سكتوا. مرت آلاف السنين على تشتتهم، وجوعهم، تدفعهم بعنف القوى المرئية وغير المرئية، مع ذلك نجحوا في العيش بالتقتير؛ وتعلموا الصبر.

بان ضب في جنبة شائكة طلباً لدفء الشمس. رأس الإنسان كحيوان رهيب فوقه؛ خاف؛ بدأت عروقه تنتفض بعنف في حلقه؛ لكنه تشجع؛ تشبث بحجر دافئ، طاف بعين دائرية وسوداء وحدق بثقة إلى ابن مريم كمن يتمنى له طيب الإقامة، كما لو أنه يقول له: رأيت أنك وحدك وأتيت لآخذك رفيقاً!!. انتعش ابن مريم؛ مسك تنفسه كي لا يخيفه. وبينما كان يراقبه وأحس أن قلبه يضرب كقلب الضب، أتت فراشتان تطيران بين الاثنين؛ كانتا بين الأول والثاني ولا ترغبان في تركهما. وفراشات سوداء، زغبة ذات بقع حمراء، كمن يريد امتصاص الدم. أحس بمداعبتها فوق قرص رأسه وتذكر مخالب الله، بدا له أن أجنحة الفراشات وأظافرها تحمل له الرسالة ذاتها؛ آه! قال لنفسه، لو تيسر لله أن ينزل دوماً إلى الناس هكذا وليس كنسر ذي براثن معقوفة، ليس كصاعقة...

لما اختلط في ذهنه الله مع الفراشات، حس أن حكة تحت قدميه، حنى رأسه ورأى تحت قوس قدميه شعلة منهمكة، مستعجلة، من النمل الأحمر والأسود تنقل كل حبتين أو ثلاث حبات قمح بمخاطمها الكبيرة. كانت سرقتها من السهل، وانتزعتها حتى من فم الناس، وجرتها إلى أوكارها شاكرة اللّه، والنملة الأم التي تعتني بشعبها المختار، ومن يبعث الطوفان إلى السهل تماماً في لحظة وجود القمح مكدساً في البيادر؟

تنهد ابن مريم، وقال لنفسه: هي الأخرى من مخلوقات اللّه، تماما مثل الناس، الضب، والصراصير التي اسمعها تغني في شجر الزيتون، وابن آوى الذي يعوي في الليل، من الطوفان ومن الجوع.

سمع أحدهم يلهث وراءه؛ فزع؛ كان قد نسيه طيلة هذا الوقت، لكن اللاهث لم ينسه، شعربه الآن قاعداً هو الآخر وراءه وقد صالب ساقيه، وسمع زفيره وشهيقه، وتمتم:

ـ واللعنة أيضاً من مخاليق اللّه؟!

وأحس أنه محاط من كل الجهات بتنفس اللّه؛ كان يمر عليه، طوراً رطباً ورقيقاً، وتارة وحشياً، بلا رحمة. الضب، الفراشات، النمل، اللعنة، كل هذا كان اللّه!

سمع رنين أجراس وصراخاً على الدرب واستدار؛ جمال تعبر بقافلة طويلة، محملة بالبضائع الثمينة وأمامهاحمار صغير وضيع يقودها؛ كانت تبغي الوصول إلى الصحراء، بل كان عليها أن

ترحل إلى أبعد من نينوى وبابل، أراضٍ غرينيتية وخصبة للبطريرك ابراهام؛ كانوا ينقلون أنسجة حريرية، عطوراً وتوابل وعاجاً، وربما أيضاً عبيداً صبياناً وبنات، وكانوا يذهبون نحو البحر الكبير الغاص بالمراكب من كل لون.

تمر، تمر دون نهاية. أية ثروات في هذا العالم، قال لنفسه ابن مريم، أية أعاجيب! في ذيل القافلة، بعماماتهم الخضراء، وجلابيبهم البيضاء، ولحاهم السوداء، وأقراط آذانهم الذهبية، يتأرجحون على إيقاع الجمال، يمر التجار الأغنياء، وابن مريم يرتعش.

سيتوقفون في مجدلا، قال فجأة، سيتوقفون في مجدلا، باب مادلين مفتوح، مفتوح ليل نهار، سيدخلون.... أنقذها! إن استطعت أنقذها! أنت، لست قافلة إسرائيل، أنا لا أقدر؛ بل أنت، مادلين! تقدرين، أنا، إن فتحت فمي لا أعرف ماذا أقول؛ الله لم يحك لي شفتي بعود متعدد، لم يبعث الصاعقة إلى كياني لأشتعل، لكي أثب ثائراً على الدروب وأبدأ الزئير!

ليكن الكلام كلامي، ليكن كلامهم وليس عندي ما أفعل، سأفتح فقط فمي ويتكلم هو، لست نبياً، أنا إنسان بسيط وخائف، لا أقدر أن أسحبك من، سرير العار، ولم أذهب إلى الصحراء، إلى الصومعة، لأصلي من أجلك. الصلاة أيضاً فظيعة القدرة؛ قيل، في الحرب، كان ابن إسرائيل ينتصر مادام موسى رافعاً ذراعيه إلى السماء؛ وينهزم أن تعب أو

انـزل ذراعيـه. في النهـار والليـل سـأرفع ذراعـي إلى الـسماء مـن أجلك، يا مادلين!

سأل، هل مالت الشمس إلى المغيب؛ فهو عازم على اتخاذ درب الليل، للمرور في كفر ناعوم كي لا يراه أحد، يدور حول البحيرة ويلج الصحراء، قلبي طافح الآن برغبة الوصول القاسية. تنهد أيضاً:

ـ آه لو أستطيع أن أمشي فوق الماء وأجتاز البحيرة!

كـان الـضب مـا يـزال ملتصقاً بـالـصخرة طلبـاً للـدفء مـن الـشمس؛ وكـانـت الفراشـات تطـير أعلـى فـأعلى وضـاعت في الـضوء والـنملات مـستمرة بالنقـل، تكـدس الحـصاد في اهراءاتها، تعود بسرعة إلى السهل، محملة، الشمس في المغيب. الظـلال تتطـاول، يقـل عـدد العـابرين، شمـل المـساء الأشـجار والأرض وغطاها ذهباً، ميـاه البحيرة تبدو في كل لحظة تبدل منظرهـا ـ تـصير حمـراء، بنفسجية، شـفافة، ظهـر نجـم ضـخم معلق بالسماء في الغرب.

الآن تحل الظلمة، ابنة اللّه العابسة، مع قوافل النجوم....
قال ابن مريم لنفسه، قبل السماء امتلأ رأسه بالنجوم.

كان يتأهب للنهوض ليعود إلى مسيره لما سمع خلفه صوت بـوق، ثـم دعـاه عـابر باسمـه. التفـت في بهيـق الظلمـة رأى رجـلاً يحمل بقجة ضخمة أبدى له عدة إشارات وصعد. من هذا إذن؟ قال لنفسه. جهد في تمييز سمات العابر عبر الصرة. لقد رأى في

مكان ما هذا الوجه الأدكن، هذا العثنون المبعثر وهذه القوائم الملتوية إلى الداخل. بغتة صرخ:

ـ هذا أنت، توما؟ أتكرر تطوافك في القرى؟

كان البائع الجوال الأحول والمنهك الآن أمامه يلهث تعباً، حط صرته في الأرض، مسح عرق جبينه المتزايد. كانت عيناه حولاوين تكشفان بلبلة الناظر. أهما فرحتان أم ماكرتان؟!

كان ابن مريم يحبه، يراه غالباً يمر أمام ورشته، بوقه في حزامه. كان يعود من جولته في القرى، يضع صرته على المقعد ويروح يحدث في كل ما رآه هاذراً، ضاحكاً، ساخراً، لا يثق بإله إسرائيل ولا بالآلهة الأخرى ـ جميعهم يسخرون منا، يقول، لنذبح لهم صغار ما عزتنا، لنشعل أمامهم البخور، لنبح أصواتنا لإشهار سحرهم.... وكان ابن مريم يصغي له، ليفرج عن قلبه المكروب قليلاً، كان يعجبه خبث هذا الدماغ الذي، رغم فقره المدقع، وعبوديته وبؤس ارومته، يجد القوة، ضاحكاً، ساخراً، منتصراً على العبودية والفقر.

كان توما البائع الجوال يحب أيضاً ابن مريم؛ يرى فيه خروفاً صادقاً، منحرف المزاج، يبحث عن الله وهو يثغو ليركض وراءه.

أنت خروف، يقول له ضاحكاً بكل كيانه، أنت خروف، يا ابن مريم، لكنك تحمل ذئباً في طويتك، وهذا الذئب سيفترسك! ويأخذ انئذ من قميصه تارة قبضة بلح وطوراً

رمانة أو تفاحة سرقها من المراعي ويقدمها هدية.

ـ لحسن الحظ أني صادفتك يقول بعد أن يسترد نفسه؛ اللّه يريد بك خيراً: إلى أين تذهب هكذا، قل لي؟

ــ إلى الصومعة، يجيب الآخر ويدل بيده بعيداً خلف البحيرة.

ـ إذن لحسن الحظ أني صادفتك؛ ارجع على عقبيك!

ـ لماذا؟ يا ربي

فاستشاط توما غضباً

أرجوك، لا تعد إلى اللّه؛ لم يصل أحد إلى شيء في هذا الطريق؛ يمشي آمناً كل حياته، وفي أثناء موته، لكن عبثاً. إذن دعه، لا تتدخل بشؤونه؛ هنا لنا أمورنا وشجوننا مع هؤلاء الملاعين، هؤلاء الخبثاء، أتسمع! احترس من يهوذا ذي الشعر الأحمر! قبل أن أغادر الناصرة رأيته يتآمر مع أم المصلوب، ثم مع بارابا واثنين أو ثلاث زيلوت zelotes سفاحين، سمعت اسمك، احذر، يا ابن مريم، لا تذهب إلى الصومعة.

لكن الآخر حتى رأسه، وقال:

كل الخلائق البشرية بيد اللّه؛ ينقذ من يشاء، يقتل من يشاء. أي مقاومة بيدنا نقاوم بها، نحن البشر؟ أنا ذاهب، وليحفظني اللّه!

ـ أذاهب؟ زعق توما مرتجفاً؛ لكن يهوذا موجود، وأنا أكلمك، في الصومعة ومعه سكين أخفاها في ثيابه، عندك

سكين، أنت؟

وجف ابن مريم وقال:

ـ لا، ماذا أعمل بها؟

ضحك توما، وتمتم!

ـ خروف ...... خروف...... خروف

رفع عن الأرض بقجته، وقال:

وداعاً. افعل ما يحلو لك. أنا أحذرك: لا تذهب إلى هناك! وأنت تقول لي: أنا ذاهب إليهم! اذهب إذن وبعدئذ ستنتف شعرك! رقصت عيناه الحولاوان، وراح يهبط ويصفر.

أزف المساء واسود الجو، وغابت البحيرة، وأشعلت أولى المصابيح في كفر ناعوم، خبأت طيور النهار رأسها تحت أجنحتها استعداداً للنوم، واستيقظت طيور الليل ورحلت إلى القنص.

هذه ساعة حلوة وطاهرة، قال ابن مريم لنفسه، الآن لن يراني أحد، هيا. عادت إليه أقوال توما، فتمتم:

ستحدث مشيئة الله؛ إن كان هو من يدفعني إلى حتفي، فليس لي سوى أن أقتل نفسي دون تأخر، هذا أقدر عليه وأنا فاعلهُ.

استدار:

هلم، قال لرفيقه غير المنظور، واتجه نحو البحيرة.

كان الليل عذباً، دافئاً، نسيم عليل يهب من الجنوب. من كفرى ناحوم تشم رائحة السمك والياسمين. كان العجوز

زيبيدي قاعداً في باحة داره، تحت اللوزة الوارفة، مع زوجته سالومي. أكلا وثرثرا. إلى البيت، عاد ابنهما جاك وهو في سريره: زيلوت مصلوب وابن النجار جاسوس، ظلم الله للبشر، أخذ منهم قمحهم، تعقدوا في فكره، حطموا قلبه، لم يدعهم ينامون، أثارتهم أيضاً خطب أبيهم العجوز. كان في حالة غليان واضطرب. انتصب واثباً، خرج إلى الباحة، تجاوز العتبة.

إلى أين؟ سألته أمه، قلقة.

ـ إلى البحيرة، لكي يسوطني الهواء،واختفى في العتمة.

الشيخ زيبيدي هز رأسه، وتنهد:

ـ فسد العالم، يا امرأة. الآن خرج الشباب من جلدهم؛ ماعادوا طيوراً، سمكاً، بل هم سمك طائر. البحر صغير جداً أمامهم، يطيرون في الهواء، إنما لا يحملهم الهواء، يغطسون في البحر؛ فقدوا عقولهم؛ ويحك، تأملي ابنك يوحنا، ابنك الحبيب. يحكي عن الصومعة، عن الصلاة، عن الصوم وعن الله؛ يبدو له قاربه ضيقاً جداً، لم يعد يتسع له، وانظري الآن إلى الآخر، جاك، الذي كنت أظن أنه صغير، تذكرين ما قلت لك، ليس طاقته السفر إلى هناك هو الآخر: رأيته هذا المساء، كالملتهب، المتقد؟ ضاق عليه البيت عليه جداً. لا بأس، إنما من سيشرف على مراكب صيدنا وعلى رجالي؟ أيجب أن تضيع كل أتعابي؟ أنا أتراجع، يا امرأة، هات لي قليلاً من الخمر وقطعاً من الأخطبوط لأقضمها، لأستعيد قواي! صمت العجوز حينها؛

كـان زوجهـا قـد شـرب كـثيراً في ذلـك المساء، هـذا يكفـي، جهدت في تحويل الحديث، قالت:

هم شباب، لا تقلق، هذا أمر عابر

ــ برأيـي أنـت محقـة، يـا امـرأة. تتـصرفين تـصرف امـرأة عاقلـة: مـاذا يمسكني هنـا اتعذب؟ هـم شـباب، هـذا يناسـبهم. الشباب مرضى، يعبر، أيضاً، لما كنت شاباً، أصبت بـالحمى، عـدت إلى سـريري، ظننـت أنـي أبحـث عـن اللّٰه، بالفعـل كنـت أبحـث عـن امـرأة؛ سـيادتك، عجـوز سـالومي! أخـذتك وهـدأت. أبناؤنا، الشيء نفسه؛ إذن، تسقط الهموم! تأملي، يا امرأة، أنـا مـسرور، هـات لـي قلـيلاً مـن الخمـر ومـن قطـع الأخطبـوط لأقضمها، لأشرب نخبك، سالومي.

في مكـان آخـر في الحـي المجـاور، العجـوز يونـان وحـده في بيته المتواضع يرفو شبكته على ضوء المصباح. يرفو، يرفـو إنمـا روحه وأفكاره لا تروح إلى زوجته التي افتقدها منذ عام في هذا الفـصل، ولا إلى صـاحب الأوهـام ابـن اندريـه، ولا بجنـون الابـن الآخر المطبق، بطرس، الذي ما زال يعيش في خمارات الناصرة والذي تركه ينزع شوكه بيده، وحده مع السمك: كـان يحلم بكلام زيبيدي وكان يعمل في شأن هام. هل كـان النبي يونـان فعلاً؟ تأمل يديه، رجليه، فخذيه، ليست سوى أصداف. حتـى نفسه وعرقه مشرب برائحة السمك. والآن يتذكر أول أمس لما بكـى زوجتـه، كـانـت دموعـه تنـشر حتـى عـبير السمك. وهـذا

العجوز الخبيث زيبيدي محق، يجد أحياناً سلطعان في لحيته... أكان النبي يونان فعلاً؟ آه! لهذا كان راغباً عن الكلام، يجب سحب الحكي من فمه بالقطارة، وهو لما يمشي على الأرض يترنح كل الوقت ويخطو مراراً خطوات خاطئة؛ إنما لما يغطس في البحيرة، ياللراحة، يا للغبطة، تحمله المياه بأحضانها، تداعبه، تلمسه، تهدل قرب أذنيه، تكلمه؛ وهو، كما السمك، يجيبها دون حكي ويخرج من فمه فقاعات. "يجب بالتأكيد أن أكون النبي يونان، أنا مبعوث، الأصهب رماني، لكني صرت أريبا، أنا نبي لكني أعمل صياداً، لا أنبس بكلمة، لا أريد أن أبدأ من جديد مع القصص...." ابتسم، راضياً من مكره. " أنا مرسل لهذا، قال لنفسه، لا أحد يشعر بهذا منذ سنوات، حتى أنا؛ تطلب الأمر هذا اللعين زيبيدي، لحسن الحظ أنه فتح عيني..." ترك الأدوات تسقط، فرك يديه فرحاً، فتح خزانة، أخذ منها مطرة، قلب رقبته إلى وراء وراح يشرب ويشرب.

كان العجوزان يشربان، مغتبطين، في كفرناعوم. كان المسافر الليلي، غارقاً في تأملاته، يمشي متابعاً الضفة؛ لم يكن وحده: كان يسمع وراءه صرير الرمل. في باحة مادلين، وضع التجار الجدد أقدامهم بالأرض، والحضور كانوا جالسين على الحصى، يتكلمون بصوت خفيض ويمضغون حبات التمر والسلاطعين المشوية وينتظرون دورهم. في الصومعة مدد

الخوارنـة رئيـسهم في وسـط حجرتـه وسـهروا عليـه؛ مـا يـزال يتـنفس، العينـان تبرقـان، ينظـر إلى البـاب المفتـوح، هـزيلاً ومنبسط الوجه، كمن يصغي.

ـ يصغي إلى وصول رابين من الناصرة، ليشفيه...

ـ يصغي إلى مجيء أجنحة رئيس الملائكة السوداء إليه

ـ ينصت ليسمع ربما خطوات المسيح الذي يقترب

الكهنـة يتكلمـون بـصوت واطـئ وينظـرون، كانـت روح كل منهم مستعدة في هذه اللحظة لتلقي المعجزة. يصغون بكـل انتبـاه، إنمـا لم يـسمعوا سـوى ضـربات مطرقـة علـى سـندان في الطرف الآخر من الباحة؛ أشعل يهوذا كوره وراح يعمل في الليل.

(10)

بعيـداً مـن هنـا، في الناصـرة، في بيتهـا المتواضـع، أشـعلت مـريم، زوجـة يوسـف النجـار، المـصباح وتركـت البـاب مفتوحـاً؛ كانت تفك الصوف الذي غزلته. كانت مستعجلة. لقد قـررت أن تذهب تطوف في القرى بحثاً عن ابنها. كانـت تعمـل وفكـرهـا في مكان آخر، يجرر في الحقول، يمر في مجـدلا، في كفرنـاحوم، أأجـده علـى ضفة بحيرة طبريـا. كانـت تـدور علـى ولـدها. مـازال هاربـاً، ضـربه الله أيضاً بمنخسه لم يرحمـه، لم يـرحمني، فـيم أسـأنا إليـه؟ كـان هنـا الفـرح والمجـد الـذي وعـدنا بـه. لمـاذا جعـل عصا يوسف تزهر بل تزدهر، لماذا جعلني أتـزوج هـذا العجـوز، لم

بعث الصاعقة وأزهر في بطني هذا الابن الوحيد، هذا الملهم؟ كنت زهرة لوز عندما احتضنته؛ من الجذر حتى القمة، أزهرت بكل كياني الجيران يعبرون، يتأملون ويحكون: مباركة أنت بين كل النساء، يا مريم! القوافل تعبر، تقف: ـ ما هذه اللوزة المزهرة؟ يترجلون عن جمالهم ويملون مريلتي بالهدايا فجأة هبت الريح، أورقت... صالبت ذراعي على صدري الفارغ: إلهي تحققت إرادتك أزهرتني، نفخت علي، وأورقت الهي، ألا أمل لي في أن أزهر ثانية؟

ألا أمل لي في أن يرتاح قلبي؟ تساءل الابن عندما وجد نفسه في صباح باكر وجهاً لوجه أمام الصومعة، بعد أن دار حول البحيرة، مزروعاً بين الصخور الحمراء والخضراء كلما اقتربت من الصومعة يزداد وجيب قلبي، لماذا؟ ألم أسألك السبيل الصحيح، ياإلهي؟ أليس نحو هذا التطواف الطهور دفعتني؟ إذن لم ترفض أن تمد يدك وتواسي فؤادي؟

راهبان بلباس أبيض ظهراً في مدخل الصومعة، صعدا صخرة ونظرا بعيداً نحو كفرناحوم.

أبداً لا شيء، دوماً لا شيء... قال أحدهما، رجل على قوائم، أحدب ونصف أحمق لم يجده حياً، قال الآخر، شيطان كبير بفم مفتوح كبوز قرش يصل حتى أذنيه ويحك، جيروبوام، أنا باق هنا أراقب حتى يظهر الجمل .

أنا ذاهب لأراه يموت، قال بغبطة الرجل الأحدب، وتدحرج

عن صخرته بقي ابن مريم متردداً، في عتبة مدخل الصومعة، أتدخل؟ ألا تدخل؟ قلبه يخفق بعنف. كانت الباحة مرصوفة بالبلاط، لا مكان لأي شجرة خضراء، لزهرة، ولا لعصفور، ليس سوى تينات بريّات حول الباحة..... كانت هذه الباحة صحراء دائرية، لا بشرية في المحيط، ثغرات محفورة في الصخر، المجرات كالقبور.

أهنا مملكة السماوات؟ تساءل. أهنا يرتاح قلب إنسان؟

حدق، ثم حدق ولم يقرر اجتياز العتبة. وثب كلبا راع أسودان من مكمنهما وراحا يركضان وراءه.

رأى الأحدب العجوز الزائر ونادى الكلاب إليه، فصمتا. ثم استدار ودقق في الغريب من رأسه إلى قدميه. بدت له العينان مكروبتان، وثيابه فقيرة؛ قدماه تدميان. رثى له، وقال

ــ أنت في أهلك، يا أخ. أي ريح حملتك ورمتك هنا في الصحراء؟

ــ اللّه! أجاب ابن مريم بصوت قوي، غير منتظر. تولى الخوف الكاهن؛ ما سمع يوماً أحد يلفظ اسم اللّه بهذا الهلع. صالب ذراعيه وسكت.

ـ أتيت أرى رئيس الدير، قال الزائر بعد لحظة.

ــ ستراه، ربما، إنما لن يراك هو. ماذا تريد منه؟

ـ لا أعرف، رأيت حلماً. وأنا آت من الناصرة.

حلم؟ أردف الكاهن بدهشة فظيعة؛ وراح يضحك.

حلم رهيب، يا شيخ. منذئذ، لم يرتح قلبي. رئيس الأساقفة قديس، علمه اللّه ما تريد الطيور والأحلام إن تقول. فأتيت.

أبداً لم يكن عنده رغبة في المجيء إلى هذه الصومعة ليسأل الرئيس عن معنى حلمٍ حَلم به في الليل حيث كان يصنع صليباً- الملاحقة الوحشية في نومه، الأصهب الذي يقحم رأسه والأقزام الذين يتبعونه مع أدوات التعذيب. إنما هنا، فجأة، بينما كان واقفاً في عتبة الدير، متردداً حائراً، مزق الحلم روحه كبرق؛ لهذا قدمت، حاكى نفسه، من أجل هذا مشيت إلى هنا، اللّه أرسلني ليرشدني إلى الدرب والرئيس سيجلوه لي.

الرئيس يموت، قال الخوري، وصلت متأخراً، يا أخ، اذهب من هنا.

ـ اللّه من أمرني، قال ابن مريم، لا يقدر أن يخدع الناس، هو؟

هزيء الراهب؛ رأوا كثيراً من هذا الهرف، ما كان عنده ثقة باللّه.

هو اللّه، أليس صحيحاً؟ قال. يفعل ما يأتي إلى رأسه؛ غريب على كلي القدرة إن كان لا يقدر أن يمارس الظلم!

ربت على كتف الزائر؛ أراد تسليته، لكن يده الضخمة كانت ثقيلة، آلمته،

لا تقلق، قال، ادخل؛ أنا هو الأب الشافي ـ المعالج.

دخلا الباحة، كان الهواء قد هب، فزوبع الرمل على

البلاط؛ هالة مضطربة أحاطت بالشمس؛ أظلم الجو.

في وسط الباحة فغر شدق بئرنا شف؛ في وقت آخر كان يحوي ماء، الآن هو مترع بالرمل؛ خرج منه ضبان وأتيا يستدفئان في الشمس في حافته الهالكة.

كانت حجرة الرئيس مشرعة، مسك الكاهن الزائر من ذراعه، وقال له:

انتظر هنا، سأطلب الإذن من الأخوة، لا تتحرك؛

صالب ذراعيه وولج. كانت الكلاب آنئذ رابضة في مصراعي الباب؛ مدت رقابها، تشممت وعوت متأففة.

كان الرئيس الأسقف ممدداً في وسط حجرته، الرجلان باتجاه الباب. حوله الكهنة، منهكين من سهر الليل، كانوا يهومون وينتظرون، المحتضر، كان نائماً على خوان، وجهه متوتراً وعينيه مفتوحتين مسمرتين على الباب الكبير المفتوح. كان القنديل ذو الفروع السبعة ما يزال مشتعلاً فوق رأسه وينير جبهته المحدبة والألقة، عيناه نهمتان، أنفه نسري، شفتاه مزرقتان، ولحيته المرسلة البيضاء تغطي كامل صدره العظمي والعاري. وفي مبخرة فخارية ألقي على الفحم البخور المجبول بروح الورد؛ كان الهواء معطراً.

دخل الكاهن، نسي سبب دخوله وأقعى قرب الكلاب في العتبة.

وصلت الشمس إلى الباب، أردت الدخول وملامسة أقدام

الرئيس المحتضر. كان ابن مريم واقفاً خارج الغرفة ينتظر السكون مخيم تماماً. سوى الكلاب التي تتباكى وفي البعيد الضجة الهادئة هي وقع المطرقة التي تدق السندان.

انتظر الزائر طويلاً؛ الشمس صعدت، فنسي، الواقف في عين شمس الصباح.

كان الليل جليدياً والآن استدفأ جسده كله بتلذذ، بغتة، في قلب السكون القائم، سمع صياح الكاهن الذي يرصد الأمر من صخرته:

ـ يصلون! يصلون!

انتفض الكهنة، استيقظوا وقفزوا خارج الرابية، تركوا الأسقف الرئيس وحده.

تجرأ ابن مريم، مشى بوجل خطوتين ووقف في الباب. في الداخل، هدوء الموت، هدوء الابدية؛ قدما الأسقف المحتضر الهزيلان اللذان لفتهما الشمس، عكسا ضوءاً شاحباً، نحلة تدندن في السقف، حشرة سوداء ووبراء تفرفش ببطء حول الشمعات السبع، تطير من واحدة إلى أخرى، لتختار في أيها تحترق.

على حين غرة تحرك الأسقف الكبير؛ جمع كل قواه، رفع الرأس ـ وعلى عجل طرف بعينيه، بقي فمه منفتحاً، اهتز منخراه غير مرتويين، شما الهواء. وضع ابن مريم يده على قلبه، ثم على شفتيه، وعلى جبينه وحيّاه.

تحركت شفتا كبير الأساقفة، وتمتم:

أتيـت..... أتيـت..... أتيـت.......... غمغـم دونمـا وعـي؛ لم يسمع ابن مريم.

إنمـا علـى وجـه الأسـقف الـصارم والمتـألم كلـه انتـشرت ابتـسامة رضـى صـامتة. سـرعان مـا غمـضت العينـان، سـكن المنخران، ختم الفم والساعدان اللذان حـافظ عليهمـا متـصالبين علـى صـدره، انزلقـا علـى يمـين جـسده ويـساره. راحتـا اليـدين انفتحتا انقبضتا.

في بحر هذا الوقت ناخ الجملان في الباحـة، سـارع الرهبـان لمساعدة رابـين في وضـع رجلـه علـى الأرض، سـأل المتمـرن الفتـى بضيق: يعيش؟ يعيش أيضاً؟

مـازال يتنفس، أجاب العجوز هـاباكوك، يرى كـل شـيء، يسمع جيداً، وخلفه المبتدئ، يحمل الكيس الثمين الذي يحـوي المـراهم، الكلبـان الاسـودان، وذنبهمـا بـين القـوائم، لم يبرمـا رأسـيهما أبـداً. البـوز ملاصـق الأرض يئنـان بـشكل غريـب ككائنات بشرية.

سمعهـم الحاخـام وهـز رأسـه: " أصـل متـأخراً..... " قـال لنفسه، إنما بقي أبكم.

ركع إلى جوار الأسقف الكـبير، انحنـى عليـه، وضـع يـده على قلبه وقرب شفتيه من شفتي الأسقف.

متـأخراً، تمتم، أصـل متـأخراً.... لـيحفظ الله حيـاتكم، أيها الآباء!

صرخ الكهنة، انحنوا وعانقوا الميت، كما يأمرهم العرف، كل حسب رتبته:

العجوز هاباكوك احتضن عينيه، والرهبان الآخرون لحيته وراحة يديه المفتوحتين، المبتدؤون أقدامه. ذهب أحدهم وأخذ عصاً من الكرسي الفارغ ووضعها إلى يمين الجثة المقدسة.

العجوز رابين، على ركبتيه، كان يراقب رئيس الأساقفة؛ لم يقدر أن يرفع عينيه عنه: ما مغزى هذه البسمة المظفرة؟ ما معنى هذا النور الصوفي حول العينين المغمضتين؟ الشمس التي نزلت على هذا المحيي لا تخبو، التي لم تفارقه، أي شمس هي؟

نظر حوله، كان الكهنة ما زالوا على ركبهم ساجدين، يوحنا شفاهه ملاصقة لأقدام الميت، يبكي. العجوز رابين ينقل نظره على جميع الرهبان الواحد تلو الآخر، كمن يطرح سؤالاً. فجأة، في أبعد زاوية من الحجرة شاهد ابن مريم واقفاً، الذراعان متصالبان، ساكنان، دونما حركة. إنما انتشرت على وجهه ذات البسمة، بسمة المسجى، المظفر والساذج.

سيد الطاقات والقدرات، ادوني، تمتم العجوز رابين بخوف، تذهب أيضاً وتلمس قلبي؟ ساعد روحي على الاستيعاب، هذا القرار

في اليوم التالي شمس حمراء كالدم، محاطة بهالة دكناء، تنبعث من الرمال.

هواء حار صعد من الصحراء نحو الشمس، يظلم العالم، كلبا الصومعة الأسودان يرغبان في النباح، لكن شدقهما امتلآ رملاً، فصمتا؛ الجمال، نائخة على الأرض،أغلقت عيونها وانتظرت.

الكهنة تماسكوا باليد، شكلوا سلسلة، تقدموا بتؤدة، كانوا متضامين كالعنقود الحبة لصق الأخرى يتكاثفون بالأذرع، لئلا يستولي الهواء على جدث الأسقف الكبير؛ ذهبوا ليدفنوه. كانت الصحراء مواره، تعلو وتنخفض كما البحر.

هذه هي ريح الصحراء، هذه هي زفير يهوه jehovab ، تمتم يوحنا، تعادي بحزم ابن مريم جفف كل الأوراق الخضراء، تنضب كل الينابيع، تملأ الفم بالرمل. سنترك الجثمان المقدس في حفرة وتأتي أمواج الرمل تغطيه.

لحظة المعاناة، لحظة اجتياز عتبة الصومعة رأوا الحداد الأصهب ينتصب أمامهم ويحدجهم ضخماً أسوداً يحمل مطرقة على كتفه، إنما سرعان ما غطاه الريح، واختفى. رأى ابن زيبيدي هذا الغول من وسط الإعصار الرملي وخاف. تشبث بذراع رفيقه، وسأل بصوت خفيض:

ـ من هذا رأيته؟

لكن ابن مريم لم يجب. يرتب الله كل شيء كما يجب، حسب إرادته، قال لنفسه. هوذا الآن في طرف العالم، في الصحراء، يوحدني مع يهوذا. إيه حسناً، لتكن إرادتك، يا

إلهي..........

تقدموا سوية؛ انغرست أقدامهم بالرمل الكاوي. حموا فمهم وأنوفهم بطرف جلبابهم، لكن الرمل الدقيق تسرب إلى حلقهم ورئاتهم. كان العجوز هاباكوك في المقدمة؛ أفقده الهواء قواه ورماه أرضاً، والكهنة وقد عمتهم موجات الرمل لم يره فتابعوا الدرب، الصحراء تنفخ، الحجارة تقرع، العجوز هاباكوك زعق زعقة مبحوحة؛ ولم يسمعه أحد.

لماذا نفخة يهوه هذه ليست لطيفة كالتي تأتينا من البحر الكبير؟ قال ابن مريم لنفسه أراد أن يقول هذا لرفيقه لكنه لم يستطع أن يفتح فمه. لماذا لا تملأ ريح يهوه آبار الصحراء الجافة بالماء؟ لماذا هو لا يحب الأوراق الخضراء، لماذا لا يرحم الإنسان؟ آه، لو يجد إنسانا ليقترب منه، ليسقط على قدميه ويوفر الوقت، قبل أن يتحول إلى رماد، ليحدثه عن شقاء الإنسان، عن أتعاب الأرض والأوراق الخضراء.

كان يهوذا مازال واقفاً أمام باب الحجرة المنعزلة التي أعطيت له كورشة. كان يتأمل الموكب الحزين الذي يغوص ويختفي طوراً، ويظهر تارة مترنحاً. لقد رأى الإنسان الذي يلاحقه وأبرقت عينه السوداء. " إله إسرائيل عظيم، تمتم برضى، يرتب الأمر بشكل تام، وجلب لي الخائن حتى رأس خنجري."

ملس شاربيه فرحاً ودخل، كانت الحجرة معتمة لكن إحدى زواياها مضاءة، على فرن صغير، فحم متقد. يهمز

الشعلة كاهن قصير الرجلين نصفه قديس ونصفه مجنون.

إيه، أب جيروبوام، قال الحداد بمزاح طيب، أهذا هو ما يسمى هواء الله؟

يغبطني جداً، هكذا سأنفخ أنا أيضاً، لو كنت إلهاً.

راح الكاهن يضحك، وقال:

أنا لا أنفخ أبداً، أنا تعب......

ترك النفخ ليمسح العرق عن جبينه ورقبته.

تريد أن تبهجني، أب جيروبوام؟ أتى البارحة إلى الدير شاب ذو لحية صغيرة سوداء، حاف، شبه مجنون كقداستك. ومنديله على رأسه ملطخ بالدم.

أنا أول من رآه! أردف الكاهن باختيال؛ أما الحداد فهو مجنون تماماً. يبدو كمن رأى حلماً، وأتى من الناصرة ليجلوه له كبير الأساقفة ـ كي يسامحه الله!

إذن، اصغ: ألست أنت الأب المطبب؟ ولما يأتي أحد ما ألست أنت الذي يهيء له غرفته، يرتب له سريره، ومن يجلب الأكل؟

أجل، أنا هو بالتأكيد: يبدو أني لست جديراً بمهمة أخرى، فأنا الأب المطبب؛ أغسل، أكنس وأقدم الأكل للزوار.

إذن هب له سريراً لهذه الليلة في الغرفة التي أنام أنا فيها. لا اقدر أن أنام دون رفيق، ماذا يريد أب جيروبوام؟ احلم أحلاماً مزعجة، يأتي الشيطان يغريني، أخاف الذهاب إلى جهنم. عندما

أحس بقربي رجل يتنفس، أهدأ! اذهب، سأزودك بمقص لتجز الخراف، وتشذب لحيتك ولحى الكهنة، ووبر الجمال وأن لا تعامل نفسك كشخص لا عمل له.... اتسمع ما أقول لك؟

احمل المقص.

بحث الحداد في كيسه وأخرج منه مقصاً صدئاً. أخذ الكاهن إلى مكان مضيء؛ فتحه، سكره ولم يتركه إلا بعد إعجاب ورضى.

ـ أنت عظيم، إلهي، أعمالك رائعة، وغاص في تأمل عميق.

إذن؟ قال يهوذا وهزه ليوقظه.

سيكون لك هذا المساء، قال الكاهن. أخذ المقصات وتوجه.

عاد الكهنة، لم يتسن لهم أن يذهبوا بعيداً، جعلهم هواء يهوه يدوخون ويسقطون أرضاً. وجدوا حفرة، رمو الجثة فيها. نادوا العجوز هاباكوك ليتلوا الصلاة إنما لم يعثروا عليه؛ انحنى العجوز رابين القادم من الناصرة على الحفرة ونادى الجسد الفارغ وبدون روح: " أنت غبار، تعود إلى الغبار. هربت الروح منك وأنت لا مهمة لك، انتهى دورك، انتهى دورك، أيها الجسد، ساعدت الروح على النزول إلى المنفى الأرضي، للمشي أياماً وليالي على الرمل والحجارة، أصبر، تألم، تأمل بوله وطنك، السماء وأباها، اللّه.

ـــ أيها الجسد، يا رئيس الأساقفة لا حاجة لك، سل

نفسك!"

بينما كان الحاخام يتكلم، هبت طبقة من الرمل الدقيق وهبطت في حفرة الميت، غطت الجدث بوجهه، بلحيته، بيديه. نهضت موجات أخرى من الرمل، فهرب الكهنة. بينما كان الأب يطبب، شبه ابله، أخذ مجزه وذهب، واندس الكهنة في الصومعة، بعد أن جرح الرمل عيونهم، مزق شفاههم، ألهب اباطهم، عندما حملوا العجوز هاباكوك الذي وجدوه عند العودة شبه مطمور بالرمل.

جفف العجوز رابين عينيه بمزقة رطبة، فمه ورقبته وقرفص على الأرض أمام كرسي الأسقف الفارغ. كان يصغي عبر الباب الكبير إلى زفير يهوه الذي ييبس العالم ويتلفه. من يمين رأسه إلى يساره كان الأنبياء يعبرون روحه؛ بهذا النداء الملتهب كان يدعو الله بصراخ شديد، بهذه النار على شفاههم وعيونهم شعروا باقتراب سيد القدرات، هلموا الله ريح حارقة، صاعقة، أعرف هذا، ليس حديقة غناء . . وقلب الإنسان ورقة ريانة. الله يلعب بها وييبسها. ما العمل؟ كيف نسلك إليه ليلطف محياه؟ إن قدمنا له ضحايا من الحملان: لا أريد، يصرخ، لا أريد لحماً، ليس سوى الزبور ما يسبغ جوعي؛ إن فتحنا فمنا لقراءة الزبور أو المزامير: لا أريد كلاماً، صاح، ليس إلا لحم الحمل، جسد الابن، الابن الوحيد، يهدىء جوعي!

تنهد العجوز رابين. كان تعباناً، تأفف من قسوة التفكير

بـالله؛ بحـث عـن زاويـة يتمـدد فيهـا. منهكـون، محرومـون مـن النـوم، سـارع الكهنـة إلى حجـراتهم لينـاموا ويحلمـوا بـسيد الأسـاقفة. خـلال أربعـين يومـاً سـتطوف روحـه في الـصومعة، ثلـج الحجـرات، يـرى مـاذا يفعـل الكهنـة، أيعطـيهم نـصائح أو يخاصمهم، تمددوا إذن ليرتاحوا وليروه في منـامهم. جـال العجـوز رابين بنظراته حوله؛ لم ير أحداً.

فقط دخل الكلبان الأسـودان؛ اقعيـا علـى الـبلاط وتـشمما بأنين الكرسي الفارغ؛ في الخارج الـريح تـدق الأبـواب بضراوة، ليدخل هو أيضاً.

إنمـا بينمـا كـان رابـين يـستعد للنـوم إلى جانـب الكـلاب، رأى ابن مريم واقفاً في ركن هادئاً، يتأهب لرؤيته، سـرعان مـا غادر النوم جفنيه التعبين، نهض، قلقاً، وأشار إلى ابـن أخيـه أن يدنو. والآخر - الـذي كـان ينتظـر الـدعوة - ابتـسم ابتـسامة مـرة ارتعشت حول شفتيه، اقترب.

يسوع، قال رابين، اجلس. يجب أن أكلمك.

أصـغي، أردف الـشاب. وركـع قبالتـه. وأنـا يجـب أن أكلمك، عم سمعان.

عم تبحث هنا تطوف أمك القرى، تبحث عنك وتندب؟!.

- تبحث عني، وأنا أبحث عن الله، أبداً لـن نلتقـي، أجـاب الابن.

- أنـت لا قلـب لـك. لم تحـب يومـاً كرجـل، لا أمـك ولا

أباك!!.

ـ حسناً. قلبي فحمة متقدة. تحرق أولئك الذين يقربونها.

ما لك كيف تقدر أن تحكي هذا؟ ماذا ينقصك قال الحاخام. قرب رأسه ليرى ابن مريم جيداً. قرح البكاء عينيك: تعب خفي يضنيك يا ولدي.

اعلمني بشكواك، لأسري عنك....

ــ شكوى واحدة؟ تغلغلت ابتسامة في سيمائه. شكوى واحدة؟ مجموعة! فزع الحاخام من سماع هذا الصراع المؤثر. وضع يده على ركبة الشاب، ليشجعه، قائلاً:

أنا أصغي لك، يا ولدي، قال بحنو، اكشف عما يشقيك، اسحبها من أعماقك؛ هي تتعفن في العتمة وتبتر الآمال، الضوء يبددها. لا تخف، احك!

لم يعد ابن مريم يعرف ماذا يقول، بما يبدأ، ما هو السر الذي يجب أن لا يكشفه، بما يعترف ليرتاح. الله، مادلين، الخطايا السبع... المصلوبون يطوفون في ذهنه ويمزقون أحشاءه؟!

داعب الحاخام ركبتيه، تأمله، ترجاه بصمت.

ــ ألا تقدر يا ابني؟ قال أخيراً بصوت خفيض، يتؤدة. ألا تقدر، يا ولدي؟

ـ ليس بوسعي، عم سمعان

أعندك إغواءات كثيرة؟ سأل همساً، بهدوء أكبر.

كثيرة، كثيرة، أجاب الشاب بخوف، كثيرة.

أنـا أيضاً، قـال الحاخـام العجـوز متنهـداً، أنـا أيـضاً، يـوم كنـت شـاباً، عانيـت كـثيراً..... عـذبني الله أنـا أيضاً، عجـم عـودي لـيرى قـدرتي علـى المقاومـة، كـم أصبر...... أنـا الآخـر أغويت كثيراً. كان بعضها فظيعاً، هذه لم ترهبني.

و أخـرى ذات وجـه هــادئ تمــلأه العذوبــة؛ هــذه كانــت تفـزعني، وأتيـت، كمـا تعـرف، إلى هـذه الـصومعة الـتي أتيتهـا أنت أيضاً، لتجد الراحة. إنما إلى حيث لاحقني الله وقعت في الفخ. أرسـل لـي إغـواء بثـوب امـرأة.... رزحـت، للأسـف، أمـام الإغـواء، ومنذئـذ ـ أكـان هـذا هـو مـا يريـده الله؟ ألهذا المني؟ منذئذ هدأت وركن الله أيضاً قلبي، تصالحنا، بنفس الصورة ستتصالح معه، وستشفى.

هـز ابن مريم رأسه،

ـ أظن أني لن أبرأ بهذه السهولة.

سكت، والحاخام إلى جانبه سكت أيضاً، تسارع تنفس الاثنين، لهثا.

ـ أنـا لا أعـرف بمـا أبـدأ، قـال الـشاب مبـدياً مـا يـوحي أنـه ينهض؛ لن أبدأ، أنا خجول!

لكن الحاخام قبض على ركبتيه بعنف

لا تـنهض، لا تـذهب. الخجـل إغـواء أيـضاً أهملـه. ابـق. سأطرح أنا الأسئلة عليك، اصبر، أنا أطرح الأسئلة وأنت تجيب لم أتيت إلى الصومعة؟

ـ لأخلص.

ـ تخلص ذاتك... مم... ممن؟

ـ من اللّه.

من اللّه! صرخ الحاخام، مضطرباً.

ـ يلاحقني، يغرس مخالبه في رأسي، في قلبي، في كليتي، يريد أن يدفعني بالقوة.....

ـ إلى أين؟

ـ إلى الهاوية.

ـ أي هاوية

ـ هاويته، يريدني أن أنهض وأن أحكي. لأحكي ماذا؟ ليس لدي ما أحكيه، أناديه، دعني! لكنه لا يتركني. آه! لا تتركني! إيه حسناً، سترى. سترى. سأجعلك تكرهني، تتقزز مني وتعوفني. آنئذ وقعت أنا أيضاً في كل الأخطاء.

ـ في كل الأخطاء! صاح الحاخام لكن الشاب لم يسمعه؛ كان الغضب والألم يضنياه.

ـ لماذا يختارني، أنا؟ ألم يكشف صدري، ليرى؟ كل الأفاعي تشتبك في داخلي وتفح، تفح وترقص. كل الخطايا. وبداية.....

انضغط حلقه، تسرب العرق من جذور شعره، وسكت.

والبداية؟ أردف الحاخام بصوت منخفض.

ـ مادلين! قال الشاب رافعاً رأسه.

ـ مادلين! صار وجه الشيخ أزرق.

ـ هذه خطيئتي، هذه خطيئتي إن كانت اختارت الدرب الذي اختارته. أنا الذي منذ طفولتنا رميتها في المتعة. أعترف بهذا، أصغى العجوز رابين، سترتجف. كنت في الثالثة من عمري، انزلقت إلى بيتك بعد أن غادره الجميع، أخذت مادلين بيدي، تعرينا، نمنا في الأرض، ضممنا نبتات أقدامنا، يالها من غبطة! أي خطيئة! منذئذ، مادلين ضاعت. ضاعت؛ لم تعد تستطيع العيش دونما رجل، دون رجال....

حدق إلى الشيخ الحاخام، لكن هذا وضع رأسه بين ركبتيه وصمت.

هذه خطيئتي، خطيئتي، خطيئتي! زعق ابن مريم ضارباً صدره، ثم بعد لحظة:

وإن لم يكن إلا هذا! لكني منذ الطفولة أخبئ في سريرتي، بعمق، ليس فقط إبليس العهر، بل أيضاً إبليس الحدس، ياعجوز رابين! كنت صغيراً جداً، لم يقو عودي على المشي وحدي بقدم ثابتة، أتقدم لصق الجدران، أتشبث كي لا أقع؛ أصرخ في نفسي، كشخص فظ:

"إلهي اجعلني إلهاً!" ولا أمشي، مستنداً إلى الجدران. في يوم أخذت عنقود عنب ضخماً بذراعي؛ مر بوهيمي، اقترب مني، قرفص ومسكت يدي: " أعطني العنب"، انحنيت وتأملتُ يدي؛ صرخت: "أوه!أوه! أرى صلباناً ونجوماً..." وراحت تضحك: "

أنت، ستكون ملك اليهود!" قالت لي. ثم غادرت. وأنا صدقتها، ازدهيت، ومنذئذ، عم سمعان، منذئذ ضيعت رشدي. لم أعترف بهذا لأحد حتى الآن، أنت أول من سمع هذا، عم سمعان؛ منذئذ فقدت صوابي.

سكت أيضاً، ثم بعد هذا:

ـ أنا هو الشيطان، أنا! أنا!

حرر الحاخام رأسه من ركبتيه، مد يده نحو الشاب:

ـ صه!

لن أسكت، قال الشاب مستثاراً، الآن فات الأوان، لن أسكت! أنا كذاب، منافق، رعديد؛ لا أقول أبداً الحقيقة، لا أملك الشجاعة. رأيت امرأة تعبر احمررت، خفضت رأسي، لكن عيني غصت بالفجور. لم أقم بحركة أخذ، ضرب، قتل، ليس لأني لا أريد، بل لأني أخاف. أخاف؛ أخاف. أردت التمرد على أمي، ضدي قائد المائة، ضد الله وأخاف؛ أخاف. لو بقرت بطني ستجد داخله أرنباً يرتجف، الخوف. الخوف. لا شيء آخر. هو أبي، أمي وربي.

أخذ العجوز رابين يديه وأبقاها بين يديه، ليهدأه. لكن الآخر اضطرب، خبط.

لا تخف، يا ولدي، قال له رابين، ليسري عنه. ما دمنا نملك شياطين في داخلنا، نقدر أن نصنع ملائكة. وما يسمى ملائكة، هم أبالسة نادمون، آمنوا. لكني أود أن أسألك عن

أمر واحد: هل عرف يسوع يوماً امرأة؟

ـ لا، أجاب الشاب بصوت وطيء.

ـ لا تبغى معرفة هذا؟

احمر الشاب. لم ينبس بكلمة؛ إنما راح دمه يدق صدغيه بعنف.

لا تريد أن تعرف هذا؟ كرر الشيخ السؤال.

أجل .... رد الشاب، همساً سمعه الحاخام بصعوبة. لكنه سرعان ما انتفض كمن يستيقظ وصرخ:

لا، لا أريد أنا أرغب عن هذا!

لماذا ؟ قال الحاخام، الذي لم يتيسر له أن يجد علاجاً لوجع الشاب؛ هو يعرف هذا بتجربته؛ يعرفه لأنه رأى لفيفاً من العته الموسين الذين كانوا يزبدون، يزعقون، يجدفون على الخالق، ولما كان العالم صغيراً: يأخذون امرأة فلا يعود العالم صغيراً؛ ينجبون أبناء ويرتاحون

ـ هذا لا يرضيني، قال الشاب بصوت حازم. هذا قليل جداً كما أرى.

ـ هذا لا يكفيك؟ قال الحاخام، مذهولاً. ماذا تريد إذن.

تسربت إلى ذهن الشاب صورة مادلين، مقوسة، متغطرسة، الشفاه، الخدان، العينان كحلاوان، الصدر عار؛ باشة وأسنانها تبص في عين الشمس. لكنها بينما كانت تتنزه وتتماوج بروحها بدلت جسمها، تضاعف جسمها؛ كان الشاب

يرى آنئذ بحيرة، بالتأكيد بحيرة طبريا، وحول هذه البحيرة آلاف الرجال والنساء، آلاف المادلين، الرأس مرفوع، الثغر باسم؛ تسقط الشمس على هذه الوجوه النيرة. هذه ليست الشمس. هذه هو نفسه، ابن مريم الذي يحنو عليهم والوجوه تفيض ألقاً. أهو الفرح؟ الحب؟ السلامة؟ لم يستطيع أن يميز. ما كان يرى إلا الضوء.

فيم تفكر؟ سأل الحاخام. لم لا ترد؟

انفجر الشاب:

أتصدق الأحلام عم سمعان؟ طلب مفاجئ!!. أنا أصدقها، ولا أصدق إلها . في يوم حلمت أنه ربطني أعداء غير مرئيين إلى سروة جافة وزرعت في جسمي سهاماً طويلة حمراء؛ سال الدم. وضع على رأسي إكليل من شوك وفي وسط الشوك تمايلت حروف من نار: " قديس مجدف." هذا القديس المجدف، هو أنا، حاخام سمعان. إذن لا تطرح علي أسئلة؛ كنت شرعت أجدف!

ـ إشرع بالتجديف، يا ولدي، قال بمودة الحاخام وهو يأخذ يديه. جدف، ليواسي نفسه

ـ عندي إبليس يصرخ: "أنت لست ابن النجار، أنت ابن الملك داود! أنت لست إنساناً أنت ابن الإنسان الذي تنبأ به داود"

أصغى له الحاخام، مقوس الظهر، وهيكله العظمي يرتعش. كان الزبد على شفتي الشاب الجافتين؛ وكان لسانه التصق بحلقه، عجز عن الكلام. ماذا قال أيضاً؟ قال كل

شيء، شعر أن قلبه فرغ. وبحركة مفاجئة حرر يديه من يدي الحاخام ونهض. واستدار نحو العجوز:

ـ أعندك أسئلة أخرى تطرحها علي؟ قال متهكماً.

كلا أجاب العجوز. أحس أن قواه انسفحت في الأرض وهلكت. كان قد انتزع في حياته كثيراً من الأبالسة من فم الناس؛ يأتيه الممسوسون من بقاع الدنيا ويشفيهم؛ إبليس الحمام، الغضب، المرض. أما هنا... كيف يصارع مع إبليس كهذا؟

في الخارج كانت ريح يهوى ما تزال تقرع الباب وتود الدخول. لم يسمع صوتاً آخر. لا ابن آوى في الأرض، لا غراب في الهواء؛ كل الكائنات لبدت خائفة، وانتظرت أن يعبر غضب السيد.

(11)

أسند ابن مريم ظهره إلى الجدار وأغمض عينيه. كان فمه مراً كالعلقم. ومجدداً طمر الحاخام رأسه في ركبتيه وفكر بالجحيم، بالأبالسة وبقلب الأنسان.... كلا ليس الجحيم والأبالسة في أعمق هوة في الأرض، إنهما في قلب البشر ـ حتى الأكثر فضيلة والأعدل. الله جحيم، الإنسان أيضاً جحيم والحاخام العجوز لا يجرؤ أن يفتح قلبه ليرى ما فيه.

بقيا برهة صامتين. صمت عميق. حتى الكلاب بكت الميت وغفت. بغتة سمع في الباحة صفير حلو ومؤثر.

كان جيروبوام أول من سمع؛ انتصب بقفزة. كلما هبت ريح يهوه، يسمع هذا الصفير اللذيذ في الباحة، ويثب الكهنة

غبطة. مالت الشمس، لكن الباحة ما تزال مغمورة بالنور وعيون الرهبان لمحت على البلاط إلى جانب الخزان الناضب أفعى ضخمة سوداء ذات رسوم صفراء، رفعت عنقها المنفوخ، قذفت لسانها وفحت، لم يسمع جيروبوام أبداً صوت مزمار له فتنة وسحر صوت الأفعى هذا. أحياناً في الصيف، لما يحلم هو أيضاً بامرأة، يراها هكذا، انزلقت كأفعى على الغطاء حيث ينام، تقرب لسانها من أذنه وتزفر.........

في ذلك المساء أيضاً وثب جيروبوام خارج حجرته واقترب ملطفاً شهيقه عن زفير الأفعى التي تفح راقبها وحدجها، فحت واحتدت بدورها. بكل هدوء، فمن الخزان الجاف، من التينات البرية حول الباحة، من الرمل خرجت أفعى ذات عرف أزرق، وأخرى خضراء ذات قرنين، وغيرهما صفر مبرقعة، وأخريات سود تماماً....... كانت تزحف بسرعة كالماء، ضموا إلى الأفعى الأولى تلك التي دعيت والتموا كلهم حزمة؛ تتماوج على بعضها وتستمتع فيما بينها، كومة من الأفاعي تعلقت في وسط الباحة، بقي العجوز جيروبوام هناك مستغرباً والماء يصل إلى فمه، هذا هو الحب، هكذا يتحد الرجل بالمرأة، قال لنفسه، ولهذا طردنا الله من الجنة. كان جسده الأحدب وبدون حب يتمايل إلى اليمين واليسار مع الأفاعي......

سمع الحاخام العجوز المزمار الساحر، رفع رأسه وأصغى. الأفاعي تتضاجع في هواء الله القائظ، قال لنفسه. الله ينفخ

برقاً يرغب في حرق العالم والأفاعي تنتصب وتمارس الحب......
بعد لحظة نسي العجوز روحه المفتونة بغتة ارتجف، كله يأتي من الله، اعترف لكل شيء معنيان معنى مرئي، وآخر خفي؛ لا يمسك مجموع الناس سوى المعنى المرئي؛ يقول: هذه أفعى؛ لا يذهب فكرهم بعيداً. لكن روح الله المعتاد يرى وراء الأفعى المرئية معناها الخفي؛ اليوم، في هذه اللحظة، بعد اعتراف ابن مريم، كان للأفاعي التي زحقت وفحت أمام باب الحجرة بالتأكيد معنى خفي..... أي معنى؟

تكور في الأرض، صدغاه يخبطان. أي معنى؟ عرق بارد غطى وجهه الملوح؛ أحياناً يركز نظره على الشاب الشاحب إلى جانبه، وطوراً العينان مغمضتان، الفم مفتوح، يصغي إلى الأفاعي في الخارج، أي معنى؟

علمه جده رئيس الأساقفة الأكبر يوشافاط Josaphat الذي كان يهدر. لما كان الكاهن سمعان في هذه الصومعة، علمه لغة الطيور. كان الحاخام العجوز يعرف ما يقول السنونو، الحمائم، النسور، وعده يوشافاط أن يعلمه لغة الأفاعي، لكنهما افتقدا الوقت.

بقي مدة طويلة يعود إلى التنهد؛ شعر بأن بروقاً سوداء وبيضاء تمزق روحه. أي معنى؟ أي رسالة؟ فجأة ندت عنه صرخة نهض، أخذ عصا رئيس الصومعة، اتكأ عليها: ـ يسوع، قال بصوت واطئ، يسوع كيف تحس قلبك؟

لم يسمع. كان مغموراً ببهجة صامتة. لأول مرة، بعد سنين، في هذا المساء، وقد قرر الاعتراف، الكلام، ميز واحداً من واحداً في عتمة قلبه، الأفاعي التي تفح في كيانه أعطاها اسماً، وهو يعطيها اسماً، خيل له أنها خرجت من صدره، أنها انزلقت وتركته، فارتاح.

يسوع، سأل أيضاً الحاخام، كيف تحس قلبك؟ مرتاح؟

انحنى، أخذه من يده:

تعال، قال له بمودة واضعاً إصبعاً على شفتيه.

فتح الباب، أخذه من يده. تخطى العتبة. الآن استدفأت الأفاعي والتصقت ببعضها. لم يبق منها في الأرض سوى ذيلها، كانت منتصبة حزمة وترقص في زوبعة الرمل الحارق، بحسب ريح الله؛ أحياناً بالعكس تتحول إلى حجارة وتسكن منهكة!!

تراجع ابن مريم لدى رؤيتها، لكن الحاخام ضغط على يده. مد العصى وبطرفها مس زرافة الأفاعي.

انظر، قال بلطف، وهو يتأمل الشاب مبتسماً، ذهبت.

ذهبت؟ أردف الشاب، معترضاً. ذهبت... إلى إين؟

ألا تحس أن قلبك ارتاح؟ لقد خرجت من قلبك.

حملق ابن مريم بعينيه وراح يتطلع تارة إلى الحاخام الذي يبسم له، وطوراً إلى الأفاعي التي كانت تنتقل سوية وهي ترقص واتجهت نحو الخزان الناضب. وضع يده على قلبه وشعر به يخفق بسرعة فرحاً.

لندخل، قال العجوز آخذاً يده من جديد.

دخلا، أغلق الحاخام الباب

ليمجد الله، قال بانفعال. راقب ابن مريم مع رعدة غريبة.

" هذه معجزة، قال لنفسه، كل شيء معجزة في حياة هذا الشاب الذي يقف الآن أمامي....." اخذته الرغبة طوراً في أن يمد يده ليباركه، وطوراً في أن ينحني ليضم قدميه...... لكنه أمسك. كم مرة خدعه الله؟ كم مرة وهو يصغي إلى الأنبياء الذين يتوافدون في هذا الزمن من الجبل أو من الصحراء، قال: " هوذا المسيح... إنه هو!" لكن اللّه كان يخدعه وقلب الحاخام، الذي كان مستعداً للتلاشي، وجد ثانية كفم ميت. أمسك إذن، بداية يجب البرهنة، خاطب نفسه، هي ذي الأفاعي التي كانت تقضّ مضجعه، ذهبت، قد تطهر. الآن ربما ينهض ويكلم الناس؛ آنئذ سنرى.

فتح الباب، دخل جيروبوام الأب المطبب. كان يحمل للضيوف وجبتهم البسيطة ـ خبز شعير، حبات زيتون وحليب. التفت نحو الشاب:

هذا المساء وضعت لك غطاءك في حجرة أخرى. هكذا سيكون لك رفاق.

لكن روح الزائرين كانت في مكان بعيد، لم يسمعا من عمق الخزان الجاف وصلهم من جديد غناء الأفاعي.

إنها تتزاوج، سخر الراهب؛ ريح اللّه تهب وهذه، لعنها اللّه!

لا تخف، تتزاوج!

نظر إلى الحاخام وطرف بعينه، لكن هذا راح يبلل خبزه بالحليب ومضغه، لأخذ القوى، لتحويل الخبز، الزيتون والحليب إلى ذكاء، لنكسب قدرة تمكننا من الكلام مع ابن مريم. كان الأحدب ينظر بطرف عينه تارة وطوراً إلى ذاك. أخيراً تعب وغادر.

كانا يأكلان الآن سوية، جالسين متقاطعي السيقان، الواحد قبالة الآخر ساكتين. كانت الحجرة مظللة؛ المقاعد الصغيرة، كرسي رئيس الأساقفة، المقرأ الذي يحمل كتاب النبي دانيال مازال مفتوحاً، يعكس نوراً مخملياً في العتمة هواء الغرفة ينشر رائحة البخور، في الخارج هدأ الهواء.

سكن الهواء، قال الحاخام، عبر الله.

لم يجب الشاب. " خرجت، خاطب نفسه، خرجت الأفاعي من داخلي...... ربما كان هذا هو ما أراده الله؟ وربما لهذا قادني إلى هنا، إلى الصحراء، لأشفى؟

نفخ، سمعته الأفاعي، تسللت من قلبي، غادرت..... ليتمجد الله!"

شبع الحاخام، ورفع يديه إلى السماء وشكر الله. استدار إلى رفيقه، وقال:

يسوع، هل فكرك هنا؟ أنا الحاخام من الناصرة، تسمعني؟

أسمعك، عم سمعان، قال الشاب، وارتج ليخرج من المحرق الغارق فيه .

الساعة، يا ولدي، جاهز ؟

جاهز، قال الشاب واجفاً . جاهز لأفعل ماذا ؟

أنت تعرف جيداً، ألم تطلبه مني ؟ أن تنهض وتتكلم .

لمن ؟

إلى الناس .

لأقول ؟

لا تقلق ؛ افتح فمك فقط ؛ اللّه لا يطلب منك شيئاً آخر إلا أن تحب الناس ؟

لا أعرف، أراهم وأشكو منهم . هذا كل شيء.

هذا يكفي، يا ولدي، يكفي. أنهض وكلمهم. لربما تضاعفت معاناتك، إنما يبتعد ألمهم. ربما لهذا أرسلك اللّه إلى العالم. سنرى!

ربما لهذا أرسلني اللّه إلى العالم... كيف تعرف يا شيخ؟ أردف الشاب.

لا أعرف؛ ما قال لي أحد شيئاً، إنما هذا ممكن. رأيت الشارات. لما كنت فتى، أخذت مرة الفخار وصنعت منه عصفوراً. وبينما كنت تداعبه وتحدثه، بدا لك أن أجنحة نمت عليه وطار من يديك ... هذا العصفور المصنوع من الفخار، ربما كان روح الإنسان، يا يسوع يا ولدي، روح الإنسان بين يديك.

نهض الشاب، فتح الباب بحذر، أخرج رأسه وأصغى. كانت الأفاعي قد سكتت تماماً؛ ففرح. التفت إلى الحاخام العجوز وقال:

باركني يا شيخ. لا تقل شيئاً آخر، لا أستطيع أن أسمع شيئا. هذا يكفي. أردف:

أنا تعبان، عم سمعان. سأنام. يأتي الله أحياناً في الليل ويجلو النهار. ليلاً سعيداً، عم سمعان!

أمام الباب كان الأب المعالج ينتظره، قال:

تعال، سأدلك إلى مكان السرير الذي هيأته لك. ما اسمك، يا فتى؟

ابن النجار.

أناجيروبوام. ويدعوني أيضاً كبير المجانين؛ وأيضاً: الأحدب؛ وهذا هو الأغلب. أنا أقوم بعملي، أقضم كسرة الخبز التي أعطانيها الله.

أي كسرة خبز؟

راح الأحدب المسكين يضحك:

ألم تستوعب، أيها الغبي؟ يا عزيزي. عندما ازدردها، عمتم مساء! يأتي الموت ويأكلني، أنا!

كف عن الكلام، فتح بوابة واطئة، وقال:

ادخل أنظر من هذا، إلى اليسار، في الزاوية، هذا غطاؤك! دفعه هازئاً إلى الداخل.

أحلاماً سعيدة، يا فتى. هنا في جو الصومعة، سترى نساء في نومك. امتلأ شدقه ضحكاً وأغلق الباب بجلبة.

توقف ابن مريم. الوقت ليل. بداية لم يميز شيئاً. شيئاً فشيئاً بدأت الجدران المبيضة بالكلس تلمع بتهيب، وبرقت جرة في حفرة في المحيط؛ في الزاوية، حدقت إليه عينان تبصان.

تقدم بهدوء، تلمّس اليدين الممدودتين. عثرت قدمه بالغطاء المطوي، توقف. العينان تتحركان وتتبعانه.

عمت مساء، يا رفيق، قال ابن مريم. لم يرد أحد.

يهوذا مكوراً كصرة ذقنه بين ركبتيه، ظهره إلى الجدار بتأمله؛ سمع تنفسه الثقيل السريع. –"تعال... تعال... تعال..." تمتم لنفسه. ضغطت قبضته على السكين باتجاه صدره. "تعال... تعال... تعال..." تمتم متأملاً ابن مريم الذي يتقدم ويأتي نحوه"تعال... تعال... تعال..." دعاه.

هناك، في الضيعة حيث ولد، في كريوث بإيدومية تذكر أن أخ أمه، يجر بنات آوى والأرانب والحجلان التي يريد قتلها. يتمدد بالأرض يثبت على الحيوان عينيه المتقدتين ويبدأ بالصفر والصفرة المرغوبة جداً، التماس، أمر : "تعال... تعال... تعال..." يرتجف الحيوان؛ يخفض رأسه، يلهث، ويدنو من الفم الذي يصفر...

فجأة راح يهوذا يصفر أيضاً. بداية كالهمس، بنعومة ورقة؛ لكن الصفير تصاعد أكثر فأكثر ساخطاً مهدداً، وابن مريم، الذي تمدد لينام انتفض خائفاً. من كان إلى جانبه؟ من

يصفر؟ شم رائحة حيوان مهتاج وفهم!!

ـ يهوذا، أخي هذا أنت. هتف بصوت خفيض.

ـ صالب، زعق الآخر ضارباً الأرض بكعبه مغتاظاً.

ـ يهوذا، أخي، كرر الشاب، الصالب يعاني أكثر من المصلوب. وبحركة مباغتة يدحرج الأصهب نفسه ويدور كلياً نحو ابن مريم.

ـ لقد عاهدت أخوتي الزيلوت les zelotes، عاهدت أم المصلوب أن أقتلك؛ أهلاً بك، أيها الصالب؛ أنا صفرت وأنت أتيت. نهض بوثبة، سحب مرتاج الباب ورجع تكور بالزاوية، وجهه ملتفت إلى يسوع.

ــ سمعت ما قلت لك؟ لا تبدأ الزئير. استعد.

ــ أنا مستعد.

لا تتسل بالصراخ. في الحال لأذهب من هنا في أثناء الليل!!

ـ أهلاً، يهوذا، أخي؛ أنا مستعد. لست أنت، بل هو الله الذي نفخ وأتت. نعمته رتبت كل شيء، أتيت أنت في الوقت المناسب، يهوذا أخي. في هذا المساء تطهر قلبي، ارتاح، أقدر أن أمثل أمام الله. تعبت من الحياة ومصارعته. أمد عنقي، يا يهوذا، أنا مستعد.

همهم الحداد وزوى حاجبيه. لا يحب هذا أبداً، يتعزز من لمس العنق مددوه بدون ممانعة، كرقبة حمل. يريد أن يدافع عنه، أن يتقابض الاثنان جسداً إلى جسد، أن يثور دمهما

وأخيراً، ما الذي يناسب الرجال، لتكون الشهادة نهائية ومكافأة عادلة للصراع.

مد ابن مريم رقبته وانتظر.

رمى الحداد عليه يده الضخمة ودفعه بعنف.

لماذا لا تقاوم؟ زعق . أي نوع من الرجال أنت؟ أنهض لنتصارع!

إنما لا أريد، يهوذا، أخي تقاوم؟ لم؟ ما تريد أريده أيضاً وهو أيضاً بالتأكيد ما يريده الله. لذا رتب الأمر بإتقان، أرأيت؟ ذهبت باتجاه هذه الصومعة وذهبت أنت بنفس البرهة. أنا وصلت وسرعان ما تطهر قلبي. أعددت نفسي للموت؛ أخذت أنت خنجري، قبعت في هذا الركن واستعديت لتقتل. فتح الباب ودخلت.. أتريد شارات أخرى، يا يهوذا، يا أخي؟

لاك ذو الشعر الأحمر شاربيه بثوران وصمت؛ كان دمه يغلي، يصعد إلى رأسه، يحمر، يبيض، ويحمر أيضاً دماغه.

ـ لمَ تصنع أنت الصلبان؟ هدر أخيراً.

طأطأ الشاب رأسه، هذا، هو سره، كيف يكشفه؟ كيف يقدر الحداد أن يقدم أيماناً للأحلام التي بعثها له الله، للأصوات التي كان يسمعها لما كان وحده، للمخالب التي انغرست في رأسه وأرادت رفعه إلى السماء؟ ولما فهم أنه هو لا يريد أن يقاوم، تمسك بالألم لكي لا يترك الأرض؟

لا أقدر أن أجيبك، يا يهوذا، أخي، اعذرني، قال بندم: لا

أستطيع...... غيّر الأصهب مكانه ليميز في العتمة وجه الشاب. تأمله بنهم، انسحب بسكينة واستند من جديد إلى الجدار. " أي نوع من الرجال أرى، لا أفهم، قال لنفسه. هل أرى إبليساً، أم إلهاً، من يرشده؟ يرشده بيد صارمة ـ لتحل عليه اللعنة.... لا يقاوم، هذه هي أبلغ مقاومة. أنا لا أستطيع أن أذبح حملاً؛ أذبح بشراً، حملاً لا أستطيع....."

وانفجر:

ـ أنت جبان، بائس، ليأخذك الشيطان! تضرب على خد لتقدم الخد الآخر! إن رأيت خنجراً، تسارع إلى مد رقبتك. هذا يقزز الرجل، الذي يذبحك.

اللّه لا يتقزز، غمغم بهدوء ابن مريم.

قلب الحداد الخنجر بيده، متردداً محتاراً. تخيل خلال لحظة أن ضوءاً يرتعش حول رأس الشاب الممدود. ارتخت مفاصل يديه، خاف.

رأسي تصلب، قال، إنما تكلم، لأعرف. من أنت؟ ماذا تريد؟ من أين أتيت؟ ما هذه الخرافات التي تحيط بك ـ العصا تزهر، الصاعقة، الاغماءات التي تحل بك وأنت تتنزه في الشارع، والأصوات التي تسمع، كما يبدو، في الليل؟ ما سرك، قل لي؟

الرحمة، يا يهوذا، أخي.

لمن؟ ممن تأخذ الرحمة؟ من بؤسك، من فقرك؟ أم تريد

الرحمة بإسرائيل؟ تكلم إذن إسرائيل؟ قل لي هذا ، تسمع، هذا فقط. معاناة إسرائيل هي التي تهدك؟

ـ معاناة الإنسان،يا يهوذا ، أخي

ـ دع الناس جانباً. هم أناس أيضاً ، اليونان، لتحل اللعنة عليهم، الذين ذبحونا عشرات العقود من السنين. والرومان أيضاً ، الذين ما زالوا يذبحوننا ويلطخون هيكلنا وإلهنا. لم تحل همهم؟ فكر بإسرائيل ـ ولتحل اللعنة بهم جميعاً.

أنا أرحم حتى بنات آوى وعصافير الدوري، يهوذا ، أخي. والعشب الأخضر.

هو! هو! سخر الأصهب. والنمل أيضاً؟

النمل أيضاً. كل هذا يصدر من الله، احدب على النملة وأرى في عينها السوداء واللامعة وجه الله.

ـ وإذا انحنيت على وجهي، يا ابن النجار؟

ـ هنا أيضاً أرى ، في العمق، وجه الله.

ـ ولا تخشى الموت؟

ـ لماذا أخشى الموت، يا يهوذا ، يا أخي. ليس الموت باباً يغلق، هو باب يفتح. هو يفتح ويدخل منه

ـ إلى أين؟

ـ إلى كنف الله.

تنهد واجفاً : "أليس من وسيلة لسده بأسفين، لحشوه وحصره، خاطب نفسه، لا يعطي مأخذاً ، لأنه لا يخاف الموت..."

أسند رأسه إلى يده. حدجه وجهد في أخذ قرار.

ـ إن لم أقتلك، قال بعد لاي، ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ لا أعرف. ما يقرره الله. أود أن أنهض لأكلم الناس.

ـ ماذا ستقول لهم.

من أين لي أن أعرف، يا يهوذا، أخي؟ افتح فمي والله يتكلم.

تكثف النور المحيط برأس الشاب، تألق وجهه، ونحل، تألمت عيناه، وفتنت عيناه الواسعتان بعذوبة لا توصف. خفض الأصهب عينيه، واضطرب. " لو علمت أنه سيبدأ الكلام وأنه سيوقظ قلب إسرائيل، ليهجموا على الرومان، لن أقتله."

ـ لماذا تتأخر، يا يهوذا، أخي؟ سأل. أم إن الله لم يرسلك لقتلي؟ ربما كان ما رسم مختلفاً، أنت ذاتك لا تعرف، تحدق بي وتحاول عبثاً أن تحمن؟ أنا مستعد للموت، مستعد للحياة. قرر أنت.

لا تستعجل، أردف الآخر بصرامة. الليل طويل، لدينا متسع من الوقت. ثم بعد برهة، صرخ غاضباً.

لا يمكن الكلام معك، لا أحد يخرج من هنا. أطرح عليك سؤالاً، تجيب شيئاً آخر. لا تسمح ليد أن توضع فوقك. كانت روحي أكثر اطمئناناً وكان قلبي أصلب قبل أن أراك وأسمعك... دعني هادئاً، حول اتجاهك ونم. أود أن أبقى وحدي. لأوجز الأمر نهائياً، وأرى ما عندي لأفعل.

أدار وجهه إلى الجدار وهو يجمجم.

تمدد ابن مريم على غطائه وصالب ذراعيه، وهدأ.

ـ" سيحدث ما يريد اللّه ويقضي"، خاطب نفسه. أغمض عينيه بثقة. خرجت بومة من وكرها، في الصخرة المقابلة، رأت أن زوبعة اللّه قد هدأت، طارت هنا وهناك وراحت تنعب بلطف وتدعو خلّها: " ذهب اللّه، قال لها، نحن في أمان ثانية، تعال، حبيبي! في الأعلى، فوهة الحجرة امتلأت نجوماً. فتح ابن مريم عينيه، رأى النجوم بغبطة؛ كانت تتحرك ببطء، تختفي، وغيرها يصعد؛ والساعات تتصرم.

تقلب يهوذا، مازال قاعداً، متصالب الساقين، على غطائه، حانقا، مبرطماً، ينهض أحياناً، يصل إلى الباب ويعود. كان ابن مريم يحدق إليه عبر حاجبيه وينتظر.

"سيحدث ما يريد اللّه"، قال لنفسه انتظر. الساعات تمر.

في الإسطبل المجاور، يهمهم حمل خائف. لابد أنه رأى في نومه ذئباً أو أسداً. نجمات جديدات تسطع في الشرق، نجمات كبيرات تهرب، تتخذ مواقع قتالية كالجيوش.

فجأة، في العتمة الحالكة صاح ديك، انتصب يهوذا بوثبة، بفشخة واحدة أدرك الباب، فتحه بعنف، وأغلقه، رنت خطواته الثقيلات على البلاط.

آنئذ استدار ابن مريم. رأى في الركن المقابل في العتمة رفيقته المخلصة، واقفة، يقظة.

ـ اعذريني أخية، قال لها، لم تأت الساعة بعد.

(12)

في هذا اليوم علت غيوم فوق بحيرة طبريا، كانت الريح ندية ساخنة، أزف الخريف، شمت الأرض رائحة ورقة الكروم والعنب الناضج من الصباح الباكر رجال ونساء توجهوا زرافات من كفر ناحوم؛ القطاف على قدم وساق والعناقيد المترعة بالسكر مكومة في الأرض تنتظر الرحيل.

تألقت البنات كحبات الثمار؛ كن أكلن عنب القبو وكانت شفاههن ملوثة. الشباب، قلقون، يثيرهم جنون الفتوة والمراهقة، يتطلعون خفية إلى البنات اللواتي يقطفن ويقهقهن. من كرمة إلى أخرى ليس سوى الجلبة والضحك. تجرأت البنات وسخرن من الفتيان وهؤلاء استجابوا ودنوا منهن. كان إبليس القطاف الخبيث يركض هنا وهناك مع ضحكة هازئة ويثير النساء.

كان بيت الشيخ زيبيدي الريفي الواسع يعم ويزم مشرعاً على مصراعيه. إلى اليسار في الباحة، غص القبو بالعنب، كان الفتيان يحملون إليه سلالاً طافحة بالعناقيد. أربعة عمالقة: فيليب، جاك، بطرس وحذّاء الضيعة، ناثانائيل، شيطان كبير ساذج، غسلوا ربلاتهم واستعدوا للدخول إلى القبو ودراسة العنب كان لكل فقير في كفر ناحوم كرمة صغيرة تعطيه خمرة العام وفي كل سنة يجلب موسمه إلى هذه المعصرة، يعصره ويحمل حصته من العصير. يأخذ الشيخ زيبيدي،

المستثمر زيادة أجرة المعصرة ويملأ جراره وبراميله للعام كاملاً.

كان العجوز زيبيدي قاعداً على درج خارجي عال. كان بيده قطعة خشب وموسى يعدد سلال كل قاطف. كان يحفظ في رأسه كل مالك، لكي لا يؤذي أحد غيره في الغد عند توزيع العصير!! كان زيبيدي عجوزاً جشعاً، لا يثق به أحد فلا بد من اليقظة.

كانت نافذة البيت المطلة على الباحة مفتوحة والعجوزة سالومي، سيدة البيت نائمة على مرقى، ترى وتسمع كل ما يجري في الباحة. تهمل الأم ركبتيها ومفاصلها، لا بد أنها كانت بارعة الجمال في صباها: أعضاء رقيقة، سمراء أو تميل إلى اللون القمحي، وعينان كبيرتان، كانت نبيلة المحتد؛ تنتسب إلى ثلاث قرى: كفر ناعوم، مجدلا، بيت صيدا... كان قد أتى ثلاثة راغبين إلى أبيها، الغني مجهز السفن، مع كل منهم لفيف من الأصدقاء والجمال والسلال التي تغص بالهدايا. وزن العجوز الماكر جيداً في رأسه جسد، روح وثروة كل منهم واختار هذا، زيبيدي. وزوّجها منه وعاشت سعيدة؛ أما الآن جميلة الجميلات عجوز، ذبلت مفاتنها، زوجها العجوز، الصارم أبداً يقضي الليل خارجا ويتسلى مع الأرامل.

إنما في ذلك اليوم كانت سيماء العجوز سالومي ألقة، في الليل وصل من الصومعة المقدسة ولدها الحبيب يوحنا. كان فعلاً هزيلاً وشاحباً أضناه الصيام والصلاة؛ وهي الآن ستبقيه

في رعايتها، لن تسمح له بالسفر، ستهيء له أن يأكل ويشرب جيداً ليستعيد قواه، وتسترد قسمات وجهه ألوانها. اللّٰه خير، نحن نعظم مجده، اللّٰه خير، إنما لا يجوز أن يسمح لنا بامتصاص دم أولادنا. الصيام جيد لكن بحذر، والصلاة أيضاً، باعتدال؛ اللّٰه والإنسان يجدان في الاعتدال حسابهم، دون مبالغة، خاطبت العجوز سالومي نفسها، كانت تحدق بقسوة نحو الباب، منتظرة أن يظهر ابنها يوحنا من الكرم حيث يقطف مع غيره، وهو آخر من أنجبت.

تحت شجرة اللوز الغاصة بالثمار في وسط الباحة يدق يهوذا الأصهب دونما كلمة بمطرقته ضربات مزدوجة ليسوّى حديد براميل الخمر. لو نظر إليه من جهة اليمين، كان وجهه عابساً، ناضحاً بضيق الخلق؛ وإن نظر إليه من جهة اليسار كان قلقاً وحزيناً. منذ أيام غادر الصومعة كلص، يجول في القرى ويعد البراميل للخمر الجديد. يدخل البيوت، يعمل، يصغي إلى الحديث، يسجل في ذاكرته أعمال وحركات كل الناس ليحمل كل شيء إلى الأخوية. لكن من يعرف ماضي الأصهب، الضجوج، المخاصم؟

كان قد اختفى، منذ أن ترك الصومعة، ضاعت أخباره.

إيه، افتح إذن فمك، يهوذا الأسخريوطي، أيها الأصهب الشرير، يصرخ به زيبيدي، فيم تفكر؟! اثنان واثنان يساوي أربعة. ألم تحسب للأمر حسابه؟ افتح إذن فمك، صديقي

المسكين، قل شيئاً ما، هوذا القطاف، ليس شأناً بسيطاً في هذا اليوم حتى الخراف ذات الخمس القوائم ترغب في الضحك!

لا تغره بالإغواء، عجوز زيبيدي، قال فيليب. يبدو أنه ذهب إلى الصومعة ويرغب في أن يكون كاهناً. ألم تسمعه يقول في الشباب شيطان وعند الشيخوخة كاهن!

التفت يهوذا، رشق فيليب بنظرة خبيثة الطوية، إنما لم يقل شيئا كان فيليب يقززه، ليس هذا رجل ثرثار مدعياً، في آخر لحظة مسكه الخوف، رفض الانتساب إلى الأخوية: " عندي خراف، كيف أتركها؟" انفجرت ضحكة العجوز زيبيدي، استدار نحو ذي الشعر الأحمر، وزعق:

ـ احذر أيها البائس. مرض الصومعة سار، انتبه، كي لا يصيبك! كاد المرض يدب المرأة، هي المرض أتى إلى هنا، تعلم جيداً فضائل البسطاء مع العجوز رئيس الدير، أنا من قال لك هذا. الذهاب إلى أين؟ أليس مجنوناً؟ هناك، في الصحراء، الجوع، العطش، التذلل والله. هنا الأكل ، والخمر، والنساء والله. الله في كل مكان؛ إذن لم تذهب إلى الصحراء بحثاً عنه؟ ماذا تقول في هذا، أنت، يهوذا الأسخريوطي؟

لكن الأصهب كان يضرب دوماً ضربات مزدوجة ولا يجيب. ماذا يقول له؟ كل شيء يصل إلى هذا العجوز في وقته، كيف يقدر أن يفهم شدائد الآخرين؟ والله نفسه الذي لثلاث مرات حطم غيره إلى ألف قطعة، بينما يعتني كبؤبؤ عينيه

بـالعجوز زيبيـدي، هـذا القـذر الـشره الـشحيح، ويداريـه. يأتيـه كمعطـف صـوفي في الـشتاء، كلبـاس نـدي مـن أجـل الـصيف، لم؟ كيـف يـراه؟ أيأكـل الغـم مـن أجـل إسـرائيل، هـذا العجـوز الفاسـق؟ يـدبر أمـوره جيـداً. يحـب البؤسـاء الرومـان، لأنهـم يصونون له رزقه. الله يحميهم، قال، يحافظون على النظـام، إن ذهبوا، يهاجمنا الخارجون على القـانون والمشردون وآنئـذ تـضيع أرزاقنـا.... إنمـا لا تقلـق، أيهـا العجـوز الوسـخ، اللحظـة آتيـة. مـا ينـساه الله ويهمـل فعلـه، جماعـة الزيلـوت، بـاركهم الله، يتذكرونه ويفعلونه..... صبراً يهوذا، لا تأت بكلمة، صبراً، يوم الصاباؤوت sabaoth قادم!

في بحـر هـذا الوقـت، كـان العمالقـة الأربعـة قـد نظفـوا أقـدامهم جيـداً ووثبـوا إلى المعـصرة. درسـوا العنـب، غاصـوا فيـه حتى الركـب، انحنوا، أخذوا البذور بالقبضات، أكلوا لطخوا لحاهم بالعصير: كانوا أحياناً يأخذون يدي بعضهم ويرقصون، وأحياناً أخرى يضرب كل منهم الأرض برجليه ويزعق وحده.

أسـكرتهم رائحـة العـصير، ولـيس فقـط الرائحـة، بـل عـبر البـاب المفتـوح، رأوا، في البعيـد بـين الكـروم القاطفـات ينحـنين سـامحات برؤيـة مفـاتهن أعلـى مـن الركـب، ونهـودهـن المترجحـة فوق الكرمة كما العناقيد.

كـان الرجـال الأربعة يـرون هـذا ويضطرب عقلهم ـ ليـست هـذه معـصرة، ليـست هـذه أرض وكرومهـا، هـذه هـي الجنـة.

وهـذه العجـوز صـاباؤوط، جالـسة في أعلـى الـدرج الخـارجي، بيدها قرمة طويلة وسـكين وتسجل مـا لـكل منهم، كـم سلة حمل وكم جرة خمر جلب .

لعمري، قال بطرس، لو أتى اللّه في هذه اللحظة وقال لـي "إيه، بطـرس، عزيـزي، بطرسـي، اليـوم أنـا طيـب المزاج، تعـال إلـي واطلـب كرامـة أحققهـا لـك؛ مـاذا تريـد؟ ـ أدوس العنـب، ربي، أجيب دوس العنب في الأبدية!"

ألا تـشرب خمـراً، أيهـا المغفـل الكـبير؟ قـال لـه زيبيـدي بقسوة.

لا مـن أعمـاق قلـبي. أدوس العنـب! إنـه لا يـضحك. كـان محيـاه جـاداً، مـستغرقاً. توقـف لحظـة، انـسحب مـن الـشمس. كـان عـاري الجـذع، علـى قلبـه سمكـة ضخمة مرسـومة تسوى لطخـة سـوداء. قبـل عـدة أعـوام وثمـة فنـان، محكـوم سـابقاً بالأشغال الشاقة، بالإبرة، بمهارة حتى قيل كأنه يحـرك ذيلـه، يسبح فرحاً، يندس في شعر صدره الجعد. فوق السمكة صليب بأربعة أغصان وصنارات.

لـكن فيليب فكـر بخرافه؛ لا يبالي بحفر الأرض، بالعناية بالكروم وعصر العنب. سخر من بطرس:

آه! ما أحلى عملك عصر العنب في الأبدية. لو كنت أنا لطلبت منـك أن تـصير الأرض والـسماء بيـداء خـضراء، غاصـة بالمـاعز والنعاج، لترعـى، وتـترك الحليـب يجـري مـن أعلـى الجبـل، ويسرح

كنهر نحو السهل، ويشكل بحيرات يشرب منها الفقراء؛ وفي كل الأمسيات نجمع الرعاة بين يدي الله سيد الرعاة، لنوقد النار، نشوي الذبيحة ونقص الحكايات، هذه هي الجنة!

اذهب إلى الشيطان، أيها المنذهل، تمتم يهوذا طارفاً بنظرة حاقدة.

كان الفتيان يدخلون ويخرجون عراة مشعرين، مع خرقة ملونة حول الكليتين؛ كانوا يسمعون هذه الأحاديث المفككة ويضحكون. كان عندهم هم أيضاً، جنّتهم، لكنهم لا يعترفون، يفرغون سلالهم في المعصرة، يتخطون العتبة بقفزة ويذهبون إلى القاطفات.

فتح العجوز زيبيدي فمه ليضع هو الآخر حبة ملح، لكنه بقي مندهشاً: زائر غريب ظهر في الباب وحدق إليهم. كان حافيا، مشعث الشعر، مرتدياً جلد عنزة مربوطاً إلى عنقه وكان محياه أصفر كقطعة كبريت. وكانت عيناه السوداوان تنزان شرراً.

كفّت رجلاه عن خبط الأرض، ازدرد زيبيدي كلمته واستدار الرعيل نحو الباب. من يكون هذا الميت الحي، الواقف في العتبة؟ انقطع الضحك، لاحت الشيخة سالومي خلف النافذة حدجت. وأطلقت صرخة:

اندريه!

أخيراً أندريه، وليدي، صاح زيبيدي، ما هذه الهيئة؟ أنت

آت من الجحيم، أم ذاهب؟

وثب بطرس من المعصرة، أخذ أخاه من يده؛ تأمله بعذوبة وخوف دونما كلام. إلهي، أندريه هنا بشحمه وعظمه، المعروف ببهائه، أول الصيادين أول المحتفين بالعيد، خطيب أجمل صبية في القرية ريتا الشقراء؟

كانت غاطسة في الليل في الغدير مع أبيها؛ أرسل الله هواء رهيبا في تلك الليلة وأغرقها، فذهب اندريه مجنوناً من الألم وسلم رجليه وقبضتيه الموثوقتين إلى الله؛ من يعرف إن كانت ريتا التحقت بالله، خاطب نفسه، سيلقاها في داخله. هو لا يبحث عن الله، بل عن خطيبته.

ما انفك بطرس يحدق فيه بخوف. بأي حالة أعطيناه لله، وكيف أعاده لنا!

يا هذا، يا هذا، ما به كي تحدق إليه هكذا وتكلمه كل هذه المدة؟ صاح زيبيدي ببطرس. دعه يدخل خوفاً من أن تهب الريح وترميه أرضاً! أندريه، ولدي، اقترب، خذ عنقوداً وكل. ما زال عندنا خبز، المجد لله، كل لتأخذ شيئاً من الصحة، لكي لا تكون بهذه الحالة أمام ابن يونان، أبيك المسكين، فزعاً من أن يغرق ثانية في سقمه!

لكن أندريه رفع ذراعه الضافرة، وصاح:

ألا تخجلوا، ألا تخافون الله؟ العالم يموت، وأنتم هنا تعصرون العنب وتضحكون ملء أشداقكم!

أوه لا لا! أيضاً يأتينا شخص آخر يقص علينا أحداثاً وحكايات! تمتم زيبيدي. والتفت إلى أندريه مروعاً:

هلا تركتنا وشأننا أنت الآخر؟ عندنا ما يكفينا حتى الآن. أهذا ما يقوله نبيك، المعمدان؟ قل له بلساني أن يغير اللازمة. نهاية العالم دنت، كما يقول، ستفتح القبور، ويخرج منها الموتى؛ الله، كما يبدو، سسينزل من السماء. للدينونة الأخيرة! سيفتح السجلات ويا ويلتاه! أكاذيب، ترهات! لا تصغوا، يا أولاد، إلى العمل، ادرسوا العنب!

توبوا! توبوا! دمدم ابن يونان. تخلص من ذراعي أخيه وأتى لينزرع في وسط الباحة. وقف أمام العجوز زيبيدي، رافعاً إصبعه إلى السماء

- نصيحة طيبة، أندريه أردف زيبيدي:أقعد وكل، تناول شيئاً من الخمر، لتذوق طعمه الجيد. لقد أضناك الجوع أيها البائس.

ـ الحياة الحلوة جنتك، عجوز زيبيدي، أجاب ابن يونان: لكن الأرض تنشق تحت قدميك - الله هو هزة أرضية - وستلتهم معصرتك، خوابيك وأنت ذاتك ستلتهمك أيضاً يا ملعون البطن!

استشاط غيظاً، جال بنظره حول نفسه وصرخ :

قبل أن يصير هذا العصير خمرا، تكون نهاية العالم! البسوا قميصاً من شعر الخيل أو الليف، ذروا الرماد على الرأس، الطموا صدوركم واصرخوا: هذه خطيئتي؛ هذه

خطيئتي! الأرض شجرة، هذه الشجرة منتنة، المسيح يأتي مع بلطة!

ترك يهوذا مطرقته. انشمرت شفته العليا، لمعت أسنانه العليا بالشمس. لكن الشيخ زيبيدي لم يتمالك نفسه.

إن آمنت بالله، يا بطرس، خذه معك وغادرا المكان! هنا عندنا عمل. يصل! ... يصل !... مرة السجلات وها هو يمسك بلطة الآن، هذا إذن. هلا ذهبتما وتركتمونا هادئين، أقول لكما، يا مستغلي الشعب؟ هذا العالم بوضع جيد، جيد الحال، يا أولاد، إذن دوسوا الأعناب ولا تخشوا!

ربت بطرس برفق على ظهر أخيه ليهدئه:

ـ اسكت، قال له بصوت خفيض. اسكت يا أخي لا تصرخ. الدرب أتعبك، هلم إلى البيت، لترتاح. سيراك والدنا العجوز، فيتحلحل أساه. وأخذه من يده وبهدوء ورفق بالغ، وكما لو كان أعمى قاده أخذا الدرب إلى الحارة الضيقة واختفيا.

انطلقت ضحكة الشيخ زيبيدي

ـ أنت مسكين يا ابن يونان أيها الصياد النبي، لا أريد السير في دربك! لكن العجوز سالومي فتحت آنئذ فمها؛ شعرت أيضاً بنظرات اندريه تكويها:

ــ زيبيدي، قالت وهي تهز رأسها الأبيض، زيبيدي: الإبليس العجوز زن كلابك، لا تهزأ، فوقنا ملاك يسجل، وما

تسخر منه يصيبك!

ـ أمي محقة، قال جاك الذي مايزال يصرف أسنانه؛ بشعرة واحدة يحدث معك ما حدث مع يوحنا ابنك العزيز. وأيضاً، يبدو لي أنك أنت لن تهرب. قال لي الفتيان الذين يحملون السلال إنه لا يقطف، بل هو قاعد يثرثر مع النسوان، عن اللّه، الصيام والأرواح الخالدة... أنا أيضاً لن أسلك دربك يا أبي.

ضحك ضحكة جافة، لم يستطع أن يحس أن أخاه محاط بالعناية وكسلان. فراح يدوس العنب بغضب.

صعد الدم إلى رأس زيبيدي الضخم؛ لم يعد يمسك نفسه ويحتمل هذا الابن البكر، كان شبيهه تماماً. ولو لم تظهر في هذه اللحظة في العتبة مريم، زوجة يوسف الناصري. مستندة إلى ذراع يوحنا، لوقعت خصومة. كان قدماها وكعباها مغمورين بالغبار والدم لطول المشي. منذ أيام تركت بيتها، انتقلت من قرية إلى أخرى باحثة عن ابنها البائس ونائحة عليه. أخذ اللّه عقله، غادر درب الرجال، قالت بتنهيدة، وهي تبكيه الآن حياً. إنها تسأل، تربك وتزعج الناس بالأسئلة، ألا يعرفه أحد، هو فتى ناهض لطيف حاف، يرتدي ثوباً أزرق وحزاماً من الجلد الأسود على حوضه، أرأيتموه؟ لم يره أحد. الآن فقط، بمساعدة ابن زيبيدي، تسير هي وراء آثاره؛ هو في الصومعة، في الصحراء، لبس جلباباً أبيض، يركع على الأرض ويصلي... أفادها يوحنا، قالت له كل شيء والآن مستندة إلى ذراعه

ولجت باحة العجوز زيبيدي لترتاح لحظة، قبل أن تأخذ درب الصحراء. نهضت العجوز سالومي بنبل.

ـ أهلاً بك، عزيزتي، ادخلي.

سحبت مريم منديلها ألى قرب عينيها، انحنت، اجتازت الباحة بعينين خجولتين، أخذت يد صديقتها العجوز وراحت تبكي.

ـ البكاء غلطة كبيرة، يا ابنتي، أردفت العجوز سالومي وأجلستها إلى جانبها. ابنك الآن تحت سطح اللّه، هو في أمان.

ـ تعب الأم رهيب، يا سالومي، أجابت مريم بتنهيدة. لم يرزقني اللّه سوى ولد لكنه مهيب.

سمع العجوز زيبيدي شكواها؛ لم يكن سيئاً، لما تصان مصالحة؛ نزل من مرقاه لمواساتها.

ــ هذا هو شأن الشاب، يا مريم، قال لها، هذه هي الشبوبية لا تتألمي، تعبر. هي كالخمر، السعيدة، يصحو منها شاربها ويدخل تحت النير دون تدخل. ابنك سيصحو، يا مريم، ويحك، ابني الذي ترينه، بدأ يصحو الآن ليتمجد اللّه!

احمر يوحنا، لكنه بقي ساكتاً، دخل البيت ليجلب الماء البارد والتين الناضج ليقدمه للضيفة. المرأتان جالستان قرب بعضهما، رأساهما مستندان إلى بعضهما، تتكلمان بصوت منخفض عن الابن الذي شده اللّه. كانتا تتمتمان خوف أن يسمعهما الرجال، كي لا يتدخلوا ولا يفسدون الوئام الأنثوي

العميق مهما تتبادلان الحديث عن المعاناة

يصلي، قال لي ابنك يا سالومي، يصلي، صارت يداه وركبتاه حصى من كثرة السجود والنهوض، ويبدو أنه لا يأكل، إنه يضمر، هو أشبهُ بطائر يرى بجناحين في الهواء؛ يرغب عن شرب الخمر، وحتى الماء، لكي يرى، كما يبدو، الملائكة... حتى متى يستمر هذا الداء، يا سالومي؟ عمه الحاخام الذي شفى عدداً من الممسوسين، لا يستطيع شفاء ابني... لماذا لعنني الله، يا سالومي، ماذا فعلت له؟

وضعت رأسها على ركبتي صديقتها العجوز وراحت تبكي.

تقدم يوحنا مع إبريق ماء وخمس أو ست تينات على ورقة شجرة تين.

لا تبكي يا امرأة، قال لها ووضع التينات في مريولتها. ابن ابنك تحت يركض ضوء طاهر لا يراه الآخرون، لكني رأيته في ليلة يلمسه ويغمر وجهه وفزعت. والعجوز هاباكوك يرى في كل مساء في نومه رئيس الدير المتوفى. كان يمسك كما يبدو، ابنك بيده، يدور معه من حجرة إلى أخرى ويدل الآخرين إلى تميزه. كان ساكتاً، يدل إليه فقط مبتسماً. فزع العجوز هاباكوك، وثب عن سريره إلى الأرض، أيقظ الرهبان وسكتوا جميعا لشرح الحلم. ماذا يمكن أن يقول لهم رئيس الدير؟ لم أبرز القادم الحديد مبتسماً. وفجأة البارحة، في يوم

سفري، كان عندهم أضاءة ربانية، أوضحوا معنى الحلم: هذا هو الذي يحب أن يصير رئيس الدير، هذا ما يأمر به الميت، هذا هو الذي يحب أن يصير رئيساً للدير... وفي الحال ذهب كل الكهنة إلى ابنك؛ سقطوا على قدميه هذه إرادة اللّه قالوا له، أن تصير رئيس الدير. لكن ابنك رفض. ـ لا، لا، ليس هذا دربي، لست أهلاً لهذا، أنا ذاهب! عندما غادرت الصومعة، كنا في وقت الظهر، سمعت فرقعة صوته، كان يرفض، هدده الكهنة بحبسه في غرفة ووضع حارس يمنعه من الذهاب.

ارتاحي، يا مريم، قالت سالومي العجوز. كان وجهها الهرم منوراً. أيتها الأم السعيدة! إن اللّه نفخ في أحشائك وأنت لم تحسي سمعت حبيبة اللّه وهزت رأسها، ومنكسرة النفس مكروبة، تمتمت:

ـ لا أريد أن أنجب ابناً قديساً. أود أن يكون رجلاً كالآخرين، أن يتزوج، أن ينجب لي أحفاداً. هذا هو طريق اللّه.

هذا طريق الإنسان، قال يوحنا بصوت خفيض كما لو كان خجولاً بعدم الرضى. إن طريق ابنك هو طريق اللّه يا امرأة.

صراخ وفرقعات ضحك سمعت من الكروم. صبيان يحملان السلال دخلا الباحة مهتاجين:

أخبار سيئة يا معلم، صرخا وأطلقا الضحك، يبدو أن أبناء مجدلا انتفضوا، أخذوا الحجارة وراحوا يطردون عروس البحر ليقتلوها!

أي عـروس بحـر؟ صـرخ دارسـو العنـب وأوقفـوا رقـصهم. مادلين؟

مـادلين بالتأكيـد أمانينـا معهـا! بغّـالان عـابران نقـلا لنـا الأخبـار يبـدو أن قائـد عـصابة برابـا Barrabas وصـل البارحـة السبت من الناصرة إلى مجدلا وبث الرعب.

هـوذا واحـد آخـر، لـيكن ملعونـاً! هــر زيبيـدي العجـوز غاضباً. هـو زيلـوت، كمـا يقـول، أتـى بوجهـه الوحـشي لينقـذ إسرائيل! ليمت، النموذج القذر! ..... والآن؟

آنئـذ عبر مـساء مـن أمـام بيت مـادلين ووجـد الباحـة غاصـة بالناس؛ يعمل المحرّم حتى في اليوم الحرام، يوم السبت sabat! أرأيت أحد يـرى اللّه ولا يخـاف؟ هجـم بارابـا علـى الباحـة، شـهر سـكينة، وشـهر التجـار سـيوفهم، وصـل الجـيران؛ باختـصار، كانت معمعة طاحنة. جرح فيها اثنان من رجالنا، امتطى التجار جمالهم وهربوا بسرعة. حطم بارابا البـاب ليجـد الجميلـة موضـع الـسؤال ويـذبحها. لكـن لا أحـد! الطير طـار. خرجـت مـن البـاب الآخر، لا أحد رأى ولا أحد عرف! خرجت القرية كلها وراءهـا؛ لكن الليل خيم، لا سبيل للعثور عليهـا. طلـع النهـار، ذهبـوا إلى كل الأمكنة، فتشوا، كانوا وراءها، يبدو أنهم ميزوا خطاها على الرمل، نحو كفر ناعوم!

لـتكن محـل الترحيـب بيننـا، أيهـا الأولاد! قـال فيليـب، ماسحاً شفتيه الـضخمتين، كـشفتي التيس. لا تفتقـر الجنـة إلا

لها، لقد نسيناها: حواء، أهلاً بها!

تعمل طاحونته حتى يوم السبت، أردف سليم النية ناثانائيل، وابتسم بخبث تحت شاربيه. تذكر أنه في أحد الأمسيات (سهرة يوم السبت) استحم، تزين، ارتدى ثياباً نظيفة، قد أتى إغواء الحمّام، أخذه من يده وذهبا إلى مجدلا. ذهبا إلى مجدلا مباشرة إلى بيت مادلين – ليباركها اللّه! الفصل شتاء، أعمال الطاحون غير رائجة. بقي ناثانائيل وحده طيلة يوم السبت يطحن..... ناثانائيل يفرح للراحة، ثمة خطيئة ضخمة، بالتأكيد؛ نعم، ثمة غلطة جسيمة، لكن اللّه الذي به نثق، يسامح. كان ناثانائيل فقيراً، متضايقاً. بدون ماض يعيش كل حياته جالساً أمام طاولة صغيرة، في إحدى زوايا شارع بقريته يصنع قباقيب للفلاحين وأحذية ضخمة للرعاة..... أهذه حياة؟ آنئذ في يوم عاش هو الآخر عيشة هنية، ليوم واحد فقط وثمين، عرف في حياته الفرح هو الآخر كباقي الناس؛ يمكن أن يحدث هذا في يوم السبت، اللّه قال هذا، يعرف هذه الأشياء ويعذر......لكن زيبيدي العجوز تجهم، وتمتم:

أيضاً قصصاً أخرى. لن يذهبوا إلى أبعد ليقطعوا الحلقة! أحياناً هم أنبياء، أحياناً مومسات، وأحياناً صيادون يبكون، وطوراً أكثر من بارابا واحد، عندي كفاية! واستدار نحو عاصري الأعناب: إيه، أنتم، إلى العمل، أعزائي دوسوا العنب.

في البيت سمعت سالومي العجوز ومريم، امرأة يوسف

أنباء، حدقتا ببعضهما وسارعتا إلى خفض الرأس، دونما تعليق. ترك يهوذا مطرقته، خرج واستند إلى دعامة باب الشارع. سمع كل شيء، حفظ كل ما سمع، وألقى نظرة حقد وغل على زيبيدي العجوز.

وقف في الباب وأصغى، سمع زعيقاً، رأى الغبار في الجو، رجال يركضون، نساء هائمات: أمسكوها.. أمسكوها! وقبل أن يتسنى الوقت للرجال الثلاثة للوثب من المعصرة وينزل المحتكر بسرعة من درجه الخارجي، دخلت مادلين لاهثة بأسمالها الماحّة ووقعت على أقدام سالومي العجوز: وصرخت،

المؤازرة، يا امرأة، العون، كادوا يصلون، هم ورائي!

رأفت سالومي العجوز على الخاطئة، نهضت، أغلقت النافذة، التفتت إلى ابنها، وقالت:

ازلج الباب، يا ولدي، ثم خاطبت مادلين:

قرفصي بالأرض، اختبئي.

تأملت مريم زوجة يوسف منحنية هذه المرأة الضالة برأفة ورعب. النساء الشريفات فقط يعرفن قيمة الحفاظ على العفة ومرارة هذا الوفاء وصعوبة التمسك به؛ حنت عليها. إنما في نفس الوقت بدا لها هذا الجسد الخاطئ وحشاً أزعباً، أدكناً، خطراً؛ لولا القليل لاختطف هذا الوحش ابنها يوم كان في العشرين ربيعاً؛ لكنه هرب.... هرب من المرأة، قالت مريم متنهدة، هرب من المرأة لكن إلى الله.......

وضعت العجوز يدها على رأس مادلين الكاوي، وقالت لها بحنو:

ـ لم تبكين، يا ابنتي؟

ـ لا أريد أن أموت، أجابت مادلين، الحياة حلوة لا أريد!

مدت زوجة يوسف يدها أيضاً، لم تعد مادلين تخيفها. ولم تقززها، لمستها:

لا تخافي، قالت لها مريم، اللّه يحميك، لن تموتي

ـ كيف تعرفين هذا، خالة مريم؟ أردفت مادلين. وبرقت عيناها.

يهبنا اللّه الوقت لنندم ونثوب يا مادلين، أجابت أم يسوع بثقة.

بينما كانت النساء الثلاث يحدثن وتكاد المعاناة تجمعهن، انطلق صراخ حاد من الكروم: "وصلوا! وصلوا! ها هم! " وبينما هبط زيبيدي عن الدرج، ظهر العمالقة مهتاجين في باب الشارع وبارابا ثائراً زائراً اجتاز العتبة.

يا هذا! زيبيدي العجوز، صرخ: بإذنك وحتى بدون إذنك، سندخل، باسم إله إسرائيل!

وقبل أن يتسنى الوقت للمعلم العجوز كي يفتح فمه، خلع بارابا بضربة كتف باب البيت وقبض على مادلين من جدائلها.

اخرجي من هنا! اخرجي من هنا، يا عاهرة! زعق وجرها إلى الباحة.

وصل فلاحون من قرى أخرى ودخلوا بدورهم، استلموا مادلين من ذراعها في قلب الهياص والضحك، اقتادوها إلى حفرة قرب البحيرة ورموها فيها. ثم تبعثر الرجال والنساء وملأوا مراييلهم بالحجارة.

مع ذلك وثبت سالومي العجوز من السرير، ورغم الآلام التي تضنيها نزلت إلى الساحة عنفت زوجها وصرخت:

يغمرك الخجل، زيبيدي العجوز. تركت الخارجين على القانون يغشون بيتك وينتزعون من يديك امرأة تلتمس رحمتك.

ثم التفتت إلى ابنها جاك الذي بقي واقفاً في وسط الباحة، محتاراً.

وأنت تقتفي خطى أبيك، ألا تخجل؟ لا تساوي خيراً منه، أنت أيضاً، الأهم هو ربك؟ اسرع احم امرأة تريد كل القرية، بدون حياء، قتلها.

حالاً، لعينيك يا أمي، اهدأي رد الابن، الذي لا يخشى أحداً في العالم مثل أمه، يسيطر عليه الرعب كلما وقفت أمامه حازمة، لأنه أحس أن هذا الصوت القاسي العنيف ليس صوتها هي، هذا صوت عتيق، صار أجشاً في الصحراء من الرهط حتى الرأس الصارم، رهط إسرائيل.

استدار جاك إلى اثنين من رفاقه، فيليب وناثانائيل:

هيا إليهم، قال، بحث بعينيه بين البراميل عن يهوذا؛ قد ذهب.

أنا أيضاً ذاهب إلى هناك، زيبيدي دون أن يفكر، هو يخشى البقاء وحده مع زوجته، خفض رأسه، التقط هراوة وتعقب خطى ابنه.

كانت مادلين مثخنة بالجراح منكمشة في إحدى زوايا الحفرة، حمت رأسها بذراعيها وراحت تصرخ، أحاط الرجال والنساء بالحفرة وراحوا يسخرون منها ويضحكون. من كل كروم الجوار، ترك الناس العمل وأتى القطافون والقطافات يحملون السلال. كان الصبية يتلهفون لرؤية هذا الجسد الشهير شبه عار ومدمى وكانت البنات تكره وتحسد هذه المرأة المعروضة لكل الرجال ولا تترك أحداً منهم.

مد بارابا يده ليسكت الصراخ، أصدر قراره وأعطى أمارة الرجم. في هذه اللحظة ظهر جاك. تقدم من رئيس عصابة زيلوت، لكن فيليب مسكه من ذراعه، وقال له:

إلى أين تروح؟ إلى أين نروح؟ نحن ثلاثة منتوفين ضد الضيعة بكاملها. فنضيع!

لكن جاك سمع في داخله نداء أمه الغريب.

يا هذا يا بارابا، رجل السكين، صرخ: أتيت هنا من قريتنا لتقتل الناس؟ أترك هذه المرأة، نحن نحاكمها... نأتي بشيوخ قرى مجدلا وكفرناحوم لمحاكمتها. ويأتي والدها الحاخام من الناصرة. هذه هي الشريعة.

ابني على حق! قال آنئذ زيبيدي العجوز، الذي وصل مع

هراوة ضخمة.

إنه محق هذه هي الشريعة!

وبحركة مفاجئة غير بارابا اتجاهه، وصرخ:

الشيوخ ارتشوا، زيبيدي ارتشى، أنا لا أثق بهم، الشريعة، هي أنا! ومن بينكم، يا جبابرتي، يجرؤ أن يقيس نفسه بي!

التم رجال ونساء مجدلا وكفرناحوم حول بارابا. تألقت المغدورة في بؤبؤ عيونهم ووصلت عصابة من فتيان الضيعة مع مقلاعهم.

أخذ فيليب ناثانائيل من ذراعه وابتعد. التفت نحو جاك:

اذهب وحدك، إن شئت، يا ابن زيبيدي؛ نحن لن نذهب، لسنا مغفلين.

ـ ألا تخجلوا أيها الجبناء؟

ـ لا، لا نخجل، اذهب وحدك

التفت جاك إلى أبيه، لكن هذا سعل.

ـ أنا عجوز هرم.

والآن؟ صرخ بارابا بضحكة صاخبة.

بانت العجوز سالومي مستندة إلى ذراع ابنها الفتى. وخلفهما مريم زوجة يوسف، تذرف عيونها الدموع، التفت جاك، رأى أمه وانتفض.

كان أمامه صاحب السكين، الرهيب، مع رهط من القرويين المهتاجين. وخلفه أمه الشرسة، صامتة.

والآن؟ زعق بارابا مرة ثانية واستعد للنزال.

أنا لا يغيظني الخجل! غمغم ابن زيبيدي. تقدم. سرعان ما مشى إليه بارابا.

سيقتله. قال أخوه الفتى. انفلت بغضب ليركض إلى جانبه. لكن أمه مسكته:

أنت اخرس، قالت له، لا تحشر نفسك.

وبينما وصل الخصمان إلى المواجهة، سمعت صرخة فرحة من ضفتي البحيرة:

وثب أمامهم فتى لوحته الشمس، لاهثاً محركاً ذراعين ويصرخ:

ماران اثا! ماران اثا! السيد وصل!

ـ من يصل؟ صرخ كل الناس وأحاطوا به.

السيد! أجاب الشاب مشيراً إلى ورائه، الصحراء، السيد، هوذا! التفت كل الناس، انحنت الشمس ولطفت. ظهر الرجل الذي يصعد من الضفة. بثوب أبيض كله، كأحد كهنة الصومعة. كانت الدفلي على ضفة الماء مزهرة وقدم الرجل الأبيض يده، قطف وردة حمراء وحملها إلى شفتيه نورسان كانا يمشيان على الحصى، ابتعد ليدعهما يمران.

رفعت سالومي العجوز رأسها، واستنشقت الهواء:

ـ وليدي، قالت لابنها، ماذا يحدث؟ تبدل الهواء.

ـ يخفق قلبي بشدة وعنف، يا أمي، رد الابن. اظن أنه هو!

ـ من هو؟

ـ اسكتي!

ــ ومن هم هؤلاء الناس وراءه؟ أوه! ثمة جمهور يركض خلفه، يا أمي.

ـ هم الفقراء يا أمي الذين يلتقطون ما وقع من القطافين. هذا ليس جيشاً، لا تخافي.

وكان ثمة فعلاً ما يشبه الجيش بدأ يظهر وراءه، مجموعات بالأسمال، رجال، نساء وأطفال مع أكياس وسلال، يتفرقون حول الطريق بين الكروم المقطوفة ويبحثون عن ما سقط. في كل عام، من الحصاد، من القطاف لجمع الزيتون، ينتشر رهط الجياع هؤلاء في انحاء الجليل يلتقطون ما تركه الملاكون للفقراء، كما توجب شريعة إسرائيل.

فجأة توقف الرجل الأبيض، تأمل الناس وخاف، أريد أن أذهب! رجع إليه الفزع السابق: أود أن أعود إلى الصحراء، حيث يوجد الله؛ هنا يعيش الناس أرغب في السفر، قدره موجود مرة أخرى بخيط مربوط. يبتعد ويتقدم؟

كان كل الذين حول الحفرة قد سكنوا في أمكنتهم وراحوا يتأملونه. جاك وبارابا هدأ أيضاً بأكمام مثنية الواحد قبالة الآخر. رفعت مادلين رأسها وأصغت.

كل شيء همد ـ الحياة، الموت؟ تبدلت الريح. وفجأة بعنف رفعت ذراعيها وصرخت: العون، المساعدة!

سمع الرجل الأبيض الصراخ، عرف الصوت انتفض،

وتمتم:

مادلين! مادلين! يجب أن أنقذها. واتجه بسرعة إلى الناس.

كان ذراعاه مفتوحين ويتقدم. وكلما اقترب من هؤلاء الناس وتأمل وجوههم الشرسة الدكناء المعذبة وعيونهم المترعة بالغضب، خفق قلبه، فاضت حناياه برأفة وحب عميق. هوذا الناس، خاطب نفسه، هم أخوة جميعاً وهم لا يعرفون، لهذا يتباغضون.... لو عرفوا لعاشوا الوئام والسعادة!

وصل أخيراً! وصل أخيراً! صعد صخرة، بسط ذراعيه، انبثقت كلمة من أعماقه مظفرة مغتبطة:

ـ يا إخوتي!

فوجئ الناس، تأملوا بعضهم، لا أحد يجيب.

ـ يا أخوتي! لعلعت الصرخة المظفرة مرة ثانية. أنا سعيد بوجودكم.

ـ لست موضع ترحيب، صالب الناس! أجابه بارابا. والتقط حجراً كبيراً.

ـ وليدي! صرخت مريم صرخة مؤثرة، وسارعت إلى ابنها تعانقه. بسمت، بكت، داعبته، أما هو، دونما نأمة أو كلمة، أبعد عنه ذراعي أمه وتقدم باتجاه بارابا، وقال:

ـ بارابا أخي أنا سعيد بلقائك، أنا صديق أحمل نبأً هاماً، بهجة عظمى!

لا تقترب! زعق بارابا وأتى لينزرع أمامه وليكشف في

عينيه مادلين.

لكنها سمعت الصوت الحبيب، انتصبت بوثبة:

يسوع، صرخت، إلى العون!

وبخطوة كان يوسف قرب الحفرة، غرزت مادلين يديها ورجليها بالحجارة تسلقت انحنى يسوع، مد لها يده، استسلمت له، صعدت، على آخر نفس، مغطاة بالدم، والتهمت الأرض.

سارع بارابا ووضع بقوة رجله في ظهر مادلين، وزعق:

هي لي، سأقتلها! ورفع الحجر الذي يحمله، لقد دنست يوم السبت!

إلى الموت! إلى الموت زأر الناس الذين كانوا يخشون أن يروا الضحية تهرب.

إلى الموت! وعوع زيبيدي الذي رأى حاملي الأسمال يحيطون بالقادم الجديد ويتجرأون الويل، لنا يترك حاملوا الأسمال يفعلون ما يبغون. إلى الموت!

زعق أيضاً وضرب الأرض بهراوته. إلى الموت!

مسك يسوع يد بارابا المرفوعة:

بارابا، قال بصوت هادئ وحزين. أنت ذاتك لم تمزق أبداً أياً من وصايا الله! أبداً لم تسرق في حياتك، لم تقتل، لم تعرف أبداً الزنى، أبداً لم تكذب؟

ـ والتفت إلى الجمهرة الصارخة. نظر إلى الجميع بتؤدة، فرداً فرداً، وقال:

ـ ليرمها بحجر من منكم لم يجترح خطأ!

راح الناس يتململون. واحداً واحداً تراجعوا والناس سارعوا للتخلص من النظرة التي تغلغلت إلى أحشائهم وذاكرتهم. تذكر الجمهور كل الترهات التي قالوها في حياتهم، الفسق والفساد الذي مارسوه، كم مرة واطأوا امرأة الغير أسدل النساء النقاب وانزلقت الحجارة من أيديهم.

جن جنون وغضب العجوز زيبيدي لما عرف أن حاملي الأسمال سيرون ما يجري. والتفت يسوع وتأمل الجميع ثانية، واحداً واحداً، في اعماق عيونهم.

من منكم لم يرتكب حماقة ليرمها بحجر.

أنا، قال زيبيدي. أعطني حجرك، يابارابا، سماء بدون غيوم لا تخشى الرعد. أنا الذي سيرميها!

ابتهج بارابا، أعطاه الحجر، وابتعد زيبيدي بيده الحجر، أتى وجلس فوق مادلين، قلّب الحجر بيده، ليضربها مباشرة على رأسها. كانت منحنية، تمرغ وجهها بقدمي يسوع، هادئة. شعرت الآن أن ليس عندها ما يخيفها من الموت.

حدج لابسو الأسمال زيبيدي، ساخطين. وقال له أكثرهم هياجاً:

يا هذا! يا عجوز زيبيدي، إن الله موجود، ستشل يدك، ألا ترتعد؟ تذكر: لم تأكل في حياتك رزق فقير؟ ألم تبع أبداً بالمزاد كرمة يتيم؟ ألم تدخل في أحد الليالي بيت أرملة؟

الإبليس العجوز يسمع. كان هنا يزور حجرة وتمسك به. بغتة همهم:

كانت ذراعه صارت فجأة كالميتة وهمدت؛ تدحرج الحجر الضخم على قدمه وهرس أصابعه.

معجزة... معجزة! زعق ابتهاجاً أصحاب الأسمال، مادلين بريئة!

تملك الغل بارابا وجن جنونه. احتقنت آثار الجدري في وجهه وصارت حمراء. اتجه إلى ابن مريم، رفع يده وصفعه. وبهدوء أدار له يسوع الوجه الآخر، وقال:

اضرب أيضاً الخد الثاني، بارابا، أخي

تصلبت يد بارابا، وغبشت عيناه، من هو هذا الرجل؟ ما هو هذا الرجل؟ شبح، إنسان، إبليس؟ ابتعد وحدجه بذهول.

طلب بإلحاح ابن مريم مرة أخرى:

اصفع أيضاً الوجه الآخر، بارابا، أخي.

آنئذ ظهر يهوذا من ظل شجرة التين حيث بقي بعيداً يراقب المشهد. رأى كل شيء ولم ينبس ببنت شفة. إن قتلت مادلين أم لا، لا فرق.

لكنه اغتبط بسماع بارابا ولابسي الأسمال يقولون لزيبيدي حقائقهم الأربع ويرتدون وبر الحيوان. ولما رأى يسوع، بجلبابه الأبيض، على الشط. راح قلبه يخفق:" الآن سنرى، تمتم، من هو، ماذا يريد، ماذا يريد أن يقول للناس." اصغى

بكل جوارحه إنما بداية الكلمة الأولى: " أخوة!" أغضبته. أكمد وجهه. " لم يفهم بعد، تمتم. لا، لسنا جميعاً أخوة، لا الإسرائيليون مع الرومان، ولا الإسرائيليون فيما بينهم. الصدوقيون المرتشون ليسوا إخوتنا، قادة المدينة، كل هؤلاء الذين كاللصوص في السوق مع الطاغية..... تبدأ خطأ، يا ابن النجار، احذر!" إنما لما رأى يسوع يمد الوجه الآخر، دون غضب، برضى صادق وغير معروف، خاف. من هذا الرجل؟ صرخ دون كلام. إن هذا تقديم الوجه الآخر، لا يقدر عليه سوى ملاك، ملاك أو كلب.

وثب، مسك يد بارابا، وقت كان هذا يستعد للانقضاض على ابن مريم.

لا تمسه، قال له همساً، ارحل من هنا!

حدج بارابا يسوع غاضباً؛ كان الاثنان في نفس الأخوية. كانوا غالباً يدخلون سوية إلى القرى والمدن ليقتلوا خونة إسرائيل. وهناك......

ـ يهوذا، تمتم، أنت... أنت؟

أنا. أذهب من هنا.

تردد بارابا أيضاً؛ يهوذا كان أهم منه في الأخوية، لا يقدر أن يكون رئيساً له، لكن حب الذات يمنعه من المغادرة.

ـ اذهب، أمر الأصهب ثانية.

خفض رئيس العصابة رأسه ونظر نظرة خائفة إلى ابن مريم

أين ستصل؟ تمتم، مهدداً بقبضتيه. سنلتقي.

التفت إلى مؤيديه، وقال غاضباً

ـ هلموا.

(13)

أدركت الشمس جذور السماء، هجير النهار تراجع، هبت الريح، راحت البحيرة ترسل انعكاسات زرقاء ووردية: كانت البجعات واقفات على رجل واحدة فوق الصخور، العيون مسمرة على الماء، ما تزال جائعة.

كانت نظرات أصحاب الأسمال مثبتة على ابن مريم، ينتظرون ولا يودون المغادرة. ماذا ينتظرون؟ نسوا جوعهم وعريهم، نسوا قسوة الملاكين الذين لا يدعون بعض الحبات في الكرمات المقطوفات، لتلطيف حلق الفقراء الذين منذ الصباح يروحون من كرمة إلى كرمة، وتبقى سلالهم فارغة. وبخصوص الحصاد يتكرر الأمر، ينتقلون من حقل إلى آخر أكياسهم الهزيلة. وعيالهم ينتظرون في البيت كل مساء، وأفواههم مفتوحة. ودون معرفة لماذا ولا كيف، كانوا يشعرون بأن سلالهم قد امتلأت فجأة. يتأملون هذا الرجل لابس البياض أمامهم ولا يرغبون في مبارحة المكان... ينتظرون. ماذا؟ لا يعرفون.

يحدق بهم ابن مريم وينتظر هو أيضاً. يحس أن كل هذه النفوس معلقة برقبته. ماذا يريدون منه؟ ماذا ينتظرون منه؟ ماذا يستطيع أن يعطيهم، هو الذي لا يملك شروى نقير؟ يحدجهم، يتأملهم، بعد هذا قبضه الضيق، قام بحركة ليرحل، لكنه خجل. ما مصير مادلين التي تدحرجت كبة عند قدميه؟ وكل هذه العيون التي تتملاه بوَلَه، كيف يتركهم في الخيبة؟

يـذهب، إلى أيـن؟ الله في كـل مكـان، ونعمتـه تدفعـه حيـث تشاء. ليس نعمته ذاتها، قدرته كلية القدرة. يحس بها ابن مريم الآن بيتـه هـو هـذه الأرض، مـا عنـده بيـت آخـر؛ وصـحـراؤه هـم الناس، ما عنده صحراء أخرى. خفض رأسه:

أيها السيد، لتكن إرادتك، تمتم واستسلم لرحمة اللّه.

تقدم واحد من جمهرة أصحاب الأسمال وكلمهُ:

ـ يا ابـن مـريم، نحـن جيـاع، لـكننـا لا ننتظـر الخبـز منـك؛ أنت فقير مثلنا.

ـ افتح فمك، قل لنا كلمة مطمئنة، ونشبع.

وتجاسر الشاب، وقال له:

يـا ابـن مـريم، الامـلاق يطعننـا، لـم يعـد قلبنـا يحتمـل. قلـت أنك تحمل كلمة عزاء، قلها إذن احمل لنا الخلاص!

يحدق ابن مريم إلى النـاس، يصغي إلى نـداء الحريـة والجـوع؛ امتلأ غبطة. كمن ينتظر هذه الصرخة منذ سنين، التي أتت الآن تدعوه باسمه، استدار نحو الشعب، الأذرع مشرعة:

يا إخوة، قال، هلموا بنا! وامتلأ الشعب الذي كمـن كـان ينتظـر هـو الآخـر منـذ سـنين هـذا النـداء، كمـن سمـع لأول مـرة اسمه، اسمه الحقيقي، امتلأ فجأة بهذه البهجة:

ـ هلموا، صرخوا جميعاً، باسم اللّه!

استلم ابن مريم الطليعة. ذهبوا كلهم كتلة واحدة. كانت تقوم على السلم رابية دائرية، ما تزال خضراء بعد صيف قائظ.

ربتت الشمس عليها كل النهار وهي الآن تعطر الجو، في عذوبة العتمة، بالزعتر والبر لا بد من وجود في السابق هنا معبد قديم وثني: ووجد في الأرض بقايا تاج العمود منقوشاً وفي الليل، كان الصيادون الرؤيويون يرون، في أثناء الصيد في البحيرة شبحاً أبيض يأتي ويقعد على قطع الرخام؛ وفي إحدى الليالي سمعه ابن يونان العجوز يبكي. حول هذه الرابية كانوا يمشون محمولين؛ في المقدمة ابن مريم وخلفه رهط الفقراء.

استدارت سالومي العجوز نحو ابنها الفتى، وقالت:

ـ يا ابني أعطني ذراعك، لنرحل نحن أيضاً، وأخذت مريم من يدها، وقالت:

ـ مريم لا تبكي. ألم تري نوراً حول وجه ابنك؟

ـ ما عندي ابناء، لم يعد عندي أبناء، أجابت الأم، وراحت تنتحب. كل أصحاب الأسمال هؤلاء عندهم وأنا ما عندي...

بكت، ندبت ومشت. كانت واثقة الآن أن ابنها تركها إلى الأبد. فلما ركضت لتحتضنه بين ذراعيها، لتعيده إلى البيت، تأملها، مندهشاً، كمن لم يعرفها. وحينما قالت له: "أنا أمك" مد يده ودفعها.

رأى الشيخ زيبيدي امرأته تصعد مع الجمهرة؛ كشر، قبض هراوته، التفت إلى ابنه جاك ورفيقيه، فيليب وناثانئيل وأشار إلى الجماعة الصاخبة المبلبلة:

هؤلاء الناس ذئاب جائعة، لتلبسهم اللعنة. هلموا نعوي معهم

خوفاً من أن يعتبروننا خرافاً فيأكلوننا. لنتبعهم واحذروا: مهما يقل ابن مريم هذا لن نهينه أو نحتقره، تسمعون؟ يجب أن لا نتركه يرتدي لبوس حيوان. إلى الأمام سوية، وافتحوا عيونكم!

وراح يصعد هو الآخر متباطئاً.

في هذه اللحظة ظهر ولدا يونان، يأخذ بطرس أخاه بيده ويحدثه بتؤدة ولطف كي لا يجفل، لكن الآخر كان يتأمل بانفعال الرهط الذي يصعد والرجل لابس الأبيض الذي يوجههم.

من هم هؤلاء؟ إلى أين يذهبون؟ سأل بطرس يهوذا الذي ما زال في الطريق، متردداً.

ـ ابن مريم... رد ذو الشعر الأحمر، مقطباً.

ـ والرهط خلفه؟

الفقراء الذين يلتقطون الحبات الباقية في الكروم المقطوفة. رأوه وتعلقوا به؛ يبدو أنه يعد لمحادثتهم.

ـ ماذا سيقول لهم؟ ليس أهلاً أن يعد حتى ثلاثة.

هز يهوذا كتفيه، وهمهم:

سنرى، وراح يصعد هو الآخر.

رجعت من القطاف امرأتان ضخمتان مسمرتان أضناهما التعب والحر، وكانتا تحملان على رأسيهما للتوازن سلتين مجممتين عنباً؛ استهوتهما الرفقة" هلموا نرحل نحن أيضاً، قالتا، لنصرف الوقت" واصطفتا تباعاً.

وصل الشيخ ابن يونان بيته حاملاً شبكته على ظهره.

كان جائعاً، ومستعجلاً رأى ولديه والرهط الذي كان يصعد وتوقف منذهلاً، طاف بعينيه السمكيتين المستديرتين، وتأمل. لم يفكر بشيء لم يتساءل من الميت، من الزوجان، إلى أين يذهب كل هؤلاء الناس سوية. لم يفكر، تأمل منذهلاً؟!

هيا يا ابن يونان، أيها الصياد النبي، ناداه زيبيدي. هوذا العيد. يبدأون مريم المجدلية تتزوج، تعال وتسل!

تحركت شفتا ابن يونان الضخمتان، كان سيتكلم لكنه تراجع. بضربة كتف وازن الشبكة على ظهره وأخذ بخطى ثقيلة درب بيته. بعد برهة، كمن وصل إلى زريبته، ارتاح فكره بعد جهد: "إليك عني وإلى الشيطان أيها الأبله زيبيدي!" تمتم دفع الباب ودخل. في لحظة وصول العجوز زيبيدي وصحبه إلى قمة الرابية كان يسوع جالساً على تاج عمود، ولم يفتح فمه بعد، كمن كان ينتظرهم . أمامه المساكين قاعدين متصالبي الساقين، النساء واقفات يحدقن به. كانت الشمس قد غابت أما في الشمال كان جبل حرمون ما يزال يعكس النور في لبدته ولم يدعه يأفل.

صالب يسوع ذراعيه على صدره وراح يتأمل النور يصارع الظل أحياناً يريح بصره بهدوء على وجوه الرجال الذين كانوا يحدقون إليه مجعدين متأملين، طعنهم الجوع عيونهم تطرف إليه، يتأملونه، كما لو كان وضعهم خطيئته، كما لو كانوا يلومونه.

ما إن رأى زيبيدي وجماعته حتى نهض:

أهلاً بكم، قال، ـ كان صوته غير المطمئن يرتعش ـ يا أخوة سأكلمكم بالأمثال، اعذروني أنا كائن بسيط، قليل التعليم وأنا فقير، وسيء الحظ، في قلبي كثير من الكلام، لكن فكري لا يستطيع التعليل والإيضاح، أفتح فمي، ومن دون إرادة، يتسرب الكلام ويأخذ شكل خرافة. يا أخوة، اعذروني، سأحدثكم بالأمثلة.

نحن نصغي يا ابن مريم، صرخ الشعب، نحن نصغي بدأ يسوع يتحدث:

"خرج الباذر ليبذر حقله، وبينما كان يبذر سقطت حبة على الدرب، أتت الطيور وأكلتها. ووقعت أخرى على الحجارة، لم تجد تربة تنمو فيها، يبست وأخرى ارتمت بين الأشواك، نمت الأشواك وخنقتها. وأخرى أخيراً وقعت في التربة الطيبة، أخذت جذراً، ضخمت السنبلة، أعطت ثمراً وغذت الناس.

من منكم، أيها الأخوة، ذو أذنين صاغيتين يسمع."

سكت كل الناس. نظروا إلى بعضهم، مندهشين. لكن زيبيدي العجوز الذي يبحث عن ذريعه ليخاصم، قال:

ــ لم أفهم اعذرني. لي أذنان، ليتمجد الله، لي أذنان وأسمع، إنما لم أفهم. ماذا تريد أن تقول؟ هلا أوضحت؟

أطلق ضحكة هزء، ملس بأبهة لحيته البيضاء:

ـ ربما كنت أنت الباذر؟

أجل أنا، رد يسوع بتواضع.

هذه وقاحة! رد الذكي ضارباً الأرض بهراوته، وهكذا نكون نحن حجارة وأشواك الحقل، حيث تبذر، أليس كذلك؟

ـ نعم أنتم، أجاب بنفس الهدوء ابن مريم.

انتبه أندريه وأصغى. حدق إلى يوسوع وخفق قلبه مضطرباً. هكذا خفق لما صادف لأول مرة يوحنا المعمدان على شطآن نهر الأردن، تبتلعه الشمس، يرتدي ثوب حيوان بري، أضناه الجوع السهر والصلاة؛ بكل معنى الكلمة، أضناه، ولم يبق منه سوى عينيه الواسعتين، فحمتين متقدتين، وحلق يصرخ: توبوا! توبوا! كان يصرخ، والغيوم تنهض فوق الأردن، القوافل تتوقف، وتخور قوى الجمال. أما الآن هذا الرجل أمامه يبتسم، كان صوته هادئاً ومتردداً، كصوت طائر صغير يحاول الغناء لأول مرة، وعيناه لا تبرقان، كان قلب أندريه يطير من واحد إلى آخر، مفتوناً.

كان يوحنا يبتعد عن أبيه بهدوء وسكينة ويقترب من يسوع: سيصل إلى قدميه. رآه زيبيدي، تضاعف خوفه. أتاهم الكثير من الأنبياء الدجالين، في كل يوم يفرخون، يسحبون الشعب إلى الهاوية. وكل هذا، كما قيل، كان ينبع من الملاكين، من الأكليرس[1] والملوك. يريدون أن يبيدوا كل ما

---

1 ـ رجال الدين.

في العالم من خير وجدارة. وانظروا معي الآن إلى هذا الحفيان ابن مريم. آه يجب أن أصرم رقبته قبل أن يفوت الوقت.

التفت ليرى ماذا يفكر الجمهور، ليشجعه. رأى ابنه البكر جاك عابساً، لم يعرف أكان هذا قلق أو غضب، رأى امرأته التي كانت تدنو وتمسح عيونها؛ حمل عينيه إلى أصحاب الأسمال وأرعبه منظرهم: كل هؤلاء الجياع ينظرون إلى ابن مريم فاغري الأفواه، كالعصافير التي تنتظر ما في منقار الأم.

إلى الشيطان، يا أصحاب الأسمال! همهم وهو ينكمش إلى جانب ولده. عدم الكلام أفضل، هذا يجلب قصصاً وحكايا! سمع صوتاً هادئاً ومؤثراً. تحدث أحد الجالسين عند قدمي يسوع. ونهض الذين كانوا نائمين خلفه ليروا. كان المتكلم صغير زيبيدي الذي جر نفسه بتؤده حتى قدمي يسوع، مد رأسه وبدأ يحدثه، قال:

ـ أنت الباذر، ونحن جميعاً الحجارة، الأشواك والأرض، إنما ما هي الحبة التي تحمل؟

كان المحيى البريء، المغطى بزغب جديد، ينور. تتأمل عيناه السوداوان يسوع بقلق. هذا الجسد اللدن، المرتعش كله، نافد الصبر وينتظر الرد الذي سيتلقاه والذي يتعلق بكل حياته. هذه الحياة والحياة الأخرى.

كان يسوع منحنياً ليسمع. صمت برهة طويلة. استمع إلى خفقان قلبه، يجهد ليجد كلمة بسيطة، خالدة. عرق حار تألق

على جبينه.

ـ ما هي الحبة التي تحمل؟ سأل بضيق ابن زيبيدي.

بوثبة انتصب يسوع، فتح عينين واسعتين، واقترب من الرجل:

احبوا بعضكم بعضاً! انطلقت الصرخة من أعماقه ـ أحبوا بعضكم بعضاً!

بالسرعة التي قال بها هذه الكلمة، أحس أن قلبه فزع، خر على تاج العمود منهاراً. سمعت همهمة، كان الشعب منذهلاً يهز رأسه كثيراً، وآخرون يضحكون.

ـ ماذا قال؟ سأل العجوز الذي لم يسمع شيئاً.

ـ ليحب بعضنا بعضاً، كما يبدو.

ـ ليس هذا ممكناً! رد العجوز، وبدا خائفاً. لا يستطيع الجائع أن يحب الشبعان. لا تقدر الضحية أن تحب من جعلها تعاني. ليس هذا ممكنا. هلموا بنا من هنا!

قبض يهوذا المستند إلى الصنوبر لحيته المغراء بغضب.

إذا، هذا هو الذي جئت لتقول لنا، يا ابن صانع الهياكل؟ جمجم. أهذا هو النبأ الهام الذي تحمله لنا؟ أن نحب حتى الرومان؟ أن نمد رقابنا، كما قدمت الوجه الآخر، ونقول:

أخي، اذبحني؟

سمع يسوع الهمهمة، رأى سيماء الناس تحتقن، والنظرات تحدج بكمد. وعن المرارة التي طفحت منه، جمع كل قواه

ونهض، وكرر:

أحبوا بعضكم بعضاً! أحبوا بعضكم بعضاً! كان صوته ملتمساً ومتصلباً. الله حب. سابقاً ظننت أنه وحش، أنه يلامس الجبال فترسل الدخان، ويلمس الناس ويتركهم يموتون. انزويت في الصومعة لأتخلص منه، فوقعت بملء وجهي على الأرض، وانتظرت. قلت لنفسي: الآن يأتي، سينقض عليّ كالصاعقة. وأتى صباح، نفخ علي كنسيم ندي وقال لي: "انهض يا ابني!" نهضت وأتيت. ها أنا ذا! صالب ذراعيه وحنى صدره كمن يحيي الناس!!.

سعل زيبيدي العجوز، بصق، قبض عصاه بعنف ودمدم بصوت خفيض جاف: الله، نسيم ندي؟ هلا خجلت، يا منتهك الحرمات! استمر ابن مريم بالحديث. نزل إلى الناس، تأملهم فرداً فرداً، رجاهم واحداً واحداً، ذهب وآب، رفع الذراعين نحو السماء وقال:

هذا أب لا يدع أي تعب لا يواسيه، وأي جرح من دون عناية. قلما عانينا، ازداد جوعنا على هذه الأرض، وكلما شبعنا نغتبط في السماء...

تعب، رجع إلى تاج العمود، قعد:

بكلمة، لا تكن عجولاً! صرخ أحدهم. هبت موجة ضحك: يسوع، الذي غاب، لم يسمع.

ـ سعداء هم الذين يجوعون ويتعطشون للعدالة... زعق الآن.

العدالــة لا تكفــي، أردف أحــد الجــائعين، العدالــة لا تكفي؛ نريد الخبز أيضاً!

والخبـز، أكـد يـسوع متنهـداً، والخبـز هـذا يؤمنـه اللّه. سـعداء الـذين يعـانون، اللّه يـسرّي عـنهم، سـعداء الفقـراء، المتواضعون المضطهدون من أجلهم، من أجلكم، أنتم الفقراء المتواضعون والمضطهدون ـ خلق اللّه مملكة السماوات.

والمرأتـان الـضخمتان، اللتـان بقيتـا واقفـتين وسـلال العنـب على الـرأس تبادلتـا طرفـة عـين سـريعة، وبـدون كلمـة خفـضتا السلات وراحتا الواحدة بعد الآخرى توزعن العنب على الفقـراء. والمجدلية، النائمة عنـد قـدمي يـسوع لم تجـرؤ علـى رفـع الـرأس وتُري وجهها للناس؛ إنما بالخفـاء مـسربلة بـشعرها كانـت تـضم قدمي ابن مريم.

لم يبـق جـاك، نهـض وذهـب يـصرخ لـه، حيـث قـال نـبي: "النـاس كومـة قش وأنـا النـار. أتيت لأحرق، لأطهر الأرض، أتيت لأحرق، لأطهر النفس، ليدخل المسيح!" وأنت ابن النجـار تكـرز بالحب؟ لكن ألا ترى حواليك؟ هناك كذابون وقتلـة، لـصوص وبؤسـاء، كلـهم أغنيـاء وفقـراء، مـضطهِدون ومـضطهَدون، كتبـة وفريـسيون، كلكـم! كلكـم! وأنـا أيـضاً كـاذب وبـائس، وأخـي بطـرس وزيبيـدي الـشيخ صـاحب الـبطن المـتخم الـذي يـسمع كلمـة حـب و يفكـر بمراكبـه، بخدمـهِ وبأفـضل وسيلة للسرقة في المعصرة!

لدى سماعه خرج زيبيدي العجوز عن طوره، صارت رقبته الضخمة قرمزية، وتضخمت عروقها. وقف بوثبة ورفع هراوته ليضرب؛ لكن سالومي العجوز توفر لها الوقت لتمسك ذراعه:

ألا تخجل؟ خاطبته بصوت منخفض. هلم من هنا! لا يقيم أصحاب الأسمال والحفاة الشريعة في قريتي! قال بصوت قوي ليسمعه كل الناس، كان حانقاً، التفت نحو يسوع:

ـ وأنت العامل ألن تقدم لنا نفسك مسيحاً، احذر أيها البائس، سيصلبونك أنت أيضاً، لكي تهدأ وأنا لا أرحم سيادتك أيها التافه إنما أشفق على أمك التي ليس لها ابن سواك.

وهو يقول هذا أشار إلى مريم التي الآن انهارت في الأرض، وراحت تضرب رأسها بالحجارة. لكن غضب العجوز لم يهدأ. تابع دق الأرض بالهراوة والصراخ:

و الحب الآن، الجميع أخوة، وهلموا إذن أيها الكلاب . افعلوا كل ما عندكم! إنما هل أستطيع أنا أن أحب عدوي؟ أأقدر أن أحب الفقير الذي يتجول حول بيتي والذي يبغي خلع الباب ليسرقني؟ الحب، قال؛ أنا أرى أن وجود الرومان لصالحنا، هذا ما أقول، ولا بأس إن كانوا وثنيين، بل الخير في هذا، فهم على الأقل يحفظون النظام!

انفجر دوي، ارتج رهط الفقراء، انتزع يهوذا بعنف عن صنوبرته. خافت الحجة سالومي ووضعت يدها على فم زوجها، ليسكت. التفت نحو الرهط الذي كان يدنو مهمهماً مهدداً:

ــ لا تصغوا ، يا أبنائي، هو غاضب، يقول عكس ما يفكر.

و استدارت إلى الحج:

ـ هيا بنا!

و أشارت إلى ابنها الحبيب الذي كان يجلس هادئاً سعيداً عند قدمي يسوع.

ـ هلم يا ابني، قالت، حل الليل.

ــ أنا ، سأبقى، يا أمي، رد الشاب. علّتْ مريم الحجارة التي ارتمت عليها ، مسحت عينيها واتجهت هي الأخرى، مترنمة ، نحو ابنها لتأخذه معها. كانت وجلة أيضاً وتعيسة ، من الحب الذي أبداه لها الفقراء والتهديدات التي ألقاها الغني والقوي زيبيدي.

أتضرع لكم باسم السماء ، قالت لهؤلاء وأولئك: وهي مارة أن لا تصغوا له ، هو مريض... مريض ... مريض...

دنت واجفة من ابنها الذي كان واقفاً ، مصالباً ذراعيه ، ينظر الآن بعيداً ، نحو البحيرة:

ـ تعال، ولدي، قالت له بعذوبة ، تعال نعود إلى البيت.

سمع صوتها ، التفت، نظر إليها مستغرباً ، كمن يسأل من أنت...

تعال يا ابني، كررت مريم، وارتمت عليه، لماذا تحدق إلي هكذا؟

ألم تعرفني؟ أنا أمك تعال إخوتك ينتظرونك في الناصرة، وأبوك العجوز...

هز الابن رأسه، وقال بهدوء:

أي أم؟ أي أخوة؟ أمي وأخوتي، هؤلاء هم ...

مد يده، دل إلى أصحاب الأسمال ونسائهم. كان يهوذا الأصهب واقفاً بصمت أمام الصنوبرة يحدجه بغضب.

و أبي... رفع إصبعه إلى السماء: هو اللّٰه.

وراحت عيون مريم الفقيرة التي صعقها اللّٰه تذرف الدموع:

ــ أثمة أم في العالم أتعس مني؟ زعقت. عندي ابن، ابن وحيد والآن...

سمعت الحجة سالومي هذا الصوت العاثر، تركت زوجها وعادت إليها. أخذت ماري من يدها، لكن هذه قاومت ملتفتة مرة أخرى نحو ابنها

ـ ألن تأتي؟ صاحت: لن تأتي؟ أقولها لك للمرة الأخيرة: تعال! تريثت . لكن الابن، بصمت توجه ثانية إلى البحيرة

ـ ألن تأتي؟ صرخت الأم صرخة مؤثرة؛ رفعت يدها:

ـ ألا تخشى لعنة أمك؟

لا أخشى شيئاً، أنا لا أخشى أحداً إلا اللّٰه.

صار وجه مريم وحشياً؛ رفعت قبضتها وفتحت فمها لتلعن، لكن العجوز سالومي تمكنت من وضع يدها على شفتيها:

ـ لا... لا... لا!

وأخذتها من قامتها وشدتها بعنف

ـ هيا، هلمي يا مريم. يا ابنتي. عندي أمر أقوله لك.

أخذت المرأتان الدرب النازل نحو كفرناحوم، كان الشيخ زيبيدي يمشي أمامهما خائفاً، ويقطع الفحم بضربة عصى. حدثت سالومي العجوز مريم:

ـ لماذا تبكين، مريم يا ابنتي ألم تري.

تطلعت إليها مريم، مذهولة. أوقفت شكواها:

ـ ماذا؟

ــ في أثناء كلامه ألم تري الأجنحة الزرقاء، آلاف الأجنحة الزرقاء خلفه؟ خلفه، يا مريم، أقسم لك، إن كان ثمة جيش من الملائكة!

لكن مريم، فاقدة الرجاء، هزت رأسها:

ـ لم أر شيئاً... لم أر شيئاً... أبداً. ثم بعد هنيهة:

ـ ماذا تريدين أن أفعل بالملائكة، يا سالومي؟ قالت: أنا أود أن يتبعه دستة من الأولاد، أبناء وأحفاد، وليس ملائكة!

لكن عيني العجوز سالومي امتلأتا بالملائكة الزرقاء. مدت يدها، لمست صدر مريم وتمتمت لها بصوت خفيض، كمن يأتمنها على سر هام:

ـ مباركة أنت ومباركة ثمرة بطنك يا مريم.

لكن الأخرى هزت رأسها، بكت وتابعت طريقها دونما عزاء. في أثناء هذا الوقت، أحاط أصحاب الأسمال مغتاظين

بيسوع؛ ضربوا الأرض بعصيهم، وقلبوا سلالهم الفارغة وصرخوا:

ـ تكلمت جيداً يا ابن مريم؛ الموت للأغنياء!

ـ خذ الطليعة، هلموا لنحرق بيت زيبيدي العجوز!

لا، لن نحرقه، بل نقتحمه، نأخذ قمحه، زيته، خمره، صناديقه المتخمة بأحلى الثياب ... الموت للأغنياء!

هز يسوع بيأس ذراعيه وصرخ:

لم أقل أنا هذا! لم أقل هذا! أيها الأخوة، قلت: حباً!

لكن الفقراء الذين أضناهم الجوع، ما عادوا يصغون له.

أندريه على حق، صاحوا. أولاً النار ثم البلطة، وبعدئذ الحب! كان أندريه، إلى جانب يسوع يصغي يخفض رأسه، يفكر، وسكت معلمهُ هناك في الصحراء، يحدث وحديثه يطعن. كما الحجارة، رأس الناس؛ يوزع هذا الرجل هنا كلمته على الناس كما الخبز... من المصيب؟ وأي الدربين يفضي إلى سلامة العالم؟ العنف؟ أم الحب؟ وبينما كان هذا يحرك روحه، شعر بيدين في قمة رأسه. لم يقترب يسوع منه وقد وضع بمودة يديه فوق رأسه. أصابعه الطويلة واللدنة تضغط على كل ما تمسهُ، وغطت ثانية كل رأس أندريه. لم يتحرك الرجل أحس أن مفاصل جمجمته انفتحت. وشعر قليلاً من العسل، نزل إلى دماغه، بلع فمه، حلقه، قلبه، وتابع حتى الكليتين، تشعب حتى قدميه، لطف لا يوصف. امتلأ بهجة عميقة، لكل جسده،

لكل روحه، حتى جذور بدنه، كما الشجرة العطشى عندما تروى. لم يتكلم؛ ليت هاتين اليدين لا تترك رأسه أبداً... أحس أن السلم والأمان حلاّ فيه بعد صراع مديد.

في مكان آخر، كان الصديقان الدائمان، فيليب وناثانائيل يتحدثان بثقة:

ـ إنه يغبطني هذا الشيطان الأكبر الساذج . كلامه عذب كالعسل. ستصدقني إن شئت؛ بانتظاره أتلمظ، ألمس شفتي.

ـ لا يرضيني. رد الراعي، لا يقول شيئاً ويفعل آخر. يصرخ: حب! حب! ويصنع صلباناً للصلب!

يكفي، هذا فيليب، أقول لك، يكفي. يجب أن يمر عبر الصليب، ولقد مر؛ الآن دخل في طريق الله.

أريد أفعالاً! ألح فيليب. ليأت أولاً يبارك خرافي، التي بدأت تجرب، وإن شفيت الخراف أصدقه. وإلا فليذهب إلى الشيطان مع الآخرين! لم تهز رأسك؟ فإن أراد أن يخلص العالم، ليبدأ بخرافي.

انتشر الليل وغطى البحيرة، الكروم ووجوه الناس. ظهرت العربة في السماء؛ نجم أحمر- قطرة خمر- تعلق في الشرق، فوق الصحراء.

أحس يسوع فجأة أنه تعب وجائع ويود البقاء وحده. يتذكر الناس رويداً رويداً والدرب الباقي عليهم سيره، بيوتهم وأولادهم الذين ينتظرونهم عادت الاهتمامات، كان هذا برق، تركت

لتحمل، لكن البرق عبر تيار الهموم اليومية يشدهم من جديد خفية كمن ينفرد، انزلقوا واحداً بعد الآخر، اثنان وراء اثنين وذهبوا.

نام يسوع مكروباً على كتلة الرخام القديمة، لم يمد له أحد يده ليقول عمت مساء، لم يسأله أحد إن كان جائعاً أو حتى أعنده مكان ينام فيه!! كان محياه متجهاً نحو الأرض التي عتمت ويصغي إلى الخطوات السريعة التي تبتعد، تبتعد وتضيع، فجأة خيم الصمت. رفع رأسه: لا أحد. نظر حوله، الظلمة؛ ذهب الناس: النجوم وحدها فوقه وعنده جوع وتعب.؟ إلى أين المسير؟ وأي باب يقرع. من جديد تكوم في الأرض وراح يشكو: "حتى الثعالب عندها وكر للنوم، وأنا ليس عندي....." أغمض عينيه. برد قارس سقط أثناء الليل؛ وراح يرتجف.

بغتة سمع تنهيدة خلف كتلة الرخام ونحيباً خفيفاً، فتح عينيه رأى امرأة تزحف على بطنها في العتمة، وتقترب. حلت جدائلها وراحت تنشف قدمي يسوع المغطاة بجروح جراء الحجارة. عرفها من عطرها.

مجدلية، أخيّة، قال ووضع يده على الرأس الدافئ والمعطر، مجدلية، أخيه، عودي إلى بيتك ولا تخطئي بعد الآن.

يسوع، أخي، قالت وضمت قدميه، دعني أتبع ظلك حتى الموت أعرف الآن، ما هو الحب.

ـ عودي إلى بيتك، عندما تدق الساعة أناديك.

ـ أتمنى أن أموت لأجلك.

ـ اللحظة قادمة، مجدلية، لا تستعجلي، لم تأزف بعد. آنئذ أناديك؛ الآن اذهبي.....

كانت ستقاوم لكن الصوت صار أقوى، مكرراً:

ـ اذهبي.

أخذت المجدلية الدرب النازل؛ رنت خطاها الخفيفة لحظات ثم شيئاً فشيئاً ضاع وقع الخطى. لم يبق في الهواء سوى أريجها. لكن الريح الليلي هب وحمل العطر.

بقي ابن مريم وحيداً الآن. فوقه، اللّه، بوجهه المكفهر، بمحياه الأدكن تبعته النجوم. أصغى في الظلمة التي تتخللها النجوم، كمن يبحث عن صوت. انتظر، لم يسمع شيئاً. رغب أن يفتح فمه ويسأل غير المرئي:" أراض مني، يا سيدي؟" لكنه لم يجرؤ. أخافه الصمت الذي خيم فجأة حوله.

" بالتأكيد يجب أن يكون غير راض مني، قال ، وهو يرتعش. لكن الخطيئة ليست خطيئتي، يا سيدي، أنا لم أقل هذا. كم مرة قلت هذا! لا أستطيع الكلام! أما أنت، تدفعني أبداً، تارة ضاحكاً، وطوراً غاضباً، وفي هذا الصباح في الصومعة، لما كان الكهنة يطاردونني ليجعلوني سيد الدير، أنا غير الخليق بهذا ، عندما أزلجوا كل الأبواب ليمنعوني من الذهاب، فتحت لي بابا سريا. أخذتني من شعري والقيتني هنا أمام هذا الرهط! وأمرتني: " تكلم، اللحظة قادمة!" وأنا

حافظت على شفتي مطبقتين، وسكت. صرخت لكني سكت، وأنت لم تحتمل، ارتميت علي، فتحت فمي، ليس أنا من فتحه، أنت الذي فتحه بالقوة، أنت من فرك شفتي ليس بفحمة متقدة، كما اعتدت أن تفعل مع أنبيائك، ليس بفحمة متقدة بل بالعسل! وتكلمت. كان قلبي غاضباً، حرضني على أن اصرخ أنا أيضاً كنبيك المعمداني: الله نار، هو قادم! أين تختبئون، من دون شريعة كما أنتم، دون عدالة ودون شرف أو مجد؟ هو قادم!"

بهذا تمنيت أن أزعق، أما أنت، فركت لي شفتي بالعسل وصحت: "حب! حب!"

سيدي، سيدي لا أقدر أن أصارعك؛ هذا المساء أسلم السلاح... لتكن مشيئتك!"

بعد ما قال هذا ارتاح. تدلى رأسه إلى صدره كالطائر النعسان، أغمض عينيه وغفا. في الحال تخيل أنه يؤخذ من صدره تفاحة، يقسمها، يأخذ بذرة ويزرعها أمامه في الأرض. وبعد أن زرعها، أمامه رفعت البذرة التراب عن رأسها، ضخمت، نما لها جذع، ثم أوراق وأغصان، ازهرت الشجرة، اثمرت وحملت تفاحاً أحمر......

تحركت الحجارة مجدداً، خطوة الرجل فتحت العيون. كان أحدهم يقف أمامه، لم يكن وحده كان جذلاً. بتؤده، دونما كلام، استقبل الحضور الذافئ للرجل اقترب الزائر

الأدكن، سجد.

ـ أنت لابد جائع، حملت لك خبزاً، سمكاً وعسلاً.

من أنت ؟ يا أخي.

ابن يونان، أندريه.

ـ تركني كل الناس كلهم ذهبوا. وهذا صحيح، أنا جائع، كيف أنت، يا أخي أتذكرني لتحمل لي شيئاً من فضل اللّه ـ الخبز، السمك والعسل؟ أنا لا أفتقر إلا للعزاء.

أحمله لك أيضاً، قال أندريه، شجعته العتمة. لم ير يسوع الدمعتين المنسابتين على خذي الشاب الشاحبين، ولا يديه المرتجفتين.

تبدأ من هنا يا أخي، قال يسوع. ومد له يده باسماً.

رابوني Rabouni..... معلمي .... تمتم ابن يونان.

طأطأ رأسه وحض قدميه.

(14)

الزمن ليس حقلاً يقاس بالذراع؛ وليس بحراً يقاس بالميل؛ هو خفقان قلب. كم من الوقت دامت هذه الخطبة. أياماً؟ أشهراً؟ سنوات؟ كان ابن مريم ينتقل من قرية إلى أخرى، من جبل إلى جبل أو بالأصح أحياناً بالقارب من ضفة إلى ضفة البحيرة، مسروراً مشغفاً، ينسال الكلام على شفتيه، يلبس الأبيض، كخطيب. وكانت الأرض خطيبته. يضع القدم على التراب، يرفعها فتتغطى الأرض بالأزهار. ينظر إلى الأشجار وتزهر

الأشجار. تهب ريح مواتية عندما يركب قارباً. الناس يسمعونه، والأرض التي عمروها تصير جناحاً. طيلة هذه الخطبات، تحت كل الحجارة التي رفعوها كان اللّه موجوداً. يقرع أحد الأبواب، يأتي اللّه ليفتح. ينظر إلى عيني صديقه، إلى عيني خصمه ويرى في البؤبؤ اللّه الذي يبتسم. هز الفريسيون الرأس حانقين:

يوحنا المعمدان الصائم يبكي يهدد لا يبسم. وسيادتك في كل مكان حيث يقام عرس أو يحتفى بعيد. كنت أول من وصل. أنت تشرب، تأكل، تمرح وأول البارحة في عرس، في قانا، بدأت الرقص مع البنات. ألا تخجل؟ من رأى نبياً يرقص ويمرح؟ يرميه بنظرات عابسة ويزجره.

ابتسم لهم، وأجاب:

ـ لست نبياً، يا فريسيون، يا إخوتي لست نبياً، أنا خطيب.

خطيب؟ همهم الفريسيون، وأبدوا هيئة من يمزق ثوبه

خطيب، أيها الفريسيون، إخوتي. كيف أقول لكم هذا بشكل آخر؟ لا أعرف. اعذروني.

استدار نحو رفاقه "يوحنا، أندريه، يهوذا" نحو الفلاحين والصيادين الذين، افتتنوا بعذوبة محياه، تركوا ليسمعوه حقولهم وقواربهم، ونحّ النساء اللواتي يركضن خلفهم أولادهن على أذرعهن.

استمتعوا واهزجوا وانسحروا، قال لهم، مادام الخطيب معكم. تأتيكم أيام ستعرفون في أثنائها الترمل واليتم، فضعوا

رجاءكم لدى الأب. كيف لا تشق الزهور والأرض والطيور بالسماء؟ أنها لا تزرع، لا تحصد والأب يغذيها. أنها لا تغزل، لا تنسج مع ذلك أي ملك ارتدى يوماً ثياباً بهذه الروعة؟ لا تقلقوا على أجسادكم مما يؤكل أو يشرب، ولا مما يلبس، كونوا تراباً إلى التراب تعودون. فكروا بأرواحكم الخالدة وبمملكة السماء.

كان يهوذا يسمعه ويعقد رموشه فهو لا يبالي بمملكة السموات. كان اهتمامه الأول بمملكة الأرض. وحتى ليس كل مملكة الأرض، إنما أرض إسرائيل تلك صنعت من حجارة وناس وليس من صلوات وغيوم وهذه الأرض، يدوسها الرومان، البرابرة والوثنيون بأقدامهم؛ هم من يجب أن يطرد أولاً، وبعدئذ نهتم وننشغل بممالك السموات.

رأى يسوع أهدابهم تعبس وتكمد، قرأ في التجاعيد التي تغضن جبهتهم أفكارهم الخفية، وضحك لهم، وقال:

يهوذا، أخي، السماء والأرض شيء واحد، الحجر والغيم أمر واحد، ليست مملكة السماء في الفضاء، إنها فينا، في القلب منا: إذن السماء والأرض ستتحدان، الإسرائيليون والرومان سيتحدون، كلهم يغدون شيئاً واحداً.

لكن الأصهب كظم غيظه وكتم غضبه؛ صبر وانتظر ."لا لا يعرف هذا الحالم، ما يقول، فهمهم في نفسه. لم يقم وزناً أو أجرى حساباً. فإن تبدل العالم يتبدل قلبي. وليس سوى اختفاء الرومان من أرضنا ما يثلج صدري!"

في يوم التفت الشاب ابن زيبيدي نحو يسوع، وقال له:

ربي rabbi أنا لا أحب يهوذا، سامحني. لما أدنو منه تنبعث من جسدي قوة غامضة، كما لو أن آلاف الأبر الدقيقة تجرحني. وأول البارحة في العتمة، رأيت ملاكاً أسوداً منحنياً على أذنيه ويهمس له بشيء ما. ماذا يمكن أن يقول له؟

أحدس ما يمكن أنه قال، أجاب يسوع متنهداً.

ماذا إذن؟ أنا خائف، ربي؛ ماذا قال له؟

ـ ستعرف عندما يأتي الأوان، يا أخي، أنا نفسي لم أعرف بالضبط بعد.

ـ لم تأخذه معك؟ لم تدعه يلاحقك في النهار والليل؟ ومتى ستكلمه، صوتك أعذب عندما تخاطبنا، ثم؟

ـ يا يوحنا، يا أخي. إنه بحاجة لكثير من الحب.

كان أندريه يتابع المعلم الجديد ويوماً بعد يوم كان الناس يقبلونه أكثر. لا، ليس الناس، بل القلب. أن تأكل ويضحك ليس خطأ، الأرض تحته تزداد صموداً، والسماء تحدب عليه كأب. ولم يعد يوم السيد يوم غضب وحريق، ليست هذه نهاية العالم، هذا هو الحصاد، القطاف، الأعراس، الرقص كانت براءة العالم تتجدد باستمرار. كلما بزغ يوم رأى الأرض تولد من جديدـ والله يعطيها أيضاً كلمته أن يصونها بيده المقدسة.

كانت الأيام تمر، كان أندريه هادئاً، تفاهم مع الضحك والأكل. استعاد محياه الشاحبة ألوانه. وعندما يستلقون في

الظهر أو المساء تحت شجرة، أو بالأصح عندما يحتفلون بالعيد في أحد البيوت ويأخذ يسوع الخبز، حسب عادته، يباركه، ويوزعه، وفجأة يتحول الخبز في أحشاء أندريه إلى جوهر: يصير حبا وضحكاً وفرحاً. وأحياناً يفكر فقط بذويه ويتحسر.

ـ ما شأن العجوز يونان وزيبيدي؟ قال يوماً، وضاع نظره في الأفق. كما لو كان العجوزان في آخر العمر أواخر الدنيا. وجاك، وبطرس؟ أين هما؟ في أي عالم يتخبطون؟

ــ سنلقاهم جميعاً، أجاب يسوع باسماً. وهم سيجدوننا كلنا. لا تقلق، يا أندريه. قصر الأب واسع، واسع كفاية ليشمل كل العالم. في يوم دخل يسوع بيت صيدا. سارع الأطفال يتمنون له طيب الإقامة ملوحين بأغصان الزيتون والبلح . فتحت الأبواب، بانت النساء، وتركن تدبير المنازل، ورحن يركضن وراءه ليسمعن طيب الكلام. كان الأبناء العاجزون يحملون على أكتاف أهلهم العجز ويأخذ الفتيان الصغار بأيديهم جدودهم العميان، ويسحب الرجال الأشداء وراءهم الممسوسين ويركضون وراءه ليضع يده عليهم ويشفيهم.

في ذلك اليوم، مر توما البائع الجوال، محملاً كحمار، مر صدفة في القرية، يعزف ببوقه ويدعو لبضاعته – الأمشاط، الخيطان، أقراط الآذان الفضية، الأساور البرونزية والمساحيق النادرة للنساء. رآه يسوع وفجأة تبدلت قسمات وجهه. ليس هذا الرجل هو توماس، التاجر الأحول. كان يأخذ وعاء ماء، كان

واقفاً في بلد بعيد وحوله رهط من الناس. بناؤون يبنون، منارات لحمل الكلس والحجارة. ورشة واسعة، عدد من أعمدة الرخام؛ في المكان معبد ضخم وتوماس، البناء الماهر، يركض في كل الاتجاهات مع مائه... طرفت عين يسوع، أغمض توماس عينيه أيضاً، فتحهما وكان أمام يسوع، حاملاً بضاعته، وتبصبص عيناه الصغيرتان الحولاوان والخبيثتان وتضحكان. مد يسوع يده إليه.

ـ قال له، توماس، تعال معي. سأحملك بضاعة أخرى، بهارات الروح وحلاها، كي تذهب وتجوب أطراف الدنيا، تنادي عليها وتوزعها على الناس.

دعني أولاً أبع هذه، قال العجوز المحتال مع ضحكة ساخرة. وبعدئذ، سنرى! ودون انتظار فخ صوته وراح ينادي على أمشاطه، خيوطه ومساحيقه.

شيخ معروف أنه غني كبير صارم وظالم، يقف في عتبة البيت متكئاً بذراعيه على حواجب الباب، تأمل بفضول الرهط المقترب . في الطليعة كانت تركض زرافة من الأولاد، تلوح ببلحها وأغصان الزيتون، تدق الباب وتزعق:

وصل، وصل، ابن داود!

رجل يرتدي لباساً أبيض يتبعهم، بشعر مرسل على الكتفين الهادئين. يبتسم يمد يده إلى اليسار، كأنه يبارك البيوت. خلفه رجال ونساء يركضون ويتعاركون مع من يمسه ليتلقى القوة والقداسة. ووراء أولئك يأتي العميان والمشلولون. لا

تكف الأبواب عن الفتح وفي كل لحظة تظهر جمهرة أخرى.

ما هذا الذي أرى؟ سأل العجوز المعروف بقلق. كان يمسك إطار الباب بحزم، تحسباً من دخول الناس إلى الداخل ليسرقوه.

هذا هو النبي الجديد، يا شيخ حنانيا، أجابه أحدهم وتوقف. يمسك هذا الرجل الأبيض الذي تراه بيدٍ الحياة وبالأخرى الموت ويوزعها كما يشاء. عامله جيداً، هذه خير وصية.

فزع الشيخ حنانيا من هذا الكلام. كان في قلبه الكثير من الحسرات وفي أكثر الليالي يستيقظ مرتجفاً، يعقد الخوف لسانه. كان يحلم أحلاماً مزعجة، يرى نفسه في النار غارقاً حتى الرقبة بشررها كمن يشوى... يقدر هذا الرجل على شفائه؟ كل ما في العالم سحر. هذا الرجل ساحر، قدموا منضدة وغطاء، أمنوا لنا النفقات، ربما قام بمعجزة...

قرر التقدم إلى وسط الشارع وضعاً يده على قلبه:

يا ابن داود أنا العجوز حنانيا، أنا خاطئ وأنت طاهر. علمت أنك فرح بالمجيء إلى قريتنا، فهيأت لك احتفالاً؛ ادخل إن شئت. لمصلحتنا نحن الخطاه مجيء الطاهرين القديسين إلى العالم. بيتي متعطش للطهارة المقدسة. توقف يسوع وقال:

حسنا عجوز حنانيا. أنا سعيد بلقائك.

ولج البيت الغني الريفي، تقدم العبيد، نصبوا الموائد إلى الباحة، حملوا المساند، تمدد يسوع وقدم توماس اللعين الذي

كان تلميذاً، ليأكل. قبالتهم قعد العجوز صاحب الدار بحث في ذهنه عن وسيلة لخوض نقاش بحذق، فهو يشاء، التحدث عن أحلامه وطردها بواسطة التعزيم أو طرد الأرواح الشريرة، وصلت الأطباق، وحملوا أيضاً جرتي خمر والعوام تراقبهم وهم يأكلون ويتحدثون عن اللّه والكروم. أكلوا وشربوا، حمل العبيد الأباريق والأحواض، غسل المدعوون أيديهم واستعدوا للنهوض عندما يكون العجوز حنانيا قد غادر: " تكبدت النفقات، قال، أقيمت موائد الأكل والشرب له ولحاشيته. أصحيح أنه يؤدي دينه الآن ؟ "

يا معلم،أنا أحلم أحلاماً مزعجة، علمت أنك معزم أو طارد شهير للأرواح الخبيثة، عملت ما استطيعه لك، لكي تفعل قداستك شيئاً لي. ارحمني واطرد هذه الأحلام. يبدو أنك تتحدث وتعزم بالأمثال. هات إذن مثلاً؛ أنا أعرف معناه الخفي ـ واشفى. أليس كل شيء سحر؟ ارنا اذن هذا التعزيم، ابتسم يسوع. نظر إلى عيني العجوز. رأى، وهو يرتعد، الأحناك الشرهة للناس الشبعانين، قذالهم الضخم، عيونهم التي تبصبص باستمرار. يحتسون ويأكلون، يضحكون، كل شيء لهم ، يسرقون، يرقصون، يمارسون الحب، ولا يشمون رائحة نار الجحيم. أحياناً فقط، في أثناء نومهم، يفتحون عيونهم ويرون..... يسوع يرى، يرى أبداً العجوز المتخم، جسده، عينيه، خوفه ومرة صارت الحقيقة عنده خرافة.

ـ افتح أذنيك شيخ حنانيا ، افتح قلبك سأكلمك.

ـ فتحت أذني، فتحت قلبي لتلهمك السماء، ها أنا أصغي.

في زمن ما عاش رجل غني، يا عجوز حنانيا ، قاسٍ وظالم؛ يأكل ويشرب، يرتدي الحرير والأرجوان ولا يعطي كأس ماء لجاره أليعازر، الذي كان جائعاً وكان بردانا. كان أليعازر يزحف تحت المائدة ليلتقط فتات الخبز ويقضم العظام. يرميه العبيد خارجاً ويبقى قاعداً في العتمة، وتأتي الكلاب تلحس جراحه. وأزفت الساعة المحددة ومات الاثنان. ذهب الأول إلى النار الأبدية، وذهب الثاني إلى أحضان ابراهيم. في يوم رفع الغني عينيه ورأى جاره أليعازر يضحك ويسبح في النعيم في أحضان ابراهيم. فصرخ:

أب ابراهيم، أب ابراهيم أرسل أليعازر، يبل طرف إصبعه ليرطب فمي؛ أنا ألتهب! لكن ابراهيم أجابه: تذكر يوم كنت تأكل وتشرب، كنت تتمتع بطيب الرخاء وكان الآخر جائعاً وبرداناً. هل أعطيته يوماً كوب ماء؟ إيه حسناً، أتى دوره ليتمتع وأتى دورك لتحترق في الأبدية.

تنهد يسوع وسكت. كان الشيخ حنانيا ، منذهلاً، ينتظر التالي، جف حلقه ويبست شفتاه. تأمل يسوع، مترجياً:

ـ هذا كل شيء؟ سأل بصوت مرتعد هذا كل شيء؟ لا شيء آخر؟ مما جعل يهوذا يضحك، قائلاً:

هذا ما أعد له. ذلك الذي يأكل ويشرب كثيراً على

الأرض يكون بالنار.

لكن الفتى ابن زيبيدي دنا من صدر يسوع:

ـ ربي، كلامك لم يهدئ قلبي، قال بصوت خفيض. كم مرة قلت لنا: سامح عدوك، حبه. حتى لو أذاك سبع مرات بل سبع وسبعين مرة، عليك أن تقدم له الخير بهذا العدد. هكذا فقط يختفي الشر من الدنيا. والآن لا يقدر الله أن يسامح؟

الله صح، أردف الأصهب مطلقاً نظرة ساخرة من العجوز حنانيا

الله هو الخير والطيب ذاته، رد يوحنا..........

إذن لا أمل؟ غمغم المالك العجوز. انتهى المثل؟

نهض توماس، خطى خطوة نحو الباب الخارجي وتوقف.

لا، لم ينته، يا سيد، قال، متهكماً. ثمة أيضاً شيء آخر. قل، يا ابني، ليباركك الله.

الغني اسمه حنانيا، قال. أمسك صرة البضاعة وصار خارج البيت. توقف وسط الشارع وراح يضحك بصخب مع الجيران.

صعد الدم إلى رأس العجوز الضخم وتخضبت عيناه بالدم. قدم يسوع يده وداعب لحية رفيقه المحبوب الجعدة.

يوحنا، قال، للجميع آذان، وسمعوا. للجميع فكر وروح. وحاكموا.

الله صح، قالوا، ولم يقدروا أن يتخطوا هذا. أما أنت لك قلب أيضاً وقلت: الله صح لكن هذا لا يكفي. هو أيضاً الخير

والطيب ذاته. ليس هذا ممكناً، يجب أن يكون لهذا المثل نهاية أخرى أو غاية أخرى.

ربي، قال الشاب، سامحني بالفعل، هذا ما يقوله قلبي: الإنسان يسامح والله لا يسامح؟ غير ممكن، هذا تجديف مميت، يجب أن يكون للمثل نهاية أخرى.

وله نهاية أخرى، يا يوحنا الحبيب، قال يسوع باسماً. يا حنانيا العجوز، اصغ وسيرتاح قلبك ويطمئن. أصغوا أيضاً، أنتم الموجودون في الباحة وأنتم، الجيران، الذين تهذرون في الشارع. ليس الله صح فقط، بل طيب أيضاً؛ وليس طيباً فقط، هو أيضاً أب. سمع أليعازر كلام ابراهيم وتنهد: إلهي، قال لنفسه، كيف يمكن للسعادة أن تدخل الجنة ونحن نعرف أن ثمة إنساناً، روحاً تكون بالنار الأزلية؟ برّدهُ، يا سيد، لابردانا؛ لأخلص أنا. وإلا سأكوي نفسي." وسمع الله الرأي وأضاف: العاذر الحبيب، قال، انزل خذ بيدك العطشان؛ ينابيعي ثرة ولا تنضب، خذه ليشرب ويبترد؛ ولتبترد أنت أيضاً في الأبدية؟ سأل أليعازر. في الأبدية"، أجاب الله.

نهض يسوع وسكت، كان الليل قد خيم، تبدد الشعب وهو يهمس، عاد الرجال والنساء إلى أكواخهم الوضيعة، مرتاحي الصدور. هل تغذي الكلمة؟

ـ هي أهل لهذا عندما تكون طيبة، خاطبوا أنفسهم.

مد يسوع يده ليأخذ إذناً من العجوز حنانيا، لكن هذا

ارتمى على قدميه:

ـ ربي، سامحني! انخرط بالبكاء.

وفي الليلة التالية، تحت الشجرة التي أعدوها للنوم، سعى يهوذا ليرى ابن مريم. لم يستطع أن يهدأ؛ يجب أن يراه، أن يكلمه، أن يضع الأمور في نصابها، أن يتحدثوا بوضوح. فلما سعى في بيت حنانيا ليرى الغني المعذب بنار جهنم، صفق بيديه وصرخ: " هذا يلائمه تماماً!" سمّر يسوع عينيه عليه، كما لو أنه يخاصمه وقدضايقته هذه النظرة أيضاً. إذن يجب جلاء الأمر: الأمارات والنظرات الوجلة لا ترضيه.

أهلاً، قال له يسوع، انتظرك.

لست متفاهماً مع رعيلك، يا ابن مريم، باشر الأصهب على الفور، ليس عندي براءة ولا طهارة ابنك المدلل، يا يوحنا.

ولست أيضاً من أهل الرؤى ولا صاحب دماغ مكشوف أو طائش مثل أندريه، هذا المتقلب الذي يدور مع كل ريح. أنا حيوان فظ بمعنى الكلمة، ربتني أمي بالخفاء والقتني في الصحراء، حيث رضعت حليب ذئبه. وصرت صلباً، قطعة واحدة. شرعي ذاك الذي أحب آتيه حتى قدميه، ومن لا أحب أقتله.

مع الكلام بح صوته، ورشقت عيناه شرراً في العتمة. وضع يسوع يده على الرأس المهدد ليهدئه. لكن ذا الشعر الأحمر، بهزة منه، أبعد اليد المسالمة، تنهد:

ـ أقدر، قال وهو يزن كلماته واحدة واحدة، أقدر أن أقتل

حتى من أحب، إن رأيت أنه ترك سواء السبيل.

ـ ما هو سواء السبيل، يا يهوذا، يا أخي؟

ـ سلام إسرائيل أغمض عينيه ولم يجب كوته الشعلتان المنبثقتان في الظلمة. والهبته أيضاً كلمات يهوذا. ما هي إسرائيل؟ لم فقط إسرائيل. ألسنا جميعاً أخوة؟

كان الأصهب ينتظر جواباً لكن ابن مريم سكت. أخذه الأصهب من يده، هزه. كمن يريد إيقاظه:

ـ فهمت؟ أسمعت ما قلت لك؟

فهمت، أجاب وهو يفتح عينيه.

ـ أخاطبك بفظاظة، لتعرف من أنا، ماذا أريد وأن تجيبني. تريد، نعم أم لا، أن آتي معك؟ أريد أن أعلم.

ـ أريد، يا يهوذا، يا أخي.

وتتركني اعبر عن رأيي بحرية، أن أعارضك، أن أقول لا عندما تقول أنت نعم؟ لأني أريد لك أن تعرف، أن كل العالم يرغب في الإصغاء إليك منذهلاً، أنا لا أقدر. أنا لست عبداً، خذ حذرك منهم، أنا رجل حر.

هذا هو ما اطلبه أنا أيضاً، يا يهوذا، يا أخي، الحرية.

وثب الأصهب. مسك كتف يسوع، وصرخ:

ـ تحرر إسرائيل من الرومان، صار تنفسه كاوياً.

ـ تحرير الإنسان من الغلط.

ترك يهوذا بغضب كتف يسوع، ونقل قبضته إلى جذع

شجرة الزيتون.

ـ هنا يفترق دربنا، هممهم، وحدج يسوع بكره. بداية حرر جسدنا من الرومان، ثم تحرر الروح من الخطيئة. هذا هو الدرب، أنت جدير بالسير فيه؟ لا أحد يبدأ بالسطح ليبني بيتاً. يبدأ البناؤون بالأسس.

ـ الروح هي الأساس، يا يهوذا.

الجسد هو الأساس، يا ابن مريم. به يجب أن تبدأ. قلت لك وأكرر:

ـ احذر، خذ الطريق الذي أشرت أنا إليه. من أجل هذا، اعلم، سآتي معك لأدلك إلى الدرب.

تحت شجرة الزيتون المجاورة، سمع أندريه الحديث في نومه واستيقظ. أصغى. هو صوت المعلم وصوت شخص آخر، أبح. انتفض غاضباً. هل أتى أحد في الليل وهاجم المعلم؟ هو يعرف أن يسوعاً يترك حيث يمر شباناً، نساء وشلة من الفقراء الذين يحبونه، إنما كثير من الأغنياء، ذوي النفوذ والشيوخ المسنين الذين يكرهونه ويتمنون ضياعه. ربما أرسل هؤلاء المجرمون أحد العمالقة ليضربه. سحب نفسه إلى حيث يصدر الصوت، على أربع قوائم، في العتمة. لكن الأصهب سمع الحركة ووقف على ركبتيه، وقال:

ـ من هناك؟

عرف أندريه الصوت.

ـ هذا أنا، أندريه، يا يهوذا

ـ اذهب ونم، يا ابن يونان، عندنا ما نتداوله.

ـ اذهب ونم، أندريه، بني، قال أيضاً يسوع.

خفض يهوذا صوته، شعر يسوع بزفيره الغليظ على وجهه.

كشفت لك الأمر في الصومعة، تذكر أن الأخوية كلفتني بقتلك. في آخر لحظة راجعت نفسي. أعدت الخنجر إلى غمده وغادرت الصومعة في الصباح الباكر، كلصٍ.

لماذا تراجعت، يا يهوذا، يا أخي؟ أنا كنت مستعداً.

ـ انتظرت

ـ ماذا انتظرت؟

سكت يهوذا. وبعتة:

ـ لأرى إن كنت أنت من تنتظر إسرائيل

ارتعد يسوع، تكوم عند جذع الزيتونة، كان يرتجف.

ـ لا أريد أن أزج نفسي وأقتل المخلص، لا أريد! صرخ يهوذا يمسح جبينه الذي امتلأ عرقاً. أتفهم؟ لا أريد! زعق كمن يختنق.

وأخذ نفساً عميقاً.

ربما كان هو نفسه لا يعرف، قلت لنفسي. يجب الصبر، تركه يعيش ونرى ما سيفعل وماذا سيقول. وإن لم تكن هو من ننتظر. لدي متسع من الوقت لأصفيه. هذا ما قلته لذاتي، لذا سأتركه يعيش.

بقي برهة يلهث؛ حفر الأرض بإبهامه، وعلى حين غرة، أخذ يسوع من ذراعه كان صوته أجش، يائساً:

ـ لا أعرف كيف أناديك: ابن مريم، ابن النجار، ابن داوود؟ لم أعرف بعد من أنت، حتى أنت لا تعرف. يجب أن نعلم، لكي نطمئن نحن الاثنين، لا يجوز أن يستمر هذا، لا تهتم بالآخرين: هم يتبعونك كالخرفان الثاغية. لا تفكر بالنساء المعجبات بل واللواتي يبكين؛ هن نساء عندهن قلب وليس لهن رأس، لسنا بحاجة لهن. يجب علينا نحن الاثنين أن نعرف من أنت، ما هذه الشرارة التي تلهبك، هي إله إسرائيل أم الشيطان. يجب، يجب!

ارتعد يسوع بكل كيانه.

ـ مالعمل، يهوذا، أخي؟ كيف نعرف؟ ساعدني.

ـ ثمة وسيلة.

ـ ماهي؟

ـ نذهب إلى يوحنا المعمدان، هو من سيقول لنا. يصرخ إنه: يصل! إنه يصل. ما إن يراك، حتى يفهم إن كنت أم لا ذاك الذي يصل. هذا يطمئنك أنت بالذات، وأنا أعرف ما علي أن أفعله.

ضاع يسوع في حلم يقظة عميق. كم مرة تلبسته هذه الشدة! وقع على الأرض ملء وجهه، يتخبط، يزبد والناس يعتقدون أنه نهب إبليس ويتابعون دربهم، مذهولين. بينما كان

هو في سابع سماء، تركت روحه قفصها، صعدت تطرق باب الله وتسأل: من أنا؟ لم ولدت؟ ماذا أفعل لأنقذ العالم. ما هو أقصر طريق؟ أهو موتي؟

رفع رأسه ورأى يهوذا منحنياً عليه بكلكله.

يهوذا، أخي، قال، نم جنبي والله، كما النعاس، يأتي ليأخذنا. وغداً في الصباح الباكر نسافر لنعثر على نبي يهوذا. سيحدث ما يريد الله. أنا جاهز.

ـ وأنا أيضاً جاهز

وناما قرب بعضهما.

لابد أن التعب قد أنهكهما؛ وإذا أخذهما النعاس في الحال وفي اليوم التالي، باكراً، وجدهما أندريه، الذي يستيقظ مع الديوك، نائمين بين أذرع بعضهما.

بدأت الشمس تنعكس في البحيرة، استضاء العالم. كان ذو الشعر الأحمر يمشي في المقدمة ويفتح الطريق، يأتي وراءه يسوع والمخلصان له، يوحنا وأندريه.

كان توما أيضاً صاحب بضائع وقد تخلف في الضيعة. "جميل هذا الكلام الذي يقوله ابن مريم، كان العجوز الماكر يتآمر بفكره الخبيث، على الفقراء أن يأكلوا ويشربوا ما طاب لهم في الأبدية، إن ذهبوا مرة وسمدوا الخبيزة، إنما ماذا نصير نحن في هذا الزمن، في هذه الدنيا الفانية. احذر أيها الفقير توماس، ابق هكذا فقيراً. ولمزيد من الطمأنينة، يفضل

أن يكون عندك نوعان من السلع هما في سلتي: في الأعلى، كما ترى، الأمشاط الصغيرة ومواد الزينة، وفي الأسفل، في خلفية الحانوت للزبائن المختارين، مملكة السماوات." وضحك ضحكة طيبة، ووضع صرته على ظهره، نفخ في بوقه، وبدأ منذ الصباح يروج لبضاعته الأرضية في شوارع بيت صيدا.

في كفر ناحوم، نهض منذ الصباح الباكر بطرس وجاك وسحبا سوية الشباك، فبدت الأسماك تتخبط في الجيب، لامعة بضوء الشمس. في يوم آخر، كان الصيادان فرحين جداً لإحساسهما ثقل شبكتهما. أما في هذا اليوم كان ذهن الاثنين بعيداً جداً وبقيا صامتين. كانا يسكتان لكن كلاً منهما بينه وبين نفسه كان يندب حظه الذي أبقاهما مكبلين منذ أجيال إلى ضفتي هذه البحيرة حيناً، وحيناً حسب فكره الذي يحسب، ويحسب ولا يترك قلبه ينطلق. " أهذه حياة، كانا يصرخان رمي الشباك، أخذ السمكة، أكل، نوم، و، مادام الله يعمل، ويكرر ذات العمل، ذات الأطعمة اليومية، كل الأيام، طيلة العالم، طيلة الحياة؟ حتى متى؟ حتى متى؟ هل يدون هذا حتى الموت؟" أبداًحتى الآن لم يقلب هذه الأفكار؛ كان قلبهم هادئاً، كان يتبع درباً هرباً من دون تذمر، ذاك الذي سلكه أهلهم، جدودهم، الذين عاشوا آلاف السنين على ضفة نفس هذه البحيرة يتعاركون مع الأسماك، في يوم أغبر صالبوا أيديهم المجعدة ورحلوا. وأبناؤهم وأحفادهم أتوا، وسلكوا الطريق ذاته، من دون

تبرم...... وهذان الإثنان، بطرس وجاك، عاشا حينها حياة رغدة، ليس عندهم شيء يشكون منه؛ لكن في آخر الايام، فجأة، شد الناس عليهم الخناق. فنظروا في المدى، وراء البحيرة، إلى أين إذن؟ إلى أي مكان؟ كانوا يفكرون.

وكأن هذه الشدة لم تكن كافية، يحمل العابرون كل يوم شواهد ـ بدا أن المقعدين بدأوا يمشون، ورأى العميان النور، وعاد إلى الحياة الموتى..... ماهذا النبي الجديد؟ يسألهم العابرون، إخوانكم معه، يجب أن تعرفوا..... يبدو أنه ليس ابن نجار الناصرة، إنه ابن داود، أهذا صحيح؟"

لكنهم هزوا الأكتاف، وعادوا من جديد إلى شباكهم، رغبوا في أن يذرفوا الدموع، ليواسوا قلبهم. أحياناً عندما يبتعد المارة يلتفت بطرس نحو رفيقه: " أتصدق أنت هذه العجائب؟ سأل ـ اسحب الشبكة واسكت" أجاب ابن زيبيدي الثرثار، وبحركة مفاجئة، جر الشبكة بكل أسماكها.

وفي ذلك اليوم، عند الفجر، مرة أخرى، مر شخص يركب بغلاً.

يبدو أن النبي الجديد أكل في بيت حنانيا العجوز، البخيل الدنيء، في بيت صيدا ومنذ أن انتهى من الأكل، حمل له العبيد الماء ليغسل يديه. فاقترب وقال شيئاً بصوت خفيض للعجوز حنانيا. وبغتة تشوش ذهن العجوز، راح ينتحب وبدأ يوزع أرزاقه على الفقراء.

ماذا قال له؟ سأل بطرس. وضاع نظره من جديد بعيداً خلف البحيرة.

آه لو أعرف فقط! قال راكب البغل وهو يبتسم، لأبثه في أذن كل الأغنياء، لكي يتنسم الفقراء قليلاً...... إلى اللقاء، أيها الصياد الطيب، قال، وتابع دربه.

التفت بطرس لكي يكلم رفيقه لكنه تراجع بسرعة. ماذا قال له؟ كلمات أيضاً؟ كأنه لم يكتف! رغب في أن يزرع هنا ويرحل دون التفاتة المغادرة! صار كوخ يونان صغير جداً عليه، وصغيرة جداً أيضاً أحواض الماء هذه بحيرة طبريا.

هذه ليست حياة، لا، تمتم، يجب الرحيل!"

التفت جاك، وسأل:

ـ ماذا تمتم! اسكت.

ليأخذني الشيطان، لا شيء! أجاب بطرس وراح يسحب الشبكة بغضب.

وفي هذه اللحظة تماماً، في قمة الرابية الخضراء حيث تكلم يسوع لأول مرة إلى الناس، ظهر يهوذا أولاً. كان بيده عصا معقدة قطعها في دربه من سنديانة خضراء؛ كان يدق بها الأرض ويتقدم. ظهر له وهو خلف رفاقه الثلاثة يلهثون. توقفوا لحظة لينظروا حولهم. كانت البحيرة تتلألأ، سعيدة، والشمس تداعبها عاكسة نورها على البحيرة، كالفراشات البيضاء والحمراء، قوارب الصيد، وفوق الصيادين المجنحين، النوارس.

وفي العمق، كفر ناحوم تدمدم، كانت الشمس قد علت في السماء، النهار نوار.

هوذا بطرس! قال أندريه ودل بإصبعه إلى أخيه على الشط يسحب الشباك.

وجاك! قال يوحنا بدوره وهو يتنهد. لا يستطيعان بعد أن يتركا الأرض...

ابتسم يسوع

لا تتنهد، رفيقي الحبيب، قال له، ناموا كلكم هنا لترتاحوا، أنا سأذهب للبحث عنهم.

أخذ الطريق الضيق النازل، بخطوة سريعة وخفيفة. " هو كالملاك، قال يوحنا بزهو. لا تنقصه إلا الأجنحة." ينتقل من حجر إلى حجر وينزل. وصل الشط، أبطأ الخطو. وقف خلف الصيادين المنحنيين على شباكهما. بقي طويلاً في مكانه، ينظر إليهما ولا يقول شيئاً. كان يحس فقط أن قوة تخرج منه؛ كمن يستهلك. العالم يمرح، يخفق في الفضاء، يسبح كغيمة فوق البحيرة. ومعه يخف، ويخفق الصيادان، تتحول شبكتهما؛ لم تعد هنا شبكة، ولا أسماك، ها هنا بشر آلاف الناس سعداء يرقصون.

شعر الصيادان فجأة بتنميله حلوة ونادرة في قمة الرأس، فأخذهما الخوف. انتصبا، التفتا. كان يسوع واقفاً، هادئاً وساكناً يتأملهما.

ـ سامحنا يا معلم! صرخ بطرس، بخجل.

ـ مما، يا بطرس؟ ماذا فعلتما لأسامحكما؟

ـ لا شيء، تمتم بطرس. وفجأة: " هذه ليست حياة، لقد ذقت منها ما يكفي!"

ـ وأنا أيضاً، أردف جاك ورمى شبكته على الأرض.

تعالا، قال يسوع مادا لكل منهما إحدى يديه، تعالا، سأجعلكما تصيدان بشراً.

وأخذ الاثنين بيده وأتى وجلس بينهما، وقال:

ـ لنذهب.

دون كلمة وداع للعجوز يونان؟ قال بطرس مفكراً بأبيه.

ـ لا تحول رأسك يا بطرس، ما معنا وقت؛ هلما نرحل.

إلى أين؟ سأل جاك، متردداً.

ـ لم السؤال؟ لا حاجة للأسئلة، يا جاك، هيا.

خلال هذا الوقت كان الشيخ يونان، منحنياً على الموقد، يحضر الطعام وينتظر ابنه بطرس ليأكلا. لم يبق له غيره، ليعطه الله عمراً! كان بطرس ولداً طيب الخلق، مرتباً. الآخر، أندريه، حزن عليه منذ برهة طويلة. كان يذهب حيناً مع مشعوذ، وحيناً مع آخر ويترك أباه العجوز وحده يعارك الريح والقارب العتيق، وطوي الشباك وتهيئة المائدة وإدارة البيت.

منذ أن ألقى التراب على امرأته، وهو يصارع كل هذه المصاعب البيتية.

أما بطرس، ليباركه الله، كان يعينه ويشجعه. ذاق

حساءه[1]، كان طبخه جيداً.

تطلع إلى الشمس، ما كانت بعيدة عن الظهر. " أنا جائع، تمتم، إنما سأنتظره، لن آكل إلا معه." صالب ذراعيه وركن.

في المدى المنظور كان بيت زيبيدي العجوز مفتوحاً، كانت الباحة تغص بالسلال والجرار، وكانت الكركة[2] في مكانها. هم في وقت تفريغ القدور لسحب العرق، ينشر البيت رائحة هذا الشراب المسكر. كان زيبيدي العجوز جالساً وزوجته تحت عريشة عارية أمام منضدة واطئة يفطران. كان زيبيدي يمضغ الأكل بلثة درداء ويتكلم عن فوائد الأسنان. منذ وقت بعيد يحكي عن بيت جاره الصغير؛ العجوز نعوم يطالبه بدين ولا يستطيع الوفاء؛ بعد أسبوع، بمعونة الله، أنزله إلى المزاد، أخذه، وحقق أمنية أعوام، أي هدم جدار مشترك وتوسيع الباحة. كان عنده قبو لعصر العنب، لكنه كان يتمنى اقتناء معصرة زيت، ليأتي إليه الناس يعصرون زيوتهم ويقتضي الأجر زيتاً. وأين يضع هذه المعصرة؟ يجب إذن بأي سعر امتلاك بيت العجوز ناحوم... كانت سالومي العجوز تسمعه وتفكر بولدها يوحنا، ابنها الحبيب. – أين يمكن أن يكون؟ أي عسل يرصع شفتي النبي الجديد، كم تود أن تراه

---

1 ـ يخنة كثيرة التوابل.

2 ـ آلة تقطير.

ثانية، سماعه أيضاً يتكلم لجلب الله إلى قلوب الناس! ابني فعل خيراً، سلك خير سبيل، أباركه! أنا أيضاً حلمت أول أمس. أغلقت فجأة الباب ورائي، غادرت البيت بأقبيته الغاصة بالرزق ومعاصره وذهبت في إثره، ركضت إلى جانبه، حافية القدمين، جائعة ولأول مرة أنا أيضاً أحسست ما هي السعادة.

أتسمع ما أقول لك ؟ قال زيبيدي العجوز الذي رأى لحظة عيني امرأته مخطوفتين كما في نشوة. أين كان فكرك؟

اسمع، أجابت، ورمقته بنظرة كما لو كانت تراه لأول مرة.

في هذه اللحظة سمعت أصوات أليفة في الشارع. رفع الشيخ عينيه.

ها هم ! صرخ. رأى الرجل الأبيض وإلى يمينه ولداه؛ سارع إلى العتبة، الفم ملآن.

هيا، يا أولاد، صاح إلى أين تتجهون؟ أهكذا تتخطون داري؟ قفوا!

عندنا عمل يا عجوز زيبيدي! أجابه بطرس؛ والآخرون يسيرون في دربهم.

لتفعلوا ماذا؟

ـ أشياء صعبة! أردف بطرس وهو يضحك.

ـ وأنت أيضاً، يا جاك، أنت أيضاً. زعق العجوز وهو يجحظ بعينيه. بلع دون مضغ، حكت اللقمة حلقه. دخل، رأى

امرأته؛ هز رأسه:

ـ تقدر أن تودع ولديك، عجوز زيبيدي، أخذهما اللّه منا.

ـ أتعتقدين أنه أخذ جاك أيضاً؟ أردف العجوز مروعاً. لكن جاك، كما أعرف، عقله في رأسه، ورأسه على كتفيه، ليس هذا ممكناً!

سكتت السيدة سالومي. ماذا تقول له؟ كيف له أن يعي الأمر. نهضت، لم تعد جائعة. بقيت واقفة في العتبة تطالع الجمهرة الفرحة التي سلكت الدرب الملكي، متبعة نهر الأردن، إلى القدس رافعة يدها الهزيلة:

ـ لترافقكم بركتي، تمتمت بصوت خفيض، لكي لا يسمع زوجها.

عند الخروج من الضيعة رأوا فيليب الذي يرعى خرافه قرب ضفة البحيرة. كان قد تسلق صخرة حمراء، استند إلى عصا الراعي يتأمل، منحنياً إلى الأمام، ماء البحيرة عند قدميه. فوق الماء الأزرق الأخضر تأمل ظله المتحرك، كلي السواد. سمع حفيف الحصى في الأسفل على الدرب، رفع رأس عصاه وتعرف إلى المارة.

عمتم صباحاً، قال، نحن هنا، نحن أيضاً. إلى أين ذاهبون؟

إلى مملكة السماء! رد أندريه. أتأتي؟

آه، تكلم بجد، يا أندريه. إن كنتم ذاهبين إلى مجدلا من

أجل الأعراس، آتي معكم. فقد دعاني ناثانائيل؛ هو يزوج حفيده.

وبعد مجدلا ، لا تأتي؟ سأله جاك.

عندي خرافي، أجاب فيليب، لمن أتركها؟

برعاية الله، قال يسوع دون أن يلتفت.

يأكلها الذئب! زعق فيليب

ليأكلها! صرخ يوحنا

" أنا واثق أن هؤلاء جنوا نهائياً" قال الراعي. وصفر ليجمع خرافه.

رحل الركب. أخذ يهوذا الطليعة مع عصاه المفتولة؛ كان أكثرهم إلحاحاً. وكان قلبهم يطفح جذلا ، كانوا يصفرون كالشحارير، يضحكون ويمشون. وكان هو فقط يحافظ على سيماء مكفهرة؛ لم يكن يصفر ولا يضحك؛ يفتح الدرب ويسرع.

بالفعل، يمكن سؤال يهوذا ، إلى أين نحن ذاهبون؟ قال له بطرس بصوت خفيض. فراح نصف محيى الأصهب يضحك، وأجاب:

إلى مملكة السماوات.

دع الهذر جانباً؛ باسم السماء قل لي، إلى أين المسير؟ أنا أخاف أن أسأل المعلم هذا السؤال.

إلى القدس

أوه، أردف بطرس وهو ينتف شعره الرمادي. ثلاثة أيام على

الأقدام! لو علمت، لأخذت خفيُ، قطعة خبز وزق خمر وعصاي.

مما جعل قسمات الأصهب كلها تضحك:

أه، أيها الفقير بطرس، قال، التيار يأخذنا، انتهى الأمر! قل إلى الأبد لخفيك، لخبزك، لخمرك وعصاك. لقد ذهبنا، يا بطرس، ألم تفهم؟ تركنا العالم؛ تركنا البر والبحر، نحن في الجو!

انحنى إلى أذن بطرس

ـ ثمة وقت للرجوع، قال له، إليك عنا

ـــ إلى أين الذهاب، الآن، يا يهوذا؟ قال بطرس. فتح ذراعيه، دار بهما بكل الاتجاهات، بصبر. يبدو لي كل هذا تافهاً، لا طعم له، الآن قال وأشار إلى البحيرة، إلى قوارب الصيد وإلى البيوت وإلى بيوت كفرناحوم.

هز ذو الشعر الأحمر رأسه الضخم، وأردف:

جيد ما قلت. الآن لا تغمغم وسر!

(15)

بداية ها هي، كلاب القرية لحظت حضورهم وراحت تعوي؛ ثم أتى الفتيان الذين ولوا راكضين إلى مجدلا لنقل الخبر: ـ وصل! وصل! — من هو، يا أولاد؟ شرّعت الأبواب، انتشرت الأسئلة في كل مكان.

النبي الجديد! في عتبة البيوت تكدست النسوة، الثرثرات؛ ترك الرجال شغلهم، ارتعد المرضى وتجمعوا ليذهبوا ليلمسوه. لقد شكل الآن إشاعة ضخمة في أنحاء بحيرة طبريا. كان العميان، المقعدون، الصرعى الذين شفاهم ينشرون من قرية إلى أخرى عطاياه وقدرته.

لقد لمس أجفاني التي كانت غارقة في العمى ورأيت النور. – أمرني: ارم عكازتين وامش! وبدأت أرقص. – لقد تغذى في بدني جيش من الأبالسة ورفع هو يده وأمرها: اخرجي، وادخلي في الخنازير! وفي الحال وثبت من داخلي ضاحكة، دخلت في الخنازير التي كانت ترعى على الضفة واهتاجت الخنازير؛ ارتمت في الماء، مفرشخة الواحد فوق الآخر، وغرقت. سمعت المجدلية النبأ وخرجت من بيتها. فمنذ أن أمرها ابن مريم بالعودة إلى دارها وأن لا تتألم بعد الآن، لم تظهر في بابها. كانت تبكي، تغسل نفسها بدمعها. كانت تجهد في محو حياتها وروحها، أن تنسى كل ما مضى، الخجل، الأفراح والأمسيات، لتولد ثانية بجسد نقي. في الأيام الأولى كانت تدق رأسها بالحيط وتنوح؛ ساعدها الوقت وهدأت، تراجعت آلامها، توارت الأحلام الفاسقة التي كانت تعذبها والآن في كل مساء يأتيها يسوع في نومها، يفتح الباب كصاحب البيت، يقعد في الباحة، تحت الرمانة المزهرة، تعباً، مغطى بالغبار؛ يأتي من مكان بعيد، أسقمه الناس وأضجروه تسخن المجدلية الماء كل

مساء لتغسل قدميه الطاهرتين؛ ثم تحل عقد شعره لتجففها. وهو يرتاح، يبتسم ويحدثها. ماذا كان يقول لها؟ لا تتذكر أبداً لكنها في الصباح عندما تستيقظ، تثب من سريرها، خفيفة، بهيجة، وفي الأيام الأخيرة بدأت بكل هدوء، كي لا يسمعها الجيران، تغني كالحسون. وعندما سمعت صياح الأولاد الذين كانوا يعلنون مجيئه، نهضت، سوت منديلها ليخفي وجهها الذي دوعب كثيراً ـ تظهر عيناها السوداوان ـ تفتح الباب وتذهب لملاقاته كانت القرية في ذلك المساء مقلوبة رأساً على عقب. تبرجت البنات وأعددن فوانيسهن للذهاب إلى العرس. كان العريس حفيد ناثانائيل، الشاب الضخم ممتلئ الخدين مع أنف بشكل الباذنجان، حذاء مثل خاله. وكان وجه العروس مغطى بنقاب سميك ـ لا ترى سوى عينيها اللتين تخترقان النقاب والقرطين الفضيين بأذنيها. كانت تجلس على منصة عالية، في صدر بيتها، وكانت تنتظر مجيء المدعويين وبنات القرية مع قناديلهن المضاءة ووصول الحاخام ليفتح الكتاب المقدس ويتلو الصلاة، ثم بعد أن انسحب الجميع بقيت مع الشاب ذي الأنف الباذنجاني.

سمع ناثانائيل صياح وزعيق الأطفال: وصل! وصل! سارع ليدعو أصدقاءه إلى العرس. وجدهم جالسين قرب البئر، في مدخل الضيعة؛ كانوا عطاشاً ويشربون الماء، المجدلية راكعة أمام يسوع، غسلت قدميه وهي الآن تنشفهما بشعرها.

إن كان هذا يغبطك، قال، سيتزوج حفيدي هذا المساء، تعالي إلى العرس. سنشرب خمرة العنب الذي عصرته هذا الصيف في دار زيبيدي.

التفت نحو يسوع، وقال:

يحكى الكثير عن قدسيتك يا ابن مريم. قدم لي هذه الفرحة، تعال وبارك الزوجين، وأن يرزقا بنين وبنات من أجل مجد إسرائيل.

نهض يسوع، وقال:

سرور الناس يسرنا. هيا، يا رفاقي.

مشى في المقدمة، مغتبطاً. كان يحب الأعياد، وجوه الناس المنورة الشباب الذين يتزوجون والذين لا يسمحون بانطفاء موقد الدار. الأغراس، الحشرات، الطيور، الحيوانات والناس، كل هذا مقدس، قال لذاته وهو ذاهب إلى العرس، كلها خليقة الله. لم تأتي، إن لم يكن لتمجيد الخالق. لتعش إذن إلى الأبد!

كانت الشابات، بعد التزين، ارتدين الأبيض وحملن الفوانيس المضاءة، ينتظرن واقفات أمام الباب المغلق والجميل ويغنين أغنيات الزواج العتيقة التي تمدح العروسين، كان العريس رجلاً من بني إسرائيل، ربما من هذين الجسدين اللذين سيتحدن هذا المساء يأتي المسيح...... كن يغنين لمخاتلة الانتظار؛ كان الخطيب يرجيء وصوله ليرفس الباب وليبدأ العرس.

وفي تلك اللحظة بالضبط وصل يسوع مع فريقه. التفتت

الصبايا، رأين المجدلية، توقف الغناء فجأة وتبددن، مقطبات، عابسات ماذا تفعل هنا هذه المرأة الآثمة بين العذراوات؟ أين هو شيخ القرية ليطردها؟ كان العرس امتهن، بل تدنس!

و التفتت النساء المتزوجات بدورهن ورمينها بنظرات وحشية. واضطرب النبلاء البورجوازيون المدعوون الذين ينتظرون هم أيضاً أمام الباب المغلق بهياج، مهمهمين. لكن المجدلية تتورت كمشعل لاهب، وشعرت بوقفتها إلى جانب يسوع ببراءة جديدة في حناياها وبقبلات من شفتيها العذارى. بغتة تبعثر الرهط ودنا شيخ الضيعة، عجوز هزيل هرم ولاذع اللسان دنا من المجدلية، لمسها بطرف عصاه وأشار عليها بالمغادرة.

أحس يسوع على محياه، على صدره المكشوف وعلى يديه نظرات الرهط الحاقدة. استعر جسده كما لو كانت تخزه أشواك غير مرئية ولا تحصى. نظر إلى الشيخ، إلى النساء النبيلات، وإلى الرجال العابسين، إلى العذارى الهائجات وتنهد. حتى متى تبقى عيون الناس عمياء وتكون غير خليقة برؤية أننا جميعاً أخوة؟ قال في عبه.

كانت التمتمات الآن أكثر وضوحاً. سمعت في الظلمة أولى التهديدات دنا ناثانائيل من يسوع ليكلمه؛ لكنه أبعده بتؤدة، نهض ومشى إلى العذارى.

اضطربت الأضواء، سمح له بالمرور، وقف في وسط الصبايا ورفع اليد:

يـا عـذارى أخـواتي، قـال، لمـس اللّه يـدي؛ همـس بـأذني بكلمـة حـب أنقلها لـكـم ﴿ هـذه الليلـة المباركـة بهـذا الـزواج. أيها العذارى أخواتي، افتحن آذانكن، افتحن قلوبكن. وأنتم، أخوتي، اسكتوا، سأحكي!

التفت كل القوم، مضطربين. مـن صوته قدر هـذا الرجـل أنه غاضب، والنساء كن مكروبات. صمت الجميع. من الباحة سمع عزف الموسيقيين الكفيفيين اللذين أعملا مكبر الصوت. رفع صوته، وقال:

ماذا رأيتن يا أخـواتي العـذارى ﴿ مملكـة السموات؟ نحـن ﴿ عـرس . اللّه هـو الخطيـب، الخطيبـة هـي روح الرجـل. ﴿ السماء عـرس وكـل النـاس مـدعوون إليـه. اعـذروني، إخـوتي، هذه هي كلمة اللّه. سأجلوها بالأمثلة.

أقيم عـرس ﴿ قريـة. أخـذن عشر صبايا فوانيسهن وذهـبن إلى لقاء الخطيب. خمس منهن كن فهيمات، أخذن معهن دورقاً مليئـاً بالزيـت؛ الخمـسة الأخريـات كـن عـشماوات، لم يأخـذن معهـن زيتـاً احتياطيـاً. لم يقفـن أمـام بيـت الخطيبـة، انتظـرن، انتظرن، تخلف الخطيب بالوصول. نعسن، نمـن. و﴿ قلب الليل سمع صوت: "وصل الخطيب، اركضن لاستقباله!"

سـارعت البنات العشر لتعبئة الفوانيس الـتي تكـاد تنطفئ؛ لكن الخمس الحمقاوات ما كان معهن زيت

أعطونـا زيتـاً، يـا أخـوات، قلـن للبنـات الحـصيفات، نفـد

الزيت من فوانيسنا.

لم يبق معنا. اركضن وهتن زيتاً.

لكن، بينما كانت البنات الحمقاوات يبحثن عن الزيت، وصل الخطيب، ودخلت البنات الحصيفات، وأغلقن الباب.

و هكذا بعد برهة، وصلت البنات الحمقاوات بفوانيس منارة. ورحن يقرعن الباب، ويصرخن متوسلات:

افتحوا لنا.

لكن البنات الحصيفات ضحكن من داخل البيت وأجبن:

حسناً فعلنا، الباب أزلج وليس لكنّ سوى الرحيل.

بكت العذارى الطائشات وتوسلن:

افتحوا ! افتحوا!

و ماذا بعد...

توقف يسوع. جال بنظراته مجدداً حوله، على الشيخ، على المدعويين، على صاحبات البيت النبيلات وعلى العذارى حاملات الفوانيس المضاءة وابتسم.

و بعدئذ...؟ قال ناثانائيل، الذي يصغي مندهشاً والذي استعر روحه البسيط بل والساذج. والآن، ربي، ماذا يحدث هنا؟

ماذا تفعل، أنت ناثانائيل لو كنت الزوج؟ سأل يسوع واضعاً نظره على السحرة والمشعوذين.

كان ناثانائيل صامتاً. لم يصل إلى تمييز ما عليه أن يفعل تمييزاً جيداً. أحياناً يميل إلى طردهن، مادام الباب موصداً؛

هذه هي الشريعة؛ وطوراً يحنو عليهن ويفضل أن يفتح لهن...

ما تفعل لو كنت أنت العريس؟ سأل يسوع أيضاً. كانت عيناه تداعبان بمودة، بعناد، مثل سمات وجه الحذّاء البريء وغير الخبيث.

افتح الباب، أجاب بصوت منخفض، كي يسمع الشيخ المسن؛ لم يعد قادراً على مقاومة عيني ابن مريم.

حسناً، ناثانائيل رفيقي، أردف يسوع مسروراً وهو يمد اليد نحوه ليباركه.

في هذه اللحظة تدخل، حيا إلى الجنة. وهكذا فعل العريس نفسه. نادى الخدم:

افتحوا الباب؛ هذا عرس، ليأكل كل الناس، ويشربوا، ويفرحوا؛ لتدخل العذارى الطائشات. اغسلوا ونشفوا أقدامهن، لأنهن ركضن كثيراً.

عينا المجدلية، تحت الأهداب غشاهما الدمع. آه! لو تستطيع معانقة هذه الشفاه التي لفظت هذا الكلام! وأشرق بهجة الطيب ناثانائيل من قدميه حتى رأسه، كما لو دخل فعلاً إلى دار الخلود. لكن الشيخ الهرم، لسان الأفعى، رفع عصاه، وصر:

تسير عكس الشريعة، يا ابن ماري.

ـ بل هي الشريعة التي تفعل عكس أحاسيسي، أجاب يسوع بهدوء.

بينما كان مازال يتكلم، ظهر الخطيب، نظيفاً، معطراً،

على شعر رأسه الكث والجعد إكليل أخضر. لقد احتسى، كان طيب المزاج وأنفه يلمع. بضربة حاسمة خلع الباب، لحقه المدعوون على عجل. دخل يسوع، آخذاً المجدلية بيده.

من هن الصبايا العشماوات، من هن الحصيفات؟ سأل بطرس يوحنا، بصوت خفيض. ماذا فهمت، أنت؟

إن الله أب، أجاب ابن زيبيدي.

وصل الحاخام، أعلن العرس وشهره. وقف العريس والعروس في وسط البيت، اصطف المدعوون، عانقوهما، تمنوا لهما إنجاب الابن الذي ينقذ إسرائيل من العبودية. ثم صدحت الموسيقى بمكبرات الأصوات، شربوا، رقصوا، يسوع ورفاقه شربوا ورقصوا أيضاً. كان الوقت ينصرم، صعد القمر إلى السماء، نزلوا إلى الطريق. كانوا في فصل الخريف. لكن النهار ما يزال حارا وكان مغبطاً السير في رطوبة الليل.

كانوا يمشون، الوجه ملتفت نحو القدس، شربوا وتحول العالم، أجسامهم خفيفة كما الروح. كانوا يمشون بخطوات مجنحة؛ كان إلى يسارهم الأردن وإلى يمينهم السهل الهادئ والخصب في زابيلون. كانت ترتاح في ضوء القمر، متعبة، سعيدة؛ لقد أكملت أيضاً في هذا العام الواجب الذي أوكله الله لها منذ آلاف السنين. لقد دفعت السنابل إلى علو الإنسان، وأعطت الكروم العناقيد والزيتونات والزيت؛ والآن تستجم تعبة، سعيدة، كامرأة وضعت وليدها للتو.

أي غبطة، يا أخواتي، كان يردد بطرس باستمرار. لم يستطع أن يكتفي من هذا الليل ومن عذوبة الريف. أهذا هو الواقع؟ أحلم هذا؟ هل سحرنا؟ أتمنى أن أغني، لأريح قلبي.

كلنا سوية! أردف يسوع. تقدم الركب، بصوت رخيم دندن الأغنية.

كان صوته ضعيفاً إنما ناعماً، يملأه الحمام والهوى. إلى جانبيه، أصوات يوحنا وأندريه، رخيمة، تزخر بالوئام. وحدها غنت هذه الأصوات الثلاثة برهة طيبة، مترددة وفاتنة. كان القلب يلهث لسماعها، يقال: لم تستطع أكثر، سيخور الثلاثة قريباً، الواحد بعد الآخر، لكنها كانت تنبعث من منهل عميق، فزخمت من جديد. وبغتة ـ مع أي بهجة، أي زخم، هزت الهواء الأصوات الثلاثة قوية مظفرة ممجدة شامخة لبطرس، جاك ويهوذا. الثلاثة سوية، كل حسب طاقته، أطلقوا عالياً في الجو المزمور الطافح بالعذوبة، مزمور السير المقدس.

"أوه، ليس ثمة أفضل ولا أحلى من أخوة يشقون دربهم سوية!

"هذا كالزيت المقدس الذي يرشح من لحية آرون Aaron.

"هذا كنداوة حرمون المكسوّ بالثلوج"

"إلى هنا يرسل الله البركة والحياة منذ قرون وقرون. "

كانت الساعات تمر، النجوم تأفل، الشمس تسطع. تركوا وراءهم أراضي الجليل الحمراء ودخلوا في الأراضي

السوداء في السامرة.

لنقم بجولة، اقترح يهوذا لما توقف. هذه الأرض هرطوقية وملعونة. عبروا جسر الأردن إلى الضفة الأخرى. يأثم من يجاور أولئك الذين يخرقون الشريعة، ألهم دنس، ماؤهم وخبزهم دنسان. قطعة من خبز السامرة هي قطعة من لحم خنزير، قالت لي أمي. لنقم بجولة!

لكن يسوع أخذ يهوذا من يده، تقدم، وقال له:

يهوذا، أخي، النقي يجاور الفاسد فيطهره. لا تعارض؛ هذا مؤات لمن أتينا من أجلهم، من أجل الخطاة. ما حاجة الأفاضل بنا! هنا، في السامرة، تقدر كلمة طيبة أن تنقذ روحاً. الكلمة الطيبة، يا يهوذا، حركة طيبة، ابتسامة للسامري العابر. آتفهم؟

تطلع يهوذا واجفاً حوله ليرى أن كان الآخرون لا يسمعون هذا وخفض الصوت:

ليس هذا هو السبيل، لا، ليس هذا هو السبيل. لكني صابر حتى نصل إلى هناك، قرب الناسك المتوحش. هو الذي سيحكم. حتى ذلك الوقت أذهب حيث شئت، أفعل ما تود، لن أتركك.

زلق عصاه المعقدة خلف كتفيه وتقدم وحده.

كان الآخرون يمشون، يتسامرون، يحدثهم يسوع عن الأب، عن الحب وعن مملكة السماوات. كان يجلو لهم نفوس البنات الحمقاوات ونفوس الحصيفات، والفوانيس والزيت والخطيب. لماذا دخلت العذارى الحمقاوات إلى دار الخطيب،

كما العذارى الحصيفات، بل أيضاً لماذا غسل الخدم أقدام المتعبات فقط. كان الرفاق الأربعة يصغون له، ينفتح ذهنهم ويقوي قلبهم. وظهر لهم الخاطئ كابنة غشيمة تنتظر، واقفة مع فانوسها المنطفيء، أمام باب الرب، تصلي وتلتمس وتبكي....

كانوا يمشون، يمشون. مع أن السماء فوقهم كانت محملة بالغيوم. ووجه الأرض يكمد؛ وفي الجو، رائحة المطر.

بلغوا القرية الأولى، في أسفل جبل جدودهم المقدس، غارزيم Garizim في مدخل القرية كان موجوداً بئر يعقوب القديم، محاطاً بأشجار البلح والورد. من هنا كان يأتي البطريرك يمتح الماء ويشرب ويسقي خرافه. كان الغطاء الحجري قد حزه الحبل الذي يحكه منذ أجيال. كان يسوع تعباناً وكانت الحجارة قد أدمت قدميه.

أود أن أبقى هنا، أنا تعبان. وأنتم ادخلوا القرية، اقرعوا الأبواب؛ ستجدون نفساً خيرة تجود عليكم ببعض الخبز. وستأتي امرأة إلى البئر، لتمتح الماء وتعطينا نشرب . ثقوا بالله وبالناس.

ذهب الرفاق الخمسة؛ في الطريق راجع يهوذا نفسه

أنا لا أدخل قرية فاسقة، قال، لا أكل خبزاً دنساً. أود أن أتوقف تحت شجرة التين هذه وأنتظركم.

في هذا الوقت كان يسوع قد نام بين الورد، في الظل. كان عطشاناً لكن البئر عميق، لا يستطيع أن يشرب. حنى رأسه

واستسلم لأحلام اليقظة. كان الدرب الذي اختاره عسيراً؛ كان جسمه هزيلاً تعِب، لم تعد قواه تحمله. سقط. لكن اللّه سرعان ما نفخ عليه كنسيم منعش لطيف، فاستعاد جسده زخمه، نهض وتابع المسير... حتى متى؟ حتى الموت؟ وأبعد من الموت؟

بينما كان يفكر باللّه بالناس وبالموت، تحركت الورود، اقتربت من البئر شابة مزدانة بالأساور وأقراط الأذنين، وعلى رأسها جرة. وضعت الجرة قرب المثاب[1] وكان يسوع يراها من بين الورود تمد الحبل الذي تحمله بيدها، تدلو الدلو، تسحب الماء وتملأ الجرة، فتضاعف عطشه.

يا امرأة، قال وهو يخرج من بين الورود، أعطني أشرب.

فزعت المرأة لدى رؤيته يظهر هكذا فجأة، لا تخافي، قال لها، أنا رجل شهم، عطشان، أعطني أشرب.

كيف أفعل، أجابته، أنت من منطقة الجليل، يبدو هذا على ملبسك، وتطلب الماء من امرأة سومرية؟

لو علمت من يكلمك: "امرأة، أعطني ماء لأشرب" لركعت على قدميه وطلبت أنت أن تشربي الماء الأزلي.

لم تستجب المرأة:

ـ ما معك حبل ولا سطل والبئر عميق. كيف ستسحب الماء وتعطيني لأشرب؟

---

1 ـ غطاء البئر، وهو عادة من الحجر.

من يشرب ماء هذا البئر سيعطش، أجاب يسوع. إنما من يشرب الماء الذي أعطيه أنا لا يعطش أبداً.

سيدي، أعطني إذن هذا الماء لأشرب فلا أعطش أبداً. ولا آتي كل يوم إلى البئر.

اذهبي إذن وتعالي وزوجك، أردف يسوع.

سيدي، ما عندي زوج

فعلاً؟ كان عندك خمسة حتى الآن ومن عندك الآن ليس زوجك.

أنت نبي، يا سيد؟ زعقت المرأة ممتلئة إعجاباً. تعرف. كل شيء؟

ابتسم يسوع:

أعندك قضية تطرحينها علي؟ قولي الصدق.

سأسألك شيئاً، يا سيد أجبني. حتى الآن يتعبد آباؤنا اللّٰه على هذا الجبل المقدس، غارزيم، والآن تقولون أنتم ليس لأحد إن يعبد اللّه إلا في القدس. أين الحقيقة؟ أين اللّه؟ أنرني.

حنى يسوع رأسه وسكت. هذه الخاطئة يعذبها إغضاب اللّه، تبلبله إلى أبعد من أعماق قلبه. يبحث، ليرضيها، عن الكلمات التي تريحها. بغتة رفع رأسه، كان محياه نورانياً.

احفظي في أعماقك ما سأقول لك، يا امرأة. سيأتي اليوم - وهو الآن موجود - يوم لا أحد لا على الجبل ولا في القدس. اللّه روح ولا يعبد الروح سوى الروح.

بقيت المرأة مشوشة؛ دنت وتأملت يسوع بغصة.

أأنت، قالت همساً، بصوت واجف، أأنت من ننتظر؟

من تنتظرون؟

أنت تعرف. لم تريدني أن أذكر اسمه؟ أنت تعرف، شفاهي خاطئة. حنى يسوع رأسه إلى صدره، كمن يصغي إلى قلبه.؟ كما لو كان هو الذي سيعطي الجواب. انحنت المرأة عليه وانتظرت محموقة.

بينما بقي الإثنان هنا، مضطربين وصامتين، سمعت صيحات بهيجة، ظهر التلامذة ملوحين بالخبز مظفرين. رأوا المعلم مع سيدة لا يعرفونها فتوقفوا. رآهم يسوع وفرح: فقد زاغ من سؤال المرأة الرهيب. أشار إلى رفاقه أن اقتربوا:

تعالوا، صرخ، أتت هذه المرأة، أرسلها الله لتمتح الماء لتعطينا نشرب. دنا الرفاق. وبقي يسوع وحده بعيداً، كي لا يدنس بشرب ماء السامرة. حنت السامرية الجرة، وشرب العطاش. ثم عبأتها ثانية، رفعتها بمهارة إلى رأسها وذهبت ساكتة مفكرة نحو القرية.

ربي، أي امرأة هذه؟ سأل بطرس. كنتما تتكلمان كأنكما تعرفان بعضكما منذ أعوام.

هذه إحدى أخواتي، أجاب يسوع. طلبت منها ماء لأني عطش وهي التي روتني.

حك بطرس رأسه الصلب، وقال:

لم أفهم.

لا بأس، قال يسوع مداعباً رأس صديقه. ستفهم رويداً رويداً، شيئاً بعد آخر، لا تكن ملحاً. الآن نحن جياع، لنأكل! قعدوا تحت شجرات البلح وقص أندريه أنهم دخلوا قرية وراحوا يشحدون قرعوا الأبواب وطردوا من بيت إلى بيت يسخر الناس منهم: أخيراً، في طرف الضيعة، فتحت عجوز بابها مواربة، تقصت الشارع من أوله إلى آخره ـ لا أحد يعبر ـ ومدت لهم خفية حبة خبز وأغلقت بابها حالاً. التقطوا الخبز وأطلقوا سيقانهم للريح.

للأسف، قال بطرس، لم نعرف اسم العجوز لنسأل اللّه أن يتذكرها. راح يسوع يضحك:

لا تقلقوا، يا بطرس، قال؛ اللّه يعرف هذا.

أخذ يسوع الخبز، باركه، شكر اللّه الذي دفع العجوز لتعطيهم يأكلوا، ثم وزعه ست حصص كبيرة، واحدة لكل رفيق. لكن يهوذا رفض نصيبه بعصاه وأدار رأسه.

أنا لا آكل خبزاً سامرياً، قال، لا آكل لحم خنزير.

لم يعارضه يسوع. كان يعرف أن هذا القلب صارم ومع الزمن يمرن، يألف ويحب كثيراً.

و نحن، قال للآخرين، سنأكل الخبز السومري إذ يصير جليلياً حينما يأكله جليليون. ولحم الخنزير يصير لحماً بشرياً لما يأكله البشر باسم السماء!

راح المرافقون الأربعة يضحكون وأكلوا بقابلية. كان

خبز السامرة طيباً، ككل خبز، وابتهجوا. ثم صالبوا أذرعهم؛ كانوا متعبين، ناموا. فقط يهوذا، اليقظ، كان يدق الأرض بعصاه، كمن يصارعها.

الجوع أفضل من العار، قال معزياً نفسه.

بدأ المطر يهطل على الورود. استيقظ النيام مرتعشين.

هوذا أول المطر، قال جاك؛ سترتوي الأرض.

يجب إذن أن يفكروا بالبحث عن مأوى، هبت الريح، ريح شمالية طردت الغيوم؛ استضاءت السماء واستعادت سيرتها.

التينات الباقيات على الشجر يلمعن في الجو المندى، وثمار الرمان مازالت على الشجرة بعد أن نضجت، قطف المرافقون واسترطبوا.

رفع الفلاحون رؤوسهم في حقولهم وحدجوهم، مدهوشين. عما يبحث الجليليون في أرضهم، متى اختلطوا بالسومريين، آكلوا خبزهم وقطفوا ثمارهم من الشجر؟ ليس لهم إلا طردهم! لم يبق عجوز إلا خرج من حقله، وزعق:

جليليون، شريعتكم غير العادلة ترمي اللعنة على هذه الأرض التي تمشون عليها. عما تبحثون إذن في أرضنا؟ اخرجوا!

نذهب إلى القدس دار السلام نتعبد، أجاب بطرس. وقف، ونفخ صدره أمام الشيخ.

هنا يجب التعبد، يا مارقون، على هذا الجبل الذي يسكنه الله، الغارزيم le Garizim ! همهم الشيخ. هل قرأتم

الكتب؟ هنا، في أسفل الغارزيم، تحت السنديان، ظهر اللّه لإبراهيم. دله، من أول الأفق إلى آخره. الجبال والسهول من حرمون حتى إيدومي وأرض ماديان. — هذه هي أرض الميعاد، التي ينبع فيها العسل والحليب. وعدتك بها وستكون لك — وضعوا اليد عليها ووقعوا العهد. سمعتم، يا جليليون؟ هذا ما تقوله الكتب، ومن يود التعبد، هنا، على هذه الأرض الطاهرة، يجب أن يصلي. وليس في القدس قاتلة الأنبياء!

كل الأراضي طاهرة، يا عم قال يسوع بصوت صاف. اللّه في كل مكان وكلنا أخوة.

التفت إليه العم مدهوشاً:

ـ السومريون والجليليون أيضاً؟

ـ السومريون والجليليون أيضاً، يا خال وأبناء يهودا كلهم.

قبض العجوز لحيته وراح يفكر؛ وحدج يسوع من رأسه إلى قدميه.

ـ اللّه وإبليس أيضاً، سأل أخيراً، بصوت خفيض، كي لا يسمع من القوى غير المرئية.

خاف يسوع، لم يتساءل أبداً إن كانت نعمة اللّه قوية تستطيع يوماً أن تسامح حتى الشيطان وتستقبله هو الآخر في مملكة السماوات.

لا أعرف، يا عم، أجاب، لا أعرف. أنا إنسان، وأهتم بالناس؛ بعدهم، هو شأن اللّه.

سكت العجوز. مازال يقبض لحيته غارقاً في تأمل عميق، وكان يرى العابرين الماشين اثنين اثنين ويضيعون تحت الشجر...

خيم المساء. هبت ريح باردة، عثروا على كفر أووا إليه. تلاصق الجمع ليدفأ؛ كان بقي لكل منهم قطعة خبز، أكلوها. خرج الأصهب، جمع بعض الحطبات، وأشعل النار، استدفأ الشمل، قعدوا دائرة وتأملوا الشعلة صامتين. عاشوا مع الريح الصافرة، أبناء آوى العاوية، ودوي الرعد الأصم الذي ينسفح في البعيد من جبل غارزيم. من ثغرة في الباب رأوا نجماً ساطعاً في السماء ــ آنسهم؛ لكن الغيوم سارعت وخبأته. أغمض المرافقون العيون وضع كل منهم رأسه على كتف جاره. رمى يوحنا خفية معطفه الصوفي على ظهر يسوع، تلاصقوا بعضهم على بعض وناموا.

في اليوم التالي ولجوا يهودا. شيئاً فشيئاً شعروا بأن عبير الأشجار يتبدل. كانت بعض الحورات صفراء الورق مصطفة الآن على طرف الطريق، وبعض الخرنوبات محملة بالثمار وبعض الأرزات الدهريات. كانت المنطقة صخرية محرومة من الماء، قاحلة. وكان الذين يظهرون في أبوابهم الواطئة والمعتمة هم أيضاً مصنوعين من الصوان. تارة كانت تخرج بين هذه الحجارة زهرة برية زرقاء صغيرة أنيقة. وطوراً، في الصحراء العجماء، في عمق مسيل ماء، كان حجل ينقنق "عثر على قطرة ماء يشرب...." قال يسوع همساً؛ أحس في راحة يده بطن

الطير الدافئ وابتهج.

كلما اقتربوا من القدس، تجهمت المنطقة الله؟ الله يتبدل أيضاً، لم تعد الأرض باسمة كما في الخليل والله أيضاً هنا مصنوع من الصوان، كما الناس، والسماء، التي كانت تبدو في السامرة ماطرة وترطب الأرض، كانت هنا من الحديد الأحمر. وجاق متقد. كانوا يمشون لاهثين. تعكس مجموعة من القبور، المحفورة في الصخور، شكلها الأسود في السماء؛ يثوي تحتها ألوف الجدود. كانوا عادوا إلى الصخور. وخيم الظلام مرة أخرى. فلجأوا إلى القبور الفارغة، استلقوا وغفوا باكراً، ليدخلوا ويرتاحوا في الغد في المدينة المقدسة.

يسوع فقط لم ينم في تلك الليلة. كان يطوف بين القبور ويصغي إلى الليل؛ كان قلبه قلقاً. كانت تأتيه أصوات غامضة، شكوى يصحبها أنين وصراخ، كمن يضم في حناياه آلاف الناس المتألمين والصائحين... في حوالي منتصف الليل همد الهواء وسكن الليل وصمت. آنئذ، في قلب الصمت، مزق عويل فاجع الفضاء. ظن بداية أن ابن آوى جائع؛ ثم شعر، برعدة، أن هذا هو قلبه.

إلهي، تمتم، من يصرخ إذن في داخلي؟ من يبكي؟

كان متعباً، فدفن نفسه هو أيضاً في أحد القبور، صالب ذراعيه واتكأ إلى نعمة الله. في السحر، حلم: تبدى له أنه مع المجدلية مريم وأنهما يطيران بهدوء، بدون نأمة، فوق مدينة

عظمى. كانا يخفقان بخفة، كانا يلامسان السطوح ويتقدمان. وفي طرف القرية، فتح الباب وظهر شيخ جبار، بلحية طويلة كجدول وعينين زرقاوين، تضيآن كنجوم. ثنى كميه، كانت يداه وذراعاه مغطاة بالوحل. رفع رأسه ورآه اللذان يطيران: ـ قفا! ناداهم، عندي شيء أقوله لكم. وقفا: ـ ما وراءك، يا شيخ؟ ها نحن نصغي لك. — المسيح هو من يحب الناس قاطبة. المسيح هو من يموت لأنه يحب الناس كلهم، رد الشيخ — هذا كل شيء ؟ قالت المجدلية. — ألا يكفيك هذا؟ صرخ الشيخ غاضباً — أتقدر أن تدخل ورشتك؟ سألت المجدلية أيضاً. — لا تريدين يدي المغطتين بالفخار والآجر؟ إنهما تصنعان المسيح.

استيقظ يسوع مرتجفاً وكان جسده خفيفاً فعلاً، كمن كان يطير طلع النهار. كان مرافقوه قد نهضوا ونظراتهم تثب من صخرة إلى أخرى، من تل إلى تل نحو القدس. ذهبوا. كانوا مستعجلين . كانوا يمشون، يمشون إنما كان يبدو لهم أن الجبال تركت أماكنها أمامهم ورحلت ـ فالطريق يطول ويطول.

يخيل لي، يا إخوان، أننا لن نصل القدس. ماذا يجري معنا؟ ألا ترون؟ إنها تبتعد وتبتعد! أردف بطرس محبطاً.

إنها تقترب دوماً، أجاب يسوع؛ تشجع، يا بطرس. نحن نسير نحوها وهي تخطو نحونا. كما المسيح.

المسيح؟ رد يسوع ملتفتاً فجأة.

المسيح يصل، قال يسوع بصوت حاسم، المسيح يصل، أنت

تعـرف جيـداً ، يهـوذا ، أخـي، لـو نـذهب لملاقاتـه. لـو نقـوم بعمـل طيـب وشـجاع، لـو نلفـظ كلمـة طيبـة ، المـسيح يحـث الخطـو ويصل. إن كنا مخادعين، خبثاء، جبناء، يعود المسيح من حيث أتى. يبتعـد. المسيح هـو القـدس تمـشي، يـا أخـوة؛ إنهـا مـستعجلة ونحن أيضاً ملحفون. هلموا بنا إلى لقياه! أنتم تثقون بـاللّه وبـروح الإنسان، الخالدة التي لا تموت.

تـشجعوا، حثـوا الخطـى كلـهم، عـاد يهـوذا إلى الطليعـة والآن كل قريته سعيدة ". حدث جيداً ـ يمشي ويحدث نفسه ـ، إنه على حق، ابن مـريم. الحاخـام العجـوز يقـول لنـا الـشيء ذاتـه. بمـا يتعلـق الأخـلاص؛ إن صـالبنا الأذرع، لـن تـرى أرض إسـرائيل الخلاص أبداً؛ وإن أعددنا كل الأسلحة، عرفنا الحرية..."

كـان يهوذا يحاور ويمشي. فجأة توقف، مشوشاً . " من هـو المسيح إذن؟ تمتم، من إذن؟ أهو الشعب كله؟"

ظهـر العـرق علـى جبين يهـوذا المـستعر. "أهـو الـشعب كلـه؟ لأول مـرة يأتيـه هـذا التأمـل، اضـطرب. " أيكـون المـسيح هـو الشعب كله؟ كـرر متسائلاً. أمـا الآن مـا حاجتنـا بكـل هـؤلاء الأنبياء، بكل هؤلاء الأنبياء الدجالين، لمـاذا الـسؤال إن كـانوا هـم المسيح أم ليـسوا المـسيح؟ لكـن المـسيح هـو الـشعب، أنـت، أنا ، نحن جميعاً. يكفي أن نحمل السلاح!

حث الخطى وهو يفتل عصاه.

وفي أثنـاء المـسير، جـذلاً ، كـان يقلـب هـذه الفكـرة كمـا

يلعب بعصاه كلاعب الخفة، فجأة أرسل صرخة: أمامه، كانت القدس على جبل ذي قمتين، تشتعل متألقة بيضاء كلها فخورة. لم يناد المرافقين الذين كانوا يصعدون وراءه يريد أن يبتهج بهذا، ما استطاع، وحده في سويداء عينيه الزرقاء استثارت القصور، الأبراج، الأبواب المدعومة وفي الوسط هيكل الرب، المصنوع كله من الذهب، من خشب الأرز والرخام.

وصل المرافقون الآخرون وأرسلوا هم أيضاً صرخة.

تعالوا. نغني جمال مليكتنا، اقترح بطرس، أجمل غناء. في الأمام، الأطفال كلهم! وشكل الجميع دائرة حول يسوع، الذي بقي واقفاً في الوسط، ساكناً، ورددوا النشيد المقدس:

ـ "أي بهجة اعترتني عندما قيل لي انهض، نذهب إلى بيت الرب!

ذهلت خطاي أمام قصرك يا قدس.

" القدس القلعة المنيعة، السلام لأبراجك الحصينة، السعادة لقصورك!

" من أجل إخوتي، وذوي السلام، السلام لك يا قدس!"

(16)

الشوارع، الأرصفة، الساحات، الباحات، القدس كلها ترتدي ملابس خضراء. هو يوم أهم عيد. وبأغصان الزيتون، وطرود الكرمة، البلح، القمر، وبالشوح والأرز، رفعت آلاف الأكواخ، كما يأمر إله إسرائيل، ذكرى مرور الأربعين عاماً

التي عاشها الأجداد تحت الخيمة في الصحراء. كان الحصاد والقطاف انتهيا، وكان العام قد ولى وانصرم، وعلق سكان القدس خطاياهم على تيس أسود ومسمن وطردوه، ووجهوه إلى الصحراء. والآن يلبون تسرية عظمى، كانت روحهم قد تطهرت، بدأ عام جديد، فتح اللّه مدونة جديدة، وخلال ثمانية أيام تحت خيام من أوراق الأشجار الخضراء سيشربون، يأكلون ويمجدون إله إسرائيل الذي أتم الحصاد والقطاف وأرسل تيساً يحملونه خطاياهم. كان هو أيضاً مسيحاً أرسله اللّه، أخذ على كاهله خطايا الشعب ورحل ليموت من الجوع في الصحراء وتموت خطاياهم معه.

كانت باحات الهيكل تعج بالدم، قطعان برمتها تُذبح كل يوم كمحرقة، نشرت المدينة المقدسة طاعون اللحم المشوي، الزبل والشحم. كان الجو المقدس مشبعاً بضجيج الأبواق. أكل الناس بنهم، وكذلك شربوا، أرهقت نفوسهم. كان اليوم الأول للمزامير، للصلوات، والسجود؛ كان يهوى، غير مرئي، يدخل مغتبطاً إلى الخيم ويحتفل هو أيضاً، يأكل ويشرب مع شعبه. رآه بعض الملهمين بأم أعينهم يحرك لسانه وينشف لحيته. إنما في اليوم الثاني والثالث كان طفاح اللحم والخمر صعد إلى رؤوس الناس وبدأوا المزح، الضحك وأغنيات الشرب الفاحش . تحاضن بعض الرجال والنساء بدون حياء على مرأى الناس؛ بداية في الخيم، ثم بوقاحة في الشوارع، على العشب.

من كل الأحياء وصل أشهر مومسات القدس مبهرجات ممسكات والفلاحون والصيادون الساذجون الذين أتوا من عمق أعماق الكنعانية ليعبدوا قدس الأقداس وقعوا بين ذراعي الإباحية المجربة وأضاعوا رؤوسهم؛ أبداً لم يخطر في روحهم أن قبلة تستطيع أن تحوي قدْراً من اللباقة وقدْراً من المحررين.

كان يسوع يمشي مسرعاً، بفزع، في الشوارع، يمر بقرب الرجال الثملين الخائرين الذين تدحرجوا في الأرض وتمالك نفسه. العطور، النتن، النقيق الفاجر جعلته يقرف ويتقيأ، ألح على مرافقيه: هلموا، هيا، في الحال! كان على يمينه يوحنا، وعلى يساره أندريه، متعاضدين، وكان يمشي. بطرس كان يتوقف في كل لحظة؛ كان يصادف نساءً قادمين من الجليل يقدمن له كأس خمر، شيئاً يقضمه، ويبدأن المسامرة. نادى بطرس يهوذا، وصل جاك أيضاً. كانوا يودون أن لا يستاء منهم أحد. لكن الثلاثة الآخرين كانوا يمشون في المقدمة، مسرعين، ينادونهم ويتابعون المسير.

أوه، ليت المعلم يدعنا نتنفس الصعداء، ككل الناس، غمغم بطرس، الذي كان مبتهجاً.

لست هنا، عزيزي بطرس، قال له يهوذا هازاً رأسه الضخم، اتعتقد أننا أتينا لنقيم العيد؟ أتصدق أننا سنذهب إلى العرس؟

إنما بينما كانوا يركضون، سمع صوت أجش:

يا هذا، بطرس، ابن يونان أيها الجليلي، تمر، تمشي تقريباً فوقي دون أن تبالي أو تلقي تحية. تريث لتحتسي كأساً، فهذا يفتح عينيك وتراني!

عرف بطرس الصوت وتوقف:

آه! أنا فرح برؤيتك. يا سيمون، يا بن السيرينيان Cyreneen التفت مرافقاه

يا أولاد، هنا لا وسيلة للهرب، سنقف لنشرب. سيمون مدمن خمر معروف؛ عنده حانة شهيرة قرب باب داود. شخص سيء يستحق أن يشنق، لكنه خدوم. يستحق المدح.

كان هذا صحيحاً، كان سيمون رجلاً كريماً. في شبابه سافر إلى سيرين Cyrene، فتح حانة، و، كلما أتى بطرس إلى القدس، كان يأتي إليه وينام عنده، يأكلان ويشربان سوية، يتسامران، يمزحان، ومن هذا تارة إلى الغناء وطوراً إلى الضرب، يتصالحان ويعودان إلى الكأس، ثم يغمر بطرس بغطاء، يستلقي على مقعد وينام، الآن، كان سيمون قاعداً تحت خيمة صنعت من القضبان المشبكة، يحمل إبريقاً من البرونز ويخمر وحده.

يتعانق الصديقان، شبه ثملين، يكنان لبعضهما عطفاً عميقاً يجعل عيونهما تطفح بالدمع. بعد العياط والمياط، يأتي العناق، تتكرر جلسة الخمر، ويبدأ سيمون بالضحك.

ـ أراهن على قطع رأسي، قال، مقابل ذهابك أنت الآخر

للعماد. الحق معك، لك بركتي، أنا أيضاً تعمدت أول أمس، ولست نادماً، فلهذا سحره.

- ورأيت تحسناً؟ سأل يهوذا، من لا يشرب ويفرح بالأكل! كان غاضباً.

ماذا تود أن أقول لك، يا صديقي؟ تمر سنون ولا يعرف جسمي الماء. أنا والماء عدوان حتى سحب السكاكين. أنا رجل خمرة، الماء للضفادع. إنما أول أمس قلت لنفسي: عجباً، إن ذهبت وطلبت العماد؟ كل الناس يفعلون هذا، إذ ليس ممكناً، بين المبادرين الجدد، ألاّ يوجد من يشرب الخمر، إذ لا يمكن أن يكون الجميع بلهاء، آنئذ سأجري تعارفاً، أذهب لاصطياد الزبائن؛ في باب داود، كل الناس يعرفون حانتي. أخيراً، باختصار، ذهبت. كان النبي جلفاً، حيواناً مفترساً، كيف أقول لك؟ يرسل لهباً من منخريه، يا إلهي! أخذني من رقبتي وغطسني بالماء حتى لحيتي، زعقت - يكاد يغرقني، ابن الأفعى! لكني أفلتُّ منه، وخرجت، وها أنا ذا!

ورأيت تحسناً؟ سأل يهوذا.

أقسم لك بالخمرة، إن الحمام نفحني؛ بل ارتحت كثيراً: ارتحت. المعمداني يقول إني ارتحت من خطاياي، إنما، الحق، أنا أعتقد أني ارتحت من الوسخ، لأني لما خرجت من الأردن،

كانت طبقة بمقدار إصبع من الزيت تخفق[1] فوق الماء.

وراح يضحك، ملأ إبريقه، شرب وسقى بطرس وجاك. ثم ملأه ثانية والتفت إلى يهوذا:

ـ وأنت، ألا تشرب، أيها العامل؟ هذه خمرة، صديقي العزيز، ليس ماء.

ـ لن أشرب أبداً، رد الأصهب، وأبعد الإبريق.

جحظت عينا سمعان:

أأنت من أولئك؟ ... قال خافضاً صوته.

ـ من أولئك، نعم، أجاب يهوذا، وبحركة من يده، قطع الحديث. عبرت امرأتان متبرجتان، تريثتا لحظة، ألقتا نظرة على الرجال الأربعة

ـ من دون امرأة؟ سأل سمعان مندهشاً.

ـ أبداً، أجاب الأصهب أيضاً بجفاء

إذن ماذا، يا بؤساء؟ صرخ سمعان، لا أحد يأتي إليكم. لماذا صنع الله الخمرة والمرأة، قل باختصار؟ لتعيش عمرها، أم لتجعل عمرنا يمر؟ في هذه اللحظة وصل أندريه راكضاً.

هلموا، دبروا شأنكم، المعلم مستعجل.

أي معلم؟ قال صاحب الحانة. ذاك المرتدي الأبيض وحافي القدمين؟

---

1 ـ يقصد القذارة.

لكن المرافقين الثلاثة انسحبوا وسمعان السرياني أمام خيمته مذهولاً حاملاً بيده إبريقه وجرته تحت إبطه، يتأملهم ويهز رأسه الضخم.

هذا أيضاً ولا بد معمداني آخر، تمتم، أهبل آخر مرعوب. كلمني، في هذه الأزمنة الأخيرة، ينبتون كالفطر، لنشرب جرعة على صحته؛ ليجعله الله عاملاً، حكيماً!" قال، وأترع كأسه.

مع هذا، وصل يسوع ومرافقوه إلى باحة المعبد. لم يتوقفوا، غسلوا أقدامهم، أيديهم وأفواههم، ليدخلوا الهيكل ويسجدوا. ألقوا نظرة سريعة حولهم: سلسلة من الأرصفة، غاصة بالناس والحيوانات، أروقة ظليلة، أعمدة من الرخام الأبيض والأزرق. رزم من القضبان والعناقيد الذهبية. في كل مكان حوانيت، خيم، عجلات نقل؛ صرافون، حلاقون، باعة الخمر بالمفرق وجزارون ـ لحامون. الجو مشبع بالضجيج، بالنزاعات والضحك، كان بيت الرب ينشر رائحة العرق والوسخ.

وضع يسوع يده على أنفه وفمه. نظر حوله، الله غير موجود. " أنا أكره، أحتقر أعيادكم، نتانة العجول المسمنة المذبوحة من أجلي تنفرني؛ لا أقدر أن أسمع مزاميركم ولا مكبرات الصوت عندكم......" لم يعد هذا نبياً، ولا هذا إلهاً، هذا قلب يسوع الذي يتقزز ويصرخ. يكاد يغمى عليه، فجأة كل شيء اختفى، فتحت السماء وملاك مشتعل الشعر يثب في الفضاء محتجاً أو منقضاً. يخرج من رأسه الدخان واللهب؛ تسلق

صخرة سوداء، في وسط الباحة، وشهر سيفه نحو المعبد المتجبر ولابس الذهب... ترنح يسوع، تمسك بذراع أندريه. فتح عينيه، رأى الهيكل، الناس الذين يصخبون، كان الملاك مخبأ بالضوء؛ مد يسوع ذراعيه نحو مرافقيه:

ـ اعذروني، قال، لم أعد أحتمل، سأفقد الوعي. لنذهب.

ـ دون تعبد؟ أردف جاك، مستنكراً.

ـ نصلي فيما بيننا يا جاك، قال يسوع. كل جسم هيكل.

رحلوا. " لم يحتمل القذارة، الدم والزعيق، ليس هو المسيح..." قال يهوذا لنفسه، الماشي في المقدمة، ضارباً الأرض بعصاه. فريسي يتخبط مرتعداً، ملقياً وجهه إلى الأرض على آخر درجة من درج الهيكل، يحضن الرخام بضراوة ويخور. برقبته وذراعيه علق سلاسل ضخمة من التعويذات، يرسل تهديداً للكتب المقدسة. كانت ركبتاه كالحصى مثل الجمال بفعل الركوع؛ كان وجهه، رقبته وصدره تغطيهما بالجروح المفتوحة النازفة. كلما رماه إعصار الله بالأرض، يأخذ حجارة حادة ويرميها.

دنا جاك وأندريه بسرعة من يسوع لكي لا يراه الآخر. دنا بطرس من جاك وانحنى على أذنه، وقال:

ـ أتعرفه. هذا جاك، الابن البكر ليوسف النجار. يجول جولات، يبيع التعويذات ومن حين إلى حين تعوده علته، يرتمي بالأرض ويروح يتقلب ويزبد.

هذا هو الذي يلاحق بغضب المعلم؟ سأل جاك وتوقف.

هو ذاك. يقول إنه يعيب بيته

خرجوا من باب الهيكل المذهب، اجتازوا وادي سدرون cedron وأخذوا درب البحر الميت. تركوا إلى يمينهم حديقة جثسماني gethsemani ؛ فوقهم كانت السماء ناصعة، لامعة؛ وصلوا إلى تل الزيتون، لطف الجو قليلاً، كل ورقة تعطي لمعاناً، تحليق الغربان فوق القدس لم يكف.

أخذ أندريه ذراع يسوع وحدثه عن معلمه السابق، يوحنا المعمدان. عند الدنو من كهفه، شم بخوف رائحته الحيوانية.

هذا هو النبي إيليا شخصياً. نزل من تل الكرمل ليشفي مرة أخرى روح الإنسان بالنار. في إحدى الليالي رأيت بعيني هاتين عربته النارية تدور حول رأسه؛ وفي ليلة أخرى حمل له غراب بمنقاره قطعة متقدة ليأكلها... وفي يوم تجاسرت وسألته: "أنت المسيح؟ "فوثب إلى الخلف كمن وقعت قدمه على أفعى. "لا، أجابني متنهداً، لا. أنا الثور الذي يرعاه؛ هو البذرة."

ـ لماذا تركته، يا أندريه؟

ـ رحت أبحث عن البذرة.

وجدتها؟

ضغط أندريه يد يسوع على صدره واحمر بشدة.

ـ نعم، أجاب، إنما همساً لكي لا يسمع يسوع.

نزلوا بهدوء، يزفرون، نحو البحر الميت. تغمرهم الشمس

بأشعتها ورأسهم ينصعق. أمامهم تنتصب أبداً أعلى فأعلى كجدار منفر جبال مؤاب moabe؛ وخلفهم، بيضاء كالكلس جبال يهوذا judee . الطريق، شديد التعرج كان منحدراً كالوجه الداخلي من حفرة عميقة. الجورديء. تخيلوا كلهم:

تنزل إلى جهنم... تنحدر إلى دار الشقاء.

شموا رائحة الزفت والكبريت

بهرهم الضوء، عبروا بالتلمس، كانت أرجلهم مغطاة بالجروح؛ عيونهم توخزهم. سمعوا صوت أجراس جملين يمران، بل هي أشباح تذيبها الشمس

ـ خائف أنا... تمتم ابن زيبيدي الأصغر. هو ذا الجحيم.

ـ تشجع، أجابه أندريه. نحن في قلب الجحيم – هذا معروف أن ثمة جنة.

ـ الجنة؟

سترى.

ستغيب الشمس بالتأكيد، أخذت الجبال المؤابية ألواناً بنفسجية غامقة، وجبال يهودا لوناً وردياً. أجفان الناس بدأت تعود طبيعية. وبغتة، عند منعطف طريق، تندت عيونهم؛ وصارت العيون والأجساد كأنها في الماء العذب. تماماً أمامهم، في الرمل، أية خضرة غير متوقعة، هذه المياه التي تهدر، هذا الحقول المثمرة وهذه البيوت البيضاء الصغيرة والظليلة؟

وفجأة تعطر الجو برائحة الياسمين والورد.

جريشو! نادى أندريه، فرحاً. ليس في العالم بلح أطيب أو ورد أبدع؛ حتى ولو كانت ذابلة، إذ يكفي تبليلها بالماء لكي تستعيد عبيرها ورونقها. خيم الليل على حين غرة؛ تألقت طلائع المصابيح.

مسافر وخيم الظلام، وصل إلى قرية ورأى أنوار المصابيح الأولى، ومن دون زاد، ولا بيت للنوم والعودة إلى نعمة الله وطيبة الناس ـ هذه ـ حسب ظني واحدة من أعظم وأنقى الأفراح الموجودة في العالم، قال يسوع وتوقف ليتمتع بهذه الساعة المقدسة.

شمت الكلاب رائحة المسافرين وراحت تنبح، فتحت الأبواب، وتألقت المصابيح، بحثوا في الظلمة، رجعوا. سيدق المرافقون كل الأبواب، وقد أعطوا بأريحية قطعة خبز، قبضة بلح، قبضة زيتون أخضر، ورمانة واحدة. جمعوا كل خيرات الله والناس. تمددوا في زاوية من الحديقة، آكلوا وناموا في الحال. طيلة الليل، في أثناء رقادهم، سمعوا تموج الصحراء الذي كان يهدهدهم، كالبحر سمع يسوع فقط في رقاده الأبواق وتهدم أسوار جريشو.

قرب الظهر وصل المرافقون دكن الوجوه، مبهورين، إلى البحر الميت، البحر اللعين. الأسماك التي يقذفها تيار الأردن

تموت بوصولها إليه. بعض الجنبات[1] تنصب على ضفته كبقايا عظمية. مياه ثقيلة، ساكنة، كثيفة. بوسع الناس المؤمنين أن يروا في العمق المعتم مومستين متفسختين، سودوم وغومورة sodome et gomorrhe، تتعانقان.

صعد يسوع إلى صخرة ونظر إلى بعيد. الصحراء؛ الأرض تلتهب، الجبال مجزأة. أخذ يسوع ذراع أندريه وسأله:

أين يوحنا المعمدان؟ لا أرى أحداً... أبداً.

هناك في البعيد، أجاب أندريه، خلف القصب، يهدأ النهر. يشكل الماء خزاناً، النبي يعمد فيه. هيا نراه، أنا أعرف الطريق.

أنت متعب، أندريه، ابق مع الآخرين، وأنا أذهب وحدي.

الطريق موحش، أذهب معك، يا معلم.

أود أن أروح وحدي، أندريه، ابق.

ذهب نحو مزارع القصب. كان قلبه يخفق بعنف، وضع يده عليه ليهدأ. ظهرت في الجو أسراب الغربان من جهة الصحراء، تتجه نحو القدس.

بغتة سمع أحداً يمشي وراءه؛ التفت، كان يهوذا.

نسيت أن تدعوني، قال الأصهب مع ضحكة هازئة. هذا

---

1 ـ واحدها جنبة، كل شجرة علوها متران إلى سبعة أمتار تظل صغيرة وإن شاخت.

هو الوقت الأصعب أود أن أكون معك.

تعال، قال يسوع.

يسوع في الأمام، يهوذا خلفه، يمشيان صامتين. يبعدان القصب، أقدامهما تغوص في عنق النهر الفاتر. انتصبت أفعى سوداء، زحفت فوق صخرة، رفعت رأسها ورقبتها، نصف جسمها التصق بالصخرة، النصف الآخر استقام، وحدجتهما بعينيها الصغيرتين السوداوين ونفخت. توقف يسوع، حرك بمودة يده نحوها، كمن يتمنى لها حضوراً طيباً. رفع يهوذا هراوته لكن يسوع، بحركة من يده، منعه:

ـ لا تؤذها، يهوذا أخي، هي أيضاً تفعل واجبها في أن تعض.

كان القيظ في حده الأقصى وريح الجنوب التي تهب تحمل إلى البحر الميت رائحة الجيفة الكريهة. ويمكن إن تسمع صوتاً وحشياً أجش. ومن حين إلى آخر كان يسوع يميز بعض الكلمات: نار... بلطة... شجرة لا تثمر.." ثم، وبوقع أعلى: "توبوا! توبوا! " وفجأة انبثق صراخ ونحيب رهط كبير. تقدم يسوع بتؤدة، بخطوات صامتة، كأنها آتية من جحر حيوان؛ أبعد القصب، ازدادت الجلبة؛ بغتة عض شفتيه ليمسك نفسه عن الصراخ على صخرة، فوق مياه الأردن، كان واقفاً بقوائم طويلة إنسان، جرادة، ملاك الجوع، أو رئيس ملائكة القطاف؟ كانت تأتي موجات بشرية باستمرار وتتحطم على

الصخور وهي تخور: عرب بأظافر ورموش ملونة، كلدانيون مع حلقات ضخمة برونزية في الأنف، وإسرائيليات بجدائل طويلة وسخة..... الرجل يصرخ ويزبد، تحركه ريح لجنوب كقصبة.

"توبوا! توبوا! يوم الرب قادم! دحرجوا أنفسكم على الأرض، عضوا الغضار، ازعقوا! رب القوات قال: في ذلك اليوم سأأمر الشمس أن تغيب في الظهر، سأحطم قرون القمر الجديد، سأصب الظلمات في السماء وعلى الأرض. سأبدد ضحككم وأصيره دموعاً، وأجعل أغانيكم ندماً محزناً سأنفخ لتسقط شعوركم وتتعطل أياديكم، أرجلكم، أنوفكم وآذانكم!"

بخطوة واسعة انضم يهوذا إلى يسوع ومسكه من ذراعه:

أتسمع؟ أتسمع؟ هكذا يحكي المسيح! هذا هو، المسيح!

ـ لا، أخي يهوذا، رد يسوع، هكذا يحكي ذاك الذي أخذ البلطة ومن يشق طريق المسيح، ليس المسيح، انحنى قليلاً، قطف ورقة نفلة وزلقها بين أسنانه.

من يفتح الدرب هو لمسيح، زعق الأصهب. ودفع يسوع ليكف عن الاختباء بين القصب وليظهر.

تقدم إذن، ليراك، أمره. هو الذي سيدين.

تقدم يسوع، خطا خطوتين متردداً، ترنح، توقف. حافظ على عينيه مسمرتين بالناسك، صارت نفسه كلها نضرة؛ كانت تسبر، تصعد وتنزل من الفخدين إلى الرأس المضطرم و، فوق

الـرأس، إلى القـسم غـير المنظـور مـن قامـة الـنبي. كـان ظهـر المعمـداني ملتفتـاً، شـعر علـى كـل ظهـره بنظـرة عنيفـة تثقبـه، غـضب، قـام بلفتـة ارتدادية وثنـى عينيـه لـيرى جيـداً مـن هـو هـذا الشاب الصامت الساكن المرتدي الأبيض، الذي ينظر إليه؟ كان قد رآه، في مكان ما. أين؟ متى؟ كان يجهد بغصة ليتذكر. ربما رآه بالحلم في إحدى الليالي؟ فهو كثيراً ما حلم برجال مثله يرتدون الأبيض. لم يكلموه، تأملوه، حركوا أيديهم نحوه كما ليحيوه، كما ليودعوه: ديك الفجر يصيح، طاروا واختفوا.

فجأة المعمداني بقوة نظرته صرخ وتذكر. في يوم، في عز الظهر كان ممدداً على حافة النهر وقرأ ما كتب على جلد التيس، في كتاب النبي اسحاق. "وعلى حين غرة اختفت الحجارة، الماء، الناس، القصب والانهر. امتلأ الجو ناراً، أبواقاً وأجنحة. كانت كلمات النبي مفتوحة كالأبواب وخرج منها المسيح! تذكر هذا. كانت ملابسه كلها بيضاء، رقيقة، لوحتها الشمس، حافي القدمين ويمسك بأسنانه، كهذا الرجل، ورقة خضراء!

امتلأت عينا الناسك بالغبطة والفزع. نزل عن الصخرة، دنا، مد قذاله المشوه:

ـ من أنت؟ سأل؛ كان صوته المهدد يرتعش.

ـ ألم تعرفني؟ قال يسوع خاطياً خطوة إلى الأمام. كان يرتعب. قال إن مستقبله مرهون بجواب المعمداني.

" هوذا، هوذا" قال المعمداني. خفق قلبه بعنف ولم يقدر، لم يجرؤ أن يقرر. قدم رأسه أكثر:

ـ من أنت؟ سأل مرة أخرى.

ألم تقرر الكتب؟ أجابه يسوع بلطف، كعتاب، كأنه يخاصمه. ألم تقرأ باب الأنبياء؟ ماذا يقول اسحاق؟ يا يوحنا المعمدان، ألا تذكر؟

ـ هذا أنت ؟ تمتم الناسك. احتضنه من كتفيه وتفحص قعر عينيه.

أتيت.... قال يسوع متردداً وتوقف. انقطع تنفسه، لم يستطع أن يذهب أبعد. كان يبدو أنه يقدم قدمه ويتلمس، ليعجم قدرته، أم أنه سيقع إن خطا خطوة واحدة. انحنى عليه، تفحصه النبي المتوحد، بهدوء وصمت. هل سمع الكلمة الطيبة والرهيبة التي كانت هربت من شفتي يسوع؟

أتيت..... كرر ابن مريم بصوت هامس جعلت يهوذا الذي كان في مكمن وراءهم لا يسمع. هذه المرة، ارتعد النبي، لقد سمع.

ماذا؟ قال. انتصب شعره فوق رأسه.

عبر غراب فوقهم ونعق نعقة مبحوحة، كصرخة الإنسان الذي يغرق ـ والذي يضحك أو الذي يسخر..... غضب المعمداني. انحنى ليلتقط حجراً ليرميه به. كان الغراب قد حلق مبتعداً لكنه كان يبحث عنه باستمرار بعينيه لأنه شعر أن الوقت مر.

وهكذا، شيئاً فشيئاً ارتاح قلبه. فنهض:

أهلاً بك، قال بمودة، ورمقه بدون لطف.

وثب قلب يسوع. ظنت أذناه أم بالأصح، قال له النبي: أهلاً بك؟ إن كان هذا صحيحاً، أي مفاجأة، أي بهجة واي هلع!

طرف المعمداني بنظرة حوله، على الأردن، على القصب، على الناس الذين، راكعين في الماء، يعترفون على الملأ بخطاياهم، احتضن على عجل بنظرة مملكته ليودعها. ثم استدار إلى يسوع، قال:

ـ الآن، أستطيع أن أرحل.

رن صوت يسوع، صارماً ومقرراً الآن:

ـ مهلاً: يا معمداني أنا أولاً، يا يوحنا المعمداني، البشير-النذير

ـ أنا؟ أنت يجب أن تعمدني، يا سيد......

ـ أخفض صوتك، لكي لا يسمعنا أحد؛ لم تأت ساعتي بعد. تعال! أصغى يهوذا ليسمع؛ لكنه لم يسمع سوى تمتمة، تمتمة راقصة وبهيجة، كهمهمة مسيلي ماء جاريين يمتزجان.

تبدد الرهط الذي تجمع على الضفة. من هو هذا الناسك؟ ـ لقد شلح جبته البيضاء وسقطت عليه الشمس وغطته؛ ودون أن يعترف بخطاياه غطس في الماء مع قدر من النبل والتأكيد. كان المعمدان يمشي أمامه، سبح الاثنان في التيار المزرق، خرجت صخرة إلى وجه الماء، امتطاها المعمداني؛ إلى جانبه

مشى يسوع على الرمل العميق وعانق الماء جسده حتى ذقنه.

بينما رفع المعمداني يد ليصب الماء على الوجه وتلاوة الصلاة، زفر الشعب صرخة، توقف تيار الأردن فجأة وسكن، وصلت أسراب من السمك من كل الجهات، أحاطت بيسوع وأغلقت وبسطت سباحتها، موجت ذيولها، وراحت ترقص. طيف مخملي، وعجوز بسيط، يرتدي طحلباً معقداً، صعد من عمق الماء، مستنداً إلى القصب و، منذهلاً، حدق إلى ما يحدث. كانت عيناه تجحظان أمامه فرحاً وخوفاً.

تأمل الشعب هذه المعجزات، فصمت. كثر الذين وقعوا على وجوههم قرب الضفة لكي لا يروا؛ وآخرون، في عين الشمس الكاوية، كانوا يرجفون؛ رأى أحدهم العجوز يخرج من عمق الماء، مغطى بالوحل؛ فزعق: " الأردني!"وسكت.

ملأ المعمداني بالماء صَدَفَةً عميقة، كانت يده ترتعش، بدأ يرش الماء على وجه يسوع: " أعمد خادم اللّه" ، وتوقف؛ لا يعرف أي اسم يعطيه.

التفت إلى يسوع ليسأله وفي لحظة انتظار العالم على رؤوس أقدامها لمعرفة الاسم، سمعت حركة الجناح النازل من السماء طير أبيض ـ طير، أو أحد السيرافيم ليهوه seraphins de Jehoval؟ ـ أتى باستقامة وحط على رأس المعمد. بقي برهة طويلة ساكناً. ثم فجأة قام بثلاث دورات وبرقت في الجو ثلاث حزمات من النور وسمعت زعقة الطير، قيل إنه لفظ اسماً

سـرياً، لم يـسمع أبـداً، وكـأن الـسماء تجيـب علـى سـؤال المعمداني الأبكم.

راحت آذان الناس تهمهم، اهتاج عقلهم، كـان ثمـة كـلام في نفس الوقـت أن أجنحـة، صـرخة اللّه، صـرخة طـير، معجـزة غريبـة ـ ويبـسط يسوع جسمه ليسمع. شعر بـأن ذاك هـو اسمه الحقيقي. سمع فقط تمتمات، كلاماً كبيراً ومراً، رفع عينيه؛ كان الطائر انطلق نحو السماء، وصار نوراً بين الأنوار.

فقط المعمـداني، الـذي يعيش منـذ أعـوام في الـصحراء وفي عزلة غير إنسانية، قد تعلم لغة اللّه. فهم:

أعمـد، تمـتم ، مرتعـداً، أعمـد عبـد اللّه، ابـن اللّه، أمـل الإنسان! وقام بأمارة للأردن؛ تستطيع مياهه استعادة جريانها، لقد انتهى الغموض.

(17)

تتبعث شمس الصحراء كما الأسد. تقـرع كـل أبـواب بـني إسـرائيل ومـن كـل بيـوت اليهـود ترتفـع إلى اللّه صـلاة صـباحية متوحدة.

" نحن ننشدك ونمجدك، يـا إلهنـا إلـه أجدادنا، الكلـي ـ القدرة الرهيب، أنـت مـن يؤازرنـا ومـن يحمينـا. المجـد لـك، أيهـا الخالـد الأزلـي، المجـد لـك، يـا مـن يـدافع عـن ابـراهيم، مـن يستطيع التصدي لك، أيها الملك، مـن يميـت ويحيـي ومـن يحمـل الخـلاص؟ المجـد لـك، يـا منقـذ إسـرائيل! أبِـدْ اسـحق وشـتت

أعداءنا، بسرعة، ونحن أحياء!"

عند بزوغ الشمس. كان يسوع ويوحنا المعمدان قاعدين في تجويف الصخرة التي تشرف على الأردن. طيلة الليل كانا يقلبان شؤون العالم. ويتساءلان ليعرفا واجبهما، دورهما. كان وجه أحدهما صارماً ومقرراً.

كانت يداه تصعد وتهبط كأن بيده فعلاً بلطة ويضرب بها ضربات موجعة؛ كان محيّى الآخر هادئاً ومتردداً وكانت عيناه تطفح بالحنو.

ـ ألا يكفي الحب؟

ـ كلا، لا يكفي، أجاب المعمداني بعنف. الشجرة أنتنت. ناداني اللّه وأعطاني بلطة. حملتها ووضعتها في كعب الشجرة. عملت واجبي، الآن افعل واجبك. خذ البلطة واضرب!

لو كنت ناراً لأحرقت، لو كنت حطاباً لضربت. إنما أنا قلب، أحب.

ـ أنا أيضاً قلب، لذا لا أقدر أن أحتمل الظلم، الوقاحة، العار. كيف تقدر أن تحب الظالمين، الفاسقين، الوقحين؟ اضرب! أحد وجبات الإنسان، أهمها، هو الغضب.

الغضب ؟ قال يسوع. كان قلبه يرفض هذا. ألسنا جميعاً أخوة؟

ــ أخوة؟ رد المعمداني، بتهكم، أخوة؟ الحب؟ أتعتقد أن هذا درب اللّه؟ أنظر! مد يده العجفاء والمشعرة ودله إلى

بعيد، أنظر، البحر الأحمر: كريه، كجيفة، كجدث منتن

هل انحنيت لترى في العمق العاهرتان سادوم وعمورة؟ غضب اللّه، ألقى النار، ضرب الأرض بقدمه، تحولت الأرض إلى بحر، ابتلع سادوم وعمورة.

هذا هو درب اللّه، اتبعه، ماذا تقول" النبوءات؟ في يوم الرب، تنشر الغابة الدم، تحيا الحجارة، تنتصب بيوت وستقتل السكان!" في يوم الرب يمشي، يصل. أنا أول من رآه، ناديته، أخذت بلطة اللّه ووضعتها عند قدم العالم. ناديت، ناديت، ناديتك: أتيت، وذهبت أنا.

أخذ يديه كمن يضع في راحتيه بلطة ثقيلة. ابتعد يسوع. وجلاً.

بعض الصبر، أرجوك، قال؛ لا تستعجل. سأذهب لأخاطب اللّه في الصحراء. هناك يسمع صوته بشكل أوضح.

أوضح أيضاً صوت الإغواء. احذر، الشيطان يراقبك، يعد جيشه، يعرف أن هذا بالنسبة له قضية حياة أو موت. وسينهال عليك بكل وحشيته وكل لطفه. احترس، الصحراء غاصة بالأصوات العذبة والموت.

ـ لا أحد أو قوة تخدعني، لا الأصوات الحلوة ولا الموت، يا رفاق ثقوا أنا واثق؛ إلى جهنم إن كنت غير واثق. اذهب إلى هناك، كلم الشيطان، كلم اللّه وقرر. إن كنت أنت من انتظر قراراً اتخذه اللّه، لن تقدر أن تزيغ منه. إن لم تكن أنت

هو، ماذا يهمني إن أنت ضعت؟ اذهب وسنرى؛ إنما في الحال؛ لا أريد العالم وحده.

ماذا قالت الحمامة البرية التي خفقت بجناحيها فوقي بينما كنت تعمدني؟

ليست حمامة برية؛ سيأتي يوم تسمع فيه الأقوال التي لفظتها. حتى الآن ستكون معلقة فوق الرأس كما السيف.

نهض يسوع، مد له يده، صافحه؛ كان صوته يرتعش.

ـ وداعاً، يوحنا المعمدان، البشير النذير، المحبوب، قال. ربما إلى الأبد.

لصق المعمداني شفتيه بشفتي يسوع لحظة طويلة. كان فمه فحمة متقدة وقد انكوت شفتا يسوع بهما.

لك أسلم نفسي، قال وضغط بقوة على يده اللدنة. إن كنت أنت من انتظرت، اصغ إلى آخر وصاياي، لأني أظن أني لن أراك ثانية على هذه الأرض. أبداً.

ـ أنا أصغي، تمتم يسوع وهو يرتجف. ما وصاياك؟

بدّل وجهك، قوي ذراعيك، وطد قلبك، ستكون حياتك رهيبة، أرى الدم والأشواك على جبينك؛ تحمل هذا، يا أخي الأكبر مني، تشجع! يفتح أمامك سبيلان: سبيل الإنسان، المتحد، وسبيل الله، الوعر العسير. خذ الدرب الأصعب، وداعاً. ولا تعاني من الفراق، ليست مهمتك البكاء، بل هي الضرب، اضرب! ولا تنس هذا: النار والحب هما ولدا الله، إنما البكر

هو النار، بعدها يأتي الحب. لنبدأ اذن بالنار، حظاً طيباً!

كانت الشمس في رأد الضحى، بانت القوافل، الآتية من صحراء العرب، ووصل حجاج جدد، يعتمرون عمامات ملونة على رؤوسهم الحليقة. ويحمل آخرون حلى في رقابهم بشكل هلال، مصنوعة من أنياب الخنازير البرية، ويحمل غيرهم تماثيل آلهة برونزية، وأوعية ماء واسعة، ويحمل آخرون عقوداً مصنوعة من أسنان أعدائهم، ومعهم حيوانات متوحشة كالظباء والأيائل ليتم تعميدها. رآهم المعمداني، زفر زعقة صارمة ونزل من فوق صخرة. نخت الجمال في مرفأ الأردن، وسمع هدير الصحراء، القاسي: "توبوا! توبوا! يوم الرب قادم!"

مع ذلك وجد يسوع رفيقيه جالسين، ساكتين ومكدرين في جرف النهر بانتظاره. كان قد اختفى ثلاثة أيام بلياليها. ويوحنا المعمدان ترك هو الآخر جرن العمادة خلال هذا الوقت ليكلمه. ماذا قال له، دنا منه كإنسان متوحش؟

ولمَ كان أحدهما شديد التجهم والصرامة، والآخر شديد الحزن؟ كان يهوذا يلهث غضباً، ذهاباً وإياباً ومنذ أن خيم الظلام، اقترب فزعاً من الصخرة، ليصغي. كان الرجلان يتكلمان بصوت خفيض، وكان يهوذا ينصت، لكنه لم يسمع سوى التمتمة، تمتمة سريعة، كخرير ماء جاري؛ لا غير. أحدهما أعطى، والآخر، ابن مريم، يمتلىء كجرة قرب نبع، انزلق الأصهب عن الصخرة وراح يتحرك، خائفاً، يدور في

العتمة: "هذا مخجل، جمجم، هذا مخجل لي: يتحدثون في مستقبل إسرائيل دون حضوري! لي أنا يجب أن يأتمن المعمداني قال في سره، لي أنا يجب أن تعطى البلطة. أنا أجدر باستخدامها، هو لا يقدر، لأني أنا وحدي أرحم إسرائيل الآخر، الملهم صاحب الرؤيا، يشهر- يجب أن يخجل وينادي إننا جميعاً أخوة، المبشِرون والمبشَرون، الإسرائيليون والرومان واليونان، حلت عليهم اللعنات!"

نام عند كعب الشجرة بعيداً عن مرافقيه. أخذه النوم لحظة، ظن أنه يسمع صوت المعمداني وكلمات مشتتة ومتباينة: " نار سدوم وعمورية، اضرب!"استيقظ يرتعش، إنما لما نهض لم يعد يسمع شيئاً. رغم أن طيور الليل، أبناء آوى وخرير الأردن في مزارع القصب..... نزل باتجاه النهر غطس رأسه الملتهب بالماء، ليطفئه، " لم ينزل إذن عن الصخرة؟ تمتم. انتهى إلى النزول وآنئذ، شاء أم أبى، سأعرف."

وهنا، لدى رؤيته يقترب، نهض بوثبة، نهض المرافقون الآخرون أيضاً، فرحين، وأتوا إليه. لمسوا كتفيه، ظهره، داعبوه؛ كانت عينا يوحنا منتفختين بالدموع: جعدة وكان في ثلم عميق.

لم تتملك بطرس أعصابه:

ـ يا معلم، قال، لم بقي المعمداني أياماً كاملة يحدثك؟ ماذا قال لك، من أزعجك؟ تبدل محياك.

لم يبق سوى أيام للحياة، أجاب يسوع، ابقوا معه؛ اعتمدوه، أنا، ذاهب.

ـ إلى أين، يا معلم؟ صرخ ابن زيبيدي الصغير ماسكاً إياه من ثيابه. نأتي جميعاً معك.

أذهب وحدي إلى الصحراء. في الصحراء المرافقة غير واجبة. سأكلم الله.

تكلم الله؟ قال بطرس مخبئاً وجهه، إذن لن تعود!

سأعود عندما يشاء الله، يا إخوتي وداعاً. ابقوا هنا وانتظروني إلى لقاء قريب. بقي الجميع ساكنين، واجفين؛ رأوه يتجه، بهدوء، نحو الصحراء. لم يعد يمشي كالسابق، لما كان بالكاد يلمس الأرض؛ كانت مشيته وئيدة، متزنة ـ متأملة. قطع قصبة ليستند إليها، صعد الجسر على ظهر أتان، توقف عند القمة، نظر إلى تحت. رأى النساء كلهن غاطسات في التيار العكر. لوحت وجوههم الشمس المتألقة فرحاً. قبالته، على الضفة، مازال آخرون يدقون صدورهم ويعترفون بخطاياهم في الهواء الطلق؛ الريح لاهبة، ينظرون إلى المعمداني، منتظرين أن يشير لهم بالدخول بدورهم في التيار المقدس. والناسك المتوحش، الغاطس حتى كليتيه في الأردن، يعمد الأرهاط البشرية، دفعهم نحو الحافة، بدون رأفة، بغضب، تلتهم أرهاط أخرى. لحيته السوداء والمقرفة،شعره الجعد، الذي لم يقص أبداً، يلمع في عين الشمس، وفمه الواسع، المفتوح أبداً، كان يصرخ.

يطوف يسوع بنظره النهر، الناس، في البعيد، البحر الميت، الجبال العربية، والصحراء، ينحني، يرى ظله ينزلق مع الماء نحو البحر الميت.

" أية سعادة تكون، قال لنفسه، الجلوس على ضفة النهر، رؤية الماء يجري نحو البحر، يجري أيضاً، تنعكس فيه، الأشجار، الطيور، الغيوم، الليل الملألأ بالنجوم، وأنا أجري معه! وأن لا تكون مهموماً بشؤون الدنيا....."

لكنه ارتعش، أبعد عنه الغواية، ابتعد عن الجسر، نزل سريعا واختفى خلف صخور الصحراء. كان ذو الشعر الأحمر واقفاً على الحافة ولم يتركه أبداً ببصره إلى أن توارى، خاف من أن يهرب منه، حث خطاه واحتذاه، أدركه في لحظة تأهبه للدخول في بحر الرمل الشاسع.

يا ابن داود، ناداه، انتظر، كيف لك أن تتركني؟

التفت يسوع، والتمسه:

يهوذا، أخي، لا تبتعد أكثر، يجب أن أبقى وحدي.

أود أن أعرف! أردف الأصهب، وتقدم.

لا تسرع؛ ستعرف في اللحظة الملائمة، لا أقول لك سوى هذا، يهوذا، أخي: يكفي، الأمر على ما يرام!

الأمر على ما يرام، لا يكفيني. الذئب لا يشبعه الحكي. أنت لا تعرف هذا لكني أعرفه.

إن كنت تحبني، تصبر تأمل الأشجار: ألا تجهد للإسراع

بإنضاج ثمارها؟

لست شجرة، أنا إنسان، أجاب الأصهب متقدماً دوماً. أنا إنسان، يعني: شيء ملح؛ لي شريعتي.

للّه شريعة واحدة للشجر والبشر، يا يهوذا.

صرف الأصهب بأسنانه:

ما هي هذه الشريعة، ما اسمها؟ تهكم.

الزمن.

توقف يهوذا وصر قبضتيه، ما قبل هذه الشريعة، تتقدم ببطء شديد وهو ملح. كون المعارض لها ،هو قانونها الخاص لزمن.

ـ اللّه يعيش طويلاً، صرخ، هو أزلي. إذن يصبر وينتظر. أما أنا إنسان، أقول لك، ثمة شيء، لا أريد أن أموت قبل أن أرى، وليس أرى فقط بل وألمس بهذه القوائم الضخمة التي ترى، هذا ما أقنع به.

ستراه، أجاب يسوع ملوحاً بيده، ليطمئنه؛ ستراه وستلمسه، يهوذا أخي، ثق. إلى لقاء. اللّه ينتظرني في الصحراء.

ـ سأذهب معك.

ـ رجلان في الصحراء، هذا كثير. عد.

ككلب الراعي امام امر صاحبه، دمدم الأصهب وأظهر أسنانه، لكنه خفض رأسه، رجع على عقبيه عبر الجسر، كدر المحيا، يحكي وحده ويمشي. تذكر يوم كان يجول مع

باراباـ أهذا رجاء ـ والعصيانات الأخرى في الجبال؛ أي ريح من النزوة الوحشية والحرية كانت تجلده، أي رئيس للجزارين إله إسرائيل! هذا هو الرئيس الذي كان يحتاجه، لماذا ذهب هذا الملهم الذي يخاف الدم ويصرخ: حب! حب! كعذراء في شدة؟ إنما صبرا، سنرى ماذا سيحمل من الصحراء.

كان يسوع في هذه اللحظة دخل الصحراء، كلما تقدم، بدا يقترب من أسد مريض. ارتعد، ليس من خوف بل من غبطة غامضة وعصية على الفهم والتعليل. لماذا كان مبتهجاً، لم يقدر أن يجلو الأمر..... فجأة تذكر، منذ ألاف السنين، يوم كان طفلاً، لم يتعلم الكلام بكفاية، حلم في إحدى الليالي ـ كان ذاك أول حلم يتذكره في حياته. انزلق إلى حفرة عميقة وعثر فيها على لبوة ربضت لترضع أطفالها؛ لدى رؤيتها جاع وعطش، كان ينام مع صغار الاسد وراح يرضع معهم. ثم خرجوا جميعاً إلى الفلاة وراحوا يلعبون في عين الشمس..... إنما بينما كانوا يمرحون، ظهرت أمه مريم في الحلم، رأته مع اللبوة وصرخت. استيقظ، غضب والتفت إلى أمه، النائمة قربه:

ـ لماذا أيقظتيني؟ زعق، كنت مع أمي وإخوتي!

ـ "الآن فهمت سبب بهجتي، قال لنفسه. ألج وكر أمي اللبوة، العزلة......" سمع فحيح الأفاعي القلق والريح الكاوية التي تهب بين الحجارة؛ وسمع زفير روح الصحراء غير المرئي.

انحنى يسوع وكلم نفسه:

ـ يا نفسي، هنا ستبرهنين أنك أزلية

سمع خطوات وراءه وأصغى. الرمل ينسحق، أحدهم يمشي، بهدوء، براحة، ويقترب. ارتجف. " أنا نسيتها وهي لم تنسني. قال متمتماً، تأتي معي ـ أمي."

كان يعرف أن هذه هي اللعنة، لكنه الآن منذ وقت مديد، بينه وبين ذاته، يسميها أو يناديها الأم........

راح يركض جاهداً في أن يفكر بأمر آخر، تذكر الحمامة وحشية الطبع. تخيل أن طيراً برياً سجيناً بين حناياه ـ طير أو بالأصح روحه التي تلح على الهرب. هل حققت رغبتها؟ أهي الحمامة المتوحشة هي التي تدور فوق رأسه تهدل طيلة برهة عماده؟ هذا ليس طيراً ولا سيرافيم، بل هو نفسه.

لقد فهم، فهدأ ثم عاد إلى المشي. سمع خلفه الرمل يتحرك، لكن قلبه تقوى، يقدر من الآن فصاعداً أن يتحمل كل شيء بجدارة. روح الإنسان كلية ـ القدرة، تمتم، تأخذ الوجه الذي يرضيها، في هذه اللحظة صارت روحه طيراً وطار..... وبينما كان يمشي، هادئاً، فجأة صرخ وتوقف.

" ربما كانت هذه الحمامة البرية ـ أتت الفكرة لتخرق روحه ـ، ربما كانت هذه الحمامة وهماً بصرياً، عصفه ريح؟ لأني، أذكر، إن جسدي كان يشع، خفيفاً، قوياً، كالروح، وما أود أن أسمعه، ما أرغب في رؤيته، أراه؛ أفصل وأخرب حسب مشيئتي...... إلهي، إلهي، الآن وحدنا نحن الاثنان، قل لي

الحقيقة، لا تخدعني، لم أعد قادراً على سماع أصوات في الجو!"

كان يتقدم والشمس تتقدم معه، كانت السماء، فوق رأسه. كان الرمل يكوي قدميه، نظر حواليه بحثاً عن زاوية من الظل؛ وهو يبحث سمع حفيف جناحين فوقه ـ طيران غراب يسرع نحو حفرة أو شيء أسود يتفكك وينشر نتناً.

فتح أنفيه ودنا. كانت الغربان قد حطت على الجيفة، وغرست مخالبها فيها وراحت تنهش. برؤية رجل يقترب، طارت مدهوشة، يحمل كل منها قطعة لحم بمنقاره وراحت تشكل دوائر في السماء وتصرخ في وجه المتطفل أن أرحل. انحنى يسوع، رأى البطن مفتوحاً، الشعر الأسود منتوفاً نصفه، قرون صغيرة مجدولة وعلى العنق المفكك صفوفاً من التمائم:

" التيس، تمتم مرتعداً، التيس المقدس الذي افتدى أخطاء الشعب، طورد من قرية إلى قرية، من جبل إلى جبل، نحو الصحراء، هناك...."

واقترب أيضاً، نبش الرمل بيديه، إلى العمق الذي تيسر له، واكتشف الجيقة:

أخي، قال، كنت نقياً ومن غير خطيئة، ككل الحيوانات؛ لكن الناس، الجبناء، حملوك خطاياهم وقتلوك. أرقد بسلام، لا تحقد عليهم. البشر كائنات مسكينة لا حول لها، ولا شجاعة ليؤدوا ثمن أخطائهم وحملوا لبريء الأثم... ادفع عنهم، أخي، وداعاً.

عاد إلى السير ثم بعد ثوان التفت بانفعال، لوح بيده وناداه:

ـ سنلتقي!

راحت الغربان تلاحقه بغضب؛ أخذوا منه جدثهم والآن يتابعونه، منتظرين سقوطه هو الآخر، ليبقرلهم بطنه وليعطيهم إياه يأكلونه. لماذا أخطأوا معه؟ ألم يخلقهم الله ليأكلوا لحم الميت؟ يجب إذن أن يؤدى الثمن!

أخيراً خيم المساء، شعر بالتعب؛ اندلق على صخرة ضخمة دائرية كحجر رحى. " لن أتابع المسير، تمتم؛ هنا، على هذا الحجر، سأنصب خيمتي وأصارع نفسي."

خيمت الظلمة دفعة واحدة من أعلى السماء، صعدت من الأرض، وغطت العالم. مع الليل يأتي الجليد. كانت أسنانه تصرف، اندرج في جلبابه الأبيض، تكور وأغمض عينيه. لكنه ما إن أغمض عينيه، حتى أخذه الخوف؛ تذكر الغربان، في عدة زوايا راحت بنات آوى تعوي، جائعة، أحس حوله الصحراء التي تتحرك، كما حيوان... ارتعب، فتح عينيه؛ كانت السماء تطفح بالنجوم، ارتاح. "هاهي السيرافيم seraphims[1]، قال لنفسه، ها هي أشعة النور الستة التي تنشد حول التاج الإلهي. لكنها بعيدة جداً، فلا نسمع بانت لترافقني..." طفح رأسه بأضواء النجوم، نسي أنه

1 ـ اسم الأرواح السماوية الأولى في مصاف، أو الملائكة المقربون.

جائع، أنه بردان. كان هو أيضاً شيئاً حياً، يرقة تعيش ليوم واحد وهو ينشد مدائح للرب. كانت نفسه يرقه فراشة صغيرة، كالأخت المتواضعة، خفيفة الثوب، كالملائكة...

استرد شجاعته بمعرفته أصله السماوي ورأى نفسه واقفاً إلى جانب الملائكة، حول تاج اللّه. آنئذ، هدأ، زال الخوف، أغمض عينيه ورقد.

استيقظ، رفع رأسه نحو الشرق ورأى الشمس، محرقة، علت فوق الرمال. هذا هو محيي اللّه، قال، ووضع يده أمام وجهه كي لا ينبهر...

" إلهي، تمتم، لست سوى حبة رمل، هل تميزني في الصحراء؟ حبة رمل تتكلم، تتنفس وتحبك. تحبك وتناديك أبا. لا أملك سلاحاً سوى الحب؛ مع هذا الحب سافرت لأعارك. ساعدني!"

نهض ورسم بقصبته دائرة حول الصخرة التي نام فوقها.

" لن أخرج من هذا الحيز، قال بصوت عال، لتسمعه القوى غير المرئية التي كانت تراقبه، لن أخرج من هذا المكان إن لم أسمع صوت اللّه.

لكني أود أن أسمعه بوضوح، ليس كحركة متبدلة، إنما على طبيعته، ليس كشدو عصفور أو قصفة رعد؛ إنما بوضوح. أن يكلمني كلاماً بشرياً وأن يقول لي ماذا يريد مني، ماذا أريد وماذا أريد أن يتسنى لي فعله. آنئذ فقط سأنهض،

سـأخرج مـن هـذا المجـال لأعـود إلى النـاس، إن أمرنـي بهـذا؛ أن أموت إن كانت هذه إرادته. سأفعل مايريد، إنما أريد أن أعرف هذه الإرادة. باسم الله!"

ركـع فـوق الـصخرة، متجهـاً إلى الـشرق، نحـو الـصحراء الكبرى. أغمض عينيه، ركز أفكاره، التي كانت عنده في الناصـرة، في مجـدلا، في كفرنحـوم، عنـد بئـر يعقـوب، في الأردن، وراح يرتبهـا حـسب مقتـضى المعركـة. كـان يـتكلم كمن في الحرب."

العنـق ممـدود، الجفـون مطبقـة، غـرق في أعمـاق ذاتـه. — خرير مياه، حركة قصب، بشر ينوحون. الصراخ والـذعر تـصل بواسـطة غيـوم الأردن؛ والآمـال البعيـدة مـدماة. — الليـالي الـثلاث الطويلة التي قضاها على الصخرة مع الناسك المتوحش انتصبت في روحه وفكره، مسلحة مـن القـدم حتـى الـرأس، ووثبـت نحـو الـصحراء لتـدخل المعركـة إلى جانبـه. وثبـت الليلـة الأولى عليـه كجرادة ضخمة عملاقة. كانت عيناهـا صـارمتين، صـفراوين ورمـاديتين، بأجنحـة صـفراء ورماديـة؛ بـأحرف غريبـة خـضراء مرسـومة علـى الـبطن؛ كـان تنفسها أشـبه بتـنفس البحـر الميـت. تـسلقته وأجنحتهـا راحـت تـصر في الهـواء بغـضب. صـاح يـسوع واسـتدار: كـان يوحنـا يقـف إلى جانبـه؛ مـد ذراعـه الهيكلـي في الليل، نحو القدس.

تطلـع، مـاذا تـرى؟ ـ لا شـيء ـ لا شـيء؟ أمامـك القـدس

الطهـور، المـومس، ألا تراهـا؟ جالـسة علـى ركـبتي رومـاني وتـضحك بفرقعـة وصـخب. " لا أريـد هـذا! زعـق الـسيد. أهـذه زوجـتي؟ لا أريـدها!" كالكلـب، مقتفيـاً خطـى الـسيد، أعـوي بـدوري: لا أريـد! أدور حـول أسـوارها الحـصينة وأعـوي: مـومس! مـومس! كـان لهـا أربعـة أبـواب محـصنة. علـى أحـدها يجلـس الجوع، على الثاني الخوف، على الثالـث الظلم، وعلى الأخير، في الشمال، العار، والفضيحة. أدخل، أطوف شـوارعها في كـل اتجـاه، أدنـو، أتقـصى سـكانها. أنظـر إلى وجوههـا الثلاثـة كثيفة، سميكة، ممتلئة وشعب من ثلاثة آلاف أنسان ميت من الجوع. متى إذن يفنى عالم أو يهلك؟ متى يتخم ثلاثة قادة ويموت ثلاثة آلاف جائعين. أنظر، مرة أخرى، وجوههم: الخوف يسيطر على الجميع، أنوفهم ترتجف. يتوقعون يوم الـرب. انظـر النسـاء: أشـرفهن تتملـى منقـذها، تـتلمظ وتـشير لـه: تعـال رفعـت سـقف قـصرها، أنظـر: يـضع الملـك علـى ركـبتيـه زوجـة أخيـه ويـداعب عريها. مـاذا تقـول الكتـب المقدسـة؟ " مـن ينظـر إلى عـري زوجـة أخيه، إلى الموت!" ومع ذلك لم يقتل، الزاني، هذا أنـا الناسـك، الذي سيقتل. لماذا؟ لأن يوم الرب قادم!

خـلال هـذه الليلـة الأولى كـان يـسوع رابـضاً عنـد قـدمي يوحنا ـ المعمـدان، رأى أبواب القـدس الأربعـة والجـوع، الخـوف، الظلم والعار تـدخل وتخـرج. فـوق المـومس المقدسـة تجتمـع الغيـوم الطافحة بالغضب والجليد

و في الليلـة الثانيـة، مـد المعمـداني يـده الهزيلـة كقـصبة وبحركة جافة فتح ثغرة في الزمان والمكان.

اصـغ، مـاذا تـسمع؟ ـ لا أسمـع شـيئاً. – لا شـيء! لم تـسمع الجور، الكلبة، التي فقدت الحيـاء، الـتي صعدت إلى الـسماء والتي تنبح على الـرب؟ ألم تمـر في القـدس، لم تـسمع الكهنـة، كبار الكهنـة، الكتبـة والفريسيين الـذين يحيطـون بالـهيكـل والذين ينبحون؟ لكن الله لم يعد يحتمل قحـة الأرض . ينهض، يمشي فوق الجبال، ينـزل. أمامـه يـأتي الغـضب، ووراءه كلبـات الـسماء الـثلاث: النـار، الجـذام والجنـون. أيـن الهيكـل؟ أيـن الأعمدة لمتغطرسة المطعمة بالذهب الـتي تدعمـه والـتي تـدفع إلى القـول: أزليـاً! أزليـاً! الهيكـل مـن رمـاد، وكـذلك الكهنـة، الكهنـة الكبـار، الكتبـة والفرنـسيين، إلى رمـاد تمـائمهم المقدسة، حللهم الحريرية وخواتمهم الذهبية. إلى رماد إلى رماد! إلى رماد! أين القدس؟

سآخذ قنديلاً مضاء، أبحث بين الجبال، عبر عتمات الـرب وأنـادي: يـا قـدس! يـا قـدس! الـصحراء، الـصحراء بـدون نهايـة؛ حتـى الغـراب لا يجيـب. الغربـان أكلـت، ذهبـت. الانغمـاس حتـى الـركبـة في الجمـاجم وفي العظـام، الـدموع تـكبلني، تـرهقني، لكني أبعدها، أطردها وأضحك. أقترب وأختار العظم الأطول، أصنع به مزماراً وأنشد الرب.

كـان المعمـداني يـضحك طيلـة الليلـة الثانيـة ويتأمـل، في

عتمـات الله، النـار، الجـذام والجنـون. وكـان يـسوع يمـسك ركبتي النبي، وسأل:

ألـيس ممكنـاً نـزول الغـداء إلى العـوام بالحـب؟ بالمحبـة؟ بالبهجة وبالرحمة؟ وأجاب المعمداني حتى دون أن يلتفت:

ألم تقرأ ما كتب؟ الفادي يدمر الكلي، يحطم الأسنان، يشعل النـار ويحـرق الحقـول، ليبـذر. يقلـع الأشـواك، الأعـشاب الـضارة، الأقـراص. كـيف يمكـن أن نفعـل لنقـضي في الأرض علـى الكـذب علـى العـار والـشنار، علـى الظلـم دون العمـل علـى إخفـاء الظـالمين، الفاسـقين والكـذابين؟ يجـب تطهـير الأرض ـ حتـى دون أن نـشفق عليهاـ يجـب تطهيرهـا لكـي تبـذر البـذرة الجديـدة. انـصرمت الليلـة الثانيـة. كـان يـسوع سـاكتاً، ينتظـر الليلة الثالثة؛ ربما رق وعذب صوت النبي.

خـلال الليلـة الثالثـة، أدار المعمـداني ظهـره، قلقـاً، علـى الـصخرة. مـا كـان يـضحك، ومـا كـان يحكـي، يـتفحص بانقباض، يتلمس أذرع يسوع يديه كتفيه ركبتيه، هـز رأسـه وسـكت. تـشمم الهواء. علـى ضـوء النجـوم تـرى عينـاه الألقتـان. أحياناً خضراً، أحياناً صفراً؛ من جبينه المسمر كان يسيل الدم مختلطـاً بـالعرق. أخـيراً في الـصباح، لمـا كـشفتهم أنـوار الفجـر الحلوة، كـان ماسـكاً يدي يسوع، يتأمل عينيـه وعبس: " لأول مـرة أدرك، قـال لـه، لمـا خرجـت مـن قـصب النهـر وأتيـت إلـي مباشرة، وثب قلبي كحيوان وليد. كيف وثب قلب صموئيل لما

رأى لأول مـرة داود، الـشاب الراعـي غـير الملتحـي وذا الـشعر الأمغر؟ هكذا قفز قلبي. لكنه لحم، هو يحب اللحم، أنا لا أثق به. في هذا المساء، وكأني أراك لأول مرة، تأملتك ملياً، شممتك ولم أطمئن. حدقت إلى يديك، ليستا يدي جزار، ليستا يدي فادي؛ هما حلوتان جداً، رحيمتان جداً، كيف لهما أن تمسكا البلطة؟ نظرت إلى عينيك، ليستا عيني فادي؛ تطفحان بالرحمـة والرأفـة. كـان قـد نهـض، تـنفس وتمطـى. " يـا رب باصرتاك مرتعشتان، غامضتان، تمتم. تقدر أن ترسل حمامة لتشعل النار، لتحويل العالم إلى رماد. ونحن، نتأمل السماء، ننتظر العاصفة، نسراً، غراباً، وأنت ترسل يمامة. لتبحث أو تجلب ماذا؟ لتقاوم؟ افعل ما تشاء"

فتح ذراعيه، احتضن يسوع، قبّله من كتفه الأيمن، ثم الأيسر:

"إن كنت الذي كنت أنتظر، قال له، ما آتيت كما تصورتك. اعبثا إذن حملت البلطة ووضعتها على عنق الشجرة؟ أم أن الحب أيضاً قد يحمل بلطة؟" كان قد غرق بأفكاره. " لا أقدر أن أبدل الحكم، تمتم أخيراً. سأموت قبل أن أرى. لا بأس؛ هذا قدري؛ هو قاس ويجرحني." شد على يد يسوع.

"حظاً طيباً، كلم الله في الصحراء، إنما عد سريعاً، لكي لا يبقى العالم وحده."

فتح يسوع عينيه. الأردن، يوحنا المعمدان، المعمدون،

الجمال، النحيب وثبت واختفت في الجو - وانبسطت الصحراء أمامه. صارت الشمس في السماء واشتعلت قيظاً. كانت الحجارة تدخن كأرغفة الخبز وأحس بالجوع يشرط بطنه.

" أنا جائع، تمتم وهو يتأمل الحجارة، أنا جائع!" تذكر الخبز الذي أعطتهم إياه العجوز السومرية: كان لذيذاً، حلواً كالعسل. تذكر العسل الذي أعطوه في القرى حيثما مروا، الزيتون المرصوص، البلح، الوجبة المقدسة التي أقاموها لما، سجدوا على ضفة طبريا، أنزلوا سياج الشواء ومدوا عليها السمك الذي أتخم الجو بالروائح ثم أحس صعوداً في روحه وبلبلة ثمر التين، العنب والرمان.......

جف حلقه، هو عطشان، كل الأنهار التي تسيل في العالم، كل هذه المياه الواثبة من صخرة إلى أخرى، تجري عبر فلسطين من طرف إلى طرف، تتبعثر وتصب في البحر الميت - وليس فيه أي نقطة ماء تشرب! فكر بكل هذه المياه وتضاعف عطشه. بدأ رأسه يدور، وأخذت تزيغ عيناه، شيطانان خبيثان، يشبهان أرنبين صغيرين، خرجا من الرمل الكاوي، انتصبا على القوائم الخلفية، رقصا، التفتا، رأيا الناسك، هرا فرحاً وراحا يخبطان الأرض ويقتربان منه. وثبا على ركبتيه ، صعدا إلى كتفيه. كان أحدهما لدناً كالماء، والآخر رطباً ومعطراً كالخبز ولما قدم يسوع يده بغضب للقبض عليهما، وثبا واختفيا في الجو، أغمض عينيه، ركز أيضاً أفكاره التي شتتها الجوع

والعطش. فكر بفداء العالم.آه! لو كان ممكناً أن يأتي يوم الرب بالحب والمحبة! أليس الله قادراً على كل شيء؟ لم لا يقوم بمعجزة، لم لا يلمس القلوب لتزهر؟ كل عام، في الفصح، يلمس جيداً الأرومات، الأعشاب والأشواك ويجعلها تزهر. لو استيقظ الناس يوماً وقلبهم أزهار!

ابتسم. العالم في ضلوعه أزهر، الملك الآثم تعمّد، تطهرت نفسه، طرد ابنه حميد هيروديت، عادت إلى زوجها. كبار الكهنة، والسادة فتحوا أقبيتهم وصناديقهم. وزعوا أموالهم على الفقراء وارتاح الفقراء، طردوا من قلوبهم الكره، الحسد والخوف..... تأمل يسوع يديه؛ أزهرت البلطة التي أوكلها إليه البشير النذير؛ هي الآن غصن في شجرة لوز مزهرة يمسكها الآن بيديه.

انتهى النهار بمرح وابتهاج، تمدد فوق الصخرة ونام، طيلة الليل سمع في نومه جريان المياه، صغار الأرانب ترقص، حفيفاً غريباً وشعراً كما لو أن المنخرين الرطبين ينخران..... في منتصف الليل ابن آوى جائع، كما تخيل، دنا منه وتشممه، ليعرف إن كان ميتاً؛ توقف لحظة، متردداً، يسوع في نومه يرأف به. سيفتح له صدره ليشبعه، لكنه أمسك. صان جسده للناس.

استيقظ قبل الفجر. نجوم ضخمة تشبك مداراتها في السماء، كان الجو أزغب أزرق. في هذه اللحظة تستفيق الديوك، قال، لتستفيق القرى، ليفتح الناس عيونهم ويروا من

المنـور عـودة النـور؛ الـصغار يـستيقظون أيـضاً، راحـوا يبكـون واسـتعدت الأمهـات لإعطـائهم أثـدائهن...... تحـرك العـالم برهـة فوق الرمال، ببشره، بيوته، ديكتـه، أطفالـه وأمهـاتهم ـ عـالم مـن جـو وجليـد صـباحي سـتصعد الآن لتمـتص كـل هـذا!....... انقـبض قلـب الناسـك؛ لـو اسـتطعت، اسـتعادة الجليـد الأبـدي! لكن فكـر اللّه جحيم، حبّـهُ هـوة رهيبـة، يـزرع عالمـاً، يـسحقه في لحظـة نـضجه ويـزرع أخـر." مـن يعـرف، ربمـا قـدر الحـب إن يحمل بلطة...... تذكـر كلمات يوحنا المعمـدان وارتعـد. نظـر إلى الصحراء؛ صارت موحشة ، قرمزية، تمور تحت أشعة الشمس، الـتي تبـدو هـذا اليـوم غاضـبة، ثمـة هالـة عاصـفة، راحـت الـريح تهب، رائحة الزفت والكبريت وصلت إلى منخـري يسوع. شـعر بذاكرته تعود إلى الوراء، سـدوم وعمـورة مغمورتـان بـالقطران، بقصورها ومسارحها، بمقاهيها ومطاعمها بمواخيرها ـ الرأفة، يا رب، صرخ ابراهيم، لا تحـرقهم. أنـت خـير، ارحـم مخلوقاتـك.

– أنا عادل، أجابه اللّه، سأحرقهم!

أهـذا إذن هـو طريـق اللّه؟ هـذه إذن القحـة الكـبرى الـتي تـصدى لهـا القلـب، هـذه الكتلـة مـن الطـين الهـش، ونـاداهـا: " قفـي!" مـن واجبنـا؟ النظـر إلى الأرض، تمييـز علـى الـتراب أثـر خطــى اللّه واقتفائــه. أنظــر إلى الأرض، أرى بوضــوح ســدوم وعمـورة مومـستين بحظـوة اللّه. أثـر اللّه هـذا هـو البحـر الميـت كلـه؛ لقـد وضـع قدمـه والـتهم القـصور، المـسارح، المقـاهي ــ

المطاعم، المواخير، سدوم وعمورة! ووضعها أيضاً وتصير الأرض مرة أخرى مبتلعة ــ الملوك، كبار الكهنة، الفريسيين، الصديقيين، كل شيء إلى الأعماق! دون إقامة وزن لأي شيء راح يصرخ. امتلأت روحه بالشجاعة، انطلقت. نسي أن ركبتيه عجزتا عن حمله، ينهض، يمشى متبعاً أثر خطوة اللّه وقع في الأرض على قفاه، في آخر نفس." أنا لا أقدر، ألا تراني؟ صرخ وهو يرفع عينيه نحو السماء القائظة، لا أقدر. لم اخترتني؟ لا أستطيع، كللت!" لما انتهى من الصراخ رأى أمامه كتلة سوداء: كان تيساً ممدداً على الرمال، قوائمه في الهواء. تذكر أنه كان منحنياً على عينيه المبلبلتين وأنه رأى وجهه." هذا أنا التيس، تمتم، أنا. وضعه اللّه في دربي لأرى من أنا وإلى أين أتجه........ لا أريد، جمجم، لا أود أن أبقى وحدي. المساعدة!"

وهكذا، بينما كان منحنياً ويبكي تحرك نسيم لطيف، رائحة القطران والجيقة اختفت، وبدأ العالم يتعطر. سمع رنة في البعد وأتت نحوه أساور، ضحك، مياه تندت من أجفان وإبطي وحلق الناسك. رفع عينيه، أمامه، على حجر، أفعى بعيني وصدر امرأة تلحس نفسها وتنظر إليه. تراجع الناسك، فزعاً. هل كانت أفعى، امرأة، أم روحاً خبيثة في الصحراء؟ هذا يشبه الأفعى التي كانت ملتفة حول الشجرة المحرمة في الجنة والتي أغوت أول رجل وأول امرأة؛ كانا متحدين ووضعا في الأرض أول خطيئة. سمع ضحكاً وصوتاً أنثوياً، لطيفاً وساحراً:

أنا أرأف بك، يا ابن مريم. ناديت: لا أريد أن أبقى وحدي، المساعدة! عطفت عليك وأتيت. فيم تريدني.

لا أريدك، لم أناديك. من أنت؟

ـ روحك.

ـ روحي! أردف يسوع وخبأ عينيه مرعوباً. آدم،

ـ روحك. خفت من البقاء وحدك؛ جدك أيضاً فزع، وصرخ هو أيضاً: إلى المساعدة! جسده وروحه اتحدا وخرجت المرأة من ضلعه، لترافقه......

لا أريد! لا أريد! أنا أذكر التفاحة التي أعطيتها لآدم والملاك الذي شهر السيف!

تتذكر هذا، ولذا تتألم، تصرخ وتنادي أنك لم تستطع إيجاد دربك. أنا سأدلك إليه. هات يدك، لا تنظر إلى وراء، لا تذكر شيئاً. تأمل صدري، الذي يتقدمك، واتبعه، يا زوجي. هو يعرف الدرب فلا يتوه.

ستقودني أنا أيضاً إلى درب الشر ـ الخطيئة المهد وإلى جهنم. لن أتبعك ليس هذا هو دربي.

ترددت ضحكة ساخرة وبانت الأسنان الحادة. خبيثة الطوية:

أتود اقتفاء آثار الله، أثار النسر، دودة الأرض؟ أتحمل، أنت ابن النجار، خطايا شعب كامل؟ ألا يكفيك آثامك أنت؟ بأي قحة تظن أن واجبك افتداء البشر!"

لـدي سـر أكـشفه لـك، يـا ابـن مـريم الحبيـب.... رخمـت الأفعى صوتها، ولمعت عيناها.

انزلقـت كمـا المـاء، عـن الحجـر وبـدأت متلألئـةً متموجـة، وبـدأت انطلاقتهـا، زحفـت علـى سـاقيه، علـى كليتيـه، علـى صدره واستندت إلى كتف الناسك رغماً عنه، انحنى ليصغي لها. بلسانها، باشرت الأفعى لحس إذن يسوع، ومسحورةً، بعيدةً جداً، كالآتية من الجليل، من ضفاف بحيرة طبريا، سمع يسوع صوتها:

المجدلية.... المجدلية......... المجدلية.......

ماذا؟ رد يسوع مرتعشاً. ماذا، المجدلية؟

هذه هي التي تريد إنقاذها! قالـت الأفعـى، فجـأة بعجرفـة. ليست الأرض، دع الأرض، بل هي، المجدلية، التي تود إنقاذها.

هـز يـسوع رأسـه بعـصبية ليطـرد عنـه الأفعـى، لكنهـا همست، حركت لسانها في أذنه وكلمته:

جـسمها رشـيق طـري، حـاذق. كـل الأمـم مـرت عليـه، وخصك اللّه بـه منـذ الطفولـة، اسـتلمه! صـنع اللّه الرجـل والمـرأة ليتلاءمـا كمـا يـتلاءم المفتـاح والقفـل. افتحـه، فيـه أولادك، مبلـوعين، مكـورين، ينتظـرون أن أنفـخ علـيهم ليـذوب الجليـد عنهم، لينهضوا ويخرجوا، ويمشوا في ضـوء الـشمس...... أتـسمع ما أقول لك؟ ارفع عينيك، هـات أمـارة منـك. هـات إشـارة منـك، حبيبي، وأنا أحمل الآن، إلى سرير مريح، امرأتك.

ـ زوجتي؟

زوجتك، مثلي أنا، يقول الله، تزوجت المومس ـ القدس. الأمم مرت فوقها؛ أما أنا تزوجتها، لأنقذها. كذلك النبي أوزي Osee تزوج المومس غومور Gomor، ابنة دبلاييم. كذلك يأمرك الله أن تضاجع مريم المجدلية. وأن تنجب منها أبناء، كونها امرأتك، لتنقذها .

في هذا الوقت أسندت الأفعى صدرها القاسي والدائري على صدر يسوع؛ زحفت بتؤدة، تكورت وعانقته. شحب يسوع، أغمض عينيه، رأى جسم المجدلية الصلب والمقوس يمشي مترنحاً بفتور على امتداد ضفة بحيرة طبريا، تنظر بعيداً نحو الأردن وتتنهد. مدت الذراعين، باحثة عنه. كان صدرها عامراً بالأولاد؛ ليس لها سوى أن تثني زاوية عينها، لتقوم بأمارة وفي الحال، أي سعادة. تبدلت حياتها، عذبت، تأنسنت! هذا هو الدرب، هذا هو! آب إلى الناصرة إلى بيت أمه، تصالح مع إخوته. إرادة إنقاذ العالم ليست إلا جنون الشباب، إلا جنون الشباب، إنما لحسن الطالع أن المجدلية أتت. وهو شفي، عاد إلى ورشته، وراح يزاول مهنته السابقة، المحبوبة جداً، صنع مجدداً أسرّة، معاجن، عجلات، أنجب أولاداً، صار رجلاً كباقي الرجال. مرتباً. الفلاحون يحترمونه ـ ينهضون عندما يمر؛ يعمل طيلة الأسبوع وفي يوم السبت يذهب إلى المعبد بثياب نظيفة، صوفية وحريرية نسجتها له زوجته، المجدلية. منديل

على رأسه ثمين، عقدة الزواج الذهبية في الإصبع ـ سيحتل مقعده في الكنيسة مع مسني القرية، سيقعد ويصغي، هادئاً ولا مبالياً، الكتبة والفريسيون، مثارون وشبه مهابيل، يعرقون دماً وماء ليشرحوا الكتابات المقدسة.... سيبتسم تحت شاربيه ويحدق بهم بشفقة: أين سيضل هؤلاء الموسوعيون! هو، بسكينة، بالتأكيد، يشرح الكتابات المقدسة : بزواجه، بإنجاب الأطفال، بصنع أسرة للأطفال، معاجن، وعجلات.....

يفتح عينيه ويرى الصحراء. كيف مر النهار؟ مالت الشمس نحو المغيب.

ملتصقة به، صدر إلى صدر، الأفعى تنتظر. أرسل تنفساً هادئاً، ساخراً، كشكوى. مهدهدة رؤوم تسقط في الظلمة والصحراء كلها تموج وتهدهده كأم.

انتظر....... انتظر..... قال تنفس الأفعى الساحر؛ خيم الليل، بردت، قرر، قم بأمارة ما، سيفتح الباب وتدخل إلى الجنة....... قرر، يا حبيبي، المجدلية تنتظر......

انشلت عضلات الناسك. وهو يفتح فمه ليقول نعم، شعر بشخص فوقه يحدجه؛ رفع الرأس، خائفاً. رأى في الجو عينين، عينين فقط سوداوين وحواجب بيضاء تشير له: لا! لا! انقبض قلب يسوع، حدق مرة أخرى ـ ملتمساً، كمن يود أن يصرخ: دعني وشأني، اجزني، لا تغضبني! لكن العينين صارتا وحشيتين وتحركت الأهداب، مهددة.

لا.. لا.. لا.. غمغم آنئذ يسوع، وطفرت من عينيه دمعتان كبيرتان. دفعة واحدة انسلت عنه الأفعى، عضت نفسها، شقت دربها بغضبة صماء ونشر الجو رائحة نتنة.

وقع يسوع على وجهه، تعفرت شفتاه، منخراه وأهدابه بالرمل. لم يفكر بشيء، نسي أنه جائع وعطشان، راح يبكي. بكى، كما لو أن كل أولاده وزوجته ماتوا، كما لو أن حياته كلها بادت.

يا رب، يا رب، تمتم وهو يعض الرمل، يا رب، أين رحمتك؟ لتكن مشيئتك! كم مرة حتى الآن قلت لك، كم مرة ستقول لي؟ كل حياتي أقول لك، كم مرة ستقوله لي؟ كل حياتي أصارع نفسي، سأقاوم وأقول: لتكن مشيئتك.

ونام، وهو يتمتم، ويبلع الرمل. منذ أن أغمضت عينا جسده انفتحت عينا نفسه. رأى شبح أفعى، كبيراً كجسم رجل، ممتداً من أول الليل حتى آخره؛ افترش الرمل، وانفتح قربه بوز عريض قرمزي. وأمام هذا البوز حجل زاه ومرتعش، يجهد لينشر جناحيه ويهرب، لكنه لا ينجح. تقدم مترنحاً، الريش ينفشه الخوف، يرسل صرخات صغيرة حادة ويتقدم....... سمرت الأفعى عينيها عليه، سكنت، فتحت شدقها، ولم تسرع، كانت واثقة منه. تمايل، دهنت قوائمها، كان الحجل يتقدم بهدوء، مباشرة باتجاه الشدق المفتوح. يسوع. واقف، ينظر ويرتجف مثل الحجل....... في الصباح وصل أمام الشدق المنفغر،

تخبط لحظة. رمى نظرة سريعة حوله، كمن يطلب العون ـ وفجأة مد عنقه ودخل، الرأس أولاً، القائمتان بعده، وانغلق الشدق. أسرع يسوع إلى بطن الوحش، بتؤده، كبب الريش والجسم والقائمتين بلون الياقوت ـ الحجل.....

استيقظ يسوع واجفاً، مبلبلاً. الصحراء، وردة، تتموج طلع النهار.

ـ هوذا الله، تمتم مرتعشاً، هذا هو الله...... والحجل.........

انسد حلقه، لم يعد قادراً على نطق فكرته حتى النهاية. إنما مع ذاته:

.... هذه هي روح الإنسان، قال، هذه هي روح الإنسان التي هي الحجل!

تلاشى أمام هذه الفكرة ساعات. كانت الشمس تعلو، تكوي الرمل، تتغلغل إلى جمجمة يسوع، تدخل رأسه، تضني عقله، حلقه، وصدره. تعلقت أحشاؤه كالعناقيد اليابسة على الكرمة، في الخريف. التصق لسانه بحلقه تحول جلده إلى مزق وتروست عظامه؛ وصارت أصابعه زرقاء.

كان الوقت قد اختصر عنده كخفقان قلب، وكبير كالموت. لم يعد جائعاً ولا عطشاناً، لم يعد راغباً بالمرأة ولا الأولاد، تجمعت روحه في عينيه.

كان يرى، فقط، كان يرى. أحياناً، في رأد الضحى، تعشى عيناه، يتوارى العالم، ينفتح أمامه شدق ضخم، كان

حنكهُ الأسفل الأرض، وحنكهُ الأعلى السماء، ويتقدم ببطء، يجر نفسه نحو الشدق المنفغر مرتجفاً ممدد العنق.

الأيام بلياليها تنقضي، كما بروق بيضاء، وسوداء. مرة، في منتصف الليل أتى أسد، وقف أمامه وهز بغطرسة عقيرته. وسمع صوته، كما صوت إنسان:

بغبطة استقبل في عريني وأحيي الزاهد المظفر الذي ناصر فضائل بسيطة وأفراحاً بسيطة وسعادة! نحن لا نحب السهل والأكيد، نحن نتصدى للأمور الصعبة. المجدلية أمر ضئيل لا تصلح زوجة لنا، نود الأرض زوجة لنا. تنهدت الزوجة الشابة، والخطيب، السماء أشعلت مصابيحها، وصل المدعوون هيا بنا.

ـ من أنت؟

ـ أنت. أنت الأسد الجائع في أعماق قلبك ورئتيك، الذي يطوف حول الحظائر، حول ممالك العالم والذي يتردد في الوثب إلى الداخل والافتراس.

وثبت من بابل إلى القدس والإسكندرية، ومنها إلى روما وأنادي:" أنا جائع، كل شيء يخصني!" يطلع النهار، أعود إلى صدرك، اندمس، أصير، أنا الأسد الرهيب، حملاً أبدو ناسكاً متواضعاً لا يرغب في شيء، يقدر أن يعيش على حبة قمح، وجرعة ماء وإله بسيط ويقظ يعتبر أباً ليسترضى، إنما في السر، يهتاج قلبي، كان ذليلاً بغطرسة الليل، لأرمي عن ظهري جلد النعجة ولأعود أجول، أزأر وأضعاً قوائمي الأربع

فوق بابل القدس، الإسكندرية وروما.

ــ أنـا لا أعرفـك. أبـداً لا أرغـب بممالـك الـدنيا. مملكـة السماء تكفيني.

ـ لا تكفيـك؛ أنـت تخـادع نفسـك، يـا رفيقـي. لا تكفيـك، إنمـا لا تجـرؤ علـى النظـر إلى داخلـك، إلى أحشائك، وإلى قلبـك لترانـي..... لم تـرمقني بعـين شـكوك، لمَ يفكـر قلبـك بالـشر؟ تعتقـد أنـي إغـواء وأنـي أتيـت، أرسـلني الـشرير لأكلـك؟ أيهـا الناسك الطائش، ما هـي قوة الغواية الآتية مـن الخـارج؟ لا يمكـن الاستيلاء على الحصن إلا من الداخل. أنا الصوت الكـامن فيـك. وأنت تغطي نفسك بجلد نعجـة ليجـرؤ النـاس علـى الاقتراب منـك وتأكلـهم. تـذكـر، يـوم كنـت طفـلاً، قـرأت سـاحرة كلدانيـة يـدك. قالـت لـك: أرى كـثيراً مـن النجـوم، كـثيراً مـن الـصلبان، ستكون ملكاً. لمَ تبدو كمن نسي؟ في النهـار وفي الليـل تـذكـر هذا. انهض، يا ابن داود، ادخل مملكتك!

كـان يسوع يستمع إليـه، محـني الـرأس. شـيئاً فـشيئاً عـرف صـوته، تـذكـر أنـه سمعـه أحيانـاً في أحـلام، يـوم صـرعه يهـوذا، عندما كان طفلاً، ومرة أخرى ـ ترك بيته، تجول أيامـاً وأيامـاً في الحقـول، كـان الجـوع يمـزق أحـشاءه، ورجـع إلى بيتـه، ذلـيلاً؛ أخواه، سمعان الأعرج وجاك الورع كانا واقفين في العتبة وشتماه. في ذلك اليوم، فعلاً، سمع في داخله الأسد الذي كان يزأر..

وحديثاً أيضاً، لما حمل الصليب ليصلب الزيلوت، مـر أمـام

الـرهـط الهـائج وحدجـه النـاس بـاشمئزاز واسـتهجن عملـه؛ آنئـذ وثب الأسد مجدداً من صدره، بقوة رمته أرضاً.

وهنا، في تلك الليلة، ظهـر وانتصب أمامـه الأسـد الـداخلي الذي كان يزمجر. حك نفسه، توارى، بان من جديد، وكأنـه يـدخل ويخـرج مـن أعماقـه، ويداعبـه بـضربات تـودد مـن ذنبـه، ليسليه... شعر يسوع بقلبـه يتبلبـل أكثـر فـأكثر. هـذا صـحيح، الأسد على حق، هذا يكفي يكفيني ما عانيت من الجوع، من الرغبـة، مـن اللعب المهيض الجنـاح، مـن مـد الخـد لأصـفع علـى الآخر، يكفيني ما داريت الله وتملقته، آكل النـاس، وأسميتـه أباً، استدراراً لرحمته بقوة الإطراء؛ شتماً من إخـوتي، مـن رؤيـة أمي تبكـي، النـاس يـضحكون عنـد مـروري، عـاري القـدمين، اجتياز السوق، تأمل البلح، الخمر، العسل، النساء وعجزي عن شراء أي شيء. وافتقاد الجرأة إلا في الحلم، انتظار أن يحمل لي النـوم كـل هـذا، النعـيم ومعانقـة الفـراغ! اكتفيـت. سـأنهض، اتمنطق بالسيف الذي ورثته من أبي ـ ألـستُ ابـن داود؟ ـ لأدخـل مملكتي. الأسد على حق. ليس لـي سـوى فبركـة الآراء الغيـوم وممالك السماء من حجارة من أرض ولحم، هذه هي مملكتي!

نهـض أيـن وجـد قـوة الانتـصاب وممارسـة حركـة حمـل السيف غير المرئي، يزأر كأسد. بعد هذا صاح: هلموا! التفت: كـان الأسـد قـد تـوارى. سمـع فوقـه ضـحكة حركـت الهـواء وصـوتاً يقـول: ـ انظـر! بـرق الليـل وتخثـر. تحـت البـرق الـساكن

مدن محصنة، بيوت، شوارع ساحات، ناس؛ حول هذا سهول، جبال، بحر، إلى اليمين بابل، إلى اليسار القدس والإسكندرية، وراء البحر، روما. سمع من جديد النداء: انظر! رفع العينين. ملاك بجناحين أصفرين نزل من السماء رأسه أولاً. سمع يسوع نواحاً؛ في الممالك الأربع يرفع الناس اليدين وتسقط أيديهم، يأكلهم الجذام. يفتحون الفم لينادوا: إلى العون! وشفاههم تسقط يتآكلها الجذام. الشوارع غاصة باليدين، بالأنوف والشفاه.

بينما كان يسوع يمد اليدين ويطلبن من الله الرحمة، " ملاك ثان بجناحين مبرقشين ويحمل جلاجل بقدميه ورقبته، ينزل من السماء الرأس أولاً. وفجأة، على كل الأرض ضحك وصخب، المجذومون يركضون، يضربهم الهياج وما تبقى من جسمهم يقهقه.

صم يسوع أذنيه لكي لا يسمع كان يرتجف. آنئذ هبط من السماء ملاك ثالث ذو أجنحة حمراء كالنيزك. ارتفعت أربعة سهام نارية، وأربعة أعمدة من الدخان، فأفلت النجوم. هب نسيم خفيف، فتوارى الدخان. حدق يسوع: الممالك الأربع كانت أربع قبضات من الرماد. عاد الصوت وسمعه: ها هي الممالك الأرضية التي ستحتلها، أيها المسكين. ها هي ثلاثة ملائكة محبوبة: الجذام، الجنون والنار. يوم الرب أتى، يومي أنا! همهم الصوت، وتوارى البرق.

في الفجر، استلقى يسوع في أسفل الصخرة وترك وجهه معفرا بالرمل. لابد أنه بكى طويلاً في الليل، كانت عيناه منتفختين وملتهبتين. نظر حوله، انتهى هذا البساط الرملي، أكان هذا روحه؟ الرمل يتموج، يتحرك. سمع صراخاً حاداً، ضحكاً ساخراً، ونحيباً. حيوانات صغيرة من الخشب، أنواع من الأرانب، من السنجاب، من الدلق[1]، تقفز وتقترب منه؛ كلها عيونها حمراء كالياقوت." أتى الجنون، قال، أتى ليفترسني..... صرخ، اختفت الحيوانات البرية. انتصب أمامه رئيس الملائكة، حاملاً هلالاً في رقبته ونجمة فرحة في رموشه، وبسط جناحيه الأخضرين.

رئيس الملائكة، صرخ يسوع ووضع يده أمام عينيه حتى لا ينبهر. طوى رئيس الملائكة جناحيه وابتسم:

ـ ألم تعرفني؟ ألم تتذكرني؟

ـ لا... لا! من أنت؟ ابتعد، يا رئيس، أنت تبهرني.

ـ تذكر يوم كنت طفلاً صغيراً، لم تتعلم المشي بعد، تستند إلى الباب، تتمسك بثوب الأم كي لا تقع، وتصرخ من أعماقك، ما اعطيت من قوة:

ـ " إلهي، اجعلني إلهاً! إلهي، اجعلني إلهاً! إلهي، اجعلني إلهاً!

---

1 ـ حيوان من السموريات ورتبة اللواحم.

ـ لا تجعلني أفكر بذاك الزبور الوقح، لا تذكرني!

أنا هذا الصوت فيك؛ أنا من كان يصرخ. أنا من مازال يصرخ، لكنك تبدو لا تسمعني، لأنك تخاف. إنما إن أردت أم لا، ستسمع، الساعة أزفت، قبل ولادتك، اخترتك، أنت، من بين الرجال، تحركت وتنورت فيك، لن أدعك للفضائل الصغيرة، للمباهج الصغيرة، للسعادة، والآن، في هذه الصحراء التي قدتك اليها، المرأة أتت، طردتها، وممالك الأرض أتت، رددتها. هذا أنا الذي طردها، أنا وليس أنت. أدخر لك مصيراً أعظم بكثير، أصعب بكثير.

ـ ما هي الرغبة التي كانت تدفعك تصرخ لما كنت طفلاً؟

أن تصير إلهاً. هذا هو ما ستكون!

ـ أنا... أنا؟

لا تسمح للرهبة أن تتغلغل في حناياك، لا تئن، هذا هو ما ستكون. ولقد كنت. أي كلام حسب ظنك قالت اليمامة فوقك، في الأردن؟

ـ قل لي... قل لي!

ـ أنت ابني، الوحيد!" هذا هو الخبر الذي حملته لك اليمامة البرية. لم تكن يمامة، هذا هو رئيس الملائكة جبرائيل. السلام لك، أيها الابن، ابن الله الوحيد!

ارتعش جناحان في صدر يسوع؛ أحس بنجمة الصبح الكبرى المتمردة المشتعلة بين أهدابه. صوت يرن في داخله: "لست

إنساناً، لست ملاكاً، لست خادمك، أنا ابنك، يا أدناي[1].
سأجلس إلى عرشك لأدين الأحياء والأموات وسآخذ كرة بيدي اليمنى لألهو - أي العالم. هيء لي مكاناً، دعني أجلس!"

ملأت الجو ضحكة مجلجلة. انتفض يسوع، توارى الملاك. صرخ صرخة مؤثرة: "الشيطان! ووقع، وجهه إلى الرمل. — إلى لقاء قريب، قال صوت هازيء، سنلتقي قريباً! — أبداً! همهم يسوع، أبداً، الشيطان! وترك وجهه في الرمل.

سنلتقي! تردد الصوت، في يوم الفصح، للأسف.

راح يسوع ينوح ويندب. ترقرقت من عينيه دموع دافئة بقطرات كبيرة في الرمل. لساعات طويلة، غسل البكاء وطهر روحه. في نهاية النهار هبت ريح ندية، عذبت الشمس، والجبال على مرمى البصر ازهرت. آنئذ سمع يسوع صوتا شغوفا ويداً غير مرئية تلامس كتفه.

- انهض، يوم الرب وصل. اركض احمل الأنباء إلى الناس. أنا قادم!

(18)

كيف تيسر له الوقت لاختراق الصحراء، بلوغ البحر الميت، العودة على قدميه، والتغلغل مجدداً في الأراضي المحروثة والجو الذي كثفه تنفس الناس؟ لم يكن هو الذي يمشي، كان

---

1 - الله لدى اليهود.

أضعف من هذا. يدان غير مرئيتين تدعمانه من الإبطين. الغيمة الشفافة التي ظهرت في الصحراء تكثفت، اكفهرت، لفت كل السماء؛ سمع هزيم الرعود، انهمرت أولى القطرات. أظلمت الأرض والدروب توارت. بغتة فتحت أقفال السماء، مد يسوع بطن يده التي امتلأت بالماء؛ شرب. اقترب؛ إلى أين يتجه؟ البروق مزقت السماء، اشتعل وجه الأرض برهة بنار زرقاء، صفراء، رصاصية – وفجأة غرقت مجدداً بالظلمات. أين تواجد القدماء، وأين نعثر على يوحنا المعمدان؟ ومرافقوه، في مزارع القصب البري، كانوا ينتظرونه! " إلهي، تمتم، أتراني، أرسل لي بريقاً، أرشدني إلى الطريق!" لم يكد يتكلم حتى شق بريق السماء باستقامة إليه؛ أرسل له اللّه أمارة، فمشى مطمئناً على هدى البرق. هطل المطر غزيراً، المياه فحول السماء تجري وتتحد بالمياه الأنثوية في الأرض، في البحيرات والأنهر. لا تشكل الأرض والسماء والمطر سوى شيء واحد، يلاحقها ويقودها نحو الناس. كان يتخبط بالوحل، تعلق رجله بالأدغال القصيرة الشجر ينزل في الحفر، يصعد. على ضوء البرق يرى فوقه شجرة رمان محملة بالثمار. قطف رمانة، امتلأت يده بالياقوت، ترطب حلقه. قطف أخرى، وثالثة، أكل، بارك اليد التي زرعت شجرة الرمان، قوي جسده، عاد إلى دربه. مشى ومشى. أهذا نهار ليس ليل؟ خيم الظلام. ثقل قدماه بالوحل. بدا له أنه يرفع بمشيئته الأرض كلها. فجأة، على ضوء البرق، رأى أمامه ضيعة صغيرة معلقة في

الرابيـة. بيوتهـا ، البيـضـاء، تستـضـيء وتظلـم مـع ظهـور الـبروق أو اختفائهـا. قفـز قلبـه فرحـاً. أنـاس يـسـكنون هـذه البيـوت، أخـوة، كـان يتمنـى أن يشد علـى يد إنـسان، أن يشم عطـراً بـشرياً ، أن يأكـل خبـزاً ، أن يـشرب خمـراً ، أن يحكـي. خـلال سـنين. كـم عطـش وحـده في العزلـة! كـان يطـوف في الحقـول وفي الجبـال، يكلـم الطيـور والحيوانـات البريـة؛ يهـرب مـن النـاس؛ والآن، أيـة غبطة في أن يشد على يد إنسان.

حث الخطوة، اتجه إلى الطلعة المبلطـة، وجد قـواه، عـرف الآن إلى أين كـان يـذهب، إلى أيـن يفـضـي الـدرب الـذي دلـه إلى اللّه. كلما صعد، قلت الغيوم، ظهر حيـز مـن الـسماء، سـطعت الشمس، حالما ذهب لينام. سمع صياح الديكة، نباح الـكلاب، نساء يصرخن على الشرفات، دخان أزرق يصعد فـوق الـسطوح، شم رائحة خشب يحترق.

ليبـارك محتـد البـشر، تمـتم يـسوع الـذي كـان يمـر أمـام بيوت القرية الأولى وسمع أحاديث الناس.

كـانت الحجارة، المياه، البيوت تلمع، أو بالأصح تـضحك، سـعيدة. الأرض العطـشى ارتـوت؛ الـشمس الـتي تـوارت سـطعت مجدداً؛ كـان هذا طوفاناً حقيقياً، الناس والحيوانـات ارتعدوا، لـكـن الغيـوم بـدأت تتنـاثر، بانـت الـسماء ثانيـة زرقـاء، اطمـأن كل العالم. ويسوع، المبلل حتى العظم، سعيد، كـان يمشي في الشوارع الضيقة حيث يخر الماء. ظهرت بنيـة، تجـر عنـزة بيـضاء

ذات ضروع منتفخة وتقودها إلى المرعى.

ـ ما اسم قريتك؟ سألها يسوع مبتسماً.

بثانيا belhanie .

ـ وأي باب يجب أن أدق لأقضي الليل؟ لست من هنا.

ـ أول باب مفتوح! أجابت البنت ضاحكة.

أول باب مفتوح، لهذه القرية قلب طيب، تحب الغرباء، قال يسوع. مشى ليجد الباب المفتوح. لم تعد هذه شوارع، بل صارت جداول. تبرز أضخم حجارتها فوق الماء. كان يسوع يثب من حجر إلى حجر ويتقدم. كانت الأبواب موصدة، غشاها المطر. التفت إلى أول زاوية في الشارع، باب صغير مقبب، أزرق اللون، كان مشرعاً. وقفت في عتبته ابنة ممتلئة الخدين، سمينة الذقن، سميكة الشفتين. وشوهدت صبية أخرى في بيت شاحب النور؛ كانت جالسة أمام نول تحيك وتدندن.

دنا يسوع، توقف في العتبة، وضع يده على قلبه، حيى، وقال.

ـ أنا غريب جليلي جائع، ليس عندي مأوى للنوم وبردان. أنا أنسان شهم، امنحوني أن أبيت هذا المساء عندكم. وجدته مشرعاً ودخلت. اعذروني.

التفتت الصبية، ما يزال في يدها القمح للطيور، تأملها بتودد من رأسها إلى قدميها، وابتسم:

ـ أهلاً وسهلاً، قالت.

تركت العاملة نولها وخرجت إلى الدار. كان محياها هزيلاً، الهيكل ناعم، جديلتان سوداوان مضمومتان بإكليل مزدوج في رأسها، عيناها واسعتان بنفسجيتان وحزينتان وتحمل في جيدها اللطيف عقد تركوازي لطرد العين الشريرة. نظرت إلى الزائر واحمرت:

نحن وحدنا، قالت؛ أخونا أليعازر غائب. راح إلى الأردن ليتعمد .

وإن كنا وحدنا، قالت الأخرى: لن يأكلنا. ادخل، صديقي، لا تبالي بها؛ هذه جبانة. سننادي الفلاحين ليرافقوك أو يسامروك، ويأتي المسنون ليسألوك من أنت، إلى أين تذهب وماذا تحمل لنا. ادخل إذن بيتنا المتواضع... ما وضعك؟ بردان؟

ـ جائع، بردان ونعسان، أردف يسوع وتخطى العتبة.

سيجد الثلاثة علاجهم، قالت الشابة، لا تخجل، ولعلمك، اسمي مرتا، وأختي، مريم. وأنت؟

ـ يسوع الناصري.

رجل طيب؟ قالت مرتا وضحكت.

رجل طيب، أجاب يسوع جاداً. ما استطعت، مرتا، أخية

دخل الكوخ. أشعلت مريم السراج، استنار البيت. كانت الجدران بيضت بالكلس، المقام نظيف؛ ثمة منصة طويلة خشبية على طول الجدار، مثقلة بالأغطية والمخدات؛ صندوقان محفوران من خشب السرو، عدة مقاعد صغيرة؛ في إحدى

الزوايا ركن نول الحياكة، وفي زاوية أخرى جرتان صغيرتان للزيتون والزيت؛ إلى يمين المدخل جرة الماء الطازج وبجوارها منشفة يدين من الكتان معلقة بمسمار خشبي. ينشر البيت رائحة خشب السرو والسفرجل. في الصدر موقد عريض من دون نار، وحوله علقت أوعية المطبخ.

سأشعل النار لتنشف ثيابك وتطرد البرد، اقعد.

وضعت مرتا له مقعداً صغيراً قرب الموقد. ركضت إلى الدار، جلبت قبضة من عيدان الكرمة وأغصان الغار وقرميتين من شجر الزيتون؛ قرفصت، وضعت الخشب الصغير وأشعلت النار. انحنى يسوع، أخذ رأسه بيديه، واستند إلى ركبتيه وتأمل أي احتفال مقدس، قال، ترتيب الحطب، إشعال النار، والطقس بارد، وتحل اللهبة كأخت رؤوف، وتنشغل! ودخول بيت غريب، جائعاً، تعباً وتظهر أختان لا تعرفهما ليسريا عنك! يغشى عيونهما الدمع.

نهضت مرتا، ولجت القبو، حملت منه خبزاً، زيتوناً، عسلاً، زق خمر ووضعتها كلها عند قدمي الغريب.

هي ذي مقبلات، قالت، لفتح الشهية. الآن سأضع القدر على النار، لتأكل شيئاً ما ساخناً، لتعود إلى الصعود. لا بد أنك آت من بعيد، كما يبدو لي.

ـ من طرف الدنيا، أجاب. احنى بلهفة على الخبز، الزيتون والعسل. أية معجزة، أية بهجة، مع أي كرم يرسل الله كل

هذا إلى الناس أكل، أكل، وبارك السيد.

مع ذلك كانت مريم واقفة قرب الفانوس، تنظر بصمت تارة إلى النار وطوراً إلى الزائر الغريب غير المنتظر، وطوراً ثالثاً إلى أختها التي أعطاها وجود رجل في بيتهم وهي تخدمه فرحاً يدفعها إلى الطيران.

رفع يسوع حق الخمر وتأمل البنتين، وقال:

مرتا ومريم، أختي، لقد سمعتما أن البشر كانوا خطاة في أيام الطوفان، طوفان نوح، وغرقوا جميعاً، عدا بعض الأتقياء الأنقياء دخلوا السفينة ونجوا. مرتا ومريم أقسم أمامكما: إذا حدث طوفان جديد وتعلق هذا بي، سأدعوكما، أختي، لتدخلا في القارب الجديد. لأنكما استقبلتما في هذا المساء زائراً، لا تعرفانه، رث الثياب، حافي القدمين، أشعلتما له النار وجفف أسماله ودفئ، وقدمتما له الخبز واكتفى، ورحبتما به بكلام طيب، ودخلت مملكة السماء قبلكما. أشرب نخبكما، أختي، ليكن لقاؤنا مباركاً.

دنت مريم وجلست عند قدميه، وقالت:

لن أتعب من سماعك، أيها الغريب، واحمر محياها؛ زدنا، تكلم.

وضعت مرتا القدر على النار، غطته، انتشلت ماء من بئر الدار. ثم بعثت جاراً إلى ثلاثة من شيوخ القرية أن يأتوا إلى عندها لأن زائراً طرق بابهما.

ـ إحك أيضاً، كررت مريم لما رأت يسوع ساكتاً

ـ ماذا تريدين أن أقول، مريم؟ قال يسوع وهو يلمس برقة ضفيرتيها السوداوين. السكوت طيب؛ قلت كل شيء.

السكوت لا يشبع المرأة، ردت مريم. البائسة بحاجة لكلمة طيبة

أبداً لا يشبع الصمت المرأة، أردفت مرتا التي وضعت زيتاً في السراج لاستدامة شعلته، في هذا المساء يأتينا الشيوخ لنخوض حديثاً؛ هي لا تشبع من الكلام الطيب، المسكينة. تريد رجلاً أنا برج البيت بمشيته، تريد صغيراً يرضع، يثلج صدرها... تريد أشياء كثيرة، المرأة، يسوع الجليلي، لكنكم غير قادرين على معرفته، أيها الناس!

أرادت أن تضحك لكنها لم تستطع. كانت في الثلاثين من عمرها ولم تتزوج.

سكتوا. اصغوا إلى النار تلتهم أرومات الزيتون وتصل إلى القدر الفخاري الذي يطبطب. كانت نظرات الثلاثة تضيع عند الشعلة، بعد لأي قالت مريم:

ـ في أثناء قعود المرأة تغزل، لو استطعت معرفة كل ما يدور في رأسها! لو قدرت أن تعرف هذا، لأشفقت على هذه المرأة يا يسوع الناصري.

أعرف قال يسوع مبتسماً. سابقاً، كنت امرأة، أنا أيضاً، في حياة أخرى، ونسجت.

ـ وفيم كنت تفكر؟

ـ باللّٰه. لا شيء آخر، يا مريم، باللّٰه. وأنت؟

لم تجب مريم، لكن صدرها انتفخ. سمعت مرتا الحوار، تمتمت، تنهدت، لكنها أمسكت. سكتت، وبعدئذ طفح الكيل، وقالت:

مريم وأنا ـ فجأة بح صوتها ـ مريم وأنا نساء العالم اللواتي لم يتزوجن يفكرن باللّٰه، اهدأ. يضعونه على ركبهم كرجل.

طأطأ يسوع رأسه وبقي ساكتاً. رفعت مرتا القدر عن النار، جهزت الوجبة. ذهبت تجلب من القبو الأواني الفخارية لصب الحساء.

أود أن أكشف لك عن أمر فكرت به يوماً وأنا أحيك. كانت مريم تحكي بصوت واطيء لكي لا تسمعها أختها، في القبو. فكرت أنا أيضاً باللّٰه في ذلك اليوم وخاطبته: " إلهي، إن رضيت يوماً أن تدخل بيتنا المتواضع، ستكون فيه أنت السيد ونكون نحن الزائرين. وهنا انقبض حلقها، وسكتت.

وهنا؟ انحنى يسوع ليسمع

ظهرت مرتا مع الأواني

لا شيء، تمتمت مريم وهي تنهض

تعال، سنأكل، قالت مرتا. لن يتأخر وصول الشيوخ؛ يجب أن لا يفاجئوننا على الطعام.

ركع الثلاثة، أخذ يسوع الخبز رفعه عالياً وتلا الصلاة

بانفعال كبير وحماس متقد ما جعل الأختين تفاجآن وتلتفتان وتتأملاه، وهنا خافا. كان وجهه يتألق ووراء رأسه كان الجو يتقد ويرتعش. لوحت ماري بيدها.

يا رب، نادت، أنت السيد هنا ونحن الزوار، مرْ! حتى يسوع رأسه ليخبئ اضطرابه. كان هذا هو النداء الأول، الروح الأولى التي عرفته.

نهضوا عن المائدة لما عتم الباب: شيخ عملاق ربض في الثغرة كان ذا لحية طويلة كنهر، وعظام سميكة، ذراعين متينين، صدر مشعر- جزة كبش يمسك عصى محنية، أطول منه، لا يستند إليها بل ليضرب ويوقف الناس عند حدهم.

شيخ ملشزيديث Melchisedich، قالت البنتان وهما تنحنيان، أهلاً بك في كنفنا.

دخل، حرر الثغرة، شيخ آخر في غاية العمر، ظهر، ناعماً كان ذا رأس طويل كرأس الحصان، أدرد، لكن عينيه ترسلان شرراً ولا أحد يقدر أن يركز نظرة فيه. يقال إن الأفعى تخفي سمها خلف عينيه ووراء عينيه ادخر النار التي يحمل. وخلف النار، دماغ مراوغ وفاسد.

انحنت البنتان ورحبتا به، دخل بدوره. ظهر خلفه العجوز الثالث، أعمى، قصير متين، ضخم وسمين يمد عصاه أمامه، العصا هي صاحبة العينين وهي التي تقوده دون خطأ. كان يحب المزاح، كان رجلاً مليئاً جسمه، لما يحاكم الناس ما

كان ينوي معاقبتهم.

" لست اللّه، يقول، من يدن يدان. اصطلحوا، يا أولاد، أرجو أن لا أجر خلفي قصصاً إلى العالم الآخر" وأحياناً يدفع من كيسه، وطوراً يذهب إلى السجن عوض المذنب. يقول البعض إنه كان أبله، ويقول آخرون إنه رجل طهور، لم يقدر العجوز الأول أن يراه، إنما ما العمل؟ كان المزارع الأمتن في الضيعة. من أرومة أرون Aoron الكهنوتية!

مرتا، قال ملشزيدث ـ وصل عصاه حتى عارضة السقف ـ مرتا، من هو الغريب الذي دخل قريتنا؟

نهض يسوع من زاوية الموقد، حيث يقعد صامتاً، قرب النار

ـــ سيادتك؟ أردف العجوز متفحصاً إياه من رأسه إلى القدمين.

أنا، رد يسوع، أنا ابن الناصرة.

جليلي؟ همهم العجوز الثاني، لسان الأفعى. لا تنبت الناصرة الأخيار. على ما في الكتب.

لا تقسو عليه، شيخ صموئيل، أردف الكفيف. فعلاً، الجليليون غرسة عاقرة، ثرثارة، يحبون النكات الوقحة؛ لكنهم ناس مقدامون. وضيفنا، هذا المساء، رجل طيب. أفهمه من صوته.

و التفت إلى يسوع، وقال

ـ أهلاً بك، يا بني.

ـ أنت تاجر؟ سأل العجوز ملسزيدت. ماذا تبيع؟

بينما كان الشيوخ يتكلمون، دخل أغنياء الملاكين، وجهاء القرية. علموا أن غريباً وصل، كانوا بثياب الأحد وأتوا يتمنون له طيب القدوم، من أين أتى وماذا يقص، لصرف الوقت. ولجوا وقعدوا بالأرض، وراء الشيوخ الثلاثة.

ــ أنا لا أبيع شيئاً، أجاب يسوع. كنت نجاراً في قريتي. لكني تركت عملي وبيتي وأمي ورهنت نفسي إلى اللّه.

خير ما فعلت، يا بني، قال الأعمى. هربت من العالم. لكن احذر، يا شقي؛ شأنك مع شيطان لعين، الآن: إلى اللّه، ليهرب، من هنا!...

فقهقه

وهو يسمعه، كاد العجوز ملسزيدت يختنق غضباً، لكنه بقي صامتاً.

ـ كاهن؟ زفر العجوز الثاني، ساخراً؛ لاوي، أنت أيضاً، زيلوت، مدعي النبوة؟

ـ لا، لا، أجاب يسوع، متأثراً؛ لا، لا.

ـ وماذا إذن؟

في هذه الأثناء دخلت النساء، متبرجات، ليرون الغريب. وليراهن الغريب. أكان شيخاً؟ شاباً؟ جميلاً؟ ماذا يبيع؟ ربما كان خطيب البنات الجميلات اللواتي عجزن، مرتا ومريم؟ أين

الـزمن الطيـب ليعطـى رجـلاً يأخـذهن بـين ذراعيـه، قلـن، وإلا جنن، الشقيات، عـاثرات الحـظ. هلمـوا نـرى! كـن متبرجـات، أتين بالصف، واقفات، خلف الرجال.

ـ وماذا إذن؟ سأل ثانية العجوز الحقود.

مـد يـسوع راحـة يديـه نحـو النـار؛ إذ راح فجـأة يـرتعش؛ مـا تزال ثيابه رطبة، ترسل بخاراً. بقي مدة طويلـة سـاكتاً. اللحظـة مواتية، قال لنفسه، للكلام؛ لأكشف الكلمـة الـتي أوكلـني اللّه بها؛ ولكي يستيقظ، لـدى كـل هـؤلاء النـاس، كـل أولاء النسـاء اللواتي يضعن في قلق عابث، اللّه الذي ينام فيهم،ـ مـاذا أبيـع؟ سـأجيبهم: مملكـة الـسموات، تحيـي في روحـه، الحيـاة الأبدية. تعطيـه مـا تملـك ليشتري هـذه الـدرة الثمينـة. رمـى نظـرة سـريعة حـدق، تحـت ضـوء المصباح وضـوء اللـهب، كـل الوجـوه الـتي حولـه، شـرهة، لوحتهـا الـشدائد المـسكينة الـتي تقـضم الناس، كدرها وأقلقها الخوف. رثى لحالهم. سينهض ليتكلم، لكنه كان متعباً جداً في ذلك المساء، مرت ليالٍ لم ينم خلالها تحت سطح بشري، ولم يضع رأسه على وسادة، كـان نعسـاناً، استند إلى جدار الموقد الدافئ وأغمض عينيه.

إنـه تعبـان، قالـت آنئـذ مـريم، ونظـرت إلى الـشيوخ نظـرة التماس إنه تعبان، أيها السادة، لا تعكروا صفوه.

هـذا صـحيح! همهـم ملـشزيدت. اسـتند إلى عـصاه وتحـرك حركـة النهـوض والـذهاب. الحق معـك، مـريم؛ نكلمـه كمـن

يحاكمه. نسينا – التفت إلى الشيخ الآخر – نسيت، عجوز صموئيل، أن الملائكة ينزلون غالباً إلى الأرض، مقنعين بهيئة فقراء تعيسين، يرتدون أسمالاً، أقدامهم عارية، من دون عصا، من دون كيس، كهذا. يجب أن نتصرف مع هذا الغريب كملاك. هذه هي لغة الحكمة.

ـ وهذه أيضاً هي لغة البلهاء، قال الكفيف مقهقهاً. وما أقوله أنا خير أيضاً. وليس الغريب فقط من يجب اعتباره ملاكاً، بل كل الرجال ـ عجباً حتى العجوز صموئيل!

صموئيل، لسان الأفعى، التهب غضباً؛ هم أن يفتح فمه لكنه تراجع. هو غني، هذا الأعمى القذر، قال لنفسه، ربما احتجته يوماً. لنصم الأذن، هذا هو صوت اليقظة.

سقطت شعلة الموقد الخفيفة على شعر، وعلى الوجه التعب وعلى صدر يسوع المكشوف وأرسلت انعكاسات زرقاء على لحيته الجعدة، السوداء كجنح الغراب.

إنه كائن وسيم فقير، همست النساء فيما بينهن، شاب جميل . أرأيت عينيه؟ أبداً ما رأيت في حياتي أحلى من هاتين العينين. حتى عينا زوجي عندما يأخذني بين ذراعيه ـ ولا أكثر توحشاً، أردفت الأخرى؛ إنهما مخيفات. يرغب الواحد أن يترك كل شيء ويتجه إلى الجبل. ـ وهل رأيت كيف نفترس مرتا عينيه؟ ستجن هذا المساء. ـ أما هو، كان يتأمل مريم بالسر، قالت ثالثة. ستتشاجر الأختان، تذكرن ما أقول، نحن

جيرانهما، تسمع صياحهما.

هلموا! أمر العجوز ملشزيدث. عبثاً أتينا؛ الزائر نعسان. انهضوا، يا ختايرة، نذهب! مد عصاه ليفتح لنفسه سبيلاً بين الرجال والنساء. لكنه لما وصل إلى العتبة، سمعت خطى مستعجلة في الدار، رجل شاحب، على آخر نفس، دخل البيت وارتمى أمام الكانون. سقطت الأختان عليه، مصعوقتين، وأخذتاه بين أذرعهما.

أخي، صرختا، ما حدث لك؟ من يلاحقك؟

توقف المسن الأول. لمس القادم الجديد بعصاه.

أليعازر، قال، إن كنت تحمل نبأ سيئاً، لتذهب النساء ولتبق الرجال للإصغاء له.

ـ لقد أوقف الملك يوحنا ـ المعمدان وأمر بقطع رأسه! غمغم أليعازر دفعة واحدة. نهض؛ وسقط. كان محياه مرعباً، مهدلاً، مترهل الخدين وعيناه، بخضرة باهتة، تلمعان أمام النار كعيني هر متوحش.

لم نخسر يومنا، قال الأعمى، راضياً. منذ هذا الصباح وقت يقظتنا حتى الآن، وقت استعدادنا للنوم، حدث شيء ما، العالم تحرك. لنقعد على المقاعد الصغيرة لنصغي. أحب الأنباء، حتى لو كانت سيئة.

اقترب من أليعازر:

تكلم، يا ابني، أرجوك. متى، كيف ولم أصابك هذا

الأذى؟ قص كل شيء، بترتيب، لا تسرع، هذا يخسرنا الوقت. تأمل نفسك، نحن نصغي.

انتفض يسوع؛ يحدق إلى أليعازر وشفتاه ترتعشان. هذه أمارة جديدة بعثها له اللّه، الرؤيوي غادر الحياة، لم يعد ضرورياً، لقد أعد الدرب، أتم واجبه، رحل عن عالمنا........ ساعتي أزفت، قال يسوع وهو يرتعد، لكنه سكت، وثبت نظره على شفتي أليعازر المرتجفتين.

أقتله ؟ تمتم العجوز ملشزيدث ضارباً بعنف الأرض بعصاه. أين حدث لنا هذا! الإثم يقتّل القديس، الفاسق يقتل الناسك! نهاية العالم دنت.

استولى الرعب على بعض النساء، رحن يبربرن. أشفق الأعمى عليهن، قال:

أنت تبالغ، شيخ ملشزيدث. العالم يقف جيداً على رجليه، لا تخافوا، أيتها النساء!

لقد جف حلق العالم، صمت صوت الصحراء، من سينادي الآن اللّه من أجلنا نحن الخطاة؟ بكى أليعازر؛ سالت دموعه. تيتم العالم!

لا ضرورة للتمرد على السلطة، قال العجوز الثاني، مهما فعل الأقوياء، أغمض عينيك لا تسع إلى الثروة. اللّه يرى هذا، لا تتدخل؛ خير ما فعلوا مع يوحنا- المعمدان!

إذن، يجب أن نكون عبيداً؟ همهم ملشزيدث. لكن لم،

قل لي، أعطى الله الإنسان رأساً؟ ليرفعه ضد الطغاة. هذا ما أقوله!

اسكتوا أيها المسنون لنعرف كيف حدث هذا الضرر، رد الكفيف، بعصبية. تكلم، أنت أليعازر، يا ابني!

سأعتمد أنا أيضاً، لأرى كيف استعيد صحتي، قال أليعازر. في هذه الأيام الأخيرة، ما كنت مرتاحاً، أعيش تحت الضغط، جسدي يرتعد كله، بدأت عيناي تنتفخان، وكليتاي..........

حسناً، حسناً، هذا واضح، قاطعه الكفيف. بعدئذ!

وصلت إلى الأردن، تحت الجسر حيث يجتمع الناس من أجل العماد. سمعت صراخاً ونحيباً، قلت لنفسي: لا بأس، على الخطاه أن يعترفوا بآثامهم وهم يبكون. تقدمت، وصلت وماذا رأيت؟

رجالاً ونساء كانوا سقطوا منبطحين في وحل النهر، ويندبون...... سألت: ــ ماذا هناك، يا أخوة؟ لماذا تبكون؟ قتل النبي! ــ من قتله؟ ــ المجرم عديم الإيمان والشريعة، هيرود Herode! كيف؟ متى؟

كان ثملاً، ابنة حميه سالومة، الفاجرة، رقصت عارية أمامه، أسكر جمالها رأس الخليع. ـ ماذا تريدين أن أقدم لك؟ قال لها راكعاً على ركبتيه. نصف مملكتي؟ لاـ إذن ماذا تشائين؟ ـ رأس يوحنا المعمدان ـ خذيه! أجابها وحمله لها على صينية فضية.

سكت أليعازر، انبطح على الأرض ثانية سكت كل الناس. ناس المصباح وشحب، كاد ينطفيء. نهضت مرتا، ملأته زيتاً، انتعشت اللهبة.

هي ذي نهاية العالم...... ردد ملشزيدث قابضاً لحيته، بعد صمت طويل في أثنائه وزن العالم، فكر بالجرائم والشرور في كل يوم تصل أنباء جديدة من القدس: الوثنيون يدنسون المعبد المقدس، في كل صباح يذبح الكهنة ثورًا وحملين كتضحية، ليس لإله إسرائيل، بل للإمبراطور اللعين والكافر الروماني. في الصباح، يفتح الأغنياء أبوابهم، يرون في العتبة الناس الذين قضوا جوعاً خلال الليل، يرفعون ثيابهم الحريرية يمرون من فوق الأجداث ويذهبون يروحون عن أنفسهم ويفسقون تحت القناطر حول المعبد. راز الشيخ ملشزيدت كل هذا في نفسه وأصدر حكمه: دنت نهاية العالم. التفت إلى يسوع، وقال:

ـ وأنت، ما تقول في هذا؟

ـ أنا واصل من الصحراء ـ وفجأة صار صوته أرصن والتفت الناس ليحدقوا إليه ــ واصل من الصحراء ورأيت : ثلاثة ملائكة نزلوا من السماء إلى الأرض، رأيتهم بأم عيني، بانوا في أطراف السماء، سيصلون! الأول هو الجذام، الثاني هو الجنون، الثالث، الأكثر رأفة وحنواً، هو النار وسمعت النداء:
ـ " ابن النجار، أصنع عرشاً – مركباً، هات إليه كل الأتقياء الذين تراهم في الحال يوم الرب قادم، يومي . أنا آت "

صاح الشيوخ الثلاثة . نهض الناس، صارفين أسنانهم النساء مذعورات، سارعن سوية نحو الباب ليغادرن . أتت مرتا ومريم ليبقين قرب يسوع، ليطلبن حمايته: ألم يطلب ضمها إلى ركب المركب؟ الساعة أزفت.

مسح الشيخ ملشزيدث عرقه السارح على صدغيه الأبيضين، وصاح:

هذه هي الحقيقة التي يقولها هذا الغريب، الحقيقة! اصغوا، يا أخوة، إلى هذه الخارقة: في هذا الصباح لما نهضت، فتحت، كعادتي، الكتاب المقدس، ووقعت على كلمات النبي جويل Joel : " انفخوا بوق صهيون، ليسمع الجبل المقدس. ارجفوا، أنتم كلكم الذين تعيشون على الأرض . الأن يوم الرب يصل في العتمة والسحاب الكثيف . أمامه، تصلى النار، وراءه النار؛ هو الجياد المكلفة بالخبب، كمركبات الحرب التي تدك الأرض . وفي قمة الجبال اللاهبات ترسل شررها، كما تفعل مسرعة في مزارع القصب لتتلفها . هو ذا يوم الرب ! " قرأت هذا الخبر الرهيب مرتين أو ثلاث مرات وبدأت أتلو المزمور، بقدمين حافيين، في داري. ثم انبطحت في الأرض وصحت: "إن أتيت قريباً، يا سيد، أرسل لي أمارة. لأهيء نفسي، لأرأف بالمساكين، لأفتح أهراءاتي، لأكفر عن خطاياي... أرسل لي برقاً، نداء، رجلاً، ينبئني، لأوفر الوقت لكل هذا!"

استدار نحو يسوع، وقال:

ــ أنت الأمارة. أرسلك الله. أعندي وقت؟ متى تنفتح السماء، يا بني؟

ــ كل لحظة تمر، يا شيخ، أجاب يسوع، هي سماء مستعدة للانفتاح. في كل لحظة، يخطو الجذام، الجنون والنار خطوة وتقترب. تمس أجنحتها شعري.

حدق أليعازر بعينيه الخضر والباحثين وتأمل يسوع. سار خطوة مترنحاً، وسأل:

أأنت، يسوع الناصري؟ يقال إن لحظة تناول الجلاد البلطة لقطع رأس المعمدان، كان هذا الأخير مد يده نحو الصحراء صارخاً:

" يغادر يسوع الناصري الصحراء، يأتي للقاء الناس. تعال، لكي لا يبقى البشر وحدهم!" إن كانت هذه سيادتك، يسوع الناصري، بوركت الأرض التي تقف فوقها؛ كان بيتي مضموناً، تعمدت، شفيت. وقعت على قدميك لأمجدك!

انحنى ليحضن قدمي يسوع المغطاتين بالقروح.

لكن صموئيل، الشيخ الداهية، لم يتأخر بغياب وعيه. لحظة، اضطرب رأسه، لكنه في الحال استعاد توازنه. " يوجد في النبي، قال لنفسه، كل ما نتمنى إن يكون فيه. في سلسلة من أعماله، أثير الله ضد شعبه، رفع يده ليسحقه. في العمود المقابل، ثمة السكر والعسل كله. حسب مزاجنا عند اليقظة نجد النبوة التي تلائمنا. إذن، لا نغضب ولا نقلق....." هز رأسه

الشبيه برأس حصان وضحك خفية في لحيته. لكنه لم يطلق أسنانه ليتكلم. فترك الشعب خائفاً، هذا يرضيه، إن غاب الخوف، فالفقراء الكثر والمقدامون، يخيفوننا!

سكت إذن وحدق بأليعازر باحتقار لأنه احتضن وقبل قدمي الزائر وكلمه وقال له:

إن كان الجليليون، أولئك الذين أعرفهم في الأردن، تلاميذك، يا ربي، أعطوني لك رسالة، إن صادفتك. غادرونا، لينتظروك في القدس، على باب داود، في حانة سمعان السرياني cyreneen. أخافهم استشهاد النبي واختبأوا وبدأت رحلة العذاب.

في هذه الأثناء، كانت النسوة يشددن رجالهن ليذهبوا معهن لقد فهمن جيداً هذا الغريب ذا العين الثعبانية: يحدق بكم فيتوه رشدكم، يكلمكم ويقوص العالم. هلموا بنا!

ورثى الأعمى أيضاً لهؤلاء الرجال.

الشجاعة، يا أبنائي، صرخ. أسمع أشياء جادة، لكن لا تخافوا.

سيترتب كل شيء من غير عنف، سترون. العالم متيناً مطمئناً. ما بقي الله بقي العالم. لا تصغوا إلى أولئك الذين عيونهم مفتوحة، أصغوا – لي. أنا كفيف، لذا أرى خيراً منكم جميعاً. رهط إسرائيل خالد، عقد اتفاقاً مع الله، ووضع الله توقيعه على العقد. لقد وهبنا الأرض كلها.

إذن لا تخافوا، نحن في نصف الليل، هيا إلى النوم.

مد عصاه واتجه باستقامة نحو الباب.

مشى الثلاثة الكبار في الطليعة، تبعهم الرجال، ثم النساء، فرغ البيت.

خلقت الأختان من المرقات الخشبية سريراً للزائر؛ أخذت مريم من صندوقها الشراشف الكتانية والحريرية التي صانتها لزواجها، جلبت مرتا اللحاف الساتان ـ الزغب والريش الذي خبأته دون أن تمسه منذ أعوام في خزانتها، منتظرة الليلة التي تمنتها طويلاً يوم تتدثر به مع زوجها؛ وجلبت أيضاً أعشابا عطرية، من الريحان والنعنع، وصنعت منها وسادة ليسوع.

سينام تلك الليلة مثل خطيب، قالت متنهدة . تنهدت مريم أيضاً لكنها بقيت ساكتة. "إلهي، قالت لعبّها، لا تسمعني، صنع العالم بشكل جيد، حتى ولو تبرمت. إنه جميل، لا أخشى سوى الوحدة؛ وهذا الزائر يغبطني كثيراً. "

دخلت الأختان الحجرة الصغيرة في القبو ونامتا على السريرين المحدبين؛ نام الرجلان على المرقاة الخشبية، كل من جهة فتماست أقدامهما. كان أليعازر فرحاً. لهذا الجو، هذا الموقع الصحي وهذه الغبطة العامة! كان يتنفس بهدوء، بعمق، كان يزحم قدميه بلطف القدمين الطهورين ويحس صعود قوة خرافية إلى جسده وتوزعها فيه، طمأنينة الهية، لم تؤلمه كليتاه، ولم يعد قلبه يخفق بشكل مفاجئ، وكان دمه عادياً، سعيداً، من قدميه إلى رأسه، ويروي سده المتورم والتعب.

"هذا هو العماد، قال لنفسه، في هذا المساء تعمدت وأختاي تعمدتا. أتى الأردن إلى بيتي."

لكن الأختين لم تغمض لهما عين. منذ سنين لم ينم في بيتهما غريب يحل الغرباء دوما لدى الأعيان. كيف يأتي الغرباء، إلى مسكنهما الوضيع والمنعزل؟ كان أخوهم عرضة للمرض وغير أليف، لا يحب الرفقة. في ذاك المساء، أية سعادة غير متوقعة! تحركت منأخيرهما، شمتا الهواء. كم تبدل، كم فاح، ليس الحبق والنعنع، لا: شمتا ريحة الإنسان.

يبدو أن اللّه أرسله ليبني مركباً وأعطانا كلمته أن يضمنا إلى سفينته.. أتسمعين ما أقول لك، يا مريم، أأنت نائمة؟

ليس لي أن أؤكد، أجابت مريم. وأخذت بيديها نهديها اللذين يؤلمانها.

يا إلهي، تابعت مرتا، إن تأتي نهاية العالم مسرعة، لندخل المركب معه. أنا سأخدمه، هذا لا يضيرني، وأنت ترافقينه، يسبح المركب في المياه الأبدية؛ وأنا سأخدمه إلى الأبد وأنت ترافقينه إلى الأبد، قاعدة أمام قدميه. هكذا أتصور الجنة. وأنت، مريم؟

و أنا أيضاً، تمتمت مريم، وأغمضت عينيها.

كانتا تحكيان وتتنهدان. كان يسوع نائماً ملء عينيه وكان يتخيل أنه واقف؛ كما لو أن هذا ليس نوعاً، كمن دخل كيانه في الأردن، ابترد واستطرب، انتعش جسمه برمل

الصحراء، وانتعشت روحه بفضائل وعيوب الناس، عاد بكراً بتولاً. بعد برهة، بدا له في نومه أنه خرج من الأردن، وأخذ سبيلاً أخضر لم تطأه قدم وأنه ولج حديقة عميقة الغور، مترعة بالأزهار والثمار. وأنه لم يعد هو نفسه، يسوع الناصري، ابن مريم، كان آدم، الكائن الأول. بالكاد لم يخرج من يد الله، كان جسمه ما يزال صلصالاً طرياً لدناً، وقد تمدد على عشب مزهر، في عين الشمس، ليجف، لتقوى عظامه، أن يتلون محياه، أن تنضام وتلتحم مفاصل جسمه الاثنان والسبعون، أن يستطيع النهوض والمشي.

وبينما كان ممدداً في عين الشمس وكان ينضج ويتماسك، طارت الطيور فوق رأسه؛ كانت تنتقل من شجرة إلى أخرى، تتنزه على العشب الربيعي، تحاكي بعضها، تزقزق، تنظر وتحدق بالأجنبي المخلوق الجديد الذي يرتاح على العشب، كل منها يقول كلمته ويعبر.

و كان يسوع يعرف، كما يبدو، لغة الطيور ويتمتع بسماعها.

كان الطاووس يتبختر، مختالاً بريشه، يتنزه بكل اتجاه، يلقي نظرات تلميحية ورقيقة على آدم، الذي كان ممدداً في الأرض، ويشرح له:

كنت دجاجة، أحببت ملاكاً وصرت طاووساً. أيوجد في العالم أجمل مني؟ لا، أبداً. " كانت الترغلة تطير من شجرة إلى

شجرة، ترفع عنقها نحو السماء وتصرخ: "محبة ! محبة! محبة! السمنة: " وحدي من كل الطيور، في البرد القارس، أغرد وأستدفئ." السنونو: " لو لم أكن موجودة، لما ازهرت الأشجار أبداً. " الديك: "لو لم أوجد، لما بزغ الصبح أبداً. " القبرة : " عندما أصعد صباحاً أغني في السماء، أودع أبنائي، لأني لا أعرف أن كنت عائدة أم لا . "

العندليب: " لن يستوقفك فقر ردائي عندي أيضاً أجنحة كبيرة وهاجة لكني صنعت منها أغنية، تغريدة. " وشحرور ذو منقار أعقف أتى وحط على كتف أول خليقة، اقترب من أذنه وكلمه بصوت خفيض. كمن يبوح له بسر دفين:

أبواب الجنة والجحيم متجاورة؛ متشابهة، خضراء وجميلة. احذر آدم! احذر، آدم! احذر آدم"

وهنا، على غناء وتغريد الشحرور، استيقظ يسوع في الصباح الباكر.

(19)

"اللّه والإنسان متحدان يشكلان أشياء هامة. اللّه، من دون الإنسان، ليس له على هذه الأرض الروح التي تجعل المنعكس أكبر قدرة لمخلوقاته والتي تسبر بقحة وهلع حكمته بالغة ـ القوة؛ ليس له على هذه الأرض قلب يعاني القلق الذي لا يخصه والذي يستضري لصنع فضائل وضائقات رفضها اللّه، نسي أنه خلقها أو يشك بخلقها. مع ذلك نفخ على الإنسان

وأعطاه القوة والشجاعة لإتمام الخلق.

"والإنسان بالمقابل، من دون الله، غير مسلح كما ولد، يتأكله الجوع، الخوف والبرد؛ وإن هرب من هذه الشدائد، جرجر نفسه، كبزاقة، في منتصف – الطريق بين الأسد والقملة. وإن نجح، بعراك لا يكاد، أن يقف على قائمتيه الخلفيتين، لن يقدر أن يتحرر من الضم الدافئ والعذب لأمة القردة..."، قال يسوع لنفسه ولأول مرة، في ذلك اليوم، أحس أيضاً بعمق أن الله والأنسان ليسا سوى موضوعة واحدة.

أخذ في الصباح الباكر طريق القدس ولامس الله من اليمين ومن الشمال؛ كانا يسيران سوية وكان الاثنان يسعيان لمهمة واحدة: انحرفت الأرض عن دربها، عوض أن تصعد نحو السماء، نزلت نحو الجحيم. فتوجب على الاثنين سوية، الله وابن الله أن يعيداها إلى سواء السبيل. لهذا كان يسوع ملحاً مسرعاً ويحث الخطا، نافذ الصبر ليلقى مرافقيه ليبدأوا النضال. الشمس، التي تصعد من البحر الميت، الطيور، التي تضربها الأضواء وتجعلها تغرد، أوراق الأشجار التي ترتعش، والطريق السهل المنساب حتى القدس والذي يشده معه، كل هذا كان يناديه : "أسرع! أسرع! اقتربت العتمة!" – " أعرف. أعرف، أردف يسوع، أعرف، أصل! " وفي فجر مشرق، انزلق المرافقون أيضاً على طول جدران أزقة القدس المكفهرة ليس جماعات مشتتين، اثنين اثنين، بطرس وأندريه، جاك مع يوحنا

ويهوذا، وحدهم في المقدمة. كانوا خائفين، يتطلعون مرعوبين في كل اتجاه، ليروا إن كان أحد يتبعهم، كانوا يركضون. انتصب أمامهم باب داود، أخذوا الحارة اليسرى وتوغلوا كما اللصوص في حانة سمعان السرياني cyreneen .

الحانــاتي المكــرش، بأنفــه الأحمــر والمنــتفخ، وعينيــه الحمــراوين والمتــورمتين، نهــض مــسترخياً، مــن فراشــه التــبني. كـان يعيش قلقـا ردحـاً طـويلاً مـن الليـل مـع الـسكارى الـذين يترددون على حانته، يغني، يناكد، يتأخر كثيراً في النوم وفي الصبح، ينظف، مقززاً، سيء المزاج، بأسفنجة طاولة الشرب بقايـا الأكـل والـشرب. كـان واقفـاً ولكنـه لم يـستيقظ بعـد جيداً. كان يبدو له أنه ينشف بإسفنجة طاولة الشرب.......

إنما كان يصارع بين اليقظة والنوم، سمع وقع خطا رجال متعبين يدخلون حانته، استدار. كانت عيناه تخزانه، وكان فمه فاغراً، ولحيته عامرة بنثار حبوب الكوسى المطبوخ.

مــن أنــتم، أيهــا التــافهون؟ همهــم بــصوت أجــش. دعــوني مرتاحـاً، أقـول لكـم. تهبطـون علـي هنـا لتـأكلوا وتـشربوا منـذ الفجر، أليس كذلك؟ أنا في أسوأ حال، دعوا لي المكان!

علــى قــوة الــصراخ، اســتيقظ ورويــداً رويــداً ميــز صــديقه القـديم بطـرس ومرافقيـه الجليلين. دنـا، حـدق إلـيهم عـن قـرب وقهقه ضاحكاً:

ـ حسناً، أمامي رؤوس! ادخلوا ألسنتكم، لكـي لا تـشنق

هكذا، خذوا البطن باليدين، وإلا انبعج، من الخوف الذي خنقكم! تقدرون أن تفخروا بنفسكم، يا جليليون، يا عمالقتي!

ـ باسم السماء، يا سمعان، لا تؤلب الناس بصراخك، أجابه بطرس، ومد يده ليطبق له فمه، أغلق الباب؛ قتل الملك النبي يوحنا ـ المعمدان، ألم تعلم؟ قطع رأسه ووضعه على طبق من فضة.........

ـ حسناً فعل. لقد حطم أذنيه بدعوى أنه أخذ امرأة أخيه. هو ملك، يفعل كل ما يشاء. ومن ثم، لكي لا نخبئ عليك شيئاً، حطم أذني أنا أيضاً: "اندم! اندم!" أوه أي انتقام!

إنما يبدو أنه سيقتل كل الذين تعمدوا، بحد السيف واحداً واحداً. ونحن، نحن تعمدنا، تفهم؟

ومن قال لكم، اذهبوا وتعمدوا، يا بلهاء؟ هذا أمر حسن عندكم!

لكن، أنت أيضاً تعمدت، يا سكير، قال له بطرس بوضوح، ألم تقل لنا؟ ما يدعوك للصراخ؟

هذا ليس ذات الشيء، أيها الصياد القذر. أنا لم أدع أحداً يعمدني؛ تسمي هذا معموددية؟ أنا غطست بالماء، تحممت، وكل ما اسمعني إياه النبي الكاذب تركته يدخل من إذن ليخرج من الأخرى. هذا ما يفعله كل من يفهم، أما أنتم برأسكم الصغير الفارغ من العقل... لدى وجود نبي كاذب

يبالغ ببذل الوعود، نجدكم أول المهرولين إليه، يقال لكم: اغطسوا في الماء، تغطسون ويصيبكم السوء، لا تقتلوا قملكم في يوم السبت، هذه خطيئة كبرى، لا تقتلوها بل تقتلكم هي؛ لا تدفعوا الضريبة إفرادياً، لا تدفعوها كفى!

يقطعون رؤوسكم، تسستحقون هذا! والآن حاولوا تلقي صفعة، لتعوا، ولأستيقظ! كان برميلان ضخمان يشكلان بقعة ظليلة في صدر الحانة. على أحدهما رسم ديك باللون الأحمر؛ وعلى الثاني، بالرمادي ـ الأسود، رسم خنزير. من برميل الديك يملأ إبريقاً من الخمر، يأخذ كؤوساً، يغطسها في سطل ماء وسخ ليغسلها. رائحة الخمر تسوطه، يستيقظ.

يظهر في عتبة الحانة اعمى ويتوقف. يمر عصاه بين ساقيه ويبدأ يضبط مزماراً عتيقاً، سعل وبصق ليجلو حلقه. وفي يوم، وهو يعبر الصحراء، رأى في حوض ماء امرأة عارية تستحم. عوض أن يحول نظرهُ عنها، سمر السفيه عينيه على البدوية الجميلة. أراد سوء الطالع أن يأتي زوجها، القابع خلف صخرة، ليشعل النار ليطبخ. رأى الجمال الذي يدنو أكثر فأكثر والذي يبتلع بنظره عري زوجته. سارع وأخذ فحمتين متقدتين وأطفأهما في عيني الجمال. منذ ذلك اليوم، راح المسكين الياسين يتلو الزبور والأغاني. يجول على حانات وبيوت القدس مع مزماره، وأحياناً يشهر طيبة الله، وأحياناً يغني جسد المرأة، كان يعطى كسرة خبز. قبضة بلح، زيتونتان، ويذهب أبعد.

ضبط مزماره، جلى حلقه، جرد صوته وراح ينغم زبوره المفضل: " ارحمني، ربي، حسب الرحمة العظمى، وحسب كثرة حنوك أمح آثامي....."

في هذه اللحظة وصل الحاناتي بزق الخمر والأكواب. سمع الترتيل وراح ينثر غضبه.

كفى! توقف! جمجم، أنت أيضاً توتر لي أذنيّ، في كل وقت ذات الأغنية المكرورة: " ارحمني، ارحمني......" اذهب إلى الشيطان! أأنا من أخطأ؟ أأنا من رفع بصره ليرى امرأة الغير بينما كانت تستحم، أعطانا الله عينين كي لا نخطئ، ألم تفهم؟ إذن خير ما فعل معك. ارحل، تنزه!

أخذ الكفيف عصاه ثانية، ضغط مزماره تحت ذراعه، ودونما بنت شفة، غادر.

ارحمني، يا إلهي... ارحمني، إلهي، نغم الحاناتي، بعصبية. صنع داود عيون نساء الغير جميلة، وهذا الكفيف، صنع عيوناً جميلة لامرأة الغير، ونحن ننكد........ أوه، أصدقائي المساكين!

اترع الكؤوس، شربوا. ملأ كأسه مجدداً وبلع أيضاً.

الآن سأضع لكم في الفرن رأس حمل، شيئاً شهيراً. للتلمظ.

انطلق بخطوة رشيقة إلى الدار حيث بنى وحده فرناً صغيراً. حمل دقيق الحطب لسرعة الاشتعال وقضبان الكرمة، أشعل

النـــار، زلــق إلى الفــرن الـصينية مــع رأس الحمــل وعــاد إلى أصدقائه. كان مولعاً بالخمر والسمر.

لكن مزاج الصحب قابلاً للسلوى والبهجة. كانوا، جنباً إلى جنب قرب النار، قد ثبتوا أنظارهم على الباب، كانوا فوق جمرات لاهبة، يبغون الرحيل. يتبادلون كلمات معدودات من شفاه جافة ويعودون بسرعة إلى الصمت. نهض يهوذا ووصل إلى الباب. قرف من رؤية هؤلاء الجبناء الذين ضيعوا الاتجاه من شدة الخوف. كما كانوا يتقنون الركض، بأي سرعة قطعوا الطريق من الأردن إلى القدس، ليصلوا أشبه بالموتى من الأحياء، ولجوا هذه الحانة المنعزلة! وهنا، اصغوا بشدة، ارتجفوا كالأرانب ووقفوا على رؤوس أقدامهم، مستعدين للهرب....... ليأخذكم الشيطان، أيها الجليليون، المتبجحون! يا إله إسرائيل، أشكرك لأنك لم تخلقني على صورتهم الوسخة. أنا، خلقت في الصحراء ولم أجبل في أرض رخوة جليلية بل من الغرانيت العربي. وأنتم كلكم الذين كنتم معه يشبه عناية، وتسرفون بالأيامين والرجاء، الآن: لينجو من يستطيع! لتقي جلدك. أما أنا، المتوحش، الأمغر الملعون، السفاح، أنا لن أتركه، سأنتظره هنا، حتى يعود من صحراء القدس، لأرى ماذا حمل من هناك. آنئذ أقرر. لأني أنا، لا أقلق على جلدي. يهمني شيء واحد: معاناة إسرائيل.

سمع في الحانات مشاحنات بصوت مخنوق. التفت.

أنـا أرى أن نعـود إلى الجليـل، هنـاك نكـون في أمـان. تذكروا بحيرتنا، يا أعزاء! قال بطرس متنهداً. رأس مركبه الأخضر يتأرجح فوق المياه الزرقاء واعتمر قلبه؛ رأى الحصى، الدفلي، الشباك مترعة بالسمك، فاضت عيناه بالدموع. هلموا، يا رفاق، قال، نرحل!

أعطيناه كلمتنا أن ننتظره في هذه الحانة. يلزمنا الشرف باحترام الكلمة، قال جاك.

سنطلب من السرياني، اقترح بطرس لترتيب الامور، إن يقول له، إن اتى....

لا، لا! أردف أندريه، لا نستطيع أن نتركه وحده في هذه المدينة المتوحشة. هنا سننتظره.

أنا أرى أن نعود إلى الجليل. كرر بطرس، معانداً.

يا أخوة، قال يوحنا، وهو يمسك بحركة التماس أيدي وأكتاف رفاقه، يا أخوة، فكروا بآخر كلمة للمعمداني. مد الذراعين تحت سيف الجلاد وصرخ: " يا يسوع الناصري، غادر الصحراء؛ أنا ذاهب، تعال اجتمع بالناس، تعال، لا تترك العالم وحده! " لهذا الكلام معنى عميق، يا رفاق. الله يسامحني إن جدفت، إنما......

اختفى صوته، أخذه أندريه بيده:

تكلم، يوحنا، إن حدست وتشوفت الرهبة والخوف، أتخشى كشفه؟

...... إنما كان المعلم الـ........ تلجلج.

من ؟خرج صوت يوحنا، ضعيفاً، لاهثاً، يملأه الفزع:

.... المسيح!

انتفضوا جميعاً. المسيح! ليبقوا طويلاً معه وأن لا تأتيهم الفكرة! كانوا يظنونه في البدء رجلاً مقداماً، قديساً يحمل المحبة للعالم، وبعدئذ اعتبروه نبياً، ليس متوحشاً كالسابقين، بل رضياً وأنيساً. انزل إلى الأرض مملكة السموات، يعني الحياة البسيطة والعادلة. وإله إسرائيل ذو الرأس اليابس، إله جدودهم، يهوه، يسميه أباً، ولم يعد يسميه أباً إلا لتلطفه وأن يصير كل الناس أبناءه...... والآن، ما هذه الكلمة التي فلتت من شفتي يوحنا المسيح! أي: سيف دأود قدرة إسرائيل غير المحدودة، الحرب! وهم، التلامذة، أول أتباعه، سيكونون سادة كباراً، رؤساء وبطاركة حول عرشه! مثل الله الذي له ملائكته في السماء ورؤساء ملائكة، وبنفس الطريقة سيصيرون ولاة وبطاركة يسودون في الأرض! تطاير الشرر من عيونهم. أبداً!

- اسحب ما قلت،أصدقاء، قال بطرس، وقد احمر محياه . لن أتركه أبداً!

ولا أنا! ولا أنا! ولا أنا!

بصق يهوذا بغضب وضرب حاجب الباب بقبضته، وصرخ بهم:

آه، أيها الشجعان! بقدر ما تظنونه ضعيفاً، لا تفكرون إلا

بالتسلل. إما الآن وقد شممتم عبق الأبهة والجلال، سمعنا عبارة: لـن أتركـه أبـداً! حـسناً ، سـتتركونه جميعـاً في أحـد الأيـام، سـتدعونه وحـده، تـذكروا مـا أقـول لكـم، وهـذا أنـا ، أنـا وحدي، الذي لن يخونه، يا سمعان السرياني، أشهد على هذا!

والحاناتي الذي كان ينصت لهم ويضحك من وراء شاربيه الطويلين طرف بعينه نحو يهوذا ، وقال:

أليس وقاحة التفكير بإنقاذ العالم على يد مثل هذه الرؤوس!

لكن منخريه شما رائحة الفرن، فصرخ:

رأس الحمل يحترق! وبقفزة صار في الدار

حدق الرفاق ببعضهم، كالبلهاء.

لهذا ، لدى رؤيته، انبهر المعمداني! أردف بطرس وصفع جبينه.

تحمسوا ، هلوسوا

ورأيتم حمامة، بينما كان يعتمد ، فوق رأسه؟

ما كانت حمامة، كانت برقاً

لا ، لا ، حمامة، كانت تهدل.

ما كانت تهدل، كانت تتكلم. سمعتها بأذني هاتين. كانت تقول: قدوس! قدوس! قدوس!

كان هذا الروح القدس! رد بطرس وعيناه مغمضتان بأجنحة من ذهب. نزل روح القدس من السماء وقد ذهلنا

جميعـاً، تـذكـروا! أنـا أود أن أحـرك رجلـي لأقـترب، لكنهـا كانـت متصلبة، فلـم يتيسـر لـي تحريكهـا! وددت أن أصـرخ، لكن شفتي لم تتضما. الهواء ساكن، القصب، النهر، الناس، الطيور، كلها انشلت بالحادث الغريب، لا شـيء يتحـرك سـوى يد المعمداني، بكل هدوء، وتعمد......

لم أر شيئاً، لم أسمع شيئاً! أردف يهوذا، بعصابية. كانـت عيناك وأذناك ثملتين.

لم تـر، يـا أصـهب، لأنـك لم تـرد أن تـرى! أجابـهُ بطـرس، بقسوة.

ولدى سيادتك نزوات، نظـرات شـاذة، رأيـت لأنـك أردت أن ترى. رغبت في أن ترى روح القدس فرأيت روح القـدس. والأدهـى أنك الآن تريهُ للأولاد الطائشين، تجرهم إلى ضلالك!

حتـى الآن كـان جـاك سـاكتاً يـصغي. تخـضبت أظـافره وصمت لكنه لم يقدر أن يمسك نفسه أكثر، فقال:

- اصغوا قليلاً، يا رجال. لا تلتهبوا سـريعاً كـالقش. اهـدأوا. سندرس المسألة جيداً. هـل صـحيح أولاً أن يوحنـا المعمـدان قـال هــذا الكــلام قبـل أن يقطـع رأســه؟ يبــدو لــي الأمــر صـعب التصديق. وأولاً من منا كان هناك ليسمع؟ ثم، إليكم التالي، حتـى إذا كانـت هـذه الكلمـات في رأس المعمـداني، لم يقلـها، لأن الملـك انـبيء، فـأرسـل عيونـه في النـاس ليعـرف مـن يكـون يسوع هذا في الصحراء، فـأسرْ وجز رأسـه. اثنـان+ اثنـان= أربعـة،

كما يقول إني العجوز إذن لا تقتحموا رأسنا!

لكن بطرس تأثر:

وأنا أقول إن اثنين+ اثنين= أربعة عشر، والعقل يستطيع أن يقول مايشاء، ليأخذه الشيطان! هيء لنا شراباً، أندريه، ارو مخنا ليرى الأمر جيداً!

عملاق بوجهين أجعدين، قدمين عاريتين، ملفوفاً بشرشف أبيض، حاملاً صفوفاً من الزينة في رقبته، ولج الحانة مسرعاً، وضع يده على صدره وحيى:

سلاماً، أيها الأخوة. أنا ذاهب. سألاقي اللّه. أعندكم مهمة أنقلها له؟ ودون أن يتلقى جواباً رحل راكضاً ودخل في البيت المجاور.

في هذه اللحظة، ظهر الحاناتي مع صينية وبدأت الحانة تنشر عطراً. لمح الشيطان الكبير الأبله، وناداه:

رحلة ميمونة، تمنى صباحاً طيباً! مرة أخرى! وأضاف مقهقهاً.

سابرستي sapreste، فعلاً أزفت نهاية العالم، المجانين كثر وحيثما توجهت. يبدو أن هذا الرجل رأى اللّه ليلة البارحة، وهو خارج ليبول. منذئذ، لم يعد يطيق الحياة! أضرب عن الطعام، يقول: أنا مدعو إلى السماء، سآكل فوق. إذن ارتدى كفنه، يركض من باب إلى باب، يأخذ المهمات، يودع وينطلق... هذا ما يحدث للذين يرون اللّه كثيراً. حذار، يا

أولاد، نصيحة صادقة: لا تقربوه كثيراً! أنا أمجد نعمته، أنما من بعد. ابتعدوا!

وضع على المائدة صينيته مع رأس الحمل المدخن. كانت شفتاه، عيناه، وأذناه يضحكون.

رأس طازج! رأس يوحنا المعمدان. شهية طيبة. تقزز يوحنا وابتعد. صرخ. أندريه، من يد إلى اليد، ليرفعها إلى أعلى. كان الرأس الموضوع على المائدة مفتوح العينين ساكناً يتأملهم واحداً واحداً.

يا سمعان البائس، قال بطرس، ستفسد قابليتنا ونحن لن نمسه، كيف تريد الآن أن أخرج عينيه، التي أحبها كثيراً. سأظن أني آكل عيني المعمداني.

ضحك الحاناتي بتشنج، وقال:

لا تقلق، يا بطرس، سآكله أنا بدلاً عنك. لكن سآكل أولاً لسانه الصغير، الذي ينادي – السماء تحميه! – توبوا! اندموا! نهاية العالم تقرع الأبواب!" إنما هذه نهايتك أنت الدانية أولاً، أيها البائس.

على ذلك، أخذ سكينه، انتزع اللسان وازدرده دفعة واحدة. ثم احتسى كوباً مفعماً وراح يتأمل براميله.

لا بأس، يا أعزاء، أنا أشفق عليكم! سأبدل الموضوع لتنسوا رأس يوحنا المعمدان وتقبلوا أن تأكلوا رأس الحمل... آنئذ، أبإمكانكم أن تخمنوا من رسم هذه الرسوم – الطرفة

التي ترونها بإعجاب على البراميل، الديك والخنزير؟ هذا أنا الإنسان المتواضع، بهاتين اليدين اللتين ترونهما، ما رأيكم؟ وهل تعرفون لماذا، ديك وخنزير؟ لا خطر في هذا، أيها الجليليون! حسنا، سأجلو الأمر، لأنير عقلك الحسير!

كان بطرس يحدق باستمرار برأس الحمل ويتلمظ، لكنه لا يجرؤ بعد على مد يده لسحب العينين وأكلهما. كان يفكر دوما بالمعمداني. كان بنفس الطريقة يحدق بعينيه ليراهما.

اصغوا إذن، تابع الحاناتي، ليوضح، أكرر، رأسكم الذي لا يرى أبعد من أنفه. عندما أتم الله خلق العالم – أتساءل عما دفعه لوضع هذه القصص على الذراعين! وغسل يديه اللتين تكاثف عليهما الطين، دعا إليه كل الخلائق وسألهم متفاخراً: والآن، أيها الطيور والدويبات، ما رأيكم بهذا العالم الذي صنعته، وأين الخطأ فيه؟ راح الجميع في الحال ينهقون ويزعقون، يموؤون ويزقزقون: أبداً! أبداً! لا عيب ولا خطأ – لكم بركتي، قال الله، وأنا أيضاً لا أرى فيه أي عيب. لتكن يداي مباركتين!" لكنه لاحظ أن الديك والخنزير ساهمان لم يأتيا بكلمة، فقط يهزان رأسيهما. " يا أنت، أيها الخنزير، قال الله، وأنت، سيادة الديك، لم لم تقولا شيئاً؟ أتريان نقصا ما؟ " لكنهما صمتا ! لقد علمهما الشيطان درساً: "قولا له أنه ينقص أرومة واطئة تعطي عنباً . يفرط، يوضع في براميل ويصنع

منه الخمر. — لماذا لا تتكلمي أنت، أيتها الحيوانات — شجعها الشيطان، ـ فرفعت رأسها . " ماذا تود أن تقول لك، يا سيدنا البناء ؟ المجد والظفر ليديك، عالمك تام، دق على الخشب ! إنما ينقصه أرومة واطئة تعطي عنباً . يفرط العنب، يوضع في براميل وتصنع الخمرة. — آه، هكذا إذن؟ حسناً، سأعرض لكم، أنا، أيها المضحكون ! أردف الله وأبدى غضباً رهيباً . تريدون خمراً، سكراً، نزاعات وإقياءات. حسناً، لتكن الكرمة ! شمر كميه، أخذ قدراً من الوحل، صنع فسيله وغرسها. " أباركها، قال، من يشرب منها كثيراً سيكون مخه كمخ الديك وخطم الخنزير!"

قهقه الصحب، نسوا المعمداني، وأنها لوا يمزقون الرأس المطبوخ يهوذا الأول، الذي فتح الجمجمة إلى شقين، وملأ يده من مخ الحمل. لما رأى الحاناتي النهب، هرب. لن يتركوا ذرة، وقال:

أنتم، يا صحب، لذيذ جداً الأكل والشرب، إنما لا تنسوا يوحنا المعمدان. أوه ! رأسه المسكين!

استمروا جميعاً يزدردون، كانت العين في فم بطرس يلوكها واستعد لابتلاعها، فأحس أن حلقه انعقد. بلعها يقززه وتقيؤها يؤلمه؛ ما العمل. يهوذا وحده لم يبال. ملأ الحاناتي الكؤوس.

ليكن ذكره أبدياً. لنذرف دمعة على رأسه المسكين

ونطلب ذات الأماني لكم!

و لك أيضاً يا ملعون! أردف بطرس وابتلع العين دفعة واحدة بعد عناء.

لا تقلق، أنا لا أخشى شيئاً، رد الحاناتي . لا أتدخل بشؤون اللّه ولا يعنيني إنقاذ أو خلاص العالم. أنا حاناتي لست ملاكاً ولا رئيس ملائكة كسياداتكم، زغت من أمامها! قال وبيده ما بقي من الرأس.

فتح بطرس فمه لكن صوته انسحق بوضوح. عملاق متوحش، تميزه بثور الجدري، وقف في العتبة ويحدق إلى الداخل. انسحب الركب إلى إحدى الزوايا واختبأ بطرس وراء كتفي جاك.

باراباا! هممهم يهوذا عاقداً حاجبيه . ادخل .

حنى باراباا رقبته الضخمة ورأى التلامذة في الظل. كان وجهه الفظ عامراً بضحكة هازئة، وقال:

سررت برؤيتكم، يا حملاني. حركت السماء والأرض لأجدكم نهض الحاناتي متمتماً وجلب له كأساً.

لا ينقصنا سواك، رئيس باراباا.

كان يتودد إليه لأنه، كلما أتى إلى حانته، يثمل، يسعى إلى نزاع مع الجنود الرومان الذين يذهبون ويترك له القلق والتعب. لا تبدأ بالخلاف على عادتك، أيها القذر!

لذا يدوس أرض إسرائيل كثير من الفاسقين، لن أخفض

جناحي انزع من رأسك هذه الفكرة . وهات شيئا لنأكل، أيها العجوز الهرم!

دفع الحاناتي نحوه الصينية التي لم يبق فيها سوى العظم، وقال :

كل، فأسنانك كأسنان كلب الحراسة، تطحن العظم .

أفرغ بارابا الكأس دفعة واحدة عض شاربيه، واتجه نحو الصحب، قال :

و أين هو الراعي الطيب، يا أعزائي؟ كانت عيناه ترسلان شرراً عندي حساب معه يجب أن أسويه.

أنت مخمور قبل أن تشرب، قال له يهوذا بقسوة، كلفتنا تبجحاتك كثيراً من العناء والضيق. يكفي !

تجرأ يوحنا وأخذ الكلام :

ما عندك عليه؟ هو رجل قديس، ولما يمشي، يكون نظره في الأرض خشية أن يدوس نملة.

لا بل حذراً من أن تسحقه نملة، من هذا يفزع . أتسمي هذا رجلاً؟

تجرأ جاك بدوره وقال: أخذ يسوع المجدلية من بين مخالبك، وأنت لم تع بعد .

لقد أهانني، غمغم بارابا، وأكمدت عيناه . سيدفع لي ثمن عمله!

لكن يهوذا أخذه من ذراعه وأبعده . حاكاه بصوت

خفيض، محتد، وغضوب:

عم أتيت تبحث هنا؟ لمَ تركت جبال الجليل؟ هناك حددت لك الأخوية مجالاً. هنا في القدس، يأمر ويشرف آخرون.

أليس من أجل الحرية نناضل؟ رد باراباـ، وجلاً. حسناً، أنا حر، وأتصرف على هواي. أتيت إلى هنا لأرى أنا أيضاً من هو هذا المعمداني الذي يقوم بأمارات وغرائب. ربما كان ذلك الذي ننتظر؟ ليأتي أخيراً، وليستلم الإدارة ولتبدأ المذبحة. لكني تخلفت كثيراً: لقد قطع رأسه. ماذا تقول أنت في هذا، رئيس يهوذا؟

ـ أنا أرى أن تنهض وتتركنا. لا تتدخل بشؤون الغير.

ـ أن أرحل؟ أتعرف ماذا تقول، أتيت من أجل المعمداني، أبحث عن ابن مريم. منذ زمن مديد أطارده! والآن أرسله لي الله بين يدي، ويجب أن أتركه يهرب؟

اغرب من وجهي، أمر يهوذا. هذه القصة تخصني لا تحاول أن تتدخل بها!

ماذا في رأسك؟ الأخوية تبغي الخلاص منه، أعرف هذا جيداً. هو رسول الرومان، الذين يدفعونه للتبشير بمملكة السماوات، لتضليل الشعب وصرفه عن التفكير بالأرض وبعبوديتنا. وأنت الآن ... ماذا يدور في رأسك؟

أبداً. هذا شأني. اذهب!

التفت بارابا ، ألقى آخر نظرة على التلامذة الذين كانوا يصغون ليسمعوا.

إلى لقاء قريب، يا أصدقاء، كلمهم بحقد . لا يمكن استبعاد بارابا بهذه البساطة . سنطرق الموضوع!

وتوارى في الحال من باب دأود

طرف الحاناتي بعينيه نحو بطرس، وقال له بصوت واطئ:

لقد أعطاه أوامر. الأخوية ، كما يقول الآخر. قتلوا رومانياً وأمروا بقتل عشرة إسرائيليين. عشرة لا بل خمسة عشر. افتحوا عيونكم، يا إخوتي!

دنا وهمس في أذن بطرس

و الآن اصغ قليلاً. لا تثق به، بيهوذا الاسخريوطي. بذوي الشعر الأحمر أولاء، أنت تعرفهم....

لكنه صمت. عاد الأصهب وجلس على المقعد.

نهض يوحنا ، متأثراً. ذهب إلى قرب الباب، تأمل حواليه، يميناً ، يساراً ، لا أثر للمعلم. الوقت ضحى، الشوارع تغص بالناس. بعد باب داود ، الصحراء، الحصى، الرماد ، لا ورقة خضراء. رغم بعض الحجارة البيضاء الواقفة ، حجارة قبور. أنتنت الجو الرائحة المنتشرة من أجداث الكلاب والجمال. أخافت هذه القسوة الجهمة يوحنا؛ لا شيء هنا سوى الحجارة ، حتى وجوه الناس، وقلوبهم، والله الذي يعبدون. كان بعيداً الله الرؤوف، الأب، الذي جلبه الرب! آه، متى يظهر المعلم

المحبوب، ليعودوا إلى الجليل!

يا إخوة، هلموا بنا من هنا! قال بطرس الذي لم يعد يحسن صبراً، وهو ينهض. لن يأتي!

اسمع مجيئه........ أردف يوحنا برعشة.

كيف تستطيع سماعه، يا ملهم؟ قال جاك الذي يفضي عن أحلام يقظة أخيه وسارع، هو الآخر، عائداً إلى بحيرته وقواربه. أين إذن تسمع هذا قل لي شيئاً ما؟

في قلبي، أجاب إخوة الشاب. هم من يسمع أولاً.........

هز بطرس وجاك الأكتاف؛ لكن الحاناتي تدخل:

هو على حق، قال، لا تهزوا الأكتاف. سمعت القول ـ عجباً. كيف تصدقون ما كان يسمى مركب نوح؟ هذا هو قلب الإنسان! في الداخل الله وكل مخلوقاته: ماعدا هذا كل شيء يغرق في العمق، كما يبدو، القلب وحده يندفع فوق الماء مع حمله. يعرف كل شيء، تماماً، لا تضحكوا، هذا قلب الإنسان! الأبواق تنفخ، الناس في الشارع يتبعثرون، حركة تنهض. اضطرب الرفاق، وثبوا نحو الباب. جمهرة من المراهقين، الأقوياء، حملوا محفة مرصعة بالذهب، حيث يستريح سيد ضخم، مداعباً لحيته، مرتدياً حريراً مع محيّى متألق بأسباب الحياة وخواتمه الذهبية.

كـــاييف! caiphe[1] ، قـــال الحانـــاتي، التـــيس الهـــرم، الكاهن الأكبر. سدوا أنوفكم، يا رجال، السمكة تنتن من رأسها!

سد أنفه وبصق:

ذهـب مـرة ثانيـة إلى رياضـهُ، أكـل، شـرب وسـامر نـساءه وأولاده. آه، دم يمـور، لـو كنـت اللّه! العـالم معلـق بـشعرة، إيـه حسنا، سأقطع هذه الشعرة، نعم، أقسم بـالخمرة، سـأقطعها، وليذهب العالم إلى الجحيم!

هيـا بنـا، كـرر بطـرس. لـسنا مرتـاحين هنـا. لقلـبي أيـضاً عينان وأذنان، يدعوني: إليك عني، اذهبوا، يا تعساء.

لم يقل هذا لو لم يسمعه بالفعل؛ خاف، نهض فجأة، أخذ عصا وانسحب إلى ركن ما. نهضوا جميعاً بعصابية، رأوا خوف بطرس ما شدهم إلى الخوف.

إن أتـى، سمعـان أنـت تعرفـه، قـل لـه ذهبـوا إلى الجليـل، أوصاه بطرس.

ومـن سـيدفع؟ قـال الحانـاتي، قلقـاً. ثمـن رأس الحمـل والخمرة.......

أتؤمن بالحياة الأخرى، يا سمعان السرياني؟ سأل بطرس

بالتأكيد، أؤمن بها.

---

1 ـ كبير كهنة اليهود الذي اشترك بمحاكمة المسيح.

إيه حسناً صدقني قولاً أو كتابة إن شئت، سأؤديك فوق، في السماء حك الحاناتي رأسه

ماذا؟ إلا تؤمن بالحياة الأخرى، أردف بطرس بعنف.

أؤمن بها، يا بطرس، أؤمن! إنما ليس إلى هذا الحد......

(20)

بينما كانوا يتحدثون، سقط ظل في العتبة، تراجع الجميع بغتة. كان يسوع واقفاً في فتحة الباب، مدمى القدمين، الثوب ملطخ بالوحل، المحيى مجهول. من هذا؟ المعلم اللطيف أم المعمداني المتوحش؟ كان شعره جدائل على كتفيه؛ كان جلده محترقاً وخشناً، وكانت وجنتاه مقعرتين، وعيناه منتفختين، تملأ كل وجهه، ويصر قبضته بعنف، كان يظن أن المعمداني في قبضته، وشعره، ووجنتيه وعينيه. تأمله التلامذة، صامتين، مذهولين: أكان الاثنان مختلطين ولا يشكلان سوى واحد؟

" هذا من قتل المعمداني"، قال يهوذا؛ ابتعد ليفسح المجال لمرور الزائر القلق: " هذا هو..... هذا هو........" رأى يسوع يجتاز العتبة، يغرز عينيه بقسوة في كل منهم، عاضاً شفتيه....... " انتزع منه كل شيء، قال لنفسه، سرق جسده. أما روحه؟ أما كلمته الوحشية؟ الآن رفع الصرير عن أسنانه فظهروا جيداً...."

ظلوا برهة مديدة ساكتين. جو الحانة تبدل. بقي الحاناتي في ركنه يتأمل يسوع بعينين جاحظتين، تقدم يسوع ببطء

كازّا على شفتيه؛ كانت عروق جبهته منتفخة، وفجأة سمع صوته، أجش، وحشياً. ارتعد الرفاق ليس هذا صوته، هذا صوت النبي الرهيب، المعمداني.

ـ أتذهبون؟

لم يجب أحد؛ كانوا مشلوحين الواحد وراء الآخر.

ـ أتذهبون؟ كرر بغضب. أجب، يا بطرس!

يا معلم، أجاب الأخير بصوت غير واثق، يا معلم، سمع يوحنا خطاك في قلبه ونهضنا نحن لاستقبالك..........

عبس يسوع وتجهم. أحس المرارة تتغلغل فيه والغضب، لكنه تماسك

ـ لنذهب، ملتفتاً نحو الباب.

رأى يهوذا، يقف بعيداً، يحدجه بعينيه الزرقاوين والصارمتين.

أتأتي معنا، يا يهوذا؟ سأل

لن أفارقك. أنت تعرف هذا جيداً. حتى الموت.

هذا لا يكفي، تسمع؟ لا يكفي. يجب متابعتي بعد الموت. هلموا!

خرج الحاناتي من بين البراميل مرحاً حيث كان مطروحاً

حظ طيب، يا أولاد، قال، هيئوا أنفسكم جيداً. سفراً ميموناً، يا جليليون، ولما تدخلون الجنة، كما آمل، لا تنسوا الخمرة التي قدمتها لكم. ولا رأس الحمل!

لقد قطعت لك عهداً، جابة بطرس، بمحيى جاد ومكفهر. أحس تغلغل الخجل لأنه كذب خوفاً؛ وقد فهمه المعلم جيداً؛ لذا زوى حاجبيه مع قدر من الغضب. " بطرس، جبان، كاذب، خائن! كان يقاتل نفسه، إنما متى تصير رجلاً؟ متى تقهر الخوف؟ متى تكف عن الدوران، يا دوارة الهواء؟ "

بقوا واقفين في مدخل الحانة ومنتظرين ليعرفوا إلى أين يتجه المعلم. إما هو، ساكناً، مد أذنه وأصغى، إلى أبعد من باب دأود إلى الفناء المر الرتيب لأصوات ضعيفة ومنصدعة، كانت هذه هي أصوات المجذومين النائمين في الغبار والذين يمدون ما تبقى من أيديهم للمارة منغمين عظمة دأود ورحمة اللّه الذي أصابهم بالجذام ليمنحهم افتداء خطاياهم على هذه الأرض ولكي، في الغد، في الحياة المقبلة، يشع وجههم في دار الأبدية، كالشمس تكدر يسوع حزناً، أدار وجهه نحو المدينة. المخازن، الحوانيت، الحانات شرعت أبوابها، غصت الشوارع بالناس؛ كانوا يركضون، يزعقون، ويسيل العرق من جباههم على ذقونهم! زمجرة مخيفة أثارت هلع الأحصنة، الناس، القرون، الأبواق ـ بدت له المدينة وحشاً مخيفاً، وحشاً مريضاً في أحشائه هيجان، جذام وموت.

كان هدير الشوارع يزداد أبداً، الناس يركضون بأقصى سرعة. لم هم مستعجلون؟ لمَ يركضون؟ تساءل يسوع، إلى أين يذهبون؟ تنهد: كلهم، كلهم ذاهبون إلى الموت!

اضطرب. ربما كان واجبهُ البقاء هنا، في هذه المدينة آكلة اللحوم، الصعود إلى سطح الهيكل لينادي: توبوا، يوم الرب قادم" ؟ هؤلاء البؤساء، اللاهثون الذين يجوبون الشوارع بكل اتجاه، بحاجة لأن يتوبوا وليواسوا، أكثر من الخطاة والحراث اللامبالين في الجليل، هنا يجب أن أبقى وأبداً إعلان دمار الأرض ومملكة السماء!

لم يعد أندريه يستطع تحمل هذا التعب، اقترب منه، وقال له:

يا معلم، لقد اعتقلوا المعمداني، وقطعوا رأسه.

ليكن، أجاب يسوع بتؤده. توفر له الوقت وأنجز مهمته، ونحن، علينا أن نُتم رسالتنا، يا أندريه.

رأى عيني التلميذ السابق للرؤيوي تطفر دمعاً. لا تغتم، يا أندريه، قال له وهو يداعب كتفيه، إنه ليس متيناً. من يمت هم أولئك الذين لم يفسح لهم الوقت مجالاً ليصيروا خالدين. هو، يسر له الوقت ذلك؛ أعطاه الله هذا.

كان يقول أن روحه مضاءة، مستنيرة؛ ـ فعلاً، كل الناس تحت رحمة الزمن؛ هو الذي ينضج كل شيء؛ أن أسعف الزمن، أمكن العمل بالطين البشري، وتحويلهُ إلى روح. آنئذ لا يخشى الموت. وإن لم يوسع الزمن في المجال، ضاع الأمر....... " إلهي، قال يسوع ملتمساً، إلهي، أعطني الوقت..... لن أتوسلك إلا هذا؛ أعطني الوقت........ " شعر أيضاً في ذاته وحلاً، بشرياً كثيراً

وغضب ثانية، خاف، كان حسوداً. ولما يفكر بالمجدلية، تضطرب نظرته. وفي المساء أيضاً، لما حدق خلسة إلى مريم، أخت أليعازر...... أحمر، خجل وبغتة قرر: " يجب مغادرة هذه المدينة، لم تأت ساعة قتلي بعد، لم أستعد بعد.... إلهي، أبتهل مجدداً، أعطني وقتاً، وقتاً، لا غير..... " وأشار إلى مرافقيه:

رفاقي بالنضال، نحن عائدون إلى الجليل. باسم السماء كأحصنة متعبة، جائعة وهي الآن تعود إلى الإصطبل المفضل، سارع المرافقون إلى بحيرة طبريا. كان يهوذا قد عاد إلى المقدمة، كان ينفخ. منذ سنين لم يشعر قلبه بهذه الغبطة. كان يحب الآن كثيراً، هو العائد من الصحراء، وجه، المعلم وخشونة صوته .... قتل المعمداني، كان يردد باستمرار، أخذه معه، الحمل والأسد اختلطا وصارا واحداً. كما الغيلان القديمة، هل صار المسيح في وقت معاً أسداً وحملاً؟ " كان يمشي ويزفر، كان ينتظر. " ليس هذا ممكناً، سيرفع الصريف عن أسنانه، سيتكلم سيقول لنا السر، ما فعل في الصحراء، إنه رأى الله وماذا قالا. آنئذ سأحكم. "

مرت الليلة الأولى. كان يسوع ساكتاً يتأمل النجوم. حوله مرافقوه، متعبون مسترخون، فقط عيون يهوذا تبص في العتمة. سهر الاثنان، الواحد قبالة الآخر، دونما كلام.

عادوا إلى الطريق باكراً، تركوا خلفهم حجارة يهوذا ودخلوا في أرض السامرا الطيبة. كان بئر يعقوب مهجوراً، ليس

ثمة امرأة تتهل الماء لاروائهم. اجتازوا بسرعة الأرض الملحدة، ظهرت الجبال الحبيبة ـ حرمون ـ (جبل الشيخ) مغطى بالثلج. وجبل الطابور الخصب، وجبل الكرمل المقدس.

انتهى النهار، أظلم الجو؛ ناموا تحت سروه ملتفة الأغصان والورق وشاهدوا مغيب الشمس. تلا يوحنا صلاة المساء : " افتح لنا بابك، إلهي توارى النهار، غابت الشمس. أتينا إلى أمام بيتك، يا رب، افتح لنا. أيها الأزلي، نبتهل لك، سامحنا. أيها الأبدي، نلتمسك، ارحمنا. أيها الدائم ـ أبداً، خلصنا! "

كان الجو أزرق كثيفاً، فقدت السماء الشمس ولم تظهر النجوم بعد، انحنوا إلى الأرض، العارية من زيناتها. في هذا الفجر الغبش، كانت يدا يسوع، موضوعتين على الأرض، ارتفعتا إلى الأعلى. تمت صلاة المساء، كان يسمع ضرب أيدي الناس، يائسة، مرتجفة، على باب الله؛ ولم يفتح الباب. يدق الناس ويصرخون. ماذا يطلبون؟

أغمض عينيه ليسمع جيداً. طيور النهار عادت إلى أعشاشها، وطيور الليل لم تفتح عيونها بعد. كانت القرى الآهلة بعيدة، فلم تسمع حركة بشرية ولا نباح كلب. كان المرافقون يتمتمون صلاة المساء، لكنهم مازالوا نعسانين. دخل الكلام المقدس في ذواتهم عميقاً، دونما أن يجد رجعاً عميقاً. لكن يسوع وجد في نفسه الناس الذين يقرعون باب الرب — أي قلبه. كان في قلبه الدافئ ناس يطلبون صارخين:

افتح لنا! افتح لنا! خلصنا!

مسك يسوع صدره كأنه هو نفسه الذي يقرع ويرجو قلبه أن يفتح وبينما كان يصارع وهو يعتقد أنه وحده، أحس أن أحدهم خلفه يحدق إليه. استدار كانت عيون يهوذا تلمع كالزجاج متجهة إليه. ارتعش يسوع. كان ذو الشعر الأحمر وحشاً عاتياً، يبدو أنه هو الذي يحس أنه الأقرب إليه والأبعد عنه في وقت واحد. كان يبدو أنه لا يحسب حساب أحد إلا مصلحته وحده.

ـ يهوذا، أخي، انظر. ماذا أمسك؟

مد الأصهب رقبته في الغبش ليميز.

ـ أبداً، أجاب، لا أرى شيئاً

ـ ترى في الحال، قال يسوع مبتسماً.

ـ مملكة السماء، أردف أندريه.

البذرة، قال يوحنا. أنت تذكر، يا معلم، قلت لنا، لأول مرة لما فتحت فمك لتحدثنا، على شاطيء البحيرة : "خرج الزارع ليبذر بذرته.

ـ وأنت يا بطرس، سأل يسوع.

ـ ماذا تريد أن أقول لك، يا معلم؟ إن سألت عيوني، أقول لا شيء. أن سألت قلبي، كل شيء.

ـ جاك؟

لا شيء. لا تمسك شيئاً، يا معلم، سامحني.

انظـروا! أردف يـسوع، ورفـع ذراعـه بعنـف. رآه المرافقـون يرفعه إلى أعلى ويهبط بـه بكـل قوتـه، خـافوا. احمـر يهـوذا مـن الفرح، راح وجهه يلمع. مسك يد يسوع وقبلها.

يا معلم، صرخ، رأيت! رأيت! تمسك بلطة المعمداني!

لكنـه سـرعان مـا خجـل. فـزع مـن أن لا يقـدر أن يـستوعب غبطته؛ انسحب مجدداً إلى مكان ما واستند إلى جذع الـسروة. سمع صوت المعلم، هادئاً، قوياً – حاسماً:

حملني إياها لأضعها في كعب الـشجرة الهالكـة. مـن أجـل هذا ولد، لهذا حملها. هـو لا يقـدر أن يـذهب أبعـد مـن هـذا. مـن أجـل هـذا ولـدت. هنـا تبـدأ رسـالتي: قطـع الـشجرة اليابـسة .... كنت أظـن أن لـي خطيبـة وبيـدي غـصن لـوزة مزهـر، لمـا كنـت جـزاراً. أتـذكرون لمـا تنزهنـا، رقـصنا في الجليـل، ولمـا أعلنـا: انفتحـت الأرض لتخولنـا الـدخول؟ يـا أخـوة، كـان هـذا حلمـاً، واستيقظنا.

ـ مملكـة السماء غير موجودة؟ غمغم بطرس، مروعاً.

ــ موجودة، يا بطـرس، موجـودة، إنهـا فينـا . فينـا مملكـة السماوات، وخارجنـا مملكـة الشيطان. المملكتـان تتـصارعان. هـي الحرب! الحرب! واجبنا الأول أن نجاهد، بهذه البلطة، ضد الشيطان!

ـ أي شيطان؟

هذا العـالم الذي حولنا. شجاعة، يا رجال، لم أدعكـم إلى

عرس، بل إلى حرب. أنا لا أعرف، اعذروني. إنما من منكم يفكر بامرأته، بأولاده، بحقوله، بالسعادة، يرحل من هنا! هذا ليس مخجلاً. لينهض، ليودعنا بهدوء وليذهب بسلام. مازال في الوقت متسع.

سكت، تأمل بسرعة مرافقيه: لم يتحرك أحد. رشحت نجمة المساء من وراء أغصان الأرزة المعتمة، كقطرة ماء ضخمة. فرفشت طيور الليل أجنحتها واستيقظت. هبط نسيم عليل من الجبال. فجأة، في حلاوة المساء، نهض بطرس، وقال:

يا معلم، سأتبعك كظلك. سأعارك إلى جنبك، حتى الموت.

قلت أشياء هامة. بطرس أنا لا أحب هذا. نحن نسير في درب صعب، بطرس، يشن الناس علينا حرباً؛ من يرد سلامته؟ هل شوهد نبي نهض لإنقاذ شعبه دون أن يرجمه الشعب؟ نحن نشق درباً شاقاً، يا بطرس، يجب أن تحافظ على كل قواك، يا بطرس، لكي لا تهرب منك. الجسد ضعيف لا تثق به... أتسمع، يا بطرس؟ أنا أخاطبك.

جالت الدموع في عيني بطرس.

أنت لم تثق بي يا معلم؟ تمتم. أنما كما تراني، لا يوثق بي، في يوم سأموت من أجلك.

مد يسوع يده، مسك ركبة بطرس وداعبها وقال:

أتوقع هذا... اتوقعه... اعذرني، يا بطرس العزيز. والتفت

إلى الآخرين:

كان يوحنا المعمدان يعمد بالماء، وقتل . أنا سأعمد بالنار، أقول لكم هذا بوضوح في هذا المساء، اعرفوه، عندما تؤذن الساعات الحرجة، لا تهاجموني. قبل بدء المسير أقول لكم إلى أين: إلى الموت. وبعد الموت، إلى الخلود. هو ذا الدرب. أمستعدون أنتم؟

ظل المرافقون مندهشين. كانت الدرب قاسية، لا تمزح، لا تداعب. تدعو إلى السلاح. يجب إذن، من أجل ولوج مملكة السماوات، عبور الموت؟ هل ثمة درب آخر؟ كانوا رجالاً بسطاء، فقراء، يعيشون ليومهم؛ وجاهلين؛ وكان العالم غنياً، وواسع الطاقات، كيف يقاسون به؟ لو ينزل من السماء أيضاً ملائكة يؤازرونهم! لكن أحداً منهم لم ير ملاكاً يمشي في الأرض ويأتي ليعين الفقراء والمهانين. سكتوا إذن. رازوا ثم رازوا بأنفسهم الخطر. حدق إليهم يهوذا بطرف عينه وابتسم بفخر. هو فقط لم يزن. يدخل الحرب، محتقراً الموت، لا يبالي بجسده ولا بروحه. وكان متحمساً جداً ويحس غبطة عميقة بالموت ليروي غليله.

بعد لأي رفع بطرس، أولاً، الضغط عن أسنانه، وسأل:

يا معلم، أيهبط الملائكة من السماء ليساعدونا؟

نحن ملائكة الله على الأرض، يا بطرس، رد يسوع ليس ثمة ملائكة غيرنا.

إنما سنخرج هكذا منتصرين وحدنا؟ كيف ترى الأمر، أنت، يا معلم؟ سأل جاك

نهض يسوع، مرتعش الأهداب:

دعوني وحدي، ابتعدوا!

صاح يوحنا:

يا معلم لن أتركك وحدك. أنا معك حتى الموت!

وأنا أيضاً، يا معلم، أردف أندريه وعانق ركبتي يسوع.

سالت من عيني بطرس دمعتان ضخمتان. خفض جاك رأسه، كان مقداماً.

وأنت يهوذا، أخي، سأل يسوع إذ رأى الأصهب ساكتاً، يرمي كل المرافقين بنظرات شرسة.

أنا لا أذبح جملاً، أجاب الأصهب بعنف، ولا أذرف دمعاً مثل بطرس. مادمت تحمل البلطة، سأكون إلى جانبك. وأن تركتها، تركتك. أنا، لست أنت، وأنت تعرف هذا. أنا البلطة.

ألا تخجل أن تخاطب المعلم هكذا؟ قال بطرس.

لكن يسوع أضاف:

يهوذا على حق؛ أنا أيضاً، أنا البلطة، يا رفاق!

استلقوا جميعاً في الأرض واستندوا إلى الأرزة. كانت النجوم تسطع زرافات في السماء.

انطلاقاً من هذه اللحظة، قال يسوع، نطوي راية الله، ونذهب إلى المعركة. كانت راية الله تحمل نجمة وصليباً

مزركشين. ليكن الله معنا!

سكت الجميع. اتخذوا قرارهم وأصر قلبهم

سأتحدث أيضاً بالأمثال، قال يسوع إلى مرافقيه. الذين كانوا قد غرقوا في الظلام. أن الأرض، كما تعرفون، تستند إلى سبعة عواميد، وتستند هذه العواميد إلى الماء، الماء إلى الغيوم، الغيوم إلى الهواء، الهواء إلى العاصفة والعاصفة إلى الصاعقة، والصاعقة موضوعة عند قدمي الله، كبلطة.

لم أفهم، يا معلم، قال يوحنا محمراً.

ستفهم عندما تشيخ، وتعيش متقشفاً في جزيرة، وتنفتح السماء فوقك ويلتهب رأسك، يا يوحنا، يا ابن الصاعقة، أجاب يسوع وهو يداعب شعر مرافقه المحبوب.

سكت لأول مرة يرى صاعقة الله بوضوح: بلطة ملتهبة عند قدمي الله وبهذه البلطة كان معلقاً بالتتالي الهواء، الغيمة، الماء، الأرض كلها. عاش سنوات مع الناس، وسنوات مع الكتاب المقدس، ولم يكشف له أحد السر الرهيب. أي سر؟ أن البرق هو ابن الله، المسيح. هو الذي سيأتي ليطهر الأرض.

يا رفاق النضال، قال – وخلال برهة لاحظ بطرس في العتمة شعلتين تنبثقان من جبينه، كقرنين، ـ يا رفاقي، ذهبت إلى الصحراء، كما تعرفون، لأحظى بالله. جعت، عطشت، قعدت، منطوياً على نفسي، على صخرة وطلبت من الله الظهور. توافدت الشياطين لقتالي زرافات، كما البحر،

تحطموا، ازبدوا وآبوا من حيث أتوا. بداية شياطين الجسد، ثم شياطين الروح وأخيراً شياطين أعتى، شياطين القلب. أما أنا كنت أمسك الله كحلقة برونزية والرمل حولي غاص بفتات الأظافر، الأسنان والقرون آنئذ سمعت صوتاً عظيما فوقي: "انهض، خذ البلطة التي جلبها لك الرؤيوي، اضرب! "

ألم ينج أحد؟ صرخ بطرس، لكن يسوع لم يسمع.

بغتة ثقلت يدي كما لو أن أحداً وضع بلطة في قبضتي. نهضت، وأنا أنهض سمعت الصوت ثانية: "يا ابن النجار، انفجر طوفاناً جديداً، ليس من ماء إنما من نار. أصنع سفينة أخرى. اختر الناس وادخل القديسين إلى السفينة!" بدأ الاختيار، يا رفاق، السفينة جاهزة، مازال الباب مشرعاً، ادخلوا! راح الجميع يتحرك، جروا أنفسهم وتجمعوا حول يسوع، كما لو كان هو نفسه السفينة، للدخول.

وسمع الصوت من جديد، يابن داود، لما سيهدأ الحريق، وسترمي السفينة المرساة أو الياطر أمام القدس الجديدة، وأنت ستجمع الناس! ستختفي الأرض القديمة، وستختفي السماء القديمة، ستتبسط سماء جديدة فوق رأس القديسين وستشع النجوم سبعة أضعاف أقوى مما كانت وستتألق عيون الناس سبعة أضعاف عما كانت عليه."

يا معلم، صاح بطرس ثانية، يجب أن لا نموت قبل رؤية ذلك اليوم ونجلس، نحن الذين ناضلوا معك إلى يمين وإلى يسار

عرشك!

لكن يسوع، غارقاً في رؤية حجير الصحراء، تابع:

وسمعت مرة أخرى الصوت فوق رأسي: " يابن الله لك بركتي!"ابن الله! ابن الله! " نادوه من أعماقهم، لكن أحداً لم يجرؤ على فتح فمه.

شعت كل النجوم في السماء، قريبة كانت في تلك الأمسية وتعلقت بين السماء والناس.

والآن، يا معلم، سأل أندريه، ما هي معركتنا الأولى؟

الله، أجاب يسوع، أخذ من أرض الناصرة ليصنع جسدي. واجبي هو إذن الذهاب والصراع بداية في الناصرة، هناك يجب على جسدي أن يبدأ يصير روحاً.

بعدئذ في كفر ناحوم، قال جاك، لنخلص أهلنا.

ثم في مجدلا، اقترح أندريه، لنأخذ المسكينة المجدلية معنا بالسفينة.

بعدئذ في العالم أجمع! صاح يوحنا وهو يمد ذراعيه نحو الشرق ونحو الغرب. سمع بطرس وراح يضحك:

أنا، أفكر ببطننا، قال. ماذا سنأكل في السفينة؟ أفكر أن لا نأخذ معنا سوى الحيوانات القابلة للذبح. ما حاجتنا، أسألكم، للأسد والحشرات؟ كان جائعاً وكل أفكاره ترحل نحو الأطعمة؛ راح الركب يضحك.

لا تفكر إلا بالأكل، قال له جاك بجلافة؛ هنا نحن

نتكلم عن سلام العالم

أنـتم أيـضاً، مـادمتم، أجـاب بطـرس، بهـذا تفكـرون لكنكم لا تعترفون. أنـا، أقـوى بصفاء ونقـاء كل مـا يمـر في خاطري، جيداً كان أم سيئاً، فكري يدور وادور أنا معه؛ لذا يـسميني الثرثـارون دوارة. ألـست محقـاً، يـا معلـم؟ هـش وجـه يسوع، وابتسم، وافته ملحة:

في مـرة بحـث الحاخـام عـن شـخص يجيـد الـنفخ بـالبوق، ليسمعه المؤمنـون ويـأتون إلى المعبـد. لـذا نـشر إعلانـاً: ليـأت إلـي كـل مـن يـتقن الـنفخ بـالبوق، سـأفحـصهم وأخـذ أجـودهم. أتـاه خمسة، أخذ كل منهم البوق ونفخ. لما انتهوا، أخذهم الحاخـام واحداً واحداً وسألهم: ـ فيم تفكـرون يـا أبنـائي، وأنـتم تعزفـون بـالبوق؟ أجـاب أحـدهم: ـ أنـا افكـر بـالله، الآخـر: أنـا بـسلام إسـرائيل؛ ثالـث: بالجـائعين .... باليتـامى والأرامـل .... واحـد، الأكـثـر تـشوهاً، بقـي في ركنـه، خلـف الآخـرين، ولم يـأت بكلمـة. — وأنـت، يـا بـني، بم تفكـر وأنـت تعـزف بـالبوق؟ ـ يـا شيخ، أجاب الآخر محمراً، أنا فقير وجاهـل، عنـدي أربـع بنـات ولا أستطيع أن أمهرهن ليتزوجن كباقي الصبايا. إذن لما أعـزف بالبوق أتضرع: " إلهي، أنـت تـرى أنـي أعمـل وأنـصب مـن أجلـك؛ ارسـل مـن لـدنك أربعـة عرسـان لبنـاتي! — لـك بـركتي، قـال الحاخام، انتخبك أنت!

التفت يسوع نحو بطرس وقال له مبتسماً:

لـك بـركتي، يـا بطـرس، اخترتـك أنـت، تفكـر بـالله وتـتكلم عـن إلـه؛ بـشكل شـرعي! لـذا ينادونـك دوارة ومروحـة الهواء! إما أنا انتقيتك أنت: أنت طاحونة الهواء، ستطحن القمح الذي سيصير خبزاً، ليأكل البشر.

كـان عنـده قطعـة خبـز، أخـذها يـسوع ووزعهـا. لم يكـن للواحـد أكثـر مـن لقمـة واحـدة، لكـن المعلـم بـارك الخبـز، فشبعوا، ثم ناموا كل على كتف الاخر.

في الليل الكل نـائم، يرتـاح، في الـصباح، عنـدما يـستيقظ الرفاق تكون أرواحهم منبسطة وتتغلغل في كل الجسم. وتمـلأه غبطة وطمأنينة.

بدأوا المسير قبل الفجر؛ كـان الهواء عليلاً، غيـوم رقيقـة، الـسماء خريفيـة. عبرت كراكـي تطير الهويني، تـشد الـسنونو نحو الجنوب. كان الصحب يمشون بسرعة، وخطى رشيقة، في قلـبهم اجتمعـت الـسماء والأرض. كانـت أصـغر صـخرة تلمـع، مليئة بالله.

أخذ يسوع الطليعة، وحده. كانت روحـه مـشغولة ومعلقـة برحمـة الله. كـان يعـرف أنـه أغـرق مراكبـه ولـن يـستطيع التراجـع، كـان قـدره يمـشي أمامـه، وهـو يتيـه، وكـل مـا قـرر الله، فعلـه. قـدره؟ فجـأة سمـع مجـدداً الخطـى الخفيفـة الـتي لاحقته منذ مدة مديدة، من دون رحمة. نظف أذنيه وانصت.

كانت هذه الخطوة سريعة، ثقيلـة، مـصممة؛ لكنهـا الآن

لم تعد تمشي وراءه، إنما تمشي أمامه وتقوده .... " حسناً ، فكر متأملاً ، لابأس، لا أستطيع أن أغير دربي، الآن ......"

ابتهج ومد الخطوة، بدا له أن الخطوة مستعجلة، فأسرع بدوره، كان يمشي، يترنح فوق الحجارة، يقفز الحفر، كان يركض: هيا! هيا! همهم للدليل غير المرئي، وتقدم، فجأة أرسل صيحة، أحس بآلام رهيبة في يديه وقدميه، كأنها تدق بالمسامير. ارتمى على صخرة، مغطى بعرقه، كما الماس البارد ..... بعد لحظة ارتعشت روحه . انزاحت الأرض تحت قدميه وانتشر أمامه بحر، أسود، وحشي وفريد؛ فقط قارب صغير أحمر يمخره بجرأة، الشراع المنتفخ طقطق .... يسوع يتأمله، يتأمله ويضحك: " هذا قلبي، تمتم، هذا قلبي ....."

تصلبت روحه مجدداً، هدأ ألمه ولما وصل مرافقوه، وجدوه باسماً، يعتقد بهدوء أخذحجراً.

هلموا، يا أعزاء، اسرع! قال وهو ينهض.

(21)

أتى يوم السبت، يقال، عنه شاب جيد التغذية يرتاح على ركبتي اللّه. معه ترتاح المياه، لاتبني الطيور أعشاشاً، والناس لا يعملون يلبسون، يتزينون ويذهبون إلى المعبد لرؤية الحاخام يفتح الكتاب المقدس حيث كتبت، بالحروف الحمراء والسوداء، شريعة اللّه، ويسمعون التلاوات يبحثون ويجدون تحت كل كلمة، تحت كل مقطع، بمهارة، إرادة اللّه.

كان ذاك يوم السبت والمخلصون لإسرائيل يخرجون من معبد الناصرة، وما تزال عيونهم مبهورة بالرؤى التي أبرزها أمامهم الشيخ الحاخام سمعان. والنور في عيونهم كان شديداً ما جعلهم يتمايلون كالعميان؛ يتبعثرون في ساحة القرية ويطوفون ببطء تحت النخلات، ليستعيدوا وعيهم.

فتح الحاخام الكتاب في ذلك اليوم لاعلى التعيين، وكانت صفحة النبي ناعوم. وضع إصبعه أيضاً على هذه الكلمات المقدسة: " اسمعوا من الجبل وقع الرسول، حاملاً نبأ جديداً! " قرأه الشيخ الحاخام وأعاد قراءته بشغف.

ها هو المسيح، يصل. انظروا حولكم، تأملوا ذاتكم: تجدون في كل مكان أمارات مجيئهِ. فينا الغضب، الخجل، الأمل، فينا النداء: ترون ما يكفي! انظروا في الخارج: الشيطان قابع في عرش الكون؛ على إحدى ركبتيه يمسك ويداعب جسم الإنسان، الفاسق؛ على الركبة الأخرى، روح الإنسان، العاهرة، هذا هو الزمن الذي يعلنه الأنبياء، الذين هم صوت الله، افتحوا واقرأوا : "عندما تقصى إسرائيل عن العرش ويدوس أرضنا الطهور البرابرةُ، تكون نهاية العالم!" ماذا تقول الكتب أيضاً؟ " سيكون الملك الأخير فاجراً فاسقاً، جائراً، وملحداً كافراً. سيكون أبناؤه عاجزين، وينزلق التاج عن رأس إسرائيل. " الملك الفاسق والجائر قدم، هو هيرودوت، رأيته بأم عيني، لما ناداني إلى جرش لأشفيه، كنت أعرف نباتات سرية،

أخذتها معي، وذهبتت إليه. ذهبت إلى هناك ومنذئذ ما أكلت لحماً، لأني رأيت لحمه يتمزق، لم أعد أقدر أن أحتسي خمراً، لأني رأيت دمه مفعماً بالهامات[1]، ومازال نتنه قابعاً في منأخيري، بعد ثلاثين عاماً تقريباً... مات، نفق. أتى أولاده، عاجزين، منحطين، حثالة؛ انزلق التاج الملكي عن الرأس...

تحققت النبوءات، أزفت نهاية العالم! رن صوت في ضفة الأردن: هو قادم! دون صرخة في حنايانا: هو قادم! فتحت اليوم الكتاب المقدس؛ تجمعت الحروف ونادت: هو قادم! مشحت؛ في عيني غبشاً وعمى، سقطت أسناني، انشلت ركبتاي؛ فرحت! فرحت لأن اللّه أعطاني كلمته: ـ سمعان، لن تموت قبل أن ترى المسيح. قلما دنا موتى، اقترب قدوم المسيح. الشجاعة، أبنائي. تتوارى العبودية، ويختفى الشيطان والرومان؛ المسيح وحده موجود وهو قادم. أيها الرجال، امتشقوا أسلحتكم، اذهبوا إلى المعمعة! أيتها النساء، أشعلن مصابيحكن، الخطيب قريب! نحن لا نعرف الساعة ولا اللحظة. ربما تكون اليوم؛ غداً، ظلوا ساهرين! أسمع من الجبال القريبة الحجارة تتحرك تحت قدميه. هو قادم؛ اخرجوا، ربما رأيتموه!

خرج الناس، توزعوا تحت البلحات. كان يشق عليهم التلاؤم مع كلام العجوز الحاخام وكانوا يحاولون نسيانها،

---

1 ـ كل حشرة تؤذي و لا تقتل.

ومن تعديل الشعلات الشديدة، ولتعتاد روحهم من جديد على الهموم العادية ... وبينما كانوا ينتزهزن وينتظرون الظهر بقلق ليعودوا إلى بيتهم وينسوا وهم يتكلمون يتنازعون يأكلون الكلمات المقدسة – هنا ظهر ابن مريم ممزق الثياب حافي القدمين، متألق الوجه؛ وراءه، التلامذة الأربعة، وجلين، متلاصقين، في المؤخرة يهوذا الأصهب قاسياً، عابس النظرة.

انذهل القرويون الطيبون؛ من أين أتى هؤلاء المساكين، وأليس ابن مريم في طليعتهم ؟

انظر كيف يمشي؛ يمد ذراعيه ويحركهما كجناحين. ضخم له الله دماغه وحاول أن يطير. ـ صعد على صخرة، قام بحركة، سيتكلم. ـ هلموا نضحك قليلاً!

كان يسوع صعد بالفعل إلى متن صخرة، في وسط الباحة. تجمع الرهط ساخراً.

كانوا مبتهجين بمجيء هذا الرؤيوي ليجعلهم ينسون كلام الحاخام الفظ: في الحرب، قال، كونوا يقظين، هو قادم! منذ سنين وسنين وهو يهدر بهذه اللازمة في آذانهم، ولقد سئموا منها والآن، ليمجدوا اسم الرب، أتى ابن مريم يلهو بها. حرك ابن مريم ذراعيه مشيراً إلى الجميع إن اجتمعوا حولي. امتلأ المكان باللحى بالمعاطف المخططة والقبعات المفرات. يلوك البعض بلحاته ليخدع الجوع، ويمضغ البعض الآخر بذور دوار الشمس، ويسبح الشيوخ الأتقياء بسبحة مصنوعة من عقد صغيرة من النسيج

الأزرق تحمل كل منها كلمة من الكتابات المقدسة.

كانت عيون يسوع ترسل برقاً وقلبه، أمام هذا الرهط الواسع، لم يعان أي رعشة. فتح الفم:

يا أخوة، قال، افتحوا آذانكم، افتحوا قلوبكم، اصغوا لما سأقول لكم. صاح اسحاق[1]: " روح الرب حلت علي، اختارني لأحمل الخبر للفقراء، أرسلني لأعلن الحرية للعبيد والنظر للعميان! " في هذا اليوم وصلت رسولاً، يا أخوة، أرسلني إله إسرائيل لأحمل الخبر الطيب، تلقيت المسحة الأخيرة في مكان بعيد، في صحراء ايدومي، من هناك أتيت! عهد لي بالسر الأعظم؛ تلقيته، اجتزت السهوب والجبال، ـ وقدمت مسرعاً إلى هنا، مسقط رأسي، لأعلن الخبر السعيد.ـ ما هو هذا الخبر السعيد؟ـ مملكة السماء قادمة! رفع عجوز ذو حدبتين كالحمل سبحته وأرسل ضحكة صغيرة:

كلام في الهواء هذا الذي ترسله يا ابن النجار، كلام في الفضاء. مملكة السماء، عدالة حرية، ارحلوا إذن من هنا يا أبناء الكلام، لقد شبعنا! خوارق! أعاجيب! هنا انتظرك؛ هات أعجوبة إن كنت تود أن نصدقك؛ وإلا، أطبق فمك!

كل شيء إعجاز، يا شيخ، أجاب يسوع، لمَ تطلب معاجز

---

1 ـ مستشار ملك إسرائيل إيكشيا Escechias أهم قضايا اليهود الأربع في القرن الثامن ق.م. مؤلف ازايا Livre d'Isaie المعروف بزخم أسلوب وقبس القصيدة.

أخرى؟ اخفض عينيك، لاصغر نتفة من عشب، ملاك حارس يراقبها ويساعدها على النمو ارفع بصرك عالياً ـ ألا ترى هذه السماء الغاصة بالنجوم؟ أليست خارقة! وإن أغمضت عينيك، يا عجوز أي عجيبة أن يكون العالم فينا، وأن يكون قلبنا سماء مشبعة بالنجوم!

كانوا يصغون، مدهوشين، ويحدق بعضهم إلى البعض الآخر.

أليس هذا هو ابن مريم؟ كيف يقدر أن يتكلم بهذه السلطة؟

إنه شيطان يتكلم من فمه. أين إخوانه، ليربطوه ويمنعوه من العض؟

وفتح فمه ثانية، اخرس!

يوم الرب قريب، يا إخوتي، أأنتم مستعدون؟ لم يبق لكم سوى ساعات ادعوا الفقراء، وزعوا أرزاقكم. لماذا تهتمون بالخيرات الأرضية؟ النار قادمة، ستحرقها. قبل مملكة السماء، تصل مملكة النار. في يوم الرب، ستنهض حجارة بيوت الأغنياء لتسحق أصحابها. قطع الذهب في الصناديق ستغرق، وسيسيل عليها عرق ودم الفقراء ستفتح السماوات، سيظهر طوفان من النار والسفينة الجديدة ستسبح فوق الحريق. المفاتيح ، التي تفتح السفينة بيدي ومن يختار، أيها الناصريون، إخوتي، أبدأ بكم، أنتم أول المدعوين، تعالوا، ادخلوا. حرائق

الله بدأت، إنها توافينا!

إلى الباب! إلى الباب! هوذا ابن مريم يأتي لخلاصنا! باشر الشعب يهمهم ويقهقه. يفهمني البعض، يأخذون الحجارة بأيديهم وينتظرون. من طرف الباحة وصل راكضاً شخص اسمه فيليب، الراعي. سمع أن أصدقاءه وصلوا وذهبوا مسرعين. كانت عيناه منتفختين وشديدتي الاحمرار، كمن بكى كثيراً، وكانت وجنتاه واجفتين. منذ أن ودع على ضفة البحيرة يسوعا ومرافقيه وقال لهم ضاحكاً: " لن آتي، عندي خرافي، كيف أتركهم؟ " فاجأه لصوص من لبنان وأخذوا الخرفان. ولم يبق له سوى عصا الراعي. صانها حتى الآن وراح يطوف كملك مخلوع عن العرش، من قرية إلى أخرى ومن جبل إلى جبل، باحثاً عن خرافه. كان يشتم ويهدد، يشحذ خنجراً عريضاً ويقول أنه ذاهب إلى لبنان. إنما عندما يبقى وحده، في الليل، كان ينتحب. والآن هو يسرع بحثاً عن أصدقائه السابقين، ليقص عليهم نكبته وليذهبوا سوية إلى لبنان. سمع الضحك والهمهمة.

ماذا يحدث؟ تمتم، لماذا يضحكون ويصهجون؟ دنا، كان يسوع غاضباً: لم تضحكون، صرخ، لماذا تجمعون الحجارة لتضربوا ابن الإنسان؟ لم أنتم تفتخرون ببيوتكم، زيتونكم وكرومكم؟ إنها رماد! رماد! وأبناؤكم وبناتكم رماد. والحرائق، وهؤلاء اللصوص العتاة هاجموكم من أعلى الجبال

لينهبوا خرافكم! " أي لصوص، أي لصوص، وما هذه النيران التي يوجهها لنا؟ " تمتم فيليب الذي كان يصغي، مستنداً إلى عصاه.

كان يسوع يتحدث وكان الناس يصلون باستمرار من الأحياء الشعبية. كانوا سمعوا من يقول أن نبياً جديداً ظهر دعماً للفقراء ومن أجلهم، فسارعوا، كان يمسك بيد نار السماء، ليحرق الأغنياء، وباليد الأخرى ميزاناً لتوزيع أرزاقهم على البؤساء. موسى جديد يحمل شريعة أعدل. كانوا الآن واقفين كالمأخوذين، وكانوا يصغون له. لقد حقت، كانت هنا، مملكة الفقراء! وبينما كان يسوع يفتح فمه من جديد ليتحدث، إنهالت عليه أربع أيدي، مسكته، أنزلوه عن منصته ـ الحجر ولفوا بعنف جسمه بحبل سميك. التفت يسوع، كان المعتديان أخويه، ابني يوسف، سمعان الأعرج وجاك التقي.

ـ إلى البيت! إلى البيت، أيها المأخوذ! صرخوا به وقد اشتد غضبهم.

ـ ما عندي بيت، دعوني. هنا بيتي، هاهم إخوتي! صرخ يسوع مشيراً إلى الجمهور.

إلى البيت! إلى البيت! صرخ البورجوازيون بدورهم هازئين. رفع أحدهم يده وألقى الحجر الذي كان في يده؛ جرح جبين يسوع، وسالت أول نقطة دم، فراح العجوز الأحدب يصرخ.

إلى الموت! إلى الموت! إنه ساحر. يلعب بالأقدار والحظوظ.

يطلب النار أن تأتي وتحرقنا والنار ستأتي!

إلى الموت! إلى الموت! انبعث الصراخ مدوياً من كل مكان تدخل بطرس:

هذا مخجل، صرخ، ماذا أساء لكم؟ إنه لبريء.

فتصدى له أحد الجبابرة:

وأنت أيضاً، يبدو لي أنك معه، يا هذا؟ صاح وقبض على عنقه.

لا! لا! زعق بطرس، لست معه! وحاول أن يرفع اليد عن عنقه.

لم يعرف مرافقو يسوع الثلاثة الآخرون ما يفعلون. ادخر جاك وأندريه قواهما، وانتفخت عينا يوحنا بالدموع. لكن يهوذا فتح لنفسه درباً بكوعيه بين الجمهور، حرر المعلم من الأخوين الشرسين وطوى الحبل.

انقلعوا من هنا، صرخ بهم، شأنكم معي، انصرفوا

ـ اذهب إلى بلدك لتعطي أمراً! همهم سيمون الأعرج.

حيث يستطيع ذراعاي أن يعملا سأعطي أوامر، أيها الحمقى! التفت نحو التلامذة الأربعة: ألا تخجلون؟ صاح بعنف لقد انكرتموه. إلى الأمام، نلتف حوله، دون أن يمسه أحدٌ!

خجل التلامذة الأربعة، وتدخل الفقراء والمعوزون بدروهم :

نحن أيضاً معكم، يا إخوان! صاحوا، نحن أيضاً.

وأنا أيضاً معكم! قال صوت غريب: اعمل فيليب عصاه

وابعد الرهط للمرور وقال وأنا آت أيضاً!

نزلت أهلاً، فيليب، أجابه الأصهب، تعال معنا! أيها المساكين، المضطهدون، سنبقى سوية.

لما رأى البرجوازيون فقراء قريتهم يرفعون رؤوسهم، ارتعدوا. قدم ابن مريم وأخذ الطليعة وقلب النظام القائم. كان يحمل، كما يبدو نبأ جديداً. إلى الموت! إلى الموت!

غضب الناس ووثبوا عليه، البعض بالعصي، وآخرون بالسكاكين، والبعض الآخر بالحجارة. بقي المسنون في الخلف يجارون ليشجعوا الآخرين. تحصن أصدقاء يسوع خلف أشجار الدلب في محيط الباحة، وهجم آخرون، من دون تغطية. كان يسوع بين المعسكرين، يمد ذراعيه ويصرخ: يا أخوة! أيها الأخوة! إنما لم يصغ له أحد. كانت الحجارة تتطاير بغضب، وكان أوائل الجرحى يئنون.

خرجت امرأة مسرعة من إحدى الحارات. كان وجهها مغطى كله بنقاب ـ حجاب، لا يرى منها سوى نصف فمها وعينيها السوداوين الواسعتين، الغارقتين ببحر من الدموع

ـ باسم السماء، نادت بصوت خفي الدلالة، لا تقتله!

ـ نادت أصوات، أمه مريم!

لكن المسنين بيتوا في رأسهم شيئاً آخر غير الاشفاق على الام، فقد صاروا وحوشاً

إلى الموت! إلى الموت! هدروا. أتى لإيقاظ الشعب، ليؤرث

الثورة، لتوزيع أرزاقنا على الملقين لابسي الأسمال والحفاة. إلى الموت!

وصل الطرفان الآن إلى القتال جسداً إلى جسد أو بالسلاح الأبيض كما يقال. تدحرج ولدا يوسف في الأرض وزعقا: كان جاك قد التقط حجراً وأطلقه إلى رأسيهما. وانتشل يهوذا خنجره، ووقف أمام يسوع حائلاً دون اقتراب أحد منه. تذكر فيليب خرافه، اكمدت نظرته وراح يضرب الرؤوس بعصاه، كأصم.

بحق السماء، كررت مريم النداء، إنه مريض! اضطرب رأسها رحمة به! لكن صوتها ضاع في الزحام، قبض يهوذا على أقوى عملاق وأسند خنجره إلى عنقه، لكن يسوع من رفع يده:

يهوذا، أخي، صاح، ادخروا الدم! وفروا الدم!

إذن ماذا؟ بالماء؟ قال الأصهب، هائجاً. أنت تمسك البلطة، هل نسيتها؟ الساعة أزفت!

بطرس نفسه، الذي أغاظته الضربة التي تلقاها، أخذ حجراً ضخماً وهاجم المسنين. ودخلت مريم إلى قلب المشاجرة ودنت من ابنها. أخذته من يده، وقالت:

ابني، ماذا يحدث لك؟ كيف وصلت إلى هنا؟ هلم إلى البيت لتغتسل، تبدل ثيابك وتنتعل نعلك: لقد اتسخ عليك كل شيء. يا بني.

ماعندي بيت، قال. ولا أم. من أنت؟

انتحبت الأم، غـرزت أظافرهـا بوجههـا ولم تنـبس ببنـت شفة.

رمـى بطـرس بلاطتـه الـضخمة الـتي سـقطت علـى الأحـدب العجـوز وهرسـته. زعـق الآخـر مـن الألم وبعـرج جـر نفـسه في الحارات واتجه نحو بيت الحاخام. بهذه اللحظة بـان الحاخـام، لاهثاً. سمع بوقوع المشاجرة فحمـل نفسه في الحـال إلى الكتـاب المقـدس حيـث كـان غارقـاً إلى عنقـه، محـاولاً، عـبر الحـروف والمقاطع، تحديد إرادة الله. فمنذ أن سمع صخب العراك، أخذ عـصاه وسـارع ليطلـع علـى مـا يحـدث. في الطريـق صـادف بعـض الجرحـى وعلـم كـل شـيء. أبعـد المتـشاجرين ووصـل قـرب ابـن مريم.

ما هذا، يا يسوع؟ قال له بغلظة. أنت من تحمل المحبة؟ هذه هي المحبة التي تحمل؟ ألا تخجل؟

والتفت إلى الشعب، وقال:

عـودوا إلى بيـوتكم، يـا أبنـائي. هـذا حفيـدي، مـريض، بائس، مريض منذ سنين. لا تبيتوا له الحقد مما قال، سـامحوه. ليس هو من يتكلم، ثمة قوة أخرى تضع الكلام على لسانه.

ـ الله! قال يسوع.

ـ اصمت أنت، قال الحاخام، ماساً إياه بعصاه ليوبخهُ.

و استدار ثانية إلى الشعب:

دعـوه، يـا أبنـائي، لا تكرهـوه، هـو لا يعـرف مـا يقـول

الجميـع، فقـراء وأغنيـاء، الجميـع بـذرة ابـراهيم، لا تخاصـموا. الوقت ظهر، عودوا إلى بيوتكم، وهذا، التعيس، أعتني به أنا.

والتفت إلى مريم:

مريم، عودي إلى دارك؛ وكذلك نحن أيضاً.

رمت الأم آخر نظرة والهة على ابنها، كأنها تقول له وداعاً أبداً. تنهدت، عضت منديلها وتوارت في الحارات الضيقة.

غطـت الغيـوم الـسماء بينمـا كـان النـاس يقتتلـون، تأهـب المطـر للهطل لترطيـب الأرض. هبـت الـريح، تركـت آخـر أوراق الـدلب والـتين الأشـجار وانتـشرت في الأرض. فرغـت الـساحة. التفت يسوع إلى فيليب ومد له يده، وقال له:

ـ فيليب، أخي، أهلاً بك.

ـ أنا سعيد بلقياك، يا معلم، أجاب الآخر وشد على يده. وأعاد له عصاه، وقال:

خذها لتستند إليها.

ـ يا رفيق النـضال، هيـا بنـا، قـال يـسوع. انفـض الغبـار عـن قدميك. وداعاً، إلى طرف الناصرة.

سأرافقك حتى طرف القرية، قال الحاخام العجوز، لكـي لا يؤذيك أحد.

أخذ يسوع من يده وبدأ الاثنان المشي. شعر الحاخام بحرارة يد يسوع الكاوية.

ـ يا ابني، قال، لا تحمل هموم الآخرين؛ ستؤذيك

ـ أنا ليس عندي همّ يا شيخ؛ قد يضربني الآخرون! أردف يسوع.

وصلا إلى طرف الناصرة، بدت الحدائق أبعد من الحقول. في الخلف، توقف التلامذة برهة ليغسلوا جراحهم بماء النبع. أتى معهم كثير من العجزة ولابسي الأسمال وضريران. كانا ينتظران معجزة من النبي الجديد. كان الكل يتحدث، مثارين وفرحين، كمن يعود من معركة طاحنة. لكن التلاميذ الأربعة كانوا يمشون، صامتين، قلقين. كانوا يستعجلون اللحاق بالمعلم، ليسري عنهم. الناصرة، بلدته، صرخت في وجههم استهجاناً وطردتهم. بدأت الرحلة بشكل سيء! وأن طردنا من قانا، قالوا لأنفسهم، من كفرناحوم ومن كل منطقة بحيرة طبريا، ما العمل؟ إلى أين نتجه. لمن نتوجه بكلمة الله؟ إذا رفضنا شعب إسرائيل وأهاننا، إلى من نلتفت؟ نحو الملحدين؟

تأملوا المعلم، لكن أحداً لم يرفع صريف أسنانه ليحكي. رأى يسوع الخوف في عيونهم وأخذ بطرس بيده، وقال:

بطرس، يا قليل الإيمان، حيوان أسود، مسبط الوبر، منكمش في بؤبؤ عينيك ويرتعش. هذا هو الخوف. أنت خائف؟

لما ابتعد عنك، يا معلم، أخاف؛ لذا دنوت منك، لذا اقتربنا جميعا.ة كلمنا، لنصلب مشاعرنا.

ابتسم يسوع، وقال:

عندما أحدب في أعماقي، لا أعرف لماذا وكيف، تخرج

مني الحقيقة بشكل حكاية.

وها أنا أقص عليكم حكايتي:

في أحد الأيام زوّج أحد الأعيان ابنه؛ وأوصى أن تقام وليمة ضخمة في قصره. لما ذبحت العجول ونصبت الموائد، أرسل خدمه يقولون للمدعويين: "كل شيء جاهز، تعالوا، إن شئتم، إلى العرس." لكن كلاً من المدعويين وجد ذريعة تعفوه من المجيء: ـ اشتريت حقلاً وأنا ذاهب إلى هناك، قال أحدهم.

ـ أنا عريس، فلا أقدر أن ألبي دعوتك، قال آخر. — ابتعت خمسة أزواج من الثيران وأنا أستعد لأجربها بالحراثة، تذرع ثالث... عاد الخدم إلى سيدهم ورووا له ما مر معهم: ـ ولا مدعو يستطيع المجيء . قالوا أنهم مشغولون. غضب الوجيه: ـ سارِعوا إلى الميادين ومفارق الطرقات، اجمعوا الفقراء، العرجان، العميان ومبتوري الساق وهاتوهم إلى هنا. دعوت أصدقائي رفضوا المجيء؛ سأملأ بيتي بالذين لم يدعوا، ليأكلوا، ليشربوا ويفرحوا بعرس ابني.

سكت يسوع، كان بدأ بلهجة مسالمة، إنما في أثناء كلامه، كان يفكر بأهل الناصرة وبالعبريين وكان الغضب يشرئب إلى عينيه. كان التلاميذ يراقبونه، منذهلين.

ـ من هم المدعوون ومن هم اللاـ مدعوون، وما العرس؟ لم نفهم، اعذرنا، قال بطرس، وهو يهرش بأسى رأسه الضخم.

ـ تفهمون، قال يسوع، لما سأدعو المدعوين ليدخلوا إلى

المركــب وليرفــضواالمجيء لأن عنــدهم كــروم ونــساء وأن عيونهم، آذانهم، شفاههم، أنوفهم، أياديهم هي خمسة أزواج من الثيران تحرث. وماذا تحرث؟ جهنم.

تنهد. تأمل مرافقيه وشعر بأنه كان وحيداً في العالم.

أتكلم، تمتم، إنما لمن إذن؟ أتكلم في الهواء الطلق ووحدي أسمع. متى يصير للصحراء آذان لتسمعني وتفهمني؟

سامحنا، يا معلم، قال بطرس أيضاً، دماغنا كتلة طين. اصبر، سيزهو

ثم التفت يسوع ورأى الحاخام العجوز؛ لكن هذا حافظ على تثبيت نظره في الأرض، لأنه حدس المعنى الخفي وكانت عيناه الضعيفتان المحرومتان من الرموش منتفختين بالدموع لدى الخروج من الناصرة، فوق سقالة خشبية، قعد رجل الجمرك المكلف بجمع الضرائب؛ كان اسمه متى matthiou . كل البضائع الخارجة والداخلة تدفع ضرائب للرومان. كان متى صبي دكان ضخم، يداه صفراوان ومنتفختان رخوتان وشاحبتان، أصابعه ملطخة بالحبر، وذا أذنين ضخمتين مشعرتين وصوت رقيق حاد كصوت الخصي. تكرهه القرية كلها وتفزع منه، لا أحد يمد له يده أو يصافحه. وعندما يمر أحد امام السقالة يحول نظره عنها، ألا يقول الكتاب المقدس " إن الضريبة تدفع لله وحده، وليس للناس. " وهذا الرجل ماهر بخدمة الطاغية، يدوس الشريعة بقدميه، يعيش من المظالم

على بعد سبعة فراسخ منه الجو ملوث وموبوء.

حثوا الخطى يا شباب، قال بطرس أمسكوا أنفاسكم؛ حولوا الرأس. لكن يسوع وقف، وأخذ متى، الواقف أمام سقالته والقلم بين أصابعه، يلهث ولا يعرف ماذا عليه أن يفعل ـ بقي، لا يجرؤ على الدخول إلى السقالة، ولا يريد. منذ وقت مديد كان يغتاظ لدى سماعه يسوع يقول إن كل الناس كانوا أخوة. أليس هو الذي قال يوماً: " يفضل اللّه الخاطئ الذي يتوب على من لا يخطئ أبداً؟ " وفي يوم آخر ألم يقل: " لم آت إلى العالم من أجل الأفاضل، الأطهار، بل أتيت من أجل الخطاة. إليهم أود أن أتحدث وأن آكل. " وفي يوم ثالث سئل: " يا معلم ما الاسم الفعلي للّه؟ " أجاب: " محبة."

استدعى متى هذه الكلمات وقلبها في حناياه خلال أيام وليالٍ؛ كان يقول بتنهيدة، متى إذن سأراه لأرتمي على قدميه! والآن وهو أمامه، لا يجرؤ أن يرفع بصره ليراه بل يتأمله، بقي واقفاً خفيض الرأس هادئاً وينتظر. ماذا ينتظر؟ الآن سيرحل ويضيع إلى الأبد.

خطا يسوع خطوة إلى أمام واقترب منه، وقال له بصوت خافت:

يا متى، بهذه الرقة التي يشعر بها الإنسان العادي يتفطر قلبه. رفع عينيه؛ كان يسوع أمامه ويتملاه. نزلت نظرته الحلوة، الصادقة في جنبات الرجل العادي، فهدأ قلبه، استنار

عقله، ارتعشت أعماق كيانه وفي هذه اللحظة سقطت الشمس عليه وأدفأته. أية بهجة، أية ثقة وارتياح، وأية طمأنينة وتوادد! هل العالم بسيط والحياة سهلة إلى هذه الدرجة؟

دخل متى، أغلق السجلات، أخذ دفتراً أبيض تحت الذراع، علق المحبرة البرونزية بنطاقه، زلق قصبة الكتابة وراء أذنه؛ ثم سحب المفتاح من النطاق، قفل ورمى المفتاح في الحديقة؛ حينما انتهى دنا من يسوع، ارتعدت ركبتاه، وقف، أيتقدم؟ لا يتقدم؟ يعطيه المعلم يده؟

رفع بصره، تملى يسوع، كمن يناديه: ارحمني! ابتسم له يسوع وبسط له يده، وقال له:

أهلاً بك يا متى؛ تعال معي.

اضطرب التلاميذ، تبعثروا. انحنى الحاخام من أذن يسوع، وقال له:

بني أأنت عشار! هذه خطيئة كبرى؛ يجب أن تخضع للقانون

أيها الشيخ، رد يسوع، أنا أطيع قلبي.

كانوا قد خرجوا من الناصرة، اجتازوا البساتين ووصلوا إلى الحقول هبت ريح باردة؛ في المدى، كان جبل حرمون ـ الشيخ يتألق، تغطية أولى هطولات الثلج.

أخذ الحاخام يد يسوع ثانية، لم يشأ أن يفترقا قبل أن يحدثه..... إنما ماذا يقول له؟ من أين يبدأ كان الله، كما

يبدو، قد عهد إليه بأمر صحراء ايدوميه Idumee، النار في يد والبذار في الأخرى؛ سيكون هو من يحرق العالم ويزرع مكانه عالماً آخر ...... نظر الحاخام إلى يسوع مواربة. هل عليه أن يصدقه؟ ألم تقل الكتب المقدسة أن مصطفى الله يشبه الشجرة العجفاء التي نمت بين الحجارة، واحتقرها الناس وأهملوها؟ ربما إذن كان هذا هو ...... قال الشيخ في طويته. استند إليه، وخاطبه بصوت أشبه بالهمس لكي لا يسمع الآخرون: من أنت؟

منذ وقت مديد، منذ ولدت، عم سمعان، وأنت تعيش قربي ولم تعرفني بعد؟

توقف نفس الحاخام المسن:

ـ هذا اعظم من قدراتي، جمجم، أنا اعجز عن ادراك هذا

ـ وقلبك، عم سمعان؟

ـ ما أصغيت له، يا بني، إنه يقود الإنسان إلى النار.

ـ إلى جحيم الله، إلى الخلاص، قال يسوع وهو يتأمل الحاخام بمودة ثم بعد هنيهة:

ألا تذكر، يا شيخ، حلم رهط إسرائيل الذي رآه في إحدى الليالي النبي دانيال، في بابل؟ كان في غابر الزمان جالساً في العرش؛ كان لباسه أبيض كالثلج وكان شعره ككتلة من خروف أبيض. كان قصره مصنوعاً من اللهب ونهراً من النار

الزاحفة إلى قدميه. وإلى يساره ويمينه يجلس القضاة. آنئذ شرعت السماء أبوابها وفوق الغيوم نزل، من؟ أتذكر، يا شيخ؟

ابن الإنسان، أجاب الحاخام العجوز الذي كان يتغذى منذ سنين عديدة من هذا الحلم. وأحياناً، في الليل، رأى نفسه في أثناء النوم.

ومن هو ابن الإنسان، يا عجوز؟

ارتعشت ركبتا الحاخام المسن. نظر إلى الشاب بخوف.

من؟ تمتم، علق السؤال على شفتي يسوع. من؟

أنا، أجاب يسوع بتؤدة ووضع يده على رأس العجوز، كما ليباركه.

ود الشيخ أن يتكلم لكن شفتيه رفضتا الانضمام إلى بعضهما.

وداعاً، يا شيخ، رد يسوع وهو يبسط له يده. أنت سعيد لأنك كنت أهلاً لأن ترى، قبل الموت، ما رغبت في رؤيته بولهٍ طيلة حياتك. لقد صدق عهد الله يا شيخ سمعان!

ظل المسن هادئاً، يحملق إليه بعينيه ويتملاه... ما العالم الذي يحيط به؟ العروش، الأجنحة، الأضواء الساطعة، الغيوم الهابطة، ابن الإنسان فوق السحاب؟

أكان يحلم ؟ ربما كان النبي دانيال، كانت أبواب المستقبل مشرعة أمامه وكان يرى؟ ليس ما أرى أراضٍ وسهوب، إنها غيوم. وهذا الشاب الذي مد له يده وابتسم، ليس

ابن مريم، بل هو ابن الإنسان!

ارتعش. غرس عصاه في الأرض، استند إليها حتى لا يقع ورأى يسوع يمر أمام عصاه، عصا الراعي تحت أشجار الخريف. كانت السماء دانية، لا يقدر المطر أن يمسك نفسه في السماء، كان ينهمر. ابتلت ثياب الحاخام العجوز، والتصقت بجسده، كان الماء يتساقط من شعره. كان يرتعد. لكنه ظل في عرض الطريق، ساكناً، بينما كان يسوع، برفقه تلاميذه قد توارى بين الأشجار. والحاخام الكبير، تحت المطر وفي وجه الريح، ما يزال يراهم، بأسمالهم، بأقدامهم العارية، يمشون، يصعدون... إلى أين يذهبون؟ ما وجهتهم؟ هل هؤلاء العراة، الحفاة، السذج الجهلة هم الذين سيلهبون النار في العالم؟ أقدار الله أو خططه جحيم...

أدوناي، تمتم أدوناي... وانهمرت دموعه.

(22)

روما تسود الأمم، وتضبط الوضع بأذرعها الطويلة القوية والجشعة، وتتلقى المراكب، والقوافل، الولاة والمواسم البرية والبحرية. لا تثق بأي سلطة خارج سلطتها، وتستقبل بلا مبالاة، بعجرفة وهزء كل رسل الأمم والدول ـ من فارس البعيدة، عابدة النار، ابن أهورا مازدا، ميثراً، الذي يمثل وجهه شمساً،

يمتطى الثور المقدس الذي سيذبح إلى بلاد النيل ذات الضرع الثر، ايزيس التي تبحث في الربيع، في الحقول المزهرة، عن أربع عشرة قطعة من جثمان أخيها وزوجها، الذي نثره التيفون les typhoons[1]، من سوريا، في أثناء النحيب على أدونيس العظيم الذي يدمي القلوب، من فريجي phrygie [2]، الممتدة على كفن آنيس، المغطى بأزهار البنفسج الذابلة؛ من فينيقيا الفاجرة، استرتيه ذات الألف زوج، كل آلهة وأبالسة آسيا وإفريقيا؛ ومن يونان الاولمب grece l'olympe ذات القمة الثلجية وهادس السوداء haoles noir تستقبل كل المقامات الرسمية والدينية والولاة حتى شقت الطريق، نظفت البحر من القراصنة والبر من قطاع الطرق، وضعت في العالم النظام والسلم. لا أحد فوقها حتى الله؛ كل الناس تحتها الآلهة والناس، مواطنون وعبيد رومان. يعبر الوقت بين يديها كمخطوط غني الزخرفة والألوان. الزمان والمكان. أنا باقية إلى الأبد، تقول بحسم وهي تداعب النسر ذا الرأسين الذي طوى جنحيه الملطخين بالدم وارتاح على قدمي سيدته. أي، مجد، أي غبطة أزلية أن تكون كلي القدرة وأبدياً، عصيا على الموت! قالت روما لنفسها. وانتشرت ضحكة مجلجلة على

---

1 ـ التيفون: آلهة الشر والظلمات والجدب، في مصر القديمة.

2 ـ منطقة في وسط آسيا الصغرى.

محياها البدين والمخضب.

بسمت، راضية، ولم يجل في خاطرها التساؤل لماذا هي شقت السبل في البر والبحر، لم تعبت عبر الأهوار، لتحقق للعالم السلم والأمن. ظفرت، سنت الشرائع، أثرت، بسطت سلطتها في الدنيا قاطبة، لمن... لمن؟

للعراة الحفاة الذي يعبرون درب الناصرة الصحراوي إلى قانا ويتبعون رهطاً من ذوي الأسمال. لا سقف يؤويهم، ولا لباس يسترهم، ولا غذاء يقيهم الجوع والسغب. كل منازلهم، كل جيادهم وثيابهم الثمينة الحريرية ما تزال في السماء. لكنها بدأت تتوارد.

يمشي عبر الغبار والحجارة، دميت قدماه، يحمل عصاه الوضيعة، عصا الراعي، ويقف من حين إلى حين، يستند إليها صامتا، تجوب نظراته الجبال التي تحيط به، وفوق الجبال نور، الله الذي يرعى في علاه الناس. يرفع عصاه، يحييها ويتابع السير.

وصلوا إلى قانا. عند البئر، في مدخل القرية، كانت صبية، منتفخة البطن، شاحبة، مغتبطة، تمتح الماء وتملأ جرتها. عرفوها؛ في أثناء زواجها غادروا، في فصل الصيف، وتمنوا لها أن ترزق ابناً.

أمنيتنا تحققت، قال يسوع ببهجة. احمرت المرأة، سألتهم أن كانوا عطاشاً؛ لا، وضعت جرتها على رأسها، دخلت القرية

وتوارت. تقدم بطرس الركب، وراح يقرع كل الأبواب. كان يركض من بيت إلى بيت، وقد أخذه سكر غريب، كان يرقص وينادي:

افتحوا... افتحوا!

فتحت الأبواب، بانت النسوة، بدأ الليل بظلمته، راح الفلاحون يرجعون من الحقول ويسألون، منذهلين:

ماذا يحدث، يا ناس؟ لم تقرعون الأبواب؟

بزغ صبح الرب، رد بطرس، طوفان، يا أولاد، نحن نحمل المركب الجديد، اصعدوا إليه كلكم أيها المؤمنون. هوذا، المعلم يحمل المفتاح، أسرعوا!

جنت النساء. دنا الرجال من يسوع. كان جالساً على صخرة ويرسم بعصاه صلباناً ونجوماً على التراب.

تكوكب المرضى والعجزة والمعاقون من كل صوب وقرية

يا معلم، المسنا لتشفى. قل لنا كلمة طيبة، لننسى أننا برص مجذومون، عميان ومقعدون.

صرخت سيدة مسنة نبيلة مديدة القد، مكللة بالسواد

لقد صلبوا ابني الوحيد، أحيه لي ابعثه!

من كانت هذه المرأة؟ التفت القرويون مدهوشين. لم يصلب أي رجل من قريتهم. أنصتوا إلى مصدر الصوت – توارت المرأة في الزحام والظلمة.

انحنى يسوع نحو الأرض، رسم صلباناً وأنجماً وأصغى إلى

قرع طبول الحرب التي تفد من الجبل المقابل. دوس ثقيل وموقع وعبر شمس المساء تظهر فجأة الدروع والخوذات البرونزية. استدار الرهط، اكمدت وجوههم.

رجع الملعون من صيده. فقد ذهب هو أيضاً ليأسر المتمردين.

جلب ابنته المسلولة إلى قريتنا، لكي تشفى بالهواء الطلق. لكن إله إسرائيل يمسك السجلات، يسجل ولا ينسى أحداً. وابتلعتها أرض قانا! ثلاثة فرسان في المقدمة؛ كان في وسطهم روفوس قائد المائة بالناصرة. يهمز حصانهُ ويقترب من جمهرة القرويين. رفع سوطه:

لماذا اجتمعتم هنا! كان وحهه مكروباً؛ كبر خلال بعض الشهر، صار شعره رمادياً. فقد سحقته رؤية ابنته في صباح معتم مشلولة في سريرها. لما كان يقفز بحصانه ويبعثر الناس رأى يسوع، جالساً وحده على صخرة. بعد لحظة استنار وجهه. همز جواده دنا منه، وقال:

يا بن النجار، أهلاً بك بعودتك الطيبة إلى يهودا. أنت من أبحث عنه.

استدار إلى القرويين:

لي كلام معه، اتركونا وحدنا.

تأمل التلاميذ وذوي الأسمال الذين يواكبونه منذ الناصرة، عرف بعضهم وتجهم، وقال:

يا بن النجار، لقد صلبت، احذر من أن تصلب. لا تستهن بالناس، لا تدعهم يرفعون الرأس. يدي غليظة وروما لن تحول ولن تزول.

ابتسم يسوع. كان يعرف أن روما غير خالدة، لكنه صمت.

ابتعد القرويون زافرين المرارة ووقفوا بعيداً يحدقون بالعصاة الثلاثة الذين قبض عليهم الجند ونقلوهم، مكبلين بالسلاسل الحديدية... عجوز ضخم ذو لحية مذراتية وولداه. برأس عال، يحدجون الثلاثة من فوق الخوذات الرومانية ولا يرون شيئاً: وحده، واقفاً على قدميه في الهواء الطلق، إله إسرائيل غاضباً.

عرفهم يهوذا، كانوا رفاق السلاح سابقاً، دل عليهم لكنهم مبهورون بألق الرب، لم يروه.

يا بن النجار، قال قائد المائة وهو يترجل عن ظهر مطيته، ثمة بعض الرؤوس يكرهوننا ويقتلوننا، وآخرون لا يتكرمون بالاقتراب ليروننا، وآخرون متسامحون، مقدرو الجميل، يشفون البؤساء من آلامهم. يا بن النجار، ما نوع أو جنس إلهك؟

لا يوجد سوى إله واحد، رد يسوع. لا تجدن غيره، يا قائد المئة!

هز روفوس رأسه، وقال:

لا أود أن أبدأ معك جدالاً دينيا. اليهود يكرهونني وأنت،

اعذرني، تلوك كلاماً يتحدث عن إلهك، أنا أرغب في سؤالك شيئاً واحداً: أيقدر إلهك ......

سكت، خجل من تنازله وسؤال يهودي عن أمر ما.

لكنه ما عتم أن رأى أمام عينيه سريراً صغيراً لابنة عذراء، وامتد فوقه، هادئاً، جسد الشابة، كانت ذات عينين خضراوين تتأمله، تحدق إليه وتتوسل .....

ابتلع خجله، وانحنى أكثر إلى سرج حصانه

هل لإلهك أن يشفي، يابن النجار، المرضى؟

وتطلع إلى يسوع بغصة ورجاء

أيقدر، تسأل، وهو يرى يسوع ساكتاً.

نهض يسوع بتؤدة عن الحجر وتقدم من الفارس.

أخطأ الأبوان وها هم الأولاد يؤذون. هذه هي شريعة إلهي. شريعتكم ظالمة! صرخ قائد المئة وهو يرتجف.

بل هي عادلة! أردف يسوع. الأب والابن من أرومة واحدة، يصعدان إلى السماء سوية، وينزلان معاً إلى الجحيم. إن صفع أحدهما، يتألم الاثنان، إن لعن الواحد يتعذب الاثنان. أنت تطاردنا وتقتلنا، أنت قائد المئة، وإله إسرائيل يضرب ابنتك ويشلها.

ما تقوله رهيب، يا بن النجار. سمعتك يوماً تتكلم في الناصرة كلاماً ألطف وأرق لا يلزم الروماني، وهنا ....

آنئذ، كانت مملكة السماوات هي المتكلم، والآن، نحن

نعيش نهاية العالم. يوم سمعتني، يا قائد المئة، كان الديان جالساً في عرشه، فتح مدوناته ونادى العدالة، التي سارعت إليه وجلست إلى جانبه، تشهر سيفاً.

ألا يتخطى إلهك العدالة؟ صرخ قائد المائة نافد الصبر، هناك يقف؟ ما هي الرسالة الجديدة التي كنت تكرز بها في هذا الصيف في الجليل، المحبة، المحبة؟ إن ابنتي لا تحتاج لعدالة الله؛ لا ترغب في محبته، أنا أبحث عن إله يتجاوز العدالة ويقدر أن يشفي فلذة كبدي، لذا أرسلت رجالي للبحث عنك المحبة، أتسمع؟ أنا أفتش عن المحبة، وليس عن العدالة.

يا قائد المئة الروماني، الذي لا يرحم ولا يحب، من وضع على فمك الوحشي هذه الكلمات؟

محبة ابنتي، والألم، أنا أسعى إلى الله الذي يبرئ ابنتي، حتى أؤمن به.

سعداء أولئك الذين يؤمنون بالله من دون معجزات.

سعداء، نعم، أما أنا فرجل صلب ومتشكك. رأيت كثيراً من الآلهة في روما، عندنا آلاف منهم في الأقفاص، وفوق رأسي.

أين ابنتك؟

هنا، في أعلى الضيعة، في حديقة.

هيا إلى هناك!

ترجل قائد المئة عن ظهر حصانه وتقدم مع يسوع. خلفهما، على مسافة؛ أتى التلامذة، ووراءهم، زرافة القرويين. في هذه

اللحظة، خرج توماس فرحاً من طرف رتل الجنود. تبعهم وباعهم بسعر مغر ما يحمل من سقط المتاع.

يا هذا، توماس، ناداه التلاميذ، ألا تأتي دوماً معنا؟ الآن سترى العجيبة وتؤمن.

بداية سأرى أردف توماس؛ انظر ولمس.

ألمس ماذا، أيها العجوز النخاس؟

ـ الحقيقة.

كما لو أن للحقيقة جسداً! ماذا تهرف، أيها الطائش؟

إن كانت الحقيقة من دون جسد، ماذا أفعل؟ قال توماس وهو ينق. أنا أطلب أن ألمس. لا اعتمد عيني ولا أذني. أنا أثق بيدي.

وصلوا إلى أعلى الضيعة، حيث كان بيت صغير زاه، بيض بالكلس وفيه طفلة في ربيعها الثاني عشر، ممددة في سرير أبيض، تفتح عينين واسعتين خضراوين، تنظر إلى أبيها وقد بدأ وجهها يبتسم، كانت روحها تجالد بعنف لرفع جسدها المشلول، لكنها تحاول عبثاً ويخبو الفرح على محياها. ينحني يسوع ويأخذ يد الطفلة. تركزت قوتها بيدها؛ كل قوتها، كل محبتها وكل حنوها، لم يتكلم، ثبت نظره بعيني الطفلة الخضراوين وشعر بأن روحه تسيل باندفاع من طرف أصابعه وتدخل جسد الطفلة. تأملته بولهٍ، فتحت فمها على سعته، وبسمت له.

ولج التلامذة الغرفة على رأس القدمين، على رأسهم توماس، وصرة البضائع على ظهره وبوقهُ في نطاقه، تبعثر القرويون في الحديقة والحارة الضيقة.

كان قائد المئة، مستنداً إلى الجدار، يحدق بابنته، ويجاهد لإخفاء اضطرابه.

شيئاً فشيئاً بدأت شفتا الطفلة تتلون، نهض صدرها، وأخذتها رعشة مداعبة بدءاً بيديها حتى قلبها ومن القلب حتى أسفل القدمين. كانت أحشاؤها ترتعد وتضج كأوراق الحور عند هبوب عصفة ريح. حس يسوع بيد الطفلة تخفق كقلب، تعود إلى الحياة بيده. آنئذ فتح الفم وقال:

ابنتي، أمرها بتؤدة، انهضي.

تحركت الطفلة بهدوء مسترجية، استرخت، تمطت كمن يستيقظ، أسندت يديها إلى السرير، رفعت جسمها، وبوثبة كانت بين ذراعي أبيها. عرك توماس عينيه الحولاوين، مد يده، لمس الطفلة كمن يود أن يتأكد ويؤمن أن الأمر حقيقي، والشعب المحتشد في المكان همهم لحظة وسكت في الحال، مدهوشاً. لا أحد يسمع سوى ضحك الطفلة البريء التي كانت تعانق والدها وتقبله.

دنا يهوذا من المعلم؛ كان محياه مرعوباً وكدراً، وقال:

أنت تبدد قدرتك على الآثمين؛ تحسن إلى أعدائنا. أهي ذي إذن نهاية العالم التي تجلبها لنا؟ أهذا هو اللهيب؟

لكن يسوع، الحائم في السماوات المعتمة، لم يسمعه، هو الذي كان الأكثر خوفاً لدى رؤية الطفلة تقفز من السرير. أحاط به الحواريون وراحوا يرقصون، فقد خرجت غبطتهم عن السيطرة؛ كانوا على حق في ترك كل شيء من أجل السير معه؛ ليس هذا دجالاً، إنه يجترح المعجزات. أخذ توماس ميزاناً روحياً ووزن الأشياء. وضع في كفة بضاعة زهيدة الثمن، ووضع في الأخرى مملكة السماوات، تذبذت الكفتان لحظة ثم وقفتا. كانت مملكة السماوات أثقل، كان هذا أمراً هاماً، أعطي خمسا، أربح ألفاً، إذن إلى الأمام، بحق السماء!

اقترب من المعلم:

يا حاخام، قال، إن ما يسرك أن أطوف لأوزع بضاعتي على الفقراء. لا تنس، هذا أرجوك، في الغداة، عند مجيء مملكة السماء. سأضحي بكل شيء وآتي معك. فقد رأيت ولمست اليوم الحقيقة.

لكن يسوع كان ما يزال بعيداً، سمع أنما لم يجب.

لن أبقي معي سوى بوقي، قال التاجر السابق لأنفخ به وأجمع الناس. نبيع بضائع جديدة، خالدة، بالمجان!

أخذ قائد المئة ابنته بين ذراعيه ودنا من يسوع، وقال:

يا رجل الله، لقد أحييت ابنتي. بماذا أقدر أن أكافئك؟

حررت ابنتك من ربقة الشيطان، أجاب يسوع؛ وأنت، يا قائد المئة، حرر العصاة من قيود روما.

طأطأ روفوس رأسه، وتنهد تمتم مكتئباً:

لا أستطيع. فعلاً ليس لي هذا. لقد قدمت قسماً للأمبراطور الروماني، كما أقسمت أنت لله أن تمجده. أمن العدل والسلوك الحسن أن نحنث بقسمنا؟ اطلب أي شيء آخر. أنا ذاهب بعد غد إلى القدس وأريد أن أبهجك قبل أن أسافر.

يا قائد المئة أردف يسوع، سنلتقي يوماً في أوقات كأداء، في دار السلام المقدس. آنئذ سأسألك شيئاً ما. اصبر حتى تأزف تلك الساعات.

وضع يده على شعر الطفلة الأشقر، لبرهة طويلة، أغمض عينيه وشعر بحرارة الرأس، بنعومة الشعر، وانس المرأة.

ــ ابنتي، قال وهو يفتح عينيه. لا تنسي ما سأقوله لك. خذي أباك بيدك وقوديه إلى الطريق الصحيح.

ـ ما هو السبيل القويم، يا رجل، سألت الطفلة.

ـ المحبة

أصدر قائد المئة الأوامر، حضر الطعام والشراب، نصبت الموائد

أدعوك، قال ليسوع ولحوارييه. ستطعمون وتشربون هذا المساء في هذا البيت. سأحتفل ببعث ابنتي. منذ أعوام لم تعرف روحي السرور؛ اليوم قلبي يطفح سعادة. أهلاً بكم وسهلاً!

دنا من يسوع، وقال:

إني أقدم جزيل الشكر للإله الذي تمجده. أعطني إياه،

سأراه في روما مع الآلهة الآخرين.

سيأتي من تلقاء ذاته، أجاب يسوع، وخرج إلى الدار ليتنسم النسيم.

أرسل الليل عتمته، بدأت النجوم تسطع في السماء، وفي البيت، في القرية الصغيرة، أضيأت المصابيح أيضاً ولمعت بصائر الناس.

في هذا المساء دارت النقاشات اليومية ـ حس الناس أن الله، كأسد مرحب به، دخل قريتهم.

نصبت الموائد؛ قعد يسوع بين حوارييه ووزع الخبز، دونما كلمة. وروحه، القلقة، تخفق بجناحيها كما لو أنها زاغت من خطر داهم أو كمن حقق انتصاراً غير منتظر. حوله تلامذته صامتون أيضاً، لكن قلبهم كان يخفق فرحاً. كل هذا، نهاية العالم ومملكة السماوات ما كان إذن أحلاماً أو انفعالات، هذه هي الحقيقة. والرجل الشاب الأسمر، بقدميه الحافيتين، الذي كان إلى جانبهم، الذي كان يأكل، يحكي، يضحك، ينام ككل الرجال، كان بالفعل أحد رسل الله!

ما أن انتهى الطعام، وأوى الناس إلى النوم، حتى سجد متى تحت المصباح، أخرج من قميصه دفتره البكر، أخذ القلم من وراء أذنه، انحنى فوق الورقة البيضاء وبقي يتأمل مدة غير قصيرة. كيف، من أين أبدأ؟ الله وضعه إلى جانب هذا الرجل المقدس ليسجل بأمانة الكلام الذي يدلي به والعجائب التي

يجترحها لكي لا تضيع، لكي تطلع عليها الأجيال القادمة وتنخرط في درب الفداء. كانت هذه بالتأكيد الرسالة التي أسندها اللّٰه أليه. كان مثقفاً، وعليه أن ينهض إذن بمسؤولية وازنة.

إن كل ما يمكن أن يضيع، عليه أن يجمعه ويسجله في الورق، ليجعله آبداً. ربما مقته التلامذة ورغبوا عن الكلام معه، لأنه كان عشارا[1]؛ هو الذي سيدلهم الآن أن الخاطئ الذي يندم خير من الرجل الذي لا يخطئ أبداً.

غمس قلمه في المحبرة البرونزية؛ سمع حفيف أجنحة إلى يمينه، كان ملاكاً اقترب من أذنه ليملي عليه، وبدأ هو الكتابة بيد واثقة وسريعة:

" أرومة يسوع ـ المسيح، ابن داود، ابن ابرهيم. ابراهام أنجب..."

كتب، كتب حتى بان في الشرق ضوء باهر وسمع صياح أول ديك. ذهبوا. تقدم توما الركب مع بوقه؛ نفخ فيه وأيقظ الضيعة، منادياً: إلى اللقاء، سنلتقي في مملكة السماوات. أتى وراءه يسوع وهواريوه مع رهط لابسي الأسمال والمقعدين الذين يرافقونه أبداً، البعض من الناصرة، وآخرون من قانا، والذين ينتظرون. هذا ليس ممكناً، فكروا، سيأتي اليوم المبارك

---

1 ـ جابي الضرائب عند الرومان.

حينما التفت نحونا لينقذنا من الجوع ومن المرض. في ذلك اليوم تخلف يهوذا. لقد وجد خرجا فضفاضاً. وقف في الأبواب، توجه إلى ربات البيوت وخاطبهن، ملتمساً ومهدداً معاً:

نحن، نعمل من أجلكم، لتخلصوا، أيها التعساء. ساعدونا من جهتكم لكي لا تموتوا ونموت معكم جوعاً، القديسون بحاجة هم أيضاً للغذاء والقوة لكي ينقذوا الناس. قطعة خبز، قبضة من حب الزيتون، شقفة جبن، عنقود عنب جاف، زبيب، بلح، أي شيء، يقيده الله، ويعوضه في دنيا الخلد، تعطون حبة زيتون ويردها لكم كرم زيتون.

وإن ترددت ربة البيت بفتح قبو المؤونة، ربما انفتحت السماء في هذا المساء، والتهمت النار كل الأرزاق ولا يبقى لكم سوى ما أعطيتموه. وإن نجوتم، فذاك لقاء كسرة الخبز، الزيتون وزجاجة زيت وهبتموها لي زكاة، أيها التعساء!

خافت النساء، فتحن الإهراءات وقبل أن يصل يهوذا إلى طرف الضيعة، امتلأ خرجه بالحسنات.

لقد بدأ الشتاء، تعرى الكثير من الشجر، فيما أشجار الزيتون والبلح، والصنوبر تبقى، صيفاً شتاء... تحافظ على بهائها. والناس، عندما كانوا فقراء، بردوا كما الشجرات العاريات. وضع يوحنا معطفه الصوفي على كتفي يسوع وهو الآن يرتجف وقد سارع إلى كفر ناحوم ليفتح خزنة أمه. فقد حاكت الحاجة سلومي الكثير في حياتها؛ كان قلبها شهماً،

كانـت تعطـي. كانـت تـوزع الألبـسة الـشتوية علـى الحـواريين المـرافقين؛ فيمـا العجـوز البخيـل زوجهـا زيبيـدي تـبرم كـثيراً، وكانت هي التي بأصرارها ولطفها، تحكم البيت.

وفيليب هو الآخر مستعجلاً. كان مشغولاً بكفر ناحوم، بصديقه الصدوق ناثانائيل، حادباً كل النهار بإعادة خياطة وتصليح الصنادل والبوابيج؛ هكذا ضاعت حياته ولم يتيسر له أن يحظى بالوقت ليصعد بفكره إلى الله، أن يسند سلم يعقوب هـو الآخـر إلى الـسماء ويـصعد! متـى أصـل، تـساءل فيليـب، لأكشف له السر الأعظم، لينجو هو أيضاً، البائس!

أخذوا دربا ملتفاً تاركين طبريا إلى يسارهم، المدينـة الـتي يكرهها الله، مع اللعين حاكم الربع الـذي قتل المعمداني. دنـا متـى مـن بطـرس ليـسأله مـاذا يـذكر مـن الأردن والمعموديـة ليقيدها بالتفصيل، لكن بطرس تراجع وحول رأسه لكي لا يتنشق ريح العشار. لقد عاقبه متّى. طوى تحت ذراعه الـدفتر الممزق وبقي في الخلف. وجد بغالين ممن يأتون غالباً إلى طبريا وسألهما كيف حدث اغتيال الكافر ليسجله في دفتره. أصحيح أن رئيس الربع كان ثملاً وأن كنته سالومي رقصت عارية أمامه؟ ..... رغب متى أن يعرف كل شيء بالدقة والتفصيل ليخلده تدويناً.

على هذا وصلوا إلى البئر الكبير القائم عند أبواب مجدلا Magdala. كانت الشمس قد شحبت، واكتسى وجه الأرض

بالضباب. خيوط المطر السوداء لم تعلق بالهواء بل جمعت بين الأرض والسماء. رفعت المجدلية نظرها إلى المنبر ورأت السماء تعتم ـ أزف فصل الشتاء، تمتمت، يجب العمل بسرعة! أدارت المغزل بقوة وراحت بكل عجلة تغزل الصوف الفاخر الذي عثرت عليه، لتحيك لباساً شتوياً للحبيب لوقايته من البرد. من حين إلى آخر كانت تتأمل رمانه الباحة الغاصة بالثمار. تصونها المجدلية ولا تقطفها، تدخرها كلها ليسوع، الله رحوم، قالت، ـ في يوم سيمر الحبيب مجدداً في حارتنا، آنئذ ستملأ ذراعيه بالرمان وستضعها عند قدميه. سينحني، يأخذ منها واحدة ويرطب بلعومه. كانت تغزل، تتملى الرمانة وتكدس في ذاكرتها كل حياتها. كانت تبدأ وتنتهي مع يسوع، ابن مريم، أي مرارات، أي مسرات! لماذا تركها؟ في الليل الفائت، فتح بابها كلص وذهب. إلى أين ذهب؟ هل سيصارع الظلال أيضاً؟ عوضاً عن حفر الأرض، العمل في الغابة أو الصيد في البحر، والزواج من امرأة، هي أيضاً خليقة الله، لينام معها. آه! لو استطاع في يوم أن يمر ثانية في مجدلا، ستسارع بمريولها المليء بالرمان لترطبه!

وهي تمرر كل هذا في ذهنها، وتدير المغزل بيد ماهرة وسريعة، أتاها من الشارع الصراخ ووطء أقدام. ونفخ بوق ـ أليس هو بوق توماس، الأعمى، البائع الجوال؟ وسمعت صوتاً ضعيفاً:

افتحوا، افتحوا أبوابكم؛ مملكة السماوات وصلت!

نهضت المجدلية فجأة، انتفض صدرها. هو هنا! هو هنا! دبت في جسدها كله رجفات حارة وباردة. خرجت من دون منديل، شعرها منسدل على كتفيها، اجتازت الباحة، طلت من الباب ورأت السيد. زفرت صرخت فرحة ووقعت على قدميه: يا معلم، يا معلم، هدهدت، أهلاً وسهلاً. نسيت الرمان ووعدها، عانقت الركبتين الطاهرتين، وساح شعرها الأسود ببريقه الأزرق على الأرض. كان العطر السابق المضمخ على بدنها ينشر أريجه، عطور لعينة.

معلم... معلم، أهلاً وسهلاً، هدلت، وأخذته بتؤدة إلى دارها.

انحنى يسوع، أخذ يدها ورفعها، ضمها بدهشة ووجل، كخطيب غر عديم الخبرة يحتضن عروسه الشابة. لم تكن المجدلية التي انحنى ليرفعها من الأرض، كانت روح الإنسان وهو خطيبها. وارتعشت المجدلية، احمرت كلها وانساب شعرها على صدرها ليستره. رآها كل الناس. كم كانت منهكة وشاحبة؛ دوائر بنفسجية حول عينيها وفمها الذابل كزهرة طال عطشها. في أثناء المشي، يده بيدها، تخيل أنه يحلم، أنهما يسيران فوق الأرض، إنهما يحومان في الفضاء ويتقدمان. أكان هذا عرساً، أكان الموكب هو أصحاب الأسمال الذين يملأون الدرب ويتبعونهما؟ وشجرة الرمان التي بدت في الباحة، الغاصة

بالثمار، أكانت روحاً ملائمة، إلهة البيت أم امرأة سحرتها البهجة وقد أنجبت بنينا وبنات وهي الآن في وسط الباحة يتأملها المحتفون؟

مجدلية، يقول يسوع برقة، مغفورة لك خطاياك، لأنك كثيرا أحببت.

دنت تملؤها الغبطة والحبور؛ تود أن تقول: أنا عذراء! لكن السرور لم يمكنها من فتح فمها. ركضت، سلبت الرمانة، ملأت مريولها، كومت الثمار الحمر والغضة عند قدمي الحبيب. وحدث بالضبط ما رغبت وخططت لنفسها: انحنى يسوع، أخذ رمانة، كسرها، ملأ يده بحباتها، ورطب بلعومه؛ ثم انحنى التلاميذ، أخذ كل منهم رمانة ورطبوا حلوفهم. مجدلية، قال يسوع، لم تنظرين لي قلقة؟ كأنك تودعينني؟

أستقبلك وأقول لك وداعاً في كل لحظة، منذ ما ولدت يا حبيبي، أجابت المجدلية، بصوت خفيض لم يسمعه سوى يسوع ويوحنا، اللذين كانا قريبين منها.

سكتت، وبعد برهة من الوقت، قالت:

ـ أنت من يجب أن أحدق إليه، لأن المرأة خلقت من الرجل فلا تستطيع أن تفصل جسدها عنه. أما أنت عليك أن تنظر إلى السماء لأنك رجل والرجل، خلقه الله. دعني إذن أتأملك، يا بني.

قالت هذه الكلمة العظيمة: "يا ابني" بنبرة مهموسة لم

يسمعها حتى يسوع نفسه. لكن ثدي المجدلية انتفخ وتحرك، كأنها ترضع ابنها.

سمعت همهمة بين الناس، وصل مرضى جدد، غصت بهم الباحة.

يا معلم، قال بطرس، الشعب يجمجم؛ إنه مستعجل.

ماذا يريد؟

كلمة تثلج صدره، عجيبة،

التفت يسوع. في الريح العاتية التي تسبق العاصفة، رأى جمعاً من العيون تحدق به بضيق وأفواهاً شبه فاغرة، يملأها الأمل. تقدم عجوز من بين الرهط. كانت أهدابه مشرشرة وعيناه كما الجروح؛ بعنقه الضعيف تعلقت عشر تمائم، تحمل كل منها وصية من الوصايا العشر. وقف في الباب واستند إلى عصاه المتشعبة، وقال:

يا معلم، بصوت متبرم ملأه الغضب، يا معلم، عمري مائة عام، ومنذ ما وعيت علقت برقبتي وصايا اللّه العشر؛ لم أهمل أو أسقط أياً منها. في كل عام أذهب إلى القدس، أقدم تيساً ضحية للقديس سبأوت sabaoth، أشعل الشمع، أحرق البخور. في الليل، لا أنام، أرتل الزبور. أراقب أحياناً النجوم، وأحياناً الجبال وأنتظر لا أريد مكافأة أخرى – أنتظر أن ينزل اللّه لأراه... فعلت هذا أعواماً وسنيناً، عبثاً. والآن إحدى رجلي في القبر ولم أره بعد. لم؟ لم؟ عندي الكثير من الشكوى منه،

يا معلم. متى أرى السيد، متى أهدأ؟ مع الكلام، كان غضبه يشتد، يضرب الأرض بعصاه ويزعق. ابتسم يسوع، وأجاب

أيها الشيخ في مرة وجد على الباب الشرقي لمدينة شهيرة، عرش رخامي. جلس في هذا العرش ألف ملك عيونهم اليمنى عمياء، وألف ملك عيونهم اليسرى عمياء سليمة ـ وألف عيونهم وكان الجميع ينتظرون الله أن يظهر ليروه. لكن الجميع نزلوا إلى القبور دون أن يروه. وبعد رحيل الملوك، أتى رجل مسكين، حافي القدمين، جائعاً، وقعد: إلهي، تمتم، لم تستطع عينا الرجل مواجهة الشمس، لأنهما مبهورتان. كيف يتسنى لهم أن يروك مواجهة، يا كلي القدرة؟ يا سيد ارحمني، لطف قدرتك، كف ألقك لأراك أنا المسكين والنحيل! إذن، اصغ، يا ختيار! الله صار كسرة خبز، كوب ماء نمير، لباساً شتوياً، كوخاً، وامرأة أمام الكوخ ترضع طفلاً. وفتح الفقير ذراعيه وابتسم سعادة، وتمتم:

أشكرك يا سيدي يسوع، انحنيت من أجلي، صرت خبزاً، ماء، لباساً شتوياً، امرأتي وابني، لأراك. ورأيتك، سجدت وعبدت وجهك فائق الوصف، وجهك الحبيب!

سكت الناس. تنهد العجوز كجاموس، قدم عصاه وتوارى بين القوم. آنئذ رفع شاب، عريس جديد، قبضته وصرخ:

أنت تمسك كما يبدو النار لتحرق العالم، لتلهب بيوتنا وأولادنا. هذه إذن المحبة التي تدعي أنك تحملها لنا؟ هذه هي

العدالة، هذه هي النار؟

انتفخت أجفان يسوع من البكاء؛ أشفق على العريس. أهذه إذن هي العدالة التي حملها، وهذه هي النار؟ أليس ثمة سبيل آخر للذهاب نحو الفداء.

اشرح بوضوح: ماذا نفعل نحن حتى نخلص؟ صرخ قروي يشق درباً بأكواعه عبر الركب، ليقترب ويسمع الجواب، أذنه ثقيلة ولا يسمع شيئاً.

افتحوا قلوبكم، افتحوا أهراءاتكم، وزعوا أرزاقكم على الفقراء! قال يسوع. أزف يوم السيد المسيح أن من يبخل ويخبئ لآخر أيامه خبزاً، جرة زيت، مسكبه أرض، سيعلق هذا الخبز، هذه الجرة وهذه الأرض بحلقه وتجعله ينزلق إلى أعماق الجحيم.

أذناي تطنان، قال القروي، عندي دوخة. اعذرني، أنا ذاهب!

اتجه خائفاً، نحو بيته الثري. " آنئذ، نقتسم أرزاقنا مع البؤساء! هذه هي العدالة؟ ليأخذها! " يتكلم فقط، يشتم ويمشي.

رآه يسوع يبتعد، فتنهد:

باب جهنم واسع، ومزروع بالزهور. وباب مملكة الله ضيق وطريقها صعب. ما دمنا أحياء نقدر أن نختار، أن تعيش، يعني أن تكون حراً. إنما عند مجيء الموت، يكون وقع القدر، ما

حدث حدث؛ لا سلام ......

إن شئت أن أصدقك، صاح رجل بيديه عكازان، اجترح عجيبة، اشفني، هل سأدخل مملكة السماوات اعرج؟

ـ وأنا مجذوم؟

ـ وانا أكتع؟

ـ وأنا أعمى؟

هجم المعاقون سوية ووقفوا مهددين، أمام يسوع. تشجعوا وجعلوا يصيحون. رفع شيخ أعمى عصاه وزعق:

ـ أوتشفينا، أو لن تخرج حياً من قريتنا هذا المساء!

انتزع بطرس العصا من يد الشيخ، صرخ في وجهه:

ـ بهذه الروح، لن ترى النور، أيها القذر المريب!

اضطرب المقعدون، حلوا القيود، تكهرب التلاميذ أيضاً، قعدوا إلى جانب يسوع. والمجدلية، خائفة، قامت بحركة لازلاج الباب، لكن يسوع منعها، وقال:

ـ مجدلية، أختي، هذا العرق بائس، ليس سوى جسد. العادات، الأخطاء، الشحوم خنقت روحه. أنا أبعد جسدهم، عظامهم، أحشاءهم لأجد روحهم ولم أجدها. آه! النار فقط، أظن، قد تشفيهم!

التفت إلى اللفيف؛ كانت عيناه الآن جافتين، قاسيتين: كما نحرق الحقول قبل البذر، لكي تنمو الحبوب، سيلهب الله الأرض. لا رأفة عنده للأشواك، للزوان وآكلي الأفاعي.

هي ذي العدالة. وداعاً!

استدار إلى توماس: انفخ بوقك، توماس، نحن راحلون! قدم عصاه؛ ارتعش الشعب، ابتعد وتركه يمر، اعتمرت المجدلية منديلها، تركت الصوف شبه مغزول، قدر الفخار على النار، طيور الدار من دون غذاء، رشقت مفتاح البيت في وسط الشارع، ومن دون تردد، سألته، ضاغطة نقابها على جسدها، تبعت ابن مريم.

(23)

عند بدء ظلمة الليل وصلوا كفرناحوم. كانت العاصفة قد مرت فوق رؤوسهم، هبت ريح شمالية ثم زحفت نحو الجنوب

سنذهب جميعاً للنوم في البيت، قال ولدا زيبيدي. بيت واسع، ويضمنا كلنا. سيكون مأوانا.

و الشيخ زيبيدي؟ قال بطرس مازحاً. أظن أنه لا يجود بكأس ماء على ملاكه الحارس. احمر يوحنا.

ثق بالمعلم، قال، هواء تتنفسه يعطيه الخير، سترى.

كان يسوع في المقدمة، لم يسمع الحديث. كانت عيناه غاصتين بصور العميان، المجذومين، المعاقين... آه، لو قدر أن ينفخ على كل روح ويصرخ بها: استيقظي! آنئذ، أن استيقظت، يصير الجسد روحاً ويشفى...

وهم يلجون الحاضرة، أخذ توماس البوق ليطلق النفير؛ لكن يسوع منعه بحركة، وقال:

لا ، أنا تعبان... كان وجهه شاحباً وهالات كبيرة تحيط بعينيه. قرعت المجدلية أول باب، طالبة شربة ماء ليسوع الذي استعاد قوته.

ـ أنا مدين لك بكوب ماء طازج يا مجدلية ، قال لها مداعباً.

تذكر ما قاله للمرأة الأخرى، السامرية ، عند بئر يعقوب. وأضاف:

ها أنا أبدله بكوب ماء أزلي.

منذ وقت مديد وهبتني هذا ، يا معلمي، ردت المجدلية ، التي احمرت خجلاً وإجلالاً.

مروا أمام بيت ناثانائيل الصغير. كان الباب مشرعاً؛ وفي الدار التي صاحبها واقفاً تحت التينة وفي يده حبة منها ، كان منهمكاً بإزالة الأغصان اليابسة. انفصل فيليب في الحال عن الرهط ودخل، وقال:

ناثانائيل، يجب أن أكلمك بأمر ما. قف.

ولج البيت، وأشعل صاحب البيت القنديل.

دع مصابيحك، تيناتك وبيتك، قال له فيليب، لننطلق.

ـ إلى أين؟

ـ إلى أين؟ ألا تعرف؟ هو ذا آخر الدنيا. بين لحظة وأخرى ستشرع أبواب السماء، وتتحول الأرض إلى رماد. هيا ادخل في المركب، لتنجو

ـ أي مركب؟

صدر معلمنا، ابن مريم، ابن داوود، الناصرة. اعتدل كل شيء بعودته من الصحراء؛ حيث رأى اللّه، تحادث الاثنان في الأمر، قررا الدمار وإنقاذ العالم. وضع اللّه يده على رأس معلمنا وقال له: "اذهب واختر الذين سينجون. أنت نوح الآن. خذ أيضاً مفتاح المركب لتفتحه وتسكره"، وأعطاه مفتاحاً ذهبياً. أخذه، علقه في رقبته، لكن عين الإنسان لا تستطيع أن تراه.

ـ أوضح الأمر أنت يا فيليب أنا لن أعود. متى وقعت كل هذه الخوارق؟

ـ هنا، أقول لك، في هذه الأيام، في صحراء الأردن. قتلوا المعمداني ودخلت روحه في كيان معلمنا. لما ستراه، لن تعرفه. لقد تبدل، أمسى مخيفاً، تنبعث شرارات من يديه. وهنا، أخيراً، في قانا، لمس ابنة قائد المائة بالناصرة، التي كانت مشلولة، ودفعة واحدة وثبت على قدميها وراحت ترقص. نعم، بمحبتنا! لا تضيعوا الوقت، هلموا.

تنهد ناثانائيل:

ـ اصغ، فيليب، أنا موافق ومصدق هذا، عندي كثير من الوصايا. انظر كل هذه الصنادل التي علي أن أصنعها. أعمالي رائجة، والآن...

طاف بنظره طويلاً حوله، على هذه الأدوات المفصلة المهيأة، على المنضدة التي كان يجلس عليها ليجدد نعل

الحـذاء، علـى سـكاكينه ومخـارزه، علـى الخيطـان المطليـة بالشمع العسلي، على هـذه القوالـب الخشبية... تنهد مـن جديـد وتمتم:

ـ كيف التخلي عن كل هذا؟

ـ ستجد أدوات من ذهب في الأعلى، لا تتبـارد. ستجدد نعـل الصنادل بذهب الملائكـة، مـا تصلحه سيكون أزليـاً، لا يعـد عمـره. سـتخيط، سـتفتق، لـن تفتقـر للعمـل أبـداً. فقـط أعمـل بسرعة. تعـال قـل للمعلـم: "أنـا معـك! " لا شـيء آخـر: "أنـا معـك وسأتبعك حيثما ذهبت، حتى الموت! هذا هو القسم الذي قدمناه جميعاً"

ـ حتى الموت! قال الإسكافي. ارتعد. كـان جسمه ضخماً كالجمل لكن قلبه صغير وجل.

طمأنه الراعي:

هذه طريقة الكلام، فقط! كلنا أدينا نفس القسم، إنمـا لا تقلق، لسنا ذاهبين إلى الموت، سنذهب إلى التجلي والإشراق. هذا يسوع، يا صديقي، ليس هذا إلا رجلاً عادياً، هـذا هـو ابـن الإنسان، روح الإنسان!

ـ إيه حسناً، أليس هذا ذات الشيء؟

ــ ذات الـشيء؟ ألا تخجـل بهـذا القـول: ملـك! سـيجلس في الحـال في عـرش الكـون ونحـن جميعـاً، الـذين اهتـدينا للـذهاب معه، سنقسم المجد والثروات. وأنت لن تمشي عاري القدمين بل

ستنتعل صندلاً من ذهب وسينحني الملائكة لربط شريط حذائك. أقول أن هذا عمل عظيم، يا ناثانائيل، لا تدعه يهرب من بين أصابعك. يكفي أن تقول أن توماس انضم إلينا. لقد شم رائحة العمل الخير، الداهية، فوزع كل ما يملك على الفقراء وأسرع. والآن سارع أنت أيضاً، يسوع الآن في بيت الشيخ زيبيدي. هلموا إليه.

لكن ناثانائيل بقي مرتاباً.

ـ أجب عني، يا فيليب، قال بعد لأي. لكن إذا تبين لي أن سلوكي خطأ، أبادر اليكم، ارتحل. كل ما تريد أما أنا لن أصلب.

حسناً، حسناً، يقول فيليب، سنذهب سوية. ماذا تظن؟ أنا لست مجنوناً. حسناً. هيا بنا.

إذن، على هدى الله! أقفل بابه، ازلق المفتاح في جيبه وذهب الاثنان، يداً بيد، نحو بيت الشيخ زيبيدي.

كان يسوع وحواريوه جالسين أمام مدفأة الشيخ زيبيدي يستدفئون. كانت العجوز سالومي تذهب وتؤوب، مشرقة سعيدة. توارت كل أوجاعها، هيأت المائدة، لم تشبع من الإعجاب وتأمل أبنائها وخدمة الرجل الطهور الذي أتى بمملكة السماوات. دنا منها يوحنا، تكلم بصوت واطيء في أذن أمه مشيراً بنظره إلى التلامذة الذين يرتعشون، لابسين أيضاً لباس الصيف الكتاني. ابتسمت الأم، ولجت غرفة أخرى، فتحت

الخزانـة، أخـذت منهـا ألبـسة صـوفية بـسرعة، قبـل أن يـؤوب زوجها، وزعتها على المرافقين. والمعطف الأسمك، من الصوف الأبيض، رمته بهدوء على كتفي يسوع. التفت وابتسم،و قال لها:

مباركة أنت، صحيح وجيد الاهتمام بالجسد والعناية به. فهو الجمل الذي تمتطيه الروح لتجتاز الصحراء. اهتموا به إذن جيداً ليقوم بدوره.

ولج الشيخ زيبيدي، رأى الضيوف غير المنتظرين، حيّ من طرف شفتيه واقتعد زاوية. لم يرضه أبداً هؤلاء الأنصار، كما سماهم؛ من دعاهم ليقيموا في بيتي؟ أما امرأته هذه السلة المثقوبة فقد أعدت لهم احتفالاً ملوكياً! ملعونة ساعة ظهور هذا الإشراق الجديد. لم يكتف بانتزاع ولديه بل كان سبب هذا الشجار المستمر مع زوجته البلهاء. وقفت إلى جانب ابنيها؛ إنهم محقون، قالت، هذا ابني الفعلي الحقيقي، سيكون ملكاً، سيطرد الرومان ويجلس في عرش إسرائيل. آنئذ سيقعد يوحنا في يمينه وفي يساره جاك، سيكونان حواريين كبيرين ليس صيادان وملاحان، بل رسولين عظيمين. هل يجب أن يعفنا روحيهما هنا، في الماء؟ هذا وأشياء أخرى ما تردده له هذه الحمقاء صبحاً ومساء مع صراخ ودق الأرض بالرجلين. وأحياناً يقسم ويحطم كل ما يقع تحت يده وأحياناً يغادر مرهق الروح ويجول حول ضفتي البحيرة كالمجنون. وفي هذه الأيام بدأ

يشرب. لذا وافاه هذا المساء كل هؤلاء المتآمرين. تسع معدات واسعة تواكب وتلتف حول هذه المومس صاحبة الألف عشيق. كانوا قاعدين حول المائدة دون أن يولوا صاحب البيت أي انتباه أو يسألونه أن كان موافقاً. إلى هنا وصل! فمن أجل هؤلاء المستغلين عمل هو وذووه عشرات السنين! استبد به الغضب، فوثب على قدميه:

قولوا شيئاً، يا جبابرتي، هذا البيت لمن، لي أم لكم؟ اثنان + اثنان = أربعة. ردوا!

ـ هو اللّه، أجاب بطرس، الذي أفرغ كثيراً من الكؤوس وسبح في الفرات. هو للّه؟ ليس لك وليس لي، كل شيء للّه!

إن شريعة موسى... بدأ زيبيدي، لكن بطرس قطع عليه انطلاقته:

ماذا أسمع؟ شريعة موسى؟ لم تعد قائمة، فاعلة، شيخ زيبيدي، أرسلت تنتزه. الآن شريعة ابن الإنسان هي المتبعة، أتفهم؟ جميعنا أخوة. قلبنا كبر والشريعة كبرت معه. هي تخص كل الناس. الأرض كلها وأرض الميعاد! ألغيت الحدود. كما تراني، شيخ زيبيدي، أنقل كلمة اللّه إلى الأمم. سأصل إلى روما، نعم، لا تهزأ، سألتقط الإمبراطور من عنقه، سأرميه أرضاً وسأجلس في عرشِه. ماذا تظن؟ المعلم هو من قال: لم نعد صيادين نصطاد سمكاً، كسيادتك، نحن صيادون وبشر. ونصيحة طيبة: ندبر وضعنا، يجلب لنا الأكل والشرب. لأننا

سنصير يوماً رسلاً كباراً. لن يتأخر هذا. تعطينا كسرة خبز وفي الحال تتلقى فرناً غاصاً بالخبز. وأي خبز! خبز أزلي. لك أن تأكل، وتأكل ما شئت، دون أن ترى النهاية.

- أراك مصلوباً رأسك إلى أسفل، يا بائس، غمغم زيبيدي، أن كلام بطرس يخيف شيئاً فشيئاً. التفت ملتوياً في زاويته. " لا فضل الأغلاق، قال لنفسه، لا أحد يعرف ماذا يحدث، العالم كرة تدور؛ ربما انذهلنا يوماً... ندبر لنفسنا بابا للمساعدة. يجب أن لا نهفوا!"

كان التلاميذ يضحكون في عبهم. كانوا يعرفون أن بطرس طيب ويمزح، إنما في أعماقهم، بالسر، يقلبون ذات الأفكار. فقط ما كانوا بعد قد سكروا تماماً ليعترفوا بها. عناوين نبيلة، أشراف، ثياب حريرية، قطع ذهبية، وجبات طعام وفيرة، هذه هي مملكة السماوات الأحساس أن العالم تحت الحذاء اليهودي.

شرب الشيخ زيبيدي كأساً آخر، واستعاد شجاعته، وقال:

- وأنت يا معلم، لن تفك تصريف أسنانك، لكي لا تقول شيئاً؟ تشعل النار وبعدئذ تسترطب سيادتك بماء جار. إنما قل لي، باسم السماء، أممكن أن أرى أرزاقي توزع دون أن أرسل صراخاً عالياً؟

- شيخ زيبيدي، أجاب يسوع، في غابر الأيام عاش رجل

ثري؛ يحصد، يقطف العنب، الزيتون، ثم، بعد أن ملأ جراره زيتاً، تمدد في باحة الدار وقال: "يا روحي، عندك خيرات ضافية، كلي، اشربي، افرحي!"

لم يكد يلفظ هذه الكلمات حتى سمع صوتاً من أعالي السماء: يا طائش، يا أرعن، في هذا المساء تسلم روحك إلى الجحيم؛ ماذا ستفعل بهذه الأرزاق التي كدستها؟" شيخ زيبيدي، لك أذنان لتسمع ما قلت لك، ولك عقل لتفهم ما أود أن أقوله لك. سيبقى هذا الصوت السماوي فوق رأسك في الليل والنهار، شيخ زيبيدي.

طأطأ الشيخ المالك رأسه وسكت.

في هذه اللحظة فتح الباب وظهر في العتبة فيليب يتبعه شخص طويل نحيف، ناثانائيل. يكاد يلفظ أنفاسه، أخذ قراره. دنا من يسوع، انحنى وقبل قدميه. "معلمي، قال أنا معك حتى الموت."

وضع يسوع يده على الرأس الضخم البقري بشعره الجعد، وقال:

أهلاً بك، ناثانائيل، أنت الذي تصنع الصنادل للآخرين وتمشي حافي القدمين. أنا أحب هذا. تعال معي." أجلس ناثانائيل على يمينه وأعطاه قطعة خبز وكأس خمر.

كل هذه اللقمة، اشرب هذا الخمر وتصير منا.

تناول ناثانائيل الخبز وشرب الخمر فأحس في الحال

برجفـة ﻓﻲ عظامـه وﻓﻲ روحـه. تـسرب الخمـر إلى عروقـه ولـون أفكاره.صار الخمر، الخبز، الروح شيئاً واحداً.

كان على فحم متقد. كان يريد أن يتكلم، لكنه كان خائفاً.

تكلم ناثانائيل، قال له المعلم، افتح قلبك لتبعد كربك.

ـ يا معلم، أجاب الآخر، أود أن أقول لك، لتعرف، أنا فقير منذ ولدت، أعيش بعرقي، يوماً بيوم. لم يتسن لي أبداً أن أدرس الشريعة. أنا أعمى، يا معلم، استحق المعذرة. قلت ما ﻓﻲ نفسي وارتحت.

بحركة مداعبة، لمس يسوع لمساً رقيقاً ظهر المدعو الجديد. وابتسم.

ـ ناثانائيل، قال، لا تتنهد. طريقان يوصلان إلى اللّه. الأول طريق الروح، والآخر سبيل القلب. اصغ إلى القصة التي سأقصها:

كان ثمة فقير وغني وعربيد ماتوا ﻓﻲ يوم واحد ﻓﻲ ساعة واحدة ومثلوا أمام محكمة اللّه. عقد اللّه حاجبيه وسأل الفقير

لم لم تدرس الشريعة طيلة حياتك؟

ـ سيدي يسوع، أجاب هذا، كنت فقيراً، جعت، عملت ليل نهار لأغذي امرأتي وأولادي. لكن الوقت لم يكف.

أكنت أفقر من خادمي الأمين هلال Hilel قال اللّه، غاضباً.

لم يكن معه رسم الانضمام إلى الكنيس ويصغي إلى تفسير الشريعة. آنئذ تسلق إلى السطح، وعلى لحم بطنه، كان يسمع من النافذة. لكن الثلج بدأ يهطل، لم يبال، كان مأخوذاً بما يسمع. في صباح الغد، لما دخل الحاخام إلى الكنيس، وجده غارقاً في العتمة. رفع العينين ورأى عبر النافذة، رجلاً نائماً. وثب إلى السطح، نبش الثلج، ورفع هلال؛ أخذه بين ذراعيه، نزل به، أوقد النار وأعاد له وعيه. منذئذ سمح له بالدخول من دون رسم. وصار هلال حاخاماً شهيراً، ذائع الصيت. ماذا؟ رددت على هذا؟

ـ لا شيء، سيدي يسوع، تمتم الفقير، وراح يبكي. التفت الله إلى الغني:

وسيادتك؟ لمَ لمْ تدرس الشريعة يوم كانت سارية المفعول؟

كنت ثرياً كبيراً، عندي حدائق عديدة، وخدمي غفير، همومي مكدسة أيضاً. أين أجد الوقت؟

قاطعه الله:

ـ هل كنت أغنى من أليعازر، ابن هارسون Harson، الذي ورثه أبوه ألف قرية وألف مركب؟ والذي ترك كل شيء ليذهب إلى حيث وجد حكيماً يفسر له الشريعة ماذا أجبت على هذا؟

ـ لا شيء يا سيدي، تمتم الغني بدوره، الذي أخذ يبكي أيضاً.

التفت الله إلى الفاجر:

ـ وأنت، أيها الشاب الوسيم، لمَ لمْ تدرس الشريعة.

ـ أنا كنت في غاية الجمال، النساء عاريات يرتمين عليّ، كنت موجوداً في كل الأعياد والمناسبات، فأين تجد الوقت لتهتم بالشريعة؟

أكنت أجمل من يوسف، الذي أحب زوجة بونفار putiphar والذي كان عنده جميع ما يخوله أن يقول للشمس: شعي، يا شمس، لأشعشع؟ والذي، كلما استعرض نص الشريعة، يرى الحروف تنفتح كما الأبواب ويتضح معنى الرموز، يرتدي النور والنار؟ ماذا أجبت على هذا؟

لا شيء، يا سيدي، تمتم العربيد بدوره، وانخرط بالبكاء.

صفق الله بيديه، دعا إلى الجنة هلال، أليعازر وجوزيف، وصلوا. قال لهم الله: حاكموا هؤلاء الناس الذين، بسبب فقرهم، غناهم أو جمالهم لم يدرسوا الشريعة. تكلم يا هلال؛ حاكم الفقير!

سيدي، أجاب هلال، كيف لي أن أحاكمهم؟ أنا أعرف ما هو الفقر، أعرف ما هو الجوع. أسامحه؟ وأنت، أليعازر؟ قال الله. إليك هذا الغني، أتركه لك!

سيدي، رد أليعازر، كيف لي أن أدينه؟ أنا أعرف ما معنى أن تكون غنياً. أسامحه!

ويا يوسف، بدورك. دنِ الشاب العيوق

سيدي، كيف أقدر أن أدينه؟ أنا أعرف أي صراع، أي عذاب رهيب هو الانتصار على جمال جسده. أسامحه!

سكت يسوع، ابتسم ونظر إلى ناثانائيل. وسأل هذا الأخير قلقاً:

وآنئذ؟ ماذا فعل اللّه؟

وما يمكن أن تفعل أنت ذاتك، أجاب يسوع وابتسم. وضحك الإسكافي الصادق أيضاً.

حسناً، إذن نجوت!

أخذ يدي يسوع وشد عليهما بإصرار ومودة، وصرخ:

ـ معلمي، فهمت. قلت إن دربين يؤديان إلى مجد اللّه، درب الروح الفكر ودرب القلب. سلكت أنا درب القلب ووجدتك!

نهض يسوع، دنا من الباب. هبت ريح عاتية، ضجت البحيرة وهدرت، في السماء النجوم، كشاطئ رملي واسع. تذكر الصحراء وارتعش. أغلق الباب: ـ الليل هدية عظيمة من اللّه. هو أم الإنسان. اقتربت بهدوء غطته. ثنت يدها الرقيقة على جبينه وأزالت عن روحه وجسده أتعاب النهار أزف الوقت أن تنسحب من ذراعيه.

سمعت العجوز سالومي، فنهضت. ونهضت المجدلية من قرب وجاق النار حيث كانت تصغي، محنية الظهر، سعيدة، لصوت الحبيب. بسطت المرأتان الشراشف وجلبتا الأغطية،

خرج جاك إلى الباحة وجلب كدسة من حطب الزيتون ووضعها في الكانون. وقف يسوع في وسط الغرفة، اتجه إلى القدس، رفع يديه. وبصوت رصين، تلا صلاة الليل:

" افتح لنا بابك، يا سيدي يسوع. النهار في آخره، الشمس توارت. نحن أمام بابك، الأبدي، نرجوك، سامحنا؛ نرجوك، ارحمنا، أنقذنا!"

وأرسل لنا أحلاماً حلوة، يا سيد، قال بطرس. إني أرى في منامي قاربي أخضر جديداً فجأة، مع شراع أحمر! شرب، فرح

نام يسوع في الوسط حوله حواريوه؛ هكذا شغلوا كل البيت، لذا أوى العجوزان زيبيدي وسالومي إلى ملحق بالبيت، اصطحبتهما المجدلية.

غمغم الشيخ، فقد راحته، التفت مغتاظاً، إلى امرأته وقال بصوت عال، لتسمع المجدلية:

يا للوقاحة! ابتعدي لا تمدد مكانك! كيف لنا أن ننحشر!

لكن العجوز استدارت نحو الجدار ولم تجب

بقي متى في هذا الليل يقظاً. قعد تحت النواصة، أخرج من قميصه المفكرة التي بدأها وراح يكتب كيف دخل يسوع إلى كفر ناحوم، كيف أتت المجدلية معهم وكيف قال المعلم المثل: في زمن ما عاش رجل غني ..... انتهى من الكتابة، أطفأ المصباح وتمدد بدروه لينام.

ترك شيئاً من المساحة، لأن تلامذته لم يعتادوا بعد عليه.

لم يتسع الوقت لبطرس أن يغمض عينيه ولكنه نام. وسرعان ما نزل ملاك من السماء، فتح له بهدوء صدغيه وزلق له حلماً.

خيل له أن رهطاً من الناس حول البحيرة، كان المعلم هنا ورأى مركباً أخضر بشراع أحمر، جديداً يختال فوق الماء. في الوراء، رسوم على مؤخرة السفينة، تعبر عن سمكة ضخمة، تشبه السمكة التي نقشها بطرس على صدره. سأل يسوع:

ـ لمن هذا المركب الجميل.

ـ لي. رد بطرس بأبهة.

ـ اذهب يا بطرس، هات الرفاق الآخرين، انزلوا إلى الماء، لأصفق لشجاعتكم!

ـــ بسرور، معلمي، أردف بطرس. مدّ الحبال، وثب التلامذة الآخرون إلى المركب، تحركت ريح هادئة، نشرت الشراع، بلغوا عرض الماء وهم يغنون.

إنما هبت زوبعة فجأة؛ اضطرب القارب، صر هيكله، كاد يتحطم؛ بدأ يبتلع الماء من كل صوب ويغرق. تعلق التلامذة بالسطح، وراحوا يجأرون. تشبث بطرس بالسارية وصرخ: يا معلم، يا معلم، إلى المساعدة! آنئذ في وسط الظلمات المبهمة رأى المعلم، يلفه ثوب أبيض ناصع، يمشي فوق الأمواج ويتجه نحوهم. رفع الحواريون الرأس، رأوه وراحوا ينادون، مذعورين: ـ شبح! شبح! ـ لا تخافوا، ناداهم يسوع، هذا أنا، وأجابه

بطرس: ـ سيدي يسوع، إن كنا أمامك فعلاً، أعطني أمراً أن أمشي أنا فوق الأمواج وآتي إليك. تعال! أمر يسوع. قفز بطرس من المركب إلى الأمواج، واستعد للمشي. لكنه رأى البحيرة تنخفض، فقطع الخوف ساقيه، وراح يغرق. فصرخ:

ـ سيدي، أنقذني، أنا أغرق! مد له يسوع يده ورفعه: يا قليل الإيمان، لم خفت؟ ألا تثق بي إذن؟ أنظر! مد يده فوق الأمواج وقال: " اهدئي! "انحسرت الريح في الحال، هدأ الماء وانخرط بطرس بنحيب مر، هذه المرة أيضاً وضعت روحه أمام الامتحان وغطاه الخجل. دفع صرخة حادة واستيقظ. كانت لحيته غارقة بالدموع. جلس على شرشفه، أسند ظهره إلى الجدار وتنهد. ومتى الذي لم يجد بعد سبيلاً للنوم، سمعه، سأله:

لماذا تنهدت يا بطرس؟

خلال لحظة قرر بطرس أن يصم أذنه وأن لا يرد. ما كان يود الحديث مع العشارين. لكن الحلم أكرهه، يجب أن يتخلص من هذا ليفرج كربه. جر نفسه إلى قرب متى وبدأ يقص عليه، وكلما استرسل، نمق كلامه أكثر. كان متى يصغي له بشراهة، مقيداً في رأسه أكثر فأكثر. في الغد، في بدء النهار سجل كل شيء على الورق.

أتم بطرس قصته، لكن قلبه كان يترنح في صدره، كما المركب في حلمه. فجأة انتفض مضطرباً.

أمـن الممكـن أن يـأتي المعلـم فعـلاً في الليـل يبحـث عـني ويجعلنا ننزل إلى عرض الماء، ليختبرني؟ في حياتي، لم أر البحر أكثـر حيويـة، المركـب أكثـر واقعيـة، لم يعجمـني الخـوف أكثر وضوحاً. ألم يكن هذا حلماً؟ ماذا ترى، أنت، يا متى؟

بالتأكيـد مـا جـرى لـك لـيس حلمـاً. هـذه العجيبـة وقعـت فعلاً، أجاب متى، وبدأ يحرض رأسه ليعرف كيف سيسرد ما جرى غداً على الورق. الأمر في غاية الصعوبة، لأنه غير متأكد من أن ما رآه حلماً، وغير متأكد أيضاً أن هذا هو الواقع. كان الاثنان معاً. هذه العجيبة وقعت، إنما ليس على الأرض ولا فوق هذا البحر. في مكان آخر. فقط، أين؟ أغمض عينيه ليفكر ويجد جواباً. لكن النعاس تملكه، فنام.

وفي الغد نشبت عاصفة شديدة دامت طيلة النهار. لم يصل الصيادون إلى عـرض المـاء؛ أووا إلى أكـواخهم، بـدأوا بإصـلاح شباكهم وبالحديث عن الزائر الغريب الذي سكن عند الشيخ زيبيدي.

إنه، كما يبدو، المعمداني وقد بعث. فمنذ أن حز الجلاد الرأس، انحنى، التقطه، لصقه على رقبتـه وسـلم سـاقيه للـريح. ولكـي لا يوقفـه هـيرودت ويقطـع الـرأس ثانيـة ذهـب ودخـل في جسد ابـن النجـار الناصـري وصـارا واحـداً، كمـا يبـدو. يجـب رؤيته: محزوز الرأس. هل هو واحد، اثنان؟ ظلت الروح ممتزجة. إن نظر إليـه وجهـاً لوجـه، هـو رجـل عـادي ويبـسم لـك؛ إن حـرك

قليلاً، صارت إحدى عينيه وحشية وبدت راغبة بافتراسك؛ والأخرى تشجعك على الاقتراب. تقترب، يغير الرأس منحاه، لا أحد يعرف ماذا حدث، يغادر بيته وأولاده ويتبعه صياد مسن كان يصغي هز رأسه:

هذا ما يحدث مع أولئك الذين لا يتزوجون ويودون إنقاذ العالم بأي ثمن. النطفة تصعد إلى رأسهم وتنقر الدماغ. تزوج، ابتهج، أنقل قوتك إلى زوجتك، تهدأ!

منذ الفجر حتى النجر ـ علم الشيخ جوناس الخبر ـ انتظر في بيته المتواضع. ليس هذا ممكناً، أن يأتي أبنائي ليروا إن كنت ما أزال حياً. انتظر طوال الليل ثم، كما رأى ما كان، انتعل حذاءه الرئاسي العالي، الذي أوصى عليه في أيام زواجه والذي كان يلبسه في المناسبات الهامة، تدثر بثوب سمل من النسيج المشمع وذهب تحت صبيب المطر نحو بيت صديقه زيبيدي. وجد الباب مفتوحاً، دخل.

كانت المدفأة عامرة ناراً، تجمع حولها لفيف من الناس، صالبوا أرجلهم، بوجود امرأتين. عرف أحداهن. كانت العجوز سالومي. كانت الأخرى شابة، رآها في مكان ما، إنما لا يتذكر أين. كان البيت في الظل. على ضوء اللهب، عرف ولديه، بطرس وأندريه، لما التفتا للحظة فاستضاء محياهما. لكن أحداً لم يلحظ دخوله، لم يلتفت إليه أحد. العنق ممدود، باندهاش، كانوا يصغون جميعاً إلى رجل متجه اليهم يكلمهم.

ماذا يقول لهم؟ فتح الشيخ جوناس أذنه وفتح فمه، ليصغي. من حين إلى آخر كان يلتقط كلمة: عدالة، الله، مملكة السماوات. دوما ذات الشيء، لقد سمع هذا كثيراً! بدل إعطاء الوسيلة لالتقاط السمكة، لإصلاح الشراع، لإعداد المركب أو تدبير لإبعاد البرد، والبلل، والجوع، كانوا هنا يتحدثون عن السماء. أنا أرى، أنكم تفعلون خيراً لو تكلمتم قليلاً عن الأرض والبحر. سعل السيد جوناس. سعل ليسمعوه وينتبهوا إليه. لم يلتفت أحد. مد قدميه ودق الأرض بحذائه الرئاسي، لكن عبثاً. كانوا جميعاً معلقين بشفتي الرجل الشاحب الذي يخاطبهم.

التفتت العجوز سالومي، حدقت لكنها لم تره. آنئذ تقدم الشيخ جوناس، وصل قرب المدفأة وقعد خلف ولديه. بيده الضخمة لمس كتف بطرس، وهزه. التفت بطرس، رأى أباه، وضع إصبعاً على شفتيه إشارة عدم الكلام وأدار وجهه إلى الشاب الشاحب. كان ليس جوناس، أباه، كأنهما لم يريا بعضهما لعدة أشهر ـ أخذه الأسى، ثم الغضب، شلح حذاءه الذي بدأ يؤلمه، ليرميه باتجاه المعلم، ليسكت بعد لأي وليتسنى له هو الوقت ليكلم ولديه! رفع الحذاء، استعد، لكن يدا من الخلف منعته. التفت إلى الجهة المقابلة ورأى زيبيدي.

انهض، شيخ جوناس، همس الآخر بأذنه، تعال جانباً. هلموا من هنا، أيها المساكين البؤساء. عندي شيء أقوله لك.

وضـع الـصياد العجـوز حـذاءه تحـت إبطيـه ولحـق زيبيـدي. دخلا ملحقاً وقعدا جانباً على صندوق.

شيخ جوناس، بدأ زيبيدي متلعثماً، لأنـه أكـثر مـن الخمـر ليطفئ نكده، شيخ جوناس، أيها الفقير الملق، عندك ابنان ، انسهما، وعندي أنـا أيضاً ابنـان، نسيتُهما. يبـدو أن أباهمـا هـو اللّه، أي خير يأتينا من هذه المعمعة. ينظرون إلينا كمن يريد أن يقـول: يـا أنـت، مـن أنـت، أيهـا العجـوز؟ إنهـا نهايـة العـالم، يـا مسكين جوناس!

بداية أنا أيضاً تكدرت. تمنيـت أن التقط كلاّبـاً وأرميهم خارجـاً. لكـني رأيـت فيمـا بعـد أن الأمـل ضـاع، آنئـذ أويـت إلى صدفتي، سلمتهم المفاتيح، امرأتي توافقهم هـي الأخرى، عـادت إلى الطفولة، المسكينة، حينئذ صمت الشيخ زيبيـدي وكـذلك الـشيخ جونـاس، هـذا مـا وددت أن أقـول لـك. مـا ينالنـا مـن هـذا الذي يدور حولنا؟ اثنان+ اثنان = أربعة، نحن متورطون!

أعـاد الـشيخ جونـاس حـذاءه إلى رجليـه، التـف في مزقـة المشمع، وحدق إلى زيبيدي ليرى إن كان عنده شيء آخر للقـول. رأى أن لا. فتح الباب، سبر السماء، تقصى الأرض. الوقت ظـلام دامس، المطر، البرد، شفتاه ترتعشان.

" نحن متورطون ...... " وتحرك مرتبكاً نحو كوخه.

كان الشيخ جوناس يمشي منذهلاً، كان ابن مريم، ماداً يديه نحو النـار، يلتمس روح اللّه، الـتي كانـت مختبئـة في لهيـب

النار وتدفئ الناس. بسط يديه، كان قلبه منخطفاً، وتكلم. قال لهم:

لا تظنوا أني أتيت لألغي الشرائع والأنبياء. لست هنا لأمحو الوصايا السابقة، أنا هنا لأدفعها إلى الأمام أكثر. رأيتم مكتوباً على صحائف موسي: " لا تقتل!" وأنا أقول لكم: من يزعل من أخيه ويرفع يده عليه أو يوجه له أي كلمة نابية هذا أيضاً يرمى في أوار جهنم. ورأيتم منقوشاً في صحائف موسى:

" لا تزنوا! وأنا أقول لكم: من ينظر إلى امرأة ويرغبها يقترف الزنى بقلبه. النظرة الدنسة ترمي الفاسق بالنار .... " مجد أباك وأمك! " حكم الشريعة القديمة وأنا: لا تحبس قلبك في بيت أبيك وأمك، دعهما يخرجان منه، ليدخلا كل البيوت، يلجا في طول أرض إسرائيل وعرضها من جبل حرمون حتى صحراء أدومي وأبعد أيضاً إلى الشرق وإلى الغرب في الكون قاطبة. أبونا هو الله، أمنا هي الأرض، صنعنا من الأرض والسماء. احترام أمك وأبيك يعني: احترم الأرض والسماء.

ـ الكلمة قاسية، يا معلمي، قاسية بالنسبة لأم.

كلمة الله قاسية أبداً، يا سالومي، رد يسوع.

ـ خذ ولدي أيضاً، تمتمت العجوز الأم، وصالبت يديها. خذهما، همالك. سمع يسوع كلام الأم التي حرمت من ابنيها وشعر في رقبته وزر كل الأبناء وبنات العالم. وتذكر أيضاً التيس الأسود الذي رآه في الصحراء والذي كان يحمل في

رقبته، بين التمائم الزرقاء، كل أخطاء شعب إسرائيل. انحنى بصمت أمام سالومي العجوز التي أعطته ولديها، كما ليقول لها: إليك رقبتي، علقي بها ولديك.

رمى كدسة من طرود الكرمة، واستدار من جديد نحو رفاقه:

إن ذاك الذي يحب أبوه وأمه أكثر مني ليس أهلاً ليأتي معي. وذلك الذي يحب ابنه وابنته أكثر مني ليس خليقاً أن يرافقني. الوصاية السابقة لم تعد قادرة على احتوائنا. ولا العلاقات السابقة.

وأردف بعيد هذا:

الإنسان تخم: حيث تقف الأرض وحيث تبدأ السماء. لكن هذا التخم يغير مكانه أبداً ويتقدم نحو السماء. ومعه تتحرك وتتقدم وصايا الله.

أنا أرفع وصايا الله من الواح موسي وأحملها إلى الامام.

إرادة الله تتبدل إذن، يا معلمي؟ قال يوحنا، ممانعاً.

لا، يا يوحنا الحبيب. إنما قلب الإنسان يتسع ويقدر أن يضم دوماً رغبات أكثر.

ـ إيه حسناً، إلى الأمام! هلموا نعلن في العالم الوصايا الجديدة! صاح بطرس ناهضاً فجأة. ما بالنا قابعون هنا؟

ـ مهلاً ريثما يقف المطر، يا بؤساء، ربما تبللنا! تهكم توما ساخراً.

هـز يهوذا رأسـه، يائسـاً، قال:

يجـب أولاً أن نطـرد الرومـان، يجـب أولاً إنقـاذ الجـسد. وبعدها النفوس.

لكل أمر وقته. لا أحد يبدأ ببناء السطح. لنبدأ بالأسس.

النفس هي الأسس، يا يهوذا.

بل الجسد هو الأسس، هذا ما قلته!

إن كانـت نفسنا لا تتبـدل، يـا يهـوذا، كـذلك لـن يتبـدل العـالم حولنـا. الاعـداء في كياننـا، وكـذلك الرومـان. فمـن الداخل يبدأ الخلاص والأمان!

وقـف يهـوذا بعـصابية؛ كـان يغلـي. فمنـذ برهـة طويلـة وهـو يحـصن قلبـه مـن الـصراخ؛ كـان يـصغي، يكـدس الكـثير في جنباته، ولم يعد يطيق

علينـا أولاً أن نطـرد الرومـان، صـرخ أيضاً بـصوت مخنـوق. أولاً الرومان!

لكـن كيـف نطـردهم؟ أردف ناثانائيـل، الـذي بـدأ يقلـق وينظـر بطـرف عينـه إلى البـاب، هـل قلـت لنـا كيـف، يـا أسخريوطي؟

ـ بـالتمرد والعصيان! زعـق الآخـر. إلا تـذكرون المكـابيين الـذين طـردوا اليونـان. وقـد أتـى دورنـا لتطـرد الرومـان. نحـن المكابيون المعاصرون. ثم، إن بقينا فيمـا بيننـا، فقـراء وأغنيـاء، مضطهِدين ومضطهَدين، نعرف جيداً كيف نرتب أمرنا.

سكت الجميع. لا يعرفون أي درب يسلكون من دربين. حدقوا إلى المعلم وانتظروا. وهو يتأمل اللهب، مفكراً؛ ـ متى يفهم الناس إذن إذ ليس سوى شيء واحد في العالم المرئي وغير المرئي، هو الروح؟

نهض بطرس، وقال:

أنا لم أفهم المناقشات المعقدة، اعذروني. ما هي الأسس، هل ما نراه في أثناء العمل، التجربة تقول لنا. يا معلم أعطنا سلطة الذهاب حاملين وحدنا النبأ الطيب للناس، وعند العودة نناقش الأمر ثانية.

رفع يسوع رأسه، جال بنظره على التلاميذ، أشار إلى بطرس، إلى يوحنا وجاك، فاقتربوا منه:

انطلقوا، بركتي ترافقكم. اذهبوا وبلغوا الناس الخبر الطيب. دونما وجل، الله يصونكم بيده ولا يترككم تصيعون. لا يسقط عصفور من السماء من دون إرادته. وأنتم تساوون كثيراً من الطيور. ليكن الله معكم! عودوا بسرعة، مع آلاف الناس معلقين برقبتكم. أنتم رسلي.

تلقى الرسل الثلاثة البركة، فتحوا الأبواب وانطلقوا في درب الأوجاع. كل منهم في اتجاه.

مرت أيام. كانت دار الشيخ زيبيدي تغص بالناس في الصباح، وتفرغ في المساء. من كل صوب يأتي المرضى، المهابيل، المقعدون، يبكون؛ كان آخرون يحتدون ويزعقون ابن

الإنسان يجترح أعجوبته ويشفيهم؛ ـ ألم يرسله اللّٰه من أجل هذا؟ فليظهر في الباحة!

تكدر يسوع لدى سماعهم، خرج إلى الساحة، كان يلمس، يبارك كلاً منهم. ويقول لهم:

ثمة نوعان من الأعاجيب، يا أخوة، أعاجيب للجسد وأعاجيب للروح. ثقوا بأعاجيب الروح فقط. توبوا، طهروا نفسكم فيظهر جسدكم أيضاً. النفس هي الشجرة، المرض، الصحة، الجنة، النار هي الثمار.

آمن به العديد من المرضى وسرعان ما شعروا بدمهم يتطهر ويسيل في جسدهم المفتقر للدم، رموا عكازاتهم وراحوا يرقصون. وشعر آخرون بينما كان يسوع يلمس عيونهم الكفيفة بضوء ينساب من طرف أصابعه. فتحوا جفونهم وأطلقوا صرخة فرحة: رأوا العالم.

متّى والريشة بيده مفتوح العينين والأذنين لم يسمح بضياع أي كلمة: التقط كل همسة تصدر ووضعها على الورق. هكذا، شيئاً فشيئاً، يوماً بعد يوم، تابع الخبر الطيب، الإنجيل. أخذ الجذر، أنبت له أغصاناً، صار شجرة، قادرة أن تغذي الناس الذين كانوا والذين سيكونون. كان متى يعرف عن ظهر قلب الكتاب المقدس وكان يرى أن كل ما يفعل المعلم ويقوله الآن هو كلمة فكلمة ما أعلنه أنبياء الدهور قبله. وإذا لم يتفق الأنبياء أحياناً فذلك لأن العقل البشري مضطرب

فلم يفهم المعنى السري الذي يقصده النص المقدس. ثمة سبع طبقات من المعاني في كلمة الله وكان يستبسل ليجد الطبقة التي تآلف بين التناقضات. ولا بأس أن يتوانى أحياناً عن هذا بالأمور البسيطة، فالله غفور. وهو لا يسامح فقط، بل هذا هو ما يريد. ألا يأتي الملاك كلما مسك الريشة يدنو من أذنه يدندن له ما يود أن يكتب؟

في ذلك اليوم وعى متى لأول مرة من أين يبدأ وكيف يشرع بقصة حياة يسوع: بداية مكان ولادته، من هم أهلوه، جدودهُ الأربعة عشر جيلاً. ولد في الناصرة، في أسرة فقيرة، ليوسف النجار ومريم، ابنة وأكيم وحنة. تناول متى الريشة، دعا إليه الله لينير ذهنه ويعطيه القوة. لكن وهو يبدأ بنسخ أول الكلام على الورق، تحجرت يده. مسكه الملاك وسمع هو خفق جناحين في الهواء، خائفين. سمع صوتاً يوضح في أذنه: ـ ليس ابن يوسف! ماذا يقول النبي أيسا issaie؟ " هي ذي عذراء تحبل وستلد ابنا!" أكتب كانت مريم عذراء. نزل إلى بيتها رئيس الملائكة جبرائيل قبل أن يمسها رجل وقال لها: "السلام لك، يا مريم، يا ممتلئة نعمة، الرب معك!"

وفي الحال حملت أحشاؤها ثمرة. أتسمع؟ هذا ما يجب أن تكتب! وليس في الناصرة، لم يولد في الناصرة. تذكر النبي ميخائيل michee:

" وأنت، بيت لحم bethleem، البنت الصغرى من آلاف

بنات يهودا، فيك يبذر وينمو ذاك سيكون ملك إسرائيل والذي أرومته صلبة منذ الأزل."

إذن ولد يسوع في بيت لحم، وفي اسطبل. ماذا يقول الزبور المعصوم من الضلال والخطأ؟ "يسحبها من الإسطبل حيث ترضع الحملان وليعمل منه راعي قطعان يعقوب Jacob." لماذا توقفت؟ أطلقت يدك، اكتب! لكن متّى حرر: التفت نحو الجناح غير المرئي، إلى يمينه، وغمغم بصوت واطئ لكي لا يسمع التلامذة النائمون: "ليس هذا صحيحاً؛ لا أريد؛ لن أسجل هذا." فدوت في المكان ضحكة هازئة، وصوت: "كيف يتسنى لك أن تفهم، أيها الغبار، الحقيقة؟ الحقيقة سبع طبقات، في الطبقة العليا تتصدر حقيقة الله وهي لا تشبه أبداًحقيقة الناس. هي ذي الحقيقةالتي أهمسها في أذنك، يا متى الإنجيلي. أكتب: "و أتى ثلاثة من المجوس، على ضوء نجم كبير، لتحية الوليد..."

وسال شلال من العرق من جبهة متى.

لن أكتب! لن أكتب! زعق. وسارعت يده وكتبت.

سمع يسوع النائم مجاهدة ومجالدة متى؛ فتح عينيه. رأى الذي يصارع، تحت السراج؛ كانت ريشته تكتب بسرعة وغضب على الورق وتصرف كأنها تتحطم.

متّى، يا أخي، همس في أذنه، لمَ تتبرم من فوقك؟

ـ معلمي، أجاب متّى، بينما كانت ريشته تتابع الكتابة،

لا تطرح على أسئلة. أنا مسرع . نم.

ـ لا بد أن يكون الله فوقه، قال يسوع لنفسه.

أغمض عينيه لكي لا يعكر الجو على النعمة المقدسة.

(24)

انصرمت الأيام والليالي. هل قمر وراح؛ ثم قمر آخر. المطر، القر، أوقدت النار في الكانون؛ أقيمت سهرات مجيدة في بيت العجوز سالومي. في كل مساء، بعد يوم العمل، كان يأتي الفقراء والمقعدون من كفر ناحوم، يصغون إلى المواسي الجديد، كان يأتي فقراء ويائسون ويعودون إلى أكواخهم البائسة أغنياء ومثلجي الصدور. كان ينقل كرومهم، مراكبهم، وأفراحهم من الأرض نحو السماء، كان يشرح لهم الفرق الكبير بين الثقة بالسماء والثقة على الأرض فيمتلئ قلب البؤساء صبراً وعزاء وأملاً. حتى قلب الشيخ زيبيدي، هذا القلب القاسي، بدأ يسلس ويأنس، شيئاً فشيئاً جعلت كلمات يسوع تلقى صدى لديه، تسكر بهدوء روحه، بدأ هذا العالم يتخلخل، ويأتي عالم جديد يحوم فوق رأسه، يخلق أزلية غنى لا يمحي. وفي هذا العالم الجديد والغريب، كان زيبيدي وأبناؤه والعجوز سالومي وحتى مراكبه الشراعية الخمسة وصناديقه المتخمة، تعيش أبداً، فلا يلزم إذن التبرم من رؤية الضيوف الذين لم يدعهم، يعيش أياماً وليالي في بيته ويجمعهم حول مائدته. سيأتي بالتأكيد يوم السداد.

في منتصف الشتاء أتت أيام ركود البحر المشمسة؛ تبدأ الشمس بالبرق، تسخن بنية الأرض، وتخدع لوزة الدار زيبيدي: يظن أن الربيع هلَّ وبدأت الأشجار تبرعم. هذه هي أيام الهدنة التي ينتظرها أيضاً القاوند ليسلم بيوضه للصخور. كل طيور السماء تبيض في الربيع، والقاوند في وسط الشتاء. أتشفق عليها الله ووعدها بترك الشمس تظهر في بعض أيام الشتاء لتفيد منها. والآن كانت حلى البحر هذه سكرى بالفرح. تطير وهي تغني فوق مياه وصخور طبريا وتشكر الله لأنه حقق هذا العام أيضاً وعده.

في الأيام الهادئة ينتشر التلاميذ في القرى المجاورة وفي قوارب الصيد، ليجربوا هم أيضاً اجنحتهم. رحل فيليب وناثانائيل إلى اليابسة، ليحدثوا أصدقاءهم القرويين والرعاة ويكرزوا كلمة الله؛ أندريه وتوما إلى البحيرة، ليهاجموا الصيادين. ذهب يهوذا. وحده، نحو الجبل، ليصب فيه غيظه. كان الكثير مما يفعل المعلم يرضيه، بينما كان ثمة أشياء لم يستطع احتمالها. أحياناً كان المعمداني الفظ يرعد في فمه، وأحياناً كان ابن النجار السالف يثغو أيضاً: محبة! محبة! كيف إذن، المحبة، ملهمة؟ حب من؟ العالم يعاني الغرغرينا، العلاج هو السكين. هذا ما قلناه!

بقي متّى وحده في البيت. لا يطيق البعاد عن المعلم ـ إن تكلم، يجب أن لا يحمل الهواء كلامه، إن اجترح عجيبة،

يجب إن يراها متّى بعينيه ليقصها. ومع ذلك، إلى أين يذهب، يكلم من؟ لا أحد يقربه لأنه كان عشاراً قاسياً. كان يبقى إذن في البيت، في ركنه، ويتأمل يسوع بالخفاء، الذي يقعد في الدار تحت اللوزة المغطاة بالبراعم، يحدث المجدلية، القاعدة عند قدميه. يكلمها بصوت هامس، يمد متّى أذنه محاولاً التقاط كلمة، إنما عبثاً. ما كان يرى سوى يد المعلم، الذي يلمس من حين إلى آخر شعر المجدلية، ووجهها الصارم الحزين، مساً رقيقاً.

في صبيحة أحد أيام السبت، كان الحجاج يفدون من قرى بعيدة، من مزارع طبريا، صيادون من طبريا، رعاة من الجبال، ليسمعوا النبي الجديد يكلمهم عن جهنم والجنة عن بؤساء الناس وعن رحمة الله، كانوا يأخذونه، في ذلك اليوم المشمس، يصعدون به الجبال الخضراء، يتمددون على العشب الرطب ليصغوا له، وربما بهدوء، على العشب الربيعي، ينامون نوماً خفيفاً. يتجمعون إذن في الشارع، والباب موصد، ينادون المعلم أن اخرج.

ـ يا مجدلية، يا أختي، قال يسوع، اصغي، الناس يبحثون عني.

لكن المجدلية التائهة بعيني المعلم، لم تسمع. من كل ما قال لها لمدة مديدة، لم تسمع شيئاً؛ كانت ثملة فقط بصوته، صوته يقول لها كل شيء. ليست رجلاً، ليست بحاجة للكلام.

في يوم خاطبته قائلة: " لمَ تحدثني عن الحياة المقبلة، يا معلم؟ لست رجلاً، لست بحاجة لحياة أخرى، الحياة الأبدية، أنا امرأة، لحظة مع الرجل الذي أحب جنة أزلية، لحظة بعيدة عن الرجل الذي أحب هي الجحيم المقيم، نحن النساء، على هذه الأرض نعيش الأبدية! "

مجدلية، أختي، رد يسوع، الرجال يأتون بحثاً عني، يجب أن أذهب إليهم.

نهض، فتح الباب. كان الشارع غاصاً بالعيون التي يأكلها الحماس والميل والوله، من الأفواه الصارخة، من المرضى الحائرين، ومادي الأيدي والأذرع. بانت المجدلية فوضعت يدها على فمها لكي لا تصرخ : " الشعب حيوان متوحش، حيوان دموي، سيزدرده ويحرمني منه ......" تمتمت، وهي تراه في الطليعة بهدوء والشعب خلفه يهدر.....

بخطوات واسعة رزينة، كان يسوع يمشي نحو الجبل المطل على البحيرة، حيث فتح في أحد الأيام ذراعيه للناس وصرخ: محبة! محبة! لكن منذئذ، احتدت روحه، صلبت الصحراء قلبه وشعر أيضاً بشفتي المعمداني على شفتيه كبصتي نار. كان الأنبياء يتألقون فيه وينطفئون، ودوي الله غير الإنساني يشتد ورأى بنات الله الثلاث، الجذام، الجنون والنار، يمزقن السماء وينزلن إلى الأرض.

لما وصل إلى قمة التل وفتح فمه ليتكلم، وثب النبي

السالف من أعماقه وراح يصرخ:

"يصل، الجيش الرهيب، يصل يهدر من حدود الأرض، يصل، رهيباً ومسرعاً. لا يحس أحد من محاربيه التعب، لا أحد ينعس أو ينام، ولا قائد مئة يجرف الحصى ولم ينقطع أي حزام من الصندل. كانت حذوات الخيل من الحجارة الصماء، وعجلات العربات من الأعاصير. تزأر كالأسد وتهدد. من يقبض عليه يحمل بالأسنان ولا قوة تستطيع أن تنقذه!"

ــ من هو هذا الجيش؟ تسألون، أيها الصم، العميان والبهاليل، ـ رفع يسوع يده نحو السماء ـ هو جيش اللّه، يا تعساء! من بعيد كان محاربو اللّه يبدون كالملائكة ومن قرب كاللهب. اعتبرتهم أنا ملائكة في الصيف الفائت. من هذه الصخرة التي أجلس عليها اعتبرتهم ملائكة، ناديت: محبة! محبة! الآن فتح لي إله الصحراء عيني، ورأيت: هذا هو اللهيب! لم أعد قادراً على احتمالكم، صاح اللّه، انزل! ارتفع وعم نحيب وعويل في القدس وفي روما، عويل فوق الجبال والقبور؛ الأرض تبكي أبناءها. ينزل ملائكتي إلى الأرض المحروقة، يبحثون بالمشاعل ليروا أين كانت روما، أين كانت القدس. فتتوا الرماد بين أصابعهم وراحوا يشمونه. يقولون هذه هي روما، هذه هي القدس، ويذرونه في الريح.

ـ ألا خلاص؟ صرخت أم شابة، معانقة بخوف رضيعها؛ لا أطلبه لي بل لابني.

ـ ثمة خلاص واحد! أجابها يسوع. لكل طوفان، يعمر اللّه سفينة ويعهد لها بخميرة العالم المقبل. أنا أحمل مفتاح السفينة!

من سيخلص ليكون الخميرة؟ ومن ستنقذ أنت؟ أثمة متسع من الوقت؟ صرخ عجوز آخر. كان حنكه يرتعش. يمر الناس أمامي وأنا أفرز إلى جهة كل أولئك الذين أكلوا كثيراً، شربوا كثيراً، تمتعوا ولهوا كثيراً؛ وإلى الجهة الأخرى، الجائعين والمضطهدين، الذين أختارهم. الجياع والمضطهدون هم الحجارة سأبني بها القدس الجديدة.

ـ القدس الجديدة؟ صاح الشعب، لامع العيون.

ـــ نعم، القدس الجديدة. ليس أنا من يخلصها، اللّه أوكلني بالسر في الصحراء. فقط بعد اللهب تأتي المحبة. بداية يصير هذا الشعب رماداً، بعدئذ يغرس كرمته. لا سماداً خير من الرماد.

لا سماداً خير من الرماد! ردد، كصدى، صوت أجش وفرح. التفت يسوع، مستغرباً؛ خيل له أن هذا الصوت صوته، إنما أشد، أبهج، رأى يهوذا وراءه خائفاً: ينشر وجهه لمعاناً وبريقاً، كما لو سقط عليه لهب المستقبل وجعله يومض. سارع والتقط يد يسوع، وتمتم بحنو ودود غير منتظر:

يا معلم،يا معلمي ....

لم يكلم يهوذا في حياته أحداً بهذا الهدوء واللهفة. خجل خفض رأسه وبدا كمن يبحث عن شيء، هو نفسه لا يعرف ما

هو. رأى أمامه شقيقة نعمان وليدة أقتلعها.

في المساء لما عاد يسوع، أخذ مكانه على منضدته أمام الكانون وركز نظره في النار شعر فجأة بأن الله نفد صبره: لم يعد قادراً أن ينتظر. فالأسى واليأس تظاهرا فيه، والخجل أيضاً. تكلم مرة أخرى، أثار اللهيب فوق رأس الناس، ارتعد الصيادون والفلاحون لحظة، لكنهم سرعان ما تلاءموا، اطمأنوا. وبانت لهم كل هذه التهديدات خرافة وافترش بعضهم العشب الساخن، يهدهدهم صوته.

تأمل النار قلقاً دونما كلام. المجدلية ساكنة في زاويتها. تحدق إليه وتود أن تكلمه، لكنها لم تجرؤ. أحياناً كلام المرأة يهدئ الرجل. تعرف المجدلية هذا وتسكت.

في البيت تنتشر رائحة السمك واللبان. كان شباك الدار مفتوحاً، النفلة مزهرة ليس بعيداً من هنا وعطرها يصل، محمولاً بالنسيم الليلي، لطيفاً ولاذعاً.

نهض يسوع وأغلق النافذة. كانت كل هذه الروائح الربيعية نفس الغواية. ليس هذا هو الهواء الذي تريده نفسه. أمامه وقت للذهاب والدخول في الريح التي تناسبه. كان الله متضايقاً.

فتح الباب، دخل يهوذا طاف بنظره الأزرق حوله ورأى المعلم، مركز العينين بالنار، المجدلية الحلوة، زيبيدي الذي كان نائماً ويشخر، وتحت المصباح، الكاتب الرديء الذي

يكتب بسرعة ويلطخ الورقة..... هز رأسه الضخم. أكانت هنا إذن إرساليتهم؟ أهكذا نرحل لنكسب العالم؟ مدعي الرؤى، مستخدمون، مروج، يبقون كلهم ولا يفعلون شيئاً في كفر ناحوم؟ اختار زاوية وقعد. كانت العجوز سالومي قد مدت المائدة.

لست جائعاً، تمتم بل نعسان، وأغمض عينيه لأنه لا يقدر أن يرى جلس الباقون إلى المائدة. دخلت فراشة من الباب، حامت حول لهب المصباح، ثم راحت تطير فوق رأس يسوع وبعد راحت تنقب في البيت

ـ سنزار اليوم، قالت سالومي... أهلاً بالزائر قال يسوع

وبارك الخبز ووزعه، وبدؤوا يأكلون. لا أحد يتكلم، الشيخ زيبيدي الذي استيقظ وأكل لم يطق هذا الصمت الثقيل، انقبض قلبه.

احكوا، يا أولاد، قال ودق الطاولة بقبضته. ماذا؟ أثمة موت أمامنا؟ عندما يتواجد ثلاثة أشخاص في مكان ما، يأكلون ولا يتحدثون عن الله، فكأنهم على مائدة حداد، ألم تسمعوه يقول؟ هوذا حاخام الناصرة، الرجل الحكيم هو من قال هذا ولم أعد أتذكره، احكوا إذن، قالت مريم. هاتوا إلهاً جديداً إلى البيت! اسمح لي، أدعوك دوما ابن مريم، لأني لا أعرف بعد كيف أناديك؛ يدعوك البعض ابن النجار، آخرون ابن داود، ابن الله، ابن الإنسان، لا يعرفون الصحيح، العالم

لم يقرر بعد، كما يبدو.

يا شيخ زيبيدي، رد يسوع، جيوش غفيرة من الملائكة نخفق بجناحيها حول عرش الله، أصواتها ذهبية، فضية، ماء نمير ويمجدون الرب إنما من بعيد؛ لا أحد يجرؤ على الاقتراب منه كثيراً. واحد فقط يتجاسر.

ـ من هو؟ سأل زيبيدي وهو يدعك عينيه الثملتين.

ـ ملاك الصمت، أجاب يسوع وسكت ثانية.

صاحب البيت العجوز يختنق، ويملأ كوبه خمراً ويحتسيه دفعة واحدة.

" يهدئك، هذا الضيف، قال لنفسه، كما لو كان على مائدة مع أسد." فكر؛ وفي الحال أخذه الخوف ونهض.

سأذهب إلى الشيخ يونان، لأتبادل معه حديثاً ما، بين بشر، قال وهو يتجه نحو الباب، إنما في هذه اللحظة سمع وقع خطى خفيفة في الباحة.

هوذا الضيف الذي حدسنا به، قالت العجوز سالومي وهي تنهض. التفت القوم؛ في العتبة كان واقفاً الشيخ حاخام الناصرة.

بدا هِمّاً، تالفاً لم يبق له سوى بعض العظام ترتدي جلداً مسمراً، كفى لنقد النفس أن تتعلق به فلا تطير. في هذه الأخيرة. لم يعد الحاخام يستطيع النوم، وإذا وافاه النعاس عند الفجر يرى حلماً غريباً، يتكرر أبداً: ملائكة، لهب والقدس،

كحيوان جريح، صعد إلى جبل قاسيون وراح يعوي. قبل اليقظة، في الفجر، حلم ذات الحلم. لم يتماسك، قفز من السرير، ترك البيت، هرب إلى الحقول، اجتاز سهل إسدريلون Esdrelon، وجبل الكرمل، استحوذه الله، فانتصب أمامه. كان النبي الياس واقفاً بالتأكيد في القمة، كان هو الذي سحبه وأعطاه القوة ليصعد. كانت الشمس تغيب عندما وصل الحاخام رأس الجبل. كان يعرف أن ثلاثة حجارة ضخمة تنتصب في الذروة المقدسة؛ كانت معبداً، وحوله تنتشر بقايا عظام وقرون الضحايا...... لكن لما اقترب الحاخام ورفع عينيه صرخ: ليست هذه حجارة، هؤلاء ثلاثة رجال عمالقة تنتصب في هذا المساء في قمة الجبل يرتدون ثياباً بيضاء تبرق كالثلج، وكان محياهم مصنوعاً من النور. في الوسط كان يسوع، ابن مريم؛ إلى يساره النبي الياس الذي يحمل بيديه فحماً متقداً؛ وإلى يمينه موسى، بقرون مبرومه، يأخذ لوحين من الحجارة حفرت عليها الوصايا بحروف نارية... كان الحاخام قد سقط أرضاً على وجهه: " أدوناي! أدوناي!"[1] تمتم وهو يرتعش. كان يعرف أن الياس وموسى لم يموتا وسيظهران على الأرض في اليوم الرهيب، يوم الرب. كان هذا أمارة على اقتراب نهاية العالم. ظهروا، كانوا هنا، والحاخام يرتجف. رفع عينيه ليرى:

---

1 ـ يا الله، بالعبرية.

في الغسق كانت الحجارة الثلاثة العملاقة تتألق.

منذ سنين عديدة، كان الحاخام يفتح الكتب المقدسة، يتسم نفس يهوه، يتعلم الكشف، خلف الأشياء المرئية وغير المرئية، عن المعنى الخفي الذي ضمنها إياه الله. والآن هو يفهم. التقط عصاه ـ الاسقفية ـ أين وجد هيكله العظمي النخر هذه القوة؟ ذهب نحو الناصرة، قانا، مجدلا، كفرناحوم، باحثاً بخيبة أمل عن ابن مريم. علم أنه رجع من صحراء يهودا والآن يتابع آثاره في الجليل ورأى ما أعده الصيادون والفلاحون من أسطورة النبي الجديد ـ الأعاجيب التي اجترحها، الخطب والأحاديث التي ألقاها، على أي حجر صعد ليخطب، وكان الحجر مغطى بالزهور... التقى شيخاً في الطريق واستوضح منه، ورفع هذا الأخير يده نحو السماء: ـ كنت أعمى، لمس جفني وأعاد لي نظري. أوصاني أن لا أقول لأحد، أما أنا أطوف في القرى وأقص ما سمعت ـ والآن أين هو، يا شيخ، أتستطيع أن ترشدني أليه؟ ـ تركته في بيت الشيخ زيبيدي، بكفر ناحوم. أسرع وتجده هناك، قبل أن يصعد إلى السماء.

بدأ الحاخام دربه بخطى واسعة، فاجأه الليل، وجد في العتمة بيت زيبيدي العجوز، ولجه.

سارعت العجوز سالومي لترحب به.

سالومي، قال الحاخام وهو يتخطى العتبة، سلاماً لهذا البيت؛ أن تأتي أصحابه خيرات ابراهيم واسحق!

التفت، رأى يسوع وانبهرت عيناه، وقال

مرت من فوق رأسي أسراب من الطيور وحملت لي أنباءك.

ـ الدرب الذي مشيته قاس وطويل جداً، يا ولدي. ليكن اللّه معك!

ـ آمين! أجاب يسوع بصوت حاد.

وضع الشيخ زيبيدي يده على صدره ليحيي الحاخام، قال:

ـ أي ريح طيبة حملتك إلينا، يا شيخ؟

ربما لم يسمع الحاخام، لم يجب. قعد قرب النار، كان تعباً، برداناً، جائعاً، إنما رفض الأكل. طريقان أو ثلاثة طرق فتحت أمامه لا يعرف أيها يختار... لم أتى؟ ليقص رؤيته على يسوع؟ وإن كانت ليست من اللّه؟ الشيخ الحاخام يعرف أن الغواية قد تلبس وجه اللّه لتذهل الناس. إن كشف ليسوع ما رأى، قد يحتل روحه شيطان الغرور وآنئذ يضيع، وبخطأ الحاخام. أيلتزم، دون أن يكشف له السر، اتباعه إلى حيث يذهب؟ لكن أصحيح أن يتبع هو، حاخام الناصرة، أجرأ ثوري، من يزدهي أنه يحمل شريعة جديدة؟ وهو آت إلى هنا ألم يجد قانا مقلوبة رأساً على عقب بسبب كلمة مغايرة للشريعة كان قد أدلى بها؟ كان ذهب إلى الحقول في يوم السبت المقدس ورأى رجلاً يعمل، يحفر السواقي ويروي الحدائق: "أنت أيها الرجل، قال له، لو عرفت ماذا تفعل، تملأك الشرور. أذهل هذا الكلام الحاخام؛ هذا التمرد خطير، قال لنفسه، احذر،

يا شيخ سمعان، لا تلعن نفسك، بهذا العمر.

جلس يسوع إلى جانبه. يهوذا، النائم بالأرض، أغمض عينيه وأخذ متى مكانه تحت الضوء، وانتظر والريشة بيده. لكن يسوع لم يتكلم. كان يحدق إلى النار تفترس الحطب وأحس بجانبه الشيخ الحاخام يلهث كمن ما يزال في الطريق.

في هذا الوقت كانت العجوز سالومي تحضر سريراً للحاخام؛ كان عجوزاً، فهو بحاجة لسرير لدن ووسادة؛ وضعت أيضاً بقرب السرير إبريق ماء لأن لا يعطش في الليل. رأى الشيخ زيبيدي أن الحاخام لم يأت إلى أسقفيته، أخذ هراوته وغادر ليلتقي الشيخ يونان، ليتنشق نفساً بشرياً: كان بيتاً غاصاً بالأسود. انسحبت المجدلية مع سالومي إلى الغرف المجانبة، لتترك يسوع والحاخام وحدهما. تصورتا أن عندهما أسراراً هامة للبحث.

لكنهما لم يتحدثا. كان الاثنان يعرفان أن الكلام لا يقدر أن يريح قلب الإنسان ويطمئنه. الصمت وحده يقدر، فصمتا. انقضت الساعات، نام متى والريشة بيده، وعاد زيبيدي بعد أن شبع حديثاً واستلقى قرب العجوز امرأته. في منتصف الليل، شبع الحاخام من الصمت، فنهض، وقال:

تكلمنا كثيراً هذا المساء، يا يسوع. غداً سنعود إلى حديثنا! واتجه نحو سريره، محطم الركبتين.

سطعت الشمس، صعدت في السماء، وكان الظهر، لم

يفتح الحاخام عينيه بعد. كان يسوع قد جاء إلى شاطىء البحيرة وتحدث إلى الصيادين؛ ركب في مركب يونان ليعطيه صفعة من يده من أجل الصيد. وكان يهوذا يطوف وحيدًا، ككلب الراعي.

انحنت العجوز سالومي من الحاخام لترى أن كان ما يزال يتنفس؛ نعم يتنفس. "ممجد أنت يارب، تمتمت، يرى أيضاً." هي ستذهب، لكن الحاخام الشيخ فتح عينيه، رآها منحنية عليه، فهم وابتسم:

أنا لا أستطيع الموت الآن، يا سالومي، ألح الحاخام. إله إسرائيل أعطاني كلمته: لن تموت يا سمعان، قبل أن ترى المسيح!

لكنه لم يكد يحملق بعينيه: ربما كان قد رأى، المسيح؟ ربما كان هو يسوع؟ ربما كانت رؤية الكرمل رؤية آتية من الله؟ إذن، أتت ساعة موته! غمره عرق بارد. لا يعرف إن كان له أن يفرح أو ينخرط في نواح. اغتبطت نفسه:

المسيح أتى! لكن هيكله العظمي لم يشأ أن يموت... نهض، لاهثاً، جر حاله إلى العتبة، قعد في عين الشمس وغرق بأفكاره.

في حوالي المساء عاد يسوع، وقد هده التعب. طيلة النهار كان يصيد مع الشيخ يونان، فامتلأ المركب بالسمك؛ انذهل يونان، حاول أن يفتح فمه ليحكي لكنه كان مخطوفاً. كان

قد غطس حتى ركبتيه بالسمك الذي كان يختلج، يتأمل يسوع ويضحك.

في المساء نفسه رجع التلامذة من جولتهم في القرى المجاورة. قعدوا حول يسوع وبدأوا يحدثونه عما رأوا وفعلوا: اعلموا أيها الفلاحين والصيادين أن يوم السيد المسيح قادم، مضخمين صوتهم ليخيفوهم؛ كان الآخرون يصغون لهم بهدوء، يرفون شباكهم، يعزقون حديقتهم ومن حين إلى آخر يهزون الرأس قائلين: "سنرى.... سنرى..." ثم يغيرون الحديث. وبينما كانوا يتكلمون، وصل ثلاثة أنبياء. برؤيتهم، لم يستطع يونان الجالس بعيداً، مصغياً، أن يمسك نفسه عن الضحك. ويصرخ:

أمام هذه المشية، وهذه الهيآت، أيها الأنبياء، لابد أن الناس أوسعوكم ضرباً، أيها المساكين البؤساء!

فعلاً، كانت عين بطرس منتفخة وتدمع، وكان وجه يوحنا مغطى بالخدوش وكان جاك يعرج.

يا معلم، قال بطرس متنهداً، لقد رجمونا

ضحك الجميع؛ لكن يسوع نظر إليهم متأملاً.

لقد ضربونا ضرباً مبرحاً، تابع بطرس، الذي استعجل كشف الأمر.

بداية قررنا أن نتفرق كل في درب. لكننا خفنا من الطواف الفردي.

اجتمعنا وبدأنا الكرز والتبشير. صعدت أنا حجرًا أو

شجرة في ساحة القرية، كنت أصفق أو أضع أصابعي بالفم وأنفخ، ويلتئم الناس. عند وجود كثير من النساء، كان يوحنا يتكلم، لذا امتلأت وجنتاه بالخدوش؛ وعند وجود كثير من الرجال، كان جاك يتكلم بصوته الضخم، وعندما يبح جداً آخذ الكلام أنا. ماذا كنا نقول؟ ما تقوله أنت. أما نحن فقد رجمنا بالبندورة، وقد أهانونا، أننا بلغناهم نهاية العالم، وانهالت علينا النساء بأظافرهن، والرجال بقبضاتهم وهذا ما حدث!

و ضحك جاك ثانية، لكن يسوع التفت إليه، زوره بقسوة وأغلق هذا الفم الصفيق، وقال:

أنا أعرف أني أرسلتكم حملاناً بين ذئاب. سيشتمونكم، سيرجمونكم، سيعاملونكم مثل أناس من دون خلق لأنكم تشنون حرباً على الأزلي، الذي لا يموت، سيفترون عليكم قائلين أنكم تبغون تخريب الإيمان، الأسرة والوطن، لأن إيماننا أطهر، بيتنا أوسع ووطننا، هو العالم! زرروا جيداً دروعكم، يا رفاق، قولوا وداعاً للخبز للفرح، للطمأنينة. إننا نعلن حرباً! استدار ناثانائيل، نظر إلى فيليب بقلق؛ لكن الآخر أشار له، كمن يود أن يقول له: "لا تخف، إنه يقول هذا، إنما ليجربنا ويعجم عودنا..."

عاد الحاخام ثانية إلى سريره وتمدد، يضنيه التعب، إنما يحافظ على وعيه يقظاً، يرى ويسمع كل شيء. لقد اتخذ

قراره، كان هادئاً. انبعث صوت في داخله ـ صوته؟ صوت اللّه؟ ـ وأمره: "سمعان، اتبعه حيثما ذهب!"

استعد بطرس ليفتح فمه أيضاً، فهو عنده أشياء ليرويها، لكن يسوع مد يده، وقال:

ـ يكفي!

نهض. بانت القدس أمامه، وحشة، مغطاة بالدم، في ذروة اليأس: هناك حيث يبدأ الامل. اختفت كفر ناحوم، مع الصيادين والفلاحين البسطاء، عتمت بحيرة طبريا في أعماق قلبه. ضاق بيت زيبيدي، انضغطت جدرانه الأربعة على بعضها، لمسته، يكاد يختنق. اتجه إلى الباب وفتحه. ماذا دهاه ليبقى هنا، أليأكل ويشرب ويشعل النار في الكانون، يضع الغطاء ظهراً ومساء ويصرف وقته في أحلام اليقظة؟ أهكذا سيخلص العالم؟ إلا يخجل؟

خرج إلى الباحة، هبت ريح حارة، نفخت أوراق الشجر. كانت النجوم تجدل طوقاً حول رقبته وأذرع الليل. وتحت قدميه الأرض ترتعد، تدب كما الفحل، كما لو أن أفواها لا تحصى ترضعها.

أدار وجهه نحو الجنوب، نحو القدس المقدسة. كان كمن يصغي. كان يشبه من يريد تمييزه عبر الظلمة وجهه القاسي المربد المصنوع كله من حجارة دامية. وبينما كان ذهنه يتابع بلهفة يائسة، مجرى النهر، يجتاز الجبال والسهوب وكان

مستعداً لانتظار المدينة الطهور، فجأة ـ كان كمن رأى (هكذا تخيل) ظلاً ضخماً يتحرك في الباحة، تحت اللوزة المغطاة بالبراعم. وبغتة رآه ينهض في العتمة، الأشد ظلمة من الليل، ولذا استطاع أن يميزه، رأى رفيق دربه الجبار. كان يسمع بوضوح، في هدأة الليل، نفسه العميق. لم يخشَ أو يخف، لأنه اعتاد هذا الأمر منذ زمن؛ كان ينتظر. وسمع تحت اللوزة صوتاً هادئاً، جهورياً، وئيداً:

ـ هلموا!

كان يوحنا قد بان في العتبة، قلقاً. خيل له أنه سمع صوتاً في الليل.

ـ يا معلم، تمتم، مع من تحكي؟

لكن يسوع كان قد دخل البيت. أخذ عصاه من إحدى الزوايا، عصا الراعي، وقال:

ـ يا رفاق، هلموا! اتجه إلى الباب، دون أن يلتفت ليرى إن كان أحد يتبعه.

نزل العجوز الحاخام من سريره، حزم ألبسته جيداً وتناول عصا الأسقفية:

ـ أنا آت معك، يا بني، ووصل إلى الباب قبل غيره.

نهضت العجوز سالومي التي كانت تغزل، ووضعت المغزل في الخزانة، وقالت:

وأنا آتية أيضاً، زيبيدي، اترك لك المفاتيح؛ وداعاً!

أخذت من مئزرها المفاتيح وسلمتها لزوجها. حزمت رأسها جيداً بالمنديل، ألقت نظرة على بيتها، هزت الرأس وودعته.

ونهضت المجدلية، هادئة، سعيدة.

نهض التلاميذ، تأملوا بعضهم. واجفين.

إلى أين الذهاب؟ سال توما وهو يعلق مطرته بحزامه

في هذه الساعة؟ لماذا هذه العجلة. هل نتأخر لو ذهبنا غداً؟ قال ناثانائيل، ونظر إلى فيليب بهيئته ممتعضاً

لكن يسوع كان قد تخطى الباحة بخطى واسعة واتجه إلى الجنوب.

(25)

ترنحت أسس العالم لأن قلب الإنسان تضضع. كان يرقد تحت ثقل هذه الحجارة التي تسمى القدس. وأنبياء، ودينونات أخيرة، لعنات، فريسيون، صديقون، أغنياء منجمون وفقراء جياع والله يهوه يترك دم الإنسان ينتن في الجحيم، عبر أجيال الأجيال من كل جهة أخذ يزأر؛ إن قيلت له كلمة طيبة، يرفع قبضته ؛ أريد لحماً، يصرخ. وإن قدم له حمل وابنه البكر كضحية، زعق، أريد لحماً، لا تمزقوا ثيابكم، مزقوا قلوبكم، حولوا جسدكم إلى روح، والروح إلى رجاء وذروها في الهواء! يرقد القلب تحت وزر 613 وصية مكتوبة من الشريعة العبرية، وتحت ألف وصية غير مكتوبة، ولا يستطيع أن يتحرك ؛ تحت أسفار التكوين، كهنة بني إسرائيل – les

nombres[1]، القضاة والملوك ولا يقدر على الحركة . وفجأة، في اللحظة غير المنتظرة، هبت ريح خفيفة، غير آتية من السماء بل من الأرض، وراحت ترتجف كل ألياف قلب الإنسان . وفي الحال بدأ يتصدع، يهوي ويباشر بالتحطم، بداية في القلب، ثم في الروح، ثم على الأرض، الحجارة التي تسمى القدس، النبوءات، اللعنات، الفريسيون، الصديقيون، القضاة والملوك والمتغطرس يهوه ارتدى من جديد المريلة الجلدية للمعلم البناء، أخذ مستوى الماء، نزل إلى الأرض وراح يدمر بدوره الماضي ويبني، مع الناس، المستقبل.

في كل يوم، كان يسوع، واقفاً على البلاط المدمى، ينظر إلى هذا الهيكل المثقل ويحس قلبه يخفق بضربات مضاعفة ويدمره. ما يزال منتصباً، يلمع في الشمس كنور متوج، بقرون ذهبية. كانت الجدران، من أسفلها حتى أعلاها، مغطاة بألواح من المرمر الأبيض ـ الأزرق ـ كان الهيكل يبدو سابحاً فوق بحر مضطرب. ثلاث فسحات مرتبة إثر بعضها عند قدميه، الفسحة الأدنى، الأوسع، لعبدة الأوثان، والوسطى لشعب إسرائيل، والأعلى لعشرين ألف لاوٍ يغسلون، يصقلون، يشعلون، يطفئون، ينظفون الهيكل. ليلاً نهاراً تحرق سبعة

---

1 ـ الكتاب الرابع من التوراة الذي يروي تاريخ العبريين بدءاً من مغادرة جبل سيناء حتى تقسيم الأرض الموعودة.

أنواع من البخور تنشر دخاناً كثيفاً يجعل التيوس تعطس على بعد سبعة فراسخ والمركب المتواضع الذي نقله جدودهم الرحل إلى الصحراء أنزل مرساته في قمة جبل صهيون، أخذ جذراً هنا، نما، وصنع من خشب السرو، من الذهب والمرمر وصار هيكلاً. بداية لم يرضَ إله الصحراء المتوحش أن يسكن منزلاً. لكن أريج خشب السرو واللبان ورائحة الحيوانات المذبوحة أعجبته حتى أنه في يوم قدم رجله ودخل.

مضى قمران على وصول يسوع إلى كفرناحوم. في كل يوم كان يبقى أمام الهيكل يتأمله، وفي كل يوم كان يظن أنه يراه لأول مرة؛ كان ينتظر في كل صباح أن يراه مدمراً، أن يمشي ويمر عليه؛ لم يرده ولم يعد يخشاه؛ كان قد بني في قلبه. في يوم سأله الشيخ الحاخام عن علة عدم دخوله كالآخرين للتعبد، هز يسوع رأسه وأجابه: طيلة سنين درت حول الهيكل، والآن يدور الهيكل حولي. ـ لقد قلت كلمة قاسية، يا يسوع، رد الحاخام داسا رأسه بين كتفيه؛ ألا تخاف ؟ ـ لما أقول "أنا"، أجاب يسوع، ليس هذا الجسم هو الذي يتكلم، ليس غباراً؛ ليس ابن مريم، الذي ليس سوى غبار وشرارة صغيرة واحدة من النار: "أنا" في فمي، يا شيخ حاخام، هذا يعني: الله

ـ هذا تجديف أيضاً أخافه أكثر! زعق الحاخام ساتراً وجهه. ـ أنا القديس المجدف، لا تنس" أجاب يسوع مبتسماً.

في يوم رأى تلاميذه، مذهولين، مفتونين أمام المبنى الشامخ فغضب، وقال لهم بنبرة ساخرة:

أأنتم معجبون بالهيكل؟ كم عاماً تطلب البناء؟ عشرين عاماً، وعشرة آلاف عامل؟ أنا، بثلاثة أيام أدمره. تأملوه جيداً، لآخر مرة، ودعوه: لن يبقى حجر على حجر!

ابتعد التلاميذ، مبلبلين؛ هل اضطرب ذهن المعلم؟ كان قد صار، في الأيام الأخيرة، غريباً وجاف الكلام؛ ومتشبثاً برأيه. هبت عليه رياح غريبة وغير مستقرة؛ كان وجهه يبرق أحياناً كالشمس العالية وفي النهار يأخذ هيئة الحياد في كل ما يحيط به؛ ويكمد وجهه أحياناً وتمتلئ عيناه باليأس.

ـ يا معلم تجرأ يوحنا وقال، ألا ترحمه؟

ـ من هو؟

الهيكل. لم تريد تدميره؟

ـ لبناء آخر جديد. في ثلاثة أيام سأبني هيكلاً جديداً. إنما يجب أولاً أن يخلي هذا القائم المكان.

أخذ عصا الراعي الذي أعطاه إياها فيليب، وضرب حجارة الهيكل. وهبت عليه ريح الغضب. نظر إلى الفريسيين الذين يمرون مترنحين ويصدمون الجدران، كما لو أن نور الله الساطع أعماهم.

يا مراؤون، صرخ بهم، لو أخذ الله السكين ومزق قلوبكم، لخرجت منها الأفاعي، العقارب والأقذار! كان

الفريسيون يسمعونه ويغضبون. واتخذ خفية سر إغلاق هذا الفم المتهور.

وضع الشيخ رابين يده على فم يسوع ليمنعه من الصراخ

أبعد الموت تركض؟ سأله يوماً، وتغشى الدموع عينيه. الكتبة والفريسيون يلحون باستمرار على بيلاطس طالبين موتك، ألا تعرف؟

أعرف، يا شيخ، أجاب يسوع، أعرف هذا. بل أعرف أشياء أخرى، أشياء أخرى جمة أيضاً...

أمر توما أن ينفخ ببوقه، ويصعد إلى الدرج الذي اختاره، في رواق سالومي ويعود إلى الإعلان:

يصل، يصل، يوم السيد المسيح! ليصرخ كل يوم من الصباح حتى مبيت الشمس، ليكره السماء أن تنفخ وتطلق لهيبها. لأنه يعرف جيداً أن صوت الإنسان سحر كلي القدرة. ينادي النار أو الرخاء، الجحيم أو الجنة: "تعال! تعال!" ويأتيه ما يطلب. هكذا يصرخ بالنار؛ هو الذي سيطهر العالم والذي سيشق الدرب لتأتي المحبة. تود أقدام المحبة دوماً أن تطأ الرماد...

يا معلم، قال له يوماً أندريه، لم لم تعد تضحك، لم لا تفرح كالسابق؟ لماذا أنت محتد أبداً؟

لكنه لم يرد. ماذا يمكن أن يقول له، وكيف لقلب أندريه الساذج أن يفهم؟ يجب، قال في نفسه، أن يباد هذا

العالم من الجذر وأن يغرس مكانه عالم آخر وأن تمزق الشريعة السالفة وأنا من يمزقها. سنرسم على صفحات القلب شريعة جديدة وأنا من يرسمها. سأوسع حدود الشريعة لتضم الأصدقاء والأعداء، اليهود والوثنيين، ولكي تزهر الوصايا العشر! لذا أتيت إلى القدس. هنا ستفتح السماوات. ماذا ينزل من السماء؟ الأعجوبة الأعظم أم الموت؟ هي إرادة اللّٰه. أنا مستعد أن أصعد إلى السماء أو أضمحل عند الأموات. يا سيد، قرر أنت.

كان عيد الفصح قريباً. طقس ربيعي لطيف غير متوقع غطى وجه أرض يهودا القاسي. فتحت دروب البر والبحر ووصل الحجاج من أربعة أركان الأرض العبرية. كانت ساحات الهيكل تمور، تنشر فيها الطاعون رائحة الحيوانات التي تذبح، والأقذار والناس. أمام رواق سالومي جمهرة من المعدمين والمعاقين، بوجوه شاحبة وجائعة، وعيون تبص. كانوا يحدقون إلى الصدوقيين المرهفين، والأغنياء البورجوازيين المنعمين ونسائهم المتبرجات بأغلى زينات الذهب.

إلى متى ستضجون بالضحك؟ دمدم أحدهم. لن نتردد عن ذبحهم؛ قال المعلم: سيقتل الفقراء الأغنياء ويقتسمون أرزاقهم.

لم تسمع جيداً، يامنسا، أردف رجل شاحب الوجه يرتدي جزة من الصوف وعيني خروف. لم يكن في العالم فقراء، وأغنياء؟، سيكون الجميع متساوين. هذا ما تريد أن تقوله له

مملكة السموات!

ـ مملكة السموات تريد أن تقول، رد رجل خبيث أشر، أن يرحل الرومان من عندنا، من أرضنا لنأكل نحن خيراتها. لا مملكة للسموات مع الرومان، ليس هذا ممكناً

ـ لم تفهم شيئاً، يا آيرون Aoron، مما قال المعلم، قال عجوز ذو شفة كشفة الأرنب، وهو يهز رأسه الأصلع. ليس ثمة لا إسرائيليون ولا رومان، لا يونان ولا كلدانيون، ولا بدو. نحن جميعاً أخوة!

نحن كلنا رماد! زعق آخر. هذا ما فهمت، أنا، سمعته بأذني هاتين. المعلم قال: تفتح السماء، كان الطوفان الأول ماء، وسيكون هذا ناراً؛ الكل، فقراء وأغنياء، إسرائيليون ورومان، رماد!

"ستهتز الزيتونة، إنما يبقى زيتونتان أو ثلاث في القمة وثلاث أو أربع في أبعد الأغصان"، هذا ما قال النبي اسحاق. شجاعة، يا أبناء، نحن الزيتونات التي لم تسقط. فقط يجب أن نبقي المعلم قريب منا لأن لا يهرب! قال رجل أسود كالفحم، جاحظ العينين، مركزاً بصره على الدرب الأبيض والأغبر بيتانياBethanie . لقد تخلف اليوم، تمتم، تخلف... احذروا، يا أولاد، أن لا يهرب منا!

ـ إلى أين ذهب؟ أردف الرجل ذو شفة ـ الأرنب. في القدس قال له الله أن يصارع؛ وقد صارع هنا!

شغلت الشمس كبد السماء، البلاطات تنشر دخانا، في الجو القائظ تبلغ النتانة فورتها. مر جاك الفريسي، ذراعاه مليآن تمائم، يمدح حسنات كل منها ــ هذه تشفي من الجدري، وهذه من التهاب الجلد، وتلك تحقق النصر والمجد؛ هذه تطرد الأبالسة وتقهر الأعداء... رأى المعدمين والمعاقين وعرفهم؛ سخر فمه اللاذع بخبث: ـ اذهبوا إلى الشيطان! وبصق في الهواء ثلاث مرات.

بينما كان المعدمون يتحدثون وكل منهم ينحو بكلام المعلم المنحى الذي يرغب فيه. انبثق أمامهم شيخ جبار وموقر، يحمل عصا طويلة، وكان وجهه مغطى بالعرق والغبار؛ لا تبدو فيه أي تجعيدة، يشرق:

ــ ملشسيدش Melchisedech[1] ! زعق الشيخ ذو الشفة الشرماء. أية أنباء سعيدة من بيتانيا؟ وجهك متهلل.

افرحوا وابتهجوا، يا أبناء! زعق الشيخ الجليل وراح يأخذهم بالأحضان ويبكي. ميت بعث، رأيته بأم عيني، نهض من القبر ومشى! أعطي ماء وشرب، أعطي خبزا وأكله، وحكى!

من هو؟ من قام؟

---

1 ــ ملك سالم، في كنعان، الكاهن الأعلى، و معاصر ابراهيم، سفر التكوين.

انقض الجميع على العجوز وجعلوا يستزيدون اطلاعاً. سمع ركض رجال ونساء من الأروقة المجاورة، بعض اللاويين وبعض الفريسيين اقتربوا؛ مر بارابا أيضاً، سمع حركة ولحق الرهط. اعتبط ملشسيدش لرؤيته الناس معلقة بشفتيه؛ استند إلى عصاه وراح يتكلم بحماس:

أليعازر، ابن ايلياس Eliacin، من يعرفه؟ مات منذ أيام ودفناه. انقضى يوم، اثنان، ثلاثة، نسيناه. في اليوم الرابع سمعنا صراخاً من الدرب، خرجت مسرعاً، رأيت يسوع، ابن مريم، في الناصرة، وأختا أليعازر، مرميتان على قدميه، تستعدان لعناقه وتبكيان أخاهما: " يا معلم، لو كنت معه، لما مات..." هكذا صرختا ونتفتا الشعر. " هاته من بين الأموات، ناده ويأتي!" أخذ يسوع البنتين من أيديهما وأنهضهما:

هيا بنا، قال.

ركضنا كلنا وراءهم، وصلنا إلى القبر. وقف يسوع، صعد دمه إلى رأسه، دارت عيناه، اختفتا، لم يعد يرى سوى الأبيض. آنئذ بعث خواراً كمن تلبس ثوراً، فزعنا كلنا. وبغتة، بينما كان واقفا وترتجف كل أعضائه، زعق صوتاً وحشياً، صراخاً لم يسمع مثله، كأنه آت من العالم الآخر. وكان كما لو توجب على رؤساء الملائكة أن يصرخوا عندما يغضبون: "أليعازر اخرج من هنا!" وفجأة سمع من القبر حركة الأرض وتمزقها. وراح غطاء القبر الحجري يموج وشيئاً فشيئاً

ارتفع. اخضر لوننا من الخوف. لم أخف الموت يوماً كما خفت هذا البعث. أقسم إذا ما قيل لي: ماذا تتمنى أن ترى، أسداً أم بعثاً؟ لقلت: أسداً.

إلهي! إلهي! صرخ الشعب باكياً. تحدث، شيخ ملشسيدش!

زعقت النساء، واختبأ العديد من الرجال وراء الحجارة ونحن الذين بقينا. كنا نرتعد. كان غطاء القبر يرتفع بهدوء. ورأينا ذراعين أصفرين، ثم رأسا أخضر، معفراً بالتراب، ثم الهيكل البشري مغلفاً بالكفن... قدم رجلاً، ثم الأخرى، خرج. كان أليعازر.

وقف الشيخ الجليل. جفف بكمه العريض عرقه المنهمر. حوله كان الشعب يزعق؛ كان البعض يبكي، البعض يرقص. رفع بارابا يده الضخمة المشعرة:

أكاذيب! ترهات! صرخ. هذا رسول من الرومان. رتب كل هذا مع أليعازر، يسقط الخونة!

حذار! سمع صوت وحشي خلفه؛ كيف هذا!، الرومان؟

استدار الناس وتراجعوا في الحال. كان قائد المائة يمشي مباشرة إلى بارابا، رافعاً السوط. مسكته من ذراعه طفلة شاحبة الوجه، شقراء. كانت واقفة طيلة هذا الوقت، مصغية إلى ملشسيدش، والدموع تنهمر من عينيها الخضراوين. انزلق بارابا بين الناس واختفى. ركض خلفه جاك الفريسي، مع التمائم؛ أدركه خلف أحد الأعمدة هنا، من فم إلى أذن راحوا

كلهم يتآمرون. صار قاطع الطريق والفريسي أخوة؛ تكلم باراباا أولاً:

ـ أتعتقد أن هذا صحيح؟ سأل، مضطرباً.

ـ ماذا؟

إن ميتاً، هنا، بعث...

انتبه جيداً إلى ما أقوله لك. أنا فريسي، أنت زيلوت[1]. حتى الآن كنت أصدق أن إسرائيل يمكن أن تخلص بالصلاة وحدها، بالصوم والشريعة المقدسة. والآن ......

ـ والآن؟ أردف الزيلوت، وعينه ترسل بريقاً.

الآن أقاسمكم آراءكم. الصلاة والصوم لا يكفيان، هنا يجب أن تعمل السكين اتفهم

ضحك باراباا ضحكة عريضة

لي أنا تقول هذا؟ ليس أفضل من الصلاة إلا السكين. إذن؟

ـ لنبدأ بها.

لنقل بوضوح

أليعازر. من الضرورة الملحة إن نعمل على اعادته إلى القبر. مادام الشعب يرى هذا، يقول: مات واقامه ابن مريم. ومجد النبي الكاذب سيتأزر. أنت على حق؛ باراباا، هذا رسول من

---

1 ـ اسم أعطي للمواطنين اليهود المتحمسين الذين أعلنوا عصيان يهوذا.

الرومان الذين يرسلونهم للصراخ: لا تبالوا بمملكة الأرض، فكروا بالسماء! إذن، في أثناء الوقت الذي نضيعه بالتفكير بالسماء، يبقى الرومان فوق رقابنا، أتفهم؟

إذن؟ يجب أن يقضي عليه هو أيضاً، حتى لو كان أخاك؟

هذا ليس أخي. لا أريده! صاح الفريسي كمن يحاول أن يمزق ثوبهُ. أتركه لك!

بعد هذا، ترك العمود ورجع ينادي داعياً لتمائمه. أثار أعصاب باربا، فاغتبط، يئس

لما رهط الفقراء القابعون أمام رواق سالومي من رؤية يسوع، بدأ يتبعثر. اشترى الشيخ ملشسيدش حمامتين بيضاوين ليقدمهما ضحية ويشكلا إله إسرائيل الذي أشفق أخيراً على شعبه وأرسل له، بعد سنين، نبياً جديداً.

كانت الصلوات مضطرمة، وجوه كالنار، أمام الضوء الساطع. امّحث. فجأة هبت غيمة من الغبار على درب بيتانيا، سمع صراخ مسرور، تحمست الضيعة كلها ووصلت. شوهد أولاً الفتيان، حاملين أغصان البقس والغار: كان يسوع خلف الأغصان يشع من وجهه الضوء، وخلفه التلامذة مثارون، كما لو أن كلاً منهم أحيى ميتاً: أخيراً، بقوة الصراخ، تحرك أبناء بيتانيا. سارعوا جميعاً إلى الهيكل. طلع يسوع من الدرجات اثنتين، تجاوز الباحة الأولى، وصل إلى الثانية. من وجهه ومن يديه كان ينبعث نور وحشي، ولا أحد يقدر أن يقربه. خلال

لحظة تراجع الشيخ الحاخام الذي ركض وراءه، أراد أن يدخل الجو غير المرئي تراجع في الحال وكأن اللهب لمسه.

بعد لأي استطاع الخروج من جو الله اللاهب ودمه يغلي ويضج أبداً. لم يستطع، لم يقدر أن يصدق ما رأى. كانت قوة الروح قوية إلى هذا الحد إذن؟ بإمكانها أن تقول للجبال: تعالي! وتأتي الجبال؟ تمزق الأرض وتخرج منها الأموات؟ تدمر العالم ثلاثة أيام وتبنيه مجدداً بثلاثة أيام؟ إنما إن كانت قوة الروح غير محدودة، فوزر الضياع أو الخلاص يحمله الإنسان؟ فتتزعزع الحدود بين الله والإنسان ...... هذه فكرة خطيرة، رهيبة، كان صدغا يسوع يدقان بعنف.

ترك اليعازر في التابوت، واقفاً في القبر، وذهب بسرعة غريبة نحو هيكل القدس. أحس، لأول مرة بقوة لا تقهر أيضاً، إن هذا العالم يجب أخيراً أن يزول وتنبعث من القبور قدس جديدة. اللحظة دنت. هي ذي الأمارة التي كان ينتظر: العالم المتعفن حتى الجذر كان أليعازر، الوقت مؤات لمناداته: " أيها العالم، انهض!" عنده رسالة؛ وكانت الأخطر، يحسها الآن، إن القدرة لا تنقصه. لم يعد يقدر أن يجد مخرجاً ويقول: لا أقدر! يقدر، وإن كان العالم لم يخلص، فعلى كاهله يقع الخطأ.

الدم يضج في رأس يسوع. رأى حوله المعمدين والمضطهدين الذين يحدقون إليه ويعلقون به كل آمالهم. أطلق صرخة وحشية ووثب إلى الدرج، تحلق الشعب حوله، الأغنياء والشبعانون

انتظروا أيضاً، يضحكون خفية، لسماعه. التفت يسوع، رآهم ورفع قبضته:

اصغوا، أيها الأغنياء، صرخ، اصغوا، يا سادة هذا العالم، لن يستمر الظلم، ولا العجز الجسدي ولا الجوع! حل الله شفتي بفحمة متقدة وأنا أصيح: حتى متى تستمرون فوق أسرتكم العاجية وتحت أغطيتكم اللدنة الفخمة؟ إلى متى تأكلون لحم الفقراء وتشربون عرقهم، دمهم ودموعهم؟ لم أعد قادراً على تحملكم! قل يا رب. النار أتت، الموتى يحيون، نهاية العالم دانية!

قبضهُ عملاقان معدمان ورفعاه على أذرعهما. تجمهر الشعب، هازاً أغصانه. وصعد الدخان من النار المنبثقة حول النبي:

ـ لم آت حاملاً السلم للعالم، بل مجزرة، سأطلق الفوضى والبلبلة في البيوت، الابن يرفع يده على أبيه، الابنة على أمها، الكنة على حماتها، من أجلي. من يتبعني يترك كل شيء. من يبحث عن خلاص روحه في هذه الأرض، يخسرها. من يخسر بسببي هذه الحياة العابرة، يربحها إلى الأبد.

ـ ماذا تقول الشريعة، تمرد؟ أطلق صوتاً وحشياً. ماذا تقول الكتب المقدسة، الشيطان؟

ـ ماذا يقول كبار الأنبياء، جريمي، حزقيال؟ يجيب يسوع . وعيناه تبرقان. سألغي الشريعة المنقوشة على ألواح موسى

وسأنقش شريعة جديدة في قلب الإنسان. سأجتث القلب الحجري الذي يعيش به الناس وأعطيهم قلباً من لحم. وسأغرس في هذا القلب الأمل الجديد! أنا من ينقش في القلوب الجديدة الشريعة الجديدة. أنا من يتبع الأمل الجديد! سأوسع المحبة، سأفتح أبواب الله الأربعة على مصراعيها، الشرق، الغرب، الشمال والجنوب لتدخل كل الأمم. ليس صدر الله مكاناً معزولاً، هو يستوعب العالم قاطبة، الله ليس فرداً إسرائيلياً. هو روح خالدة.

خبأ الحاخام العجوز وجهه بيده؛ أراد أن يصرخ: " يسوع، اصمت. هذا تجديف اشر! " لكن الوقت لم يمكنه. انطلق صراخ النصر الوحشي، كان الفقراء يعبرون عن فرحهم، استنكر اللاويون، مزق جاك الفريسي ثيابه وبصق في الفراغ. غادر الحاخام ميت النفس: " لقد ضاع، جمجم، وهو يمشي ويبكي، " لقد ضاع؛ أي شيطان، أي إله، أي إله فيه ويصرخ؟ "

كان يمشي متمايلاً من التعب؛ خلال كل هذه الأيام، كل هذه الأسابيع التي قضاها راكضاً خلف يسوع، جاهداً ليعرف من هو، بلي وانهدم هيكله العجوز، لم يبق له سوى العظم، يلفها جلد أسمر. كانت الروح تتعلق بهما وتنتظر. أكان أم لم يكن هذا الرجل، هو المسيح الذي وعدهم الله به؟ العجائب التي يجترحها، يقدر الشيطان أن يفعلها، يقدر أن

يحيي الأموات. العجائب لا تكفي الحاخام ليحكم. والأنبياء يكفون أيضاً. الشيطان رئيس ملائكة واسع القدرة والمكر. يستطيع أن يوفق تماماً بين كلامه وأفعال الأنبياء الأطهار، ليخدع الناس. لذا لم يستطع الحاخام أن ينام طيلة الليل وهو يلتمس اللّه أن يرحمه وأن يعطي أمارة أكيدة ..... أية أمارة؟

الحاخام يعرف جيداً؛ هو الموت، موته هو. كان يتملى هذه الأمارة ويرتعد.

كان يركض في الغبار ويتعثر. في قمة التلة ظهرت بيتانيا وقد ابتلعتها الشمس. التزم الحاخام بالصعود ووصل يلهث.

كان بيت أليعازر مفتوحاً والفلاحون لا يكفون عن ولوجه ليروا ويلمسوا الميت ـ الحي، ليصغوا إلى تنفسه، إلى كلامه، ليروا إن كان حياً فعلاً أم أن هذا شبح. كان جالساً في زاوية متراجعة من البيت، لأنه لا يحتمل مواجهة الضوء، كان متعباً ويتكلم قليلاً كانت قدماه، ذراعاه، بطنه منتفخة، مخضرة، كما تكون لميت منذ أربعة أيام، كان وجههُ المتورم متشققاً من كل الجهات، ومن هذه الصدوع ينز سائل أصفر مبيض يلطخ بالكفن الأبيض الذي مازال يحمله، كان ملتصقاً بجلدِهِ ولا يمكن نزعه. بداية كان ينشر رائحة منتنة قوية جداً ومن يقربه يسد أنفه، إنما شيئاً فشيئاً تقلص النتن، ولا يشعر الآن إلا بالتراب والبخور. من لحظة إلى أخرى كان يحرك يده ويزيح العشب العالق بلحيته وشعره. كانت أختاه، مرتا ومريم يرفعان

عنه التراب والديدان الصغيرة التي ما تزال عليه. حملت له جارة شفوق دجاجة والآن كانت الحاجة سالومي أمام الموقد تحضر مغلياً عشبياً للميت ـ الحي لتدب فيه القوة. كان القرويون يأتون للحظات وينصرفون، يلا حظونه بانتباه ويكلمونه. كان يجيب بنفس متضايقة، نعم أو لا، وعدة كلمات، ثم يأتي آخرون من القرى المجاورة ......

في ذلك اليوم، اتى كاتب العدل الأعمى بدوره، مد يده بشراهة، لمسه وضحك : ـ هل تسليت جيداً عند الموتى؟ سأله. مرحى، أليعازر، الآن أنت تعرف كل أسرار عالم تحت الأرض، لكنك لا تكشفها، أيها البائس، ربما، حيرت الشرائح العليا ... دنا من أذنه: ديدان صغيرة، يا هذا؟ ليس سوى بعض الديدان، يا هذا؟ سأله، شبه مازح، شبه خائف. انتظر هنيهة لكن أليعازر لم يرد. غضب الأعمى. أخذ عصاه وغادر .

كانت المجدلية واقفة في العتبة تراقب الطريق، الذاهب إلى القدس. كان قلبها يبكي كما الطفل . في كل هذه الليالي كانت ترى أحلاماً مزعجة، ترى يسوع وقد تزوج، هذا نذير الموت . وفي السهرة رأته بشكل سمكة تطير: طور جناحيه، قفز خارج الماء ووقع على الأرض. كان يسقط على حصى الشط، يجهد ثانية في فتح جناحيه ولا يوفق، كان يختنق. بدأت عيناه تكفهر، التفت ورآها؛ كانت قد سارعت لتمسكه وتعيده إلى البحر، لكنها لما انحنت وأخذته من يده،

كـان قـد مـات. إنمـا بينمـا كانـت تأخـذه مـن يـده وتبكيـه، تاركة دموعها تزرف عليه، رأته يكبر، يمـلأ ذراعيهـا، وصـار رجلاً ميتاً ......

لن أتركه بعد الآن يذهب إلى القدس ...... لـن أتركـه بعـد الآن يذهب إليها ..... تنهدت ورأت الدرب الأبيض يشوه وصوله.

لكن عوض يسوع ظهـر علـى طريـق القـدس أبوهـا العجـوز الحاخـام محـدودباً مترنحـاً، " مسـكين يـا أبـي العجـوز، قالـت المجدليـة لنفسها. هـل يـود بهـذه الحالـة أن يتبـع معلمنـا حيثمـا رحل، ككلب عجوز أمين! أسمعه ينهض في الليـل، يخـرج إلى الدار، يركع، ينادي اللّه: ساعدني، أرسل لي أمارة! لكن اللّه يتركه يعاني، يعذبه، كما يبدو، لأنـه يحبـه، هكـذا يواسـي البائس......"

كانـت تـراه الآن يـصعد، يـستند إلى عـصاه الكهنوتيـة ويقف في كل لحظة لينظر وراءه نحو القدس، يفتح الـذراعين، يأخـذ نفسـاً ..... في الأيـام الأخـيرة في بيتانيـا، حيـث يوجـد الأب والبنت مجتمعين، نسيا الماضي، يكلمـان نفسيهما، رأى الأب ابنتـه تركـت الـدرب الخطـأ وسـامحها؛ الـدموع غـسلت كـل الأخطاء، الحاخام العجوز يعرف هذا، والمجدلية بكت كثيراً.

وصل الوالـد منهكـاً، ابتعـدت المجدليـة تاركـة إيـاه يمـر، لكنه توقف وأخذ يديها، ملتمساً:

ـ مجدلية، يـا ابنتي، أنـت امـرأة، لـدموعك طاقـة كـبرى،

ولمداعباتك أيضاً، ارم نفسك على قدميه وتوسليه أن لا يعود إلى القدس. اليوم تجاوز الكتاب والفريسيون كل الأصول، رأتهم، كانوا يتكلمون بالسر فيما بينهم، تخبئ شفاههم الغل والخبث، يبيّتون موته.

ـ موته! أردفت المجدلية، لقد تقعر صدره، موته! أما هو، يا أبتي، ربما مات؟

تأمل الحاخام الشيخ ابنته وابتسم ابتسامة مرة:

ــ هذا ما نقوله عن كل الرجال الذين نحبهم، تمتم، وسكت.

لكن المعلم ليس إنساناً عادياً، مثلنا، قالت المجدلية، لا! لا! رددت لتطرد خوفها.

ـ كيف تعرفين؟ قال الشيخ؛ كان قلبه يختنق: كان يثق بغريزة المرأة أو حدسها

أعرف، ردت المجدلية، لا تسلني كيف، أنا متأكدة. لا تخف، يا أبتي، من يجرؤ على لمسه الآن بعد أن أقام أليعازر؟

الآن لأنه أحيى أليعازر صاروا أكثر خطراً. سابقاً، كانوا يسمعونه يكرز ويهز الكتفين؛ أما الآن بعد أن شاعت العجيبة الجديدة وانتشرت، تشجع الشعب، فصرخ: هو ذا المسيح، يحي الموتى، يستمد قدرته من الله، هيا نذهب معه! اليوم تناول رجال ونساء أغصاناً وركضوا وراءه، رفع المعاقون عكازاتهم وهددوا، ورفع الفقراء رأسهم ...... يرى الكتبة والفريسيون

كل هذا ويستنظرون. يقولون: إن تركناه يفعل أشياء أخرى، نضيع. ويذهبون من غير توقف من حنة إلى كاييف d' Anne a Caiphe من كاييف إلى بيلاطس pilate، يحفرون قبره ...... مجدلية، يا ابنتي، شدي ركبتيك، لا تدعيه يدخل القدس، لنعد إلى الجليل.

تكدر محياه، وبدت في وجهه حبيبات: وكان وجهه كوجه الموتى لما سمع خطاي، توارى خلف العليق. أمارة سيئة!

انحنى جسده بعد أن فقد قواه؛ مدت المجدلية ذراعيها إلى قامة أبيها وأدخلته؛ أتت بمقعد وأجلسته. ركعت بقربه، وسألت:

ـ أين هو الآن، أين تركته يا أبي؟

في الهيكل. صرخ، أرسلت عيناه لهباً. سيحرق البناء المقدّس! وقال كلاماً آخر، يا إلهي، أية تجديفات! قال: سألغي شريعة موسى، سآتي بأخرى جديدة، عصرية. لن أذهب لألاقي الله في جبل سيناء، سألاقيه في قلبي!

خفض العجوز الصوت، وقال مرتعشاً:

أحياناً أخشى أن يكون عقله اضطرب. أو ربما صار شيطاناً......

ـ صه! قالت المجدلية واضعة يديها على شفتي العجوز.

كان الاثنان يتحدثان أيضاً لما ظهر في العتبة التلاميذ، الواحد وراء الآخر. وقفت المجدلية بحيوية، نظرت، لم يكن

يسوع معهم.

ـ والمعلم؟ قالت بصوت يختنق، أين المعلم؟

لا تخافي، أجاب بطرس، بنبرة مذهولة. لا تخافي. إنه قادم وثبت مريم من عند قدمي أبيها حيث كانت راكعة. دنت من التلاميذ قلقة. كانت وجوههم كمدة، منهارة، ونظرتهم جامدة. استندت إلى الجدار، وتمتمت مبلبلة:

ـ المعلم؟

هو قادم، يا مريم، آت ..... رد يوحنا، لو حدث له مكروه، نتركه؟

انتشر التلاميذ في البيت، عابسين، مبتعدين عن بعضهم. سحب متّى أوراقه من قميصه واستعد للكتابة.

تكلم، أنت، شيخ متّى، قال العجوز رابين، تكلم، ولترافقك بركتي.

ـ يا عجوز، أجاب متّى، بينما كنا نعود سوية، إلى باب القدس، قبض علينا قائد المائة روفس. زعق: ـ قفوا! عندي أوامر! شحب لوننا خوفاً، لكن المعلم مد له يده بكل بساطة: ـ أهلاً بالصديق، ماذا تريد مني؟

ليس أنا، روفس، بيلاطس يطلبك. أرجوك، تعال معي. — أنا آت قال يسوع بهدوء واستدار نحو القدس. لكننا سارعنا إليه، صارخين: ـ إلى أين تذهب يا معلم؟ لن نتركك. تدخل قائد المئة: ـ لا تخشوا شيئاً، نريد له الخير؛ أعدكم! — اذهبوا

أنتم، أمرنا المعلم، لا تخافوا؛ لم تأت الساعة بعد، لكن يهوذا وثب وزعق: ـ أنا، سأذهب معك، يا معلم، لن أتركك. وذهبوا نحو القدس، يسوع وقائد المئة في الأمام ويهوذا وراءهم، مثل كلب الراعي.

بينما كان متّى يحكي، دنا التلاميذ وركعوا على الأرض، صامتين.

وجوهكم مضطربة، قال الحاخام؛ تخبئون عنا شيئاً ما

ـ هي اهتمامات أخرى، يا شيخ، أجاب بطرس، اهتمامات أخرى .... وسكت مجدداً.

كان هذا صحيحاً، فقد تلبستهم في طريق العودة شياطين سوداء. بدأ الموتى يحيون، يوم الرب قادم، سيعتلي المعلم العرش، لقد وافت لحظة اقتسام الناس. إذن، من أجل القسمة، راح التلامذة يقتتلون.

أنا من سيجلس إلى يمينه، قال أحدهم، أنا من يفضل. — لا، بل أنا! بل أنا! — بل أنا! — بل أنا! صرخوا جميعاً — أنا أول من ناداه يا معلم! قال أندريه. — أنا أكثر من رآه في الحلم، أردف بطرس — أنا من اعتبره يسوع الحبيب .... قال يوحنا. — أنا أيضاً! — وأنا! زعقت الأصوات. فار دم بطرس: ــ اذهبوا كلكم! صرخ. أليس لي من قال أول أمس: " بطرس، أنت الصخرة وعليك سأبني القدس الجديدة؟ "

لم يقل القدس الجديدة! أنا سجلت هنا، كلماته، قال

متّى، ودقّ على دفتره، وعلى صدره.

ماذا قال لي آنئذ، أنا الناسخ؟ أنا من سمع! قال بطرس غاضباً.

قال: أنت بطرس، الصخرة، وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي. "كنيستي، ليس القدس؛ ثمة فرق كبير! – وبم وعدني أيضاً؟ صاح بطرس، لماذا سكت؟ إلا يلائمك أن تكمل؟ بشأن المفاتيح ...... قل هذا إذن! وأخذ متّى، من دون إكراه، دفتره، فتحه وقرأ : " وسأعطيك مفاتيح السماء .... "

ثم! بعد هذا! صرخ بطرس، منتصرا. بلع متّى ريقه، وانحنى ثانية على الدفتر: " ما تعقدونه على الأرض سيعقد في السماء وما تحلونه على الأرض سيحل في السماء .... " هذا كل شيء! – وستجد أن هذا لا يساوي شيئاً؟ هذا أنا، سمعتم جميعاً، من يستلم المفاتيح؛ أنا من يفتح ويغلق الجنة. إن شئت، أدخلكم، إن لم أشأ، لا أدخلكم!

آنئذ أعلن التلاميذ؛ أسقط بأيديهم لأنهم ما كانوا قريبين من بيتانيا. خجلوا أمام القرويين وابتلعوا خوفهم؛ لكن وجوههم كانت ما تزال عابسة.

(26)

على هذا كان يسوع وقائد المئة يمشيان في المقدمة ووراؤهما الكلب الذي يحمي يسوع. دخلوا في أزقة القدس الملتوية واتجهوا إلى القصر. قرب الهيكل، حيث يسكن

بيلاطس البنطي. فك قائد المئة الضغط عن أسنانه قبل غيره، قال: ـ ربي، ابنتي تنعم بالصحة وتتألق وفكرك لا يتركها؛ كلما سمعتْ أنك تخطب في الناس، تغادر البيت سراً وتركض للإصغاء إليك. واليوم، أخذتها من يدها، واستمعنا إليك تتحدث في الهيكل وودت أن تأتيك لتعانق قدميك.

ـ لمَ لمْ تدعها تفعل؟ قال يسوع، لحظة تكفي لخلاص نفس الإنسان. لماذا سمحت لهذه اللحظة إن تمر، لم أضعتها؟

" رومانية تقبل قدمي يهودي! " قال روفس لنفسه، ياللخجل. لكنه سكت.

كان في يده سوط قصير ويبعد العامة الصاخبة. كان الطقس قائظاً، الأجسام تتلوى، والمكان يعج بموجات الذباب؛ كان قائد المئة يتنفس يتقزز من التنفس اليهودي؛ بعد أن قضى سنين في فلسطين، لم يعتد الحي اليهودي. الآن كان يجتاز السوق، المغطى بأغطية من قش؛ هنا الجو ألطف، أبطأوا الخطى.

ـ كيف يقدر أن يلتئم ؟ هذا الجمع من الكلاب؟ قال قائد المئة.

احمر يسوع، وقال:

ـ ليس هؤلاء كلاباً. هؤلاء بشر، شرارات من الله. الله لهيب، يا قائد المئة، في كل روح شرارة منه، عليك أن تحترمها.

أنا روماني، رد روفس، إلهي روماني أيضاً. يشق الطريق،

يبني الثكنات، يجلب الماء إلى المدن، يتسلح بالبرونز ويذهب إلى الحرب. يمشي أمامنا ونحن نتبعه. والنفس التي تتحدث عنها، عندنا تشكل مع الجسد كياناً واحداً وعليه يستند الخاتم الروماني. عندما نموت، يموت الجسد والنفس معا ويبقى أبناؤنا، هذا هو، بالنسبة لنا، الخلود. واعذرني، ما تقوله عن ممالك السماوات تبدو لنا حكايات جان.

وسكت، ثم بعد برهة، قال:

ـ خلقنا لنحكم الناس، ولا يحكم الناس بالمحبة.

ـ ليست المحبة من دون سلاح، قال يسوع. وتأمل عيني قائد المائة الزرقاوين والباردتين، خديه الحليقين، ويديه الضخمتين المتكتلتين. والمحبة تذهب أيضاً إلى الحرب وتقتحم.

ـ إذن ليست محبة، أردف قائد المئة.

حنى يسوع رأسه، وقال لنفسه:

ـ يجب إذن أن أبحث عن قربة أخرى لأضع فيها الخمرة الجديدة، وكلمات جديدة."

أخيراً وصلوا. كان القصر والثكنة بناءً واحداً، أمامهما البرج الذي يقطن فيه الحاكم الروماني، المتغطرس بيلاطس البنطي. Ponce pilate العرق اليهودي جعله يتقيأ. كان يضع منديلاً أمام أنفه كلما مشى في حارات القدس أو رأى نفسه مضطراً أن يحدث يهوذا. هو لا يؤمن لا بالآلهة ولا بالناس. ولا بيلاطس البنطي حتى؛ أبداً. يحمل دوماً في رقبته آلة حلاقة

معلقة بسلسلة ذهبية ليفتح عروقه يوم يأخذ كفايته من الأكل والشرب، والحكم، أو يوم يرسله الإمبراطور إلى المنفى. كان كثيرا ما يسمع اليهود يزعقون ليدعوا المسيح، ليطلبوا منه المجيء لتحريرهم، وكان يضحك. كان يري زوجته آلة الحلاقة الصغيرة ويقول لها: "هذا هو مسيحي، هو الذي سينقذني." لكن زوجته تحول وجهها ولا ترد.

أمام باب البرج الواسع توقف يسوع، وقال:

ـ يا قائد المئة، أنت مدين لي بمعروف، أتذكر؟ وأزفت اللحظة لأسألك معروفاً.

أنا مدين لك بفرحي كل حياتي، يا يسوع الناصري، أجاب روفس. قل؛ سأقدم كل ما يتيسر لي.

ـ إن أسرت أو حبست أو قتلت، لا تفعل شيئاً لإنقاذي. أتعدني؟ كانوا قد تخطوا باب البرج؛ رفع الحرس اليدين لتحية قائد المئة.

ـ أتسمي هذا معروفاً؟ سأل روفس، متعجباً. أنا لم أفهم اليهود.

كان زنجيان ضخمان يقفان أمام باب بيلاطس البنطي كحارسين.

ـ هذا معروف، يا قائد المئة، قال يسوع. أتعطيني كلمتك؟

أومأ روفس للزنجيين أن يفتحا الباب.

صارم حليق ضيق الجبين رمادي وقاسي العينين، ناعم

الشفتين، كجرح. رفع بيلاطس الرأس ورأى يسوع الذي كان واقفاً أمامه. كان جالساً في عرش عال، مزداناً بنسور بارزة، يهم بالقراءة

ـ هذا أنت، يسوع الناصري، ملك اليهود؟ زفر بتهكم ثم وضع منديله المعطر تحت منخريه.

لست ملكاً، رد يسوع.

ـ ماذا؟ ألست المسيح؟ أليس المسيح الذي ينتظره مواطنوك أبناء العرق المصطفى منذ أجيال ليحررهم ويجلس على عرش إسرائيل؟ وليطردنا، نحن الرومان؟ إذن لماذا تقول: لست ملكاً؟

ـ ليست مملكتي على الأرض

ــ وأين إذن؟ على الماء؟ في الفضاء؟ أردف بيلاطس، وانخرط بالضحك.

ـ في السماء، أجاب يسوع بتؤدة

ـ حسناً، قال بيلاطس، أنا أقدم لك السماء هدية. على أن لا تمس الأرض!

نزع من إصبعه الخاتم الضخم، رفعه إلى قرب النور وتأمل الحجر الأحمر؛ نقش عليه رأس ميت محاطاً بكتابة: كل، اشرب، تمتع؛ هذا ما ستكون غداً.

ـ اليهود يكرهوني، قال، هم لا يغتسلون أبداً ولهم إله على صورتهم: وسخ، يرسل شعره ويجدله، حيوان جارح، دعي، وحقود كجمل.

ـ أعلم أن هذا الإله رفع قبضته فوق روما ، قال يسوع بتؤدة أيضاً.

ـ روما خالدة، رد بيلاطس؛ ثم تثاءب.

ـ روما هي التمثال المتغطرس الذي كوّن دانيال النبي عنه رؤية

ـ تمثال؟ أي تمثال؟ ما ترغبون فيه في المساء أنتم اليهود، ترونه في الحلم. تحيون وتموتون مع الرؤى.

ـ هكذا إذن، مع الرؤى يذهب الإنسان إلى الحرب. وشيئاً فشيئاً يأخذ الظل جسداً ويقوى، يرتدي الروح لحما وينزل إلى الأرض. كون النبي دانيال رؤيا ولأن هذا كان، حدث الآن، أخذ جسداً من اللحم، نزل إلى الأرض ودمر روما.

ـ أحترم، يا يسوع الناصري، جرأتك أو حماقتك. يجب الاعتقاد أنك لا تخشى الموت، لذا تتكلم بهذه الحرية، أنت ترضيني. قص علي إذن رؤيا دانيال.

رأى النبي دانيال في أحدى الليالي تمثالاً ضخماً. كان رأسه من ذهب، صدره وذراعاه من فضة، بطنه وفخذاه من برونز، ربلتا الساقين من الحديد، إنما بالأسفل قدماه من آجر. وعلى حين غرة، أطلقت يد غير مرئية حجراً ضرب القدمين الأجرتين وحطمهما. وبضربة واحدة سال التمثال بذهبه وفضته وبرونزه وحديده، على الأرض... اليد غير المرئية، يا بيلاطس البنطي، هي إله إسرائيل، وأنا الحجر، والتمثال هو روما.

تثاءب بيلاطس ثانية، وقال بهيئة ضجرة

ـ فهمت، وأنا أفهم لعبتك، يا يسوع الناصري، يا ملك اليهود! أنت تشتم روما، تود إغضابي، أن آمر بصلبك، لتصير أنت بطلاً. لقد أجدت أعداد كل شيء . علمت أنك بدأت تحيي الموتى، تشق الدرب. وهكذا سيشيع تلامذتك فيما بعد أنك لم تمت، أنك قمت وصعدت إلى السماء... لكنك تصل متأخراً، يا هذا الخبيث. كشف مكرك، دبر لعبة أخرى. لن أقتلك، لن أخلق منك بطلاً، لن تصير إلها كالآخرين. انزع هذه الفكرة من رأسك.

بقي يسوع ساكتاً. رأى عبر النافذة أشعة الشمس الواسعة، وهيكل يهوى، يشبه حيواناً متوحشاً غير مرئي، يأكل الناس، ـ وكان الناس يأتون من كل حدب وصوب، كالقطعان المبرقشة، ليغيبوا في شدقه الأسود الضخم المفتوح ما استطاع. كان بيلاطس يلعب بسلسلته الذهبية ويسكت. يخجل من طلب معروف من يهودي، لكنه وعد امرأته بهذا، إذن لابد.

ـ هذا كل شيء؟ قال يسوع، الذي استدار نحو الباب. نهض بيلاطس.

ـ لا تذهب، قال. عندي أمر أقوله لك، لذا دعوتك إلى هنا. تقول زوجتي إنها تراك في الحلم كل يوم، ولا تكاد تغمض جفنيها حتى تظهر أنت. تقول إنك تشكو لها السعي إلى قتلك

وفي كل مساء ترجوها أن تكلمني لأمنع مواطنيك، حنة وكاييف، من قتلك. البارحة مساء دفعت امرأتي صرخة مؤثرة، استفاقت ترتعش وانخرطت بالبكاء.

إنها تشفق عليك، تقول، لا أعرف السبب، أنا لا أتدخل بحماقات النساء. ارتمت على قدمي، التمستني إن أرسل بطلبك لأقول لك أن تسافر لتنجو. يا يسوع الناصري، هواء القدس لا يلائم صحتك: عد إلى الجليل! لا أريد اللجوء إلى العنف، بل أطلب منك هذا بلطف، عد إلى الجليل!

ـ الحياة حرب! أجاب يسوع بنفس الصوت الهادئ والرزين، هذه حرب، وأنت تعرف هذا، لأنك جندي وروماني. لكن ما لا تعرفه، هو هذا: اللّه هو القائد ونحن جنود. منذ أن بدأ الناس يأتون إلى العالم، دلهم اللّه إلى الأرض مدينة، قرية، جبل، بحر، أو أيضاً الصحراء، وقال له: " وأنت تقاتل هذا! " ياحاكم يهودا، في ليلة، مسكني اللّه من شعري، أنهضني وأتى بي إلى القدس؛ غرسني أمام الهيكل وقال لي: " هنا تصارع! " لن أغادر، يا حاكم يهودا، هنا سأصارع!

هز بيلاطس كتفيه. ندم لأنه طلب هذا المعروف ولأنه كشف ليهودي سراً بيتياً. قام بحركة اعتادها، غسل يديه.

ـ اغسل رأسك، قال، وأنا أغسل وأنظف يدي، اذهب!

ـ رفع يسوع يده محيياً. ولما وصل إلى الباب: قال بيلاطس، ساخراً.

ـ يا هذا، يا مسيح، ما هذا الجديد الرهيب الذي تحمله إلى العالم، كما يقال؟

ـ النار، رد يسوع بنفس الهدوء. النار التي ستطهر الأرض.

ـ من الرومان؟

ـ لا، من غير المخلصين، من الظالمين، من العيوب، من المتخمين.

ـ وبعدئذ؟

آنئذ على الأرض المحروقة، المطهرة، تبنى القدس الجديدة.

ومن يبني هذه القدس الجديدة؟

أنا

انخرط بيلاطس بالضحك، وقال:

ـ اذهب، كنتُ محقًا عندما قلت لامرأتي: أنت معتوهة بحق. تعال إلي من وقت إلى أخر. لأقتل وقتي. الآن، اذهب، عرفتك جيداً.

صفق بيديه، دخل الأسودان العملاقان وأخرجا يسوع.

كان يهوذا ينتظر أمام البرج قلقاً. كانت نزوة غريبة تأكل المعلم في هذه الأيام الأخيرة. كان وجهه كل يوم أكثر تجعداً، أكثر كدرًا، وكلامه أكثر أسى وتهديداً؛ كثيراً ما صعد وحده وبقي ساعات فوق تلة على أبواب القدس، الغولغوثا، حيث يشنق الرومان المتمردين. وكلما رأى حوله الكهنة وكبار الكهنة مهتاجين وينصبون له المكائد، يزداد

هجومه عليهم وتسميتهم " أفاعي سامة، كذابين، محتالين، يرتجفون خوفاً من ابتلاع بعوضة وينتعلون جملاً ". طيلة النهار، كل الأيام يقعد أمام الهيكل ويدلي بكلام قاسٍ وحشي، كمن يطلب الموت. قبل بعض الوقت، لما سأله يهوذا متى يرمي عن كتفيه صوف الحمل ليظهر الأسد بكل مجده، هز يسوع رأسه ولم ير يهوذا أبداً ابتسامة أكثر مرارة على شفتي الرجل. منذئذ لم يتركه يهوذا؛ وحينما يراه صاعداً إلى تلة الغولغوثا، كان يتبعه خفية؛ خوفاً من أن يرفع عدو مستتر يده عليه. يخطو يهوذا الآن المئة خطوة في الشارع، أمام البرج اللعين، وينظر بخوف إلى الحرس الروماني الساكن، المرتدي البرونز مع وجوههم القروية الجهمة، وخلفهم، يخفق في طرف صدر الإبل العلَمُ الكافر الكريه بنسوره. ماذا يريد منه بيلاطس، تساءل، لماذا طلبه؟ يهوذا يعرف، علم هذا من زيلوت القدس، أن حنة وكاييف يأتيان باستمرار إلى هذا البرج ويتهمون يسوع بالسعي إلى إعلان ثورة لطرد الرومان ويصير ملكاً. لكن بيلاطس كان يرفض الإصغاء لهم؛ كان يقول: هو يتمنى العلامة، لا يقرب شؤون الرومان؛ في يوم أرسلت على عجل رجالا يسألونه: " هل يريد إله إسرائيل أن ندفع الجزية للرومان، ما رأيك؟ " وأجاب يسوع بحكمة، بذكاء: " أعطوا قيصر ما لقيصر وأعطوا الله ما لله! " ضحك بيلاطس وقال: ليس هو مجنون بشكل شيطاني، هو مجنوناً بعبادة الله. إن مزق دينكم،

عاقبوه، أنا أغسل يدي وأنظفهما؛ لكنه لا يمس روما. هذا ما قال لهم وردهم خائبين. إنما هل بدل رأيه الآن؟

توقف يهوذا، استند إلى الجدار المقابل؛ كتل قبضتيه ورخاهما، بعصابية.

وارتعش على حين غرة، نفخت الأبواق، أخذ الرهط مكانه؛ وصل أربعة لاويين ووضعوا بهدوء أمام باب البرج محفّة مذهبة. كانت ستائرها الحريرية تتطاير ورؤي كاييف[1] ينزل منها بهدوء، ضخماً، ابيض، مع جيوب تحت عينيه، يرتدي حلة القداسة الصفراء. فتح الباب على مصراعيه. بنفس اللحظة خرج يسوع، التقى الرجلان في العتبة وجها لوجه. كان يسوع حافي القدمين، بثوب أبيض ناصع، مثني، توقف وحدق بعمق عينيه، الهادئتين، الكاهن – الكبير. رفع هذا الأخير هدبيه الثقيلين، عرفه، تأمله على عجل من الرأس حتى القدمين، تحركت على فمه شفتا التيس:

ـ عم تبحث هنا، يا متمرد؟

ثبت يسوع، بهدوء، عينيه القاسيتين الكبيرتين والحزينتين وأجابه

ـ أنا لا أخشاك، يا كبير كهنة الشيطان.

ـ ارموه خارجاً، صرخ كاييف بحملة محفتة الأربعة،

---

1 ـ كاييف: كبير كهنة اليهود، الذي أدان يسوع وعذب الأنبياء.

وتقدم في الباحة مع موكبةٍ ببدنه الضخم وساقيه الأفكحين.

انقض اللاويون الأربعة للإمساك بيسوع لكن يهوذا وثب:

ـ اتركوا الرجل! زأر، دفعهما، وأخذ يسوع من ذراعه، وقال:

ـ هيا بنا.

أبعد يهوذا الجمال، الناس، النعاج، شق درباً ليسوع ليقدر إن يمر. تخطيا الباب المحصن، نزلا إلى وادي سيدرون Cedron، صعدا إلى السفح المقابل، أخذا طريق بيتانيا

ماذا يريد منك؟ قال يهوذا، وشد على يد المعلم بكدر.

ـ يا يهوذا، أجاب يسوع بعد صمت عميق، سأأتمنك على سر رهيب. ردّ يهوذا شعره الكثيف الأمغر وانتظر، مدهوشاً.

ـ أنت أصلب من كل الرفاق، أنت وحدك تقدر، تؤمن، بتحمله. للآخرين لم أقل شيئاً ولن أقول؛ تنقصهم المقاومة.

احمر يهوذا من السرور، وقال:

ـ أشكر لك، يا معلم، إيلائي ثقتك. تكلم. سترى، لن تخجل بي.

ـ يهوذا، أنت تعرف سبب تركي الجليل الحبيب لآتي إلى القدس !

ـ نعم، أردف يهوذا، لأن كل ما يجب أن يتم سيتم هنا.

ـ نعم، من هنا ستنطلق شرارة السيد المسيح. لم أعد قادراً على النوم. استيقظ مرعوباً في وسط الليل وأتأمل السماء ـ ألم

تفتح بعد؟ ألم يبدأ الشرار بالانتشار؟ ..... أتى اليوم، أسرعت إلى الهيكل، تحدثت، هددت السماء، أمرت، التمست، استحلفت النار أن ترسل، نغرة[1] فوقي. وفجأة في يوم .....

انسد صوته. انحنى يهوذا عليه ليسمع. لكنه لم يسمع سوى زفير مخنوق وصريف الأسنان.

إذن؟ إذن؟ سأل يهوذا، لاهثاً. استعاد يسوع نفسه، وبدأ يتكلم: في يوم، بينما كنت ممدداً وحدي في قمة الجولغوثا، انتصب النبي اسحق في ذهني. رأيته لحماً وعظماً أمامي، على حجارة غولغوثا، يرتدي جلد تيس ويشبه تيساً أسود صادفته في الصحراء. وكان هذا الجلد مغطى بالحروف:

اقرأ، أمرني، ومد أمامي في الهواء جلد التيس بالجهد سمعت الصوت والنبي والتيس اختفيا؛ بقيت في الهواء الحروف السوداء وحدها مع حروف كبيرة[2] حمراء.

ركز يسوع نظره بالضوء، بعد أن شحب. شد على ذراع يهوذا وتشبث به.

ـ ها هما! تمتم. بخوف، ملآ الهواء!

ـ اقرأ، قال يهوذا، الذي كان يرتعد أيضاً.

وبصوت مبحوح، لاهث، بدأ يسوع يحل رموز الكتابة.

---

1 ـ نغر: عصفور من فصيلة الشرشوريات.

2 ـ الحرف الكبير باللغة الفرنسية هو الحرف الذي تبدأ الجملة به وأسماء العلم.

قيل إن الحروف كانت كحيوانات الغابة الحية، يتابعها وتقاوم. حل الرموز مقطعاً بعد مقطع وكان باستمرار يلم عرقه السائح: "حمل أخطاءنا، جرحته خطايانا وسحقه ظلمنا. وبصبر لم يفتح فمه. متروكاً، مذموماً من الجميع، بحث من دون تردد ولا مقاومة، كالحمل يؤخذ إلى المسلخ ويذبح."

سكت يسوع، بعد أن امتقع لونه.

لم أفهم، قال يهوذا. توقف وراح يبعد الحجارة بإبهام قدمه. لم أفهم. مَنْ هو الحمل الذي يقاد إلى المسلخ؟ من سيموت؟

ـ أنت؟ أنت؟ قال يهوذا متراجعاً. ألست المسيح؟

ـ أنا هو.

لم أفهم! صرخ يهوذا. وأدمى قدميه بالحصيات.

ـ هذا هو السبيل، يا يهوذا، لا تزعق. لكي يخلص العالم، يجب أن أموت بملء إرادتي. أنا نفسي لا أعرف أكثر. تذهب عبثاً الأمارات التي يرسلها لي الله. كانت حيناً رؤى في الهواء، حيناً في الحلم في أثناء النوم، حينا ثالثاً في الصحراء تيس نافق، يحمل كل خطايا الشعب معلقة برقبته. ومنذ ما غادرت بيت أمي، يتبعني ظل ككلب وأحياناً يركض أمامي يرشدني إلى الدرب. أي درب؟ الصليب.

أرسل يسوع نظرة مديدة حوله. القدس خلفهما، مثل جبل من الجماجم، البيضاء بياضاً ناصعاً، أمامهم حجارة وبدت بعض أشجار الزيتون تحمل أوراقاً فضية وأشجار أرز سوداء.

وكانت الشمس وهي تغيب تسيل دماً.

كان يهوذا ينتف شعراً من لحيته ويرميه. كان ينتظر مسيحا آخر، مسلحاً بسيف. كان يطلق صراخاً وفي وادي يوشافات jasaphat خرج من قبورهم كل أجيال العبريين الموتى، واختلطوا بالأحياء؛ ومعهم بعثت خيول وجمال العبريين، واجتمع كل الجنود والفرسان لذبح الرومان. وجلس يسوع على عرش داود، وكان تحت قدميه كل العالم كأدوات راحة. هكذا، هكذا كان المسيح الذي ينتظره يهوذا الاسخريوطي، والآن!...

نظر إلى يسوع نظرة واجفة وعض شفتيه خوف أن تفلت منه كلمة قاسية وعاد يبعد الحجارة بكعبيه. حدق إليه يسوع ورثى لحاله.

ـ تشجع، أخي يهوذا، قال له ملطفاً صوته. تشجعت أنا أيضاً. ليس ثمة ما نفعل. هذا هو الدرب.

وبعدئذ؟ قال يهوذا! مركزاً عينيه على الحجارة. وبعد هذا؟

ـ سأعود بمجدي لأدين الأحياء والأموات.

ـ متى؟

لا يموت الكثير من هذا الجيل دون أن يراني.

هيا بنا، قال يهوذا، وحث الخطى. كان يسوع يمشي وراءه مبهورا، جاهداً في تحصيله. كانت الشمس تهم بالاختباء

خلف جبال يهودا. سمع من بعيد عواء أول من استيقظ من أبناء آوى، من جهة البحر الميت.

هبط يهوذا السفح وهو يبرطم؛ ترج الأرض في أعماقه، خائر القوى. هو لا يثق بالموت. يبدو له أسوأ الدروب، وأليعازر الحي يهبط قلبه. يبدو له أكثر موتاً من كل الموتى، وأكثر نتناً. والمسيح نفسه، كيف سيخرج من المعركة مع الموت؟ لا، لا، هو أيضاً لا يثق بالموت.

التفت ليعارض يسوع، ليطلق الكلمة العاتية التي تحرق اللسان، ـ ربما يبدل يسوع السبيل ولا يصل إلى الموت؟ إنما وهو يلتفت دفع زعقة رهيبة. ظل عملاق نزل من جسد يسوع، لم يكن ظلا، كان صليباً ضخماً. مسك يد يسوع:

ـ انظر! قال مشيراً إلى الظل. ارتعد يسوع.

ـ صه، قال هامساً، صه، يهوذا أخي.

هكذا ذراعاً بذراع بدأا السفح الذي يصعد إلى بيتانيا. كانت ركبتا يسوع تلتويان، ويسنده يهوذا. ظلا صامتين. من حين إلى آخر، كان يسوع ينحني ويلتقط حجراً دافئاً. ويبقيه طويلا في راحة يده مضغوطاً. أكان حجرا أم يد كائن محبوب جداً؟ نظر حوله. النباتات تموت في الشتاء، أما الآن فكأنها مزهرة!

ـ يهوذا. أخي، قال يسوع، لا تحزن. تأمل، القمح يتغلغل في التربة. اللّه يبعث المطر والأرض تنتفخ ومن التراب الخفيف ينبت

القمح ويغذي الناس. إن لم تمت حبة القمح، هل تتكون سنبلة تحمل قمحاً؟ هكذا الأمر بالنسبة لابن الإنسان، يسوع.

لكن يهوذا لم يعزيه هذا الكلام؛ كان ساكتًا ويصعد المنحدر. انزلقت الشمس خلف الجبال، وصعد الليل من الأرض؛ وبدأت المصابيح تضيء في ذروة التل.

تذكر أليعازر، قال يسوع أيضاً. إنما بدأ يهوذا يتقيأ وتوارى وهو يبصق.

أشعلت مرتا المصباح ووضع أليعازر راحة يده على عينيه؛ ما يزال النور يؤذيه. أخذ بطرس متّى من ذراعه وجلس الاثنان تحت الضوء. ووجدت العجوز سالومي كتلة صوف أسود، راحت تغزل وتفكر بولديها. إلهي، ليتأخر اليوم الذي تراهما فيه متألقين، شريط ذهبي يضم الشعر. يوم تصير بحرة طبريا كلها تخصهما ...... كانت المجدلية بدأت تنزل الطريق الضيق، تأخر المعلم، كان قلقها كبيراً، كان البيت ضيقاً جداً عليها، وبدأت الدرب بأمل مقابلة الحبيب. كان التلامذة تجمعوا في الباحة سكروا باب المدخل بالقفل ولم يتفوهوا بكلمة، كان غضبهم يفور في صدورهم. كان البيت هادئاً كلياً، لا تسمع فيه أي نأمة، كان الوقت ملائماً. كان بطرس متشوقاً جداً لرؤية ما يكتب للعامة كل مساء في دفتره الشخصي. في هذا المساء، بعد نزاعه مع الآخرين، لم يبق في البيت، يجب إن يعرف ماذا يقال عنه؛ هؤلاء الكتاب هم رعاع قذرون. يجب

الحذر من أن يشوهوا صورته عند الأجيال الصاعدة. لو تجرأ إن يلعب معه دوراً مشابهاً، لرمى أوراقه وأقلامه في هذا المساء في النار. أخذه من ذراعه مداورة وركعا سوية تحت المصباح.

اقرأ لي، متّى، من فضلك، أريد أن أعرف ماذا تكتب بخصوص المعلم. دهش متّى لدى سماعه. سحب بهدوء من قميصه الدفتر الشخصي أو السيرة التي غلفها بمنديل مطرز أعطته إياه مريم، أخت أليعازر؛ تحداه بيقظة وحذر، كما يعامل كائناً حياً وجريحاً، فتحه، راح يوازن بين المقدمة والخلفية، انطلق، وقسم تصرفه بين متكلم ومرتل، بدأ يقرأ:

" كتاب أرومة يسوع ـ المسيح، ابن داود، ابن إبراهيم، إبراهيم أنجب إسحاق، إسحاق أنجب يعقوب، يعقوب أنجب يهوذا وإخوته، يهوذا أنجب فارس وزارا.... "

كان بطرس يصغي، مغمض العينين، الأجيال العبرية مسرودة أمامه، من إبراهيم إلى داود، أربعة عشر جيلاً؛ من سبي بابل حتى يسوع، أربعة عشر جيلاً .... أية دنيا، أي جيش جرار لا يحصى، لا يفنى! أي غبطة، أي عز وفخر أن تكون واحداً من هؤلاء العبريين. أدار بطرس رأسه وأسنده إلى الجدار، كان يصغي. كانت الأجيال عبرت، الآن أتت أعوام يسوع، كم عجيبة اجترحت، ولم يشك بهذا! هكذا كان يسوع قد ولد في بيت لحم، ولم يكن أبوه يوسف النجار ـ صانع التوابيت بل الروح ـ القدس. ووفد ثلاثة من المجوس لتمجيده. وما هي

الكلمات التي لفظتها الحمامة من أعلى السماء في أثناء العمادة؟ لم يسمعها بطرس. من رددها إذن على متّى الذي لم يكن حاضراً في أثناء العمادة؟ ورويداً رويداً لم يسمع بطرس الكلمات، كانت موسيقى رتيبة، حزينة تهدهده، وبكل هدوء نام، وهنا وخلال رقاده، كانت الموسيقى والكلمات تصل بكل صفاء. لكن كل كلمة كانت تبدو له أشبه برمانة، من تلك الرمانات التي أكلها في العام الفائت في جرش، كانت تنفجر في الهواء وينبعث منها تارة شرارات، وحيناً ملائكة وأجنحة وأبواق......

فجأة، في وسط حلاوة النوم العميق، سمع ضجة نزاع، صرخات فرح، استيقظ مرتجفاً. وجد أمامه متّى، كتاب الأرومة على ركبته، مستغرقاً بالقراءة، عاودته الذكرى، خجل من وجوده نائماً، ارتمى بين يديه وقبله:

ـ سامحني، يا متّى، أخي، لكن بينما كنت أصغي إليك، دخلت الجنة. كان يسوع في العتبة وخلفه المجدلية تتلألأ فرحاً؛ تبعث عيناها، شفتاها نحرها العاري شراراتٍ. رأى يسوع الكتاب بين يدي بطرس يقبله؛ وقد تورد محياه. دل إلى التلميذين المتعانقين، وقال:

ـ هي ذي مملكة السماوات.

دنا من أليعازر، أراد هذا أن ينهض لكن كليتيه آلمتاه؛ خاف من الزحف فعاد إلى وضعه. مد ذراعه ولمس بطرف

أصابعه يد يسوع. ارتعد يسوع. كانت يد أليعازر باردة جداً وشديدة السواد؛ تنشر رائحة التراب. خرج يسوع إلى الباحة ليتنفس.

كان هذا الراجع من الموت ما يزال يجادل بين الحياة والوفاة. لم يستطع اللّه بعد قهر الفناء عنده. لم يدل الموت أبداً أنه بهذه القوة. استولى الخوف على يسوع، بل الخوف والأسى.

والعجوز سالومي، المغزل تحت إبطها، اقتربت منه وتحركت على رأس قدميها لتكلمه بصوت خفيض كما الهمس:

يا معلم... وانحنى يسوع ليصغي لها.

ـ تكلمي، سالومي...

ـ يا معلم، متى ستتولى عرشك، أطلب منك نعمة. ترى ماذا فعلنا من أجلك...

احكي، سالومي... انقبض قلب يسوع. قال لنفسه: متى يفهم الناس أن فعل الخير يرفض أي مكافأة؟

ـ الآن وأنت تجلس في عرشك، يا ابني، ضع يوحنا إلى يمينك، وجاك إلى يسارك، ابنيّ...

عض يسوع شفتيه لأن لا يتكلم وركز عينيه بالأرض.

ـ سمعت يا بني؟ يوحنا...

بخطوة واسعة دخل يسوع البيت. وقف قرب المصباح، رأى متى الذي ما يزال ماسكاً كتاب الأرون مفتوحاً على ركبتيه.

أغمض عينيه وغرق في تذكر كل ما قرأ.

نهض متى فرحاً، ومد كتاباته وقال:

ـ يا معلم، هنا سأقص لأبناء المستقبل حياتك وأعمالك.

ركع يسوع تحت المصباح وجعل يقرأ.

ما أن قرأ الكلمات الأولى حتى وثب. راح يقلب الصفحات بعنف، قرأ بشراهة، احمر وجهه وصار خائفاً. لدى رؤيته انزوى متّى في زاويته، واجفاً، وانتظر. تابع يسوع تقليب الأوراق، فجأة دون تريث انتصب، رمى إنجيل متى في الأرض مغتاظاً، وصرخ:

ما كل هذا. أكاذيب! ترهات! أكاذيب! ليس المسيح بحاجة لمعجزات؛ هو ذاته معجزة، لا يلزمه شأن آخر. ولدت في الناصرة، ليس في بيت لحم Bethleem ، لم تطأ قدمي بيت ـ لحم. لا أتذكر أي ملك مجوسي، لم أذهب إلى مصر، وما كتبت هنا، الكلام الذي قالته الحمامة في أثناء عمادتي: "هذا هو ابني الحبيب"، من كشفه لك؟ أنا نفسي لم أسمع بوضوح. أنت الذي لم تحضر، أين عثرت عليه؟

ـ الملاك كشف لي هذا، أجاب متى مرتعشاً.

ـ الملاك؟ أي ملاك.

ـ ذاك الذي يأتي كل مساء عندما أخذ ريشتي. يدنو من أذني، يملي علي وأنا أدوّن.

ـ ملاك؟ قال يسوع، مرتجفاً. ملاك يملي عليك ما تكتب؟

تشجع متى:

مـلاك. وأحيانـاً حتـى كنـت أراه، أسمعـه دومـا. شـفتاه تلامس أذني اليمنى وأسمع خفق جناحيه المحيطين بي. تدثرت بجناحي الملاك مثل الوليد وكتبت، ولم أكتب، دونت ما قال لي. ماذا تظن؟ هل أقدر أن أقيد من عندي كل هذه المعجزات؟

ـ ملاك؟ تمتم يسوع مجدداً، وغرق في تفكير عميق. بيت ـ لحم، ملوك مجوس، مصر، أنت ابني الحبيب... إن كان كل هذا الحقيقة الأسطع؟ وإن كان في المرتبة الأعلى من الحقيقة، أين يسكن الله وحده؟ وأن كان كل ما نسميه حقيقة، يسميه الله كذباً؟

صمت. لملم بعناية الكتابات التي رماها وأعادها إلى متى. غلفها متى ثانية بمنديل مطرز وخبأها تحت الثياب مباشرة.

أكتب كل ما أملاه عليك الملاك، قال يسوع. أنا، من الآن فصاعداً... لكنه لم يتم جملته. مع ذلك، أحاط التلاميذ بيهوذا في الباحة وطلبوا منه ماذا يريد بيلاطس من يسوع ولماذا دعاه إليه. لكن يهوذا لم يولهم حتى نظرة، خرج وبقي واقفاً في باب الشارع. لم يعد يحتمل أن يراهم ولا أن يسمعهم. لم يعد يقدر أن يكلم إلا المعلم منذ الآن، وثمة سر رهيب يجمعهما ويبعدهما عن الآخرين... تأمل يهوذا الليل الذي ابتلع العالم وفوقه، كأسرجة صغيرة، بدأت أولى النجوم تلمع:

ـ يا إله إسرائيل، زمجر، امنع ذهني وروحي من الزعزعة.

قلقة، دنت المجدلية من يهوذا. أراد أن يغادر لكنها

أمسكته من كم كنزته، وقالت:

يهوذا، لي أنا تستطيع أن تبوح بالسر. أنت تعرفني.

أي سر؟ دعاه بيلاطس ليأخذ حذره من كاييف...

ـ لا، ليس هذا ما قصدت، الآخر.

ـ أي آخر؟ أيضاً آثرت النار عليك، يا مجدلية. عيناك حمراوان كالجمر.

و ضحك من دون سرور، وقال لها:

ـ ابكي، ابكي لتطفئيهما.

لكن المجدلية عضت منديلها، مزقته بأسنانها. تمتمت:

لماذا أختارك أنت، أنت يهوذا الاسخريوطي Iscariote ؟

غضب الأصهب. أخذ المجدلية من ذراعها:

ـ من تريدين أن يختار، يا مريم المجدلية؟ بطرس الدوار، مع كل ريح؟ أو يوحنا الغبي؟ أم تودين أن يختارك أنت، امرأة؟ أنا حجر صوان من الصحراء وأقاوم الصدمة. لذا اختارني.

غصت عينا المجدلية بالدمع. تمتمت:

ـ أنت محق، أنا امرأة، كائن ضعيف وجريح. عادت إلى بيتها وتكورت قرب المدفأة.

بسطت مرتا المائدة للعشاء. تجمع التلاميذ في الباحة، ركعوا. شرب أليعازر مرقة الدجاج، فاكتسب قوة، شعر بالمتانة والممانعة. رويداً رويداً، بمؤازرة الهواء، النور، الغذاء، أصبح جسمه أصلب وأقوى.

فتح باب داخلي وبان العجوز الأصهب شاحباً، ممشوقاً، أشبه بشبح كان يستند بكل ثقله إلى العصا الأسقفية، لأن ركبتيه من الآن كفتا عن إسعافه. رأى يسوع وأشار له أنه يود أن يكلمه ونهض يسوع، أخذه من ذراعه وأجلسه قرب أليعازر، وقال:

ـ عجوز، أنا أيضاً أرغب في أن أكلمك.

ـ لي عتب عليك لأمر ارتكبته اليوم، يا ابني، قال العجوز الأصهب ونظر إليه بقسوة وأنس. أقولها بصوت جهوري أمام كل العالم. رجالاً ونساء نسمع وأليعازر أيضاً الذي قام من القبر والذي يجب أن يعرف كثيراً من الأسرار. لنسمعها كلها ولتكونوا قضاة.

ـ ماذا يستطيع الناس أن يفهموا؟ أجاب يسوع. بوسعكم أن تسألوا متى، يطير ملاك في هذا البيت ويسمع. ليكن هو حكما. ما هذا العتب، يا عجوز؟

ـ لماذا تريد تجاوز الشريعة المقدسة؟ حتى الآن كنت تحترمها، كما يحترم الابن أباه. اليوم أمام الهيكل، رأيتك متردداً. إلى أين يصل إذن تمرد قلبك؟

ـ حتى المحبة، يا عجوز. حتى قدمي الله. هنا أتستند وأرتاح.

ألا تستطيع هذا مع الشريعة المقدسة؟ ألا تعرف ماذا تقول كتبنا المقدسة؟ عبر أربعة عشر جيلاً قبل أن يبني الله العالم،

كانت الشريعة مكتوبة، ليس على الرقوق. لم تكن الحيوانات قد خلقت لتعطي جلدها، ولا على الخشب، إذ لم تكن الأشجار موجودة، ولا على الحجارة، لأن الحجارة لم تكن موجودة. كانت مكتوبة بشعلة سوداء على وجه النار البيضاء، على ذراع السيد المسيح اليسار. وحسب هذه الشريعة المقدسة خلق الله العالم.

ـ لا! لا! صاح يسوع الذي لم يعد قادراً على البقاء في المكان. لا ! أخذ العجوز رابين ذراعه بتؤدة:

ـ لمَ تصرخ هكذا، يا ولدي؟

احمر يسوع، خجلاً. لقد أطلق له العنان ولم يعد يسيطر على نفسه. شعر بأنه مغطى بالجروح من رجليه إلى رأسه. من أين لمس، بلطف إذاً كان يصرخ من الألم في هذا المساء.

صرخ وأحس الهدوء. أخذ الحاخام العجوز، وخفض صوته

ـ الكتابات المقدسة هي صحائف قلبي. الصحائف الأخرى مزقتها لكنه لم قال هذا حتى ندم.

ـ لا. هذا ليس أنا... هذا ليس أنا... تمتم. الله هو الذي أرسلني. رابين كان جالساً قرب يسوع، ركبهما تتلامس، أحس بقوة حارقة، لا تطاق، تنبعث من جسد يسوع والهواء، الذي هب فجأة عبر النافذة المفتوحة، وقد أطفأ المصباح، رأى الحاخام العجوز، في العتمة، ابن مريم يتضوأ بالنور، واقفاً في وسط البيت، أشبه بعمود من نار. استكشف كل الجهات ليرى

إن كـان يمكـن رؤيـة موسـى وإيليـا. لم يـرَ أحـداً. كـان يـسوع وحده في تألقه؛ يلامس رأسه السقف القصبي ويعانقه. ولما حاول الحاخام العجوز أن يرسل صرخة، مد يسوع ذراعيه. كان قد صار صليبا واللهيب يحدق به.

نهضت مرتـا، أشعلت الـضوء. عـاد كـل شـيء إلى حالـه الطبيعـي؛ كـان مـا يـزال جالـساً، محـني الـرأس؛ يفكـر. رمـى الحاخام نظرة حوله، لم ير أحد شيئاً في الظلمة، كانوا جميعاً حول المائدة يستعدون بهدوء للعشاء. قال لنفسه: يبقيني الله في بيتـه ويلعب. للحقيقـة سـبعة أروقـة. يجـول بـي مـن رواق إلى رواق ويأخذني في الدوار."

لم يكـن يـسوع جائعـاً، لم يجلـس إلى المائـدة؛ وكـذلك الحاخام العجوز. كان الاثنان قرب أليعـازر الـذي أغمض عينيـه وبدا نائما. لكن لم ينم، كان يفكـر. أي حلم رأى؟ تخيل أنـه ميت. مددوه تحت التراب وبغتة سمع صوتا داويا يناديه: أليعـازر، أخـرج! وثـب مـن رمـسه، وخـرج – واسـتيقظ. ثـم عـاد ولمـس الـرمس، كـذلك الـذي رآه في الحلـم. أو بالأصـح مـا كـان في الحلم؟ أفعلاً نزل إلى عند الموتى؟

ـ لماذا سحبته من القبر، يا ولدي؟

أنا لم أشأ، أجاب يسوع همساً، أنا لم أشـأ، يا عجوز. لما شئت أن أرفع بلاطـة القـبر الحجريـة كنـت مـذعوراً. وددت أن أهرب إنما خجلت. بقيت أرتجف خوفاً.

ـ أنا أقدر أن أحتمل، قال الحاخام، أحتمل الكثير، عدا نتن الجسد المتفسخ.

رأيت جسداً آخر فظيعاً حياً، يأكل يتكلم، يتنفس ..... ويتفسخ. كان الملك هيرود Herode. نفس عظيمة لعينة. قتل المرأة التي أحب. ماريان الحلوة، قتل أصدقاءه، قادته، أولاده. ساد ممالك، شيد بروجاً، قصوراً، مدناً، وبنى هيكل القدس الجليل أروع من هيكل سالومي. حفر بعمق اسمه على الأحجار، على البرونز، على الذهب. كان يتعطش الخلود. وعلى حين غرة، لنشر مجده، لمس اللّٰه بأصبعه العنق دفعة واحدة جعله يتعفن. كان جائعاً لا يكف عن الأكل ولم يشبع. لم تكن أمعاؤه سوى جرح كبير منتن وكان جائعاً أبداً تسمع أبناء آوى زعيقه في الليل وترتعد. كان بطنه، قدماه، أبطاه منتفخة. تخرج الديدان من أعضائه التناسلية. وكان هو أول من عفن. حرم نتنه أي كائن بشري يقترب منه. كان الخدم يفقدون الوعي. أخذوه إلى الينابيع الحارة في كليرهيو Callirhoe، قرب الأردن، لكن حالته كانت أسوأ عرفت يومئذ واشتهرت بشفاء وتطهير المرضى، وصل الخبر إلى الملك؛ فدعاني إليه. أخذ إلى جرش Jericho في الحدائق. كان عفنه ينتشر من القدس حتى الأردن. لما دنوت منه لأول مرة، تلاشيت. صنعت له مراهم ودهنته. حنيت رأسي خفية وتقيأت. وقلت لنفسي: هذا ملك، هذا هو الإنسان: قذارة وعفن، ـ أين هي

النفس إذن، لتنظم الأمر؟ كان الحاخام يحكي بصوت خفيض، لا يجوز أن يسمع الآخرون هذا الكلام وهم يأكلون. كان يسوع ينصت محني الظهر، يائساً من هذه الخدمة التي يود أن يطلبها هذا المساء من الحاخام العجوز: أن يحدّثه عن الموت. ليتشجع، كان يجب أن يكون الموت أمامه، ليعتاده. أما الآن...... أراد أن يقوم بحركة، أن يقف الحاخام، ويصرخ به: كفى! لكن الحاخام لم يقدر أن يملك نفسه، سارع لإيضاح هذه القذارة لتخرج من ذاكرته وليبرأ.

ـ عبثاً وضعت المرهم، الديدان تأكله كأي شيء. لكن شيطاناً كان يسود في وسط هذه القذارة ويعطي الأوامر. أمر كل الأغنياء وكل أعيان إسرائيل أن يجتمعوا في الباحة. في لحظة موته نادى أخته سالومي: " عندما أعيد الروح، أقتلوهم كلكم، لكي لا يتمتعوا ويفرحوا بموتي. " ومات، مات، هيرود العظيم آخر ملوك يهوذا. اختبأت وراء الشجرة ورحت أرقص. مات آخر ملوك يهوذا، إنها الساعة المباركة قد أزفت، التي تنبأ بها موسى في توراته: " سيأتي أخيراً ملك هدام وفاجر، سيكون أبناؤه مخجلين؛ جيوش وملك بربري يأتون من الغرب ليحتلوا الأرض المقدسة آنئذ تكون نهاية العالم. "

هذا ما قاله النبي موسى، كله تم، فنهاية العالم دنت.

ارتعش يسوع. لأول مرة يسمع هذه النبوءة. صرخ:

أين هي هذه الكتابة؟ أي نبي أتى بها؟ لأول مرة اسمع

الحديث بها. منذ سنوات عشر على رق قديم في حقّ فخاري، في مغارة بصحراء يهودا. وجدها كاهن، فتحها ورأى الكتابة، بالأعلى، بأحرف حمراء: " كتاب موسى " قبل أن يتوفى البطريرك استدعى خليفته، جوزيه Josue ابن نوح، وأملى عليه كل ما يجب إتمامه. وها نحن أمام السنوات التي تنبأ عنها. الملك المدمر هو هيرود، الجيوش البربرية هم الرومان، ونهاية العالم، إن رفعت الرأس، لرأيتها تدخل من هذا الباب!

نهض يسوع، كان الباب ضيقاً جداً عليه. مر بين رفاقه الذين يأكلون، لا هم لهم، خرج إلى الباحة، رفع الرأس. كان القمر يصعد بالسماء ضخماً باهتاً، وراء تلال موآب Moab. وسرعان ما صار مستديراً، هذا هو مجال القمر الذي يأتي بالفصح. كما لو رأى القمر لأول مرة، تأمله يسوع، مذهولاً. من هذا، من يصعد فوق الجبال، من يخيف الكلاب ويجعلها تعوي وذيلها بين قوائمها؟ وهذا يصعد، هادئاً، بوحدة رهيبة، ويكره المرارة. قلب الإنسان يصير حفرة مليئة بالمرارة. على وجنتيه وحلقه أحس يسوع بلسان مسموم لحسه أحاط جسده ووجهه بالنور الساطع. كما الأمر في كفن أبيض.

خمن يوحنا معاناة المعلم، فخرج إلى الباحة. رآه محاطاً كله بنور القمر.

ـ يا معلم، قال بصوت منخفض لكي لا ينفّره، وكان على رؤوس أصابعه. التفت يسوع، رآه، اختفى المراهق اللطيف

والأجرد، كان قائد المائة عجوزاً واقفاً في وسط الباحة، تحت القمر وبيده كتاب جديد وباليد الأخرى ريشة طويلة كسهم نحاسي. مشعث اللحية، بيضاء كلها، تصل حتى ركبتيه.

ـ يا ابن الصاعقة، ناداه يسوع، محمولا بنشوة، يكتب: أنا الألف والياء، ذاك الذي كان، من هو الآن ومن سيكون، سيد الطاقات، أتسمع صوتاً جهورياً مثل بوق؟

خاف يوحنا؛ كان روح المعلم مزعزعاً! كان يعرف أن القمر ينعش لذا خرج إلى الدار، ليشده، ليدخله إلى البيت. لكن، للأسف، لقد تأخر جداً.

ـ يا معلم اسكت، قال. هذا أنا، يوحنا الذي تحبه هيا ندخل إلى بيت أليعازر.

اكتب! أمر ثانية صوت يسوع. اكتب: "حول عرش الله يدور سبعة ملائكة وكل ملاك يحمل في فمه بوقاً. أتراها، يا ابن الصاعقة؟ أكتب: نزل الملاك الأول إلى الأرض. يمتزج في دمه البرد ــ حب المزن — والنار. ثلث الأرض التهب، وثلث الشجر، وثلث العشب الأخضر. نفخ الملاك الثاني بالبوق: جبل من النار سقط في البحر وثلث البحر تحول إلى دم، ونفق ثلث السمك، وثلث السفن ابتلع. ونفخ الملاك الثالث بالبوق: نجم ضخم هبط من السماء وثلث الأنهر، البحيرات والينابيع تسمم. ونفخ الملاك الرابع: حرم ثلث الأرض من الشمس وثلث آخر من القمر، وثلث آخر من النجوم. وعزف الخامس: اندفع نجم من

أعلى السماء، فتحت جهنم، اندفعت منها موجة من الدخان، وارتمت في هذا الدخان أسراب الجراد ليس إلى النبات، ليس إلى الشجر، بل على الناس، وكان شعر الجراد طويلاً كشعر النساء، وكانت أسنانه كأسنان الأسد: كان الجراد يرتدي دروعا من حديد وكانت أجنحته تضج كأرتال الدبابات العاملة في المعركة. ونفخ الملاك السادس بالبوق ....

لكن يوحنا لم يعد يملك نفسه. انخرط بالنحيب وارتمى على قدمي يسوع:

معلمي، صرخ، اسكت ...... اسكت.....

سمع يسوع النحيب، فارتعش. انحنى، فرأى عند قدميه التلميذ المحبوب.

يوحنا، قال: عزيزي، لم تبكي؟

خجل يوحنا من الاعتراف إن روح المعلم وذهنه كانا تحت القمر، مزعزعين منذ هنيهة.

يا معلم، هلم ندخل، العجوز يسأل عنك والتلامذة يودون رؤيتك.

ـ ولهذا تبكي، يا يوحنا المحبوب؟ لندخل.

دخل. جلس ثانية قرب الحاخام العجوز. شعر بتعب قوي، كانت يداه مغطاة بالعرق. كان يرتجف ويستعر جسمه في وقت معا. تأمله الحاخام فارتعد.

لا تنظر إلى القمر، يا ولدي، قال له وأخذ يده المبللة، يقال

إن هذا هو ثدي حبيبة الشيطان، الليل، يتدفق ......

لكن ذهن يسوع بقي مركزاً على الموت.

ـ يا عجوز، قال، أظن أنك عكست الموت بشكل سيء في حديثك. ليس للموت وجه هيرود. لا، الموت سيد عظيم، يحمل مفاتيح الله ويفتح الباب.

يا عجوز، تذكر موتى آخرين وواسني.

انتهى التلامذة من الأكل، قطعوا حديثهم البسيط، رتبت مرتا المائدة، ثمة ابنتان كل منهما اسمها مريم وكانتا منكمشتين على قدمي المعلم، ومن حين إلى آخر كانت إحداهما تتأمل اليدين خائفة، والصدر والعينين والفم والشعر وكانت الأخرى تتساءل، قلقة، أي البنتين أجمل.

ــ أنت محق، يا ابني، قال العجوز. تكلمت خطأ عن رئيس الظلمة لدى الله.

يأخذ دوماً وجه الميت. فأن مات هيرود، يصير هيرود، وإن كان الميت قديساً يتلألأ وجهه كسبعة شموس. هوذا وجيه كبير يأتي على عربته، يرفع الطهارة والقدسية على الأرض ويعلو بها حتى السماء. يا إنسان إن أردت أن تعرف وجهك الأبدي، حدق إليه كيف يبدو الموت أمامك، في أخر ساعة لك.

كان الجميع يصغون، مندهشين، وكل منهم يراجع نفسه في ذهنه. خلال برهة من الزمن خيم عليهم الصمت، كما لو أن كلاً منهم يجهد في رؤية شكل موته.

وبعد لأي تكلم يسوع، قال:

ـ يا عجوز، يوم كان عمري اثني عشر عاماً سمعتك في المعبد تقص على شعب الناصرة استشهاد وجرح النبي عيسى Isaie لكني بعد سنين. نسيت هذا. وبرغبة عارمة أود الآن أيضاً سماع قصة موته لأواسي روحي وأصالحها مع الموت. لأنك جفلتني كثيراً لدى الحديث عن هيرود.

ـ لماذا تطلب أن نقضي هذا المساء كله مع الموت، يا بني؟ أهذه هي النعمة التي تطلبها مني.

ـ نعم، ليس ثمة أثمن منها

التفت إلى تلامذته:

لا تخافوا الموت يا رفاقي؛ ليكن مباركاً! فلولاه، كيف لنا اللحاق بالله إلى الأبد؟ ما قلته صحيحاً، فالمفاتيح عند الموت وهو من يفتح الباب.

حدق إليه الحاخام الشيخ، مندهشاً.

ـ يا يسوع، كيف لك أن تتحدث عن الموت بهذا الحب والثقة؟ منذ وقت مديد لم أسمع هذه الطراوة في صوتك.

ـ حدثنا يا شيخ، عن موت النبي عيسى Isaie وسترى أني على صواب.

غير الحاخام العجوز مكانه لكي لا يلمس أليعازر.

لقد نسي الملك الظالم منسى Manasse أوامر أبيه التقي حزقيا EZechias. تلبسه الشيطان وتعلم منه التملك. لم يعد

منسى قادراً على سماع صوت اللّه عيسى. لذا أرسل القتلة إلى بقاع يهودا بحثاً عنه. ليقطعوا رأسه ويمنعوه من الصراخ. لكن عيسى اختبأ في بيت ـ لحم وراء أرزة عملاقة. صام وصلى لكي يرحم اللّه إسرائيل وينقذها. في يوم مرَّ سومري هرطوقي من هنا. خرجت يد النبي في أثناء الصلاة من جذع الشجرة. رآها السومري فسارع إلى الملك ليشي به. قبض على النبي واقتيد إلى الملك. " هاتوا المنشار الذي ينشر الشجرة ويقطعها. وقطعوه! " أمر اللعين. مد النبي بالأرض، قبض رجلان طرفي المنشار وبدؤوا ينشرون.

تنصل من أنبيائك، صرخ به الملك، تنقذ حياتك!

لكن عيسى كان قد دخل الجنة، لم يعد يسمع نداءات الأرض.

أنكر اللّه، صرخ أيضاً الملك، وآمر شعبي أن يخر عند قدميك ويعبدك

ليس لك سلطة أخرى، أجاب آنئذ النبي، سوى قتل جسدي. لا حول لك بقتل نفسي. ولا خنق أو كتم صوتي. هما الاثنان خالدان. الواحد يتجه إلى اللّه، والآخر، سيظل أبداً على الأرض ليكرز، ليبشر.

آنئذ قدم الموت على عربة نارية، تاج من اليابسة المذهبة على الشعر، وخطفوه.

نهض يسوع؛ عيناه تلمعان. عربة من نار وقفت فوقه.

ـ يا رفاق، قال وهو يحدق إلى تلامذته الواحد بعد الآخر، يا رفاق الدرب الأحبة، أصغوا، إن أحببتموني، استمعوا إلى ما سأقول هذا المساء: كونوا دوماً مسلحين، مستعدين. مَنْ عندهم صنادل. بصنادلهم. مَنْ عندهم عصي بعصيهم، على أهبة الاستعداد للسفر العظيم. ما هو الجسد؟ خيمة الروح. عليكم أن تقولوا في كل لحظة: " نرفع الخيمة، ونرحل!" نرحل، نعود إلى وطننا، أي وطن؟ السماء!

ـ يا رفاق، في هذا المساء أود أن أقول: عندما توجدون أمام قبر كائن حبيب، لا تتخرطوا بالدمع والنحيب. أحفظوا في ذهنكم هذا العزاء الكبير: الموت هو باب الأبدية. ليس ثمة باب آخر. النفس الحبيبة لا تموت. تنتقل إلى دار الخلد.

(27)

منذ الفجر، طوال النهار والليل أيضاً، بينما كان لا يراه أحد، كان الربيع يبعد بكل هدوء التراب والحجارة ويصعد من أرض إسرائيل. خلال ليلة واحدة تغطت النباتات يسيرون في سامارا وإسدريلون في الجليل بالأقحوان الأصفر والليلك البري. وبين حجارة يهودا الصلبة انبثقت، كقطرات كبيرة من الدم شقائق النعمان الحمراء اليومية. ورشمت الكروم بالبراعم الممتلئة، وفي كل برعم أخضر تجمعت النقطة القرمزية، لتنطلق إلى النور، الحبوب الخضراء العنب، والخمر من جديد؛ وأعمق من هذا، في قلب كل برعم، أغاني الناس. قرب كل

ورقة صغيرة قبع ملاك حارس يساعدها على النمو. فيتخيل البشر أن أيام الخلق الأول عادت، فكل كلمة من كلام اللّه سقطت على الأرض الوليدة للتو كانت مثقلة بالشجر، بالزهر البري والخضرة.

من بئر يعقوب في أسفل الجليل المقدس، الغاريزم garizime، تملأ المرأة السومرية في ذلك الصباح جرتها وتنظر إلى بعيد نحو درب الجليل، كما لو أنها كانت تنتظر أبداً أن ترى ظهور الشاب الشاحب الذي حدثها في أحد الأيام عن الماء الأزلي. والآن، في الربيع، كشفت الأرملة الفاجرة فضلا عن ذلك عن صدرها المغطى بالعرق.

في هذه الليلة الربيعية تبدلت الروح الآبدة لإسرائيل، صارت سنونوة، تأتي إلى النافذة المفتوحة أمام كل فتاة شابة يهودية وتزقزق حتى الصباح ولا تدعها تنام. ـ لم تنامين وحدك؟ تهدل معاتبة الشابة. لم تظنين أني وهبتك شعرك الطويل ووركيك العريضين والدائريين؟ انهضي، البسي حليك، تزيني أمام الشباك، ابقي واقفة في الصباح الباكر في عتبة الباب، خذي جرتك واذهبي إلى البئر؛ ضعي عينك على الشباب العبريين طالبي الزواج الذين ستصادفينهم على الدرب، أعطني أولاد. عندنا، نحن العبريين، كثير من الأعداء، إنما ما دامت بناتي ينجبن بنيناً وبنات، أصير أزلية. على أرض إسرائيل أكره الحقول غير المحروسة والأشجار التي لم تطعّم، ولم تثمر.

وعلى طريق الخليل التي يحميها الله، في صحراء ايدومي، حول القبر المقدس لإبراهيم، يمثل الفتيان العبريون، الذين استيقظوا باكراً، قبل المسيح. صنعوا أقواساً من القصب، أطلقوا سهاماً من القصب نحو السماء وطلبوا بصوت عال وجهوري أن ينزل أخيراً، مع سيف طويل وخوذة ذهبية، ملك إسرائيل، المسيح. بسطوا على القبر المقدس جلد نعجة، ليصنعوا له عرشاً. لا بل نظموا له أغنية وصفقوا بالأيدي لجعله يظهر، وعلى حين غرة، دقت الطبول، خلف القبر، وعلى صوت النصر، رأوا ظهور، وجه ملتحٍ ورهيب متبختراً، وكانت لحيته وشواربهُ من رأس شتلة الذرة الصفراء، يزأر، المسيح. يمسك سيفاً طويلاً، مصنوعاً من غصن البلح، يضرب نقطة الضعف كل الأولاد المصطفين ويسقطون كلهم، مذبوحين.

عند مطلع النهار، ببيت لحم، في بيت أليعازر، لم يغمض يسوع جفنيه. قلقهُ امتد طويلاً وقاسياً، ما عاد يرى أي درب مفتوح أمامه؛ أبداً، سوى الموت. عنه كان الأنبياء يتكلمون، قال لنفسه، أنا ذاك الحمل الذي يجب أن ينهض بكل أخطاء وخطايا العالم والذي يجب أن يذبح في عيد الفصح القادم؛ فليتم إذن ذبحه على عجل؛ اللحم ضعيف، لا أثق به، يمكن أن يتركني في آخر لحظة. الآن أحس بروحي واقفة، فليأت الموت... آه، عندما ينبثق الفجر، لأذهب إلى الهيكل، وأنتهي من هذا اليوم!

صمم وقرر، هدأ ذهنه قليلاً. أغمض عينيه، غفا ورأى حلما. كانت السماء حديقة محاطة بسياج شائك وغاصة بحيوانات مفترسة. وهو ذاته كان واحداً منها ويلعب مع الآخرين. وفي أثناء لعبه، وثب من فوق السياج ووقع على الأرض. لدى رؤيته أخذ الخوف بخناق الناس، صرخت النسوة ورحن يبحثن عن أطفالهن في الشوارع، لكي لا تفترسهم الحيوانات. قبض الرجال على مقذوفات حجارة، سيوف واصطادوه... انبثق الدم من كل جسده وفجأة سقط وجهه على الأرض. آنئذ اجتمع القضاة حوله ليحاكموه؛ لكنهم ما كانوا بشراً، كانوا ثعالب، كلاباً، خنازير، وذئاباً. حاكموه وأدانوه بالموت إنما وهم يقودونه إلى تنفيذ الحكم، تذكر أنه ليس قادراً على الموت، إنه حيوان سماوي، أزلي لا يموت؛ بعد جهد تذكر أن المرأة أخذته من يده، تخيل أنها كانت مريم – المجدلية، وأخرجته من المدينة، إلى الحقول:

ـ لا تذهب إلى السماء، قالت له، قدم الربيع، ابق معنا... مشيا طويلاً، وصلا إلى تخوم السامرة وظهرت السومرية، جرتها إلى كتفها. أعطته يشرب ثم أخذته من يده واقتادته إلى حدود الجليل، آنئذ ظهرت أمه تحت الزيتونات العتيقات المزهرات. كانت تضع على رأسها منديلاً أسود وتنوح، رأت الدم الذي يغطيه، وجروحه وتاجاً من شوك فوق رأسه. رفعت ذراعيها إلى السماء: "كما سحقتني ستسحق اللّه. وضعت

اسمي على شفاه القوم، وهؤلاء يندّدون بي. تمردت على الوطن، على الشريعة، على إله إسرائيل. لم تخشَ اللّه، لم تخجل أمام الناس. لم تفكر بأمك ولا بأبيك، ألعنك!" واختفت.

استيقظ يسوع يرتجف، يغمره العرق. حوله تلامذته، نائمون، يشخرون. في الباحة الديك يصيح؛ سمعه بطرس، فتح عينيه ورأى يسوع واقفاً.

معلم، قال، بينما كان الديك يصيح رأيت حلماً. خيل لي أنك أخذت قطعتي خشب بشكل صليب وبين يديك صارتا قيثارة وقوساً؛ وأنت تغني وتعزف وكانت الحيوانات مجتمعة، آتية من أصقاع الكون، لتصغي اليك... ما يعني هذا؟ سألت عنه الحاخام العجوز.

ـ لم يقف الحلم هنا، يا بطرس، رد يسوع. لمَ استيقظت هكذا في عجلة؟ الحلم يذهب بعيداً.

بعيداً؟ لم أفهم. أرأيته كله، يا معلم؟

ـ الحيوانات، بعد أن سمعت الأغنية، انقضت وافترست المغني فرك بطرس عينيه، توقع قلبه أمراً، لكن روحه بقيت هامدة.

ـ لم أفهم، قال.

ـــ ستفهم في صباح آخر، أجابه يسوع، لما تسمع صياح الديك ثانية.

دفع بقدمه تلاميذه الواحد بعد الآخر.

ـ استيقظوا، تنابل، عندنا عمل كثيراً في هذا اليوم.

ـ نسافر؟ قال فيليب وهو يدعك عينيه. أنا أتمنى أن نعود إلى الجليل، كمكان آمن.

كز يهوذا على أسنانه لكنه ظل ساكتاً.

نهضت النسوة في الغرفة السفلى، سمع هذرهن. خرجت الشيخة سالومي لتوقد النار، كان الحواريون قد تجمعوا في الدار وانتظروا يسوع المنحني كان يسوع يحدث بصوت ضعيف الحاخام، المريض فعلاً والنائم في صدر القاعة.

إلى أين تذهب أيضاً، يا ولدي؟ سأله العجوز، إلى أين ترحل لتحارب؟ إلى القدس ثانية؟ سترفع يدك لتهدم الهيكل؟ لأنك تعرف أن الكلمة تتحول إلى عمل أن هي خرجت من روح عظيمة. روحك عظيمة وأنت مسؤول عن كل ما تقول. فإن قلت : سيدمر الهيكل، سيكون هذا يوماً؛ زن كلامك!

ــ أنا أزن كلامي، يا عجوز. العالم مستعد كلياً لاستقبالي عندما أتحدث. أختار ما سيبقى وما سيختفي. أتعهد أنا هذا.

آه، لو أستطيع البقاء حياً لأعرف من أنت! لكني عجوز هرم. العالم صار شبحاً، يطوف حول رأسي، يريد الدخول؛ إنما جميع الأبواب مغلقة.

ـ جالد أيضاً عدة أيام، يا عجوز، حتى عيد الفصح، لتنتعش روحك بقواك وسترى. اللحظة لم تطرق الباب بعد.

هز الحاخام رأسه:

متى تأتي هذه اللحظة، تمتم بتذمر، هل غافلني اللّه؟ ماذا فعل بالكلمة التي أعطانيها؟ أنا أموت، أموت، أين إذن المسيح؟ كان العجوز الحاخام متمسكاً بكتف يسوع بكل قواه التي بقيت له.

تمالك نفسك حتى الفصح، يا شيخ. سترى، اللّه يرعى كلامه دوماً! تملص من أظافر الحاخام وخرج إلى الدار.

ناثانائيل، قال، وأنت فيليب. اذهبا إلى ظاهر الضيعة، إلى أخر بيت، تجدان أتانة مربوطة إلى حلقة الباب مع جحشها. فكا الرسن وهاتاهما، وإن سئلتما إلى أين تأخذان هاتين الدابتين؟ أجيبا: ربنا بحاجتهما، سنردهما.

ـ يبدو لي أننا سنلقى عنتا، همس ناثانائيل في إذن صديقه

ـ هلم، قال فيليب، افعل ما قال لك ولا تبال بما يحدث!

أخذ متّى منذ الصباح الباكر قلمه وفتح جيداً عينيه وأذنيه.

ـ يا إله إسرائيل، كما يأتي كل شيء مع الأنبياء بوحي الهي، تدبر الأمر. ماذا يقول زكريا؟ " افرح وابتهج، البهجة ابنة صهيون، ادفع صرخة مغتبطة، الغبطة بنت القدس. انظر، إلهك يأتي لاستقبالك، ممتطياً حماراً، بتواضع، وليكن المنقذ! "

ـ يا معلم، قال متّى ليختبره، أنت إذن متعب؟ لا تستطيع الذهاب إلى القدس على قدميك؟

ـ لا ، أجاب يسوع، لمَ تسألني؟ بي رغبة قوية في الذهاب على مطية.

ــ عليك أن تذهب إليها على صهوة جواد أبيض! أردف بطرس. ألست ملك إسرائيل؟ فلا بد من حصان أبيض للذهاب إلى العاصمة.

رمى يسوع يهوذا بنظرة سريعة ولم يجب.

ظهرت المجدلية، توقفت في عتبة البيت. لم تنم طوال الليل ظهر هذا على عينيها. اتكأت على حاجب الباب وراحت تتأمل يسوع. كانت نظرتها عميقة، قلقة، كما لو كانت تودعه. ودت أن تقول له: لا تذهب! لكن حلقها كان مكروباً.رأى متّى شفتيها تتحركان ولم يسمع كلاماً وفهم: " لا يتركها الأنبياء تحكي، قالت لنفسها، لن يسمحوا لي بمنع المعلم من إتمام ما بشروا به. سيركب جحشاً ويذهب إلى القدس، شاءت أم لا، شاء المعلم أم لم يشأ. هذا مكتوب. "

في هذه اللحظة وصل بطرس وناثانائيل، فرحين، شادين وراءهما، بطرف حبل، الأم وجحشها من دون سرج.

ـ حدث هذا بالضبط كما قلت، يا معلم، قال فيليب. الآن إلى ظهر الأتان والذهاب.

التفت يسوع. كانت النسوة واقفات، مصالبات الأذرع، حزينات وساكتات وينظرن: العجوز سالومي والأختان وأمامهما المجدلية.

ـ مرتا ، سأل يسوع، أـﻓﻲ البيت حبل ثور؟

لا ، يا معلم، ردت مرتا. ليس ثمة سوى نحاسة أخي.

هاتيها.

وضع الحواريون ثيابهم على ظهر الحيوان المطيع، لتحضير مطرح لين للمعلم؛ وألقت مرتا غطاء أحمر نسجته وزينته على الطارة وبعض أغصان الشربين الصغيرة والسوداء.

ـ أجاهزون؟ قال يسوع، مؤكداً؟

بالتأكيد، أجاب بطرس. أخذ المقدمة، مسك رسن الدابة وقادها. سمع سكان بيتانيا صوت الركب العابر وفتحوا أبوابهم.

ـ إلى أين تذهبون، يا شباب؟ لماذا يركب النبي، اليوم؟

انحنى الحواريون وأبلغوهم السر:

ـ هو ذاهب اليوم ليجلس ـﻓﻲ عرشه

ـ أي عرش؟

اصمت، هذا سر. هذا الرجل الذي ترونه هو ملك إسرائيل.

ـ ماذا تقول! صرخ الثرثارون، نذهب معه! ويكبر الرهط.

قطع الفتيان أغصان الغار، عبروا إلى رأس الركب وغنوا مسرورين:

" مبارك ذاك الذي يأتي باسم السيد المسيح! " شلح الناس ثيابهم ومدوها ـﻓﻲ الدرب ليمر عليها. وهم يركضون! أي ربيع، كالأزهار الريانة كانت هذه السنة، كالطيور التي تنشد ـﻓﻲ

هذا الصباح وتسارع هي أيضاً، لتنضم إلى الحفل، نحو القدس!

انحنى جاك على أذن أخيه:

ــ أمنا خاطبته البارحة، طلبت إن يضعنا على دربه وإلى يساره وهو يعتلي سدة عرش المجد. لكنه لم يجب. لا بل ربما غضب، واكمد محياه.

ـ غضب بالتأكيد، رد يوحنا. لا يجوز أن نحدثه بهذا.

ــ ماذا إذن؟ أيجب أن يتركنا جانباً، ومن يدري، ربما يعطي الصدارة ليهوذا الاسخريوطي؟ ألم تر كم تحدثاً في هذه الأيام بالسر سوية، ولم يبتعدا عن بعضهما؟ افتح عينيك، يا يوحنا، اذهب وكلمه أنت أيضاً، كي لا يسبب لنا أحدهم أي أذى. هذه هي بالضبط ساعة اقتسام الأمجاد. لكن يوحنا هز رأسه، وقال:

ـ يا أخي، أنظر مدى حزنه، يقال إنه ذاهب إلى الموت.أريد أن أعرف، قال متّى وشق لنفسه درباً خلف الآخرين، من يذهب يعبر الآن. الأنبياء لا يعللون بوضوح. يحكي البعض عن العرش وآخرون عن الموت.أي من النبوءتين سيتحقق؟ لا يمكن إجلاء نبوءة إلا بعد إتمام الحدث. آنئذ فقط ندرك ما أراد النبي أن يقول. لنصبر إذن لنرى ماذا سيحدث وفي هذا المساء عند العودة سأدون، حتى لا أتعرض لخطر الخطأ.

مع ذلك وصل الخبر الطيب، على جنح الطير، إلى القرى والمزارع المنتشرة بين الزيتون والكرمة. توافد الفلاحون من كل

صوب، رموا معاطفهم بالأرض، ونزعت الفلاحات مناديلهن، ليعبر النبي فوقها... كان ثمة جمهرة من المعاقين، المرضى، والمعدمين. لحظة فلحظة كان يسوع يبرم رأسه ويتأمل جيشه وراءه، فجأة شعر بوحدة عميقة. التفت وصرخ:

ـ يهوذا! لكن التلميذ قاسي القلب كان في المؤخرة، لم يسمع.

ـ يهوذا! كرر يسوع النداء، بيأس.

ـ حاضر، أجاب الأصهب، وأبعد التلامذة ليعبر

ـ فيم تريدني، يا معلم؟

ـ ابق إلى جانبي، يا يهوذا، رافقني.

ـ لا تقلق، لن أتركك، يا معلم! أخذ الرسن من يد بطرس وراح يقوده.

ـ لا تتركني وحدي، يهوذا يا أخي، ردد يسوع.

ـ لماذا أتركك، يا معلم ؟ ألسنا على وفاق؟

اقتربوا بعد جد وجهاد من القدس. انتصبت المدينة المقدسة أمامهم، فوق جبل صهيون، بيضاء نقية تحت شمس لا ترحم كانوا يمرون في قرية صغيرة لما سمعوا من أول بيت إلى آخر بيت، نواحاً هادئاً، وئيداً، كمطر الربيع الدافئ.

ـ من يبكي؟ من مات؟ سأل يسوع مرتعشاً. لكن الفلاحين الذين يركضون وراءه ضحكوا:

لا تقلق، يا معلم، لم يمت أحد. الفتيات اللواتي يعملن

بالطاحون ينشدن كلاماً حزيناً.

ـ لكن لم؟

ـ ليعتادوا، يا معلم. ليتعلمن النحيب في وقت قادم.

تسلقوا الدرب الموحش والمليء بالحجارة وولجوا المدينة آكلة الناس. قطعان صاخبة، تائهة، آتية من كل أصقاع الأرض، كل يحمل عطور وعفن بلده، يقع بعضهم بين أذرع البعض الآخر، يتعانقون؛ كانوا في الليلة التي تتقدم العيد الأبدي، كل اليهود كانوا أخوة. رأوا يسوع يمتطي أتانا متواضعا، تتبعه فلول تحمل أغصان الغار، وتضحك:

ـ ماذا هناك أيضاً ماذا ترى؟

رفع العاجزون، المرضى، المعدمون قبضاتهم وهددوا:

سترون. هذا هو يسوع الناصري، ملك اليهود!

وضع يسوع رجله بالأرض وصعد درج الهيكل درجتين درجتين، بسرعة. وصل إلى رواق سالومي ووقف. نظر حوله: أقيمت صقالات، جمهرة من الناس تبيع، تشتري، تساوم، تتنازع، تعرض بضاعتها، تجار، صرافون، أصحاب مطاعم ومقاهي، عاهرات. صعدت المرارة إلى عيني يسوع، أخذ الغضب بخناقه. رفع عصاه، بدأ بالخمارين، المطاعم الرخيصة والدكاكين الصغيرة؛ قلب الموائد والكراسي، ضرب التجار وتقدم: اخرجوا من هنا! اخرجوا، اخرجوا! حرك المنخس وصرخ: رفع له رجاء لم يكد يسمعهُ لشدة المرارة: " يا سيدي

المسيح، يا سيدي المسيح، ليحدث ما قررت، إنما في الحال. لا نطلب منك نعمة أو مكرمة أخرى: حالاً، بينما نستطيع الاحتمال."

تبعه الحفل، مازال يصرخ، مهتاجاً: اخرجوا من هنا! من هنا! واسرقوا الصقالات. في الرواق الملكي، فوق واحد سيدرون، توقف يسوع؛ دخان يتصاعد من جسده كله. شعر أسود يسرح على كتفيه، وتطلق عيناه لهبا.

ـ أتيت لألهب العالم، لأنقض! صرخ. أعلن يوحنا في الصحراء: توبوا! توبوا! يوم السيد المسيح قادم! وأنا أود أن أقول: سبق السيف العذل، فات وقت الندم، إنه هنا، بيننا، أنا من يلحق يوم السيد. يوحنا في الصحراء يعمد بالماء، وأنا أعمد بالنار. أعمد الناس، الجبال، المدن، المراكب، أرى العالم يلتهب بأربع زواياه، كل زوايا الروح، يوم السيد المسيح،

النار! النار! زعق الرهط. وأوقدوا النار، أشعلوا العالم!

قبض اللاويون على السهام والسيوف، أخذ جاك أخ يسوع طليعة الرهط مع قلاداته معلقة برقبته، وهجموا ليأسروه. لكن الشعب هاج وماج، تشجع والتلاميذ انقضوا بدورهم، دفعة واحدة، وهم يزأرون. في الأعلى، في برج القصر، كان الجنود الرومان يحدقون إليهم ويضحكون.

أخذ بطرس من الصقاله مشعلاً مشتعلاً لاهباً

ـ عليهم يا أخوة، صرخ، النار، يا أولاد، أزفت الساعة!

آنئذ كان ممكناً أن تسيل دماء كثيرة في أبراج قصر الله، لو لم ينفخ الرومان الأبواق المنذرة في برج بيلاطس. خرج رئيس الكهنة من الهيكل وأمر اللاويين خفض أسلحتهم. ونصب هو نفسه، بكل مهارة، فخاً للتمرد، سينطلق عليهم بالتأكيد بدون صخب.

أحاط التلامذة بيسوع وتأملوا بغصة بل حشرجة. أيعطي الأمارة أم لا؟ ماذا ينتظر؟ لمَ، عوضاً من رفع اليد وإطلاق شارة السماء، يتأمل الأرض تحت قدميه؟ هو يستطيع الصبر، أما هم الفقراء، ضحكوا من كل شيء، دقت ساعة الأداء على حساب أتعابهم.

ـ يا معلم، قال بطرس، مضطرباً، قرر؛ أعط الأمارة!

كان يسوع، ساكناً، قد أغمض عينيه؛ العرق كثيف على جبينه. "يومك يدنو، يا سيد، نهاية العالم تلوح بالأفق. أنا من سيحملها، أعرف هذا، أنما بموتي..."

و اقترب جاك بدوره. لمس كتفه ليجعله يفتح عينيه، هزه:

ــ إن لم تعط الأمارة الآن، ضعنا. ما فعلته اليوم يعني: الموت.

هذا يعني الموت، قال توما؛ أما نحن لا نريد الموت، أعلم هذا.

أن نموت! صرخ فيليب وناثانائيل كالنباح؛ أما نحن، أتينا إلى هنا لتستلم عرشك!

أسند جاك رأسه إلى صدر يسوع، وقال:

ـ يا معلم، فيم تفكر؟

لكن يسوع دفعه، وقال:

يهوذا، تعال إلى جنبي، واستند إلى ذراعه المتين.

ــ الشجاعة، يا معلم، تمتم ذو الشعر الأحمر. أتت اللحظة، لا تغطنا بالعار.

نظر جاك إلى يهوذا بحقد. سابقاً، ما كان يسوع يرميه بنظرة والآن، ما هذه الصداقات والمؤامرات السرية؟ يطبخ الاثنان شيئًا ما... ماذا قلت، يا متى؟

أنا لم أقل شيئاً؛ أصغي إلى ما تفعلون وأكتب. هذه مهمتي.

ضغط يسوع على ذراع رفيقه. وبعد لحظة بدأ الدوار. تناوله يهوذا، وسأله:

ـ أنت متعب، يا معلم؟

ـ نعم أنا تعبان.

ـ اذكر اسم اللّه، لترتاح، أردف الأصهب.

عاد يسوع إلى حاله الطبيعي. استدار نحو التلاميذ.

ـ هلموا، قال.

لكن الأطهار ترددوا. لا يودون مبارحة المكان. الذهاب إلى أين؟ إلى بيتانيا أيضاً؟ إلى متى؟ كفى ذهاباً وإياباً

ــ يخيل لي أنه يهزأ بنا. قال نثانائيل بصوت واطئ إلى

صديقه. لن أبرح المكان أبداً!

بعد هذا القول، لحق باقي التلاميذ الذين استأنفوا المشي ثانية إلى بيتانيا، ممتعضين وراءهم، اللاويون والفريسيون يصخبون ضحكاً. رشق لاوي فتى، بشعاً وأحدب بحبة بندورة فأصابت بطرس بملء وجهه.

مسدد ماهر، يا سكران، هتفت الأصوات، أصبت هدفك تماماً! هم بطرس بالالتفات ليهجم على اللاوي، لكن أندريه مسك به، وقال له:

ـ صبراً، يا أخي، دورنا آت.

متى إذن، يا أندريه، تمتم بطرس بدم بارد؟ متى إذن؟ ألا ترى في أي حال نحن؟ محبطون، صامتون، بدأوا الدرب. كان الشعب الذي أتى معهم قد تشتت وهو يشتم. لن يتبعه أحد بعد الآن. لن يمد أحد أسماله ليمر عليها المعلم. في تلك اللحظة، كان فيليب هو الذي يقود الأتان، وراءه، كان ناثانائيل. يمسك ذنب الدابة؛ كان مكرهاً على تسليم المقود للمعلم، تحاشياً لإثارة القصص. كانت الشمس ساطعة قائضة، هواء كاو يصفر، موجة من الغبار دارت، كانوا يختنقون. لدى الإشراف على بيتانيا رأوا فجأة أمامهم بارابا Barabbas واثنين من مرافقيه، وعملاقين متوحشين بشوارب كثة.

ـ إلى أين تقودون معلمكم؟ زعق بهم بارابا. يميني، إنه سلم الروح! يأخذونه إلى أليعازر الذي أقامه! أجاب مرافقوه

وفرطوا من الضحك لما وصلوا إلى بيتانيا ودخلوا البيت، وجدوا العجوز الحاخام يحتضر. تلتئم النساء أمام وسادته، كانوا يرونه يرحل، ساكتين، هادئين. كن يعرفن أنهن عاجزات عن أي فعل. دنا يسوع، وضع يده على جبين العجوز. ابتسم الحاخام لكنه لم يفتح جفنيه.

تجمع الرسل في الباحة، بشفاه مرة؛ صمتوا. أومأ يسوع ليهوذا:

ـ يهوذا، أخي، الساعة أزفت. أمستعد أنت؟

ـ بالتأكيد، يا معلم. لماذا اخترتني أنا؟

لأنك الأصلب، أنت تعرف هذا. ليس الآخرون بصلابتك. ذهبتم إليهم،

ـ أكلمت كبير الكهنة كاييف؟

ـ كلمته. أراد أن يعرف أين ومتى.

قل له: ليلة الفصح، بعد وجبة الفصح، في جتسمانيا[1] Gethsemanie. تشجع، يهوذا أخي. وأنا أتشجع.

هز يهوذا رأسه دون أن يفه بكلمة، خرج إلى الشارع وانتظر ظهور القمر.

ماذا جرى في القدس؟ سألت الشيخة سالومي ابنها. ما

---

1 ـ حديقة قرب القدس، في أسفل تلة الزيتون، حيث صلى يسوع واعتقل قبل صلبه.

بكم؟ لم لا تتكلمون؟

أظن، يا أمي، إننا بنينا على الرمل،لقد خدعنا، أجاب جاك.

والمعلم؟ والبردعة[1] والثياب الحريرية المزينة بالذهب، والعروش؟ هل خدعني إذن؟ سألت العجوز، لكن أحد لم يرد.

ظهر القمر حزيناً، بدراً، فوق جبال موآب، وقف لحظة في ذروة الجبل متردداً، تأمل العالم، وبغتة قرر، ترك الجبل وراح يصعد. وقرية أليعازر، غارقة في العتمة، بدت فجأة انتقلت إلى القيظ وراحت تتلألأ، بيضاء كلها. تكشف النهار، تكوكب التلاميذ حول المعلم. لم يكلمهم، تأملهم واحداً إثر واحد كمن يراهم لأول مرة أو لآخر مرة. حوالي الظهر، حرر أسنانه:

ـ أود، يا رفاق، أن أحتفي بالفصح المقدس معكم. في هذا اليوم انطلق أجدادنا، مخلفين وراءهم أرض العبودية، وولجوا حرية الصحراء. ونحن أيضاً، في يوم الفصح، نخرج لأول مرة من عبودية أخرى وندخل في حرية أخرى، ليسمع من له أذنان!

سكت الجميع. كان هذا الكلام غامضاً، ما هي الحرية الجديدة؟ لم يفهموا. وبعد برهة، نطق بطرس لم أفهم شيئاً، يا معلم. لا فصح من دون حَمَلٍ،

ـ أين سنجد الحَمَلَ ؟ ابتسم يسوع مكدراً:

ـ الحمل جاهز، يا بطرس، الآن يذهب بنفسه ليذبح لكي يحتفل الفقراء بفصح جديد. لا تأكل إذن هم الحمل.

وأليعازر، الذي ظل جالساً في زاويته دونما كلمة، نهض، وضع يده الهزيلة على صدره وقال:

يا معلم أنا مدين لك بحياتي! وعلى سوئها، هي أفضل من ظلمة الموت. أنا إذن من سيهديك حمل الفصح. لي صديق راع في الجبل، سأذهب إليه.

تأمله الرسل، مدهوشين. أين وجد هذا الرجل شبه الميت القوة لينهض ويمشي نحو الباب! سارعت إليه أختاه لتمنعاه من الذهاب؛ لكنه أبعدهما، تناول قصبة ليستند وتخطى العتبة.

انطلق إلى أزقة الضيعة، فتحت الأبواب ليعبر، بانت النسوة، واجفات، وأعجبن بقدرة ساقيه الضامرات على المشي، وعدم انهدام قامته العجفاء. كان يتألم، لكنه تشجع ومن لحظة إلى أخرى كان يحاول أن يتنفس ليدل انه يجدد قواه، لكن شفتيه لم تقويا على البشاشة، تخلى إذن عن التنفس، وبتصميم راح يتسلق الجبل، نحو مرعى صديقه.

لم يتقدم مرمى حجر حتى رأى بارابا منتصباً أمامه، في بقعة من الوزال المزهر. منذ أيام وهو يطوف حول القرية، منتظراً هذه اللحظة، منتظراً أن يضع اللعين الذي قام من القبر أنفه خارج داره ليجعله يختفي ويمنع الناس من تصديق المعجزة لدى رؤيته. كان ابن مريم قد صار دعياً منذ أن أقامه؛ فيجب إذن إعادته إلى القبر، لتحقيق السلم والهدوء!

يا هذا، يا هارباً من جهنم، صرخ به، أخيراً التقيتك. قل

لي باسم السماء، أقضيت هناك وقتاً طيباً؟ ما الأفضل عندك، الحياة أم الموت؟

هما متشابهان، رد أليعازر. أراد أن يتابع دربه، لكن بارابا مد يده ومنعه.

اعذرني، أيها العجوز اللطيف، قال، لكن الفصح في الأبواب، ما عندي حمل وتعهدت في هذا الصباح أمام الله أن أذبح بصفة حمل أول كائن أصادفه في دربي، للاحتفال بالفصح مثل كل الناس. مد اذن رقبتك، حظك طيب، إنك ضحية لله.

راح أليعازر يصرخ. أخذه بارابا من رقبته، لكنه خاف. كان كمن مسك شيئاً أطرى من الهواء. كانت أظافر بارابا تدخل وتخرج، دون ظهور نقطة دم. " أهذا شبح؟" قال لنفسه وشحب وجهه المجدور.

ـ أتتوجع؟ سأله

لا ، أردف أليعازر، وانزلق من بين أصابع بارابا ليهرب

ـ مهلاً، صاح بارابا ، ومسكه هذه المرة من شعره. لكن شعر وجلد الجمجمة بقيا في يده. راحت جمجمة أليعازر تشع صفراء، في الشمس.

ـ لتكن ملعوناً، غمغم بارابا مرتجفا. تبا لك، هل ستصير شبحا؟

قبضه من ذراعه اليمين وراح يرجه. قل أنك شبح

فأتركك.

إنما وهو يرجه بقيت ذراع أليعازر بيده. تملكه الخوف، رمى الذراع محطماً في بقعة الوزال المزهر وتقيأ. جعل الفزع شعر رأسه يقف. أخذ سكينه، سارع إلى ذبحه وينتهي من هذا المشكل. مسكه بحذر من نقرته، أسند رقبته إلى حجر وأراد الخلاص. جز، جز، لكن السكين لم تقطع، كمن يحز كتلة صوف. جمد دم بارابا: أذبح ميتاً؟ قال لنفسه. أخذ دربه ليرحل، لكنه رآه يتحرك وخشي أن لا يجده صديقه الملعون ولا يبعث ثانية. سيطر على رعبه، مسكه من الطرفين كما يعصر الغسيل قبل نشره. فتله، ثم رجه؛ تحطمت فقراته، قسم الجسد إلى قطعتين أخفاهما بين الوزال وهرب على عجل. ركض، ركض، لأول مرة في حياته يدون الخوف، حتى لم يجرؤ أن يلتفت. "آه، تمتم، شرط أن لا أحرم الدخول إلى القدس، وأرى جاك، ليعطيني تعزية لأقهر إبليس!"

على هذا، في بيت أليعازر، اقترب يسوع من حوارييه وجهد في أن يدخل إلى ذهنهم شيئاً من النور، لكي لا يبلبلهم مما سيرونه فلا يتشتتوا.

ـ أنا هو الطريق، قال لهم، والبيت الذي تذهبون إليه. أنا أيضاً المسافر، وتأتون إلي. ثقوا بي، لا تخافوا، مهما رأيتم، لا يمكنني أن أموت.

ـ أتسمعون؟ لا يسعني أن أموت.

كان يهوذا وحده في الدار ينبش الحصى بإبهام قدمه. يلاحقه يسوع بنظره لحظة بلحظة، يتأمله وعلى محياه ينتشر غم لا يعلل.

ـ يا معلم، قال يوحنا بنبرة عتاب، لماذا تدعوه دوماً إلى قربك ؟ لو حدقت إلى سوداء عينيه لرأيت خنجراً.

ـ لا، يا يوحنا الحبيب، أجاب يسوع، ليس خنجراً، بل صليباً.

تأمل الرسل بعضهم، مشوشين.

ـ صليباً، قال يوحنا وهو يستند إلى عضد يسوع ـ يا معلم، من هو المصلوب؟

من يدنو من هذا البؤبؤ ويحدق، يرى وجهه على الصليب. لقد دنوت ورأيت وجهي.

لم يفهم التلاميذ، بل راح بعضهم يضحك.

ـ جعلتنا موضع قال وقالت، يا ربي، قال توما. أبداً لم أنحن على بؤبؤي ذي الشعر الأحمر.

ـ أولادك وأحفادك سينحنون، يا توما، أجاب يسوع، ملاحظا عبر النافذة يهوذا الذي وقف الآن في عتبة الباب، يتجه بنظره نحو القدس.

قال متى عاتباً: ـ كلامك غامض، يا معلم. كان يمسك ريشته منذ بعض الوقت ولم يستطع أن يفهم أي شيء ليسجله. كلامك غامض، كيف تريد أن أدونه على الورق؟

أنا لا أتكلم لكي تسجل أنت، يا متى، أجاب يسوع بمرارة. لقد أصاب من سماكم ديكة، أنتم الناسخون. تظنون أن الشمس لا تظهر إن لم تستدعوها. أود أن أخذ أوراقكم وأقلامكم لأرميها إلى النار!

جمع متى في الحال أوراقه وأدخل رأسه بين كتفيه. وقد استمر غضب يسوع:

أقول شيئاً، فتكتبون شيئاً آخر، ومن يقرأونكم يفهمون شيئاً ثالثاً! أقول: صليب، موت، مملكة السماوات، اللّٰه وما تفهمون؟ يضع كل منكم، في كل من هذه الكلمات المقدسة، نزعاته، مصالحه، وتختفي كلمتي، تضيع نفسي لم أعد قادراً على تحمل هذا!

نهض، يكاد يختنق. بغتة شعر بقلبه وروحه امتلآ رملاً.

صمت الرسل. كان يبدو أن المعلم مازال يحمل منخساً ويضربهم، وأنهم كانوا ثيراناً كسولة ترفض التحرك. العالم محراث، قُرنوا إليه، ينخسهم يسوع وهم ينخرون، ولا يتحركون. يحدق إليهم يسوع ويتهالك . الدرب طويل من الأرض إلى السماء وظلوا ساكنين.

ـ حتى متى أبقى بينكم؟ زعق. ليسارع إلي من يعنى منكم بمسألة هامة للاستفهام. ومن لديه كلمة طيبة ليتفضل ويقلها لي، فهي تريحني. لا يجب أن يتكون لديكم أسف بسبب رحيلي لا أن تقولوا: " آه، لم يتوفر الوقت لنقول له كلمة

طيبة، ولم نحاول إبلاغه كم نحبه! " إذن تخلفنا.

كانت النساء، المجتمعات في زاوية، والذقن غارق بين الركبتين، يصغين. من لحظة إلى أخرى يتنهدن ـ فهمن بالأقل الوضع، لكنهن لن يستطعن الكلام. وعلى حين غرة صرخت المجدلية؛ كانت أول من خمن وقدر، وانفجرت تنوح نواحاً حزيناً. نهضت فجأة، دخلت إلى الغرفة السفلى، بحثا عن وسادة، وجدت وعاء الكرستال الذي جلبته معها، مليئاً بالعطور العربية. كان قدمها لها في الماضي أحد عشاقها، لقاء قضاء ليلة. كانت تحمله معها دوماً، منذ أن بدأت تتبع يسوع. وكانت التعيسة تقول لنفسها: من يعرف، الله كبير، ربما يأتي يوم وتخول إمكانية رش وسادة يسوع الحبيب من هذا العطر. ربما يأتي يوم فيرضى بالبقاء معها ويتزوجها. بهذه الأمنيات الدفينة في أعماقها، تتشوف الآن الموت وراء جسم الحبيب؛ ليس أبداً الحب، بل الموت. ويجب هنا أيضاً، كما في الزواج، توفر العطر. أخذت عبوة الكرستال من تحت وسادتها، ضمتها إلى صدرها وأخذت تبكي. بكت بهدوء، كي لا ترى، ماسكة زجاجة العطر ومهدهدة إياها، كما يهدهد الطفل؛ ثم مسحت عينيها، خرجت ورجعت لترتمي على قدمي يسوع، وقبل أن يتسع له الوقت لينحني لينهضها، فتحت القمقم وصبت العطر على قدميه المقدستين، مسحت باكية القدمين المعطرتين، وبما بقي من العطر، ضمخت رأس الحبيب، وفي

الحال خرت ثانية على قدمي المعلم وراحت تقبلهما.

كانت الجموع مذهولة.

- يالضياع هذا العطر الغالي، قال توما التاجر. لو بعناه، لتمكنا من تغذية الفقراء.

- أو لمونا الأيتام، قال نثنائيل

- أو لاشترينا خرافاً، أردف فيليب

- أمارة شؤم، تمتم يوحنا متنهداً. بهذه الخلاصة يعطر موتي الأغنياء. لا يجوز أن نفعلي هذا، يا مريم. وإذا شم الميت رائحة عطره المفضل وعادَ؟

ابتسم يسوع، وقال:

هذا ما يفعله الفقراء دائماً معكم؛ لا أهمية إذن أن يرش العطر لإرضائي. في بعض الأوقات يصعد الإسراف إلى السماء ويجلس قرب أخته الأميرة النبالة، وأنت، يا يوحنا الحبيب، لا تحتر، الموت آتٍ أبداً. يفضل أن يكون الشعر معطراً.

كان البيت كله مفعماً بالعطر مثل رمس غني. بان يهوذا ، رمى المعلم بنظرة سريعة، - هل كشف شر الرسل وعطر وأكلهم المحتضر بالعطر المأتمي؟ لكن يسوع ابتسم، وقال:

يهوذا، أخي، تطير السنونو في السماء أسرع من الريم في الأرض. وترحل روح الإنسان أسرع من السنونو. وأسرع من روح الإنسان قلب المرأة؛ وتطلع إلى المجدلية.

فتح بطرس فمه:

ـ قلنا أشياء كثيرة وأهملنا المهم: أين نحتفل بالفصح في القدس، يا معلم، أرى أن نذهب إلى المقهى مطعم سمعان السرياني le Cyrenean.

ـ قرر اللّه شيئاً آخر، أردف يسوع، انهض يا بطرس، خذ معك يوحنا، واذهبا إلى القدس. تلتقيان رجلاً يحمل جرة على كتفيه. اتبعاه. سيدخل بيتاً، ادخلا أنتما أيضاً وقولا لصاحبه: يحييك معلمنا ويسألك: أين نصبت الموائد لأحتفل بالفصح مع تلاميذي؟ سيجيب: ألف تحية لمعلمكم؛ كل شيء جاهز! أهلاً بكم!

حدق الحواريون إلى بعضهم وفرحوا جداً. فتح بطرس عينيه:

ـ أأنت جاد، يا معلم؟ كل شيء جاهز؟ الحمل، أدوات الشوي، الخمر، كل هذا؟

ـ كل هذا، أجاب يسوع، هيا، ثقوا. نحن نظل قاعدين نتحدث، لكن اللّه لا يبقى جالساً، لا يتحدث، يعمل من أجل الناس.

في هذه اللحظة، سمعت حشرجة في الغرفة، التفت الحضور، خجلين. لقد نسوا خلال هذا الوقت الحاخام العجوز واحتضاره. ركضت المجدلية، لحقتها ثلاث نساء، ثم بعض الرسل، وضع يسوع من جديد يده على فم العجوز، فتح العينين، رآه وابتسم. حرك اليد وأشار إلى الرجال والنساء

بالخروج. لما صارا وحدهما، انحنى يسوع وقبل الفم، العينين والجبين، تأمل العجوز عينيه ووجهه المتألق.

ـ رأيتكم، تمتم، أنتم الثلاثة: الياس، موسى وانت. الآن أنا مطمئن. أنا راحل

ـ وداعاً، يا عجوز. أأنت راض؟

ـ نعم، هات يدك لاضمها إلى صدري. قبض يد يسوع وعانقها، تجمدت شفتاه.

تأمله، فتن براحته، قال له وداعاً وسكت. ثم بعد برهة:

ـ متى تأتي أنت بدورك إلى الأعالي؟ سأل.

ـ غداً، في عيد الفصح. إلى اللقاء، يا شيخ.

صالب الشيخ يديه

ـ أنظر الآن ثانية إلى خادمك، يا سيد، تمتم. رأيت عيني مخلصي!

(28)

كانت الشمس مائلة وتنزلق، قرمزية، نحو المغيب. في السفح الآخر من السماء، بدأ الشرق يبيض. قريباً سيطلع القمر، قمر الفصح، ضخماً، اخرس. وتدخل أشعة الشمس، الشاحبة جداً إلى البيت. كانت تنير منحرفة وجه يسوع الأليف، تلامس الجبهة، الأنف، أيدي الحواريين وستداعب في الزاوية الوجه الهادئ، الفرح، الخالد منذ الآن، للحاخام العجوز. كانت مريم تزاول عملها، غارقة في العتمة، ولا أحد يرى

الدموع التي تسيل بتؤدة على وجنتيها، على ذقنها وعلى القماش نصف المنسوج. كان جو البيت ما يزال عطراً ومن طرف أصابع يسوع يسيل بعض الطيب.

على حين غرة، بينما كانوا قاعدين ساكتين وقلب كل منهم يزداد انقباضاً وانسجاماً مع كثافة ظلمة الليل، دخلت من النافذة سنونو، شقت الهواء، دارت ثلاث دورات فوق الرؤوس مع هديل فرح، اتجهت نحو الضوء وخرجت كسهم. بالكاد رأوا جناحيها المروسين وبطنها الأبيض. كمن فهم هذه الأمارة الخفية، نهض يسوع. — أزفت الساعة، قال. ركضت وراءه بنظرة هادئة المدخنة، أدوات العمل، أوعية المنزل، المصباح، الجرة، نول النسيج، ثم النساء الأربع، سالومي العجوز، مرتا، حنة، المجدلية العاملة. وفي آخر محج العجوز الأبيض كلياً الذي كان قد دخل الأبدية.

ـ وداعاً، قال محركاً يديه.

لم يتسن لأي من النساء الأربع إن تجيب؛ فقط العجوز سالومي قالت له:

لا تنظر إلينا هكذا، يا بني، يخيل لنا أنك تودعنا وداعاً أبدياً.

ـ الوداع، قال يسوع ثانية، وتقدم نحو النساء. وضع يده على رأس المجدلية، ومن ثم رأس مرتا. نهضت العاملة بدورها. دنت وخفضت رأسها. بدا هذا كأنه يباركهن، كمن يضمهن

بذراعيه، كمن يأخذهن معه لآخر مرة، وفجأة بدأ الثلاثة النواح.

خرجوا إلى باحة البيت. أتى الأئمة خلف يسوع. وعلى سياج الباحة ازهرت زهرة العسل. فوق البئر. الآن، هبط الليل. انتشر عطر النبتة. مد يسوع يده، قطف زهرة ووضعها بين أسنانه . " إن يعطيني اللّه القوة وأخذ بين أسناني هذه الزهرة الرائعة وأن لا أعضها في أثناء تشنجات الصلب! "

وصل إلى مدخل الشارع، وفي العتبة توقف ثانية. رفع يده ونادى بصوت عميق:

ـ أيتها النساء، أيتها النساء، وداعاً!

لم تجب أي منهن بل انفجر نواحهن في الدار.

أخذ يسوع الطليعة، وبدأوا دربهم إلى القدس. القمر بدر نهض فوق تلال جبل موآب، غابت الشمس خلف يهوذا.عبر هنيهة تخاطبت درتا السماء وتأملتا بعضهما. ثم صعدت إحداهن، وتوارت الأخرى. أشار يسوع إلى يهوذا ، الذي أتى ووقف قربه. كان عندهما أسرار يجب بحثها، تحدثا بصوت خفيض؛ ومرة يخفض يسوع رأسه، وحينا يخفضه يهوذا. كانا يزنان ملامهما، ينتظر كل منهما جواب الآخر.

ـ اعذرني، يهوذا أخي، قال يسوع إنما لا بد من هذا.

ـ يا معلم، أنا سألتك عن هذا أليس ثمة درب آخر؟

ــ لا ، يهوذا أخي. أنا أيضاً تمنيته؛ وحتى الآن آمل هذا

وأنتظر. إنما عبثاً. لا ، ليس ثمة طريق آخر. نهاية العالم قادمة. هذا العالم سينهدم، فهو مملكة الشر. ستأتي مملكة السماء؛ أنا سأقودها. كيف؟ بموتي. لا مهرب من هذا أبداً؟ لا تكابر ولا تثر، يهوذا أخي، وسأقوم بعد ثلاثة أيام.

ـ تقول لي هذا لمواساتي. لتكرهني على خيانتك دون أن يتمزق قلبي. لا ، ما دمنا نقترب من اللحظة الرهيبة.

ـ لا ، لا أقوى على هذا ، يا معلم.

ـ بل تقوى، أخي يهوذا. سيمنحك اللّه القوة، التي تفتقر لها ، لأن هذا واجب. يجب أن أقتل وأن تخونني أنت. علينا نحن الاثنان أن نخلص العالم. ساعدني.

طأطأ يهوذا رأسه، وبعد هنيهة:

ـ لو فرض عليك أن تخون معلمك، أتفعل؟

ـ فكر يسوع بهذا الطرح طويلاً. وأخيراً قال:

ـ لا ، أنا أخاف من لا ، أي الرفض؛ لا أستطيع هذا. لذا رحمني اللّه ومنحني المهمة الأسهل: أن أصلب.

أخذه يسوع من ذراعه؛ حدثه بهدوء وطلاوة، كما ليفتنه:

ـ لا تتركني وحدي. ألم تكلم كبير الكهنة كاييف caiphe. أليس خَدَمَهُ الهيكل الذين يجب أن يوقفوني جاهزين، مسلحين؟ ألم يتم كل شيء كما أقرينا ، يا أخي يهوذا؟ لنحتفي بالفصح إذن هذا المساء سوية وأنا أطلب منك أن تنهض وتذهب لتبحث عنهم ولتجلبهم. سيمر ثلاثة أيام مأتمية،

تمضي كالبرق. سنفرح ونرقص كلنا سوية في اليوم الثالث، يوم القيامة!

ـ وسيعرف الآخرون هذا؟ سأل يهوذا وهو يشير بإبهامه إلى لفيف الرسل وراءهما.

سأقول لهم هذا المساء، لكي لا يتصدوا ويقاوموا الجنود واللاويين الذين سيأتون لأسري.

ثنى يهوذا شفتيه بتبرم واحتقار.

ـ أن لا يقاوموا؟ قال. من أين اخترتهم؟ الواحد أخوف من الآخر. خفض يسوع رأسه دونما جواب.

صعد القمر في السماء، انتشر في الأرض، لمس الحجارة، الأشجار، الناس. انعكست الظلال سوداء، زرقاء، على الأرض. في الخلف كان الأئمة، مجتمعين يحكون ويتسامرون. كان البعض يتلمظ لفكرة الموائد المكتظة بالطيبات، ويعد البعض الآخر، قلقاً، كلمات المعلم الغامضة. ويفكر توما بالمسكين الحاخام العجوز.

ـ أيضاً واحد من الفريق، قال. الآن دورنا!

ـ ماذا؟ سنموت نحن أيضاً؟ قال نثنائيل، مروعاً، ألم تقل أننا كنا على درب الأبدية؟

ـ بلى، إنما لا بد أولاً من المرور بالموت، كما يبدو، أردف توما. هش ناثانائيل رأسه الضخم؛ تمتم:

ـ نأخذ درب الأبدية الصعب. سنضجر ونتبرم هناك عند

الموتى، تذكروا ما أقول لكم!

بدت لهم السماء الآن أمامهم منتصبة، يغمرها القمر، كلية البياض وشفافة كشبح. يبدو أن البيوت تباعدت في ضوء القمر وراحت تحلق في الفضاء. وبدأت تسمع أكثر وضوحاً حركة الناس الذين يرتلون المزامير وشخير الدواب التي تذبح.

كان بطرس وجاك ينتظرونهم في الباب الشرقي. تحت سهام القمر كانت وجوههم تشع. سارعوا، فرحين، للقائهم.

جرى كل شيء كما قلت، يا معلم. نصبت الموائد. سنجلس إلى الطعام!

أما صاحب البيت، قال يوحنا باسماً، هيأ كل شيء وتوارى. ابتسم يسوع، وقال:

ـ هذا هو الكرم الحاتمي: فليختف المضيف.

حث الجميع خطاهم. كانت الشوارع غاصة بالناس، والمشاعل المشرئبة والرياحين. خلف الأبواب الموصدة تصدح أناشيد وصلوات الفصح:

"لما خرجت إسرائيل من مصر،

" لما اقتحم البرابرة بيت يعقوب،

"رأى البحر هذا وتراجع،

"تدفق الأردن،

" وثبت الجبال كالخراف الضخمة،

" والتلال كالحملان،

" ما لك، يا بحر، تتحسر،

" وأنت، يا نهر الأردن، تسيل بالعكس؟

" ما بكما تثبان كالكبوش،

" يا جبال،

"وأنت يا تلال، كالحملان؟

"ارجفي أمام السيد المسيح، أيتها الأرض،

"أمام إله إسرائيل

"يلمس الحجارة والصخور فتصير بحيرات،

و من الصخرة ينبعث الماء النمير!"

كان التلامذة يعبرون، كانوا يرتلون المزامير الرعوية ويغنونها مع بطرس ويوحنا في المقدمة يرشدانهم. ما عدا يسوع ويهوذا، نسي الجميع همهم ومخاوفهم مسرعين إلى الموائد القائمة.

توقف بطرس ويوحنا. دفعا بابا وشما بإصبع غرق بدم حمل ذبح ودخلا، تبعهما يسوع والحارس جائعين. تخطوا الباحة، صعدوا درجاً حجرياً، وصلوا الطابق. كانت الموائد منصوبة وثلاثة شمعدانات بسبعة فروع تنير الحمل، الخمر، الخبز الفطير والمداخل. وحتى العصي التي توجب الأمساك بها وأنت تأكل لأنك على أهبة سفر طويل.

ـ نحن سعيدون بلقياكم، أردف يسوع. رفع اليد وبارك المضيف غير المرئي.

ابتسم الرسل:

ـ من تحيي، يا معلم؟

ـ غير المنظور، رد يسوع، وحدق اليهم بقسوة.

حزم نفسه ببشكير عريض، أخذ الماء، ركع على ركبتيه، وبدأ يغسل أقدام الحواريين.

ـ يا معلم، أنا لن أرضى أن تغسل لي قدمي! زعق بطرس.

ـ يا بطرس، أن لم أغسل لك قدميك لن تدخل معي ملكوت السماء.

ـ آذن لك أن تغسل ليس فقط القدمين بل اليدين والرأس.

تحلقوا حول الموائد. كانوا جائعين لكن أحداً منهم لم يمد يده ليأكل كان وجه المعلم عابساً هذا المساء وشفتاه كانتا مبرحتين. تأمل يسوع الرسل واحدا بعد الآخر، بطرس إلى اليمين، يوحنا إلى اليسار، والآخرون. وقبالته شريكه صاحب الوجه الصارم والجاد، واللحية المغرية.

ـ أولاً، قال، نشرب الماء الوسخ، لنتذكر الدموع التي ذرفها آباؤنا في أرض العبودية. أخذ الجرة المترعة بالماء القذر، ملأ كأس يهوذا ثم صب بلعات في كأس كل منهم وأخيراً أترع كوبه.

تذكروا الدموع، الآلام، النضال الذي خاضه الإنسان من أجل حريته، وابتلع دفعة واحدة كوبه المليء.

احتسى الآخرون أيضاً وكشروا. وشرب يهوذا كأساً

مليئاً. ثم أراه ليسوع وقلبه. لم يبق فيه قطرة واحدة.

وقال له يسوع مبتسماً:

ـ أنت مقدام، يا يهوذا. تستطيع تحمل مرارة الحنظل.

أخذ حبة الخمير وقسمها، ثم وزع الحمل. مد كل منهم يده ووضع على حصته الأعشاب المرة حسب الشرع: الزعتر البري، الحنظل، والغار. ثم صبوا عصيراً أحمر على اللحم ذكرى الآجر الأحمر الذي صنعه الأجداد في أثناء الأسر. ازدردوا على عجل، كما تأمر الشريعة. وأخذ كل منهم عصا وابقى قدمه مرفوعة، مستعداً للانطلاق.

كان يسوع يراقبهم يأكلون، هو لم يأكل. أخذ هو الآخر عصاه ورفع قدمه اليمين، مستعداً للسفر العظيم. كان الكل ساكتين كان يسمع فقط صوت الأحناك تطقطق، والألسنة التي تلحس العظم، وأكواب الخمر التي تتصافح من المنور، فوقهم، دخل القمر. غمر ضوؤه نصف المائدة، وبقي النصف الآخر غارقاً في شبه ظل بنفسجي.

بعد صمت عميق، حرر يسوع شفتيه:

ـ رفاق طريقي الأحبة، الفصح يعني العبور. الانتقال من العتمة إلى الضوء، من العبودية إلى الحرية. إن الفصح الذي نعيّد له هذا المساء يدور في مكان أبعد. فصح هذا المساء يعني: العبور من الموت إلى اللاموت، الأزل. أنا أذهب قدماً، يا رفاق، وأشق لكم الدرب.

ارتعش بطرس:

ـ يا معلم، قال، مرة أخرى تتحدث عن الموت. مرة أخرى يكون كلامك كخنجر ذي حدين. إن كنت تخشى خطراً، قل بصراحة. نحن رجالك.

فعلاً، كلامك أمر من هذه الأعشاب المرة، يا معلمي، قال يوحنا. ارحمنا، كلمنا بوضوح.

أخذ يسوع نصيبه من الخبز المتبقي سليماً وقسمه بعدد اللقمات على الرسل.

خذوا وكلوا، قال، هذا جسدي.

أخذ أيضاً كأسه المترع خمراً ونقله من فم إلى فم. وشرب الجميع.

خذوا واشربوا، قال، هذا دمي.

ابتلع كل من التلاميذ كسرة الخبز، وشرب ملعقة الخمر، اضطربت روحهم. بدالهم الخمر كثيفاً، مالحاً كالدم، ونزلت كسرة الخبز على أحشائهم كجمرة النار. وبغتة شعروا جميعاً بخوف أن يسوع تجذر فيهم وازدرد أحشاءهم. أسند بطرس كوعيه إلى المائدة وراح يبكي ومال يوحنا إلى صدر يسوع. وهمس:

ـ تود أن ترحل، يا معلم، تريد أن تذهب ...... أن تذهب .... ولم يقدر أن يتم كلامه.

ـ لن تذهب ولن تبرح مكانك! زعق أندريه. أول أمس قلت:

ـ " من لا يملك سكيناً يبيع ثيابه ليشتري واحدة! " سنبيع ثيابنا، سنتسلح، وليأت الموت ويلمسك، إن تجرأ أحد!

ـ ستتركوني كلكم، قال يسوع دونما شكوى أو تأفف. كلكم.

ـ أنا لا أبداً، صرخ بطرس وهو يمسح دموعه. أبداً.

ــ بطرس، بطرس، قبل أن يصيح الديك، ستنكرني ثلاث مرات

أنا؟ أنا؟ جأر بطرس وضرب صدره بقبضتي يديه. أنا، سأنكرك؟ أنا معك حتى الموت.

حتى الموت، هدر كل التلاميذ بحماس وحمية، وانتصبوا بوثبة.

ـ اقعدوا، قال يسوع بهدوء، لم تأت الساعة بعد. في عيد الفصح هذا علي أن أعهد لكم بسر عظيم. افتحوا آذانكم وأذهانكم، وقلوبكم، لا تضطربوا!

ـ تكلم، يا معلم، تمتم يوحنا. كان قلبه يرتعش كورقة قصب.

ـ أنهيتم وجبتكم؟ طردتم الجوع. شبع الجسد؟ يستطيع أخيراً أن يترك الروح تنصت بهدوء وسكينة؟

كانوا جميعاً مشرئبين نحو شفتي يسوع، مرتجفين.

ــ يا رفاقي الأحبة، زعق، وداعاً. أنا ذاهب!

أطلق الرسل زعقة. وارتموا على يسوع لمنعه من الذهاب.

انتحبوا كثيراً. لكن يسوع التفت بتؤدة نحو متّى:

ـ متّى، قال، أنت تعرف الكتب عن ظهر قلب. أنهض وقص عليهم بصوت عال كلام عيسى Isaie المتنبئي، لكي يهدأ قلبهم. أتتذكر؟

" نهض أمام عيني السيد كشجرة صغيرة ترتعش ......"

اغتبط متّى، وبوثبة صار على قدميه. كان أحدب، أفحج[1]، جعد الوجه، وكانت أصابعه الطويلة، العجفاء مطلية دوماً بالحبر. إنما بغتة، من دون تعليل، اختفت حدبته، تورد خداه، تخنت رقبته وسمع يعكس على جدران الغرفة العالية، بكل قواه وأساه، كلام النبي:

" وقف بين يدي السيد المسيح كشجرة صغيرة واهية

" تنمو في الأرض اليابسة،

" ليس جميلاً ولا ألقاً يشد الأنظار

"ليس في وجهه شيء يرضينا،

"مهان، مهمل لدى الناس،

"روح موجعة، مضطربة

"حولنا وجهنا إلى مكان بعيد وازدريناه،

"ومع ذلك أخذ على عاتقه كل آلامنا.

" جرحته أخطاؤنا،

---

1 ـ رجل أفحج: تتدانى صدور قدميه ويتباعد عقباه.

" سحقه ظلمنا.

وشفتا جروحه.

"جلد ، عُذّب

"و لم يفتح فمه ،

" كما الحمل الذي يقاد إلى المسلخ،

"لم ينبس ببنت شفه"

ـ يكفي، قال يسوع. تنهد ، والتفت إلى حوارييه.

هذا أنا ، قال بهدوء ، عنى يتكلم النبي عيسى، أنا هو الحمل؛

قادوني إلى المسلخ ولم أفه بكلمة.

سكت، ثم بعد لحظات أضاف:

في يوم رؤيتي النور أخذوني إلى المسلخ.

تأمل التلامذة. كانوا مشوشين، مرعوبين، جهدوا ليفهموا ما قال. وعلى حين غرة ، وقعوا كلهم ولثموا المائدة وراحوا ينتحبون.

خفق قلبه خلال دقائق. كيف يقدر أن يفارق مرافقيه الذين يندبون ويرحل؟ رفع عينيه ، رأى يهوذا . لكن هذا الأخير أبقى منذ بعض عينيه الزرقاوين والصارمتين مركزتين على يسوع. همس ما يدور في جوارحه وإلى أي مدى تقدر المحبة أن تشل قوته في فترة برق تلاقت العيون وجاهدت كان أحدهما قاسياً ، لا يرحم والآخر يلتمس ويتأسف. خلال عبور برق،

وبسرعة هز يسوع رأسة، ابتسم بمرارة ليهوذا والتفت من جديد إلى التلاميذ. لمَ تبكون؟ قال ترتابوم أرحم رئيس لملائكة الله، وهو خير من يحب الناس، والموت؟ يجب أن أستشهد مصلوباً، وأنزل إلى الموتى. إنما بعد ثلاثة أيام أخرج من قبري، أصعد إلى السماء وأجلس بقرب أبي.

ـ ستتركنا أنت أيضاً؟ زعق يوحنا وهو يبكي. خذني معك إلى الموتى وإلى السماء يا معلم.

ـ المهمة على الأرض أيضاً ثقيلة، يا حبيبي يوحنا. يجب أن تبقوا هنا لتعملوا على الأرض. جاهدوا في الأرض، أحبوا، انتظروا وأنا عائد!

لكن جاك كان قد ألف فكرة موت المعلم؛ كان قد تصور ما سيفعل لدى بقائهم على الأرض.

نحن لا نود معارضة إرادة الله، ولا إرادة المعلم. هذا واجبك يا معلم، أن تموت كما قال الأنبياء، وواجبنا أن نحيا. لكي لا يضيع الكلام الذي أدليت به، يجب أن نثبتها في الكتابات المقدسة الجديدة، ولنجعلها شريعتنا، وأن نبني معابدنا، أن نختار أجدادنا، كتابنا وفريسيينا.

تبرم يسوع بعنف، وزعق:

ـ أنت تصلب الذهن، يا جاك. لا، لا، لا أريد!

هكذا فقط يمكن أن نمنع الذهن أن يصير هواء ويرحل، أجاب جاك.

لكنه لا يعود حراً، ولا أكثر روحانية!

ـ لا يهم. سيتطور الذهن، هذا كاف لعملنا، يا معلم.

عرق بارد غمر يسوع. رمى التلاميذ بنظرة سريعة ؛ رفع كل منهم رأسه تأييداً. نظر بطرس إلى ابن زيبيدي بإعجاب. — كان رأسا عنيداً، صلباً، اعتاد على قيادة أبيه للمراكب. الآن، سترى، سيقتفي خطى المعلم نفسه....

بيأس، مد يسوع يده طالبا العون!!

ــ سأرسل لكم روح القدس، قال روح الحرية. هو من سيرشدكم.

ـ أرسل لنا روح ـ القدس في الحال، زعق يوحنا خوفاً من أن نضيع وفي حال عدم وجودك، يا معلمي.

هز جاك رأسه الصلب والعنيد:

ـ روح الحرية هذا الذي تقصده، هذا الروح سيصلب أيضاً. بغياب الناس، تصلب الروح، يا معلم، أعلم هذا. لكن لا بأس. يبقى دوماً شيء ما. وهذا يكفينا،

ـ هذا لا يكفيني أنا بالذات! صرخ يسوع محبطاً.

اضطرب جاك لدى سماع الصراخ الموجع؛ اقترب، قبض يد المعلم:

ـ هذا لا يكفيك، ولهذا تصلب. اعذرني لمقاطعتك.

وضع يسوع يده على الرأس العنيد:

ـ إن كانت إرادة اللّه أن تصلب الروح، فليكن الصليب

مباركـاً. لنحملـه علـى أكتافنـا بحـب، بـصبر، بثقـة. في يـوم ستنبت على الأكتاف أجنحة.

سكتوا. خلال بعض الوقت صعد القمـر عاليـاً في السماء. نور شاحب انتشر على الموائد. صالب يسوع اليدين، وقال:

ـ انتهى النهار ما كان عندي من عمل، عملته؛ ما كان يجب أن أقول، قلت قمت بواجبي،

ثم أشار إلى يهوذا الجالس قبالته. نهض هذا الأخير، شد نطاقه الجلدي، أخذ عصاه المعقدة أشار له يسوع بيده كمن يقول له وداعاً.

في هـذا المـساء سنـصلي تحـت زيتونـات جتـسماني gelhsemani . وراء وادي شدرون، اذهب، بنعمة اللّه وعونه وليكن اللّه معك، أخي يهوذا.

فتح يهوذا فمه، أراد أن يقول شيئاً، لكنه توانى كان البـاب مفتوحـاً، انـدفع إلى الخـارج. سمـع قدميـه الـضخمتين. تنزلان بثقل على درج بطرس.

ــ إلى أيـن ذهـب، سـأل بطـرس، قلقـاً. أراد إن يـنهض ليلحقه، لكن يسوع مسكه.

ـ عجلة اللّه تمشي، قال لا تذهب خلاف دربها.

عـصفت الـريح. شـعلات القناديـل سـباعية الفـروع تمايلـت. بغتـة هبـت زوبعـة هـواء عنيفـة وأطفأتهـا. دخـل القمـر كلـه إلى الحجرة. خاف ناثانائيل، انحنى على صديقه:

لم تكـن هـي السـبب، يـا فيليـب. دخـل أحـدهم. يـا إلهـي، أهذا هو الموت؟

ومتى سيكون، ما يعني لك هذا؟ أجابه الراعي؛ لم يأت من أجلنا!

ربت على كتف صديقه، الذي ما استطاع أن يتمالك نفسه.

ـ العواصف العاتية للبواخر الكبيرة، نحن قوارب وقشور جوز، ليمجد الرب!

انقض القمر على وجه يسوع واكتنفه، لم يبق منه سوى عينين سوداوين،

ارتعد يوحنا. مد خفية يده إلى وجه المعلم ليتقرى وجوده.

ـ يا معلم، أين أنت؟

لم أذهب بعد، يا يوحنا الحبيب، تواريت هنيهة لأنـي فكرت بكلمة قالها لي ناسك على جبل الكرمل. " كنت، قال لي، مغموراً بحوضي بكل جسدي، كخنزير. – وكيف نجوت، يا ابتي؟ سألته. جاهدت كثيراً؟ اجابني: ـ أبداً، في صباح، رأيت شجرة لوز مزدهرة ونجوت. " شجرة لوز مزهرة يا يوحنا الحبيب – هكذا بدا لي الموت في هذا المساء، خلال لحظة. ونهض، وقال:

ـ هلموا، دقت الساعة.

أخذ يسوع الطليعة، واكبهُ الأئمة، متأملين حزانى.

ـ هيا ، قال ناثانائيل بصوت خفيض لصديقه. أشم رائحة خلفيات

فكرت بهذا ، أجابه فيليب، لكن لنأخذ معنا توما.

بحثا عن توما في ضوء القمر، لكن توما كان قد انزلق إلى الحارات. بقي الاثنان في الخلف، وفي لحظة ولوج وادي سيدرون سمحوا لرفاقهم أن يسبقوهم ثم أعطوا سيقانهم للريح.

نزل يسوع مع من بقي معه إلى وادي سيدرون، تسلق السفح المقابل، أخذ الدرب الذي يفضي إلى زيتون جتسماني. كم من الليالي قضى تحت هذا الزيتون العتيق، متحدثاً عن رحمة الله العظيم وظلم الناس!

توقفوا ، في هذا المساء أكل التلامذة كثيرا ، شربوا كثيرا ، نعسوا فناموا ، سووا الأرض بأقدامهم، خلصوها من الحجارة، هيئوها للنوم.

ثلاثة منهم تركوا الركب، قال المعلم وهو يبحث حوله، ماذا حل بهم؟

ـ ذهبوا ...... أجاب أندريه بغضب.

لكن يسوع ابتسم، وقال له:

لا تدنهم، يا أندريه. في ذات يوم، سترى، سيعود الثلاثة ويحمل كل منهم إكليلاً أو تاجاً. أهم التيجان الملكية، مصنوعاً من الشوك والأزلية! ثم استند إلى زيتونة، لأنه عانى فجأة من تعب شديد.

كان الرسل قد ناموا، عثروا على حجارة كبيرة استخدموها وسائد. واستلقوا حسب راحتهم.

ـ تعال، نم معنا، يا معلم، قال بطرس وهو يتثائب. قام أندريه بالحراسة. ترك يسوع الشجرة، وقال:

ـ بطرس، جاك، يوحنا، تعالوا معي.

كان صوته مشبعاً بالأسى والسلطة.

تصامم بطرس، انسحب من الأرض، وتثاءب. لكن ولداً زيبيدي أخذاه من ذراعه وأنهضاه.

ـ هيا، قالا، ألا تخجل؟

دنا بطرس من أخيه:

أندريه، لا أحد يعلم ما قد يقع، أعطني سكينك

كان يسوع في الرأس. خرجوا من حقل الزيتون وصلوا مكاناً مكشوفاً. كانت القدس أمامهم تبرق، ينيرها القمر، بيضاء ناصعة، فوق رأسهم السماء حليبية، لا نجماً، والبدر الذي رأوه سابقاً علا، مسرعاً، كان الآن معلقاً بوسط السماء وساكناً.

ـ أبتي، تمتم يسوع، أبتي الذي في الأرض، العالم الذي خلقته والذي نراه جميلاً، والعالم الذي لا نراه جميلاً، أنا لا اعرف، اعذرني، لا أعرف، أبتي، أيهما أجمل.

انحنى، أخذ قبضة من التراب، تشممها، تغلغلت الرائحة

عميقا في حناياه. كان أمامه شجر المصطكا[1]، وكانت الأرض تنشر رائحة الراتنج والعسل أسندها إلى وجنته، إلى رقبته، إلى شفتيه.

ـ أي عطر، أي دفء، أي أخوة!

سالت دموعه، ضغط التراب في يده ولم يشأ أن يبعده عنه، تمتم:

ـ سندخل سوية، يا إخوتي، سوية في الموت. لا رفيق آخر لي.

لم أعد أحتمل، أردف بطرس، متقززاً. إلى أين يشدنا؟ لن اذهب أبعد. أريد أن أرتاح هنا وأغفو.

إنما وهو يبحث حوله عن حفرة مناسبة للنوم، رأى يسوع يدنو منهم ببطء. سرعان ما جدد نشاطه وذهب للقائه.

ـ معلم، نحن في نصف الليل أو نكاد، حلو التمدد هنا.

ـ أبنائي، قال يسوع، الموت يحزن روحي. تمددوا أنتم تحت الشجر، لأبقى أنا هنا مكشوفاً لأصلي. أرجوكم، كي لا تناموا. اسهروا، صلوا معي هذا المساء، أبنائي، ساعدوني على عبور هذه الساعة الصعبة.

أدار وجهه نحو القدس.

---

1 ـ جنس أشجار من فصيلة البطميات ينبت برياً في سواحل الشام وبعض الجبال المنخفضة وتستخرج منه علكة معروفة.

ـ ابتعدوا ، اتركوني وحدي.

مشى الحواريون بعض الخطى وقعدوا تحت الزيتونة. رمى يسوع نفسه إلى الأرض شفتاه إلى التراب. روحه، قلبه، شفتاه لاصقة بالأرض. حتى صارتا تراباً كلها.

ـ أبتي، تمتم، أبتي، أنا مرتاح هنا، تراب إلى تراب، دعني. الكأس التي أعطيتنيها لأشربها مرة، مرة جداً، لم أعد أحتمل أكثر .....

إن أمكن، أبتي، أبعدها عن شفتي.

سكت، أنصت، سعياً لسماع صوت الأب في الليل البهيم. أغمض عينيه، من يعلم، اللّه خير، رؤوف رحوم، ربما رأى فيه الأب الذي يبتسم له بشفقة والذي أشار إليه. كان ينتظر، ينتظر مرتعشاً.

لم يسمع شيئاً ولم ير شيئاً. تأمل حواليه، كان وحده تماماً. خاف، نهض ثانية، ذهب إلى رفاقه، ليشجع قلبه. وجد الثلاثة نائمين. دفع قدم بطرس، ثم يوحنا، ثم جاك.

ـ ألا تخجلون؟ قال لهم بأسى. ألا تقوون على الصلاة معي قليلاً؟

ـ يا معلم، أردف بطرس، الذي لم يقدر أن يبقي عينيه مفتوحتين، يا معلم، الروح على أتم الاستعداد، لكم الجسد واه خائر، اعذرنا.

استدار يسوع نحو الفسحة السماوية وخرّ على الحجارة.

ـ أبتي، نادى ثانية، الكأس التي مددتها لي مرة، بل حنظلية المرار. أبعدها عن شفتي.

لم يكد يقول هذا حتى رأى في ضوء القمر، فوقه، ملاكاً بوجه شاحب جداً، قاس جداً، يهبط. كان القمر يضيء جناحيه وكان يحمل كأساً من فضة. خبأ يسوع وجهه بيديه وارتمى على الأرض.

ـ أهذا جوابك، أبتي؟ ما عندك إذن رحمة؟

تريث قليلاً. بتؤدة أبعد أصابعه ليرى إن كان الملاك ما يزال فوقه. كان قد نزل أكثر؛ لا مست الكأس الشفتين، صرخ، بسط يديه، وخر إلى الأرض مضطرباً.

حينما رجع إلى رشده كان القمر قد ترك مكانه مقدار ذراع في السماء وكان الملاك ذاب في ضوء القمر. في البعيد، على درب القدس، ظهرت، مبعثرة، أضواء متحركة، تشبه شعلة المشاعل اللاهبة، أكانت تدنو؟ أكانت تبتعد؟ إلى أين تذهب؟ سيطر عليه الفزع ثانية، والرغبة في رؤية الناس، في سماع صوت أنسي، وفي لمس يد محبوبة. وذهب مسرعاً بحثاً عن مرافقيه الثلاثة.

كان الثلاثة ما يزالون نائمين وكانت وجوههم عابسة، يغمرها القمر والهدوء. أخذ يوحنا كتف بطرس وسادة وبطرس صدر جاك، الذي أسند رأسه الأسود والأجعد إلى حجر؛ كان نائماً ذراعاه مفتوحان تحت السماء. وكانت أسنانه تلمع بين

شواربه ولحيته السوداء. لا بد أنه كان في حلم جميل، كان يبتسم. أشفق يسوع عليهم ولم يهزهم هذه المرة ليوقظهم؛ عاد على عقبيه على رؤوس أصابعه. خر إلى الأرض وجها لوجه وراح يبكي.

ـ أبتي، قال همساً، كمن يريد أن لا يسمعه اللّٰه، أبتي لتمح إرادتي ولتكن إرادتك.

نهض من جديد، ونظر مجدداً إلى طريق القدس. كانت الأنوار قد اقتربت، وكانت ترى بوضوح حولها ظلال متحركة ودروع برونزية تتألق.

ـ كانوا يشددون يأتون... يأتون، تمتم يسوع؛ ركبتاه تهتزان تحته. وفي هذه اللحظة تماماً، قبالته، فوق سروة فتية، حط عندليب. نفخ حلقه؛ القمر بدر، العطور الربيعية، الليل الدافئ والرطب أسكرته ـ؛ إله كلي القدرة بين جنبيه، هو اللّٰه ذاته خلق السماء والأرض والأرواح البشرية

رفع يسوع رأسه، وأصغى. أيكون اللّٰه هذا هو ذاته إله البشر الرهيب، ذاك الذي يحب الأرض وحلق الطيور الغض والمعانقات المفعمة بالحيوية؟ وشعر أن عندليباً يقفز بين حناياه، أجاب نداء العندليب الأول وراح بدوره يشدو الأتعاب الأبدية، الأفراح الأبدية، ـ اللّٰه، المحبة، الأمل...

كان العندليب يشدو وكان يسوع يرتجف. ما كان يعرف أن فيه قدراً من الغنى، قدراً من الفرح وقدرا من الأخطاء، غير

المرئيـة وكـثيرة الظـرف والطـلاوة. أزهـرت حنايـاه ومـشاعره، كان العندليب يرتع بين الأغصان المزهرة ولا يستطيع، ولا يريد تـرك المكـان. إلى أيـن؟ لم الـذهـاب؟ هـذه الأرض هـي الجنـة... وبينمـا كـان يـسوع يـصغي إلى تغريـد الطيريـن ويـدخل الجنـة، سمع أصواتاً مبحوحة؛ مشاعل لاهبة تدنو، دروعاً برونزية، وفي وسط اللهيب والدخان ـ خيل لـه أنـه رأى يهوذا ـ ذراعـان متينـان يضغطانه ولحية مغراء تخز وجهه. وظـن أنـه صـرخ وفقـد رشـده للحظة. لكن تيسر لـه أن يحس نفس يهوذا القـوي، لـصق فمـه هو بفم يهوذا، وسمع صوته الأجش، اليائس:

ـ سلاماً، يا معلم.

لقـد أدرك القمـر جبـال يهوذا الحليبيـة. هبـت ريـح جليديـة، أزرقت أظافر يسوع وشفتاه؛ وانتصبت القدس تحت القمر عمياء وشاحبة.

التفـت يـسوع، رأى الجنـود واللاويـين: مرسـلين مـن الله ــ أهلاً وسهلاً، هلموا!

خلال لحظة، رأى في الجمـع بطـرس الـذي سـحب سـكينه ليقطع أذن لاوي:

ــ أعـد سـكينك إلى فروتـك، إن أجبنـا علـى الخنجـر بخنجر، متى إذن تنتهي المذابح من العالم؟

انقـبض يـسوع أمـام صـيحات الاسـتهجان بـل الاسـتهزاء. اقتـادوه فـوق الحجـارة بـين الـسرو والزيتـون، انزلـوه إلى وادي

سـيدرون، ولجـوا القـدس ووصـلوا إلى قـصر كـاييف. التـأم المجلس وانتظر المتمرد ليحاكمه.

كـان الجـو بـارداً. أشعل الخـدم النـار في الـدار واسـتدفأوا. خـلال الفواصـل العاديـة كـان اللاويـون يخرجـون مـن القـصر، ويجلبـون الأخبـار. الأمـور الـتي اتهـم بهـا توقـف شـعر الـرأس – التجديفات التي لفظها الشيطان الرجيم ضد إله إسرائيل، ضد الهيكل المقدس دمرته ورمت الملح على بقاياه.

انزلق بطرس إلى دار المحكمة مـدثر الـرأس وخافضه. مـد يديه إلى النار، استدفأ وأصغى إلى الأنبـاء مرتجفـاً. رأتـه خادمـة وهي تعبر، توقفت وقالت:

أنت، يا عجوز، لماذا تختبئ؟ ارفع رأسك، لترى أنت أيضاً كمنت معه، أظن.

سمع بعض اللاويين كلامها؛ فدنوا. فزع بطرس، رفع اليد وقال:

"أقسم أني لا أعرف هذا الرجل!" ثم اتجه نحو الباب.

مرت خادمة أخرى، رأته وهو يستعد للخروج:

أنـت، يـا عجـوز، أيـن تـذهب؟ أنـت أيضاً كنـت معـه، أنـا رأيتك.

لا أعرف هذا الرجل! صرخ بطرس ثانية، أبعد الشابة وعبر إنما في العتبة وقف لاويان. قبضا عليه من كتفه وهزاه.

لهجتك خانتك، صرخا به، أنت جليلي، وتلميذه.

آنئذ راح بطرس يقسم ويلعن ويزعق:

ـ لا أعرف هذا الرجل!

في هذه اللحظة صاح ديك دار المحكمة. سكت بطرس فجأة. تذكر كلمات المعلم: "بطرس، بطرس، قبل صياح الديك، ستنكرني ثلاث مرات...!"

خرج من القصر، ارتمى في الأرض وانخرط بالبكاء.

طلع النهار، صارت السماء قرمزية مغطاة بالدم. انطلق لاوٍ شاحب اللون مضطرباً، وخرج من قاعة المجلس:

الكاهن الأكبر يمزق ثيابه. في ذات اللحظة قال المجرم: "أنا يسوع، ابن اللّه!" وثب كل الشيوخ ومزقوا ثيابهم صارخين:

ـ "الموت! الموت!"

خرج لاوي آخر:

الآن سيأخذونه إلى بيلاطس. هو وحدة يقدر أن يقتله. ابتعدوا دعوه يمر. لتفتح الأبواب.

فتحت الأبواب، تقدم أعيان إسرائيل وفي مقدمتهم كبير الكهنة كاييف يمشي مهتاجاً، بخطى وئيدة،ورائه ـ زمرة من اللحى، بعيون مخادعة ومؤذية، أفواه درداء، وألسنة غادرة ـ كان بدنهم يدخن، يتأكلهم الغل. خافهم يسوع، كان هادئاً، موهناً، مدمى الرأس، لأنهم عذبوه. في باحة المحكمة، انطلقت صيحات الاستهجان، الضحك، والتجديفات. ارتعد بطرس، استند إلى حاجب باب الدخول، تدحرجت دموعه.

تمتم: "بطرس، بطرس، رعديد، كاذب، خائن! اهجم واصرخ: أنا منهم! حتى ولو قتلت." اطمأن، حرض نفسه، لكن جسده الهامد، كان يرتكز إلى حاجب الباب ويرتجف. كان يسوع يترنح في العتبة؛ تهاوى، مد يده ليجد مسنداً في مكان ما وتعلق بكتف بطرس. جمد بطرس، اضطرب؛ لم تتحرك شفتاه، لم يأت بحركة. شعر بيد المعلم تتشبث في جسمه برجاء. لم تطلع أنوار الصبح، ليس سوى ظل أزرق، ولم يلتفت يسوع ليرى بأي شيء يتعلق لئلا يسقط. تماسك واستأنف مسيره خلف السادة المسنين، في وسط الجند، باتجاه قصر بيلاطس.

كان بيلاطس قد استيقظ، استحم، تعطر، مشى طولاً وعرضاً في شرفة البرج العليا، بعصابية. لأنه كان يكره هذا اليوم من أيام الفصح؛ سيهتاج اليهود، سيثملون من ربهم، وسيقتتلون مع الجنود الرومان، وفي هذا العام أيضاً ربما وقعت مذبحة جديدة وليس هذا من مصلحة روما. وسيأتيه من كل هذا قلق إضافي. كان اليهود يعتدون مهما كان الثمن على هذا البائس الناصري، الأحمق. ياللعرق الوسخ!

صر بيلاطس قبضتيه. كان فريسة فكرة ثابتة هي إنقاذ هذا الأحمق، ليس لبراءته ـ بريء، هذا لا يعني شيئاً ـ ولا لأنه يرثي له ـ لا يفتقر الآن للشفقة ـ بل لإغضاب هذا العرق اليهودي القذر.

نشب صراخ شديد تحت نافذة البرج. اقترب بيلاطس، رأى

أن دارتـه قـد غـصت بـاليهود وأروقـة وباحـات الهيكـل امـتلأت بالناس المهتاجين الذين يحملون العصي والمقـاليع. يـدفعون يسـوع بقبـضاتهم، يرفـسونه بأقـدامهم، ويحتقرونـه. كـان الجنـود الرومان يخفرونه ويدفشونه نحو باب البرج الكبير.

دخل بيلاطس وجلس في عرشه ضخم النحت والحفر. فتح الباب. كان عملاقان زنجيان يدفعان يسوع إلى القاعة. كانت ثيابه ممزقة، وجهه مغطى بالدم، لكن رأسه كان مستقيماً وفي عينيه يلمع نور صاف وبعيد المدى. ابتسم بيلاطس:

ـ أراك ثانية أمامي، يا يسوع الناصري، ملك اليهود. يبدو إنهم يبغون قتلك.

عبر النافذة، كان يسوع يتطلع إلى السماء؛ كان روحه وجسده قد فرّا. لم يتكلم أبدا. غضب بيلاطس

دع السماء، صرخ، إلي أنا يجب أن تنظر. أنت لا تعرف أني قادر على تحريرك أو صلبك؟

ــ ليس لك علي أي سلطة، أجاب الله وحده السلطة. من أسفل البرج، ارتفع صراخ: الموت! الموت!

ـ لماذا هذا الهياج والضراوة؟ سأل بيلاطس. ماذا فعلت لهم؟

ـ أعلنت لهم الحقيقة،

ابتسم بيلاطس:

أي حقيقة؟ ماذا تعني هذه الكلمة، الحقيقة؟

انقبض قلب يسوع. أهذا هو العالم اذن، وهؤلاء هم سادة

العالم؟بيلاطس يسأل ما هي الحقيقة، ويضحك.

يظهر بيلاطس في النافذة. تذكر القبض على بارابا في السهرة الفائتة ذاتها، مدانا بقتل أليعازر.

وفي يوم الفصح، أرادت عجوز أن يحرر الرومانُ مداناً بالموت.

من تريدون أن أحرر، يسوع، ملك اليهود، أم بارابا، قاطع الطريق؟

بارابا، بارابا، زعق الجمهور.

نادى بيلاطس الحرس، أشار إلى يسوع وأمر:

ـ اجلدوه، توجوه بالشوك، لفوه بقماشة حمراء وضعوا في يده ريشة طويلة ليكن أحد الكتبة. إنه ملك، ألبسوه ثياب ملك!

تخيل تقديمه للناس بهذه الحالة التعيسة، أملاً في اثارة شفقتهم.

مسكه الحرس، ربطوه إلى عمود وجعلوا يجلدونه ويبصقون في وجهه؛ جدلوا له إكليلاً من شوك، وغرسوه في رأسه؛ انبعث الدم من جبين وصدغي يسوع. ورموا عليه قماشة حمراء، وضعوا بيده ريشة طويلة وقادوه إلى بيلاطس. لدى رؤيته لم يملك نفسه عن الضحك.

ـ أهلاً وسهلاً بجلالتك، تعال لأقدمك إلى شعبك أخذه من يده وخرج به إلى الشرفة:

ـ هو ذا الرجل!

ـ ليصلب! ليصلب!

أمر بيلاطس بجلب طشت ودورق ماء. انحنى، غسل يديه أمام الجمهور، وقال:

ـ أغسل يدي، وأتبرأ من سفك دمه. فالوزر يقع عليكم!

علينا وعلى أبنائنا،

هاتوه، قال، واحذروا

مسكوه، حمّلوه صليباً؛ بصقوا في وجهه، ضربوه، ركلوه بالأقدام ودفعوه نحو غولغوتا[1]. كان يترنح، كان الصليب ثقيلاً، وكان ينظر حوله لعله يرى بين الجمهور أحد التلاميذ فيشير له، ليرحمه. كان ينظر وينظر، لا أحد. تنهد وتمتم:

ـ ليكن الموت مباركاً. ولك المجد، يا ربي!

لكن التلاميذ كانوا مختبئين في مقهى سيمون السرياني cyreneen وينتظرون انتهاء عملية الصلب وحلول الليل، ليهربوا دون أن يراهم أحد. قبعوا خلف البراميل، أصغوا إلى الشارع واستمعوا إلى الرهط الذي كان يمر فرحاً. الكل، رجال ونساء، كانوا يركضون إلى غولغوتا. احتفلوا بالفصح وابتهجوا، ازدردوا ما شاؤوا من اللحم، من الخمر، والآن

1 ـ اسم مشتق من الآرامية، رابية تقع خارج هضبة القدس وحيث عذب يسوع.

عندهم الصلب ليلهوا.

كان التلامذة يسمعون هدير الشارع ويرتعدون خوفاً. من حين إلى حين كان يسمع نحيب يوحنا المخنوق، وأحيانا ينهض يوحنا يمشي مئة خطوة في المقهى ويهدد. وكان بطرس يلعن ويقسم أنه كان جباناً ويفتقر إلى الشجاعة لينطلق إلى الخارج وليقتل مع المعلم... كم مرة أقسم: "معك، يا معلم، حتى الموت!" والموت والموت يخيم، اختبأ خلف البراميل.

انفجر جاك، فقال:

ــ يوحنا، أوقف هذا النحيب، أنت رجل؛ أما أنت، يا أندريه، يا مدعي الشجاعة، لا تعض شاربيك، اقعد. تعالوا الي لنتخذ قراراً. إن كان المسيح فعلاً، وسيقوم بعد ثلاثة أيام، بأي وجه نبدو أمامه؟ هل فكرنا بهذا؟ ماذا تقول، يا بطرس؟

ــ إن كان المسيح، ضعنا، إليكم رأيي، رد بطرس، بائساً. لقد قلت لكم، إني أنكرته ثلاث مرات.

ــ وإن لم يكن المسيح، فنحن هالكون أيضاً، أردف جاك. وأنت، ماذا تقول، يا ناثانائيل؟

ــ أقول علينا أن نهرب. إن كان المسيح أم لا، نحن هالكون.

ـ ونتركه هكذا بدون حماية؟ كيف يحمل وجداننا هذا؟ قال أندريه، الذي سارع إلى الباب. لكن بطرس مسكه بثيابه:

ـ إهدأ، سيوقفونك، أيها التعيس. لنجد حلاً آخر.

ـ أي حل، أيها المتآمرون الخونة؟ زفر توما. لنتكلم بصراحة؛ من دون خجل كاذب. لقد عالجنا قضية، وضعنا، كل رأسمالنا. نعم، كان الأمر تجارة لا تساوي رمي هذا النظرات الخائفة. فعلاً، زاولنا التجارة: أعطينا وأعطينا. أنا قدمت بضاعتي، الأمشاط، الخيوط على البكر، المرايا الصغيرة لقاء مملكة السماوات. وأنت أيضاً أول من قدم قاربه، الآخر، خرافه، والثالث راحته. والآن فشلت العملية، أفلسنا، ضاع رأسمالنا؛ احذروا، أن لا نفقد حياتنا أيضاً. وأنا أنصح الآن: ينجو من يستطيع!

ـ حسناً! صرخ فيليب وناثانائيل. ينجو من يستطيع!

التفت بطرس قلقاً نحو متّى الذي جلس بعيداً، أدار أذنيه وأصغى دونما نأمة.

ـ باسم السماء، يا متّى، لا تكتب هذا، تغافل. لا تجعلنا مطرح سخرية على مدى الدهر.

ـ لا تقلق، أجاب متى، أعرف مهمتي. أرى، أسمع أشياء كثيرة، لكن أفر. فقط نصيحة طيبة: تشجعوا يا شباب، خذوا قراراً جسوراً، أقدر أن أقيده، لمجدكم، يا أصدقائي الأعزة. أنتم رسل، ليست هذه نكتة!

في هذه اللحظة، دفع سيمون السرياني باب المدخل ودخل. كانت ثيابه ممزقة، وجهه وصدره مغطيان بالدم، وكانت عينه اليمين منتفخة وجريحة. كان يشتم ويهذر. شلح أسماله،

أغرق رأسه بالوليمة وغسل كؤوس الخمر، أخذ بشكيرة، نشف جذعه ولم يكف عن الهذر والبصاق. ثم سكّر صنبور البرميل بفمه. وراح يشرب. سمع ضجة خلف البراميل، انحنى ورأى التلاميذ قابعين كومة. فتولاه الغضب:

ـ ليأخذكم الشيطان، دواب قذرة! أهكذا يترك الناس رئيسهم؟ أهكذا يهرب الجبناء من المعركة، يا قذارة الجليل، يا أحط السومريين، يا أيها الرعاديد؟

رغبنا في القتال، كما تعرف، يا سمعان، قال بطرس، روحنا أرادته، الله شهيد، لكن الجسد...

ـ كفى، أيها المتبجحون! سحقا لكم، لما تريد الروح شيئاً، ماذا يبقى للجسد؟ تصير الروح كل شيء، وهذه العصا التي تحملونها وهذه الثياب التي ترتدي، وهذه الحجرة التي تداس ! انتبه، انظر أيها الجبان، جسدي أزرق كله؛ مزقت ثيابي وصارت أسمالاً، لم يبق سوى القليل حتى تسمل عيني. لم؟ ليأخذكم الطاعون، أيها التلاميذ الأنذال! لأني، يا جبناء دافعت عن معلمكم، أخذت، أنا وحدي، دوركم كلكم، أنا أحب المقهى، النجس السرياني! ولم فعلت هذا؟ لأني ظننت أنه هو المسيح كان، وفي الغد يجعلني عظيماً طويل الباع؟ أبداً. أبداً. إنما لأن أنانيتي قرصت، لعنها الله، فأنا لا آسف عليها!

مشى ذهاباً وإياباً، تعثر بالمقاعد الصغيرة، بصق وشتم. لكن متّى كان على الجمر، أراد أن يعرف ماذا جرى عند

كاييف، عند بيلاطس، الكلام الذي أدلى به يسوع، ماذا قال الرهط، ليسجله في أوراقه.

إن كنت تؤمن بالله، أخي سمعان، قال له، اهدأ قص لنا ماذا حدث، قل لنا كيف، أين ومتى، وان كان يسوع قال شيئاً.

ــ لكن كيف! أجاب سمعان: " اذهبوا واشنقوا أنفسكم!" هذا ما قال. ما لكم تحدقون إلي؟ خذ ريشتك واكتب: " اذهبوا واشنقوا نفسكم!"

ارتفع العويل من وراء البراميل، تدحرج يوحنا على الأرض وانتحب؛ وضرب بطرس رأسه بالحائط.

ـ إن كنت تؤمن بالله، يا سمعان، رجاه متّى ثانية، قل الحقيقة، لكي أستطيع أن أسجل، أنت تدرك إذن أن الناس كلهم معلقين بشفتيك في هذه اللحظة

مازال بطرس يضرب رأسه بالجدار.

ــ سحقاً لك، لا تيأس، يا بطرس، قال له القهوجي، سأقول لك ما عليك أن تفعل من أجل مجدك عبر الدهور، إذن أنصت: بعد قليل سيقودونه من هنا، سمعت الهمس، ستنهض، تفتح بجرأة الباب وتتقدم لتأخذ عنه الصليب وتضعه على كتفيك. هو ثقيل، ليكن ملعوناً، وربك المتعب، قد أنهك.

ضحك وبحركة مفاجئة اندفع بطرس

ـ ستفعل هذا؟ أنا انتظرك هناك!

ـ سأفعل، أقسم لك، إن لم يكن الرهط هناك، تظاهر بطرس بالبكاء. سيجعلون جسدي خبيصة!

بصق المطعمجي، رعاديد

اذهبوا واشنقوا أنفسكم! زعق لا أحد ينهض لهذا.؟ أنت ناثانائيل، يا مسماك[1]، وأنت يا أندريه، الماهر بضرب السكين؟ ماذا، لا أحداً، لا أحداً؟ مقرف، أنفقوا كلكم! أنت، يا مسيحي المسكين، أي جنود اخترت لغزو العالم. كان يجب أن تختارني أنا، أنا ربما كنت سكيراً، لكني أعتز بنفسي، أسكر، أسرق، أكذب، لكني مقدام، ومن لا يعتز بنفسه لا يساوي شروى نقير!

بصق ثانية ثم تحرك ليفتح الباب ووقف في العتبة يزفر بصعوبة. كانت الشوارع غاصة بالناس، رجال ونساء يركضون ويزعقون:

وصل، وصل، وصل ملك اليهود، هوو[2]

اختبأ التلاميذ ثانية وراء البراميل. التفت سمعان:

أيها الأنذال، ألا تخرجون لتروه؟ ليراكم أيضاً ويتعزى، التعس؟ حسناً، إذن، أنا سأخرج وأشير كمن يقول: أنا هنا، سمعان السرياني، بأمرك، ورهن إشارتك!

---

1 ـ عصا توضع بجانب الكرمة لدعمها، يبدو أنه كان طويلاً ونحيفاً ـ المترجم.

2 ـ صيحة ابتهاج أو استهزاء أو تخويف.

ثم بوثبة كان في الشارع.

الرهط يمر موجات. في المقدمة، الخيالة الرومان خلف يسوع حامل الصليب؛ كان دمه يراق وثيابه أسمالاً. لم يعد يقوى على المشي، كان يترنح ويترنح، يتقدم، قبل أن ينهار، وباستمرار يفرض عليه أن يقف يركل الأقدام، وكان يتقدم، يركض خلفه العرجان، العميان، المعاقون، مهتاجين لأنه لم يشفهم، يشتمونه ويضربونه بعكازاتهم وعصيهم. ينر أبداً حوله: ألم ير أياً من رفاقه؟ أين هم الأحباب؟

أمام المقهى ـ المطعم التفت، رأى القهوجي الذي أومأ له بيده، امتلأ قلبه بهجة. ود أن يحرك رأسه ليشكره لكنه تعثر بحجر وانهار على الأرض والصليب إلى ظهره. جأر من الألم.

انطلق السرياني، رفع يسوع، أخذ الصليب، وضعه على ظهره استدار وابتسم ليسوع.

ـ الجرأة، قال له، أنا هنا، لا تخف. خرجا من باب داود، وبدأا الصعود قريباً يبلغان قمة الجولغوتا؛ ليس ثمة سوى الحجارة، الشوك والعظام. هنا يصلب المتمردون، تترك هنا الأجسام وتأتي الطيور الجارحة تنهش ثم تنهش. كان الهواء ينتن الجيفة.

حط السرياني الصليب عن كتفيه.

بدأ جنديان الحفر وزرع الصليب بين الحجارة. كان يسوع قاعداً على حجر وينتظر. كانت الشمس تذيع في أعلى السماء

المستفزة والمغلقة. لا شعلة، لا ملاك، ولا أي أمارة تقول إن أحداً في الأعلى يرى ما يحدث على الأرض .... وبينما كان قاعداً وينتظر، يفتت كتلة من التراب بين أصابعه، شعر يسوع بأن أحدهم يجلس أمامه ويحدق إليه. بهدوء، بلا عجلة، رفع رأسه، رآه، عرفه:

أهلاً وسهلاً، تمتم، برفيق درب أمين، هنا أنت السفر.

تم ما شئت، وما شئت أنا أنجز أيضاً. ناضلت كل حياتي لتحويل اللعنة إلى بركة؛ وكان هذا، لصالحنا. وداعاً، يا أمي، قال، وحرك اليد بتؤدة نحو الظل الغاشم.

قبض جنديان رومانيان على كتفي يسوع، وصرخا به:

ـ قف، سعادتك! اصعد إلى عرشك!

عرّياه، ظهر الجسد الواهي، المغطى كله بالدم.

كانت حرارة الجو كاوية. والرهط الذي بح صوته من الصياح، كان يراقب، هادئاً.

ـ أعطه شيئاً من الخمر ليشرب، ليتماسك ويتشجع، قال أحد الجنديين. لكن يسوع رفض الكوب، ومد ذراعيه نحو الصليب.

ـ يا أبتاه، لتتم إرادتك.

ـ كاذب، حقير، متعسف، زعق آنئذ العميان، البرص والمعاقون.

ـ أين هي مملكة السماء؟ أين الاهراء المتخمة بالخبز؟

جأر المعمدون؛ وأمطروه بالبندورة والحجارة.

فتح يسوع ذراعيه؛ ود أن يصرخ: "يا أخوة"، لكن الجنديين مسكاه ورفعاه إلى الصليب. وناديا البوهيميين أن هاتوا المسامير. في لحظة رفع المطارق وإنزال أول ضربة، خبأت الشمس وجهها. وعند إنزال الضربة الثانية، أظلمت السماء وظهرت النجوم، لم تكن هذه نجوماً، إنما دموع هطلت قطرة قطرة على الأرض.

تولت الفوضى والبلبلة الشعب. جفلت الخيول التي يمتطيها الرومان، انتصبت على قوائمها الخلفية وبدأت تخب، مهتاجة، وتدوس الحشد اليهودي. وفجأة صمتت الأرض والسماء وكأن هزة أرضية ستتم. غير أن السرياني رمى نفسه على الحجارة وخاف.

ـ آه! تمتم، ها هي الأرض ستنشق وتبتلعنا.

رفع رأسه، نظر حوله، ربما أمكن القول إن العالم سيزول ولما لمع البرق بدا شاحباً مضباً، في الظلمات الزرقاء. توارت رؤوس الناس وعيونهم فقط، كما الثقوب السوداء، خرقت الهواء. وانقضت أسراب كثيفة من الغربان، تشدها رائحة الدم، على غولغوتا، مضطربة مبلبلة. وندت من الصليب حشرجة واهنة، متشكية؛ همز السرياني قلبه، رفع عينيه، وتأمل. وعلى حين غرة زفر صرخة. ليس البوهيميون من دق المسامير في جسد المصلوب: بل زرافة من الملائكة نزلت من

السماء، تحمل مطارق ومسامير حامت حول يسوع، دقت بضربات مضاعفة، فرحة، وسمرت يديه ورجليه، وشد لفيف آخر الرباط على جسده لكي لا يقع وثقب ملاك صغير ذو وجنتين ورديتين وشعر جعد أشقر قلب يسوع بسهم.

ما هذا قال السرياني مرتعداً، اللّه ذاته، هذا هو اللّه ذاته الذي يصلب!

آنئذ تولت سمعان السرياني موجة خوف شديدة، وموجة ألم لم يعرفها في حياته: صوت قوي شق الفضاء من الأعلى ـ إلى الأسفل مؤثراً مغموراً بالعتب:

إيليا ..... إيليا ....

لم يستطع أن ينهي صرخته، أراد هذا، لكنه عجز، قطعته زفرته، حنى المصلوب رأسه.

وفقد الوعي.

(28)

جفناه يخفقان، مضمخان بالمرارة والمفاجأة. لم يكن هذا صليباً كان شجرة ضخمة ممتدة من الأرض إلى السماء؛ كان الفصل ربيعاً وكانت الشجرة عامرة بالزهر. في آخر نقطة من كل غصن، فوق الفراغ، حط طير وراح يشدو ..... وهو، واقف، يستند بكل جسده إلى الشجرة المزهرة، رفع رأسه وأحصى: واحد، اثنان، ثلاثة ......

ثلاث وثلاثون، تمتم، هذا عمري. ثلاثة وثلاثون طيراً كانوا يشدون. اتسعت عيناه، فاضتا، غطتا كل وجهه. كان يرى كل الجهات دفعة واحدة، دون أن يلتفت. العالم مزهر كانت أذناه كقوقعتين هلاليتين ومحلزنتين تلتقطان الصمت والسكينة، شتائم ونحيب العالم تحولانه إلى أغنية من قلبه المخزوق بسهم يفيض الدم.

واحدة فواحدة، دون وجود أي نسمة، كانت الأوراق تسقط بحدب ورقة على شعرهِ الممتزج بالشوك وعلى يديه المدماة. وبينما كان يجهد في وسط بحر من الهديل، في أن يتذكر من كان وأين كان، فجأة عصفت الريح وتجمدت ـ كان ملاك يقف أمامه.... في هذه اللحظة طلع النهار.

رأى زرافات من الملائكة في أثناء النوم واليقظة. لكنه لم ير ملاكاً مماثلاً. هذا الجمال الأخاذ والبشري، هذا الوبر الجعد، الهفهاف، على خديه وفوق شفتيه كانت عيناه المرحتان

تبصان، تملأهما الحيوية والحماس كعيني امرأة حبيبة، كعيني مراهق لعوب، كان جسمه مرناً وصلباً، وكانت ربلتاه وساقاه قد اكتست زغباً مرتعشاً أسود على منعكس أزرق، وكان إبطاه ينشران رائحة العرق البشري الذي يحبه.

كان يسوع مبلبلاً:

ـ من أنت؟ سأله.

كان قلبه يخفق بعنف. ابتسم الملاك، لطف وجهه، كوجه بشري. ثنى جناحيه العريضين الأخضرين كمن خشي من إخافة يسوع:

أنا مثلك، أجاب. ملاكك الحارس: ثق.

كان صوته حاسماً ومداعباً، عطوفاً وأليفاً كصوت آدمي. كانت أصوات الملائكة التي سمعها حتى الآن قاسية. كانت تخاصمه. فارتاح وابتهج. نظر إلى الملاك نظرة التماس وانتظر منه أن يتكلم أكثر.

حدس الملاك هذا وأجاب مبتسماً إرضاء للرجل.

أرسلني الله لأبلل شفتيك. غمرك الناس بكتلة من المرارات، والسماء أيضاً، تألمت ناضلتَ ولم تذق في حياتك يوم صفاء. أمك، إخوتك، رسلك، الفقراء، المرضى، المضطهدون كلهم، كلهم حتى آخر لحظة، حتى اللحظة الرهيبة، تركوك. بقيت وحيداً. دونما دفاع فوق صخرة في العتمة، آنئذ رثى الله لحالك. ناداني:

ـ أنت، لماذا بقاؤك هنا مكتوف اليدين؟ ألست ملاكه الحارس؟ انزل وأنقذه. لم أرض عن صلبه، هذا يكفي!

ــ يا سيد الكون، أردفت، ألم ترسله ليصلب؟ ليفدي الناس؟ لذا بقيت هنا، من دون مهمة. ظننت أنها إرادتك.

ليصلب في الحلم، أجاب اللّه، لأعجم عوده، وخوفه قدرته على تحمل الألم.

ملاكي الحارس، صرخ يسوع ومسك رأس الملاك بيديه خوفاً من أن يهرب ملاكي الحارس، يا ابني روحي تترنح، ألم أصلب إذن؟

وضع الملاك يده البيضاء على قلب يسوع المضطرب، ليهدئه:

ـ اطمئن، يا حبيب، قال له ـ كانت عيناه الفاتنتان ترقصان ـ لا تضطرب؛ لا، لست مصلوباً.

كان هذا إذن في الحلم، الصليب، المسامير، الآلام، وكسوف الشمس؟

كان هذا حلماً، عشت كل هواك واندفاعك في الحلم. صعدت على الصليب. سمرت في الحلم، فتحت خمسة جروح بيديك، بقدميك وقلبك بهذه القوة التي جعلت دمك يراق ....

نظر يسوع حوله، منتش، ـ أين كان؟ ما هو هذا السهل، ما هي هذه الأشجار المزهرة وهذه المياه؟ والقدس؟ وروحه؟ التفت إلى الملاك، لمس ذراعه، كم كان بدنه غضاً، وكم

كان صلباً!

ـ يا ملاكي الحارس، يا ابني، لقد خف ألمي ما دمت تتكلم، ويصير الصليبُ ظلَّ صليب، والمسامير ظل مسامير والصلب يحوم في السماء فوق رأسي، كغمامة ....

ـ هلم بنا، قال الملاك الذي جعل يطير فوق الشجرة المزهرة. أفراح عظيمة تنتظرك.. يسوع يا ابن الناصرة. الله ترك لي حرية جعلك تذوق كل الأفراح التي تمنيتها سرا في حياتك، يا حبيب، الأرض طيبة، خيرة، سترى، والبهجة حلوة والخمر وشفتا المرأة وقفزات ابنك الأول على ركبتيك ......

ـ نحن، الملائكة، أتصدق، أننا في السماء ندنو غالباً من الأرض لكي نتأملها بحسرة.

و بدأ جناحاه الأخضران يخفقان واحتضناه:

التفت، قال: حدق وراءك.

امتثل يسوع وماذا رأى؟ بعيداً جداً، في الأعلى، تلة الناصرة تلمع تحت الشمس العليا. كانت أبواب المدينة الحصينة مفتوحة، رهط جرار يخرج منها؛ كان هؤلاء سادة وسيدات، يرتدون الديباج المذهب، يمتطون خيولاً بيضاء، يهزون في الفضاء رايات حريرية بيضاء كالثلج ومزدانة بالزنبق الذهبي. ينزلون بين الجبال المزهرة، يمرون أمام قصور ملكية، يقومون بتعرجات ودورات، يتبعون منحدر التلال، يجتازون الأنهار، تسمع حركة مشوشة صادرة من الضحك، من الأحاديث

الهادئة والتنهدات الخفيفة وراء الأشجار المتكاتفة...

ـ ملاكي الحارس، يا ولدي، من هذه الجمهرة من السادات؟ من هم هؤلاء الملوك وأولاء الملكات، أين يذهبون؟

ـ هذا موكب سماوي، يذهبون إلى عرس.

ـ من يتزوج؟

أنت، هذه أول غبطة أعطيك.

صعد دم يسوع إلى رأسه. خمن فجأة من هي الخطيبة. ارتعش كل جسده نشوة. هو الآن مستعجل:

ـ هلموا، قال.

و سرعان ما أحس بأنه يمتطي جواداً أبيض مسرجاً وفي فمه لجام مذهب. تأمل هيئته، كيف تحولت ثيابه المسكينة المرقعة إلى مخمل وذهب؟ وريشة زرقاء تخفق فوق رأسه.

ـ أهذه هي مملكة السماوات التي حدثت الناس عنها على الأرض؟ أهذه هي، يا ولدي؟

لا، لا، أجاب الملاك صارخاً. بل هذه هي الأرض.

أليست التي تبدلت؛ هذا أنت. كان قلبك في السابق لا يريد، كان قلبك يريد عكس ما تريد الأرض، الآن قَبِلَ؛ هذا هو السر كله. الانسجام بين القلب والأرض، يا يسوع الناصري، هي مملكة السماء... لكن لمَ نضيع وقتنا بالهذر؟ هيا، الخطيبة تنتظر.

في هذا الوقت كان الملاك يمتطي حصاناً أبيض، وذهبا:

بانطلاقة حية. وراءهما كانت الجبال تحمحم،و قد ولجها الموكب الملكي الذي نزل. كان ضحك وصهج النساء قد تضاعف. في السماء تطير الطيور موجهة أجنحتها نحو الجنوب وتشدو: وصل! وصل! كان قلب يسوع هو الآخر طيراً؛ تسلق إلى قمة رأسه وشدا: أصل! أصل! أصل! فجأة، في قمة نشوته، تذكر تلامذته. استدار، أمعن النظر في جمهرة السادة، باحثاً عنهم لم يجدهم، نظر إلى مرافقه، وسأله:

وتلامذتي. لا أراهم؛ أين يمكن أن يكونوا؟

أجابته ضحكة ساخرة:

ـ تبددوا.

ـ لماذا؟

ـ الخوف

ـ حتى يهوذا؟

ـــ الكل! الكل! رجعوا إلى قواربهم، اختبأوا في أكواخهم. أقسموا أنهم لم يروك أبداً، لم يعرفوك... لا تنظر وراءك، لا تفكر بهم. أنظر أمامك.

وضمخ الجو بعطر زهر الليمون المسكر.

ها نحن وصلنا، قال الملاك وهو يترجل. صار جواده نوراً واختفى. دون خوار عنيف في كرم الزيتون، يملأه الحزن والرقة. ارتعد يسوع، كما لو أن أحشاءه تصرخ. نظر، فرأى ثوراً أسود، أبيض الجبين مربوطاً إلى جذع زيتونه، متوج

القرون، مرفوع الذيل يلمع. لم ير يسوع أبداً كهذه القوة ولا كهذا الألق، أو جسداً كهذا ولا كهاتين العينين الكدرتين، والمفعمتين عزماً وفحولة، نخاف ألا يوجد هنا ثيران، هذا واحد من الوجوه الكدرة الأزلية، للّه كلي القدرة.

بقي الملاك إلى جانبه يبتسم بخبث.

ـ لا تخف، يا يسوع الناصري، هذا ثور، ثور فتى وبكر. أنظر: لسانه يظهر ويتراجع ويلمس منخريه الرطبين. يحني رأسه ويضرب الزيتونة بعنف بقرنيه، ليتخاصم معها. إنه يصارع ليقطع الحبل وينطلق... أنظر، هناك في البرية، ماذا ترى؟

عِجْلات، صغيرات... ترعى.

لا. ينتظرون أن يقطع الثور الرسن. تأمله كيف يخور. بأي لطف، وأي التماس، وأي حزم! فعلاً، يقال إله مظلم وجريح... لماذا صار وجهه شرساً، يا يسوع الناصري؟ لم تحدق إلي بهذه العين الكدرة والصارمة؟

هيا، زفر يسوع بصمت ـ كان صوته رقيقاً، ملتمساً وحاسماً.

اتركني أولاً أفك رباط الثور، أجاب الملاك مبتسماً، ألا ترحمه؟

اقترب، فك الحبل، بقي العجل لحظة ساكناً؛ ثم وعى فجأة أنه حر، وثب وانطلق إلى البرية.

في هذه اللحظة رنت أساور وعقود تحت شجرة الليمون؛

التفت يسوع: مريم المجدلية، واقفة أمامه.

انطلق يسوع وأمسك ذراعيها:

ـ مادلين، حبيبتي، نادى بلهفة، كم من السنين انتظرت هذه اللحظة؟ من تدخل ليفصل بيننا؟ أكان اللّه؟ لماذا تبكين؟

ـ غبطتي عارمة جداً، ورغبتي مشبوبة جداً، يا حبيبي. تعالي!

ـ هيا، خذني!

التفت ليودع صاحبه؛ كان الملاك قد توارى. الركب الحاشد الذي يواكبه ـ السادة، السيدات. الملوك، الشعر الأبيض، والزنبق الأبيض، كل شيء اختفى. في أسفل البرية، كان الثور على ظهر العجلات عمن تبحث، يا حبيبي؟ لم تنظر وراءك؟ ليس في الجو إلا نحن الاثنان. أعانق جروحك الخمسة في يديك وقدميك وقلبك. أية بهجة وأي فصح! بعث في العالم: تعال!

ـ إلى أين؟ اعطيني يديك، قوديني. أنا واثق.

في روض فسيح، يطاردونك، يبغون أسرك؛ كل شيء جاهز – الصليب، المسامير، الشعب، وبيلاطس ...... وفجأة حل ملاك وأنهضك.

ـ تعال، قبل أن تصعد الشمس إلى السماء فلا يرونك. هم مغتاظون، يريدون موتك.

ـ ماذا فعلت لهم؟

أردت خيرهم، سلامتهم. كيف لهم أن يعذروك؟ اعطني يدك، يا حبيبي، اتبع المرأة. هي التي تجد الطريق، ولا تخطئ أبداً، أخذته من يديه. كان نقابها الأحمر الناري يخفق في الهواء بينما كانت تمشي مسرعة، تحت أشجار الليمون المزهرة. أصابعها المعانقة أصابع الرجل، كانت تحترق. فمها يفوح من عطر أوراق الليمون.

تريثت هنيهة، لاهثة، وتأملت يسوع، ارتعش؛ رأى عينها تبرق، فاتنة، بريئة، كعين الملاك. لكنها بسمت له:

ـ لا تخف، حبيبي، خلال أعوام وسنين كانت على شفتي كلمة، إنما ما تجاسرت إن أبوح بهالك. الآن سأفتح قلبي.

ـ أي كلمة؟ تكلمي بدون خوف، يا حبيبتي.

ـ إن كنت في السماء السابعة وطلب منك عابر سبيل كأس ماء، انزل من سمائك هذه لتعطيه الماء. إن كنت قديساً ناسكاً وطلبت منك امرأة قلبك، انزل من برجك وهبها ما تمنت وإلا لن تخلص.

قبض يسوع عليها، ارجع رأسها إلى الوراء وقبلها من فمها.

كان لون الاثنين قد شحب، وخارت الركب تحتهما، ولم يقدر أن يتابع السير. فتدحرجا تحت ليمونة مزهرة.

وقفت الشمس فوقهما. وهبت الريح. وسقطت بعض الأزهار فوق جسديهما العاريين. وحط على صخرة قبالتهما حردون وراح ينظر إليهما بعينهِ المستديرة والساكنة. وفي ذات الوقت سمع

يسوع في البعيد خوار الثور، الهادئ الآن، فقد ارتوى. كان المطر يرذ بهدوء، وتسقط القطرات فوقهما ورطبت خديهما المكهربين، وهنا انتشرت من الأرض رائحة رطبة. ما انفكت مريم المجدلية تعانق الرجل، لم تسمح له بالابتعاد، وتمتمت همسا. أبداً لم يعانقني رجل، أبداً ما أحسست يوما على شفتي، على وجهي، لحية رجل، ولا بين ركبتي ركبتي رجل، الآن ولدت! أتبكي يا حبيبي؟

ـ لا أعرف، أيتها المرأة الحبيبة، إن العالم جميل إلى هذا الحد، والجسد مقدس، وهو أيضاً ابن الله وأخو الروح الممتلئ نعمة. وأن فرحة جسدها ونشوته ليست خطيئة.

لماذا ذهبت لتقيم في السماء، لماذا تتنهد باحثاً عن ماء الشباب؟ أنا هو ماء الفتوة، وأنت انحنيت وشربت وهدأت. حبيبي، تتنهد أيضاً؟ فيم تفكر؟

ـ كان قلبي وردة ذابلة نهضت ثانية وأينعت في الماء. إن نبع ماء الفتوة هو المرأة. الآن، فهمت.

ـ ماذا إذن يا ولدي؟

ـ هذا هو السبيل

ـ السبيل؟ أي سبيل، يا يسوع الحبيب؟

ــ السبيل الذي يحول الزائل إلى أزلي. عبره نزل الله إلى الأرض بشكل إنسان. كنتُ ضالاً. بحثت عن سبيل خارج الجسد. في السحاب، في الأفكار العظيمة، في الموت. يا امرأة،

يا رسولة الله الرائعة، اعذريني. انحني وأمجدك، أمّاً لله. ابننا القادم، ماذا سنسميه؟

ـ خذيه إلى الأردن وعمديه حسب رغبتك، إنه لك.

ـ أنسميه المعزي (الروح القدس).

صه؛ سمعت بين الأشجار مشية أحدهم تقترب. يجب أن يكون رنجيي الصغير المخلص. قلت له أن يكون رصيداً في الجوار ليمنع من شاء من الاقتراب. ها هوذا!

يا مولاي، سول Saul[1]

كانت عينا الزنجي الصغير ترقصان، ببياض تام. وكان جسمه البدين يعرق كجسد حصان أتعبه الخبب. نهضت مادلين بسرعة وأطبقت فمه بيدها:

صه!

التفتت إلى يسوع: ــ زوجي الحبيب، أنت متعب، نم، سأعود قريباً،

أغمض عينيه، انتشر على صدغيه نعاس لطيف؛ لم ير مادلين تذهب عبر شجرة الليمون وتتوارى على الدرب المقفر.

لكن روحه انتفضت، تركت في الأرض الجسد النائم وذهبت وراء مادلين. أين ذهبت؟ لم امتلأت عيناه بالدموع فجأة، لم أظلم العالم؟ يبدو أن باشقاً حلق فوقهما ولم يتركها تهرب.

---

1 ـ ولد في غابة Gabaa، أول ملك للعبريين 1035 – 1015 ق.م.

نط الزنجي بسرعة أمامها، خائفاً. اجتازا كرم الزيتون؛ لم تكن الشمس قد غابت. دخلا في البرية، كانت العجلات نائمة على العشب تجتر، انحدرا في مسيل ظليل، كثير الحجارة. سمعا صراخاً، نباح كلاب، لفيف من الناس يلهث. أمسك الفزع بخناق الزنجي:

ـ أنا ذاهب! وراح يسابق الريح.

بقيت مادلين وحدها. تطلعت حولها: حجارة شقف صوان، أشواك، تينة برية، من دون ثمر، تطل على المنحدر، غرابان على الصخرة الصلعاء، يرصدان. ما إن رأيا مادلين، حتى راحا يزعقان، كمن ينادي رفاقه.

كانت الحجارة تتحرك، وكان بعض الناس يتسلقون السفح شديد الانحدار، وظهر كلب أسود ذو بقع حمراء، ولسان ممدود، غص المسيل بالسرو والغار، كمقبرة. سمعت صوتاً، مغتبطاً، رائعاً: ـ أهلاً وسهلاً بك! تطلعت مادلين حولها:

ـ من تكلم؟ من تمنى لي الترحاب؟

ـ أنا

ـ من، أنت؟

ـ الله.

ـ الله! استر شعري، واخبىء صدري، حول وجهك. كي لا ترى عريي يا سيدي يسوع؛ أخجل. لم قدتني إلى هذه الصحراء القفراء؟ أين أنا؟ لا أرى سوى السرو والغار

هــذا مــا وجــب؛ المــوت والخلــود. قــدتك، أيتهــا الــشهيدة العظيمة، إلى حيث شئت. استعدي للموت، يا مادلين، لتخلدي.

لا أريد أن أموت، لا أرغب في الخلود، أود أن أعيش أيضاً على الأرض؛ بعدئذ أرجعني رماداً.

الموت قافلة محملة شوكاً وعطوراً، أتخافي، تسلقي الليل مطية وادخلي صحراء السماء، يا مادلين.

ـ أوه؟ ما هذه الجيوش الهائجة التي ظهرت خلف السرو؟

لا تخافي مادلين. هؤلاء قادة قوافل الجمال لدى الله. ضعي يدك كواقية لوجهك، ألا ترين المطية التي ستقلك، بسرجها المخملي الأحمر؟ لا تقاومي، تسلقيها.

ـ سيدي، أنا لا أخشى الموت، اليوم لأول مرة ينسجم مع جسدي ومع روحي وامتلك شفتي: لأول مرة التقت الشفاه بنفس الاحتضان ـ فوجب علي الموت!

ـ هذه اللحظة مواتية للموت، يا مادلين، لن تجدي خيراً منها، لا تقاومي.

ـ أوه! ما هذا الصراخ، هذا التهديد، هذا الهتاف الذي اسمع؟ سيدي، لا تدعني وحدي، سيقتلوني!

آنئذ سمعت في البعيد صوتاً بهيجاً وواضحاً:

ـ وصلت، يا مادلين، إلى ذروة السرور القصوى في حياتك. لن يكون لك أعلى من هذا. الموت ملائم الآن. إلى اللقاء يا أول شهيدة! وضاع الصوت. عند أول منعطف للمسيل ظهر الرهط ـ

لاويـون هـائجون وعبيـد كـاييف المعتـادون علـى لحـس الـدم، مـسلحون بالخنـاجر والبلطـات. رأوا مـادلين؛ سـار إليهـا النـاس ببلطاتهم وكلابهم.

ماري مادلين، يا عاهرة! صرخوا بضحكة مدوية

غطت سحابة سوداء الشمس، وأظلم العالم.

لا ذنـب لـي، لا ذنـب لـي ولا يـد! صـرخت البائـسة. كنتـه، كذلك ولم أعد، كان هذا منذ ما ولدت!

ـ مريم مادلين، يا زانية!

كنت هكذا، ولم أعد، أقسم. لا تقتلوني، الرحمة! من أنت، برأسك الأصلع، ببطنك الضخم وساقيك المعقوفين، أنت الأحدب؟ لا تلمسني!

ـ مريم مادلين، يا زانية، أنا سول Saul. أتى بي من دمشق إله إسرائيل وأعطاني قوة قتلك.

ـ من؟

ـ حبيبك! واستدار نحو رهطه:

انقضوا عليها، أيها الأبناء، هذه حبيبتي، يجب أن تعرف. تكلمي، يا فاجرة، أين خبأتيه.

ـ لن أقول.

ـ سأقتلك

ـ في بيتانيا

ـ كاذبة. أتينا إلى هناك. تخبئينه هنا، نريد الحقيقة.

ـ لا تشدني من شعري! لماذا تريد قتله؟ ماذا فعل لك؟

ـ الموت لذاك الذي تمرد على الشريعة المقدسة!

تكلم الأحدب، حدق إليها بشهوة وما كف عن الاقتراب؛ كان نفسه مكهرباً، طرفت عينا مادلين.

ــ سول، أنظر صدرها، ساعديها وعنقها، ألا تأسف لضياعها؟ لا تقتلها!

دنا سول أكثر، كان صوته مبحوحاً محشرجاً.

اكشفي ما تخفي وإلا أقتلك. أهفو إلى ثدييك ذراعيك، ورقبتك. ارحمي جمالك، اعترفي! ماذا عندك يهمني؟ فيم تفكرين؟

ـ أفكر، وأتنهد، بالمعجزة التي ستفعلها، يا سول، إن ألقى الله الصاعقة عليك وجعلك ترى الحقيقة! هؤلاء هم الرسل الذين يحتاجون حبيبي ليحتل العالم؛ وليسوا صيادين، باعة متجولين ورعاة. بروق مثلك، يا سول!

ـ من أجل احتلال العالم! أيريد كسب العالم؟ كيف؟ تكلمي، مادلين؛ أنا أريد هذا أيضاً.

ـ بالحب

ـ بالحب؟

سول اصغ إلى ما سأقوله لك. اطرد الآخرين لكي لا يسمعوا. ذاك الذي تسعى إلى قتله هو ابن الله. فادي العالم، المسيح! نعم، أقسم بالروح التي سأسلمها لله!

ـ بل لاوي هزيل، مصاب بداء الصدر، ذو لحية رمادية قليلة الوبر.

ـ سول، سول، ذراعاها فخان تصطاد بهما الذئاب. احذر!

ـ اذهب من هنا

والتفت إلى مادلين:

ـ باسم الحب؟ أنا أيضاً أريد أن أكسب العالم؛ راحل في المرافئ، أرى المراكب التي تبحر ويتمزق قلبي. وأنا أيضاً أهوى الرحيل إلى أطراف الدنيا، ليس كعبد، كمستعط يهودي، بل أكلمك، شاهراً سيفي. إنما كيف؟

لا أقوى على هذا، وأحياناً، أغضب، أرى أن أقتل نفسي. أمزق رقبتي، لأهدأ.

وسكت، ثم بعد هنيهة، اقترب أكثر من المرأة:

ـ أين معلمك، سألها بنبرة وئيدة. اعترفي، سأعثر عليه، سأخاطبه، سيقول لي ما هي المحبة. ما هذه المحبة التي ستسود العالم ...... لمَ تبكين؟

لأني أريد أن أرشدك إلى مكانه، لتلتقيا؛ هو الهدوء وأنت اللهب، بهذا ستحتلان العالم؛ لكني لست واثقة بك، لست واثقة بك، يا سول، لذا أبكي.

كانت تحكي لما مزق الهواء حجر، تحطم حنك مادلين

ـ أيها الأخوة، باسم إله إبراهيم وإسحاق Isaac ويعقوب، اضربوا! زعق اللاوي المصدور. هذا هو أول من قبض حجراً

وضربها.

دوى الرعد في السماء، إلى مدى بعيد كان الغرب يسبح بالدم

على فمها الذي قُبِّل ألف مرة! أردف عيد كاييف. ستنتشر في الأرض أسنان مادلين.

أنا على بطنها!

أنا على قلبها!

أنا بين عينيها!

خبأت مادلين رأسها بين كتفيها لتحميه. كان الدم يسيل من فمها، من صدرها، ومن بطنها. بدأت تحشرج.

خفق الباز بجناحيه، شاهدت عينه الدائرية كل المشهد. زعق زعقة شديدة وتنكب دربه. وجد جسدها نائماً تحت شجرة الليمون. طرفت أهداب يسوع، سقطت على شفتيه نقطة مطر كبيرة، استيقظ. نهض، قعد على الأرض، وراح يفكر. ما هذا الحلم الذي رآه؟ لم يعد يتذكره. لم يبق في ذاكرته سوى حجارة، امرأة ودماً... هل هذه المرأة هي مادلين؟كان وجهها وجها آخر، كان ينزف مادة كالماء، لم يستطع أن يعينها، ولم يتسن ليسوع أن يراه. بينما كان يجاهد ليميزه، صارت الحجارة والدم، كما بدا له، ورشة للنسيج وكانت المرأة الآن جالسة أمام آلة الحياكة تحيك وتغني. كان صوتها رخيماً جداً، مفعماً باللوم والشكوى.

بـين أوراق الليمـون الـكامـدة كانـت تـبرق الثمـار، ذهبيـة اللـون، فـوق رأسـه. أسـند راحـة يـده إلى الأرض الرطبـة، أحـس طراوتها ودفأها الربيعي، ألقى نظرة سريعة حوله، لا أحد يراه؛ فانحنى وقبّل الأرض.

ــ أيتهـا الأم، قـال بـصوت خفـيض، اسمعـيني جيـداً وأنـا أسمعك جيداً؛ أيتها الأم لمَ لا تصيرين إلهي؟

تحـركـت أوراق شـجرة الليمـون، ورنـت خطـى خفيفـة علـى الأرض الرطبـة، وزقـزق شـحرور غـير مرئـي. رفـع يـسوع عينيـه ورأى الملاك الحـارس، واقفـاً أمامـه، راضيـاً، فرحـاً، بجنـاحين أخضرين، زغب جسده الجعد يلمع تحت أشعة الشمس المائلة الغاربة.

ـ أهـلاً وسهلاً، قال يسوع. وجهك يشع. أي خبر طيب تحمل أيضاً؟ أنا أثق بك جناحاك أخضران كعشب الأرض.

ضـحك المـلاك، ضـب جناحيـه وأقعـى بجانبـه. فـرك ورقـة ليمون وشمها بلهفة. رأى بعيداً جهـة الغـرب، الـذي صـار قرمزيـا. هـب نـسيم لطيـف مـن الأرض وراحـت كـل أوراق الليمـون تـضج وتصخب فرحة؛ وترقص.

كـم عليكـم أن تـكونـوا سـعداء أيهـا النـاس. قـال المـلاك. أنتم تـكونتم مـن الـتراب والمـاء وكـل مـا في هـذا العـالم مكـون مـن الـتراب والمـاء، لـذا تتـآلقون ـ رجـال ونـسـاء، أعـشاب وثمـار... ألستم كلكم من التراب ذاته؟ وذات المـاء؟ تريدون كلكم أن

تتحدوا. اسمع وأنا في طريقي إلى هنا، سمعت امرأة تناديك:

ـ لم تناديني؟ ماذا تريد مني؟

ضحك الملاك:

الماء والتراب اللذان فيها يناديان الماء والتراب اللذين فيك. هي جالسة أمام نول الحياكة، تنسج وتغني. أغنيتها تتخطى الجبال وتنتشر في السهل. ـ اصغ، الآن، ستصل إلى هنا، إلى حقل الزيتون. اسكت، هاهي. أتسمع؟ أظن أن ثمة أغنية، لا، ليست أغنية، بل هذا شدو مأتمي. أنصت. ماذا تسمع؟

ـ أسمع حفيف الطيور الآوية إلى عشها. أزف المساء.

ـ لا شيء آخر؟ استدع كل قواك، دع روحك تهرب من جسدك لتصغي.

اسمع! اسمع! صوت امرأة، من بعيد، في المدى، تبكي. لكني لا أميز الكلام.

ـ أنا أسمعه بكل وضوح، أنصت أنت أيضاً. لم تندب وتنوح؟

نهض يسوع، جمع كل قواه، هربت روحه، وصلت إلى الضيعة، دخلت البيت، وقفت في الدار

أسمع... قال يسوع ووضع إصبعاً على شفتيه

ـ احكي.

"رمس من الفضة، رمس من الذهب، رمس من العقيق.

" لا تلتهم هاتين الشفتين الحمراوين، ولا هاتين العينين

السوداوين.

" ولا هذا اللسان الذي يغرد كعندليب."

ـ عرفت صوتها، يا يسوع الناصري؟

ـ نعم

هي مريم، أخت أليعازر. ما تزال تنسج جهازها؛ وتنوح ظنت أنك مت!! جيدها الثلجي مكشوف، عقدها التركوازي يثقل على صدرها؛ رائحة تصعد من كل جسدها الذي ندّاه العرق. رائحة خبز خرج من التنور للتو، من السفرجل الناضج ومن الأرض المروية. انهض، هلم نواسيها.

ومادلين؟ جأر يسوع، مادلين؟

أخذ الملاك يسوع من ذراعه وجعله يقعد على الأرض

ـ مادلين؟ قال بهدوء. أف لي، نسيت أن أنبئك، ماتت

ـ ماتت؟

قتلت، وأنت، إلى أين، يا يسوع الناصري، بقبضتيك؟ من ستقتل؟ الله؟ هو الذي قتلها. أقعد! قذف كلي — الطيبة سهماً، أصابها في قمة سعادتها وصارت مادلين، في الأعالي، خالدة ـ آثمة أكثر بهجة وسروراً لامرأة؟ لم تر الحب يذبل، ويجبن القلب، ويتحلل الجسد. كنت هناك لما قتلها، رأيتها، رفعت ذراعها إلى السماء صارخة: "إلهي، أشكرك، هذا ما أردت!"

لكن يسوع كان قد التهب:

هذه الرغبة في الخضوع لا توجد إلا عند الكلاب، وعند

الملائكة. وأنك لست كلباً ولا ملاكاً، أنا إنسان وأصرخ: هذا ظلم، يا رب القدرة، قتلها ظلم! أقسى الحطابين، لا يقطع شجرة مزهرة. ومادلين، من رأسها حتى قدميها، مزهرة!

أخذه الملاك بين ذراعيه؛ داعب شعره، كتفيه وركبتيه، خاطبه بصوت هادئ، وبتؤدة؛ لقد عبس الجو الآن، هبت ريح، تبددت الغيوم وسطع نجم كبير، يجب أن يكون نجم المساء.

صبراً، قال له، اطع، لا تيأس. لا يوجد في العالم كله سوى امرأة، واحدة بوجوه عديدة. يختفي واحد، يظهر آخر؛ مريم مادلين ماتت، مريم أخت أليعازر حية، تنتظرنا، تنتظرك، هي مادلين عينها، بوجه آخر. أصغ: لقد تنهدت أيضاً، هيا نواسيها، نسري عنها. هي التي تكن في جنباتها، أعظم فرح لك هي التي تصون لك في أحشائها، يا يسوع الناصري، ولداً. ولدك، هلم!

داعب الملاك بحنان وأنهض بهدوء من الأرض صديقه، كانا في تلك اللحظة تحت الليمونة. نزل نجم المساء فوقهم، باسماً.

انتعش قلب يسوع شيئاً فشيئاً، وجه مريم مادلين، ومريم أخت أليعازر اختلطا، في الظل الرطب ولم يعودا سوى واحد... هبط الليل، مفعما بالعطر، وغمرهما.

هيا بنا، تمتم الملاك، ومد يده الدائرية والوبرية حول قامة يسوع. ينشر نفسه رائحة الأرض المبتلة وجوزة الطيب. أمال يسوع

رأسه عليه وأغمض عينيه، ليتنسم بعمق ويدع نفس الملاك الحارس يتغلغل حناياه.

طوى الملاك مبتسماً أحد جناحيه؛ ومع الليل بدأ جليد قارس يهبط وأرسل جناحيه السميكين ليغمرا يسوع ليقيه من البرد. من جديد سمع في الهواء الرطب، مثل رذاذ الربيع الهادئ، نواح المرأة:

"رمس من الفضة، رمس من الذهب..."

هلم بنا، قال يسوع. باسماً.

(29)

خلال الليل، كان يسوع مغموراً بالجنح الأخضر، ملاصقاً قامة الملاك، يطير، يلامس الأرض مساً خفيفاً. كان القمر بدراً ملء السماء، غريباً، فرحاً. لم يعد يرى على الأرض قايين يتأهب لقتل هابيل، بل فم واسع سعيد وخدان عامران يلفهما النور، وجه دائري لامرأة حبيبة تطوف في الليل. كانت الأشجار تهرب، طيور الليل تحكي لغة بشرية، الجبال تنفتح، تبتلع مسافرَي الليل وتنغلق عليهما.

ما أحلى الطيران وأنت بالكاد تلامس الأرض، كمن يطير في الحلم! صارت الأرض حلماً، أهذه هي دار الخلود؟ سيسأل الملاك، لكنه لم يفعل؛ خشي أن يفيق وهو يتكلم.

حدق حوله. كم خفت أرواح الحجر، الهواء والجبل! كنت كمن يجلس مع أصدقائه، القلب كبير، ليجلب الخمر

ولنشرب – ترتاح الروح شيئاً فشيئاً تحلق، وتبحر فوق رأسك، تصير سحابة وردية عندما تنعكس، تصنع ذهباً وريحاً، ويضطرب العالم سيلتفت أيضاً ليسأل الملاك لكن هذا وضع إصبعه على شفتيه وقال له بلطف: اسكت!

كانا يقتربان من قرية، كانت الديكة تصيح، طلع الضوء. كان القمر الآن ينحدر خلف الجبل. كان الفجر ينير العالم بهدوء. استفاقت الأرض من سكرتها، أزف وقت التفكير، الجبل، الضيعة، كرم الزيتون تثبتت هنا حيث وضعها الله بانتظار نهاية العالم. هوذا الدرب يا حبيبة، القرية المساعدة يخبئها الزيتون، التين والكروم، هي بيتانيا. هوذا بيت الصداقة الرحب، نول الحياكة مكرم، النار في الكانون، والأختان، شعلتان لا تنطفئان أبداً...

وصلنا، قال الملاك.

دخان يتصاعد من المدخنة، الأختان نهضتا حتماً، أشعلتا النار.

ـ يا يسوع الناصري، قال الملاك محرراً جناحه من يسوع، أوقدت الأختان النار، ذهبنا من الصباح الباكر لتحلبا وتحضرا لك الحليب. ما هي الجنة؟ هذا ما وددت أن تسألني عنه في الطريق، أليس صحيحاً؟ هي مجموعة أفراح بسيطة، يا يسوع الناصري: تقرع بابا، تفتح لك سيدة، تقعدك أمام الموقد، تضع لك الغطاء ولما يخيم الليل، تطفئ الضوء وتأخذك بين ذراعيها.

هكذا ، رويداً رويداً ، من عناق، إلى عناق ، من أين إلى أين يأتي المنقذ. هذا هو الدرب

وعيت، قال يسوع. وقف أمام الباب الأزرق وقبض المطرقة ليقرع. لكن الملاك منعه:

ـ لا تسرع، قال، اصغ، لم أعد أطلب مفارقتك، أخشى أن أتركك وحدك من دون دفاع؛ سآتي معك. سأتحول إلى زنجي صغير، ذاك الذي رأيته تحت شجرة الليمون، وأقول لك إني خادمك البسيط الذي يلبي مهامك. لا أريد لك أن تسلك درب الخطأ أو الخطيئة وتضيع.

لم يكد يقول هذا حتى كان زنجي صغير واقفاً أمام يسوع. كان بطول ساقه، بأسنان ضخمة بيضاء وقرطين ذهبيين في أذنيه ويحمل سلة حافلة.

ـ يا معلم، قال مبتسماً، دونك هذه الهدايا للأختين: ثياب حريرية، أساور، أقراط ومراوح من الريش الثمين؛ كل زينات المرأة. الآن اقرع الباب.

قرع يسوع، ضجت الأحدية في الدار وسأل صوت عذب:

ـ من في الباب؟

احمر يسوع من رأسه حتى قدميه. عرف الصوت؛ كان صوت مريم. فتح الباب، ارتمت البنتان على قدميه:

يا معلم، إننا نجل محبتك وحماسك؛ نحيي رحمتك الجليلة. أهلاً ثم أهلاً بقدومك!

ـ دعني ألمس صدرك يا معلم، لأرى إن كنت فعلاً أنت، قالت مريم.

ـ إنه فعلاً هو، يا مريم، قالت مرتا، مثلنا: ألا ترينه؟ وهو ذا ظله في العتبة.

أصغى إليهما يسوع مبتسماً. كان يشعر بالأختين اللتين تتأملانه، تشمانه وتقران عيناً

ـ مرتا، مريم، الشعلتان التوأمان، سعدت بلقائكما. يا بيت الناس، الهادئ، المتواضع، المضياف، أنا فرح بوجودكما. سنعيش، نجوع، نتصرف ونبكي، ليمجد الله!

وهو يتكلم، يحيي، دخل البيت

ـ أنا مغتبط لوجودك، أيها الموقد، أيها النول، أيها المعجن الذي يعطي الخبز، المائدة، والجرة والمصباح الحبيب! نحن الخدم المخلصون للمرأة، التي انحني وأحيي مؤهلاتها. لما ستصل المرأة إلى باب الجنة، ستتريث لتسأل:

ـ سيدي يسوع، هل سيدخل رفاقي أيضاً؟

ـ أي رفاق؟ سألها الله.

إيه حسناً، المعجن، السرير، المصباح، الجرة، نول الحياكة. أن لم تدخل هذه الأشياء لن أدخل أنا. والله، طيب القلب، ضحك:

أنتن نساء، قال، لا أستطيع أن أرفض لكن طلباً. ادخلوا كلكم. الجنة غاصة بالمعاجن، بالأسرة، وبأنوال الحياكة. لم

أعد أعرف أين أضع القديسين.

ضحكت المرأتان. التفتتا، رأتا الخادم الصغير مع سلته الحافلة.

ــ من هذا الزنجي الصغير، يا معلم؟ قالت مريم. أحب أسنانه.

قعد يسوع أمام الموقد. جلبتا له الحليب، العسل، خبز القمح. انفتحت عيناه بالدمع:

السموات السبع تضيق بي جداً، قال، والفضائل السبع العظمى والأفكار السبع العظمى. والآن، ما هي هذه المعجزة، يا أختاي؟ بيت صغير يكفيني، ولقمة خبز وكلمات بسيطة من امرأة!

مشى ذهاباً وإياباً كسيد البيت؛ ذهب وجلب بعض الحطب من الدار ورماها في الموقد، وشب اللهب؛ انحنى على البئر، متح ماء وشرب، وضع ذراعيه على كتفي مرتا ومريم واستراح إلى هذا الوضع.

أنا أبدل الاسم، يا مرتا ومريم الحبيبتين، قال. قتل أخوكما الذي أقمته، و جلست في المكان الذي كان يشغله، في هذه النقطة، أخذ منخسه، أحرث، أبذر وأحصد حقوله، أؤوب في المساء، تغسل أختاي رجليّ التعبتين، تمدان لي المائدة، أقعد أمام الموقد على مقعد عادي، واسمي الآن أليعازر.

بينما كان يتحدث. كان الزنجي الصغير يفتته بعينيه

الواسعتين. بقدر ما كان يتأمله، كان وجه يسوع يتحول، ثم جسده كله، رأسه، صدره، ساقاه، يداه، ورجلاه؛ كان يزداد شبها بأليعازر؛ أليعازر الراشد، المفعم صحة وقوة، الجسد ملفوح، اليدان ضخمتان ومعقدتان، ورقبة كرقبة ثور. كانت الأختان تتأملأنه وتتحولان في الظل وترتجفان.

ـ أبدل الجسم، أبدل الروح، أنا سعيد لوجودي بينكما! أعلن الحرب على الصوم، على البكارة، وعلى الفقر. الروح حيوان مشبع بالحيوية، تود أن تتغذى، وهذا الفم الذي تريانه بين لحيتي وشاربي، هو فمها؛ ليس لها فم آخر، ثمة ولد أخرس، مخدر في صدر كل امرأة؛ ليخرج من مكمنه! تلك التي لا تنجب تقتل.

ـ أتبكين، يا مريم؟

ـ ألدي جواب آخر لك، يا معلم؟ ليس عند النساء سواه.

فتحت مرتا ذراعيها ما استطاعت:

نحن، نحن النساء، ذراعان مفتوحان، ادخل، ربي، اجلس، نظّم، نسّق، أنت صاحب البيت.

تألق وجه يسوع:

ـ أنا لا أصارع الله، نحن متفقان. لن اصنع بعد الآن صلباناً؛ سأصنع معاجن، أسرّة، حوامل أو منصات. سأطلب أن تحمل لي أدوات عملي من الناصرة؛ وأن تأتي أمي التي عذبتها، لتربي وننشئ أبناءها، لتحس بشيء من العسل على شفتيها.

وضعت إحدى المرأتين صدرها على ركبتي يسوع، أخذت الأخرى يده ولم تتركها. أمام النار، وضع الزنجي الصغير خده على ركبتي وبدا كأنه نائم؛ إنما من حاجبيه الطويلين كانت عينه السوداء تتأمل يسوع وكانت السيدتان تبتسمان، بخبث ورضى.

ومريم، المستندة إلى ركبتي يسوع، قالت له:

ـ كنت جالسة إلى النول أنقش لوحة على غطاء أبيض: صليب وحوله آلاف السنونو، مددت الخيوط الحمر، السود وأنشدت نواحاً. وأنت، سمعتني وأشفقت علي وأتيت.

كانت مرتا تنتظر بصبر انتهاء كلام أختها ويبدأ دورها:

لا أعرف سوى: ان أخبز، أغسل الثياب وأقول نعم، ما عندي أي مهمة أخرى، يا معلم. أحدس أنك اخترت أختي زوجة، إنما دعني أستنشق قربك الهواء الزوجي، أرتب وأخرب سريرك وأهتم بتدبير الأمور المنزلية.

سكتت، تنهدت، وبعيد هنيهة:

ـ تغني صبايا قريتنا أغنية مؤثرة، في الربيع في الأيام التي في أثنائها تضع الطيور بيوضها، سأسمعك إياها غناء لتفهمها، لأن أساي وشقائي معروف في الكون.

" أوه، أنتم الشباب من دون شوارب،

" تعبت من البيع ومن أن أباع

" ومن عدم وجود الراغب؛

" أراهن حتى بنفسي،

" ليأخذني أول طالب!

" من سيعطيني بيضة سنونو

" سأعطيه شفتي؛

" من سيعطيني بيضة نسر

" سأعطيه صدري؛

" من سيطعنني بخنجر

" سأهبه قلبي! "

غصت عيناها بالدمع. عانقت مريم قامة الرجل، كخائفة من ألا يبادلها العناق. أحست مرتا بطعنة خنجر تمزق قلبها، لكنها تجرأت وبدأت تقول:

يا معلم، أود أن أقول شيئاً قبل أن أنهض وأتركك وحدك مع مريم. في حقبة من الزمن، كان يعيش قريباً من هنا، في بيتانيا، مزارع مقدام، هو بووز Booz[1] في الصيف، قام خدمه بالحصاد، ودرسه على البيدر بالنورج، كدس التبن في اليسار، وإلى اليمين وضع القمح؛ نام بين التبن والقمح، في الليل أتته امرأة مسكينة، اسمها روث Ruth؛ بكل هدوء، كي لا توقظه نامت عند قدميه. كانت أرملة لا ولد لها، كانت تتوجع. شعر الرجل تحت قدميه حرارة جسدها، حرك ذراعه، بحث،

1 ـ **شخصية توراتية زوج روث Ruth وهذه شابة من نويمي.**

وجدها وأنهضها حتى صدره ...... أتفهم، يا معلم؟

ـ أفهم، اسكتي، أجاب يسوع.

ـ أنا ذاهبة، أردفت مرتا وهي تنهض.

بقي يسوع ومريم وحدهما. أخذا حصيرة والغطاء الذي وشي بالصليب والسنونو وخرجا إلى شرفة البيت. غطت سحابة خبيثة الشمس. اختبأا تحت الغطاء كي لا يراهما اللّٰه وراحا يتداعبان ..... بعد لحظة، كما هو، فتح يسوع عينيه ورأى الزنجي الصغير قاعداً على طنف الشرفة، ينظر إلى القدس وينفخ بالمزمار ....

في غداة اليوم التالي، خرج كل سكان القرية ليتأملوا بإعجاب أليعازر الجديد. كان الزنجي يسعى، يقوم بمهام، يمتح الماء من البئر، يحلب الغنمات، يساعد مرتا بإشعال النار، ثم يأتي ليتكور في العتبة ويلعب بالمزمار. كان الفلاحون يصلون بهداياهم، من الحليب، عرانيس الذرة، البلح، العسل، ليتمنوا إقامة طيبة للزائر الغريب الذي يشبه أليعازر كثيرا. رأوا الزنجي في العتبة، مازحوه وضحكوا؛ وهو فرح أيضاً.

دخل الضرير المعروف بدوره، مد يده الضخمة، لمس ركبتي، فخذي، كتفي يسوع، هز رأسه وأصدر ضحكة.

سحقا لكم، لا ترون بوضوح! صرخ بالفلاحين الذين ملأوا الباحة؛ ليس هذا أليعازر، ليس هذا تنفسه، ليس لحمه من ذات التركيب، وهو ملتصق بعظمة: لا تقدر البلطة الفصل

بينهما.

كان يسوع، الجالس في الدار يخلط الحقيقة بالهزر، ضاحكاً:

لست أليعازر، يا أولاد، لا تخافوا، مات أليعازر! ببساطة أنا أدعى أليعازر، المعلم أليعازر. وأنا صانع صلبان. إن ملاكاً ذا جناحين أخضرين جلبني أمام هذا البيت وأدخلني

وهو يقول هذا كان يحدق إلى الزنجي الصغير، الذي ينخر ضاحكاً.

كان الزمن يمر كماء الفتوة، ويغمر العالم. السنابل تنضج، العنب بدأ يلمع حبل بالزيت، والرمانة المزهرة غصت بالثمر. حل الخريف وبعده الشتاء، ولد الجنين. ومريم في السرير تتأمل ابنها الوليد لا تشبع من الإعجاب به، إلهي، كيف خرجت هذه الآية البديعة من الأحشاء؟ شربت ماء الفتوة، قالت مريم مبتسمة، شربت ماء الشباب، لن أموت، في ظلمة الليل، هطل المطر، تشققت الأرض، تلقت السماء بصدرها وحولتها إلى طمي. المعلم أليعازر نائم على نشارة الخشب في ورشته، بين الأسرة والمعاجن شبه الجاهزة، في الظل الكثيف؛ يفكر بابنه الوليد، يفكر بالله، ينصت إلى المطر ويرتاح، لأول مرة يأخذ الله في مخيلته شكل طفل: يسمعه في الغرفة المجاورة يبكي، يضحك ويرقص على ركبتي أمه. "
كان الله إذن قريباً جداً قال لنفسه وهو يلمس لحيته السوداء،

كانت قدماه الورديتان غضتين، كانت دغدغته سهلة وكذلك إضحاكه، وهو كلي القدرة، أيكفي أن تداعبه أصابع إنسان؟"

تثاءب الزنجي الصغير الذي كان يبدو نائماً في الزاوية المقابلة. كان يستمع إلى رفسات الوليد ويبتسم، راضياً. والآن، في الليل إذ لا يسمعه أحد، عاد ملاكاً؛ كان قد بسط جناحيه الأخضرين على نشارة الخشب وارتاح.

يا يسوع، همس، يا يسوع، أنائم أنت؟ صم يسوع أذنه، لأنه كان راغباً بالإصغاء دونما كلام، في سكون الليل، إلى ابنه الوليد. اكتفى بالبسمة. كان شديد التعلق بهذا الزنجي، كان يلبي كل رغباته طيلة النهار، كان يساهم في تكسير الحطب وفي المساء، عندما ينتهي العمل، يقعد في الباب ويلعب بالمزمار؛ كان يسوع يصغي إليه وينسى تعب اليوم، لما سطع أول نجم بدأوا يأكلون سوية إلى نفس المائدة، ولا يكف الزنجي عن الضحك الصاخب، والمرح وتنكيد مرتا البائسة والسخرية من بقائها بكراً، مضاعفاً ضحكه.

نحن، هناك، في شمال إفريقيا، قال وهو ينظر إلى مرتا من زاوية عينه نظرة ماكرة، إذا أثرنا لفعل شيء ما لا نخبئه، لا نقضم دماءنا، مثلكم أيها العبريون، نقوله علنا، بصراحة، ونفعله. أريد أن آكل موزة، إن كانت لي أو لآخر، ما المانع؟ آكلها، أود أن أسبح، أسبح؛ أرغب في أن أعانق امرأة،

أعانقها. اللّه لا يتبرم من هذا، أسود، هو أيضاً، يحب السود، يحمل أقراطاً في أذنيه، وهو يفعل ما يشاء. هو أخونا الأكبر ولنا نحن الاثنان أم واحدة — الليل.

ـ وإلهكم يموت أيضاً، أيها الزنجي؟ سألته مرة مرتا لتنكده.

ـ هو باق ما بقي السود! أجاب وانحنى ليدغدغ باطن قدمي مرتا.

في المساء، عند إطفاء النور، يطوي الملاك جناحيه في العتمة ويتمدد إلى جانب رفيقه، يتحدثان بصوت خفيض ويقدم الملاك نصائح لليوم التالي. ثم يرجع زنجياً، يلجأ إلى نشارة الخشب وينام.

لكنه في ذلك المساء لم ينم .

ـ يا يسوع، قال بصوت أعلى، يا يسوع، أنائم أنت؟

ولما لم يتلق جواباً، نهض بحيوية. دنا من يسوع وهزه:

ـ يا أنت، يا معلم أليعازر، أنا واثق أنك غير نائم. لمَ لا تجيب؟

ـ لا أود أن أحكي، أنا سعيد، رد يسوع، وأغمض عينيه.

ـ أنت راض عني؟ سأل الملاك وهو يختال. ألديك أي شيء تلومني عليه؟

ـ لا، يا بني، أبداً..... لقد تدفأ قلبي وتحمس. ونهض: ـ كما لو أني كنت هائماً، تمتم، أي صحراء، أي سفح قاس،

محاط بالانهيارات، جاهدت لأرى الله! صرخت، تردد صوتي في الجبل الأعزل، وعاد إلي الصدى ، فآمنت أن هذا هو جواب!

جعل الملاك يضحك:

ـ وحدك لن ترى الله، يجب وجود اثنين، رجل وامرأة. أنت لا تعرف هذا ، أنا من علمك إياه. مثلاً، مع مريم، التقيت الله، الذي كنت تبحث عنه منذ أعوام، الآن أنت قاعد في العتمة، تسمعه يضحك ويبكي وأنت مبتهج .....

ـ هوذا الله، هوذا الإنسان، هوذا الدرب، تمتم يسوع وهو يغمض عينيه.

عبرت حياته الماضية أمام باصرته كالبرق، تنهد. مد يده والتقى يد الملاك:

ـ ملاكي الحارس، قال، بأنس يا بني لو لم تأت، لضعت. فلا تتركني أبداً بعد الآن.

ـ لن أغادرك ثانية ، لا تخشى. لن أتركك؛ أنا فرح معك.

ـ حتى متى تدوم هذه البهجة؟

ـ سأكون معك، ما دمت معي، يا يسوع الناصري

ـ إلى الأبد؟

ابتسم الملاك

ماذا تعني ماذا تعني بكلمة إلى الأبد؟ لم تنجح بعد بلفظ الكلمات الكبرى، يا يسوع الناصري؟ الكلمات العظيمة، الأفكار العظيمة، ممالك السماء؟ لم يقدر ابنك ذاته إن

يشفيك؟

دق على الخشب بقبضته:

هـي ذي مملكـة الـسماء، هـي الأرض. هـو ذا اللّه، هـذا ابنك. هـا هـي الأبدية ، كـل لحظـة، يا يـسوع الناصري، كل لحظـة تمـر ألا تكفيـك اللحظـات؟ إذن، اعلـم، لـن تـشبعك الأبدية.

صمت. سمع في الباحة وقع خطوات خفيفة، أقدام حافية كانت تدنو.

ـ من القادم؟ قال يسوع وهو ينهض.

ـ امرأة، أجاب الملاك مبتسماً. سيسحب ساقط الباب

ـ أي امرأة؟

هز الملاك إصبعه كما ليوبخه:

ـ لقـد قلـت لـك، أنـسيت؟ لـيس في العـالم كلـه امرأتـان، ليس ثمة سوى واحدة، واحدة بوجوه لا تحصى. أحد هذه الوجوه هو القادم. أنهض واستقبلها أنا ذاهب.

وزحف كأفعى بين نشارة الخشب وتوارى.

توقفـت الأقـدام الحافيـة أمـام البـاب، التفـت يـسوع باتجـاه الحائط، أغمض جفنيه كمن يبغي النوم. دفعت يد البـاب. فتح انزلقت امرأة إلى الورشة، مشت بهدوء؛ وصلت إلى الزاوية حيث نام يسوع ومن دون كلمة أو ضجة، تكومت عند قدميه.

شـعر يـسوع بـالحرارة والـدفء يـصل إلى قدميـه، إلى

ركبتيه، إلى فخذيه إلى رقبته والى صدره. مد يده، عثر على جدائل المرأة، بحث في العتمة عن وجهها، جيدها وصدرها. كانت منحنية يلفها الأمل والطاعة، وكانت صامتة. كانت ترتعش فقط ومن جسدها كله كان ينسرح العرق كالماس على الزجاج.

وبصوت واهن وأنيس، مفعم بالحنو والحب، تكلم الرجل:

ـ من أنت؟

ارتعدت المرأة وصمتت. أسف يسوع لسؤالها، لقد نسي من جديد كلام الملاك، ما همه بمعرفة الاسم، أو من أين أتت، محياها، لونها، جمال أو بشاعة وجهها؟ كانت الوجه الأنثوي للأرض، كان صدرها مرهقاً، كان في أحشائها لفيف من الأبناء والبنات، يتململون وليس لهم أن يخرجوا وأتت لتلقى الرجل ليفتح لها الدرب. غمر الحنو والمحبة قلب يسوع

أنا ريتا Ruth، تمتمت المرأة، مرتجفة

ريتا. من ريتا هذه؟

مرتا Martha

(30)

كانت الأيام تمر، والأشهر، والسنون، والأبناء والبنات يتكاثرون في بيت أليعازر، مرتا ومريم تتسابقان إلى الإنجاب. الرجل يكدح أحياناً في ورشته مع خشب الصنوبر، السنديان والسرو، يقصها ويقطعها ليصنع منها أدوات لخدمة الناس،

وأحياناً في الحقول مع الرياح، والقراص، والخلد الأعمى، يعود منهكاً إلى العتمة ويقعد في الدار؛ تأتي امرأتاه لتغسلا رجليه وبطتيه، تشعلان له النار، تغطيانه وتفتحن له أذرعهن، وهو الذي يهندس قطع الخشب لتصير أسرة، يعمل أيضاً في الأرض لتعطي العنب والسنابل، يعمل كذلك مع نسائه ويحررهن من العبث الذي لحق بهن.

" يا لها من سعادة، قال يسوع لنفسه، أي تواصل عميق بين الروح والجسد، بين الإنسان والأرض!" مرتا وماري ترغبان في لمس سعادتهن بيديهن ويرين إن كانت هذه البهجة وهذه الحلاوة والرقة حقيقية وحقيقي الرجل الذي تحبانه والأبناء الذين خرجوا من أحشائهن ويشبهونهن. بدت لهن هذه السعادة عظيمة جداً، فارتعشن. في إحدى الليالي رأت مريم حلماً غريباً. نهضت، خرجت إلى الدار ورأت يسوع الذي نهض للتو وجلس على الأرض، وأسند يديه إلى التراب، سعيداً. دنت وجلست إلى جانبه:

ـ يا معلم، قالت بصوت هادئ، ما هي الأحلام، مم تصنع؟ من يرسلها؟

ليست ملائكة ولا أبالسة، رد يسوع. فلما يتمرد الشيطان على الله، تبقى الأحلام، حائرة، بين الشياطين والملائكة. يرميهم الله في لجة النوم. لم تسأليني؟ ماذا حلمت، مريم؟

لكن مريم انخرطت بالنحيب؛ سكتت. داعب يسوع يدها.

ما دمت تحبسين نفسك وأنفاسك، يا مريم، يأكل الحلم أحشاءك، انطلقي إلى النور لتطرديه.

بدأت مريم كمن انقبض حلقها. واساها يسوع، فتشجعت.

طيلة الليل كان القمر ساطعاً، لم أقدر أن أغمض عيني، إنما عند السحر اضطررت أن أغفو، لأني رأيت طيراً، لا، لم يكن طيراً، كان ذا ستة أجنحة نارية، إذن هو واحد من السيرافين[1] يحيط بتاج الله... أتى يحوم حولي وفجأة انقض وغمر رأسي بجناحيه. وضع منقاره في أذني وخاطبني... يا مريم، اصغي.

ـ تشجعي مريم؛ ألست معك؟ مم تخافين؟ ماذا قال لك؟

كل هذا، يا معلم، هو...

و انغلق حلقها مجدداً. أخذت ركبتي يسوع وضمتها بعنف إلى صدرها.

ـ كل هذا هو... ما هو، يا مريم الحبيبة؟

ـ حلم، تمتمت. وانخرطت تنتحب.

ارتج يسوع:

ـ حلم؟

ـ نعم، يا معلم، كل هذا ليس سوى حلم.

كيف، كل هذا؟

---

1 ـ هم الملائكة المقربون.

أنت، أنا، مرتا، عناقنا في الليل، أبناؤنا... كل شيء... ليس سوى أوهام. صنعها الإغواء لتضليننا، أخذ شيئا من النوم، من الموت ومن الهواء وصنعها... يا معلم، هلم ساعدني!

تدحرجت في الأرض، انتحبت وفجأة تصلبت. سارعت مرتا، جلبت خلاً معطراً، فركت به صدغيها، استعادت وعيها فتحت عينيها، رأت يسوع وتعلقت به.

حركت شفتيها، قالت مرتا: ـ يا معلم مريم تريد أن تقول شيئاً انحنى يسوع، رفع رأسها. حركت شفتيها وقالت.....

ـ ماذا تقولين، يا مريم الحبيبة؟ لم أسمع.

جمعت مريم قواها:

وأنت، يا معلم، تمتمت...

أنا؟ ... تكلمي!

ـ كنت مصلوباً! أنا وقعت أرضاً، فاقدة الوعي.

مدوها على سريرها، بقيت مرتا إلى جانبها، فتح يسوع الباب وغادر إلى الحقول؛ يكاد يختنق.سمع خطوات وراءه والتفت. كان الزنجي الصغير.

ـ ماذا تريد؟ صرخ به بغضب. أود أن أبقى وحدي.

وأنا لا أريد أن أتركك وحدك، يا يسوع الناصري، أجاب الآخر، وعيناه تحدقان. هذه اللحظة صعبة؛ قد تترنح روحك

هذا هو ما أريد لتترنح. ثمة لحظات خلالها تمنعني روحي أن أرى.

راح الزنجي يضحك:

أأنت امرأة؟ قال أتؤمن بالأحلام؟ دع النساء يبكين. إنهن نساء؛ لا يقدرن على تحمل فرح كبير فيبكين. أما نحن، نقاوم. أليس كذلك؟

ـ بلى، أصمت! سارا بسرعة. صعدا رابية خضراء: بين الحشيش تتمايل شقائق النعمان والأقحوان الأصفر؛ كانت الأرض تنشر رائحة الزعتر. رأى يسوع بيته بين الزيتون؛ دخان غير كثيف يخرج من السطح؛ هدأت روح يسوع؛ قال عادت المرأتان، تقبعان قرب الموقد. لقد أشعلتا النار.

لنعد، قال للزنجي، ولا تفه بحرف؛ هما امرأتان، أشفق عليهما.

انصرمت أيام. في إحدى الأمسيات رأى عابراً غريباً، شبه ثمل. كان اليوم هو السبت، يسوع لا يعمل؛ يجلس في عتبة الباب، على ركبتيه أصغر أبنائه وبناته، كان يلعب معهما. مغتبطاً وبعد الظهر تبدل الطقس. انتشر الغيم قرمزياً، وراح يبحر نحو المغيب. والسماء، بين السحاب، خضراء كالبراري. كانت حمامتان تهدلان في الشرفة. كانت مريم جالسة في قربه ثقيلة الصدر.

وقف المارّ، رمى يسوع بنظرة تلميمية وجعل يضحك:

ـ يا أنت، يا معلم أليعازر، بختك طيب! الأعوام تمر أمام بابك وترحل، وتبقى أنت قاعداً، كالبطريرك يعقوب مع

امرأتيه، ليا وراشيل Rachel& Lia، مع امرأتيك، مرتا ومريم. الواحدة، كما قيل لي، مكلفة بإدارة المنزل، والثانية للعناية بك، وأنت بكل الأعباء ـ الخشب، الأرض، المرأة. والله. إنما اخرج إذن قليلاً، ضع أنفك خارج الباب، ضع يديك أمام عينيك كواقية وانظر ما يحدث في البعيد، في العالم .....أنت سمعت الكلام عن بيلاطس، بيلاطس البنطي؟ ـ يمكن أن يحترق بنار خفيفة في جهنم!

ابتسم يسوع الذي عرف العابر نصف السكران، قال:

يا إسماعيل بن سيرين، يا رجل الله والخمر، أهلاً وسهلاً بك، خذ كرسياً واقعد. يا مرتا، هات الخمر لصديقك الطيب.

جلس العابر على الكرسي وتناول الكأس بيديه، قال متباهياً:

كل الناس يعرفوني، كل الناس قدموا يقدمون وفاءهم في حانتي. وكذلك أنت، معلم أليعازر. إنما لا تحول الحديث. أسألك إن كنت سمعت ما يقال عن بيلاطس، بيلاطس البنطي. هل رأيته يوما؟

وصل الزنجي الصغير، استند إلى حاجب الباب وأصغى.

ــ غيمة خفيفة، رد يسوع مجاهداً أن يتذكر، سحابة رقيقة عبرت فوق رأسي وروحي. عينان زجاجيتان. رماديتان كعيني باشق، وضحكة مضمخة بالهزء والسخرية وخاتم ذهبي؛ هذا كل ما أذكر. وجلب له إبريق فضي ليغسل يديه؛ لا

شيء آخر. هذا حلم ولابد، ضبابة روحية، الشمس الساطعة، توارت. إنما الآن وأنت تدفعني للتفكير، يا سيرين، أتذكر. لقد آلمني هذا كثيراً في أثناء النوم.

ـ لعنة الله! سمعت إن الحلم في عيني الله أثقل من الواقع قبل النوم.

ـ إيه حسناً، لقد عذب الله بيلاطس. وصلبه!

أطلق يسوع صرخة:

ـ صلب!

لماذا فزعت؟ وقع هذا! البارحة صباحاً. وجد مصلوباً. اضطرب رأسه؛ لم يستطع أن يغمض عينيه، نهض، أخذ إبريقاً وعاش لياليه وهو يغسل يديه صارخاً: " اغسل، أنظف يدي، أنا بريء! " لكن الدم كان يرفض الزوال عن يديه، يعود إلى الماء، ينهض ثانية ......

يخرج، يرحل ليطوف في غولغوتا، لا يجد مكاناً يرتاح فيه. كان عنده خادمان زنجيان أمينان، يأمرهما كل مساء: خذوا قضيب الثور، اجلدوني. يجمع الشوك، يشكل تاجاً ويغرسه في رأسه، يسيل الدم،

ـ أذكر ..... أذكر ...... أذكر، تمتم يسوع، وكان من وقت إلى آخر ينظر نظرة خائفة إلى العبد الصغير الذي كان يصغي، مستنداً إلى حاجب الباب.

ثم بدأ يشرب؛ دار حول الحانة ــ المطعم، وأتى إلى

مطعمـي، احتـسى، صـار ديكـاً، خنزيـراً... مـسكته امرأتـه برعب ثم تركته. أتت أوامر من رومـا، أهملـت... أتـسمع، معلـم أليعازر؟ لماذا تتنهد أو تتأفف؟

قرب يسوع وجهه من الأرض ولم يجب. ذهب الزنجي ليملأ كأس سمعان السرياني.

اسكت، همس يسوع بهدوء في أذنه، اذهب من هنا!

لكن سمعان زعل:

لمـاذا تـسكتني؟ أخـيراً باختـصار: البارحـة في الـصباح الباكر، وجد بيلاطس البنطي في قمة الجلجلة مصلوباً!

شعر يسوع بألم حاد في قلبه، كما لو أصيب بسهم. وقد انتفخت العلامات الأربع الزرقاء في يديه وقدميه، واحمرت...

رأته مريم شاحباً، دنت منه وداعبت ركبتيه:

ـ حبيبي، أنت متعب. ادخل وتمدد.

كانت الشمس قد غابت؛ صار الهواء رخواً. أخذ الزنجي الـصغير سمعـان مـن ذراعـه؛ لقـد ثمـل تمامـاً، لقـد تحـدث مـا يكفي، نام . أنهضه الآخر بغتة وجره خارج القرية.

ـ أنت تهذي، قال له بغضب، إليك عنا! ودله إلى الدرب المؤدي إلى القدس.

رجع الزنجي إلى البيت قلقاً، كانت عينا يسوع النائم، في ورشته، مركزتين في المنور. كانت مرتا تعد الغداء، وكانت مـريم تحلـب آخـر نعجـة ولـدت وتتأمـل الرجـل بـصمت. دخـل

الزنجي؛ عيناه تقدحان غضباً.

ـ ذهب، كان ثملاً تماماً؛ لا يعي شيئاً مما يقول.

التفت يسوع وتأمله بتبرم. عض شفتيه؛ كان يخشى الكلام. واستدار ثانية نحو الزنجي كمن يطلب منه العون. لكن هذا وضع إصبعاً على شفتيه وابتسم له:

ـ نم، نم...

أغمض يسوع عينيه، وانفتحت شفتاه، اقتحمت تجاعيد جبينه، ونام. في صباح الغد، عند اليقظة، شعر بالفرح والطمأنينة، كمن نجا من خطر محدق. وكان الزنجي قد استيقظ أيضاً، نظف الورشة، وضحك في عبه.

ـ سأل يسوع لماذا تضحك؟ وهو يطرف بعينيه.

أضحك من الناس، يا يسوع الناصري، قال بصوت وطيء لكي لا تسمعه النساء. بكم رهبة يجب أن يمر روحك في كل برهة! إلى اليمين هوة، إلى اليسار هوة، من الخلف هوة، من الأمام فقط حبل ممتد إلى الجحيم!

ـ في لحظة، قال يسوع مبتسماً، تعثر روحي بالحبل وظننت أني منهار إلى الجحيم خلال ثواني. لكني نجوت!

دخلت المرأتان، تبدل الحديث. أوقدت مرتا النار في الموقد، بدأ النهار. سارعت زرافة من الأطفال إلى الدار بضحك صاخب وراحوا يلعبون بالغميضة.

قال يسوع باسماً:

ـ يا مريم، كم ولداً عندنا؟ مرتا، ملأت الدار منهم. يجب توسيع النار، أو الكف عن الإنجاب.

أردفت مرتا: يجب توسيع الدار

قريباً سيتسلق النشأ جدران وأشجار الدار كالفئران والسنجاب. لقد أعلنا الحرب على الموت، يا ماري. لتبارك أحشاء المرأة. فهي مليئة بالبيوض، كأحشاء السمك وكل بيضة إنسان. فقد خسر الموت فوقيته وسيادته.

ـ ردت مريم فقد الموت فوقيته، يا حبيبي، ونحن مدينون بهذا لك.

كان يسوع طيب المزاج، أراد أن ينكدها. ومن ثم أرضته مريم جداً في ذلك اليوم، فلم تكد تنهض حتى سوت شعرها، ووقفت أمامه.

قال لها:

ـ ماري، أنت لن تفكري أبداً بالموت، أنت لا تلتمسين رحمة الله، ألن تقلقي على مصيرك في العالم الآخر؟

أرسلت مريم شعرها الطويل وابتسمت:

هذه من اهتمامات الرجل، أنا أبتهل لرحمة الله، ادفع رحمة الرجل. أنا لا أقرع باب الله لأتسول أفراح الجنة الأزلية. أعانق الرجل الذي أحب ولا أريد جنة أخرى. الأفراح الأبدية للرجال.

رد يسوع :

ـ الأفراح الأبدية للرجال؟ قال وراح يداعب كتف مريم العاري. الأرض مجال ضيق، أيتها المرأة الحبيبة. كيف تغلقين نفسك فيه ولا تودين الإفلات منه؟

ـ المرأة ليست سعيدة إلا ضمن حدود، أنت تعرف هذا. يا معلم. المرأة صهريج، وليست نبعاً.

دخلت مرتا مسرعة:

ـ أحد الناس يبحث عن بيتنا، وهو في الباب. هو ربع القد وأحدب، رأسه أملس كبيضة. وصل مهرولاً.

دخل الزنجي بدوره، لاهثاً بشدة:

هيئته لم ترضني، سأغلق فتحة أنفه. وهذا شخص آخر يعكر مزاجنا.

نظر يسوع إلى الزنجي نظرة خائفة:

ـ مم تخاف؟ من هو الشخص الذي تخشاه؟ افتح الباب

طرف الزنجي بعينه، قال بصوت خفيض

ـ اطرده!

ـ لماذا؟ من هو؟

اطرده، كرر الزنجي، ولمَ تطرح أسئلة.

تأثر يسوع:

ألستُ حراً؟ ألا أفعل ما أشاء؟ افتح الباب!

ضجت خطوات في الشارع وتوقفت. وقرع الباب.

سأل يسوع من هناك؟ وانطلق إلى الدار

رد الغريب بصوت ضعيف مصدوع:

ـ رسول من عند الله، افتح!

فتح الباب. كان واقفاً في العتبة رجل سمين، أحدب، أصلع الرأس، فتى. كانت عيناه ترسلان شرراً. والمرأتان اللتان سارعتا لترياه، تراجعتا.

قال الزائر فاتحاً ذراعيه:

ابتهجوا واطمأنوا، يا أخوة، أحمل لكم النبأ الطيب!

حدق إليه يسوع، جاهداً في التذكر أين رآه، وهنا دبت في جسده كله قشعريرة قاسية.

من أنت؟ يخيل لي أني رأيتك في مكان ما. في قصر كاييف؟ مصلوباً؟ انكمش الزنجي في زاوية من الدار، وقال ساخراً:

هذا رسول، سول شارب الدم البشري

أنت سول؟ قال يسوع، مرعوباً.

كنت، لكن لم أعد دموي. رأيت النور الحقيقي. أنا بولص. ممجد اسم السيد المسيح، نجوت ورحلت لأنقذ العالم. ليس يهودا، ليس فلسطين، الأرض كلها. النبأ الذي أحمله معي ينشد بحاراً، مدناً بعيدة، مجالاً واسعاً. لا تهز رأسك، معلم أليعازر، لا تضحك، لا تسخر؛ سأنقذ العالم!

أجاب يسوع

أنا قادم من حيث تذهب أنت، يا بني، لما كنت شاباً

كسيادتك، أذكر، كنت أنا أيضاً أهدف إنقاذ العالم. هذا أمر طبيعي، الشاب، كل شاب مرتهن لفداء العالم! مشيت حافي القدمين، رث الثياب، يلفني حزام يحمل مسامير، مثل الأنبياء القدماء، وكنت أصرخ: محبة! محبة! وأشياء أخرى لا أريد أن أتذكرها. استقبلت بالبندورة، أشبعت ضرباً وأعددت للصلب. هذا ما ستلقاه أنت أيضاً، يا بني! كان يسوع مستثاراً مغتاظاً، فنسي أنه كان يلعب دور المعلم أليعازر وكشف السر لشخص أجنبي.

خاف الزنجي؛ تدخل لتحويل الحديث.

لا تكلمه، يا معلم، أنا أيضاً عندي أشياء أقولها له، دعني أحدثه.

التفت إلى الغريب.

ـ ألست أنت، يا ملعون، من قتل ظلماً، من غير مبرر، مريم المجدلية؟ ما تزال يداك ملطخة بالدم. أهرب من هذا البيت المحترم.

هذا أنت! أردف يسوع مرتعشاً.

هذا أنا، أجاب بولص وزفر نفساً عميقاً. أضرب نفسي، أمزق ثيابي وأصرخ: هذه خطيئتي! هذه خطيئتي! فقد تلقيت أمراً مكتوباً بقتل من يخرق الشريعة الموسوية. قتلت كل من تمكنت من قتله ورجعت نحو دمشق. آنئذ، فجأة، انبعث من السماء بريق رماني أرضاً. ولقد بهرني هذا البريق بقوته، وما

عـدت أرى شـيئاً. سمعـت فـوق رأسـي صـوتاً مـشبعاً بالعتـب والتجريح والتوبيخ: "سـول، سـول، لماذا تـضطهدني؟ مـاذا فعلت لك؟ ـ من أنت، يا سيد؟ صرخت. أنا يسوع الذي عذبته. انهض، أدخل دمشق، وهناك يقول لك المخلصون لي ما عليك أن تفعل" نهضت وثباً، كنت أرتعد، كانت عيناي مفتوحتين ومع ذلك ما كنت أرى شيئاً. أخذني رفاقي من يدي وأدخلوني إلى دمشق . إلى البيت الذي نزلت فيه أتى أنانياس، تلميذ يسوع، ليباركه الله! وضع يده على رأسي وصلى: "يا يسوع، أعطه نورك، ليجوب الأرض كلها، معلنا النبأ الطيب!" لم يقل هذا حتى سقطت الغمامة عن عيني، رأيت النور، عمدت نفسي، وبالعمادة صرت بولص، نبي الأمم، أكرز، في البر والبحر، بالنبأ الطيب.

ــ ماذا دفعك لتفتح عينيك وتراني؟ لماذا نهضت، معلم أليعازر؟ طاف يسوع كل أرجاء الدار، مكبلاً قبضتيه، الزبد على شفتيه؛ رأى امرأتيه واقفتين في الركن، شاحبتين، رأى أولاده الذين كانوا يبكون، متشبثين بأثواب أمهاتهم.

اذهب، أمر، اتركنا وحدنا! اقترب الزنجي، مهتاجاً ليكلمه لكنه دفعه بغضب:

ألست حراً؟ قال له. لن أبقى هنا، سأتكلم! التفت نحو بولص، كان مرتعش الصوت:

أي نبأ طيب؟

يا يسوع الناصري، لقد سمعته يتكلم عنه، أليت ابن يوسف ومريم، هو ابن الله الذي نزل إلى الأرض، أخذ جسداً بشرياً، ليفتدي العالم. اعتقله الكهنة والفريسيون الجائرون. اقتادوه إلى بيلاطس وصلب. لكنه في اليوم الثالث قام وصعد إلى السماء. قهر الموت، يا إخوة، امحت الخطايا، وفتحت أبواب الجنة!

رأيته يقوم، هو يسوع الناصري. زعق يسوع. رأيته بأم عينيك؟ كيف كان؟

برق، برق كان يتكلم.

ـ كاذب!

تلاميذه رأوه. كانوا مجتمعين، بعد الصلب، في بيت المؤونة وكانت الأبواب مزلجة. على حين غرة أتى، بقي واقفاً بينهم وقال لهم: " سلام لكم! " رأوا كل شيء. انبهروا: توما لم يشأ أن يصدق، وضع إصبعه في الجروح وأعطاه سمكة ليأكلها ....

ـ كاذب!

كان بولص متهيجاً، وجسمه المقوس انبسط، وأرسلت عيناه لمعاناً وبريقاً.

ـ لم يولد من رجل، كانت أمه عذراء. نزل الملاك جبرائيل من السماء وخاطبها: "سلام لك، يا مريم! " والكلمة سقطت كبذرة في بطنك. هكذا ولد.

ـ كاذب... كاذب!

وقف بولص، مندهشاً. نهض الزنجي وأزلج الباب؛ سمع الجوار الصراخ، فتحوا أبوابهم وأصغوا؛ عادت المرأتان إلى البيت، مرعوبتين، لكن الزنجي حبسهما أيضاً في البيت. كان يسوع شديد الهياج، لم يستطع إن يمتلك شعوره؛ دنا من بولص، أخذه من ذراعه وجعل يهزه:

ـ كاذب! كاذب! صرخ به. أنا هو يسوع الناصري، لم أصلب أبداً، ولم أقم، أنا ابن مريم ويوسف النجار، ابن الناصرة، لست ابن الله، أنا كالآخرين، ابن الإنسان. ما هذه الأراجيف والتجديفات والخزي والأكاذيب؟ بمثل هذه الترهات تجرؤون الادعاء بإنقاذ العالم، يا مجرم؟

ـ أنت؟ أنت؟ تمتم بولص مندهشاً. بينما كان المعلم أليعازر يحكي ويزبد، رأى بولص على يديه ورجليه شارات زرقاء، وكآثار المسامير وجرحاً في قلبه.

ـ فيم تدور عيناك؟ زعق يسوع، فيم تحدق بيدي وقدمي؟ الشارات التي تراها، طبعها الله ـ الله أم الغواية؟ لم أستطع أن أحصل على جواب ـ في أثناء نومي. حلمت أني صلبت وعانيت، لكني صرخت واستيقظت؛ واستكنت. ما كان علي أن أتحمله في أثناء اليقظة، حدث في النوم، وفررت منه.

ـ صه! صه! زعق بولص وهو يضغط على صدغيه من الخوف الذي لم يعلنه. صه!

لكـن يـسوع لم يـستطع الـسكوت. فقـد تخيـل إن هـذا الكلام مكنوز في قلبه منذ أعوام والآن فتح قلبه وانتشر ما فيه. تعلق الزنجي بذراعه:

" اسكت، اسكت، قال له، لكن يسوع، بدفعة رماه أرضاً والتفت إلى بولص:

نعم، نعم، قلت كل هذا لأسرّي عن نفسي! ما يجب أن أتحمله في يقظتي، تحملته في الحلم، فررت من كل شيء وأتيت إلى هذه الضيعة المتواضعة باسم آخر " بوجه آخر وأعيش حياة إنسان ـ آكل، أشرب، عندي أولاد ـ الحرائق الكبرى همدت، وأنا صرت، كالآخرين ناراً طيبة هادئة. قعدت هادئاً أمام الموقد، وتطبخ امرأتي الوجبة للأولاد. سافرت لأكسب العالم وألقيت المرساة في هذا المرفأ العائلي. انتبه: ما عندي ما أشكو منه، أنا ابن الإنسان، أقول لك، لست ابن اللّه. ولن أطوف أرجاء الدنيا لاكرز بالترهات. سأنهض وسأعلن الحقيقة.

انطلق بولص بدوره.

ـ أطبق هذا الفم الصفيق! زعق وهو يهجم عليه. اسكت، إن سمعك الناس لقطعت أذرعهم وأرجلهم. في تفسير، ظلم وفقر هذا العالم، كان يسوع المصلوب القائم من القبر التعزيةَ الوحيدةَ والهامةَ للإنسان الشريف والمضطهَد. كذب أو حقيقة، وما يعنيني؟ يكفي أن يخلص العالم!

يفضل أن يظل العالم في هذه الحقيقة من أن يخلص

بالكذب. ففي قلب مثل هذا الخلاص توجد الدودة العظمى، الشيطان.

ما هي الحقيقة؟ ما هو الكذب؟ الحقيقة هي أن يعطى الإنسان أجنحة هي ما يخلق الأفعال العظيمة والنفوس الكبيرة وكل ما يجعلنا نرتفع فوق الأرض. الكذب هو ما يحطم أجنحة الإنسان.

ـــ هلا خرست، يا ابن الشيطان؟ هذه الأجنحة التي تقصدها، هي أجنحة إبليس.

لن أسكت. اسخر من الحقيقة والكذب. رأيتك أم لم أرك. إن كنت صلبت أم لا. أنا بالقوة الحيوانية، الحماس والإيمان، أصنع الحقيقة. لا أجهد نفسي لأعثر عليها، أصنعها أكبر من قامة الإنسان وبهذا بالذات أضخم الإنسان.

يجب، أتسمع؟ يجب بالتأكيد، ليخلص العالم، إن تصلب وأصلبك أنا، أم لا؛ يجب أن تقوم، وأقيمك أنا، أردت أم لا. وأن تبقى سيادتك في قريتك تصنع أسرّة، معاجن وأبناء. أنا، أعرف هذا، ألزم الهواء أن يأخذ شكلك، أن يصير جسدك، إكليل الشوك، المسامير، الدم، كل هذا يشكل الآن جزءاً من أدوات السلامة، لابد من هذا. ما لا يحصى من العيون، أبعد تخوم العالم، ستنهض وتراك مصلوباً في الهواء. سيبكون وستطهر دموعهم نفوسهم من الخطايا. إنما في اليوم الثالث سأقيمك لأن الخلاص يفرض البعث أو القيامة. الأخيرة، أرهب عدوّاً هو

الموت. سألغيه. كيف؟ بأن أقيمك، يا يسوع، ابن الله، المسيح!

ــ ليس هذا صحيحاً! سأنهض وأصرخ: لم أصلب، ولم أبعث حياً، لست الله! لمَ تضحك؟

اصرخ ما طاب لك، إن كان هذا يسليك، أنا لا أخافك، ولست بحاجة لك، العجلة التي حركتها قذفت، من يقدر الآن أن يوقفها؟ هذا صحيح، بينما كنت تتكلم تمنيت أن أنقض عليك وأخنقك خوفاً من أن تذهب وتعلن من أنت والناس لم يروك مصلوباً. لكني تراجعت على الفور لأني أقنعت نفسي واطمأننت. أنك لن تصرخ أبداً. فإن فعلت سيقبض عليك مريدوك ويصعدونك إلى أعلى كدست الحطب، كمجدف، ويحرقونك!

أنا لم أقل سوى شيء واحد، لم أحمل سوى رسالة واحدة، المحبة، المحبة، لا شيء آخر.

قلت محبة وحررت كل الملائكة والأبالسة التي تنام بين جوارح الإنسان. ليس هذا كما تظن، كلمة بسيطة، وانتهى الأمر، أنها تنغلق على دماء ودماء، على جيوش تتصارع ومدن تهرق. أنهاراً من الدم، أنهاراً من الدموع. وجه الأرض تبدل. الآن اصرخ وليبحّ صوتك ما طاب لك، ليس هذا ما أردت أن أقول، ليس هذا هو المحبة، لا تقتتلوا، نحن جميعاً إخوة، قفوا! لكن البؤساء لم يسمعوا. وكان ما كان.

تضحك كالشيطان.

اضحك كرسول، وسأكون رسولك إن شئت أم لا.

سأصنعك أنت، حياتك، معارفك، صلبك وبعثك، كما فهمت وسمعت ليس يوسف، نجار الناصرة، هو الذي ولدك، بل أنا، بولص تارس من سيليسيا Paul de Tarse en Cilicie

ـ لا أريد! لا أريد!

ــ من طلب رأيك؟ لست بحاجة لإذنك. كيف تتدخل بعملي؟

سقط يسوع فوق درج الباحة. طمر رأسه بين ركبتيه، يائساً. كيف يصارع إبليساً كهذا؟

ـ كيف يخلص العالم بك، يا معلم أليعازر؟ كان بولص أتى وهبط فوق يسوع، تكور على ذاته، وكلمهُ بازدراء، أي مثل عظيم تعطيه لتنبت له أجنحة، أنا من يتبعه العالم إذا أراد أن يخلص!

نظر حوله كانت الدار عزلاء، الزنجي منكمش في زاوية، يحدق بعينين واسعتين بيضاوين ويعوي ككلب الراعي المربوط. كانت المرأتان مختفيتين، كان الناس ذهبوا. لكن بولص، كمن يرى الدار ممتدة على المدى، صارت مضماراً شاسعاً، غاصاً بالناس، وثب إلى الدرج الخارجي وبدأ يكرز بجمهرة غير مرئية:

إخوتي، ارفعوا عيونكم وانظروا. من جهة المعلم أليعازر، من جهة أخرى، خادم يسوع؛ اختاروا، إن شئتم الذهاب معه، المعلم أليعازر، ستعيشون حياة متواضعة رتيبة تحت النير،

ستحيون وتموتون كما تحيى وتموت الخراف، تترك وراءها شيئاً من الصوف، بعض الثغاء وكثير من الزبل. إن أتيتم معي سيكون أمامكم المحبة، النضال، الحرب، سنكسب العالم! اعلموا: من جهة المسيح، ابن الله، سلام العالم، من الجهة الأخرى المعلم أليعازر.

كان متحمساً، يشمل بعينيه عين النسر الدائريتين كل الرهط غير المرئي حوله. كان دمه يغلي، الباحة ترتج، الزنجي والمعلم أليعازر اختفيا. سمع صوتا في الهواء:

ـ يا رسول الأمم، ياذا النفس العظيمة، من يجبل الكذب بدمك والدموع ويجعل منها حقيقة، خذ الطليعة، قدنا. إلى حيث نذهب؟

فتح بولص ذراعيه ما استطاع ليعانق كل العالم وصرخ:

إلى أي مدى ترى عين الإنسان؛ أبعد من هذا أيضاً، إلى أين يقدر أن يرحل قلب الإنسان! العالم كبير، فمجد اسم الله! فبعد أرض إسرائيل، ثمة مصر، سوريا، فينيقيا، الشرق، اليونان والجزر الملكية الكبيرة، قبرص، رودس، كريت، وأبعد من هذا، روما، وبعدها البرابرة بجدائلهم الطويلة الشقراء وبلطاتهم ذات النصلين. فرح متميز، السفر صباحاً، ونصعر وجوهنا لهواء الجبل والبحر، ونحمل بيدنا الصليب، نغرسه بين الحجارة وفي القلوب والترحال إلى أربع جهات العالم، لنفرح إن سخروا منا، إن ضربونا، إن رمونا في حفرة

وقتلونا من أجل المسيح!

عاد إلى نفسه، هدأ، امحى الرهط غير المرئي في الفضاء، التفت ورأى يسوع الذي كان الآن مستنداً إلى الجدار، يسمعه، مضطرباً.

ـ من أجل المسيح، ليس من أجلك، معلم أليعازر، وفي الحق، للذات! لم يعد يسوع يطيق احتمالك، وانخرط بالبكاء. اقترب منه الزنجي:

ـ يسوع الناصري، قال له، بصوت خافت، تبكي، لماذا تبكي.؟

كيف يمكن، يا مرافقي السري، تمتم يسوع، هل ترى أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ العالم هو البكاء؟

نزل بولص عن الدرج، كانت شعرات رأسه النادرة تدخن. سحب نعليه، طرد عنهما الغبار واتجه نحو الباب.

لقد نفضت غبار البيت بنعلي، وداعاً! قال ليسوع، الذي بقي واقفاً، متبرماً، في وسط الدار. كل جيداً، واشرب جيداً، عانق جيداً، معلم أليعازر، العجوز السعيدة! لا تسمح لنفسها أن تتدخل بما أفعل، لكي لا تضيع، أتسمع، معلم أليعازر؟ تضيع، أو تضل! إنما لا تشك بفرحي بلقائك؛ أنا خلصت؛ ما أريده هو، أن أتخلص منك، وهذا حدث. الآن، وأنا حر، لم أعد إنساناً لأقلق، وداعاً!

بعد هذا رفع مزلاج الباب وبوثبة واسعة صار في الطريق

المتجه إلى القدس.

أسرع، ثنى كميه وركض كذئب جائع؛ سيكتسح العالم... قال الزنجي. خرج إلى عتبة الباب وأرسل نظرة وحشية.

التفت، ليداور يسوع بقوة الإقناع والممالأة ليتدارك الروح الخطر الذي نزل من السماء، ليعالجه. لكن يسوع تخطى العتبة، وقف في وسط الشارع، حدق بضيق وتهور إلى الرسول الوحش الذي كان يبتعد راكضاً. ذكريات وأهواء مخيفة، كان نسيها، عادت إليه.

أخذ الخوف بتلابيب الزنجي، فتناوله من يده:

يسوع، قال بصوت خافت، لأمر، يسوع الناصري، رأسك مضطرب؛ لماذا تحدق إليه؟ ادخل!

لكن يسوع، شاحب اللون، الساكت، ارتج بعصابية وترك يد الملاك.

ـ ادخل، كرر الآخر غاضباً. اصغ لما أقول لك؛ أنت تعرف من أنا

دعني! غمغم يسوع، ونظرته مثبتة على بولص الذي كان يتوارى في طرف الشارع.

ـ تود أن تذهب معه؟

ـ دعني! غمغم يسوع من جديد، بحيث كانت أسنانه تصطك حتى الانحطام؛ وعلى حين غرة جعل يرتعش.

مريم، صرخ الزنجي، مرتا! وتشبث بيسوع مانعاً إياه من

الإفلات.

سمعته المرأتان وسارعتا إليه، ووراءهما هرع الأبناء، انفتحت أبواب الجوار، سارع الناس وأحاطوا بيسوع. كان واقفاً وسط الشارع، أبيض كالغسيل. فجأة أغمضت عيناه وبهدوء، وتؤدة، سقط أرضاً.

أحس أنهم ينهضونه، يمددونه، يفركون له صدغيه بماء زهر البرتقال ويضغطون على صدره ليتنفس ويشم الخل المعطر. فتح عينيه، رأى امرأتيه وابتسم. ورأى الزنجي ومسكه من يده.

حافظ علي جيداً ولا تدعني أهرب، أنا فرح هنا.

(31)

كان يسوع قاعداً تحت العريشة القديمة؛ لحيته البيضاء المرسلة تغطي صدره المكشوف . كان يوم الفصح؛ كان قد استحم، ارتدى ألبسة نظيفة، عطر رأسه، لحيته، إبطيه؛ كان الباب مقفلاً، لا أحد قربه؛ امرأتاه؛ أولاده وأحفاده يلعبون في البيت ويضحكون والزنجي، منذ الصبح، صعد إلى سطح البيت، تطلع باتجاه القدس، صامتاً، غاضباً.

تأمل يسوع يديه، كانتا غليظتين جداً ومشوهتين، عروقه، الزرقاء، الجافة، بارزة وعلى ظهر كل يد بدأ الجرح العتيق المبهم يمحي ويتوارى... هز رأسه الأبيض المغضن وتنهد:

مرت الأعوام بسرعة، وشخنا! وكذلك النساء، وأشجار الدار والأبواب والنوافذ، والحجارة التي أدوسها...

خاف، أغمض عينيه. وشعر بالزمن يسيل من قمة رأسه، يجتاز عنقه، صدره، شرايينه، ساقيه، ويضيع عند قدميه، كالماء.

وأتت لتقعد عند قدميه. وضع يسوع يده على شعرها الذي كان أسود وصار هو الآخر أبيض. وغمرها بحنان صعب وصفه: "بين يدي ابيضّ شعرها وتجعّد محياها، قال لنفسه..." دنا منها وخاطبها:

كم مرة، يا مريم الحبيبة، تذكرين، كم مرة عادت السنونو منذ ما وطأت قدماي بابكم كمعلم؟ وكم مرة ومرة احتضنتك، وكم مرة بذرنا الحبوب، ثم حصدناها، وقطفنا الزيتون سوية؟ ابيض شعرك، يا مريم، يا زوجتي الرقيقة، وابيض أيضاً شعر مرتا المقدامة الباسلة.

نعم يا حبيبي، لقد شبنا، ردت مريم. الأعوام تغر... إن هذه العريشة التي تظللنا الآن. زرعناها يوم ضمنت قدر الأحدب اللعين ومددت له يد العون، أتذكر؟ منذ متى ونحن نأكل عنبها؟

انزلق الزنجي من دون ضجة إلى أسفل جدار الشرفة وقبع أمامهم. نهضت مريم وغادرت. إنها لا تود هذا الخادم الغريب؛ هو لا يكبر، لا يشيخ، هو ليس رجلاً، هو روح رديء. دخل البيت ولا يريد أن يغادره، وعيناه كما هي، ساخرة وفاسقة، هو غير راض أبداً، حتى عن الحديث الذي أجراه مع يسوع، في الليل بصوت خافت.

اقترب الزنجي، بعينيه المليئة بالسخرية وأسنانه اللامعة، البيضاء والحادة، قال هامساً :

يا يسوع الناصري، الآن اقتربت النهاية.

التفت يسوع، فجأة:

ـ أي نهاية؟

وضع الزنجي إصبعه على شفتيه:

ـ النهاية دانية، كرر، أقعى قبالة يسوع وحدق إليه باسماً :

ـ ستتركني؟

عبر يسوع بغتة عن بهجة، واطمئنان غريب.

ـ نعم؛ هي النهاية.لم تضحك، يا يسوع الناصري؟

سفر ميمون،أيها الزنجي. ما أردته، حققته؛ لم أعد بحاجة لك.

ـ أهكذا تبتعد عني، يا جحود؟ عبثاً إذن كان كل ما تعبت من أجلك، خلال سنين لأوفر لك كل الأفراح التي تشتهيها؟

ـ إن نويت خنقي كنحلة في العسل لضاع جهدك أيها الزنجي. أكلت عسلاً حتى سكرت، ما استطعت، لكني لم أغرق جناحي.

ـ أي أجنحة، يا مدعي الرؤى؟

ـ روحي.

أطلق الزنجي ضحكة صاخبة خبيثة:

ـ أتظن أن لك روحاً، أيها المسكين البائس؟

نعم، وهي لا تحتاج لملاك حارس ولا لزنجي؛ هي حرة.

التهب الملاك الحارس غضباً، زعق

متمرد! انتزع حجراً من الأرض، هرسه بيديه، أحالهُ غباراً وذره في الهواء، قال:

حسناً، سنرى. واتجه إلى الباب وهو يجدف.

تردد صراخ مستوحش، نواح ونحيب، صهيل خيول، غص الطريق العام بأرهاط بشرية تركض وتصرخ:

القدس تحترق! احتلوا القدس! ضعنا.

أقام فيها الرومان منذ أشهر، لكن إسرائيل تضع ثقتها بيهوه jehavoh، هي أكيدة من هذا – المدينة المقدسة لا يمكن أن تحترق المدينة المقدسة لا تخشى شيئاً: وراء كل باب من أبوابها يوجد ملاك يشهر سيفاً. وهنا... سارعت النساء إلى الشارع، يندبن وينتفن شعورهن. الرجال يمزقون ثيابهم ويلتمسون ظهور الله. نهض يسوع، أخذ مرتا ومريم بيديه، أعادهما إلى البيت وأزلج الباب:

لماذا تبكين، قال لهما بشفقة، لماذا تقاومان إرادة الله؟ اصغيا إلى ما أقول ولا تخافا أبداً: الزمن نار أيتها النساء المحبوبات، الزمن نار، يأخذ الله مشعلاً ويشوي كل عام حملاً فصحياً. هذا العام القدس هي الحمل، في العام القادم ستكون روما، وبعد عام...

ـ اسكت، يا معلم، غمغمت مريم. لقد نسيت أن النساء لا يقدرن على تحمل هذا...

عفواً، مريم، قال يسوع، نسيت هذا، القلب ينسى، القلب لا يرحم عندما يلتزم بالسير في درب جبلي....

وهما يتكلمان سمع وقع خطى في الشارع، صدوراً تلهث، وعصياً غليظة تخبط الباب بعنف.

سارع الزنجي. قبض مزلاج الباب ورأى يسوع مع ابتسامة هازئة:

ـ افتح؟ سأل، ماسكاً بصعوبة بسمته؛ هؤلاء هم رفاقك السالفون.

رفاقي السالفون؟

ستراهم! قال الزنجي، وفتح الباب على مصراعيه.

رأى يسوع في العتبة، لفيفاً من الشيوخ العاجزين، يجرون نفسهم في الدار، لا شكل لهم، لا يمكن تمييزهم، يستند الواحد على الآخر، أشبه بالمتلاصقين ولا يقدر أحد أن يترك الآخر.

خطى يسوع خطوة وتريث. سيمسك أحدهم ويرحب بهم، لكن مرارة مفاجئة قاسية أخذت بخناقه؛ مرارة، غيظ ورحمة. ضغط أصابعه وانتظر. انتشرت رائحة نتنة خبيثة، رائحة فم، شعر محروقاً، وحروقاً تنز؛ فسد الجو. تسلق الزنجي الحجر ـ المقعد، وتأملهم ضاحكاً.

خطى يسوع خطوة أخرى والتفت نحو الشيخ الذي يجر الآخرين وراءه.

ـ تعال هنا، أنت الذي تقود الآخرين، قال له، دعني أبعد عنك الغطاء الذي منّ عليك الزمن به، لأعرف من أنت. قلبي يخفق، لكن هذه الأجساد المعلقة والعيون الدامعة، لم أعرفها.

ألم تعرفني، يا معلمي؟

ـ بطرس! هذا أنت، الصخرة التي أردت في أثناء الفتوة أن أبني عليها كنيستي؟ في أي حال أراك؟ يا ابن يونان! لم تعد صخرة، صرت اسفنجة كلها ثقوب.

ـ السنون، يا معلم...

ما شأن السنين؟ هذا ليس غلطة السنين. مادامت الروح واقفة. يبقى الجسم مستقيماً ولا تدع السنون تدركه. روحك سقطت، يا بطرس، هي روحك!

لقد حررتني دوامة الحياة وأهوالها، تزوجت، أنجبت، جرحت، رأيت القدس تحترق، أنا إنسان، هذا سحقني بل هدني...

أنت إنسان، هذا هدك... تمتم يسوع، يغص بالشفقة. بطرسي المسكين. حيث يوجد العالم اليوم، يجب أن يكون الله والشيطان من أجل الصدام والكفاح والممانعة.

واستدار نحو الآخر، من يقبع خلف كتف بطرس:

وأنت؟ قال، هز أنفك، وجهك كجمجمة ويغص بالبثور،

كيف لي أن أعرفك؟ احك إذن، يا رفيقي الطيب، اصرخ قليلاً: ربي! ربما تذكرتك.

صرخ الثوب الرث بكل قوته:

ربي، ثم طأطأ رأسه وسكت.

جاك بكر زيبيدي، الرأس الضخم، والقد الربع!

ماذا بقي، يا معلم، قال جاك وهو ينخر عاصفة هوجاء أقعدتني، الزورق تشقق، الهيكل تحطم، السارية تقصفت. الغريق فقط عاد إلى المرفأ.

ـ أي مرفأ؟

ـ أنت ذاتك، يا معلم.

ـ ماذا تريد أن أفعل؟ لست مرساة بحرية لأقيك ما سأقوله لك سيكون قاسياً: ليس لك الآن أي مرفأ، يا جاك، سوى قعر البحر. اثنان + اثنان = أربعة كما يقول أبوك زيبيدي.

بغتة تلبسه الضيق والغيظ. التفت نحو مشكاك آخر من العجزة:

و أنتم الثلاثة؟ عجباً، أجسام ضخمة مخلعة، ألم تكن ناثانائيل في الزمن السالف؟ كنت رخواً لك فخذان وبطن عامر وغير ذلك، ماذا فعلت بجسمك الصلب، ناثانائيل؟ لم تكن إلا ورشة لبيت من ثلاثة أدوار، لم يبق سوى الهيكل. إنما لا تتأفف: هذا يكفي لتصعد إلى السماء.

حرد ناثانائيل:

أية سماء؟ أنا لم أتبعك لأخسر أذنيّ، أصابعي وإحدى عيني، أنا جئتك لأقول إن كل ما كررته لنا، الأبهة والريش المشكوك بالقبعة، والعظمة، وممالك السماء، ليست سوى نشوة، ونحن بددنا هذه الأوهام. ماذا ترى، أنت يا فيليب، ألست محقاً؟

ماذا تريد أن أقول لك يا ناثانائيل؟ أجاب متنهداً عجوز مسكين بين هذه الكومة من البشر. ماذا تريد أن أقول لك، يا أخ؟ أنا الذي سحبتك!

هز يسوع رأسه بشفقة وأخذ بيده العجوز المسمى فيليب:

أنا أحدب عليك كثيراً، يا فيليب، يا أمير الرعاة، لأن ليس عندك خراف؛ ما عندك سوى عصاك وتدفع الهواء أمامك. في الليل تخرج رياح الجهات الأربع وتأخذك إلى المراعي. تشعل النار تحت القدر، تغلي الحليب وتسيلُهُ من أعلى الجبل نحو السهل، لتشبع البؤساء. في قلبك كل الثراء؛ وفي الخارج، الفقر، العزلة، صيحات الاستهزاء والجوع، هكذا يجب أن يكون تلميذي! والآن... يا فيليب، يا أمير الشعراء، كيف سقطت هكذا إلى الأسفل! رغبت، للأسف، بخراف من لحم وعظم، وكديس من الصوف، وعرمة من اللحم، وضُعتَ!

أنا جائع، أجاب فيليب، أنا جائع، ماذا تريد أن أفعل؟

فكر بالله لتشبع، رد يسوع وبغتة قسى قلبه

استدار نحو العجوز المسكين الأحدب الذي كان ساقطاً

في حوض ويرتجف. رفع عنه الأسمال التي كانت تغطيه، وفتح له جفنيه؛ ولم يستطع أن يتعرفه. رفع شعره، وجد تحت الأذن الكبرى قطعة قصب مشقوقة ما تزال منغرسة. جعل يضحك.

أهلاً بصاحب الأذن الكبرى، قال وهو يحييه. طويلة، مستقيمة، يغطيها الوبر، تتحرك كأذن أرنب، يلفها الخوف، والحسد والجوع! أهلاً بالأصابع الملطخة بالحبر وبالمحبرة التي تخفيها في ثنايا صدرك! أما زلت تسود الورق، يا متّى، يا كاتبي؟ ما زالت ريشة القصب مشكولة فوق إذنك. مع هذه الحربة وقعت؟

ـ لم تسخر مني؟ أجاب الآخر، بضراوة. أتحول الأمر دوما إذن إلى الهزء؟ لقد بدأت، مع قدْر من الإبداع، بكتابة تاريخ حياتك. سأكون بنفس الوقت خالداً مثلك. وهنا؟ الطاووس فقد ريشة. ما كان هذا طاووساً، كانت هذه دجاجة. كل أتعابي ضاعت!

أحس يسوع فجأة أن ركبتيه خارتا، خفض رأسه؛ إنما رفعه بسرعة غاضباً، مد إصبعه نحو متّى، مهدداً:

ـ اسكت، اسكت، كيف تجرؤ؟

شيخ أعجف، أحول. زلق رأسه بين ساقي ناثانائيل وأطلق ضحكة خفيفة. التفت يسوع، وعرفه بسرعة:

ـ توما، الجهيض، أهلاً بك! أين زرعت أسنانك؟ ماذا فعلت بالشعر الذي كثفته فوق جمجمتك؟ ومن أي تيس انتزعت هذه اللحية الكثة ووضعتها على ذقنك؟ رجل المقاصد الخفية ذو العينين المنحرفتين، العجوز المرهق، توما، هذا أنت؟

أنا بقضي وقضيضي، بلحمي وعظمي، لم ينقصني سوى الأسنان، فقدتها على الدروب والشعر، وما تبقى في مكانه.

والروح والوعي؟

ديك حقيقي. يصعد على كوم القمامة، هو يعرف جيداً أنه ليس هو من يوقظ الشمس فتسطع، لكن هذا لا يمنعه من الصياح في كل صباح. لأنه يعرف متى يجب أن يصيح.

ـ وأنت كسفتها، يا أشجع الشجعان، لتنقذ القدس.

ـ كسفتها؟ لست أبلهاً إلى هذا الحد. قمت بدور النبي.

ـ النبي؟ من أنبت إذن أجنحة للنملة، برأيك؟ اللّه نفخ عليك؟

ـ ما علاقة اللّه هنا؟ روحي وحده وجد السر.

ـ أي سر؟

ـ إن هذا من شأن النبي، أنت تعرف هذا يا سيدي، إنما ربما نسيته.

ـ ذكرني إذن يا توما أيها الشيخ الداهية. ربما أحتاج هذا، من هو النبي؟

ـ النبي هو ذاك الذي عندما ييأس كل الناس، يكون هو الأمل؛ وعندما يأمل الآخرون، هو وحده ييأس. لم، تسألني؟ أنت تعرف السر الأعظم: إن الدولاب يدور ـ القصد تبادل الأدوار أو صروف الزمن تجعل الأول في الذيل والعكس صحيح.

ـ الكلام معك خطير، يا توما، قال يسوع وهو يطرف بعينه. في عينيك الحولاوان والحيويتان أرى ذيلاً وقرنين. وشرارة

من نور تحرق.

ـ الضوء الحقيقي يحرق، يا معلم، أنت تعرف هذا، لكنك رحوم بالعالمين، ولذا يعيش العالم في الظلمة؛ الرأس لا يرحم أحداً، ولهذا العالم يحترق ..... تؤشر لي أن أسكت، أنت محق، سكت، لا يجوز إفشاء الأسرار أمام هؤلاء الأبرياء، لا قوة لهم، واحد فقط يقاوم، هوذا.

من هو؟

سحب توما نفسه إلى باب الشارع وأشار، دون أن يلمسه، إلى عملاق ضخم واقف في العتبة، كما شجرة يابسة؛ كان شعره ولحيته أيضاً أحمرين من الجذور.

قال هذا، دون أن يبتعد، هو يهوذا. السليم الوحيد، المتين، المقدام، لم يصب بضر! اهتم به، يا معلم، كلمة بلطف ومودة، عاملة برقة، أنظر: جبينه الناصع يدخن غضباً وغلاً.

لنحاول تطويع أسد الصحراء هذا خوفاً من أن يعضنا. ها نحن هنا! رفع صوته: ـ يهوذا، أخي، الزمن نمر ملكي يزدرد الناس؛ يزدرد حتى الآلهة! مع ذلك، لم يمسك أنت، أنت لم تفتر، لم تتكيف. مازلت أرى على صدرك خنجرا لم يلتو وفي عينيك حماس الفتوة المشرئب.

ـ الكره، الغضب، الإله. أهلاً بك وسهلاً!

يا يهوذا، تمتم يوحنا، من كان قابعاً أمام قدمي يسوع، غير معروف، مع لحية ناصعة البياض، وجرحين عميقين في

العنق وعلى الخدين، يهوذا ، ألم تسمع؟ المعلم يحييك، أجبه!

فعلق بطرس: بعناد الرأس وكأنه قطعة واحدة، قال بطرس: راح يعض شفتيه كي لا يتكلم.

ركز يسوع نظرة على رفيقه القديم وكلمة بمودة:

يهوذا ، الطيور تزقزق، تحمل أنباء، مرت فوق سطح بيتي، تركت النبأ يقع في داري، يبدو أنك صعدت الجبال لتشن الحرب على الطاغية اليهودي والطاغية الغريب. ثم نزلت إلى القدس؛ أسرت الخونة الصدوقيين، ولففت شريطاً أحمر حول أعناقهم وذبحتهم كالحملان على مذبح إله إسرائيل. نفسك كبيرة، قاسية ومحبطة. منذ أن افترقنا، يا يهوذا، أخي، لم تذق يوماً هنيئاً. لقد افتقدتك كثيراً؛ فأهلاً بك وسهلاً!

حدق يوحنا بهلع إلى يهوذا الذي مازال يقضم شفتيه لئلا يتكلم. وما انفك البخار يتكاثف ويتحلزن فوق رأسه. تمتم وهو يزحف مبتعداً.

احذر يا معلم، قال بطرس، ينظر إليك من كل الجهات ويبحث كيف ينقض عليك! أنا أكلمك، يا يهوذا، أخي، تابع يسوع، ألا تسمع؟

ـ أنا يسوع، أكلمك، يا أخي يهوذا، ألا تسمع.

ـ أحييك، وأنت لا تضع يدك على صدرك لتقول لي: ألست سعيداً بلقياك؟ الآلام التي سببتها لك القدس إذن أفقدتك رأسك؟ لا تعض شفتيك، أنت رجل مقاوم، كف عن الأنين. لقد

قمت بواجبك بشجاعة. الجراح البليغة بذراعيك، بصدرك، بوجهك، وأمكنة أخرى تشي أنك كنت كأسد. إنما ماذا يفعل الإنسان ضد اللّه؟ أنت قاتلت ضد اللّه لتنقذ القدس. فهي منذ أعوام صارت رماداً في روح اللّه.

تقدم خطوة، تمتم فيليب، خائفاً، أعاد رأسه إلى كتفيه، كثور سيئب.

لتنسحب، هيوا نفترق، يا إخوان، قال ناثانائيل؛ ورفع قبضته.

يا معلم، يا معلم، نادت مرتا ومريم وهما تركضان، انتبه إلى نفسك! لكن يسوع تابع دربه بهدوء؛ مع ذلك، بدأت شفتاه ترتعشان قليلاً:

ـ أنا أيضاً سأناضل ما استطعت، يا أخي يهوذا. لما كنت شاباً: بدأت دربي الطويل لأخلص العالم؛ وفيما بعد، لما نضج وعيي ولجت أنا أيضاً درب الرجال، بدأت أعمل، حرثت الأرض، حفرت الآبار، غرست الكرمة والزيتون؛ أخذت بين يدي جسم امرأة ومعاً أنجبنا رجالاً، قهرت الموت. قلت هذا غير مرة وهذا صحيح، قهرت الموت.

على حين غرة دفع يهوذا بحركة مباغتة بطرس والمرأتين الذين قدموا وقعدوا أمامه، وأرسل زفرة وحشية:

ـ خائن!

كل الناس تضع الرأس بين الكتفين، شحب يسوع ووضع

يده على صدره:

أنا ، أنا ، يا يهوذا؟ تمتم، قلت شيئاً حاسماً قاسياً اسحبه!

خائن! هارب!

صار الشيوخ بيضاً كالغسيل والتفتوا نحو باب الشارع. كان توما قد تخطى العتبة. ووصلت المرأتان:

ـ يا إخوتي، صرخت مرتا ، لا تذهبوا. رفع الشيطان يده على المعلم. وحاول أن يضربه!

ـ بطرس، إلى أين تذهب؟ قالت مرتا وهي تمسك بطرس الذي انزلق نحو الباب ليخرج. أيضاً؟ ستتكره ثانية؟

ـ أنا ، لا دخل لي، قال فيليب؛ يد الاسخريوطي ثقيلة وأنا عجوز، هلموا من هنا ، ناثانائيل!

الآن، كان يهوذا واقفاً أمام يسوع، وجهاً لوجه، جسده يدخن وينشر رائحة العرق، والجروح منتنة.

جبار، زعق ثانية ، هارب! كان مكانك على الصليب. هذا هو المقام الذي أعده لك إله إسرائيل؛ لكن الذعر تولاك لما انتصب الموت أمامك، ففررت تسابق رجلاك الريح. هربت وتخبأت بثوب مرتا ومريم، جبان! بدلت وجهك واسمك، سميت نفسك أليعازر لتنسحب.

يهوذا الأسخريوطي، أهكذا يخاطب المعلم؟ أما عندكم احترام؟

ـ أي معلم؟ زعق يهوذا ماداً القبضة. هذا هو؟ أليس لكم

عيون لتروه! لا عقل لكم لتحاكموه؟ هذا، معلم؟ ماذا قال لنا؟ بم وعدنا؟ أين جيش الملائكة الذي سينزل من السماء ليخلص إسرائيل؟ أين الصليب الذي سيكون لوح القدر لينقلنا إلى السماء؟ ما إن رأى الصليب أمامه، حتى فقد صوابه، فقد وعيه. ووضعت المرأتان الأيدي على رأسه كالأطفال. قاتل كالآخرين، كما يبدو، قاتل بشجاعة وأخذ إلى السطوح. لكن مكانك، أيها الهارب، تعرفه جيداً، كان على الصليب، ويعتني الآخرون بالأرض، والنساء أيضاً؛ واجبك الصعود إلى الصليب، هكذا قلت! تباهيت بقهر الموت؛ اسمع، أهكذا يكون النصر على الموت؟ أنجبت أبناء، ضحايا للموت! ضحية للموت! عملت له لحاماً وجلبت له اللحم ليبتلعه. خائن، هارب، جبان!

أخي يهوذا، تمتم يسوع الذي راح جسمه كله يرتعش، ارحمني أكثر ......

حطمت قلبي يا ابن النجار، جأر يهوذا، مزقت قلبي، كيف تطلب مني الرحمة. أتمنى أن أبدأ النحيب كالنساء، كالأرامل، وأضرب رأسي بالحجارة! ملعون يوم ولادتك، ويوم ولادتي، ويوم صافحتك وملأت قلبي أملاً! لما كنت تمشي أمامنا وتجرنا وراءك، يوم كنت تحدثنا عن الأرض والسماء، أي فرح كان، أي حرية، أي غنى! بدت لنا حبات العنب كأطفال في ربيعهم الثاني عشر، كنا نشبع بحبة قمح. في يوم ما كان عندنا سوى خمس خبزات وقد مناها لرهط غفير من الناس وأكلوا وبقي اثنا

عشر سلاً من الخبز. والنجوم التي تبرق، وتملأ السماء نوراً. لم تكن أنجماً، كانت ملائكة؛ بل لم تكن ملائكة، كنا نحن بالذات، نحن التلامذة، الذين ننام وننهض؛ وكنت أنت في الوسط، ساكناً كنجم القطب، ونحن جميعاً حولك نرقص دائرة! أخذتني بين ذراعيك، تذكر ورجوتني:

"خذني، خذني، لكي أصلب، وأقوم وننقذ العالم!"

سكت يهوذا لحظة، انفتحت جروحه وراحت تنز دماً، التصق الشيوخ ثانية ببعضهم وطأطأوا الرأس، محاولين التذكر والعودة إلى الحياة. نفر الدمع من عيني يهوذا، مسحها بغضب. لم يفرغ قلبه بعد، جعل يصرخ:

"أنا حمل الله، اثغو، سأذبح نفسي لأخلّص العالم ...... أخي يهوذا، لا تخف، الموت هو بوابة الخلود؛ بهذه البوابة يجب أن أعبر، أعنّي! " أنا واثق بك جداً كما قلت وإنك ستخني .... وأنت ...... أنت .... طفر الزبد على شدقيه، أخذ يسوع من كتفه، هزه بعنف والصقه بالجدار: وعاد يزمجر:

ماذا أتيت تفعل هنا؟ لمَ لمْ تصلب؟ جبان، هارب، خائن! أهذا كل ما فعلت؟ ألا تخجل؟ ارفع قبضتي وأسألك: لمَ، لمَ لمْ تصلب؟

اسكت... اسكت! رجاه يسوع. وبدأ الدم يسيل من جراحه الخمسة. تدخل بطرس أيضاً:

يهوذا الاسخريوطي، قال، أنت من دون رحمة؟ ألا ترى قدميه؟ يديه؟ ضع يدك في خاصرته إن كنت لا تصدق، الدم

يراق. برطم يهوذا بهزء، بصق بالأرض وزعق:

أنت، يا ابن النجار، ألا تخاطر ونتبادل الدور! في الليل يأتيك ملاكك الحارس.....

ارتعد يسوع:

ـ ملاكي الحارس؟ ..... تمتم وهو يرتجف.

ـ ملاكك الحارس، الشيطان. وضع هذا العلامات الحمر على يديك، على رجليك وعلى قلبك، لتخدع الآخرين وتخدع نفسك. لم تنظر إلي هكذا؟ لم لا ترد؟ جبان، هارب، خائن!

أغمض يسوع عينيه، كاد يغمى عليه، لكن بعض القوة أبقاه واقفاً:

ـ يا يهوذا، قال بصوت مرتعش، كنت دوماً وحشاً، ولم تقبل أبداً حدود الإنسان. تنسى أن نفس الإنسان سهم، يثب نحو السماء، إلى الأعلى ما استطاع، لكنه يسقط إلى الحياة الأرضية، هذا يعني فقدان الأجنحة.

لدى سماع هذا الكلام، التهب يهوذا غضباً بل كلبية:

ـ هذا مخجل! يا ابن الله، يا مسيح! الحياة الأرضية تعني: كل خبزاً وحول هذا الخبز إلى أجنحة، اشرب الماء وحوله إلى أجنحة، الحياة الأرضية تعني: أن تنبت لك أجنحة. هذا، أنت نفسك من قال لنا هذا، أنت، أيها الخائن، هذا ليس كلامي، إنما كلامك؛ وإن نسيته، أنا أذكرك به!

ـ "أين أنت، يا متّى أيها الناسخ؟ تعال هنا! افتح كتبك.

تحملها أبداً كما احمل أنا خنجري. افتح ما كتبت؛ لقد قضمها الزمن. العث والعرق. على ذلك يمكن تمييز بعض الحروف. افتح صفحة ما، واقرأ، يا متى، لكي يسمع هذا السيد يتذكر: في إحدى الليالي أتانا وجيه كبير من القدس اسمعه نيكوديم Nicodeme بالسر عثر عليه وسأله: ـ من أنت؟ أي عمل تزاول؟ وأنت، يا ابن النجار، أجبته، تذكر: ـ أطرق أجنحة! وما إن قلت هذا حتى أحسسنا أن أجنحة انبعثت على أكتافنا. والآن أين وصلت، أيها الديك المنتوف! تتباكى وتقول لي: الحياة الأرضية، تعني فقدان الأجنحة. اخرج من أمامي، أيها الجبان الرعديد! إن لم يكن برق ورعد، ماذا أفعل في الحياة؟ لا تدنُ مني، يا بطرس، ياذا الوجوه العديدة، أيها المتقلب؛ وأنت يا أندريه يا مدعي الشجاعة، لا تزعق كالنساء. أنا لن أؤذيه. ما جدوى رفع اليد عليه؟ مات، نفق. ومازال واقفاً على رجليه، يتكلم، يبكي، لكنه نفق، ليسامحه الله، الله. لأني أنا لا أقدر. ليسقط على رأسه دم، دموع، ورماد إسرائيل.

لم يستطع الشيوخ الإستمرار بالتماسك، انبطحوا كلهم سوية بالأرض. عادت الذكرى إليهم، بدأوا يستعيدون الحياة، تذكروا مملكة السماوات، العروش، الإشراق وجعلوا فجأة يهدرون. كانوا ينوحون ويضربون الجباه بالحجارة.

وعلى حين غرة انخرط يسوع بالندب والنواح وأراد أن ينطرح بين ذراعي يهوذا وهو يصرخ:

ـ أخي يهوذا ، اعذرني!

لكن الآخر جفل بل انتفض، مد يديه إلى أمام ومنعه من الاقتراب:

لا تمسني، صرخ. لم أعد أؤمن أو أصدق شيئاً ، أو أصدق أحداً ، لقد فطرت قلبي!

ترنح يسوع؛ بحث عن أمر حوله ، عن مكان يتكوم فيه ، سقطت المرأتان على وجوههما ، وراحتا تنتفان شعرهما وتندبان. رفع التلاميذ العيون وتأملوه بحقد وغضب. والزنجي توارى.

أنا خائن، تمتم، هارب.. جبان. الآن أحس، إني ضعت! نعم، نعم، يجب أن أصلب، فقدت الشجاعة ، ذهبت ...... يا إخوة ، اعذروني، لقد خدعتكم ..... آه! لم أستطع أن أبدأ ثانية.

وهو يتكلم، انهار على الأرض. وراح يضرب رأسه بالحصى والحجارة الموجودة في الباحة.

رفاقي، أصدقائي القدماء ، قولوا لي كلمة طيبة ، سروا عني، أنا مضلل، أنا ضائع! أمد ذراعي، ألا أحد منكم ينهض ليضع يده بيدي ويقول لي كلمة طيبة؟ لا أحد؟ لا أحد؟ حتى أنت يا حنا الحبيب؟ ولا أنت يا بطرس؟

ــ كيف تريد أن أكلمك؟ أن أقول لك؟ زأر التلميذ الحبيب. ما القدر الذي أوقعناك فيه ، يا ابن مريم؟

ـ لقد خدعتنا ، قال بطرس بدوره ، وهو يجفف دموعه؛ لقد خدعتنا ، يهوذا على حق، لقد حَنثت بيمينك. لقد بددنا حياتنا.

فجـأة، مـن كومـة الـشيوخ، سمعـت حركـة مـضطربة ومتباكية.

ـ جبان... هارب... خائن!

ـ جبان... فار... خائن!

وبدوره بدأ متّى يجأر:

أتعـابي ذهبـت سـدى، سـدى، سـدى! بـأي مهـارة رتبـت كلامك وأعمالك مع النبوءات! كان الأمر صعباً جداً، لكني بددت هذه الصعوبة وكل عقبة. قلت: في المعابد المقبلة، سيفتح المؤمنون المؤلفات الضخمة المجلدة بالذهب ويقرؤون:

"حسب إنجيل متّى!" هذا يعطيني أجنحة واكتب. الآن كل هـذه الأعمـال الهامـة ستـضيع هبـاء وهـذه خطيئتـه، الجحـود، الخائن! يجب، حتى إذا كان الأمر لإرضائي فقط، صيانة هذه الكتابات، وأن يصلب!

ومن جديد وصلت حركة مضطربة ومتباكية، من جهة كوم العجزة:

ـ جبان... هارب... خائن!

ـ جبان... فار... خائن!

بهذه اللحظة خطى توما خطوة خارج الباب:

لن أتركك، أنا، يا معلم، بينما يهجرك الجميع ويدعونك خائنـاً. لـن أتركـك أبـداً، أنـا تومـا، الـنبي. قلـت هـذا، الـدولاب يدور. أبقى إلى جانبك، بانتظار دوران الدولاب.

نهض بطرس:

ـــ هلمـوا، يـا إخـوان، قـال، كـن في الطليعـة يـا يهـوذا وأرشدنا!

نهض العجـزة لاهـثين ومـدوا القبـضات نحـو اليـسوع الـذي، سقط بالأرض على وجهه، مبسوط اليدين، مالئاً كل الدار.

ـ جبان... هارب... خائن!

ـ جبان... هارب... خائن!

نادوه الواحد تلو الآخر:

جبان... هارب... خائن! وتواروا.

تأمل يسوع بعينيـه في كـل منحنـى بغصة. لقـد بقـي وحـده. حتـى الباحـة تـوارت، والبيـت، والأشـجار وأبـواب الـضيعة، والضيعة، فقط بقيت عند قدميه، الحجارة المدماة. حجارة وفي المدى، في الأسفل، في الظلمة، جمهرة بألوف الرؤوس.

جمع كل قواه ليرى أين كـان، مـن كـان، لم يتـألم. أراد أن ينهـي نـداءه، صـرخ لامـا سـاباكثاني Lama Sabacthani ..... حـاول أن يحـرك شـفتيه، لكنـه لم يقـدر. ارتجـف، سـيغيب عن الوعي. أظلمت روحه حتى العمق وغاب.....

إنما على حين غرة، بينمـا كـان يهلك ويغيـب عـن الـوعي، رآه أحـد المـارين في المـنخفض وأشـفق عليـه، مـد لـه قـصبة واسـفنجة، مـشبعة بالخـل، واسـتند علـى شـفتيه وأنفـه، رشـف بعمق الرائحة الحادة، عاد إلى رشده، نفخ صدره، تأمل السماء

وأطلق صرخة ممزقة: لاما ساباكثاني.

وحنى رأسه، متهالكاً.

عانى آلاماً مبرحة بيديه، برجليه وقلبه. رأت عيناه النور، شاهد إكليل الشوك، الدم والصليب. في الشمس الحائلة نحو المبيت لمع قرطان ذهبيان وصفان من الأسنان الحادة والبيضاء؛ رنت ضحكة خفية ساخرة، اختفى القرطان والأسنان. بقي يسوع معلقاً في الهواء، وحده.

هز رأسه بغتة تذكر أين هو، من هو ولماذا يتألم. تولاه فرح وحشي لا يكبح.

لا، لا، ما كان جباناً، هارباً وخائناً. لا، كان مسمّراً على الصليب، كان مشروعاً بمعنى الكلمة الواسع، بدأ يتكلم، وهو نادى إيلي إيلي Eli Eli وهو غير واع، تولاه الإغواء وجعل يتيه. كذب هو الفرح، الزواج، الأبناء؛ كاذبون الشيخ وساقطون الذين عاملوه كجبان هارب وخائن. كل هذا، كل هذا ليس سوى رؤى أثارها الشيطان!

تلاميذه يحيون ويزدهرون، أخذوا درب الأرض والبحر وراحوا يكرزون بالنبأ الطيب. كل شيء كان كما يجب، ليكن الله ممجداً وماجداً! أرسل هذه الصرخة الظافرة: كل شيء تم!

وكأنه يقول: كل شيء يبدأ.

تمـــــت